

منير الرسيس

الكتاب الذهبي

للثورات الوطنية في المشرق العربي
الثورة السورية الكبرى



دار الطليقة - بيروت

الكتاب الذهبي

للثورات الوطنية في المشرق العربي
الثورة السورية الكبرى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
آب - أغسطس ١٩٦٩

منير الرسيس

الكتاب الذهبي

للثوراتِ الوطنيّةِ في المشرقِ العربي
الثورة السوريّة الكبرى

دارُ الطليعة للطباعة والنشر
بيروت



منير الرئيس صاحب المذكرات

الاهداء

إلى أرواح رفاق السلاح الذين تساقطوا في ساحات
الشرف شهداء ، وضربوا في الثورات التي خضت معاركها
معهم أروع الأمثلة على البطولة والفداء ، أهدي هذا الكتاب .

منير الرئيس

كتاب جديد

بقلم الكاتب العربي الأستاذ نزيه الحكيم

احتفل الوطن العربي يوم ٦ مايو من هذا العام ، بمرور نصف قرن على ذكرى أولى قوافل الشهداء العرب ، تلك القافلة التي أعدمها جمال باشا السفاح عام ١٩١٦ في دمشق وببيروت بجريرة « التمرد على الدولة العثمانية » ، فكانت طليعة سلسلة لا تنتهي من الثورات ما يزال يتمخض عنها الوطن العربي حتى يستكمل السيادة على ترابه والحياة الحرة لمواطنيه .

وهذا ، بالطبع ، لا يعني أن تلك كانت أولى الثورات العربية ، فقد سبقتها ثورات عديدة شهدتها القرن الماضي في كل بقعة من افريقيا العربية . ولكن ما تستحقه من تكريم خاص في ذكرائها المحسن إنما يصدر عن أنها - في هذه السلسلة الطويلة - كانت طليعة ثوراتنا ذات الطابع القومي ، المستندة على وعي بوحدة الوطن . والاستعمار لا ينهزم حقاً إلا بضرب ما اصطنعه من تجزئة .

من أجل هذا ، ربما كان أفضل ما نستطيع الإسهام به في هذه الذكرى هو

أن أحدث القارئ عن كتاب في طريقه إلى النشر ، هو مجموعة مذكرات ثائر من سورية تفتّح وعيّه الفتي على تلك الحادثة التاريخية ، ثم اشترك بعدها لا في الثورة السورية الكبرى فحسب ، بل أيضاً في ثورات فلسطين والعراق وفي كل « الثورات اليومية » التي يتألف منها العمل العام في بلادٍ حديثة العهد بالاستقلال . ولقد كان هذا الكتاب ضرورياً جداً في هذه المرحلة ، لأننا نشهد الآن - ولا سيما في بيروت - موجةً من كتب المذكرات عن نصف القرن الماضي فيها الكثير من أنصاف الحقائق وأرباعها ، تبريراً وتزييفاً وادعاءات نضال ، يأتي هذا الكتاب بموضوعيته المطلقة تصحيحاً لها غير مباشر ، ووثيقة تستحق أن تعتمد في أية محاولة لكتابة تاريخنا المعاصر .

أما صاحب هذه المذكرات فهو الأستاذ منير الرئيس : رجل قضى ثلث القرن الأخير في الصحافة المناضلة ، فأغلقت صحيفته عشرات المرات ، وعرف السجون والمنافي دفاعاً عن مثله الأعلى وعناداً في تأييد الحق ، ولكنه قبل ذلك وخلال وزّع حياته بين شعاب الثورة المسلحة ومفازاتها ، وبين أحكام الإعدام والمعتقلات الأبدية التي هي نصيب الثائرين . ولست أنسى حواراً شهدته مرة بينه وبين وزير الداخلية في إحدى حكوماتنا الانفصالية : كان الوزير يهدده بإرساله إلى سجن (المزة) المشهور من أجل نشره في جريدته عن مظاهرة وحدوية هتفت فيها الجماهير لعبد الناصر ، فضحك منير الرئيس وقال له : من الأفضل أن تبحث عن تهديد آخر ، لأنه ما من « زنزانة » في كل سجون سورية ولبنان إلا زرتها أيام الفرنسيين ...

ولقد كان هذا حقاً بالفعل ، لأن سورية لم تعرف أيام الانتداب الفرنسي إلا الثورات ، ولم يبقَ فيها بيت إلا قدّم نصيبه من واجب الثورة قتلاً بالرصاص أو سجنًا أو حريقاً ، حتى قال الجنرال « فيغان » في « الكتاب الذهبي لجيوش المشرق » أن عهده فيها - يوم كان مفوضاً سامياً في سورية ولبنان - شهد أكثر من ٣٠٠ ثورة مسلحة بين محلية وكبرى !

ولقد وضع المؤلف لمذكراته عنوان « طريق الحرية » . ولو كان الأمر بيدي لاقتُرحت أن يسميه : « الكتاب الذهبي للثورات العربية » ، رداً على ذلك الكتاب الاستعماري .

ذلك لأن القارئ ينتهي من هذا الكتاب وفي ذهنه صورة أساسية ، هي أن الثورة العربية كانت وما تزال كُلاً متصلاً متكاملَ الحلقات ، وكانت وما تزال على مدى الاقطار العربية ثورة واحدة ، وإن هذه الثورة القومية قطعت من حياتها نصف قرن والشمالُ فيها يلتقي بالجنوب ، والمشرق يلتقي بالمغرب ، ومصرُ العربية فيها - منذ البداية - نواة للجمهورية العربية المتحدة .

ولعلَّ القارئ لم يكن يعلم قبل هذا الكتاب - مثلاً - أن « الضباط الأحرار » في مصر كانوا يريدون عام ١٩٤١ (قبل ١١ عاماً من ثورتهم في القاهرة) أن يلتحقوا بثورة العراق ضد البريطانيين ، وأن جمال عبد الناصر أرسل باسمهم كتاباً إلى الدكتور محمد حسن سلمان ، وزير المعارف إذ ذاك في حكومة رشيد عالي الكيلاني ، يطلب منه أن يهديهم إلى الطريقة التي يستطيعون بها الالتحاق بالجيش العراقي الثائر ، تدفعهم إلى ذلك عروبتهم على رغم ما يعرفونه من أنها كانت حرباً غير متكافئة . وهم بالفعل قد عجزوا عن تحقيق رغبتهم هذه لأن البريطانيين لم يلبثوا في الأسبوع نفسه أن ضربوا الثورة ، وأعادوا الأمير عبد الإله وصياً على عرش العراق ، فضرب كل العناصر القومية ، ثم علق أمام قصره مشانق الأعداء لقادة هذه الثورة ، يونس السبعائي ، ومحمود سلمان ، وفهمي السعيد ، في يومٍ أسود كان ٤ مايو من هذا العام - موعد ذكرى الخامسة والعشرين ، وكان يوم ١٤ يولييه ١٩٥٨ يوم ثار العراق منه .

فإذا أضفنا إلى هذا ما هو معروفٌ من أن عبد الناصر ورفاقه حاولوا عام ١٩٤٧ أن يلتحقوا بقوى « جيش الانقاذ » السوري لمقاتلة اليهود في فلسطين ، فلم يمنعهم من ذلك إلا انحراف الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ، أدركنا لماذا

كانت ثورة ٢٣ يوليه ذروة التفتح القومي في الثورة العربية .

والكتاب الذي بين أيدينا يتناول تاريخ ستين عاماً تقريباً من حياة المشرق العربي ، من خلال الذكريات الشخصية لمؤلفه ، ولذلك كان كتاباً ضخماً - في ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير على الأقل - وسيظل ضخماً حتى إذا لم يكن الآن نشر القسم الأخير منه (لأنه يتناول مرحلة لما تلتئم جراحها بعد) .

على ان الطابع الشخصي لهذه المذكرات ليس أكثر من وسيلة للربط بين مختلف جوانب صور المرحلة وأحداثها ، تتيح للقارئ أن يصل من جزئياتها الى تركيب شامل ، وتتيح له موضوعيتها الصارخة أن يفهم الكثير من أسباب الضعف وعوامل الانتكاس ، سواء خلال النضال الثوري نفسه أو بعد الاستقلال .

فتأريخه لثورة ١٩٢٥ في سورية - مثلاً - ليس مجرد حلقات متتابعة من المعارك التي اشترك فيها المؤلف في جبل الدروز وغوطة دمشق وضواحي حمص وشمال لبنان ، بل هو ايضاً صورة للمجتمع السوري في المدينة والريف والبادية ، ولتلاقي المصالح في كل مرة بين الاقطاعي والمستعمر ، ولأستغلال البورجوازية في استغلال دماء البُسْطاء ، ومناورات المتزعمين لاجتناب الأخطار واحتكار المكاسب ، ولدور التعليم الاستعماري والتبشيري في إضعاف الولاء القومي ، ولأساليب الحكم - استعماريًا و « وطنياً » - في تعميق التفرقة الطائفية . وهو أيضاً في الوقت نفسه - ومعه تاريخ ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، وثورة العراق عام ١٩٤١ - حلقات متكاملة من الدروس في « حرب الأنصار » وشروط نجاحها ومرتكزاتها الجغرافية والشعبية ، وهي دروس دفع العرب حتى الآن ثناً باهظاً لعدم وعيهم لها والاستعداد لها بالتنظيم والتعبئة ودقة اختيار القيادات قبل امتشاق السلاح الثوري .

يضاف الى هذا أن الكتاب يتحدث - ربما لأول مرة - عن حياة عددٍ ضخم

من المناضلين العرب اضطرهم الاستعمار وعملاؤه أن يلجأوا الى أوروبا المحتلة خلال الحرب العالمية الثانية ، فكان منقاهم الاضطرابي هذا ميداناً لتكشّف ما في نفوس بعضهم من انتهازية ، وترك في الوقت نفسه فراغاً كبيراً في داخل الوطن ذاته ملأه الانتهازيون واحتلّوا فيه السلطة التي كانت للمستعمر ، ثم تركوا المنفيين في منافيهم وتركوا في السجون نفس أولئك الذين سجنهم المستعمر عقاباً على نضالهم ضده ، واحتفظوا في مناصب الدولة العليا بنفس أولئك الذين كانوا فيها اعاوناً للمستعمر وعبيداً له .

وأنا أكتفي بهذه العموميات لاستحالة الإحاطة - في كلمة صغيرة - بتفاصيل الصورة التي تقدمها لنا مذكرات منير الرئيس . ولكنني حريصٌ هنا على أن أتابع جوانب أخرى من الفكرة الأساسية التي عرضت لها في البداية ، فكرة وحدة الثورة العربية ، مكانياً وزمنياً معا .

ان السمة الأولية لهذه الثورة - منذ يوم ٦ مايو ١٩١٦ - أنها قومية لا اقليمية ولا قطرية . وإذا كان الناس يتحدثون اليوم عن « تشي غيفارا » كبطل ثوري من نوع جديد ، هو في أمريكا اللاتينية تعبّر عن وحدة الثورة على الفقر والتبعية ، فالكتاب الذهبي يقدم لنا أكثر من « غيفارا » واحد في تاريخ ثورات المشرق العربي . والقارىء ينتقل من سورية الى فلسطين ثم الى العراق فيجد أمامه - من القائد فوزي القاوقجي مثلاً الى المؤلف نفسه - أسماء كثيرة تتكرر هي نفسها في الثورات الثلاث ، ما يكاد ينتهي اصحابها من معركة هنا حتى ينتقلوا بنفس اليُسّر الى معركة أخرى يدعو اليها الواجب نفسه هناك ، وقد ازدادوا خبرةً بالنضال وبشروط نجاحه . بل إنه ليجد هنا وهناك نفس الأسماء الانتهازية التي تُكلف نفسها دائماً بمهمة جمع المال للثورة ، وشراء الأسلحة للثوار ، فاذا أصحاب هذه الأسماء هم لصوص الثورة وأدعياء زعامتها الذين لا يهمهم أن يقلدوا « فاروق » ، فيقدموا لها الأسلحة الفاسدة ، وهو يجد هذه

الانتهازية نفسها في مراحل المساومة مع الاستعمار والحصول على الاستقلال الشكلي : ففي نفس الوقت الذي كان بعض الزعماء في مصر يسمي معاهدة ١٩٣٦ « معاهدة الشرف والكرامة » ، كان بعضهم في دمشق يسمي معاهدة ١٩٣٦ مع فرنسا « معجزة القرن العشرين » .

وهذا الازدواج في النضج - نضج الثورة القومية ونضج الانتهازية المضادة لها - نجده أيضاً في صور التنظيم السياسي والمواقف السياسية . فلئن اشتهرت الأحزاب السياسية المحلية التي وصلت إلى السلطة على حساب دماء الآخرين ، وأصبحت أحزاباً بعد تسلم السلطة في الغالب ، فإن هناك حدثاً هاماً لا يعرفه إلا القليلون : هو أن تنظيماً سياسياً سرّياً نشأ لأول مرة في العالم العربي عام ١٩٣٤ على أساس الوحدة العربية واستهداف الحركة العربية الواحدة ، يدعى « الحزب القومي العربي » . كانت مهمة هذا الحزب السري أن يخطط دائماً على أساس وحدة الحركة العربية ، وكانت له إلى جانب هذه « الاستراتيجية » العامة سياسات « تكتيكية » موقّعة ، كثيراً ما نجح في تنفيذها ولو جزئياً ، لأن أعضاءه القياديين كانوا في نفس الوقت أعضاء في الأحزاب العلنية في مختلف الأقطار ، حتى أن واحداً منهم كان - بتكليف من الحزب السري - عضواً قيادياً في الحزب السوري القومي ، الذي أنشأه الإيطاليون تمهيداً لتحقيق حلم موسوليني بجعل البحر الأبيض المتوسط « بحيرة رومانية » . ثم جاء الجانب الانتهازي لهذه « الحركة العربية الواحدة » حين اجتمع بضعة انتهازيين في حلب عام ١٩٤١ فسرّقوا شعاراتها وأعلنوا إنشاء « الحزب القومي » ثم ذهبوا يفاوضون ألمانيا النازية باسم الشعوب العربية .

ولئن كانت « الثورة العربية الكبرى » عام ١٩١٦ ثورة عربية شعبية حقة ، وكان الجانب الانتهازي منها أن « الشريف حسين » ساوم الانكليز على ثراتها ليضمن لنفسه مملكة ، بذريعة أنه حفيد الرسول وصاحب الحق الشرعي في

الخلافة ، فقد بلغ استغلال هذا النسب أقصى ذروته على يدي الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ، الذي ذهب بعد ربع قرن - وبوصفه أيضاً حفيد الرسول - يساوم الألمان والطلليان على عرش سورية الطبيعية (بما فيها لبنان والاردن وفلسطين) ، فلم يفز منهم بأكثر من تصريح سري وقعه « شيانو » و « ريبنتروب » ، كان بيان « مكماهون » أفضل منه ألف مرة ، لأن كل ما فيه كان إشارة الى « عطف دول المحور على أماني الأمة العربية » ، دون أي تعريف لأرض هذه الامة ، ولا تحديد لتلك الأماني ، ولا تفسير لذلك العطف ، الذي كانت أطماع هتلر وموسوليني أفصح تكذيب له .

وهذه المناسبة تجرّنا الى الحديث عن فصل طريف من فصول هذه المذكرات ، فلقَدْ كان اسم « يونس بحري » في أذهان الناس ، أيام الحرب ، رمزاً للحملة الصارخة من زاديو برلين على الاستعمار البريطاني وعملائه في الوطن العربي ، وللحديث المستمر عن ذلك « العطف » النازي الفاشيستي على الأماني العربية . ولكن منير الريس ، في حديثه عن الأيام السبعين التي قضاها في سجن تونس ، يروي لنا كيف اكتشف أن يونس بحري لم يكن طوال الوقت إلا جاسوساً بريطانياً على الألمان ، تتألف « شيفرة » رسائله الى مصلحة الاستخبارات البريطانية من أوائل كلمات الخطب التي كان يلقيها من اذاعة برلين ، وكيف أن البريطانيين هم الذين أنقذوه من الاعتقال والإعدام ، وبرغم ارادة الفرنسيين ...

وكذلك تجرّنا الى فصل طريف آخر ، هو ذلك الذي يصف لنا فيه المؤلف كيف كان « حفيد الرسول » الحاج أمين الحسيني ، يستعيز عن الزعامة التي لم يستطع بلوغها في وطنه بزعامة كاذبة في الخارج ، فيقنع الألمان بإنشاء فرقتين من مسلمي يوغوسلافيا ليحاربوا بهما ثورة « تيتو » ، ليستطيع هو أن يستعرض الفرقتين ويضع يده على ما أمكن من ثقاتها ، مما أدى الى خلاف طائفي واقليمي في يوغوسلافيا استمرت عقابيله حقبة طويلة .

وتهدأ الثورة ، أو تتوقف الحرب ، فيعود منير الرئيس الى ميدان فضاله الآخر : في الصحافة ، حيث يستطيع بقلمه أن يؤكد مرة أخرى وحدة المصير العربي وألوية هذه الوحدة .

ولئن كانت انتهازية الحكام في سورية وغيرها قد سرت عدواها بصورة طبيعية الى الصحافة ، وجعلت بعض أصحابها أدوات طيعة للسلطة وللطامعين بالسلطة ، حتى كان يقال عن بعضها ان كل عمود منها مأجور لدولة ، وحتى أصبحت تنقلب تأييداً ومعارضة مع كل انقلاب جديد ، فقد كانت صحافة سورية أيام الفرنسيين مفخرة من مفاخر النضال الثوري ، وطليلة قيادية أقوى في سلطانها في القيادات الحزبية . ومنير الرئيس واحد من صحافيي تلك المرحلة المشرفة ، وهو دون ريب واحداً من القلائل الذين حافظوا بعد الاستقلال على ثورتهم الصادقة قبله . ولذلك تراه ، حتى حين يخطيء ، يلاً صفحات مذكراته بالنقد الذاتي لنفسه ، وتراه يحكم على كل الناس بما لهم وبما عليهم ، وترى حديثه عن زعماء عهد الاستقلال - حكّاماً ومعارضين - صريحاً غاية الصراحة ، ينتقد الاقطاع الذي أيدوه ، والرشوة التي فرضوها على الناس جنباً الى جنب مع الارهاب ، وشركات الأنصار والمحاسيب ، والمناصب المطروحة بالمزاوَدات ، والتسلط الرأسمالي الذي انطلق ذات يوم من صفقة طائرات أهديت الى بريطانيا « عرفاناً بحميلها » . ثم تقرأ في هذه المذكرات أسرار كل المناورات السياسية وكل صفقات الرشوة الخارجية وكل الانقلابات التي حاولت أن تقيم في سورية عرشاً لعبد الله أو عبداً للإله ، ثم حاولت أن تفرض عليها حكم النار والحديد لتقتل فيها التطلّع القومي وتمنعها من استئثاف عملها للوحدة ، في إرهابٍ شمل كل المواطنين ، حتى لتضحك أو تبكي وأنت تقرأ أن واحداً من رؤساء الجمهورية يضطر الى إسكات محدثيه إذا دخل عليه خادمه يحمل لهم القهوة ، فيقول لهم في زعر : « هس ! مكتب ثان !... » .

على أنك برغم ذلك كله لا بد لك أن تخرج من قراءة هذا الكتاب بمثل ما

خرجت به أنا ، مؤمناً بأن « شعب الـ ٣٠٠ ثورة » ما يزال هو نفسه الشعب العربي المؤمن ، الذي لا يحلم بالثورة إلا عربية وقومية . « ان الوحدة هي إرادة الأمة العربية ومصيرها المحتوم ، آتية "ساعتها لا ريب فيها ، ولن تستطيع قوة معها ساندتها الاستعمار أن تقف في وجهها ، وليس على المؤمنين بحق أمتهم إلا أن ينظموا صفوفهم ويوحدوا كلمتهم تحت رايتها » .

« نزيه الحكيم »

القاهرة ١٩٦٧/٦/٥

المقدمة

شغلني شواغل الحياة طويلاً عن كتابة هذه المذكرات ، مع احتفاظي بمراجعها ومستنداتها . و كنت أمني النفس بأن تتبنى الحكومة السورية في عهد الاستقلال ، أو تتبنى جامعة الدول العربية يوماً تأريخ الكفاح العربي ، والثورات العربية المسلحة منذ فجر النهضة ، فأدلي بدلوي بين الذين عاشوا الأحداث العربية ، أو خاضوا المعارك في القرن العشرين ليكون ، للأجيال الصاعدة مرجع يرجعون إليه في معرفة ما قدم آباؤهم وأجدادهم من تضحيات ، أو ما بذلوا وأعطوا في سبيل الحرية التي تنعم بها بلادهم ، والاستقلال الذي تتفياً اليوم ظلالة . ولكن انتظاري طال ، وتقدمت بي السنون ، ورأيت بقايا السيوف من إخواني ، تطويهم يد القدر ، وتتخاطفهم واحداً بعد الآخر ، دون أن يسجلوا الوقائع التي شهدوها ، والأحداث التي عاشوها ، بل رأيت ما هو أدهى وأعظم خطباً ، فقد أقدم أحد تجار طباعة الكتب ، وجني الربح من ورائها ، على تأليف وطبع كتاب عن الثورات السورية في عهد الاستعمار الفرنسي ، دون ان تكون له فيها ناقة أو جمل ، واعتمد في تسجيل أحداثها على ما يتناقله الناس عنها في المجالس ، أو على كتيبات ومذكرات طبعت من قبل ، لم يعيش مؤلفوها أو واضعوها أحداث تلك الثورات بأنفسهم ، أو لم يكونوا أهلاً لتدوينها وتمحيصها ، ثم أضاف إليها بعامل الربح أقوال بعض الأحياء من المجاهدين عن المعارك التي

خاضوها في الثورة السورية الكبرى التي نشبت في صيف عام ١٩٢٥ ، وعن دورهم فيها ، ودونها ، في كتابه ، كما هي ، إلى جانب صورهم الشمسية ، دون تدقيق أو تمحيص ، وذلك لقاء ثمن نسخة من الكتاب أداه كل واحد منهم سلفاً ، وقبل الطبع ، وأكثر هؤلاء من العامة والأميين ، ادعوا فيما كتبوه عن أنفسهم ، من البطولات ما كان بعضه ، وما لم يكن ، وبالغوا في الدعوى ، وأسرفوا في الأرقام ، فأصبح الكتاب يحملته تاريخاً مشوهاً للثورات السورية ، مشوباً بالأضاليل والمبالغات ، بل ان فيه أسماء لعملاء كانوا حملوا السلاح ، وحاربوا الثورة في صفوف الفرنسيين ، وضعوا في هذا الكتاب بأنهم من المجاهدين الأبرار ، وقيل فيهم إنهم من قادة الثورة وزعمائها . كذلك قيل في حاكم عميل نصبه الفرنسيون حاكماً لدولة حلب انه ممن عملوا سراً في الاعداد لثورة الشمال ، وانه ساعد سراً في دعم ثورة الزعيم الراحل ابراهيم هنانو ، لا لسبب ، إلا لأن نسيباً لهذا الحاكم غداً ، بعد أربعين عاماً من ثورة الشمال ، رئيساً للجمهورية السورية ، شمل في دمشق تاجر طباعة الكتب بعطفه وتفوقه وجدواه ، فخص المؤلف نسيبه أو عمه حاكم دولة حلب بما ليس فيه ترفاً واستغلاً . كذلك لم أجد في جميع ما كتب إلى اليوم عن الثورة السورية الكبرى في عام ١٩٢٥ ، ما يستحق بأن يكون مصدراً صادقاً للمؤرخين ، ورأيت النشء الذي وعى الجلاء ، وعاش عهد الاستقلال في سورية ، ومن جاء بعده يجهل تاريخ النضال الوطني ، ويحسب أكثره إنه منحة من الاجانب . وتاريخ نضال سورية في سبيل الاستقلال ضار وضخم ، من العار ألا تسجل وقائعه بدقة ، وتبقى مدونة للأجيال ، فقد كتب الرئيس جواهر لال نهرو زعيم الهند في رسائله من السجن إلى ابنته أنديرا صفحات مشرقة عن كفاح الشعب السوري الصغير ، وثوراته المسلحة على الفرنسيين المستعمرين ، يوم كانوا أقوى دولة في أوروبا حتى ان السيد شكري القوتلي أول رئيس للجمهورية في عهد الاستقلال ، سمع في رحلته إلى الهند من رئيس جمهورية إحدى المقاطعات ، وهو يرحب به كضيف بلاده - سمع منه ، وهو يشيد بكفاح سورية وثوراتها المسلحة حتى أجلت الاستعمار عن أرضها ، وحقت استقلالها

قبل أمم كبرى كالهند - سمعه يطنب بنضال شعبها الصغير الذي يعد أربعين مليون نسمة فقط ، فقال له القوتلي : « ان شعب سورية الذي ذكرت لا يعدو الاربعة ملايين نسمة ! » . وفعلآ ان شرادم وعصابات خرجت من صفوف هذا الشعب الحي الصغير ، نازلت الجيوش الفرنسية المنتصرة في الحرب العالمية الاولى ، في معارك عديدة ، واستطاعت ، في إحداها ، أن تسحق جيش الجنرال « ميشو » بأكمله ، واستطاعت في بعضها ان تسحق حملات بكاملها ، وان تكبد الفرنسيين المليارات من المال ، وعشرات الوف القتلى ، حتى اعترف الجنرال « فيغان » الذي قلد ، بعد الجنرال « غورو » ، منصب المفوض السامي في سورية ولبنان - اعترف في مذكراته بأن عدد الثورات المسلحة التي نشبت في عهده - وعهده على ما أذكر دام نيفاً وسنتين - بلغ أكثر من ثلاث مئة ثورة مسلحة بين محلية وكبرى .

وإذا كنت في مذكراتي هذه لا استطيع أن أحيط بكل الثورات السورية التي نشبت ، ولا بجميع نضال الشعب السوري ، فلا أقل من أن أسجل المعارك التي خضتها ، والاحداث التي عشتها ، معترفاً بأن في مذكراتي هذه وقائع لا تروق أناساً اشتركوا في الثورة ، لأنها تمسهم ، وتمس أفعالاً صدرت عنهم ، فهؤلاء الذين أساءوا الى الثورة ، رأيت من واجبي ان اكشفهم ، لانهم عاشوا ، بعد الثورة ، أدعياء بطولات لم يأتوها ، ولم يجابههم بكذب دعواهم أحد ، وذلك بسبب وضعهم الاجتماعي وأسرهم ، أو بحكم المناصب السامية التي تولوها ، أو بحكم الأحزاب السياسية التي انخرطوا في صفوفها . وسيسلقني هؤلاء ، وذووهم باللسنة حداد ، ولكني عشت اربعين عاماً من عمري ، أعمل في الصحافة العربية ، أحارب الاستعمار ، وأحارب معه عملاءه وادعياء الوطنية والقومية ، اذكركم بأسمائهم ، واجابههم بأعمالهم ، ولن يضيرني أن يضاف هؤلاء إلى أولئك ، مهما زاد عددهم ، ولي بوعي الشعب العربي ثقة بأنه يميز بين الحق والباطل ، ويفرق بين الغث والسمين ، ويعرف الخبيث من الطيب .

على انني لم اقتصر في هذه المذكرات على وقائع الثورة السورية الكبرى ،

وثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، وثورة العراق عام ١٩٤١ ، بعد ان كتب لي شرف
المساهمة فيها ، بل قدمت لها نبذة من تاريخ حياتي ، والأحداث التي رافقت
نشأتي ، ثم اضفت اليها الحياة السياسية بين الثورات الثلاث ، وبعدها ، وخاصة
منها ما كان لي به صلة مباشرة ، بحكم عملي في الصحافة ، فجاءت هذه المذكرات
تؤرخ احداثاً تتابعت على الوطن العربي ، في مدى ستين عاما ، وإن كان أكثرها
يخصّ الشرق العربي ، لان الثورات الثلاث كانت سورية ، ولبنان ، وفلسطين ،
والعراق ساحاتها ، فمن الطبيعي ان تكون أكثر الحياة السياسية العربية تخص
هذه الاقاليم من الوطن العربي .

بعد هذا ، من الله استمد العون والتوفيق والسداد .

منير الرئيس

صاحب جريدة « بردى » في دمشق

الفصل الأول

- ١ -

مع فجر النهضة العربية

اتفقت كلمة أكثر الكتاب والمؤرخين المعاصرين الذين كتبوا ودوتوا وقائع التاريخ العربي الحديث ، على أن مطلع القرن العشرين كان فجر اليقظة القومية الحقة في البلاد العربية التي كانت يومئذ جزءاً من الدولة العثمانية . هذا مع التسليم بأن تباشير ذلك الفجر بدت في أواخر القرن التاسع عشر . وإذا لم يكتب لي شرف المساهمة في هذه اليقظة منذ سنيها الأولى ، فقد خط لي في لوح القدر أن ترى عيناى النور ، لأول مرة ، في مدينة حماة من بلاد الشام ، وأن أولد في الساعه الثالثة غروبية قبيل ظهر يوم الجمعة من الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣١٩ هجرية ، وفق الخامس عشر من شهر حزيران عام ١٣١٧ مالية ، أي في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٠١ ميلادية . وحماة يومئذ مركز لواء (متصرفية) من ولاية الشام التي مركزها دمشق ، إحدى ولايات الدولة العثمانية التي عاصمتها « الآستانة » أو « فروق » كما يسميها العرب ، واستانبول كما

يسمىها الأتراك ، والقسطنطينية كما يسميها الغرب . وهكذا يكون مولدي في السنة الأولى من القرن العشرين الذي اعتبرنا مطلع فجر النهضة واليقظة للأمة العربية ، وكتب لي ان أنمو وأترعرع وأشب في غمرة الأحداث العربية والعالمية ، فلا عجب إذن ، وانا طفل ، أبدأ أعي ما حولي ، ووالدي عبد الرحيم بن محمد الرئيس موظف مالي في دوائر حكومة حماة ، ان يزدان صدر غرفة الضيوف في دارنا الكائنة في حارة التل — تل صفرون — من حي الدباغة ، بصورة كبيرة للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، وان تحدثني والدتي صديقة الرئيس ، وهي ابنة عم والدي ، باحترام ورهبة عن ذلك السلطان الذي يلقبونه بخاقان البرين ، وملك البحرين ، وحامي الحرمين الشريفين ، خليفة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، حتى إذا ما أعلن الدستور العثماني في الرابع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٠٨ ميلادية ، وتم خلع السلطان عبد الحميد في شهر نيسان من عام ١٩٠٩ ، وعمت الفرحة بإعلان الحرية والعدالة والمساواة والأخوة ، وزوال حكم الفرد ، كل دار ، وكل بلد في المملكة العثمانية ، لاحظت ان أمي كانت حزينة ، لا تكتم أمام من تثق بهم من الأهل والأقارب والأصدقاء أسفها الشديد لخلع السلطان ، مطرية عهده بأنه عهد استقرار وخير وبركة ، مبدية عدم ثقتها بالسلطان محمد رشاد الخامس الذي تبوأ العرش مكان أخيه السلطان الخلوع ، وبمن تسلم في عهده مقاليد الحكم من شباب الترك ، حتى انها كانت لا تتورع عن ان تغمز من قناتهم . واذكر ، وانا في عام ١٩١٢ ، مسافر مع والدتي واخوتي الى بلدة الكرك مركز لواء البلقاء من ولاية الشام ، لنتحقق بوالدي الذي نقل اليها بحكم وظيفته ترفيعاً الى وظيفة رئيس كتاب المحاسبة في دائرة المالية — اذكر كم اطلقت والدتي من الدعوات للطيبات للسلطان الخلوع الذي مدّ الخط الحديدي الحجازي في عهده بين دمشق والمدينة المنورة ، وسهل للحجاج المسلمين الوصول الى الديار المقدسة ، وزيارة قبر الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، وانقذهم من ان يمتطوا من دمشق متون الخيل والجمال ، ليقطعوا المسافة الى « طيبة » على مراحل تستغرق شهراً كاملاً ، يتعرضون خلاله في الوديان الجافة الموحشة إلى أهوال وأخطار

ومشاق ، منها عدوان القبائل على الحجيج ان لم ترض شيوخم صرر السلطان يحملها اليهم امير الحج . وزادت دعوات والدتي للطاغية المخلوع عندما اجتزنا على ظهور الدواب ، من محطة « القطرانة » على الخط الحجازي ، الى بلدة الكرك ، طريقاً معبدة استغرق اجتيازها ساعات النهار كله ، لتشعرنا بفضل القطار ، وفضل السلطان عبدالحميد بإنشاء هذا الخط في عهده ، بأموال المسلمين التي جمعت تبرعاً منهم ، وبإدارة عثمانية ليس للشركات الأجنبية سلطان عليها . ولما بلغنا ، مع غروب الشمس ، بلدة الكرك ، وقطعنا بالعرض الوادي العميق الى ذروة الجبل الذي تقوم فوقها البلدة بقلعتها القديمة ، وجدنا أنفسنا في بلدة قديمة متخلفة ، ما تزال اكثر منازلها مهدامة من آثار ثورة عربية نشبت في تلك المنطقة على الحكم العثماني ، في عام ١٩٠٨ ، أي قبل اربع سنوات من حلولنا فيها .

بين أطلال الثورة وذكرياتهما

قضيت مع اسرتي سنتين في بلدة الكرك ، اجتزت خلالها صفين من مدرستها الرشدية ، تجاوزتهما الى الصف المنتهي ، فعلمني فيها بالتركية المدير محمود الشركسي ، والمعلم لطفي العربي الدمشقي ، مبادئ العلوم . وكانت الكتب المدرسية مؤلفة في ذلك العهد بأسلوب السؤال والجواب ، أي بأسلوب : « س . ج . » ، نحفظ الأجوبة بالتركية عن ظهر قلب ، فيسألنا المعلم مثلاً : « ما هو علم الجغرافيا ؟ » فنجيب بأن الجغرافيا علم يلم بأحوال الكرة الارضية التي نعيش عليها ، يعرفنا بقاراتها ودولها واقطارها وجبالها وانهارها وبحورها ومدنها وسكانها وحيواناتها ونباتاتها واقتصادها الى آخر ما قيل في هذا العلم . وكنا كعرب ، في سن المراهقة ، نلقى العنت من التعلم بغير لغتنا . وكنت كلما نموت وشببت ألم بأسباب ثورة العشائر العربية ، عام ١٩٠٨ في البلقاء على الحكم العثماني ، وأعني ما تحدثني به والدتي ورفاق المدرسة عنها . ومن أسبابها ان المنطقة كانت تعيش حياة قبلية ليس للسلطان العثماني غير سيطرة اسمية على القبائل

والعشائر . ولما تولى حزب الاتحاد والترقي التركي الحكم في العاصمة « فروع » ،
وهم جماعة من شباب الترك القوميين ، حاولوا تنفيذ بعض القوانين على المناطق
التي لا نفوذ للدولة عليها ، وأصدروا أمرهم بتعداد وتسجيل نفوس العشائر القاطنة
في المنطقة . وهي عشائر اعتادت ألا تخضع إلا لشيخوخا وعاداتها وتقاليدها ،
فانطلقت لجان تسجيل الأحوال المدنية من مراكز الحكومة في اللواء والأقضية
والنواحي إلى منازل تلك العشائر . وكان اللواء البلقاء ثلاثة أقضية هي : السلط
ومعان ، والطفيلة ، واخذت اللجان تقوم بأعمالها مما لم يكن للعشائر المبتدية عهد به .
ورافق التسجيل إشاعات تقول إن الدولة تريد من وراء ذلك السيطرة على
العشائر ، وإخضاعها للأنظمة المدنية ، وسوق رجالها إلى التجنيد والقتال في
المناطق النائية من السلطنة ، كالروملي والأناضول وثلوج أرضروم وجبال
القفقاس وغيرها ، حيث يموتون من الجوع والبرد ، أو صبراً في معتقلات الأسر
في سيبيريا . وما لبثت الدعاية أن سرت بين العشائر سريان النار بالهشيم ، وزاد
الطين بلة أن الدعاة تقولوا عن تسجيل أسماء الأناث أنه مقدمة لتجنيد النساء .
والاعرابي ، حسب عاداته وتقاليده ، يأنف من أن يعرف موظف الدولة اسم
زوجته وأمه وإخواته ، وهن عرضة ، فكيف يرضى أن يسجلهن في دفاتر
رسمية ، ويسأل عن أعمارهن وأحوالهن المدنية ؟ وزار بعض شيوخ العشائر
الطامعين بالتخلص من سيطرة الدولة التركية ، قوة الحامية التركية في قلعة الكرك
مركز اللواء ، فإذا بها لا تعدو سرية أو سريتين من جنود الاحتياط ، قائدها
برتبة نقيب « يوزباشي » ، وليس للدولة في تلك المنطقة عدا هذه الحامية ، غير
مخافر وقوى من الدرك (جاندرمه) ، والشرطة (بوليس) ، لو جمعت كلها
مع أفراد الحامية ، لما زاد عددها على بضع مئات ، أسلحتها من البنادق التي لا
تخلو منها عشيرة من العشائر العربية في المنطقة . وبدأ هؤلاء الشيوخ يتهامون
بالثورة ، ويتشاورون حول ذبح رجال الدولة من موظفين وعساكر تخلصاً من
سلطان الدولة عليهم ، واسفرت اجتماعاتهم عن أن تكون زعامة الثورة لعشيرة
المجالي ، وأن يكون شيخها قدر المجالي قائد الثورة العام ، فقام هو وإخوته

وابناء عمه دليوان ، ورفيفان ، وفريوان المجالي بالاتصال والدعوة الى الثورة ، وإعداد العدة لها ، ورسم الخطة ، لتنفيذها . وتسرب للدولة أنباء عما يدور من لغط بين العشائر ، وجاء الطراونة شيخ إحدى العشائر الى المتصرف التركي في الكرك ينذره بعزم العشائر على الثورة ، بقيادة شيوخ المجالي ، وفي عدادها عشيرته ايضاً . وتداول المتصرف الأمر مع الضابط قائد الحامية ، فاستبعدا أن تشور على الدولة العلية العثمانية عشائر بدوية متنازلة متحاربة ، ينقصها السلاح والعتاد ، وتنقصها الخبرة والدربة على القتال ، لذلك لم يتخذ أي تدبير وقائي لوقف الثورة أو عرقلتها . وكانت ليلة الزحف على بلدة الكرك قد تقررت ، باعتبارها مركز اللواء ومقر الحامية ، إن سقطت تهاوت المراكز الأخرى ، وزال نفوذ الدولة عن المنطقة كلها . وعاود الطراونة الانذار ليلة الزحف ، وطرق في ساعة متأخرة من الليل باب دار المتصرف التركي ، وأبلغه زحف المسلمين من كل صوب على بلدة الكرك ، وانهم سيقترحونها مع الفجر ، فلم يصدق المتصرف ايضاً الخبر ، وأوفد الطراونة الى قائد الحامية التركي الذي هزأ به ، وبأنبائه التي لا تصدق ، فطلب الطراونة صديق الدولة من القائد التركي ورقة بخطه تثبت أنه أبلغه نبأ الثورة ، فكتب له ما أراد ، وعاد المتصرف وقائد الحامية الى فراشهما يغطان في النوم ، حتى ايقظتهما طلقات الرصاص ، مع الفجر ، ايداناً بهجوم العشائر واقتحام البلدة من كل جوانبها ، عدا الجانب الذي تشرف عليه القلعة الأثرية بأسوارها الشائخة . وشغل الثائرون في البدء بنهب الحوانيت والدكاكين ، واكثرها للدهاشقة أهل الميدان ، وللפלستينيين من أهل الخليل ، عن الهجوم على دوائر الحكومة ومنازل الموظفين ، وبذلك استطاع أكثرهم الوصول بملابس النوم الى القلعة ، والاحتباء وراء أسوارها ، إلا أسر قليلة كانت تقطن في الأحياء البعيدة عن القلعة ، وقعت بيد المتمردين ، لم يسلم رجالها من القتل ، ونساؤها من السبي ، سواء كانوا عرباً أو اقراكاً ، فهم في نظر الاعراب « دولانيون » هذا جزاؤهم . أما حامية المدينة فقد دافعت عن نفسها ، وارسلت في بدء الهجوم شرادم من جنودها الى منازل كبار الموظفين تحميهم وتنقلهم مع

اسرهم إلى القلعة . وكان جلال الضابط التركي برتبة نقيب يسكن مع أسرته في حي المسيحيين بعيداً عن القلعة التي تطل ابراجها على الوديان الجنوبية والغربية لم تستطع شردمة من الحامية الوصول الى منزله ، فأسرع بنقل زوجته وأطفاله من السطح الى منازل جيرانه من العرب المسيحيين ، وتحصن هو في نوافذ الدار يصد عنها ببندقيته المهاجمين ، حتى كفوا عن الهجوم ، واكتفوا بحصاره ، حتى كادت تنفذ ذخيرته ، وأدرك ان مصيره القتل ، فتسلل في الليل من سطح داره الى منزل كانت تسكنه بعثة انكليزية تحت ستار العلم ، فيها أطباء تطوعوا لتداوي السكان دون أجر ، وعلماء يدرسون أحوال النبات والحشرات . وهذه البعثة كانت جاءت الى الكرك من فلسطين المفتوحة الى الأجانب يحجون اليها من كل حدب وصوب ، فوجد الضابط التركي أفراد البعثة يحملون اثقالهم ، وقد أزمعوا على السفر الى فلسطين ، بسبب الثورة ، بعد ان ساعدهم الأعراب والسكان على السفر ، فطلب منهم أن يخفوه في غيابة الجب ، وهي بشر في صحن الدار يتجمع فيها ماء المطر من الأسطحة ، لأن بلدة الكرك في ذروة الجبل ، تستقي من الينابيع في وديانها ، ينقل اليها الماء على ظهور الدواب ، وتستخدم مياه المطر المتجمعة في الآبار للغسل والتنظيف . سافرت البعثة ، وبقي الضابط جلال في قعر البئر من الدار المهجورة ، حتى أعياه الجوع والبرد والبلل ، والفصل شتاء ، فأدرك انه هالك في البئر لا محالة ، وأخذ يصيح ، ويستغيث ، حتى سمع صوته شاب من الأهليين ، انتشله من البئر ، وسلمه الى الشائرين الذين قتلوه ثأراً لقتلهم وجرحاهم ، وحملوا رأسه على رمح إلى مضاربهم في الريف ، يستثيرون به الهمم ، ويستحثونها على الثورة .

الدولة تنجد حاميتها المحاصرة

لم تخل ثورة الكرك من دماء سفكت ، وأسر أصيبت ، وبيوت وحوانيت نهبت ، ولكن القلعة الحصينة ظلت بحاميتها صامدة للحصار الذي لم تكن

تتوقعه ، ولا مستعدة له . ويظهر ان هناك رجالاً من الدرك كانوا في رفقة الجباة ولجان تسجيل النفوس ، استطاع بعضهم النجاة من القتل ، واللحاق ببلدة « مآدبا » وهي مركز ناحية لم تنقطع بينها وبين مراكز الدولة الأخرى الاسباب والمواصلات ، فأبلغت نبأ الثورة لدمشق ، وحملته أسلاك البرق إلى العاصمة « استانبول » ، فصدرت الأوامر إلى قيادة الجيش في الشام بإعداد حملة تزحف لتأديب المتمردين . وكان لا بد لإعداد الحملة وتجميعها ، وسوقها بالقطر إلى محطة القطرانة من وقت اشتد خلاله الحصار على الحامية في قلعة الكرك التي لعبت دوراً في تاريخ الحروب الصليبية . وخشي القائد أن ينفذ القوت والماء المتجمع في البئر من المطر ، فأخذ يقننها على المحاصرين . واقتصد في اطلاق الرصاص على المناوشين من الأعراب ، وحل عيد الاضحى ، فجنح الجانبان إلى الهدنة ، وتوقفوا عن اطلاق النار ، وجلس الجنود مكشوفين في الشمس على أسوار القلعة ، وسمحوا للثائرين بالتجول في الساحة أمام باب القلعة والسوق القريبة . وكان شتاء ذلك العام قارصاً من أقسى فصول الشتاء التي مرت على بلاد الشام ، يعرف إلى اليوم بشتاء الثلوح الغزيرة . وتعرف ثلوجه بثلوج الاربعين يوماً دون انقطاع . وأذكر في ذلك الشتاء أن ارتفاع الثلج بلغ في مدينة حماه أكثر من متر ، وتجمد الثلج ، وبقي متراماً أكثر أيام الشتاء ، فتعطلت المواصلات والأعمال ، وأغلقت المدارس أسابيع ، وكنا في صحن دارنا نمر في طرق ضيقة شقت في الثلج إلى باب الدار وبين الغرف . ولما انقضت أيام العيد في الكرك عاد كل فريق إلى سابق حاله ، واستؤنف اطلاق النار بينها . وفي أمسية من أيام هذا الحصار الطويل ، سمع المحاصرون في القلعة صوت بوق ينفخ فيه من ذروة الجبل الشمالي المقابل لبلدة الكرك حيث الطريق إلى محطة القطرانة ، فأدركت الحامية المحاصرة أن النجدة وصلت إليها ، وأن الحملة العسكرية باتت على مقربة منها ، فنفخ بالبوق من القلعة لحناً حزيناً يشعر أن الحامية ما زالت صامدة لم تستسلم ، وإنها بانتظار النجدة ، وتبادل فريقا الدولة إشاراتهما ، وأدرك الثائرون أنهم أصبحوا أمام جيش عرمرم ، فأخذوا يتسللون من البلدة إلى الوديان المجاورة متسترين

بالظلام ، وصعد شجعانهم عدوة الوادي للقاء الحملة ، ولكنها كانت كلها محاولات
 يائسة ، لان الجيش العثماني الزاحف بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقي كان الوفا
 مؤلفة لا قبل للثائرين من أبناء العشائر ببلقائه . وفي الصباح الباكر انحدرت
 كتائب الجيش إلى الوادي على نسق الحرب ، وصعدت تتسلق سفوح الجبل الذي
 تقوم عليه البلدة حتى احتلتها خالية من الثائرين ، فاستقبلتها الحامية المحاصرة ،
 ووجه القائد العثماني سراياه إلى أحياء العشائر الثائرة يطاردها ، ويدعو شيوخها
 إلى الخضوع والاستسلام . وحدثنا سكان الكرك بأن أحد الشيوخ استسلم أو
 قبض عليه فألقى به القائد العثماني من برج يعلو سور القلعة إلى الوادي السحيق ،
 وتناثرت جثته أشلاء ومزقاً ، ولحق فوج من الجند في أحد الشعاب ببعض النسوة
 من عشيرة المجالي كان يحميهن شاب من الشيوخ اسمه صخر المجالي ، فأمر النسوة
 بأن ينجين بأنفسهن ، وصمد مع قليل من رجاله ، وقيل وحده ، للفوج التركي
 يعميق تقدمه حتى نجا النسوة ، ولم يتزحزح من مكانه حتى خر صريعاً فداء
 نخوته وشجاعته . وكنت في طريقي إلى المدرسة أرى أحياناً في ما تم أهل
 الكرك النسوة يتحلقن ، ويرقصن الدبكة ، وينشدن : « صخر ! يا صخر !
 يا كاسر الطابور » . فأعلم أنهن يتمثلن فقيدهن بالبطل صخر الذي هزم « الطابور »
 التركي ، ويخلدن موقفه الرائع . كما كنت اسمع من رفاق المدرسة أحاديث جمة
 عن البطولات التي ظهرت في تلك الثورة التي أخدمتها القوة ، واستسلم تباعاً
 قادتها ، بعد أن أدركوا أن لا طاقة لعشائهم بمحاربة جيش نظامي لجب ،
 جنوده كلهم من البلاد العربية ، وخاصة بلاد الشام . وكان في عداد من استسلم
 للسلطة العثمانية الشيخ قدر المجالي كبير شيوخ عشيرته ، فأبعدته السلطة إلى دمشق
 حيث مات فيها ، وقيل أنه مات مسموماً ، إذ دس له أحد الحكام السم بالطعام ،
 للتخلص من نفوذه وعدائه للدولة ؛ كيف لا وقد ثار على السلطان خليفة المسلمين
 وحامي الحرمين الشريفين ، فلم ينجه من البطش استسلامه والعفو الملكي عنه ،
 فقتل غيلة ، وهو أسلوب كثير ما كان السلاطين الترك يلجأون إليه في التخلص
 من أصحاب النفوذ . لقد هدم الجيش أكثر منازل بلدة الكرك انتقاماً من أهلها

الذين ثاروا مع العشائر ، واستخدم الجنود أخشاب السقوف في التدفئة من برد ذلك الشتاء القارص ، وظلت أكثر منازل المدينة خرائب وأطلالاً ، سنين عديدة ، يصلحها أصحابها النازحون عنها ، عند عودتهم ، ويبنونها بالحجارة غير المنحوتة والطين . وقد عشت سنتين بين اطلال هذه البلدة الثائرة ، حتى صدر في عام ١٩١٤ أمر بإعادة والدي الى مثل وظيفته في حماه .

خلقت ثائراً! ...

لقد كانت تطربني أحاديث الثورة والثائرين ، وتستهويني اعمالهم الخارقة . ويرجع السبب الى أنني خلقت ثائراً ، فقد حملت بي امي ، ومنذ الشهر الخامس أو السادس للحمل ثقلت عليها ، دون أخوتي التسعة الآخرين ، فكانت تمشي على العنكاز حتى وضعتني طفلاً قوي البنية خشن العظام ، وميزتني على اخوتي ، فلم تسقني الخشخاش المنوم ، وهو ثمث يحفف ويباع لدى العطارين ، يقال ان الأفيون يستخرج منه ، كانت الامهات يطبخنه مع السكر ، وملعقة صغيرة منه تنوم الطفل الساعات الطويلة . وهذا الاسلوب الضار بصحة الاطفال كان مستساغاً لدى الامهات في عهد طفولتنا ، نجوت منه دون أخوتي واخواتي جميعاً . ولما كنت في السابعة من عمري ، وحل شتاء عام ١٩٠٨ ، عام ثورة العشائر العربية على الدولة العثمانية في البلقاء ، لزم الناس في حماة البيوت ، واغلقت المدارس ابوابها ، وقطعت المواصلات من الثلج ، وسدت المسالك ، وانهارت المنازل القديمة ، ولزمت مع اخوتي الغرف من كثرة الثلوج المتراكمة في صحن الدار ، وقد بلغ ارتفاعها المتر الواحد . وكنا نقضي اوقاتنا في الغرف الواسعة ، نلعب ، ونقفز من سقيفة خشبية كانت في جانب من الغرفة ، ننفس عن ارواحنا ضجر السجن الذي فرضته علينا الثلوج .

وفي أحد الايام خرج والدي مساء للسهر لدى أحد أصدقائه ، فوجدت مع اخوتي منفرجاً للعب والقفز والصراخ حتى ضجبت بنا الغرفة ، وضافت امي بنا

ذرعاً ، وهددتني بأنها ستنقل الى والدي ، عند عودته ، عدم هدوئي وانصياعي
إلى نصائحتها ، وما احدثت من أذى وضجيج ، فقلت لها ، وانا في غمرة اللعب
ونشوته : « ابلغيه ما شئت ! فأنا لا أخاف احداً .. ولا أخشى والدي ! ولن
أخشاه ! انه مثلي قطعة من لحم وعظم ! فردت علي محذرة : « انتظر اذن !
سأريك الليلة ماذا ستفعل بك قطعة اللحم والعظم التي لا تهابها ؟ !.. » ، واستمر
لعبنا ، حتى سمعنا صرير القفل بفتح باب الدار ، وانصفق الباب ، فأدركنا
ان القادم هو الوالد ، واسرعنا الى فراشنا نندس فيه ونتظاهر بالنوم . وفتح
باب الغرفة الدافئة ، وأطل منها والدي ، وسأل : « هل نام الاولاد ؟ » ،
فابتسمت الوالدة ، وقالت : « ألم يبلغ مسامعك ضجيجهم الى الشارع ! ثم هناك
محمد أقام الليلة البيت وأقعده .. ولما قلت له بأنني سأخبر والدك بما تصنع ، قال
انه لا يخافك ، وانك قطعة من لحم وعظم !.. » ، قال الوالد : « حسناً ..
سأريه الآن ما تفعل به قطعة اللحم التي استهان بها ! » ، وتقدم نحو فراشي ،
ومد يده تحت اللحاف حتى قبض على عضدي ، وانتشلني من الفراش الى عل ،
أي الى فوق رأسه كالكرة ، وخرج بي الى باحة الدار ، وقذف بي من عل الى
الثلج المتجمد ، وأعاد الكرة مرات ، حتى أخذت ابكي ، وأستغيث ، وهو
يهدد بأنه سيدفنني حياً في الثلج ، لابقى فيه الى الصباح . ولما اشتد صراخي لحقت
به الوالدة ، وشفعت لي عنده ، وانقذتني من بين يديه ، وتعهدت باسمي أن
أكون ولداً باراً هادئاً اسمع نصيحة والدي ، وألا أكون مزعجاً في اثناء غياب
والدي من البيت . لقد عادت صورة تلك الليلة ، وانا اطرح على الثلج في حماة ،
الى مخيلتي في بلدة الكرك كلما شاهدت خرائب واطلال الثورة فيها ، ولما عدت
مع والدي واسرتي الى حماة ظلت في مخيلتي صورة المآتم في الكرك . والنسوة
في حلقة الدبكة ، مشعثات الشعور ، ملطخات الوجوه ، مشققات الجيوب ،
يبكين ، وينشدن :

« صخر ! يا صخر ! يا كاسر الطابور ! » . ثم تجسمت بعدها هذه الصورة في

مخيلتي ، وذكرتني بالحنساء التي بكّت أخاها صخراً ما تبقى من أيام حياتها ،
تنشد ماثره :

وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

اراجيح الثوار !

- ٢ -

لا بد لي ، وانا استعرض بعض ذكرياتي في بلدة الكرك ، ان اسجل في
مذكراتي انني عرفت في تلك البلدة السيد نايف تلو الشهيد العربي الذي علقه
السفاح التركي احمد جمال قائد الجيش الرابع ، مع قافلة شهداء العرب ، على
اعواد المشانق في دمشق وبيروت عام ١٩١٦ ، بسبب مطالبتهم الدولة العثمانية
بحقوق امتهم العربية . عرفته موظفاً في حكومة الكرك ، يتردد على دارنا
لزيارة والدي ، وزيارة خالي محمود الرئيس والد الكاتب العربي الشهير ، والوطني
المعروف المرحوم نجيب الرئيس صاحب جريدة « القبس » في دمشق . وكان
خالي لحق بوالدي في الكرك ، وعين موظفاً في حكومتها ، وتمتنت أواصر
الصداقة بينه وبين نايف تلو ، بل ربما تجاوز ما بينهما الصداقة ، وغدا ارتباطاً
عربياً ، وتفاهماً على العمل من أجل امتها العربية .

وليس لدي من دليل على ذلك اكثر من ان الحرب العالمية الأولى اوصلت
نايف تلو الى الديوان العرفي في عاليه ، حيث صدر عليه الحكم بالموت ، ونفذ به
وبأخوانه شنقاً ، واوصلت خالي محمود الرئيس الى الحجاز ونجد ، ثم الى الثورة
العربية ، اذ التحق بها ، وقاتل الجيش التركي في صفوفها كضابط عربي ،
ودخل في خريف عام ١٩١٨ دمشق مع الجيش العربي بقيادة الامير فيصل
الهاشمي ، ثم عين رئيساً للشرطة في لواء حمص . ولما اعتدى الفرنسيون

على سورية الداخلية في شهر تموز عام ١٩٢٠ ، واجتاحتها جيوش الجنرال غورو ،
التحق بثورة الشيخ صالح العلي في جبال اللاذقية ، ثم انتقل منها الى ثورة الزعيم
ابراهيم هنانو في الشمال . ولما قضي على الثورتين تسلل الى شرقي الاردن فالحجاز
حيث استخدم في حكومة الملك حسين والد الامير فيصل ، ثم اصيب بالحمى ،
وقصد القاهرة للتداوي ، ولكنه مات غريباً في مستشفياتها ، مشرداً عن
الاهل والوطن ، شأن الثائرين ، رحمه الله ، فإليه ترجع نزعة الثورة في دمي
حسب المثل الدارج : « الولد لو بار .. ثلثاه للخال » .

عرفت السفاح التركي

عدت كما اسلفت ، مع أسرتي في صيف عام ١٩١٤ الى بلدي حماة ، وتيسر
لي في خريف ذلك العام نفسه الانتساب الى المدرسة الثانوية في دمشق . وكانت
تسمى « المكتب السلطاني الأول » ، وتعرف في أوساط دمشق بمكتب عنبر
نسبة الى الدار التي اتخذت مدرسة ، فقد كانت الدار ملكاً ليهودي ثري اسمه
عنبر ، حجزتها الدولة منه لقاء دين لها عليه من جراء عمله في التعهد والمقاولات ،
واتخذتها لسعتها وباحاتها وابهاً مدرسة اعدادية ، انقلبت بعدئذ الى ثانوية
أي تجهيزية ، ولزم اسم عنبر المدرسة الى يومنا هذا .

سجلت ، بعد المسابقة ، تلميذاً داخلياً بالمجان على حساب الدولة ، وانتسبت
الى الصف الخامس . وكان لي اخوان سبقاني الى هذه المدرسة ، وتخرج الاول
ناظم الرئيس منها يوم كانت اعدادية ، والتحق بكلية الحقوق في جامعة استانبول .
أما الثاني صبحي الرئيس ، فقد انتسب اليها اعدادية ، وانقلبت ثانوية وهو فيها ،
وكان في الصف الحادي عشر يوم انتسابي الى هذه المدرسة ، وإليه يرجع الفضل
في تسهيل انتسابي ، وفي رعايتي سنتين دراسيتين .

لم تمض اسابيع على سنتنا الدراسية الأولى حتى أعلنت الدولة العثمانية الحرب
على الحلفاء ، وخاضت غمارها الى جانب الدول المركزية : المانية والنمسة

وبلغارية ، ودعيت شعوب الدولة العثمانية الى خدمة العلم وحمل السلاح ، وعين احمد جمال باشا وزير البحرية ، وهو من اقطاب الاتحاديين الحزب الحاكم ، قائداً عاماً مطلق الصلاحية للجيش الرابع الذي مركز قيادته دمشق ، وتشمل سلطة هذا القائد بلاد الشام والحجاز . وقد سبق ، كما قيل ، خبره خبره ، وتردد قبل وصوله انه ذو سلطة مطلقة في ادارة المنطقة التابعة لقيادته . ولما وصل الى دمشق استقبل فيها استقبالا فخماً اشتركت فيه حكومة الولاية والجيش والشعب والمدارس . و كنت في عداد طلبة المدارس المستقبلين . فلما وصل القائد التركي عزفت له الموسيقى العسكرية النشيد الرسمي ، وتقدم يستعرض ثلة من الجيش ، فصفوف الطلبة ، ولما دنا رأيناه ضابطاً ربعاً مستدير الوجه الذي لوحته الشمس ، ذا عينين نجلاوين ، ونظر ثاقب نافذ . كان وهو يستعرض صفوفنا يحدق بعيني كل طالب بصرامة ، حتى يتجاوزوه الى الآخر ، فيلقي الرهبة في القلوب ، تزيد مهابة لحية كثة مستديرة ، خمرية اللون ، تتناسب مع قلنسوته من الفرو « القلبق » التي كان يرتديها على رأسه . وبعد استقباله في حديقة المنشية مقابل تكية السلطان سليم ، وبعد القاء خطب الترحيب ، توجه الى فندق فيكتوريا قرب جسر « بردى » مقابل دار الولاية ، حيث اتخذ مقرأ له ، واخذ يعد العدة لغزو قناة السويس ، فقد كان يحلم بفتح مصر التي يحتلها الانكليز . وقيل ان الآمال كانت تدغدغ احلامه ، بان يخلد اسمه التاريخ كفاتح ، كما خلد اسم السلطان سليم الأول « ياووز » الذي فتح الشام ومصر ، وانتزع الخلافة من آخر خليفة عباسي كان مقيماً في مصر . وقيل أن احمد جمال كان يحلم بان يفتح مصر ، ويلعب فيها دور محمد علي ، فلا يكتفي بان يكون خديوياً فيها ، بل ينادي بنفسه ملكاً على البلاد العربية ، أي على مصر والشام والحجاز واليمن من الاقطار العربية ، فيحقق للعرب العثمانيين مطلبهم بالاستقلال الذاتي ، ويحقق لنفسه ملكاً ضخماً يكفي الدولة العثمانية منه ان يكون مرتبطاً بالبواب العالي (البلاط السلطاني) ارتباطاً اسماً ، كما كان الحال من قبل باسرة محمد علي ، وبولاة ليبية وتونس والجزائر ، فقد كانوا في الواقع ملوكاً شبه مستقلين يتوارثون العرش

كأسرة مالكة . لقد اخذ المطلعون على دقائق الامور يهيمسون بان القائد التركي الذي كان لا يضاهيه من رجال الترك الحاكمين في السيطرة على الدولة الا انور باشا وزير الحربية ، وطلعت باشا وزير الداخلية ، على خلاف مع زميليه على النفوذ ، وانه ابعد عنها الى الشام ، وانه بدأ يجاهر بحبه للعرب ، ويظهر العطف على مطالبهم القومية ، ويستقبل بعض احرارهم ، ويعقد معهم الاجتماعات ، حتى انه استدعى منهم عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي من فروع «استانبول» وجدد صلته به ، واخذ يذاكره بقضايا العرب ومطالبهم ، ويتودد اليه ويقبل وساطته في بعض الأمور . وكان بعض احرار العرب الذين اخذوا يجتمعون بالفريق أحمد جمال ، يحاولون اقناعه بان العرب لا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية التي تربطهم بها روابط عديدة ، ولكنهم يريدون ، كشعب كبير من شعوب الدولة ، ان يتآزروا مع الجميع ، ويكونوا شركاء في الحكم ، شركاء في الحقوق والواجبات ، وان تكون لبلادهم ادارة لا مركزية ، يستطيعون ان يبنوا بها وينهضوا ، ويحققوا ما يتوافق مع حاجاتهم ، وان اضرار المركزية في الحكم الحاضر ان تكون السلطة محصورة في عنصر واحد من عناصر الامة فيصبح موقف سائر العناصر منه موقف المغلوب من الغالب ، في حين ان الدولة يجب ان تكون للجميع ، وان يتآزر بنوها ، ويعمل جميع عناصرها لتقدمها وخيرها .

الاعداد لحملة القناة

بدأ احمد جمال قائد الجيش الرابع ، يعد العدة لغزو مصر واجتياحها عبر قناة السويس ، فركز جهوده على اعداد حملة كبرى لهذا الغرض ، كانت الدولة العثمانية بأمكاناتها المحدودة من الصعب ان تستطيع تجهيزها بالوسائل اللازمة . وكانت الاستعدادات تقوم على ساق وقدم ، واستدعي الامير فيصل احد انجال الشريف الحسين بن علي ليكون الى جانب احمد جمال قائد الجيش الرابع ،

ويسمى مساعداً له بقيادة الحملة ، لقاء تعهد والده الحسين شريف مكة بتجنيد فرقة من أهالي الحجاز وعشائره ، للاشتراك في حملة قناة السويس ، وعين في نفس الوقت الفريق فخري باشا قائداً لجيش سمي جيش اليمن ، مهمته الظاهرة ان يعد ويحشد في المدينة المنورة ، ثم يزحف منها الى اليمن ليجمع منها بلداً خاضعاً كلياً للدولة العثمانية . وكانت له مهمة اخرى سرية هي ان يوطد نفوذ الدولة في الحجاز ، ويقضي على الحسين بن علي شريف مكة الذي اخذت الحكومة في الآستانة تشكك باخلاصه لها ، وتشعر باتصال بعض ابنائه بالحركة العربية ، وتخشى ، وهي عازمة على القضاء على هذه الحركة في مهداها ، ان ينقض مع بعض العشائر العربية عليها ، وهي منهمكة في الحرب ، وان تسبب ثورته لها المتاعب ، لاسيما وهنالك اعداؤها الحلفاء ، وعلى رأسهم بريطانية ، الدولة الملمة بأحوال البلاد العربية ، ذات الصلات والاتفاقات المبرمة بينها وبين بعض امراء وشيوخ الجزيرة العربية وسواحلها والخليج العربي . وحكومة استانبول من جماعة الاتحاد والترقي لا تجهل خطر التحالف الالماني - التركي على مصالح بريطانية ومستعمراتها في الشرق ، ولا سيما الهند درة التاج البريطاني . وكانت المانية ابتاعت من الدولة العثمانية في عام ١٨٨٨ خط حيدر باشا - ازमित الحديدي ، ثم صدرت إرادة سنية (فرمان) بمنحها امتياز مد الخط الحديدي بين مدينة ازमित ومدينة انقره ، ثم تطور الامر ، ومنحت في سنة ١٨٩٣ امتياز مد الخط الحديدي من انقره الى « اسكي شهر » و « قونية » ، ثم صدرت في ٣٠ تموز سنة ١٩٠٣ ارادة سلطانية اخرى بمنحها امتياز تمديد الخط الحديدي من قونية الى بغداد ، على ان تكون الأراضي لمسافة ستة كيلومترات على جانبي الخط في الاراضي غير المأهولة ملكاً للشركة صاحبة الامتياز . وهكذا أخذت المانيا تبني المحطات الكبرى بين حلب ونصيبين ، وبين بغداد والموصل حيث تم تمديد الخط الحديدي فيها ، استعداداً لتسيير هذا الخط الذي يصل المانية براً بالخليج العربي ، ويجعلها على حدود ايران ، بل يجعلها تطل على المحيط الهندي وبحر العرب ، وتدنو من الهند ، فلا يفصلها عنها غير ايران ، وليس

اسهل على المانية من ان تجتاز هذا العائق ايضاً في طريق الوصول الى الهند، دون ما حاجة لان تبني وتعد الاساطيل الضخمة خلال مئات السنين لتتفوق بها على اساطيل بريطانية سيدة البحار والاستعمار . وكان اول جواب من بريطانية على هذا التحدي الالماني فرض حمايتها عام ١٩٠١ على الكويت ، والاستعداد لخوض حرب وقائية للدفاع عن الهند وعن سائر مستعمراتها ومصالحها فيما وراء البحار .

العرب بين شقي الرحى !

- ٣ -

لقد فطن الانكليز منذ أن تسلطوا على الهند، والحقوها بالتاج البريطاني، الى سد جميع الثغرات التي يأتيهم منها الريح ، فعقدوا في عام ١٨٠٢ معاهدة مع عبد الكريم العبدلي سلطان عدن ولحج، واعترف لهم فيها بان تكون عدن ميناءً حراً ، ومنحهم ارضاً يتصرفون بها . وفي عام ١٨٣٩ احتلوا مدينة عدن ، واستأثروا بحكمها مباشرة ، وجعلوا منها محطة لاسطولهم في طريق الهند ، اي جعلوها مستعمرة تابعة للتاج البريطاني مباشرة . اما الاسباب التي تذرعت بها بريطانيا لاحتلال عدن ، فهي ان مركباً انكليزياً تحطم في عام ١٨٣٧ بالقرب من عدن ، ولجأ بحارته الى الشاطئ ، فزعم الانكليز ان العرب سكان تلك المنطقة أساءوا معاملتهم ، وحملوا حكومة بومباي الانكليزية على الاحتجاج لامام اليمن ، فوعد هذا بدفع تعويض عن المركب المحطم ، وان يبيع الانكليز عدن ومرفأها . ومات الامام قبل ان يبر بوعده ، وخلفه ابنه الذي ابى ان يفي بوعده ابيه ، فجند الانكليز قوى بحرية وبرية بقيادة الكابتن « جيمس هاينز » ، واحتلوا عدن في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٣٩ وضموها الى ممتلكاتهم ، ثم توسعوا في الاحتلال والحماية حتى بلغت

مساحة المنطقة المحتلة (١١٢) الف ميل مربع . وقد جعلوا من مرفأ عدن والمدينة وضواحيها مستعمرة للتاج ، ومن الاراضي اليمنية المحيطة بها محمية عدن ، وهي ذات جزئين : غربي وشرقي ، فالغربي منه فيه تسع عشرة مشيخة برئاسة سلطان لحج ، والجزء الشرقي سبع مشيخات برئاسة سلطان حضرموت . ثم امتدوا الى سائر سواحل بحر العرب والخليج العربي . وكانت عُمان انفصلت عن السلطنة العثمانية عام ١٧٩٣ . ولما طردت بريطانيا في القرن السابع عشر الهولنديين والبرتغاليين من الهند وطريقها ، واستقرت فيها ، اخذت تحارب النفوذ التركي . وتتوحد لسلطان عمان ، ثم اعترفت بسلطنته الممتدة من زاوية الجزيرة العربية من بحر العرب الى الخليج العربي ، ثم سيطرت على المنطقة كلها ، عدا امامة عمان في الداخل ، وعاصمتها « نزوى » فقد ظلت محتفظة باستقلالها . وتعاقدت بريطانيا مع شيخ الكويت ، فارتبطت معها بمعاهدة صداقة وتجارة عام ١٨٩٩ ، كما ان مشيخة البحرين ارتبطت معها بمعاهدة حماية عام ١٨٨٠ ، بعد ان سبق لها عقد معاهدة تجارة وصداقة معها في عام ١٨١٤ ، ثم معاهدة ثانية للتعاون على مكافحة القرصنة ، وارتبطت مشيخة قطر ايضاً بمعاهدة حماية مع الانكليز ، عام ١٩١٦ . وامارة عمان مساحتها سبعة آلاف ميل تتألف من مشيخات عمان ومسقط ، وقطر ، وأم القوين ، والشارقة ، والكيليلة ، ورأس الخيمة ، والعجمان ، ودبي ، وابي ظبي ، والفجيرة . ولما ألبت الحكومة العثمانية ابن الرشيد في نجد على الشيخ مبارك الصباح امير الكويت ، وارسلت قوة لاعتقاله ، استنجد بالمعتمد البريطاني في الخليج العربي ، ومركزه البحرين ، فانجده بسفينة حربية استناداً الى معاهدة الصداقة ، ثم عقدت معه في سنة ١٩٠١ معاهدة حماية . وقد تمكن الانكليز في عدن وما حولها من المناطق ، فعقدوا في سنة ١٨٤٢ مع السلطان محسن بن فضل العبدلي سلطان لحج معاهدة تسمح لرعاياهم بدخول اراضي بلاده ، وسنحت لهم بذلك فرصة دس الدسائس ، وحوك المؤامرات . وفي عام ١٨٨١ ارغموا على بن محسن سلطان لحج على عقد معاهدة يتعهد فيها بعدم التعاقد مع دولة اخرى ، وبعدم بيع أو رهن أو ايجار أو هبة

أي ارض من اراضي سلطنته لاجنبي الا بموافقتهم ، وبعد ادخال السلاح والعتاد والسلع التجارية إلا برخصة من حاكم عدن البريطاني ، ثم تمكنوا في سنة ١٨٨٢ من عقد معاهدة اخرى مع خلفه الفضل بن السلطان علي محسن اعترف لهم فيها بأن سلطنته هي محمية انكليزية ، ثم عقدوا مع العديدين من المشايخ في اراضي اليمن الجنوبية معاهدات حماية تجعلها كلها تابعة لحاكم عدن البريطاني ، ثم مدوا نفوذهم في اواخر القرن الى حضرموت والبحر وعاصمتها « المكلا » ، وعقدوا مع شيوخها آل القعيطي معاهدة حماية ، ثم عقدوا مع آل كثير شيوخ حضرموت البر وعاصمتها « سيون » معاهدة مماثلة . ولم يكتفوا بذلك ، بل عقدوا مع مشايخ ثانويين في حضرموت معاهدات اخرى ، رصدوا فيها رواتب لهؤلاء الشيوخ ، ليجعلوا منهم قوى خارجة على سلطان آل القعيطي وآل كثير في حضرموت .

لقد افاد الانكليز من الخلاف بين الدولة العثمانية وبين آل سعود سلاطين نجد ، فعقدوا في اوائل القرن التاسع عشر معاهدة صداقة مع متعب آل سعود امير الرياض ، إلا ان ابن الرشيد امير حائل تمكن ، بمعونة الدولة العثمانية ، من الاستيلاء على نجد كلها ، وطرد آل سعود منها ، فلبجأ اميرها عبد الرحمن السعود إلى الكويت . ولما استعاد ابنه عبد العزيز السعود الرياض ، واخذ ينازل ابن الرشيد على زعامة نجد ، خشي بطش الدولة العثمانية ، فعقد في سنة ١٩١٥ مع الانكليز معاهدة اعترفوا له فيها بالسيادة على نجد والاحساء والقطيف وما إليها ، على ألا يتنازل عن أي جزء منها ، ولا يؤجر ارضاً لأجنبي الا بعد موافقتهم ، وان يمتنع عن التدخل في شؤون الكويت والبحرين وقطر وعمان وسائر المحميات البريطانية ، ولقاء ذلك تساعده الحكومة البريطانية بالسلاح والمال ، وتعد كل اعتداء على الاقطار التابعة له اعتداء عليها . ولكن بعد ان انتزع الحجاز في عام ١٩٢٥ من ايدي الهاشميين ، وقويت شوكته ، حمل الانكليز على إلغاء معاهدة الحماية ، وعقد معهم في عام ١٩٢٧ معاهدة صداقة ، اعترفوا فيها باستقلال المملكة

العربية السعودية التي يجلس على عرشها .

سلطان العثمانيين على العرب

يتبين من هذا أن الدولة العثمانية خاضت الحرب الكونية الأولى إلى جانب الدول المركزية ، وليس لها سلطان على سواحل الخليج العربي ، وسواحل بحر العرب المعروفة اليوم بالجنوب المحتل . وكل ما لها سلطان اسمي على اليمن وعسير وجزء من نجد تخضع عشائره لحليفها عبدالعزیز آل الرشيد أمير حائل ، وسلطان أقوى على ولاية الحجاز التي فيها الأماكن المقدسة ، يحج إليها المسلمون من جميع أنحاء الأرض ، يشاركون فيها الشريف الحسين بن علي أمير مكة بنفوذه الديني والزماني على العشائر ، وإدارة الأماكن المقدسة . وإمارة مكة منصب تقليدي يشغله عادة أحد الأشراف الهاشميين ، يعين بإرادة سنية من السلطان العثماني ، وآخر من شغل هذا المنصب منهم الشريف الحسين بن علي . وكان السلطان عبد الحميد الثاني استدعاه مع أسرته للإقامة في فروع ، فأقام فيها ١٨ عاماً بعيداً عن الحجاز ، مدة إمارة الشريف عون . وعقب خلع السلطان عبد الحميد عين الحسين أميراً لمكة ، ولبت ولداه عبد الله وفيصل في العاصمة استانبول ، ثم التحقا في شهر آب ١٩١٤ بوالدهما في مكة . أما ولايات حلب ، وبيروت ، ودمشق (الشام) ، الموصل ، وبغداد ، والبصرة من البلاد العربية في قارة آسيا ، فقد كانت تخضع مباشرة لسلطان الدولة العثمانية ، عدا العشائر ، فانها كانت تتمتع بإدارة خاصة ، فلا يجند أفرادها ، ولا يحاكمون في المحاكم المدنية عن الجرائم التي يرتكبونها ، ولا تسري عليهم أحكام أكثر القوانين المدنية ، بل يساسون حسب العرف والعادة وتقاليدهم البداوة . وكانت العشائر العربية الكبرى التي تتنقل في الصحاري بين العراق والشام والحجاز ونجد تخضع لشيخها الذين كانوا مرتبطين بالدولة العثمانية ارتباطاً اسمياً ، ضربنا عليه المثل بثورة عشائر البلقاء ، وهجومها على بلدة الكرك ، يوم حاولت السلطة احصاء نفوسها ، حتى

ولاية الشام التي كانت دمشق مركزها، ومقر قيادة الجيش الرابع، ثار الدروز، في جبل حوران، أكثر من مرة على الدولة العثمانية. وكانت آخر ثورة لهم اخذها قبل الحرب العالمية الأولى سامي باشا الفاروقي، وهو من اصل عربي، ومن كبار قادة الجيش العثماني. كما ثارت عشائر النصيرية (العلويين) في الجبال من لواء حماه، على الدولة العثمانية، وأخذت ثورتهم بالقوة. هذا عدا الثورات، وحركات التمرد في جبال لبنان، فانها كثيرة لم يخل منها عهد. وكانت ثورات جبل الدروز تبدأ بخلاف بين الدروز سكان الجبل، وبين جيرانهم سكان سهل حوران، على الاراضي، إذ كان الدروز يتجاوزون، كلما ازدادت نفوسهم، جبالهم الوعر نحو سهول حوران، ويتطور الخلاف إلى صدام بالسلاح، تلتزم فيه الدولة، جانب الحورانيين المعتدى عليهم، والسنيين في نفس الوقت، لأن الاتراك وملوكهم سنيون احناف، يتعصبون في كل نزاع بين الطوائف من رعايا الدولة للسنيين، حتى بلغ التفريق بين الطوائف العربية في عهدهم حداً أن الأم السنية إذا شاءت شتم طفلها قالت له: « يا درزي ! ». وكانت الدولة العثمانية، في كل ثورة عربية عليها، تجند العرب من المدن والقرى في جيشها، وتسوقهم لاختداد تلك الثورة، فيقتل العرب بعضهم بعضاً في سبيل التسلط التركي على البلاد العربية. وكانت الدولة العثمانية، في كل ثورة أو حركة عربية، لا تحرم بين العرب من رجال الدين، يسمون انفسهم علماء، يسارعون بالفتوى حول شرعية قتل كل من يثور أو يخرج على السلطان التركي، باعتباره خليفة للمسلمين. والخلافة ما خرجت من العرب، بل من قريش عشيرة النبي العربي، إلا لما اغتصبها سليم الأول (ياووز) السلطان العثماني من الخليفة العباسي المقيم في مصر واخذ بعده الملوك من آل عثمان يتوارثونها عنه.

التعلق بجبل الخلافة المقتصبة !

لقد كان من الصعب على فتى مثلي نشأ في بيئة مسلمة، وفي ظل والدين مسلمين،

وفي حكم سلطان مسلم يلقبونه بخليفة المسلمين ، ويحيطونه بهالة من القدسية ، ان يميزانه عربي يختلف عن الاتراك الا باللغة ، بل كيف اشعر باختلاف عن الاتراك ، وانا اسمع قصة من اعرابية يسمونها « ام عوض » من قبيلة الرطوب إحدى افخاذ بني خالد . كانت هذه الاعرابية زوجة بدوي ، شاركته اسرتي على قطيع من الغنم ، كعادة اهل حماة مع اعراب البادية . واعتادت « ام عوض » ان تبني عندنا ، كلما زارتنا في المدينة ، قادمة من الريف حيث منازل القبيلة . لقد سألتها مرة : « ماذا تصنع قبيلتكم فيما اذا غزا الفرنجة هذا الاقليم من الدولة العثمانية ؟ » فاجابت بان رجالنا البدو يبادرون فوراً لقتال الفرنج ، وللدفاع عن حوزة الوطن . قلت : « وماذا يصنع رجالكم بالمدافع التي لا بد ان يكون الفرنجة تجهزين بها ؟ » . قالت : « ان رجالنا لا يهابون المدافع ، ويندفعون بجيادهم فرساناً ، ومن ورائهم المشاة ، ويقومون بهجوم صاعق على المدافع ، ولا يتوقفون حتى يبلغوها ، ويسدوا فوهاتنا بعباءاتهم ، ويسددون سلاحهم إلى جنودها ! ، فيبطل مفعولها ، وتسقط غنائم بأيديهم ، فيحطمونها ! » . وعندما سمعت هذا الجواب الحماسي ، خلت نفسي مقاتلاً في معركة بين المسلمين وأعدائهم ، اهاجم الاعداء ، حتى ابلغ مواقع المدفعية ، واسد بعباءتي فوهة المدفع ، ثم اطيح برؤوس الاعداء بسيفي ، واصرعهم ببندقيتي ! . وتمر الايام واغترب مع والدي واخوتي إلى بلدة الكرك في اللقاء ، واسمع من والدي ، وأنا في القطار إليها ، الدعوات تتصاعد من فمها للسلطان عبد الحميد الخلو عجزاء انشائه الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة ، ثم اسمعها تقرأ الفاتحة ، وتهديها إلى روحه المرة بعد المرة ، ثم اسمع كيف كان الحجاج يقضي الاشر على الرواحل في الذهب والاياب بين يثرب ودمشق ، وكيف كانت يتعرض الحجاج للسلب والقتل في الطريق بيد الاعراب الاجلاف الذين اعتادوا الغزو ، واستباحوا قتل الانفس ، لان رئيس عشيرتهم لم يتلق صرة مال من السلطان ، او لم تعجبه صرة السلطان ، لأن شيخاً آخر في صرته ذهب او فضة اكثر . . لقد كنت أجد والدي على حق ، وهي تدعو لباني الخط الحديدي ، الذي وطد الامن في ربوع

كانت محرومة من الامن . وليس غريباً ان أكون بعواطفني ، في بلدة الكرك ، الى جانب الدولة العثمانية ، استنكر ثورة الأعراب عليها ، مع انها ثورة عربية على دولة أجنبية ، وان استنكر العدوان على الموظفين ، واستفزع تقتيلهم ، وسبي نسائهم وأطفالهم ، لاسيما ووالدي موظف في الدولة ، وان اعجب ببطولة جلال الضابط التركي الذي صد بمفرده الأعراب المتمردين أياماً عن منزله ، حتى نفدت ذخيرته ، لأن المرء بطبيعته يحب للبطولة ، معجب بالبطل ايأ كانت قوميته .

الوعي القومي في صفوف الضباط

استمرت الحرب ، وبدأت تشغل مجهود الدولة العثمانية المتخلفة بالنسبة لدول الغرب ، ودعي العرب الى خدمة العلم العثماني ، والانخراط في الجندية ، والغيت تباعاً الاستثناءات التي كان قانون التجنيد العام يتضمنها للتهرب من اداء الواجب ، اللهم إلا الأغنياء وأصحاب الاملاك والنفوذ وكبار التجار ، فقد كان هؤلاء يشترون بالمال والرشوات الوثائق التي تستثنىهم وذويهم من خدمة العلم ، كدفعهم المال الى متعهدي الاحطاب الذين تعهدوا للدولة بقطع الاحطاب من الاحراج والغابات ، ونقلها الى محطات الخطوط الحديدية ومستودعات الجيش ، تستخدم وقوداً في تسير القاطرات ، بدلاً من الفحم الحجري الذي انقطع وروده من الخارج بسبب الحصار البحري الذي ضربته اساطيل الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها في الحرب . وكانت دوائر التجنيد تسمح لكل متعهد يقوم بتوريد الحطب ولوازم الجيش بان يستخدم في اعماله عدداً من الرجال في الجندية ، وتعطيه الوثائق باستثنائهم من الخدمة ، فيبيع بعض هذه الوثائق للأغنياء بالمال ، دون ان يستخدمهم في اعماله ، ولا يعدم المتعهد في المناطق التي يعمل فيها اليد العاملة بين الفلاحين ونسائهم أو من كان دون سن الجندية او تجاوزها ، وكانت الرشوة تعمل عملها ، فليس بعيداً ان يتعامل المتعهدون مع

الضباط المسؤولين ، ويرشوهم بالمال لأخذ وثائق أكثر من حاجتهم ، يبيعونها للاغنياء بربح اكبر . وكانت قيادة الجيش الرابع افتتحت في قرية المزة من ضواحي دمشق ، وفي المرج الاخضر ، أي « المرجة » عند مدخل طريق بيروت في دمشق ، أما كن لتدريب الشبان المثقفين ، وتخرجهم ضباط صف ، فضباطاً للاحتياط . ودعي أخي الأكبر ناظم في العاصمة استانبول الى الجندية ، وتخرج ضابط احتياط قبل ان يحصل على شهادة كلية الحقوق من الجامعة التركية بقليل ، ووجهت قطعه الى ساحة القتال في الدردنيل حيث انزل الحلفاء قواتهم فيه ، بقصد احتلال العاصمة استانبول ، والقضاء على مقاومة الدولة العثمانية باكراً ، واحتدمت المعارك في « غليبولي » و « جناق قلعة » . ثم نقلت قيادة الجيش الرابع مكان تدريب ضباط الاحتياط من دمشق الى بعلبك ، وأخذ احمد جمال باشا القائد العام يبعثر الضباط العرب ، ويسوقهم الى جبهات القتال ، ويستبدل الفرق العربية بفرق تركية من الجبهات الاخرى . ويذكرون انه لجأ الى هذا بعد فشله في حمله قناة السويس ، فقد صادف مرة سرية من الضباط الاحتياط تسير في شوارع دمشق ، وتلشد : « نحن جند الله شبان البلاد ! » ، ولما ترجمت له عاد الى مقره ، وأمر ببشرة افرادها ، وسوق اكثرهم الى جبهة القتال وتوزيعهم على قطعاتها . ولعل ذلك بادرة للتحويل في سياسة جمال نحو العرب ، فقد كانت الخطة المرسومة بينه وبين زملائه اركان حزب الاتحاد والترقي الحاكم . ان يتحين الفرصة ، للقضاء على اليقظة العربية وخنقها في المهد . وكانت مدرستنا اسمها « برنجي مكتب سلطاني » اي المدرسة السلطانية الاولى ، تميزاً لها عن المدرسة السلطانية الثانية التي كانت تدرس باللغة العربية كنتيجة للاتفاق بين احرار العرب ، وبين حكومة الاتحاد والترقي ، قبل الحرب ، اذ سمحت الحكومة التركية بناء على حركة الاحزاب والجمعيات العربية ومطالبها ، بان تفتتح الدولة الى جانب المدرسة الثانوية التركية في كل من مدينتي بيروت ودمشق مدرسة ثانوية أخرى تلقي دروسها بالعربية على الطلاب . وقد الغيت هاتان المدرستان في السنة الثانية من الحرب الكونية ، وجيء بطلابهما الى المدرسة

الثانوية الأولى في كل من دمشق وبيروت ، وألغى التدريس بالعربية في المدرسة
الاعدادية في حماة ، وهي مدرسة متوسطة ذات خمسة صفوف إعدادية ، وصف
واحد احتياط . وتخرج اخي الثاني صبحي الرئيس من مدرستنا في دمشق ، وعين
معلماً في الصفوف الابتدائية ، ومعيداً أي ناظراً في مدرستنا ، لمدة سنة
واحدة ، ثم دعي الى الجندية والتدرب في استانبول ، وتخرج ضابط صف استخدم
في عمل غير مسلح بسبب ضعف في عينه ، من جرح اصابه قرب العين في طفولته .

الروح القبيلية في حماة

- ٤ -

ولهذا الجرح قصة تروى ، فقد كانت مدينة حماة تعيش حتى ذلك الحين على
شيء من العادات القبيلية ، إذ كان المتعلمون فيها قلة ، وكان اطفال كل حي
يتجمعون في ساعات لعبهم ، ويغزون اطفال الحي المجاور لهم ، وينتظم الفريقان
في ساحة أو شارع أو زقاق يتراجمان بالحجارة ، ويستخدمان المقاليع في تبادل
الرجم . والمقلاع تجدل عادة من خيوط قوية ويصبح كحبل رفيع في وسطه
مكان عريض مقعر لوضع الحجر فيه . ويناط احد جانبي المقلاع بعروة تدخل
في اصبع من اصابع اليد اليمنى ، والجانب الثاني بخيطان من الحرير تخرج صوتاً
عند قذف الحجر . ويمسك المقلاع من جانبيه باليد اليمنى ، بعد ان توضع
الحجرة في مكانها من وسطه ، ويلوح الضارب بالمقلاع تلويحاً دائرياً من فوق
الرأس ، ثم يطلق الجانب بعزم ، فيخرج الحجر ، ويذهب بعيداً الى الهدف بقوة
لا تستطيعها اليد المجردة مهما بلغت من القوة . وكان اخي صبحي انتظم مرة مع
صبيان الحي فيما يسمون « الكون » ، أي القتال ، واصيب في المعركة بحجر في
حاجبه سبب له جرحاً غشى العين الواحدة بماء اسود حجب عنها النور والرؤية ،
او اضعفها ضعفاً ازداد مع الايام .

وقد انخرطت في طفولتي كثيراً في مثل هذه المعارك في مدينة حماة . ولما انتقلت مع الاسرة الى بلدة الكرك بحكم وظيفة والدي ، وجدت ان عادة النزال بالحجارة معروفة في الكرك . وفي مساء احد الأيام طلبت مني والدتي أن أذهب الى السوق ، وكان بعيداً عن دارنا ، مصطحباً معي اخي سعيد ، وهو أصغر مني بنحو عامين ، لشراء رطل من السكر ، لم تفتن لشرائه في النهار . وكان الليل عند عودتنا بدأ يرخي سدوله على البلدة ، فصادفنا بجانب ميدان السبق ومسجد عمر الذي لم يتم بناؤه ، جماعتين من الصبية تتراشقان بالحجارة ، جماعة ظافرة احتلت دمنة (مزبلة) عالية تشرف على الميدان ، وجماعة منهزمة إلى الميدان ، تراجع بانحدار تحت وابل من حجارة الظافرين . وكنت مع أخي في الطريق أقرب إلى الفريق المهزوم ، فاسلمته السكر المشتري ، وطلبت منه أن يقف في مكانه متفرجاً بعيداً عن ساحة الرمي ، ثم تقدمت مندفعاً أصعد الدمية حاثاً الفريق المهزوم على العودة . وقد قدت بحركتي الهجوم ، وقلبته من هزيمة إلى ظفر ، إذ تقدم بعض الصبية ورائي ، وتردد آخرون ، والحجارة تنز من حولي ، وتتساقط حولي وعلي . وقبل أن أبلغ القمة اصابتني رمية محكمة من يد في جبهتي بين الحاجبين ، ونفر الدم فوراً من جرحها ، وسال على وجهي ، ولكنني لم اشعر بالألم ، ولم اتوقف ولم يشنني الجرح والدم عن متابعة الهجوم حتى بلغت القمة ، واحتللتها ، وانهزم الصبية الظافرون الاول ، عندما رأوا الفريق المنهزم يصل ورائي إلى حصنهم الشاهق ، ويحتله . وأحاط بي الرفاق الذين نصرتهم يمسخون الدم عن وجهي ، ثم جاءوا بباريق ماء غسلت به وجهي ، وصبرت حتى انقطع النزف ، ثم ودعتهم ، وانصرفت منكساً طرف طربوشي على جبهتي حتى لا ترى والدتي الجرح . وقد سلمتها السكر وهي تهییء الشاي للاسرة ، وانصرفت بسرعة ، وتسالت إلى فراشي في الغرفة الاخرى ، باكراً على غير عادتي . وكنت أوصيت أخي ان يكتم خبر جرحي . ولكن والدتي ، لما تساءلت عن سبب ذهابي مبكراً إلى النوم ، دون شرب الشاي ، وخافت ان تكون هناك وعكة أملت بي ، همس اخي في اذنها ، وباح لها بالسر ، وسرعان ما

اقبلت الى فراشي تكشف عن الجرح ، وتمطرنى بوابل من اللوم والتقريع ، والدعوات غير الصالحات بسبب شقاوتي ، ثم ضمدت جرحي . ولما ذهبت في الصباح الى المدرسة سخر رفاقي التلاميذ من الضهاد ، وعدوه ميوعة لا تتناسب مع الموقف الذي سبب الجرح ، فنزعت الضهاد عن الجرح في المدرسة ، واعدته عند عودتي الى البيت ، حتى شفي الجرح .

ويلات الحرب

عدت في مطلع صيف عام ١٩١٥ من المدرسة في دمشق الى حماة لقضاء العطلة السنوية ، فشعرت أنهم يشكون غلاء الحاجيات ، وفقدان الكثير منها بسبب الحصار البحري المضروب على الدولة ، وخاصة غلاء لقمة العيش ، والقمح من انتاج البلاد ، الا ان السلطات العسكرية كانت تتصرف به . لقد كانت الدولة العثمانية دولة متخلفة لا أثر للصناعة في بلادها ، عدا صناعة اليد ، لذلك قامت السلطة العسكرية بمصادرة كل ما في حوانيت التجار ومستودعاتهم من بترول واقمشة صالحة للملابس الضباط والجنود ، بل صادرت الأجواخ كلها ، بأنواعها ، وصادرت معها الكثير من السلع الاستهلاكية . ولعبت الرشوة دورها في هذه المصادرات التي كانت الحرب المبرر لها . وأذكر أن التاجر خالد الرئيس ابن عم والدي ، وداره مجاورة لدارنا ، اوقف طاحوناً بمحرك يدار بالبترول « زيت الكاز » ، كان اقامها في قرية « تل سنان » من اعمال قضاء سلمية شرقي حماة ، واخفى في بيته عدداً من صناديق الكاز التي كان استوردها قبيل الحرب لتشغيل الطاحون ، وفرها لما وجد اسعارها في السوق ترتفع ارتفاعاً جنونياً . وقد نقل هذه الصناديق مرة في الليل الى منزلنا خشية التحري عنها في بيته كتاجر وصاحب مطحنة ، ولأن والدي موظف في الدولة بعيد عن شبهة الاحتكار ، يعجز ان يشتري صفيحة بترول ، بعد ان بلغ ثمنها بضع ليرات ذهبية ، فقد لا يشتري راتب والدي كله صفيحة كاز واحدة في تلك السنة من

الحرب . وكانت الدولة طرحت لأول مرة العملة بالورق ، بعد ان كانت تتعامل بالذهب والفضة والعملة المعدنية ، واخذ سعر « البنكنوت » ، كما يسمونه ، يهبط كلما تقدمت جيوش الحلفاء في جبهات القتال . والشعب العربي ، لم يألف من قبل التعامل بالعملة الورق ، وليس هو كثير الولاء للحكومة التركية التي كانت بدورها تضمّر الشر والكراهة له ، لا سيما بعد ان أخذ يتحسس بقوميته ، ويطالب بحقوقه المهضومة . وهكذا أصبح لليرة الورقية سوق للبورصة بالنسبة للذهب ، تتراوح بين هبوط وصعود حسب أحداث الحرب ، والتنبؤ بعواقبها . إلا أن الهبوط أخذ مع كل السنين يزداد ، وارتفعت اسعار الحاجات ، واسباب العيش ، وساءت الأحوال ، وجاع الفقراء ، واخذت الحرب تنهك الدولة العثمانية . وكانت بلاد الشام لا تغرف الإنارة بالكهرباء ، إلا في دمشق وبيروت ، فقد سبق ان نالت شركة اجنبية امتياز تنوير دمشق بالكهرباء من شلال وخزان للماء اقامتهما على نهر « بردى » في موقع بين التكية وسوق وادي بردى على خط بيروت - دمشق الحديدي .

وكانت مدينة حماة تستنير بالبترول ومصايبحه ، فعادت في سني الحرب تستنير بسرج زيت الزيتون والشمع وغيرها من الوسائل البدائية الاولى ، ولولا الاتصال البري بين الدولة العثمانية وحليفاتها في الغرب لفقدت اسواق الدولة العثمانية كل انتاج غربي . وفعلاً كانت المواد المفقودة كثيرة لأن وسائل النقل بين تركيا والغرب مستخرّة للنقل العسكري ، ومعامل الغرب لا تنتج إلا الضروري لآلة الحرب ، والبلاد العربية بعيدة كل البعد عن العاصمة استانبول المدينة التاريخية الموزعة بين قارتي آسيا واوربا على البوسفور . إلا ان مدينة حلب ، أصبحت بحكم موقعها ، مركزاً تجارياً مهماً للاستيراد والتصدير ، لأنها ترتبط بخطوط حديدية بالأناضول التركي ، وبالموصل والعراق العربي ، ودمشق وبيروت والحجاز ، عدا الطرق الأخرى التي تربطها بالساحل السوري ومنطقة الفرات ، وتعمل عليها القوافل . وكانت منطقة الفرات لواءً مستقلاً اسمه « لواء دير الزور » مرتبط مباشرة بالعاصمة استانبول .

لقد استحكم الغلاء ، واحتكرت الدولة مواد الغذاء لجيوش حلفائها في الغرب . وخاصة منها الحبوب التي يقل انتاجها في المانيا والنمسا ، حتى اصبحت أسعار الحاجات الضرورية خيالية ، ولولا ان الدولة كفلت في سنوات الحرب الاخيرة توزيع الخبز والدقيق بالبطاقات على الأهلين ، لقتلت المجاعة اكثر سكان البلاد العربية التابعة يومئذ للدولة العثمانية . لقد بلغ الغلاء حداً ان الليرة الذهبية اصبحت لا تشتري أكثر من بضعة كيلوات من الخبز ، فقد بلغ سعر قنطار القمح ، ويعادل القنطار ربع طن ، ثلاثين ليرة ذهبية واكثر ، واصبح راتب الموظف المتوسط المرتبة لا يساوي بسبب هبوط النقد ليرة أو ليرتين ذهبيتين ، وأخذت المجاعة تجتاح لبنان الذي كان له استقلال ذاتي بكفالة الدول الاجنبية ، وخاصة منها فرنسا ، فقد اتبعت الدولة العثمانية نحوه سياسة خاصة انتقامية ، خلال سنوات الحرب ، أخذ احمد جمال قائد الجيش الرابع ينفذها بلؤم ، فيحول دون وصول القمح والدقيق ومواد الغذاء اليه ، وهو بلد جبلي لا ينتج إلا القليل من الحبوب ومواد الغذاء ، فاستشرى فيه الغلاء ، وانقطع ما بينه وبين ابنائه المغتربين في المهاجر ، حيث كانوا يمدونه بمساعداتهم لأسرهم واهليهم ، ثم عصفت المجاعة بابنائهم ، وخاصة في المنطقة التي كانت تسمى متصرفية لبنان ، والتي ألغت الدولة العثمانية امتيازها في مطلع الحرب . وكان طبعياً ان يهجر اللبنانيون قراهم بحثاً عن العمل والقوت ، وان تتدفق هجرتهم الى المدن الداخلية من بلاد الشام ، وخاصة الزراعية منها ، وان تعيش مدينة بيروت ايضاً تحت وطأة الغلاء والمجاعة ، لان تدابير الحصار المفروضة على لبنان المحيط بالمدينة كانت تؤثر على تموينها ، وتعرقله ، لا سيما وهي تغرسدت طرق البحار في وجهها من اليوم الذي أعلنت فيه الحرب ، واصبحت مهددة باساطيل الحلفاء تغزوها او تقصفها . وكم شوهت النسوة والفتيات اللبنانيات هائبات على وجوههن في سهول حمص وحماة بحثاً عن العمل والقوت ، يتغذين بالحشائش ، لانهن كن من الفقر لا يجدن ثمن الرغيف . لقد اضطر الكثير منهن للزواج من الاعراب في

البادية ، وسكنى المضارب والرحيل اتقاء الموت جوعاً ، واضطر بعضهم للخدمة في المنازل . ولما قررت الدولة العثمانية تهجير الأرمن من ديارهم في الأناضول الشرقية الى البلاد العربية ؛ لتفتيت قوميتها بقوميات أخرى ، كانت الشام أقرب البلاد العربية اليهم ، فازدادت بهجرتهم الحال سوءاً في ديار الشام ، وبدأت المجاعة تجتاح المدن الداخلية الزراعية ايضاً ، وتفشت الأمراض الخبيثة والحميات ، ينقلها المهاجرون الأرمن معهم ، أينما حلوا أو رحلوا . وكنت في أثناء العطلة الصيفية أشاهد قوافل الأرمن يسوقها رجال الدرك ، فتؤم حماة ، وينزل أفرادها الذين أنهكهم السير ، وفتك بهم المرض والجوع ، على ضفة نهر العاصي يشربون ، ويغتسلون ، ويغسلون ثيابهم وأقذارهم ، وقد تفشت بينهم الأمراض والحميات ، فقتلت الكثيرين منهم في الطريق . وحماة تشرب ماء العاصي تنضحها النواعير ، وتنقلها المجاري الى الآبار ، دون تصفية فنية وتعقيم ، فوفدت اليها الحميات بأنواعها مع هؤلاء المنكوبين المنكودين ، وسرت الى سائر البلدان الشامية ، حتى لم ينج منها أحد ، ومات خلق كثير بالتيفوس ، والتيفوئيد ، والحمى النمشية ، والحمى الراجعة ، والحمى الصفراء ، الى آخر ما هنالك من حميات وامراض سارية . هذا الى جانب المجاعة التي كانت تقتل الفقراء والعاطلين عن العمل بسبب الحرب . وأذكر ان الجياع كانوا في فصل الربيع يقتاتون بالحشائش والاعشاب وبقشور الخضار يلتقطونها من بؤر القمامة في الأزقة ، فلا تغذي أجسامهم وحدها ، ويدركهم الورم ، وتنتفخ البطون والوجوه الشاحبة ، ثم يتساقطون موتى في زوايا الأزقة والشوارع ، حتى ضاقت بالموتى المقابر . لقد كان مشهد الصبية والاطفال الجياع مثيراً ، وهم يتسولون في الشوارع والاسواق ، ومنهم من كان يختطف من الباعة ومن أيدي الناس كل ما تقع عليه عينه من الغذاء ، هذا يغرف بيديه من ماعون اللبن الحائر أو الرائب ، اذا رآه بيد تحمله من السوق ، وذاك يتلصص بقدميه الحافيين وراء حامل الوعاء يتحين الفرصة للغرف والخطف ، فاذا تلفت صاحب الماعون فر الجائع واللبن يقطر من يديه وفمه . حتى الجنود

كانوا جوعاً ، يخرجون من صفوفهم مشاة ، ويهجمون في أسواق المدن وشوارعها على الحوانيت وباعة الأطعمة ، يتخطفون ما تصل اليه أيديهم . وكلما مرت سرية من الجند في شوارع دمشق وأسواقها ، كنا نرى الباعة المتجولين يفرون بصوانيتهم وعرباتهم التي تحمل المأكّل الجاهزة والحلوى خشية أن يتخطفها الجنود الجوع من بين أيديهم .

القطر تسير بسرعة السلاحف !

لقد قلنا إن الدولة العثمانية خاضت الحرب العالمية الاولى ، وهي غير مستعدة لها ، فالمواصلات في بلادها جد قليلة ، ووسائل النقل صودرت لتستخدم في آلة الحرب ، حتى أصبحت شبه معدومة ، وليس بين العاصمة وبين البلدان العربية غير خط حديدي واحد لم تكمل أجزاءه ، والفحم الحجري كوقود للقاطرات انقطع استيراده بسبب الحرب والحصار البحري ، وكان لا بد لسير القطر من وقود ، لذلك طرحت الحكومة في المناقصات العامة قطع الأشجار من الأحراج والبساتين ، ونقلها الى المحطات ، وبذلك أصبح سير القطر بالاحطاب أشبه بسير السلاحف . وفي الليل كان الناس يسمعون في المدن التي تمر بها القطر اصواتاً مزعجة للقاطرات ، وهي تلهث ، وتنثف دخاناً اسود ، كأنها تعبئة منهوكة مما تجر ، فلا تصل الى المحطة إلا وضجيجها يصك الآذان . وكان أي ارتفاع أو صعود في الطريق يعرض القطار الى التوقف مرات من الوهن . وكثيراً ما كان الركاب ينزلون من القطار ليسيروا على مهل في التلال والمرتفعات الى جانب القطار ، مطمئنين الى انه لا يسبقهم ، حتى إذا بلغ الذروة تعلقوا بأبوابه ، واجتازوا المنحدر والسهل ، ثم عادوا سيرتهم الاولى ! لأنهم كانوا يخشون ان يكرّ بهم القطار الى الخلف ، ويتدهور في المرتفع ، ويذهبوا ضحايا كارثة من كوارثه الكثيرة . وكان طبيعياً ان يقضي قطع الأشجار في سنوات الحرب على الأحراج والغابات وأكثر البساتين في ديار الشام ، فلا يسلم منها إلا ما كان

بعيداً عن المدن والخط الحديدي ، تبهظ تكاليف نقله المتعهدين والمقاولين . وقد سبب قطع الاشجار تبدل المناخ في ديار الشام ، واصبح يغلب عليه الجفاف ، وتضاءلت نسب الأمطار ، وساءت المواسم الزراعية ، حتى ان حوران التي كانت اهراء دمشق ولبنان في الحبوب ، اصبحت شحيحة الأمطار ، لا تخصب أرضها سنة إلا لتمحل سنوات . ان بلاد الشام كلها تعاني الى اليوم عواقب قطع الأشجار من غاباتها وبساتينها ، فتمحل أرضها البعل في أكثر السنوات .

أحلام السفاح تتبدد !

- ٥ -

قلنا ان الفريق احمد جمال قائد الجيش الرابع أخذ يعد العدة لغزو مصر ، ويستثير حماسة الشعب العربي ليضع كل إمكانياته في تجهيز الحملة العسكرية إلى قناة السويس ، ويتقرب الى رجال الحركة العربية الذين تجاوبوا معه ، وتخلوا عن مطالب أحزابهم وجمعياتهم من الدولة في الإصلاح المنشود لبلادهم العربية ، سعيًا وراء وحدة الصف ، وضمن النصر للدولة العثمانية في الحرب التي زجت نفسها في غمراتها ، تدفعهم الى ذلك وطنيتهم ، ومعرفتهم أن الدول الاستعمارية تتآمر منذ زمن بعيد على اقتسام تركة الدولة العثمانية ، حتى كانوا ينعتونها بالرجل المريض ، وعلمهم ان بلاد العرب ستصبح ، في حالة هزيمة الدولة العثمانية فريسة للاستعمار . ولكن احمد جمال باشا كان يضمهر مطامع واحقاداً دفينية ، فهو يحلم ان نجح في عبور قناة السويس ، وفتح مصر ، ان يستغل يقظة الأمة العربية ، فيجعل من البلدان العربية ، وعلى رأسها مصر ، مملكة يجلس هو على عرشها ، ترتبط اسمياً بدولة الخلافة ، حتى قيل انه ، في لقاء تم له مع بعض رجال الحركة العربية ، في حانوت آل البكري ، في قرية القابون ، من قرى غوطة دمشق ، صرح بمنا يخامرهم ، ويدغدغ احلامه ، ووعد بأنه سيحقق هو بنفسه مطالب العرب ، بأن

يكون لهم كيان ، واستقلال ذاتي ، وذلك رهن بنجاح حملته على قناة السويس ، وغزو مصر . ولما فشل الهجوم التركي على قناة السويس ، وعجز الجيش العثماني عن عبورها ، بالقرب من مدينة الاسماعيلية ، وهزم ، وعاد ممزقاً ، انزل الانكليز قواتهم في ثغر غزة ، بدلاً من الاسكندرونة ، حسب مخطط لهم قديم لفصل بلاد الشام أو البلاد العربية عن تركيا ، وأنزلوا أيضاً قواتهم في البصرة للزحف على العراق ، وبذلك طارت احلام الفريق احمد جمال ، وتبددت في الجلوس على عرش المملكة العربية ، ولم يبق أمامه إلا تنفيذ الخطة المرسومة في استانبول ، للقضاء على اليقظة العربية ، وضرب كل حركة قد يقوم بها الحسين شريف مكة بجيش فخري باشا الم رابط في المدينة المنورة ، تحت ستار الزحف الى اليمن . وكان احمد جمال استحضر الامير فيصل نجل الحسين الى دمشق ، باسم تمثيل والده لديه . وأبقاه رهينة الى جانبه ، ثم أمر باعتقال رجال الحركة العربية ، من كان منهم في الاستانة ، ومن كان منهم في ديار الشام ، أو في الولايات الاخرى ، وساقهم الى السجن في بلدة « عاليه » حيث كان يصطاف كل سنة في لبنان . وعين لمحاكمتهم ديوان حرب ، أي محكمة عسكرية ، وجمع لاتهمهم بالتآمر على الدولة العثمانية دولة الخلافة كل ما عثرت عليه المخابرات التركية من وثائق وأوراق تتعلق بالقضية العربية ، وبأحزابهم وجمعياتهم ، في منازلهم ومكاتبهم ، أو في دور السفارات والقنصليات للدول الأجنبية التي اشتبكت تركيا معها في الحرب . وكان الشبان العرب ورجالاتهم ألفوا وأسسوا جمعيات واحزاباً اشهرها المنتدى الأدبي في فروع العاصمة . أسسوه عام ١٩٠٩ ، وأسسوا جمعية العربية الفتاة عام ١٩١١ سرية في باريس ، وجمعية العهد الجديد عام ١٩١٣ في فروع ، وتضم نخبة الضباط العرب في الجيش العثماني . وكان المؤتمر العربي عقد عام ١٩١٣ في باريس ، واتخذ مقررات أعلنها للملأ ، ودارت على أساسها مفاوضات بين الحكام الترك ورجال الحركة العربية في استانبول أسفرت عن القبول ببعض المطالب العربية ، كإنشاء مدارس في البلاد العربية يجري التدريس فيها بالعربية ، وتعيين بعض رجالات العرب في بعض المناصب . كذلك

تأسست في عام ١٩٠٨ جمعية الإخاء العربي في استانبول ، ولكن حياة هذه الجمعية لم تطل . وتأسس في مصر عام ١٩١٢ حزب اللامركزية العثماني .

الغدر بالرواد الأوائل



الشهيد أمين لطفي الحافظ

اثر اعتقال رجالات العرب في سجن عاليه ، سرعان ما أصدر ديوان الحرب العرفي احكامه على طائفة منهم ، ونفذ حكم الموت شنقاً في ٢١ آب ١٩١٥ في بيروت بالشهداء : عبد الكريم قاسم الخليل ، وصالح حيدر ، والأخوين محمد ومحمود الحمصاني ، ومسلم عابدين ، ونايف تلو ، وعبد القادر الخرسا ، وعلي الأرمنازي ، ومحمود العجم ، وسليم عبد الهادي ، ونور الدين القاضي ، كما نفذ حكم الاعدام في ٦ ايار عام ١٩١٦ بالشهداء : شكري العسلي ، وعبد الوهاب

الانكليزي ، والامير عارف الشهابي ، وعبد الغني العريسي ، وعمر حمد ، وتوفيق البساط ، وسليم الجزائري ، وامين لطفي الحافظ ، وشفيق العظم ، والأمير عمر الجزائري ، ورفيق رزق سلوم ، ومحمد الشنطي ، وسيف الدين الخطيب ، والشيخ أحمد طيارة ، ورشدي الشمعة ، وجرجي حداد ، وسعيد عقل ، وباترو باولي ، وعبد الحميد الزهراوي ، وجلال البخاري ، وعلي الحاج عمر . قافلة منهم أعدمتم في دمشق شنقاً في ساحة المرجة التي سميت منذ يومهم بساحة الشهداء ، وقافلة أعدمتم شنقاً في ساحة البرج التي سميت منذ يومهم بساحة الشهداء . وكنت يومئذ طالباً في المدرسة السلطانية الاولى في دمشق ، وشهدت بأم عيني الشهداء يتأرجحون على أعواد المشائق في ساحة المرجة . وكنت أعرف شخصياً من بين هؤلاء الشهداء علي الارمنازي صاحب جريدة العاصي التي كان

يصدرها في حياة ، فقد كانت أسرته جيراناً لنا ، لذلك عرفته وعرفت والديه
واخوته . لقد هز حادث إعدام هذه الباقية النضرة من رجالات العرب وشبابهم
البلاد العربية من أقصاها الى أقصاها ، هزاً عنيفاً ، وكان أثره بالغاً في النفوس ،
وخاصة في الأوساط النيرة ، وفي أوساط الطلبة العرب ، فقد أيقظنا هذا
الحادث ، على صغرنا في السن ، على واقعنا المؤلم ، وعلى أننا عرب نختلف عن
الأتراك الذين يحكمون بلادنا حكماً إرهابياً ، يذهب برجالنا النيرين ، وزهرات
شبابنا المثقف الى أعواد المشانق ، لا لسبب ، إلا لأنهم طالبوا بحقوق مشروعة
لأمتهم . وأدركنا ان « توران » الذي نتغنى به في الأناشيد التي يعاموننا إياها
على مقاعد الدرس ، وفي الكتب ، ليس يحدنا الأعلى ، بل هو جد الترك المغول
المتسلطين على بلادنا .

لقد زاد الحادث كرهنا للترك ، وفتح هوة بيننا وبينهم ، وأصبحنا في العابنا
المدرسية نحاول الثأر لشهداءنا من زملائنا الطلاب الأتراك الذين أخذوا يتكثرون
ضدنا ، وأخذنا بالمقابل نتكثل ضدهم ، فنتضارب بقسوة في العاب كرة اليد ،
ونتصادم بحقد في العاب كرة القدم ، ونتعصب لقوميتنا عند كل خلاف ينشب
بين عربي وتركي في نطاق المدرسة . وكنا كثرة نخشاها الطلاب الأتراك ، وكلهم
من أبناء الموظفين ورجال الجيش وأبناء قتلى الحرب ، فقد كانت حكومة الآستانة
توزع أبناء شهداء الجيش ، في مطلع كل عام دراسي ، على المدارس والمعاهد
الحكومية في الولايات ، وتفرضهم بكثرة على المدارس في المدن العربية داخلين
بالمجان على حساب الدولة ، ليتم بخلطهم بالعرب برنامج التتريك الذي رسمته
للبلاد العربية ، فينشأ الطالب العربي ، وخاصة الداخلي ، في جو مدرسي يرطن
بالتركية ، ويتلقى كل علومه ودروسه بالتركية ، ولا يقرأ من التاريخ غير أمجاد
طوران ، وهولاكو ، وجنكيز وسلاطين آل عثمان .

لم يعد ، بعد فاجعة الشهداء يثيرنا نشيد : « توركز يشارز بز كينمز له ! » ،

ومعناه : « نحن اتراك نعيش باحقادنا » ، بل أخذنا نؤشد في مناسباتنا المدرسية النشيد الذي أنشده الشهداء ، وهم يسرون الى اراجيح البطولة : « نحن أبناء الألى .. شادوا مجداً وعلا .. نسل قحطان الأبي .. جد كل العرب » . وقد ولد الخلاف المستمر بين الطلبة العرب والأتراك في مدرستنا تحزب المعلمين الاتراك للطلاب من بني قومهم ، وابداء كرههم للطلبة العرب ، دون ان يقابله تحزب من المعلمين العرب ، لأن اكثرهم كان من العرب اللاجئين الى الدولة العثمانية ، من أهالي تونس ، أو مصر أو المغرب الذين سقطت بلادهم فريسة للاستعمار الأجنبي .

مقابلة التحدي بالتحدي

وأذكر بهذه المناسبة الاستاذ بهاء الدين كتحدا مدرس الأدب التركي في مدرستنا ، فقد كان لا يستطيع ان يضبط أعصابه ، ويخفي كرهه للطلاب العرب ، فينتحل الاسباب الواهية للتهجم عليهم في دروسه ، وخارج دروسه ، ويعلن دوماً تقديره للطلاب الاتراك ، تحت ستار انهم مبدعون في درس الادب التركي ، كما أن الاستاذ موسى كاظم مدرس الطبيعيات - الفيزيا والكيمياء - في المدرسة كانت من المدرسين الاتراك الذين ينهجون نهج زميله كتحدا ، يدعمها في هذا الشعور ذكائي قرنرابا المدير الثاني ومدرس التاريخ والجغرافيا في المدرسة ، حتى أن موسى كاظم مدرس الطبيعيات وجهه إلي في احدى المناسبات شتيمة ، لأنني دخلت دكان البائع أثناء دق الجرس ، والدعوة للانتظام في الصف ، قائلاً : « مسكين ! » ، وهي كلمة تعني بالتركية : « يا ذليل ! » أو « يا حقير ! » فاضطرت لأن أرد الشتيمة نفسها اليه ، وأقول له : « أنت الحقير ! » . وكادت هذه الحادثة أن تؤدي إلى إنزال عقوبة قاسية بي ، قد تبلغ حد الطرد الموقت من المدرسة ، لولا ان الاستاذ رأفت المدير الاول ومدرس الرياضيات في المدرسة ، وهو من مدينة « اورفه » ، ومن الاتراك المعتدلين ، ومن المقدرين لاجتهادي في دروسه ، وقف إلى جانبي ، واعتبر بحضور المدير الثاني ، ومدرس الطبيعيات

انتهاء الحادث ، لانه كان البادىء بالشم ، وكان موقفى منه رداً على تحديده ،
وتجاوزه النظام . وتلافى المديران الحادث ، بأن طلبا منى الاعتذار للأستاذ ،
وطوي أمر العقوبة التي كان يصر عليها معلم الطبيعيات ، وهو احد المدرسين
الذين أوفدتهم العاصمة إلى البلدان العربية لينفذوا برنامج تترك الطلاب العرب ،
ويناهضوا شعور القومية الذي اخذ يتحسس به المثقفون العرب ، قبل سواد
الشعب المتشبع بالتعصب الديني الذي غذاه الاتراك ، وأسبغوا على حكمهم هالة
من القدسية باسم الدين والمذهب والسلطان خليفة المسلمين .

لم يقف الحكام الترك عند حد تعيين خريجي جامعة الاستانة من الشبان
الاتراك المشبعين بالروح الطورانية أساتذة ومعلمين في البلدان العربية ، بل عينوا
إلى جانبهم اللاجئين من أحرار مصر وليبيا والمغرب العربي الذين ناهضوا الاستعمار
البريطاني ، والفرنسي ، واليطالي ، والاسباني في بلادهم ، واضطر بعضهم ، عند
الملاحقة للفرار من أوطانهم ، لاجئين إلى دولة الخلافة ، يحدوهم إلى ذلك
شعورهم الديني ، حيث لم تكن في أقطارهم يقظة قومية عربية ، فقد عزل
الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا أهلها عن سائر أجزاء الوطن العربي ، وأبعد
شعوبها عن تيار القومية العربية ، حتى أنه زيف التاريخ ، وزعم في الكتب
المدرسية أن الجزائريين أصلهم من الغال ، والتونسيين من الوندال الذين جاءوا
شمال افريقية من الغرب ، واستوطنوا فيها ، وزعم أنهم نسوا بعد الفتح الاسلامي
لغتهم ، ودانوا بالاسلام . والانكليز الذين احتلوا مصر ، عزلوها أيضاً عن تيار
القومية العربية ، وقالوا لأهلها انتم فراعنة ، وانتم مسلمون ، وانتم شرقيون ،
ولكنهم لم يقولوا لهم انتم عرب ، ومن صميم العرب . لذلك ظل سواد الشعب
المصري يحن إلى ماضيه قبل الاحتلال الاجني ، يوم كان مستقلاً في بلده ، يرتبط
اسمياً بالدولة العثمانية ، باعتبارها دولة الخلافة للمسلمين . لذلك كان المصريون في
الحرب الكونية يتمنون النصر للدولة العثمانية على الانكليز المحتلين ، في حين ان
عرب المشرق ثاروا على الدولة العثمانية التي قتلت أحرارهم ، وشردت ألوف

العائلات منهم إلى بر الاناضول ، وقررت صهرهم في بوتقة القومية التركية ، ورسمت الخطط لتهجير سبعين الف عائلة عربية ، قدر أنها مثقفة ، إلى بر الاناضول التركي ، إلى جانب تهجير الارمن والاكراد والشركس والأتراك إلى البلدان العربية ، ليتم لها بذلك عملية المزج والصهر مع تنشئة النشء نشأة تركية ببرامج التعليم التي وضعت لهذا الغرض . لقد كان استاذ اللغة العربية في مدرستنا شيخاً مصرياً معماً من اللاجئين إلى الدولة العثمانية ، واسمه عبد الله من خريجي الأزهر . درسنا العربية في الصفوف المتوسطة أو الإعدادية حسب البرنامج الموضوع لها . ساعتان في الاسبوع الواحد ، كان لا يخرج فيهما عن كتاب للقراءة أضعف من الكتب التي تدرس اليوم في الصفوف الابتدائية الاولى ، وعن تصنيف الافعال متمثلاً بفعل نصر نصرا إلى آخر تصنيف هذا الفعل ماضياً ومضارعاً وأمرأ . ويوم زوال الحكم التركي عن البلاد العربية في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لم يكن العربي خريج الثانوية أو الجامعة يعرف ضبط أي حركة من حركات الإعراب في لغته ، فيقرأ الكلمات مغلوطة ، ولا يحسن انشاء موضوع بلغته الفصحى . كذلك كان « مسيو » صالح استاذ اللغة الفرنسية من أحرار تونس اللاجئين إلى الدولة العثمانية من ظلم الفرنسيين ، لا يتورع في دروسه ، عن الهزء بدعاة القومية العربية ، وعن السخرية بالمتغنين منا نحن العرب بعدنان وقحطان ، مشيراً الى زميل لنا أشقر الشعر أبيض الوجه ، متسائلاً : « كيف يمت زميلكم توفيق هذا بشقرته الى قحطان أو عدنان ؟ ومن أين جاء بزرقة عينيه وبياض بشرته ، من جده عدنان ، أم جده قحطان ؟ .. » وكان في أحاديثه التي كان يقصدها ينفي أن يكون الدم العربي في عروق أحد منا !

الولد إن بار .. ثلثاه للخال ...

كان أخي صبحي الرئيس دعي في أواخر عام ١٩١٦ الى الجندية ، ونقل الى

الاستانة للتدريب في معسكر تخريج ضباط الاحتياط . وكان الشيخ عبد القادر المبارك استاذ اللغة العربية في مدرستنا تعرف الى خالي محمود الرئيس والدا الصحافي الوطني المعروف نجيب الرئيس ، خلال زيارته العديدة لمدرستنا ، ولتفقد شؤوني وشؤون أخي صبحي يوم كان طالباً معي في مدرسة « عنبر » ، وأعجب الاستاذ المبارك بخالي كشاعر وأديب في العربية . وبعد سفر أخي الى الهندية ، انقطع تردد خالي محمود على المدرسة لزيارتي وزيارة صديقه الشيخ المبارك ، وعرفت أنه نقل من وظيفته كشرطي للجيش في دمشق ، وسيق إلى جبهة القتال في فلسطين . وكان خالي يؤدي خدمة العلم كسائر رعايا الدولة . وفي مساء أحد الايام ، بينما كنت اذاكر دروسي مع سائر رفاقي الطلاب الداخليين ، اقترب من مقعدي الاستاذ المبارك الذي كان ليلتشد مناوباً يشرف على شؤون الطلاب الداخليين ، وسألني عن حال أخي صبحي في معسكر التدريب ، وهل أتلقى منه رسائل ، ثم همس في أذني بأن خالي محمود الرئيس يقرئني السلام ، وأنه في صحة جيدة .. ولما سألته عن مقامه اليوم ، وهل قابله بنفسه ، قال : « اطمئن !.. لقد فر خالك من الجيش ، والتحق بالثورة العربية .. » ، وعرفت من حديثه ان خالي لجأ اليه ، واختفى أياماً في مزرعة للشيخ المبارك قرب حوران ، وأنه هياً له السفر والوصول الى صديق له من أبناء جبل الدروز ، وان هذا الصديق ارفق معه من أوصله ، بطريق البادية ، إلى جيش الأمير فيصل نجل شريف مكة الذي كان يسمى بين جيوش الثورة بجيش الشمال ، وأنه تلقى من الصديق في جبل الدروز ما يشعر بوصول خالي سالماً إلى جيش الثورة العربية . ولقد كانت جرأة من الشيخ المبارك ان يطلع مرافقاً في الخامسة عشرة من عمره على سر فرار خاله من الجيش ، وما عمله هو نفسه في سبيل وصوله الى ميادين الثورة ، لأن اقتضاح هذا السر ، يودي بالشيخ المبارك الى ديوان الحرب العرفي ، وربما الى المشنقة ، لأنه سهل وصول ثائر الى ميدان الثورة العربية .. ولكن كانت النعرة القومية بين الطلاب العرب والاتراك بلغت اقصاها ، وخاصة بعد نشوب الثورة العربية ، فكان الاستاذ المبارك يدرك بأنني

سأكرم سره بحكم حماسي لقوميتي ، وحرصني على سلامة أسرة خالي من بطش
الأتراك ، وأنا من أقرب الناس إليه رحماً .

تراجع على جميع جبهات القتال

- ٦ -

استقبلنا عام ١٩١٧ الدراسي ، ووضع الدولة العثمانية يزداد سوءاً ، وأنباء
الحرب في جبهات القتال تشير كلها الى التراجع المستمر ، والحال الاقتصادية
تتدهور ، والمجاعة والأمراض تفتك بالشعب . وإذا استثنينا انسحاب جيوش
الحلفاء من الدردنيل بعد أن عجزت عن اختراق حصونه إلى العاصمة التركية ،
وإذا استثنينا أسر الجنرال « طاوسند » البريطاني في كوت العمارة من العراق -
إذا استثنينا هذين الانتصارين ، فإن الجيوش التركية ، في مدى سنوات
الحرب كلها ، لم تسجل في جميع المعارك ، نصراً ذا قيمة ، بل كانت معاركها
تراجعاً وهزائماً على طول جبهات القتال ، فالولايات الشرقية في بر الأناضول
تسقط مدنها ، بل ولاياتها تباعاً بيد الجيش الروسي الزاحف من القفقاس ،
وسوء حال الجيش التركي في تلك المناطق الباردة والثلوج يتحدث عنه الجميع ،
والجيش البريطاني يزحف في العراق من البصرة نحو الشمال في اتجاه بغداد ،
ومدينة القدس المقدسة في نظر أصحاب الأديان السماوية سقطت في ٩/١٢/١٩١٧
بيد الحلفاء ، والجيش البريطاني يتغلغل في فلسطين ، ويهدد مدينة نابلس ،
وجيش فخري باشا أصبح محاصراً في يثرب ، يحيط به جيش الأمير عبد الله من
أولاد الشريف الحسين ، والجيش العربي بقيادة الأمير فيصل يتقدم بعناد نحو
الشمال ، وينسف باستمرار القطر ، ويخرب الخط الحديدي بين يثرب ودمشق
ليشدد الحصار على جيش فخري باشا ، ويحتل جيش فيصل أخيراً العقبة ، وهي
مرفأ مهم بالنسبة لتموين الجيش ، ويهدد باحتلاله الجناح الأيسر من الجيش التركي

الذي يقاتل في فلسطين ، بل يصبح على مقربة من معان وعمان ودرعا ،
والاخيرة عقدة لاتصال الخطوط الحديدية ، يتلاقى فيها خطوط دمشق - المدينة
المنورة بخط درعا - حيفا ، وخط درعا بصرى الشام . وكان هناك خط آخر
بين درعا والمزيريب ! إلا ان الدولة التركية اقتلعت القضبان الحديدية لهذا الخط ،
ونقلتها إلى فلسطين ، ومدت بها خطاً يخدم مصالحها الحربية هناك . لقد أصبح
جيش فيصل باحتلال العقبة على صلة بجبل الدروز وعشائر بادية الشام . لذلك
أثر هذا الوضع السيء على تموين مدرستنا ، وعلى حياتنا اليومية فيها ، فقد
اهترأت ملابس الطلاب الداخليين الذين تكسوهم الدولة عادة ، وخاصة منهم
الطلاب الاتراك الذين لا أهل لهم ولا معيل غير الدولة ، وأصبحنا لا نذوق
اللحم أكثر من مرة في الاسبوع الواحد ، خلال برنامج طعامنا المدرسي ، واشتد
الغلاء ، وهبطت قيمة الليرة التركية الورقية . وكانت الافران في المدن
تزدحم كل يوم بالنساء والرجال للحصول على خبز البطاقة بالسعر المحدد والعملة
الورقية ، ولولا ان الحكومة ضمنت للموظفين مؤونتهم من القمح بالسعر الرسمي
والعملة الورقية التي يقبضون بها رواتبهم لما توا مع أسرهم من الفقر والجوع ،
وكيف لا يموتون والليرة الورقية أصبحت كل خمس منها بليرة ذهبية لا تشتري
أكثر من ثلاثة أرطال خبز او دقيق . واخذت آثار الجوع والبؤس تظهر على
وجوه الغرباء والاتراك من الطلبة الداخليين ، ونحلت اجسامهم التي لا تغطيها
غير أسمال بالية ، وخلقنا مهترأة ، فقررنا تأليف وفد من هؤلاء الطلاب
البائسين ، وايفاده إلى دار الحكومة لتقع عينا تحسين بك والي دمشق الاتحادي
على نماذج من طلاب الثانوية الرسمية الوحيدة في دمشق . وفعلاً ، وبعد محاولات
عديدة ، نجحت الخطة ، وأصبحنا ذات يوم لنرى فيه الخدم منهمكين في
تنظيف المدرسة ، وزجاج النوافذ والشبابيك ، ولنسمع من أفواه الخدم أن
الوالي قادم اليوم لزيارة مدرستنا . وفعلاً لم تمض الساعة الأولى على الدروس
حتى رأينا المديرين وعدداً من الأساتذة والموظفين يهرعون إلى الباب الخارجي ،
فأدركنا ، ونحن في صفوفنا نتطلع من النوافذ ، أن الوالي قد وصل . ولما

دخل الوالي صفنا الثامن ، وكان أقرب صف إلى الباحة والباب الخارجي ،
يرافقه مساعده فؤاد بك ، وهاشم بك مدير المعارف ، وعدد من المرافقين ،
والمدير الأول والثاني في مدرستنا . وكنت أجلس مع زميلي نصوح القادري في
أول مقعدين على اليمين ، فوقفنا تحية للضيف ومرافقيه ، وأبشار إلينا
بالجلوس . وكان وسيماً مهيباً ، ثم طلب منا أن يقف الطلاب الداخليون بالجان ،
أي على حساب الدولة ، فوقفت مع عدد من زملائي ، ولما كنت وحدي
في الصف الأول اقترب مني الوالي تحسین بك ، وسألني : « هل لباسك من
عطاء المدرسة ؟ » ، فأجبتہ : « كلا يا سيدي ! انه من مال والدي ! » ، قال :
« ماذا تأكلون كل يوم ؟ » ، قلت : « حساء الدقيق كل صباح ، ولون خضار
أو صحن برغل في وجبتي الظهر والمساء . أما اللحم فلا يقدم إلينا إلا مرة
واحدة في الاسبوع مع الحلوى ! » ، قال : « ألا يزور هاشم بك مدير المعارف
مدرستكم ، ويرى بنفسه حالكم ؟ » . قلت « بصوت منخفض كصوته » : « بلى
يا سيدي انه يزورنا في كل اسبوع ... يزورنا ظهر يوم الاثنين ليتناول على مائدة
خاصة مع كبار المسؤولين في المدرسة وجبة اللحم والحلوى ! .. » فابتسم
الوالي لهذا الجواب ، ويظهر انه أعجب به ! ، فقد التفت إلى فؤاد بك مساعده ،
وسأله : « هل سمعت ؟ » ، فقال : « نعم يا مولاي ! » . وعندئذ التفت الوالي
إلى المدير الأول ، وأملى عليه أرقاماً بكميات الغذاء والحاجات الاستهلاكية
الأخرى لعيش الطلاب الداخليين سجلها المدير فوراً . وانصرف الجميع إلى
الصفوف الأخرى ، وما زال يطوف بها ويدقق ، ويحقق إلى قرب الظهيرة .
ولما توجه نحو باب المدرسة الخارجي في انصرافه ، قابل صفّاً من تلامذة الصفوف
الابتدائية الداخليين ، قادمين من مدرستهم في حي القصاع لتناول وجبة الغداء ،
فقد نقلوا في السنوات الأخيرة من مدرستنا إلى بناء من المدارس الأجنبية التي
صدرتها الدولة في مطلع الحرب كالفريز والفرنسيسكان وغيرها من مدارس
الارساليات التبشيرية التي تنتمي إلى دول الحلفاء . وكانت مدرستنا أصابت
الكثير من وسائل الإيضاح التي كانت تلك المدارس غنية بها ، كالحیوانات

والطيور والزواحف المحنطة ، وأدوات الفيزياء والكيمياء والجغرافيا والفلك
نجري عليها تجارب دروسنا العملية ، وقد ملأت البهو الكبير من المدرسة ،
وبذلك أصبحت مدرستنا من أغنى المدارس بوسائل الايضاح ، لا تستطيع أي
مدرسة ثانوية ، مهما بلغت ميزانيتها أن تمتلكها وحدها . وكانت إدارة المدرسة
في يوم زيارة الوالي تحسين بك ، اختارت من التلامذة الداخلين من يناسب
هندامهم ، فيما اذا وقعت عليهم عيننا الوالي ، وخلفت البائسين ذوي الأسمال
البالية في مدرسة القصاع يتضورون جوعاً كي لا تقع عليهم عيننا الوالي ، ومع
ذلك استوقف الوالي هؤلاء الطلاب ، وهم يدخلون من الباب الخارجي ، وكشف
بيده عن أقدامهم العارية من الجوارب ، ولاحظ أحذيتهم المهترئة في فصل
الشتاء ، والتفت الى مديرنا وقال له : « أنا آسف لعجزك عن إعالة بضع مئات
من الطلاب أبناء الدولة ورجال المستقبل ، وإبقائك إياهم على هذه الحال
من الجوع والعري ، دون أن تعلمني ، وتعلم مراجعك بحقيقة وضعهم ، في حين
أنني أعمل في دمشق وحدها مئات الوف من السكان ؛ وأعمل في الولاية عدة
ملايين نسمة ، في أزمة الحرب الخانقة ! » ، ثم خرج من المدرسة مغضباً ، الا
أن غضبته الطورانية أفادتنا ، فقد فرجت أزممتنا في السنة الاخيرة من الحرب
الكونية ، فانهالت على مدرستنا مواد الإعاشة والتموين من مستودعات الجيش ،
اذ استطاع هذا الوالي ، وهو من أساطين حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، أن يحمل
قيادة الجيش على إعطائنا ما نحتاج اليه من مواد الإعاشة والتموين ، حتى اللحم
عوضه علينا بقطيع من الاغنام سلمته إدارة المدرسة إلى المتعهد كي يتصرف
به ، ويوردها لها اللحم يومياً بقيمته . والوالي تحسين بك كان أوفد من استانبول
في السنوات الأولى من الحرب ليحل محل الوالي عارف بك المارديني ، وهو من
أهالي ماردين ، ومن أصل عربي ، نقل إلى ولاية ترقية ، وخلفه تحسين بك
ليكون على رأس الولاية حزبي يسهم مع جمال السفاح في القضاء على الروح
العربية التي اخذت تقوى في هذا القطاع من المملكة العثمانية ، وخاصة منه
ولاية الشام ، وولاية بيروت ، فقد كانت الدولة العثمانية تدرك أن النهضة العلمية

فيهما بلغت شأواً ، وأخذ الوعي القومي يتفتح في صفوف المثقفين ، ويسري الى ولايات حلب والموصل وبغداد والبصرة وغيرها من الأقاليم العربية .

الشعور بالخطر الداهم !

لم تكد أزمير الربيع ، في عام ١٩١٨ ، تتفتح حتى صدرت الاوامر سرأ الى إدارة المدرسة بأن تقدم مواعيد الفحوص النهائية للسنة الدراسية ، وتعجل في صرف الطلاب الغرباء الى بلدانهم ، لان الوضع الحربي في جبهات القتال يتطلب ذلك . ومعنى هذا أن الوضع الحربي أخذ يتدهور بالنسبة للدولة العثمانية ، فالجيش العربي أخذ ينطلق من العقبة ، ويهاجم بلدة معان ، ويهدد بلدة عمان ، ويبعث برسله الى جبل الدروز ، ويهاجم بشدة الحاميات التركية التي تحمي الجناح الأيمن من جيش فلسطين ، وتحمي محطات الخطوط الحديدية ، والمواقع الاستراتيجية في المنطقة . وكان الانكليز ، في ربيع تلك السنة ، وجهوا سرية من جيشهم في جبهة فلسطين ، قامت بدلالة نفر من الأعراب ، بعبور نهر الاردن والغور ، وتسالت عبر الجبال حتى باغتت بلدة عمان ومحطتها على الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة ، ولولا وقوف الشراكسة أهالي عمان مع حامية البلدة في وجه هذه القوة ، ووصول نجدة على عجل من محطة درعا لسقطت عمان يومئذ بيد الانكليز ، وهدد سقوطها موقع درعا ملتقى الخطوط الحديدية كلها . وبسقوط درعا يعزل الجيش التركي في جبهة قتال فلسطين وجنوب الشام ، وينقطع اتصاله بدمشق وبالتموين . وفعلاً تمت الفحوص في شهر نيسان من تلك السنة ، وغادر الطلبة الغرباء ، وخاصة الأتراك منهم ، دمشق الى بلدانهم ، وشعرنا ، ونحن نغادر المدرسة أن الوضع غير عادي ، فقد منع سفر المدنيين بالقطر منذ مطلع صيف ١٩١٧ ، ولكننا وجدنا ، في هذه المرة ، طريقنا بالقطار الى مدينة حماة ، مع العائلات التركية والطلبة الأتراك الذين خصصت قطر لنقلهم الى بلدانهم في تركيا ، مما يدل على ان قيادة الجيش كانت تتوقع تطورات مفاجئة في جبهة قتال فلسطين .

رحلة بالمركبات !

وبهذه المناسبة ما زلت اذكر في صيف عام ١٩١٧ ، أثر انتهاء الفحوص السنوية ، إننا أبلغنا منع سفر المدنيين على الخطوط الحديدية ، فاستأجرنا مع زملائنا الطلاب الحمويين مركبتين تجرهما الجياد من المركبات التي تعمل في نقل الركاب في شوارع دمشق ، وغادرنا ، وعددنا عشرة ، دمشق عصرًا اتقاء للحر . ولما بلغنا موقع « قبة العصافير » والخان الذي بجانبها ، في أول طلعة الثنايا المعروفة بثنية العقاب ، حيث نشر القائد العربي خالد بن الوليد رايته العقاب فيها ، وهو يزحف لحصار دمشق - لما بلغنا هذا الخان مع غروب الشمس اعترض سبيلنا رجال مخفر للدرك « جاندرمة » اقيم في الخان ، ومنعونا من متابعة السفر واجتياز الثنايا ليلاً خشية قطاع الطرق ، وطلبوا منا ان نقضي الليلة في الخان ، ونتابع سفرنا في الصباح ، على ضوء النهار . وكان الخان قديماً اتخذ منه الجنود مربوطاً لحيولهم ، مليء بالبراغيث . وبعد جدل طويل همس أحد زملائنا في اذن رئيس المخفر بأن الطلاب على استعداد لدفع اتعاب الجنديين اللذين يرافقان المركبتين عبر الثنايا ، فتقدم الرئيس مع احد جنوده للقيام بهذه المهمة ، واجتازنا الثنايا ليلاً ، نصعد فيها ببطء ، والدركيان يمينان النفس ببضعة ريلات ينقدهما الطلاب لقاء مرافقتهم المركبتين بضعة كيلومترات . ولما تجاوزنا حنايا الثنية ، ووديانها ، وأشرفنا على مرتفع سهل تلالاً فيه اضاءة بلدة « القطيفة » ، وقف رئيس المخفر يتمنى لنا سفرًا سعيداً ، بعد ان بلغنا الطريق السهل الامين ، ويودعنا منتظراً العطاء ، فشكرناه وشكرنا رفيقه على أريحيتها ، ومرت بهما المركبتان تنحدران بسرعة ، نحو القطيفة ، دون ان ننقدهما بارة الفرد !.. ووقف الفارسان باهتين ينظران الى المركبتين تبتعدان عنها في ظلمة الليل ، ولو ان من فيها ليسوا طلاباً لكان لهما معهم شأن آخر ، الا ان الطلاب قد يشكون للمراجع المختصة أي أذى يلحق بهم . ولم يجدا بداً من أن يلويا عناني جواديهما ، ويعودا إلى مخفرهما

بخفي حنين ، يلعبان الساعة التي تعاملها مع الطلاب ، ولم يقبضا الرشوة سلفاً
قبل ان تتحرك المركبتان !

تابعنا سفرنا نجتاز القطيفة الى بلدة النبك مركز قضاء قلمون ، وحللنا فيها
للراحة والقيولة في فندق صغير يطل على ساحة الغفري ونبعها البارد الرقراق. وقبل
نهوضنا عصرأ للسفر ، جاءنا توفيق جانا صاحب جريدة « الحمارة » الهزلية في
دمشق ، والتي غدا اسمها فيما بعد « حط بالخرج » ، ثم تطورت الى جريدة يومية باسم
« الشعب » - جاءنا هذا الصحفي ، ورجا ان نسمح له بالسفر معنا ، وفي
مركبة من مركبتينا الى بلدة « قارة » القريبة ، وهي في طريقنا الى الشمال ،
وكان على ما يظهر يقوم في قلمون بجولة ييجي خلالها بدلات اشتراك جريدته ،
وقال مازحاً : « هل تسمحون لي بالركوب معكم الى قارة .. وإلا أنزلتكم في
الحمارة !.. » فقلنا له ان المقاعد في المركبتين مشغولة كلها ، وليس فيها مكان
له ، ولو أنزلنا في جريدة الحمارة .. أي ولو كتب تهويشاً في جريدته ضدنا ،
فابتسم ، وانصرف !

تابعنا عصرأ سفرنا الى حمص مارين بحسياء ، فبلغنا مدينة ابن الوليد قبيل
الفجر ، وبذلك انتهت رحلتنا بالمركبتين ، واستأجرنا في الصباح مقاعد في
مركبات اخرى تسير بين مدينتي حمص وحماة . وعدنا في بدء السنة الدراسية
الى دمشق بالقطار . وغادرنا ، كما وصفت آنفاً ، دمشق لآخر مرة في الحرب
الكونية ، أي في ربيع عام ١٩١٨ ، لنشهد الزحام في القطر اثناء جلاء العائلات
التركية عن بلاد الشام ، بل عن البلاد العربية كلها ، استعداداً للهزيمة التي كانت
تتوقعها قيادة الجيش التركي .

الثورة العربية

- ٧ -

كانت الثورة العربية التي أعلنها الحسين شريف مكة في ١٠ حزيران عام ١٩١٦ على الدولة العثمانية لعبت دورها في انهك الجيش التركي ، واصبحت هزيمة الدولة التركية نتيجة حتمية لتلك الحرب غير المتكافئة من جانب ، ولأن الشعب العربي الذي يؤلف الاكثرية بين أقوام الدولة العثمانية استيقظ على واقعه ، وعرف ان سياسة فتیان الترك ، أو « جون ترك » كما يلقبهم الغربيون ، وخططهم ترمي الى تتركه ، ومحو قوميته العربية ، وقد رأهم يقتلون ، دون جريرة ، احراره ، ويبعدون أسرهم الى مجاهل الأناضول . وكان تركيزهم على بلاد الشام ، لانها كانت السبابة في الوعي القومي ، فأكثر الشباب العرب الذين ألفوا الأحزاب والجمعيات قبيل الحرب كانوا منها . أما الانكليز فقد لمسوا قبل الحرب العالمية الاولى يقظة الشعب العربي ، واحاطوا بمطالبه ومطامحه ، وشعروا بخطر تيار القومية العربية على مصر والسودان ، فاتقوه ، واتخذوا الخطط الواقية عند حدود مصر . ولما خاضوا غمار الحرب حاولوا أن يفيدوا من هذا الوعي في حربهم ضد الدولة العثمانية . وكان الحسين بن علي أقام مع أولاده واسرته ١٨ عاماً في استانبول تحت رقابة الطاغية السلطان عبد الحميد الثاني ، فأتيح لأولاده علي وعبدالله وفيصل وزيد التعلم في مدارس العاصمة ومعاهدها . ولما خلع السلطان عبد الحميد عين الاتحاديون الحسين شريفاً على مكة ، ولبت ولداه عبدالله وفيصل في استانبول ، ثم التحقوا في شهر آب عام ١٩١٤ بوالدهما في مكة مارين بالقاهرة . وعلم ممثل بريطانيا بوجودهما فيها ، والحرب قد نشبت ، وتردد أن تركيا ستخوضها الى جانب المانيا ، فأرسل بطلبها ، وتحدث اليهما عن موقف والدهما

في حال اعلان تركيا الحرب على الحلفاء ، ثم حملها كتاباً الى والدهما الحسين ، جاء فيه ان بريطانيا تشكر أمير الحجاز على حسن ادارته لشؤون الديار المقدسة ، وجميل عنايته براحة الحجاج ، وان حكومة جلالتة لا ترى أدنى اعتراض في إعادة الخلافة الى العرب ؛ فكان هذا الكتاب اول احتكاك بين بريطانيا وشريف مكة . وفي اواخر شهر ايلول عام ١٩١٤ وجه « مستر ستورس » السكرتير العام لشؤون الشرق في القاهرة كتاباً خاصاً الى عبدالله نجل الحسين في مكة ينبئه بأن اللورد « كتشنر » وزير الحربية البريطاني أمره بأن يسأل الأمير : هل لا يزال هو وسيادة والده على رأيهما المتعلق بالدفاع عن حقوق العرب ؟

وكان جرى بحث بين اللورد كتشنر وعبدالله في القاهرة حول موضوع حقوق العرب في الرحلة التي أشرنا اليها من قبل . وقال ستورس في كتابه : « ان اللورد كتشنر يريد منه ابلاغ عبدالله فيما اذا كان الجواب ايجابياً ، وانحازت الدولة التركية الى المانيا في الحرب ، يكون في استطاعة الحكومة البريطانية مساعدة الشريف الحسين وأولاده .. » ، وكان الجواب من عبدالله شفوياً للرسول الذي حمل الكتاب بأنه سيفكر بالأمر . ولما ابطأ الرد الخطي عاد مستر ستورس فكتب الى عبدالله نجل الحسين عن احتمال انحياز تركيا في الحرب الى المانيا ، وأن بريطانيا مهية لمديد المساعدة الى الشريف وأولاده ، فأجاب عبدالله بعد المداولة مع والده الحسين بأن القضية تهم العرب ، وبأنه سيستشيرهم فيها ، ومتى استقروا على مطالب معلومة قدموها الى الحكومة البريطانية . وعلى الأثر ، أي في شهر ايلول عام ١٩١٤ ، وجه الحسين ابنه فيصل الى دمشق والآستانة لمشاورة أحرار العرب بالأمر ، ومطالبة الحكومة التركية بعزل وهيب باشا والي الحجاز او نقله ، فقام فيصل بالمهمتين ، ونقل وهيب باشا ، وعاد فيصل في نهاية عام ١٩١٤ الى مكة ، وأبلغ والده اجتماع رأي أحرار العرب على ابلاغ بريطانيا مطالب العرب . وكان فيصل انتمى في هذه الفترة الى جمعية « العربية الفتاة » إبان وجوده في دمشق ، وبدأت المفاوضات الجدية بين الحسين وسير هنري مكماهون المقيم العام

البريطاني في القاهرة ، في ١٤ ثوز عام ١٩١٥ ، اثر اعتقال عدد كبير من أحرار العرب ، وزجهم في سجن « عاليه » ، وتأليف محكمة عرفية لمحاكمتهم ، فطلب الحسين الاعتراف باستقلال بلاد العرب الواقعة بين مرسين ، فاذنه (اضنه) ، فحدود فارس ، فخليج البصرة ، فالبحر الهندي ، فالبحر الأحمر ، فحدود مصر ، فالبحر الابيض المتوسط ، واستثنى مستعمرة عدن . وقد جاء في مذكرة سير مكماهون المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول عام ١٩١٥ أن مقاطعتي مرسين والاسكندرونة وبعض اجزاء سورية الواقعة غربي مقاطعات دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن اعتبارها عربية محضة ، ولهذا يجب إخراجها من الحدود المبحوث عنها ، فاذا أخرجت توافق بريطانيا على الحدود المعدلة شريطة عدم مس المعاهدات المعقودة بينها وبين زعماء العرب . أما الاراضي الداخلة ضمن هذه الحدود المعدلة ، وهي التي تستطيع بريطانيا ان تعمل فيها بملاء الحرية ، دون الاضرار بحليفاتها فرنسا ، فانكلترة مستعدة ان تعترف باستقلال العرب فيها ، وتقديم المساعدة لهم . واما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فإن مركز انكلترة ومصالحها فيها يتطلب شكلاً ادارياً خاصاً . وتعترف انكلترة بوحدة الاراضي المقدسة ، وتتعهد بحمايتها من كل اعتداء خارجي ، وتقدم بريطانيا للعرب ، عند الحاجة ، كل مساعدة او نصيحة لازمة . ويوافق العرب على الاقتصار على استشارة ومعونة وادارة بريطانيا العظمى وحدها ، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون اليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعية البريطانية .

وقد أجاب الحسين على هذه المذكرة بأنه لا يصح على ان تكون اذنة ومرسين ضمن حدود البلاد التي يطلب الاعتراف باستقلالها . أما حلب وبيروت وساحلها فكلها عربية . وأما العراق فهو عربي بحت ، ومن بداءة الأمور أن الموظفين الذين يحتاج اليهم العرب لا يكون لهم إلا صفة الاستشارة ، فكتب « مكماهون » في ١٣ / ١٢ / ١٩١٥ مذكرة جوابية جاء فيها : « ان قضية ولايتي حلب وبيروت تحتاج إلى نظر دقيق لما لفرنسا من مصالح فيها ، وان مصالح

بريطانية في ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة ، وان انكلترة لا تنوي ابرام أي صلح كان ما لم يكن في جملة شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية ، وخلصها من سلطة الأتراك والألمان ، فأرسل الحسين كتاباً مع رسالة شفوية ، أو رسالة خصوصية يقول فيه : « .. انه يكف أثناء الحرب عن المطالبة بلبنان حراً لإجتناّب ما يكدر صفو التحالف بين انكلترة وفرنسة ، ولكنه يعود بعد الحرب إلى المطالبة به ، فأجاب مكماهون بأن صداقة فرنسا وانكلترا ستقوى وتشتد بعد الحرب .

مآخذ على موقف الحسين

هذه خلاصة المفاوضات بين انكلترة والحسين بن علي شريف مكة ، تتكشف مسبقاً عن نيات بريطانيا وفرنسا في استعمار أكثر اجزاء الوطن العربي الخاضعة لسلطان الدولة العثمانية ، باستثناء الحجاز . وقد قبل بها الحسين كتحفظات وردت في رسائل ومذكرات سيرمكاهون اليه ، منها استعمار مناطق مرسين وأذنة والاسكندرونة ، وهي مناطق ضمن حدود سوريا الطبيعية التي هي اقليم أو جزء من الوطن العربي ، واكثرية سكان هذه المناطق من العرب ، بل ان أكثريتهم الساحقة عربية ، مع وجود أقليات صغيرة تركية وكردية وارمنية بسبب الاختلاط على الحدود ، والهجرات التي تقصدها تركيا لإضعاف العرب في وطنهم . أما المناطق الكائنة غربي مقاطعات دمشق وحمص وحماة وحلب ، فهي منطقة ساحل بلاد الشام بأسرها . وديار الشام عربية ، بل هي أكثر بلاد العروبة وعياً وتعلقاً بالقومية العربية ، بما فيها لبنان ، فكيف يقبل الحسين بالتحفظات التي وردت في رسائل ومذكرات سيرمكاهون ، ويوافق ضمناً على استعمار فرنسا تلك المناطق ، بل يوافق على إخراجها من حدود الوطن العربي ؟ لقد قبل الحسين بعدم مس المعاهدات المعقودة بين انكلترة وزعماء العرب ، فأخرج من الحدود العربية نجداً ومناطق الجنوب المحتل ، ومناطق الخليج العربي ، وجميع السواحل العربية على بحر العرب ، بالإضافة الى انه وافق على

استعمار العراق تحت ستار مركز انكلترة ومصالحها فيه ، وفرض النفوذ البريطاني على ما تبقى من الأرض العربية ، وربطها ببريطانيا وحدها تحت ستار الاستشارة والمعونة والادارة البريطانية التي يجب على العرب ان يوافقوا عليها ، وقبل بها كنصوص صريحة في بعض المذكرات ، اذ وافق على إخراج اذنة ومرسين من حدود البلاد العربية التي طلب من بريطانيا وحليفاتها الاعتراف باستقلالها ، كما سكت عن مس المعاهدات المعقودة بين انكلترة وزعماء العرب ، والسكوت إقرار في هذا المجال ، وبذلك وافق على إخراج مناطق الخليج العربي ، ومناطق بحر العرب ، بما فيها عدن والجنوب المحتل ، ونجد ، من حدود البلاد التي طلب من بريطانيا وحليفاتها الاعتراف باستقلالها .

لقد سبق لبريطانيا ، كما أسلفنا ، ان عقدت معاهدات صداقة وحماية مع امراء وشيوخ من العرب في هذه المناطق ، أسمت بعضهم سلاطين ، لتسيطر على بلادهم سيطرة تامة ، وتضعها في خدمة أساطيلها من أجل حماية طرق امبراطوريتها إلى الهند والشرق الاقصى . ثم تكشف لها تلك المناطق عن ثروات دفيئة في أرضها وفي مقدمتها النفط ، اذ أن بريطانيا لم تكن تجهل يومئذ وجود النفط في أراضي العراق ، ولا في مناطق الخليج العربي ، وسواحل بحر العرب . كذلك كانت حريصة على ان تستعمر تلك المناطق وتخرجها من الحدود التي طالب الحسين بان تعترف بريطانيا باستقلالها . لقد وافق الحسين على إخراج لبنان من تلك الحدود لإجتناّب ما يكدر صفو التحالف بين انكلترة وفرنسا ، وحتى حق مطالبة العرب بلبنان بعد الحرب ، لم ترض به بريطانيا ، فقد ردت على هذا التحفظ بأن صداقة فرنسا وانكلترة قائمة ، وستقوى وتشتد بعد الحرب ... وليس للحسين عذر في ان الدولة العثمانية اخذت بالبطش وتقتيل أحرار العرب ، ولا بان اصراره سيفوت على العرب فرصة الثورة والمساعدات التي ستقدمها لهم بريطانيا ، فالحرية ليست نيراً يستبدل بنير ، والحلفاء في ازمة كانوا بحاجة قصوى لثورة العرب على الدولة العثمانية ، ولو انه أصر على مطالبه ، وتصلب لانتزع من بريطانيا اعترافاً باستقلال البلاد العربية الخاضعة للسلطان التركي

كلها في ذلك الحين .

لقد عزم الحسين وأولاده ، بعد تبادل المذكرات التي أشرنا إليها ، مع سير مكماهون ، على اعلان الثورة على الدولة العثمانية بشروط المجاهدة بحقوق العرب ، لأن وراءها عروشا لوحت بها بريطانيا للحسين وأولاده أثناء المفاوضات . لقد كان جلياً أن الحسين سيغدو منذ إعلان الثورة ونجاحها ملكاً على الحجاز . أما البلاد العربية الأخرى ، فقد كان جلياً أن الاستعمار سيجزئها ، ويجعل منها دويلات ، ويفرض سيطرته عليها . وكان من خطته ان يقيم فيها عروشا لملوك غرباء ليسوا من شعوب البلد ، كي يعتمدوا عليه في الاحتفاظ بعروشهم لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما قيل في قسوة الظروف التي كانت تسود يومئذ البلاد العربية ، ومهما قيل في الإرهاب التركي والاضطهاد والتقتيل ، وقوافل الشهداء ، وفي خطط التريك ، وإبعاد الأحرار ، والنفي والتشريد ، فانها كلها لا تبرر الرضاء بالشروط المجاهدة التي أملتها بريطانيا على الحسين ، لان الثائرين الحقيقيين يقومون بثورتهم معتمدين على امكانياتهم وحدها ، يوم لا تتوفر المساعدات من الخارج ، فإذا نجحت ثورتهم استطاعوا أن يفرضوا شروطهم ، ويحققوا أهدافهم ، لا سيما ، وقد مرت بالدولة العثمانية ، بعد الثورة العربية ظروف قاسية ، لو لوّح الحسين لها خلاها بالمطالب التي كان أحرار العرب يطالبونها بها ، وبأكثر منها ، لرضيت بها ، ولفضلت أن يكون العرب الى جانبها في الحرب على أن تخرج بلادهم كلها من يدها ، لا سيما والعرب يؤلفون أكبر كتلة قومية في كيانها ، وبعد الثورة لم يبق من العرب من يقاتل إلى جانبها مختاراً ، اللهم إلا القلة القليلة ممن لم يتحسسوا بالشعور القومي من الجنود والضباط العرب . ولو أن الحسين قام بثورته في الحجاز ، دون الانكليز وشروطهم ، لأتاحت له الفرصة فرض شروطه عليهم ، وكان عليه ، وهو يعلم ما في الرسائل والمذكرات من مطامع استعمارية ، أن يحسب حساب الخديعة ، وأن يعزز جيشه ، ويعده لمقاومة كل غدر من حلفائه المعروفين في العالم بأن دولهم دول استعمارية ؛ غزت مصر

والسودان ، وغزت ليبيا ، وغزت الجزائر وتونس ومراكش ، وهي كلها بلاد عربية ، فكيف يطمئن الى نياتهم ، وقد تبدت له واضحة في الرسائل والمذكرات ؟

ان الانكليز ، بعد جميع تحفظاتهم الواردة في الرسائل والمذكرات ، نكثوا باتفاقهم بعد عام واحد من توقيعهم مع الحسين ، فقد أصدر وزيرهم بلفور ، في الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٧ ، وعداً لليهود بان تكون فلسطين العربية وطناً قومياً لهم . وإذا كان له من عذر بأن الوعد كان سرىاً ، فان روسيا الشيوعية أذاعت وثيقة سايكس - بيكو السرية بتقسيم البلاد العربية غنائم بين انكلترا وفرنسة ، واطلع عليها الحسين وأولاده ، ووجد بين القادة العرب من نصح الحسين باليقظة من غدر الانكليز ، وبالالتجاء بالثورة اتجاهاً جديداً ، وحتى اقترح بعضهم عليه مفاوضة الدولة العثمانية على حقوق العرب ومطالبهم ، وعقد صلح شريف معها . لذلك لا نجد عذراً للحسين وأولاده في عدم اليقظة ، وفي الاستعداد على الأقل ، وفي تقوية الجيش العربي ليكون ، عندما تضع الحرب أوزارها ، قوة تقف مع الشعب في وجه المتآمرين على قضيتهم . وصفوة القول أن الحسين عزم على الثورة ، معتمداً على حلفائه الانكليز ، لذلك أرسل سرّاً يطلب من ولده فيصل المقيم في دمشق ، أن يفر إلى الحجاز ، بأي طريقة كانت ، حتى لا يقع بيد أحمد جمال السفاح . وفي نفس الوقت أرسل برقية إلى السفاح يبشره بأن جيش الحجاز بقيادة ولده الأمير علي وصل إلى المدينة المنورة لنجدة الجيش التركي في حربه مع الانكليز . وتلقى أحمد جمال باشا من فخري باشا في المدينة ما يؤيد برقية الحسين ، فسر بذلك سروراً عظيماً ، وزالت هواجسه . وفي اجتماع عقد مساء في فندق فيكتوريا مقر القائد العام في دمشق ، اقترح فيصل أن يسافر وفد رسمي من دمشق إلى يثرب لإستقبال جيش الحجاز ، وشكر الحسين أمير مكة على حميته ، فوافق الفريق أحمد جمال ، واقترح أن يكون الوفد برئاسة الأمير فيصل « وبذلك سنحت الفرصة ، وبأسهل الطرق ، لفيصل

بأن يغادر دمشق إلى الحجاز ، فلا يبقى رهينة لدى القائد التركي . وتألف الوفد برئاسته من المير الای التركي وصاف بك المستشار الحقوقي لقائد الجيش الرابع ، ومن ضابط آخر بنفس الرتبة كان يشغل وظيفة مفتش المنزل ، أي مفتش المقر في دمشق ، ومن الشيخ عبد القادر الخطيب . وتم اجتماع سري بين فيصل وبعض آل البكري في دمشق اتفق فيه على أن يسافر فوزي البكري مع أفراد أسرة آل البكري من نساء وأطفال إلى المدينة ، وطلب الأمير فيصل من القائد أحمد جمال السماح لنسيب البكري بأن يرافقه في هذه الرحلة ، ويعود معه فوافق .

وسافر الوفد ، واستقرت أسرة آل البكري في العوالي قرب المدينة المنورة انتظاراً للأحداث . ولما بلغ الوفد المدينة ، وقابل فخري باشا ، عرف أن بضعة آلاف من الهجاة والفرسان والمشاة العرب وصلوا إلى المدينة قادمين من مكة وسائر مناطق الحجاز ، وانهم بعد الاستقبال الذي جرى لهم هنا اتخذوا مقراً لهم في ضواحي المدينة . وكان برنامج الوفد أن يتم مهمته ويعود في أيام قليلة إلى دمشق . وأبدى المير الای وصاف عضو الوفد رغبة في أن تتاح له فرصة أداء ركعتين داخل الحجرة النبوية إلى جانب قبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان له ذلك ، ورافقه إليها نسيب البكري ، واجتازا الروضة الطاهرة إلى الحجرة التي فتحت لهما خصيصاً . وبعد أداء الصلاة ، وفي الخشوع الذي اسبغه المكان الذي يضم رفات سيد المرسلين وصاحبيه الصديق والفاروق وابنته فاطمة الزهراء ، اقترب المير الای وصاف التركي من نسيب البكري ، وأسر له بأن يرجو الأمير فيصل حفيد هذا النبي الكريم أن لا يعود إلى دمشق ، وأن يكتف عن كل أحد أنه قدم له هذه النصيحة . ومن البداهة أن المستشار القانوني لأحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع كان أدرى الناس بنيات جمال السفاح نحو رجال العرب ، ومنهم الأمير فيصل نجل الحسين الذي كانت الدولة العثمانية تحسب له أكبر حساب ، وتخشى أن ينتقض عليهم ، لما ارتكبوه ضد أمته العربية من جرائم .

النصيحة أكدت الخطة المرسومة للثورة

على ان الأمير فيصل لم يكن بحاجة إلى هذه النصيحة ، فقد كان على علم بالمفاوضات بين والده وبين الانكليز ، وعلى علم باتفاقه معهم على الثورة . وكان يتحين الفرص في دمشق للإفلات من الإقامة الإجبارية المفروضة عليه ، ومن الرقابة المستمرة . وقد جاءت الفرصة التي لم يكن يترقبها يوم سمح له الفريق أحمد جمال بالسفر على رأس الوفد الرسمي الى المدينة ، وهي إحدى مدن الحجاز ، ووالده أمير على الحجاز كله . وفوراً وضع في المدينة مع اخيه علي الخطة على العمل ، وسافر نسيب البكري مع سائر أعضاء الوفد عائدين الى دمشق ، دون رئيسهم فيصل الذي بعث الى الفريق أحمد جمال بأنه سيعود بعد بضعة ايام آخر . وكانت مهمة نسيب البكري في دمشق ان يرتب هرب حاشية الأمير فيصل وحرسه من الحجازيين الذين خلفهم في دمشق ، حتى اذا تلقى فيصل من البكري برقية فيها إشارة متفق عليها ، عرف ان الجماعة تحركوا من دمشق بطريق البادية ، واصبح هو ووالده واخوته طلقاء في تنفيذ خطة الثورة ، وإعلانها .

الهرب وإعلان الثورة

وصلت البرقية الى الامير فيصل ، بعد ان انطلق نسيب البكري والهجانة من حرس الأمير وحاشيته ليلاً من قرية القابون بجوار دمشق حيث مزرعة يملكها آل البكري فيها ، ضاربين في البادية باتجاه « الجوف » ، ومعهم دليل يرشدهم في مسيرهم ، وفوجئت السلطات التركية في دمشق بهرب حاشية الأمير فيصل وحرسه وآل البكري معهم ، وصدرت الأوامر بتعقبهم ، ودعي شيوخ العشائر ، وفي مقدمتهم نوري الشعلان أمير عشيرة الرولة الى دمشق ، وطلب منهم القبض على الفارين لقاء جائزة مالية كبرى . وكان أحمد جمال السفاح يدعو ، بين آونة وأخرى ، شيوخ العشائر ، وبعض زعماء الدروز في دمشق ، ويوزع

عليهم الهبات والعباءات الثمينة ، كل حسب شأنه وشأن قومه . ولكن القافلة كانت بلغت دون عقبات بلدة الجوف في اراضي نجد المتاخمة لولاية الشام ، ولأدت بنواف الشعلان نجل النوري الذي يمارس عملياً رئاسة العشيرة ، لأن والده مقيم في دمشق . وقد تلقى نواف من والده رسالة يطلب منه ان يقبض على جماعة الامير فيصل ، ويعيدهم الى الحكومة التركية ، ولكنه لم يأبه بطلب والده ، ومكث الجماعة شهراً في ضيافته ، ينتظرون اشارة من الامير فيصل تهديهم الى المكان الذي يتوجهون اليه .

أطلق الحسين بيده رصاصة في مكة اشعاراً بإعلان الثورة ، في العاشر من شهر حزيران عام ١٩١٦ ، وفق ٩ شعبان عام ١٣٣٤ . وكان هاجم الاميران علي وفيصل في اليوم الثامن من حزيران نفسه ، بالقوة التي معها ، ضواحي المدينة المنورة التي يربط فيها جيش فخري باشا ، ونشطت القيادة التركية في دمشق والمدينة المنورة لضرب الثورة في مهدها . وكان جيش فخري باشا حشد في المدينة لهذا الغرض تحت ستار الزحف لتأديب امام اليمن . ولكن انقضى نحو سنتين دون ان يزحف هذا الجيش نحو اليمن . واليوم وقف هذا الجيش امام مهمته الأصلية ، اذ دأبته الثورة ، فهب يتعقب ولدي الحسين الى بلدة ينبع التي كان انسحب اليها ذلك الجيش ، مستعيناً بابن مبيرك حاكم رابغ . وكان هذا حليفاً للدولة العثمانية . وكادت خطة الجيش التركي تنجح ، ويقع الجيش العربي بين نارين ، ولكن قيادته عرفت بالخطأ ، وتقدم الحسين من ينبع ، فخاف فخري باشا على جيشه من العشائر ومن القوات العربية ، وعاد الى المدينة مؤثراً الحصار فيها . وعندئذ انطلقت الثورة الى أهدافها ، فتخلف الامير عبدالله بقوة عربية رابطت قرب المدينة لفرض الحصار على الجيش التركي ، وتقدم الجيش العربي بقيادة فيصل نحو الشمال .

لقد هزت الثورة العربية الدولة العثمانية ، وأرهبتها ، فقد كان الرصاص يحصد

كل يوم عدداً من شباب العرب المحكوم عليهم بتهمة الفرار من الجندية . ولما كثر عدد الفارين من الجيش تقرر ان يعدم واحد من عشرة بالقرعة ، فلما نشبت الثورة العربية توقف حكم الإعدام بين العرب بسبب الفرار من الجندية . وبعد مدة سحب احمد جمال من قيادة الجيش الرابع ، وأسندت القيادة إلى الفريق جمال باشا الصغير ، وهو الذي تولى وزارة الحربية في استانبول المحتلة ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وساعد سرأ مصطفى كمال على الثورة في الأناضول ضد الحلفاء المنتصرين وشروطهم في توزيع تركية الدولة العثمانية المعروفة بينهم بالرجل المريض .

أثر الثورة على الدولة العثمانية

لسنا هنا في مجال الكتابة مطولاً عن الثورة العربية ، فقد كتب عنها الكثيرون ، ولكننا في مجال الإشارة إلى الأحداث التي عشناها خلالها ، مع العلم ان الثورة العربية قدمت للانكليز وحلفائهم من العون ما عجل في انهيار الدولة العثمانية وطردها من جميع البلاد العربية ، مما لم ينكره الانكليز أنفسهم ، فقد ورد في تصريحات ومذكرات زعمائهم وقادتهم ما أيد فضل الثورة العربية وأثرها في النصر الذي أحرزه الحلفاء على الدولة المركزية في الحرب الكونية الاولى .

من ذكريات الحرب

- ٨ -

كان أخي الأكبر ناظم الرئيس دعي إلى خدمة العلم ، وتخرج من التدريب في الأستانة ضابط صف برتبة مرشح « نامزد » ، ثم سيق مع فرقته إلى حرب الدردنيل ، وخاض معاركها ، ورفع إلى رتبة ملازم ، وعهد إليه في أواخر

حرب الدردنيل بقيادة سرية . ولما انسحب الحلفاء بغتة من الدردنيل بقواتهم واساطيلهم ، وجهت أكثر القوات التركية في الدردنيل الى الجبهات الأخرى . وكان نصيب الفرقة الرابعة والعشرين ، أي فرقة أخي الاتجاه الى حلب . ولما كانت الفرق التي توجه من الاناضول الى حلب توزع إما الى جبهة القتال في العراق ، وإما الى جبهة القتال في فلسطين ، توجهت في صيف عام ١٩١٦ الى حلب لمقابلة أخي ، وهناك اهتمت بطريق قيادة الموقع الى المكان الذي عسكرت فيه الفرقة ، وهو موقع « عين التل » ، واستطعت ان ألتقي بأخي ، وان أحل ضيفاً عليه في خيمته في المعسكر .

و كنا خلال الايام القليلة التي قضيناها معاً في حلب ، نغادر المعسكر في المساء فرساناً ، مع عدد من الضباط زملاء أخي ، لنقضي السهرة معاً في ملاهي حلب ، ونعود بعد منتصف الليل الى المعسكر . وكان أخي بشوق لمعرفة تفاصيل عن الاحكام التي صدرت على احرار العرب في عاليه (لبنان) ، لأن أكثرهم كانوا معه في الآستانة ، اثناء دراسته في كلية الحقوق . وكان هو من رواد المنتدى الأدبي ، ومن أعضائه في العاصمة التركية ، يعمل في سني ما قبل الحرب مع أحرار العرب ، ويشترك في مظاهرات الطلاب العرب من أجل القضية العربية واحداثها . وكان على صلة وثقى بعبد الكريم قاسم الحليل رئيس المنتدى ، وبعبد الحميد الزهراوي نائب حمص ، وبعزيز علي المصري رئيس حزب العهد ، وبسليم الجزائري ، وشكري العسلي ، وعبد الوهاب الانكليزي من الضباط والمدنيين العاملين في القضية العربية ، والذين قتلهم السفاح احمد جمال في دمشق وبغروت . وكان أخي ، وهو في جبهة القتال في الدردنيل ، يخشى أن يقبض عليه ، ويساق مع غيره من شباب العرب وطلابهم الى المحكمة العسكرية باعتباره من أعضاء النادي الذين كان لهم نشاط بارز في الحركات العربية التي حدثت في استانبول . ولكن من حسن حظ هؤلاء الشباب ان الاوراق التي تدل على انتمائهم للجمعيات والاحزاب العربية ، أُلغيت ، ولم تقع بيد المخابرات

التركية . ودعي مرة ، وهو في جبهة الدردنيل ، للحضور الى استانبول للتحقيق معه ، ولكن قائده رفض السماح له بالسفر ، لضرورة وجوده على رأس السرية في خطوط النار ، ويعتقد بذلك انه نجا من السجن والمحاكمة . لذلك لما سافرنا معاً الى حماة ، زودته بنسخة من كتاب « الايضاحات » الذي طبعه احمد جمال السفاح بالتركية والعربية مبرراً فيه جرائمه في قتل النخبة المختارة من رجالات العرب . ولما تلقت الفرقة أمر القيادة بالتوجه الى جبهة فلسطين ، اتاحت لآخي الفرصة لقضاء ثلاثة ايام في حماة ، وسعد الوالدان والاخوة والاهل برؤيته بينهم . وبعد سفره اخذت رسائله تصل الينا من جبهة القتال في فلسطين ، وكتب لنا مرة أنه وقع اسيراً بيد الانكليز ، ولكن المصادفات انقذته بعد ساعات من الأسر ، وعاد الى صفوف القوات التركية بعد ان فقد كل حوائجه ، وخاصة ملابسه ، فأصاب الوالدة هم وغم لبقاء ولدها بدون ملابس داخلية . وكنا في صيف عام ١٩١٧ ، والحرب تنوء بكليها على الاسر الغنية ، فكيف باسرة موظف صغير تتألف من احد عشر نسمة ؟ . وسارعت الوالدة الى تفصيل ما أدخرته من بقايا اقمشة في البيت ، وخاطته ملابس داخلية ، وزودتني ببضع ليرات ذهبية ، أي بكل ما تملك الاسرة ، وطلب مني الوالدان ان أسافر فوراً من حماة الى نابلس حيث عين أخي في شعبة الاستخبارات للجيش السابع ، جيش مصطفى كمال ، وأضرا علي ان أزوره ، لاطمئنتها عن صحته ، لا سيما بعد الجرح الذي اصابه يوم وقع اسيراً بيد الانكليز ، فنظمت اوراق لسفري كطالب له تخفيض في اجور السفر بالقطار ، وغادرت حماة الى دمشق . وكان لا بد لي من العمل فيها للحصول على اجازة من الجيش تسمح لي بركوب قطار درعا-حيفا الى محطة قريبة من نابلس . وبينما كنت ناشطاً في مساعي ، اقيم في دار عمي عبد المجيد الرئيس في سوق صاروجه ، فوجئت بوصول أخي ناظم اليها ، موفداً من قبل القيادة بمهمة ، عرفت بعدئذ انها لطبع نشرات بالانكليزية والهندية ، لتلقى من الطائرات على الخطوط البريطانية ، فيها صور شمسية عن حسن

معاملة الدولة التركية المسلمة ، دولة الخلافة للأسرى الهنود ، وخاصة المسلمين منهم ، وحث الجنود والضباط الهنود بالتمرد على الانكليز ، ودعوة للمسلمين منهم بعدم مساعدة المستعمرين الكفرة اعداء الاسلام في حربهم ضد دولة الخلافة الاسلامية ، والسلطان العثماني حامي الحرمين الشريفين إلى آخر ذلك من دعايات الحرب. ولما كانت وسائل طباعة النشرات مع الصور بالزنكوغراف غير متيسرة يومئذ في دمشق ، بسبب الحرب ، وفقدان المواد التي تستورد عادة من الخارج ، فقد قرر أخي السفر إلى بيروت لإنجاز مهمته . لذلك سافرت بدوري عائداً إلى حماة ، مطمئناً الاهل ناقلين اليهم أن أخي يتمتع بتمام الصحة والعافية ، ويحمل معه الى بيروت كيساً من الليرات الذهبية للانفاق على المهمة التي أوفد من أجلها ، وانه يشكر الوالدين على هديتهما من الملابس والنقود ، مع اعتقادي بأن النقود لم يكن بحاجة اليها ، ما دام يتسلح بكيس مليء بالذهب ، ورحلة على حساب الدولة ! عاد أخي الى نابلس ، وظلت رسائله ترد الى الوالدين حتى خريف عام ١٩١٨ ، اذ استطاع الانكليز ان يخرقوا الجبهة التركية ، ويلتفوا على جناحي الجيش التركي ، ويرغموه على التقهقر والتراجع مشتتاً . وقد اضطر أخي ومن معه في دائرة المخابرات في نابلس أن يغادروا المدينة باتجاه درعا ، ولكن قوة من خيالة الانكليز طوقتهم في سهل بيسان ، وأسرتهم ، وساقتهم الى معسكرات الجيش البريطاني في فلسطين ، ومنها الى مصر ، حيث اعتقل في معسكر للأسرى في مدينة الزقازيق ، وأفرج عنه بمسعى من والدي لدى الحكومة العربية ، ويجهد من الامير عادل ارسلان الذي كان أمين سر للفريق رضا الركابي رئيس الحكومة في دمشق ، لأن الامير كان يعرف أخي في المنتدى الادبي في استانبول . لقد أطلق سراح أخي من الاسر في عام ١٩١٩ ، وكان أول أسير عربي من الضباط أطلق سراحه بعد الحرب العالمية .

سلب المحاصيل الزراعية

قضيت صيف عام ١٩١٨ في مدينة حماة . وكانت أوضاع البلاد بلغت من

السوء جداً لا يوصف ، فالنقد التركي تدنت قيمته حتى بلغت الربع ، فالحمس بالنسبة للذهب ، والغلاء اشتد ، ولقمة العيش أصبحت قيمتها تزداد كل يوم بالذهب ، اذ بلغ ثمن طن القمح أكثر من مئة وعشرين ليرة عثمانية ذهباً ، لان الدولة فرضت في هذا العام نظام الامانة على المحاصيل ، أي نظام الاشراف المباشر على انتاج الحبوب ، وذلك بتعيين موظف لكل قرية او مزرعة يسمى « مأمور الاعشار » ، مهمته مع المختار وهيئته في القرية ايجاد مستودع لتسلم حصة الدولة من الانتاج . وحصة الدولة لا تقتصر على عشر الانتاج الذي اصبح واحداً من ثمانية ، فهناك اثنان من ثمانية يجب ان يسلمها المزارع والفلاح الى الدولة باسم المبايعة ، عيناً مع واحد من ثمانية هو العشر المعروف كضريبة على الحبوب . ان الدولة تطلب هذا العام ثلاثة اثنان الانتاج من الحبوب تتسلمها حبوباً ، وتدفع ثمن الثمنين بالعملة الورقية ، وبالسعر الذي تحدده هي ، وهو ثمن بخس ، لا يختلف عن النهب والسلب بالنسبة لاسعار الحبوب الغالية في الحرب . وقد عينت لجاناً للتفتيش والمراقبة تطوف اثناء جني المحصول القرى ، وتسجل عمليات تسليم الحبوب ، ورشمها على البيادر ، ورشمها في المستودعات ، ثم نقلها الى المستودع العام ، والرشم اداة مستطيلة من خشب حفرت عليها الكتابة حفراً ، اذا ضغطت على كومة من الحبوب ظهر اثر الكتابة بجانب بعضها ، فإذا مست الكومة من قبل انسان او حيوان ظهر اثر المس ، وفرضت الغرامة الكبرى على الفلاحين المتسببين ، ونكبت القرية ، وعوقب المتسبب بسوقه الى المحكمة العسكرية . لقد كتبت لي في هذا الصيف مرافقة والدي الى القرى في اللجنة التي عينتها الدولة للمراقبة غربي مدينة حماة ، وشهدت بنفسي كيف كانت الرشوة تلعب دورها لينقذ اصحاب القرى الهالكون حبوبهم من براثن الدولة ، وكيف كانت الوف الدنانير الذهبية تدخل جيب رئيس لجنة المراقبة لو انه غص الطرف عن رشوات مأموري الاعشار الذين وكلت دوائر المالية اليهم امر حفظ الحبوب ، واستيفاء ثلاثة اثمان منها للدولة ، بل شهدت بنفسي كيف يقصى الموظف التزيه النظيف اليد عن القرية ذات الانتاج الضخم ليعين مكانه

الموظف المرتشي الذي يعرف كيف يتقاسم مع رؤسائه الرشوة بالذهب الرنان ،
واتيح لي في الصيف نفسه أن اعين بالمسابقة كاتباً لإحدى لجان تخمين المحاصيل
الصيفية في قرى الجنوب الشرقي من حماة ، يرأسها السيد احمد الحافظ من موظفي
المالية . ولم تكد اللجنة تنتهي من أعمالها في خريف ذلك العام ، حتى وصلت
إلى مسامع الناس أنباء انهيار الجبهة التركية في فلسطين ، وانسحاب الجيش
التركي مشتتاً إلى بلاده في آسيا الصغرى .

إن بعد العسر يسرا

وأذكر اننا ، كموظفين في إدارة الأعشار ، سارعنا لقبض رواتبنا . وقد
بلغ راتبي عن المدة التي قضيتها في لجنة التخمين عشرات الليرات التركية الورقية
التي لا تغني ولا تسمن من جوع ، فاستطعنا في آخر لحظة قبل جلاء الموظفين
الأتراك عن حماة ، أن نحصل على أمر باعطائنا ما يعادل رواتبنا قمحاً بالسعر الرسمي ،
وعلمنا أن المحاسب التركي يحزم أمتعته في بيته استعداداً للجلاء ، فذهبنا إلى
بيته بمظاهرة ، وكنت في عداد الوفد الذي دخل البيت لمقابلته ، فحملناه على
توقيع أوامر صرف رواتبنا حبوباً بالسعر الرسمي ، وتسلمناها من المستودع
العسكري ، فبلغ راتبي أكثر من نصف طن قمحاً ، بعته مع تدني أسعار
الحبوب ، بسبب شغور الناس بقرب انتهاء الحرب ، بحفنة من الذهب ، اذكر
أنها تجاوزت الخمسين ليرة ذهبية ، وأنا طالب ثانوية لما تجاوز السابعة عشرة من
عمري إلا بأربعة اشهر . وأفاد والدي أيضاً من صرف راتبه بنفس الشكل ،
فانفرجت في تلك السنة أزمتنا الخائفة . وكان لوالدي جزء صغير من راتب
اخي ناظم الضابط بالجيش التركي تستوفي لقاءه مواد اعاشة من مستودعات
الجيش بالسعر الرسمي ، ويسمى الراتب المرصود لاسرة الضابط « سبارش »
بالتركية . وكانت هذه المواد من سمن ولحم وبقول وزيت تساوي في السوق
السوداء عشرات امثال ثمنها الرسمي . وفي آخر شهر من حياة الدولة العثمانية في
بلادنا ، وخلال انسحاب قواتها من الشام ، ذهبت بنفسي لأوقع شهادة معاملة

في شهر ايلول عام ١٩١٨ من الرائد (قولاغاسي) رئيس شعبة التجنيد بصفتة المسؤول عن مستودعات الجيش في حماة ، فلم أجده في مكتبه ، وقيل لي انه في منزله ، فقصدت المنزل ، وخدم الحارس التركي بلباس المدرسة الرسمي ، فلم يعترض سبيلي على الباب ، ولما دخلت الغرفة التي كان يجلس فيها الضابط التركي ، وجدته مع اثنين من تجار السمن الحمويين ، إلى جانبها خرجان مليشان بالليرات الذهبية ، والخرج يوضع عادة على الدابة له جانبان لاستيعاب الاشياء ، وبينهما وبين الضابط التركي منصة من الرخام ذات أربع قوائم مغطاة بصفوف من اكداش الليرات الذهبية ، كل كدسه مئة ليرة ، فبغت الضابط والتاجر ان لدخولي المباغت عليهم ، وسألني الضابط بالتركية : « ماذا تريد يا بني ؟ » ، فقدمت إليه اوراق المعاملة ، وقعتها ، وخرجت مذهولاً من رؤية عشرات بل مئات الوف الليرات الذهبية تبرق فوق المنصة ، وفي الخرجين ، وفي ايدي التجارين يعدان المئات منها ، ويرصفانها على المنصة بجانب بعضها بعضاً . وقد عرفت في اليوم نفسه بأن الاوامر صدرت من قيادة الجيش إلى هذا الضابط المشرف على المستودعات بإتلاف ما في مستودعاته من مواد التموين والاعاشة حتى لا تقع بيد جيش العدو الزاحف إلى الشمال ، والذي تجاوز دمشق ، بعد ان احتلها ، واصبح في طريقه إلى حمص ، وآثر الضابط ان يبيع السمن من مستودعه ، بدلاً من ان يتلفه ، ويستأثر بثمنه ، بسبب فوضى انهيار الجبهة والانسحاب من البلاد العربية ، فدعا اثنين من تجار السمن ، ولعلها من المقاولين الذين كانوا يوردون السمن لمستودعات الجيش ، وفاوضها على ثمن فيه الربح الكثير لهما ، وباعهما مستودع السمن ، ونقل ما فيه فوراً الى مستودع يخصصهما . وقد خرج رئيس التجنيد هذا من حماة بقناطير من الذهب ، لا اعلم كيف استطاع نقلها وتهريبها . وكم نقل غيره من الضباط والموظفين الاتراك الذين كانت بأيديهم خزائن الجيش ومستودعاته وخزائن الدولة من صناديق الذهب والفضة ، ومنهم من نجح بالغنيمة ، ومنهم من فقدوها اثناء هجمات القرويين على القطر التي كانت تقل المنسحبين من الجيش التركي ، وخاصة في مواقع دمر ، وسرغايا ، وبعلبك ،

على الخط الحديدي بعد دمشق ، حيث تألفت عصابات تسلحت بأسلحة الجيش التركي المهزوم ، وأخذت تهاجم القطر ، وتسلب ما فيها ، وتستأثر بالأسلحة والاموال . وقد خاضت هذه العصابات معارك مع شرازم الجيش التركي المنسحبة أفنوا فيها العديد منها ، وغنموا الكثير من الذهب والفضة والحلي والمجوهرات ، لأن الذهب التركي كان أكثره تدفق في الحرب الى البلاد العربية لشراء السمن واللحوم ومواد التموين الاخرى ، فقد كان الاعراب والفلاحون لا يقيمون وزناً للعملة الورقية ، اذ لم يألفوا التداول بها ، واضربوا عن التداول بها ، عندما أخذت تتدهور قيمتها ، لذلك كانت الدولة العثمانية مضطرة لشراء مواد التموين والإعاشة بالذهب والفضة ، فأرسلت المخزون والجديد الذي سكته كله الى البلاد العربية .

أساليب الاستيلاء على الحبوب

لقد نوعت الدولة التركية ، خلال سنوات الحرب ، الاساليب في الاستيلاء على انتاج الحبوب من الفلاحين والمزارعين أصحاب الأرض ، اذ انها كانت قبل الحرب تعتمد في ديار الشام على طرح الضريبة العشرية ، أو ضريبة الاعشار على الحبوب ، في المزايدة . تطرح اعشار كل قرية على حدة ، فيتقدم الملتزمون او المتعهدون القادرون على اداء سلفة أو كفالة مالية للمزايدة على ضريبة القرية ، وترسو على أحدهم الذي يوفد فوراً خفراء ووكلاء من جانبه الى القرية يتسلطون على زروع القرية وبيادرها وانتاجها أشهراً باسم استيفاء ثمن الانتاج ، اي استيفاء واحد من ثمانية اجزاء من الانتاج ، وعلى المتعهد لقاء ذلك ان يسدد المبلغ الذي رسا عليه في المزايدة نقداً الى خزينة الدولة . وكان هؤلاء الملتزمون يرتكبون اعمالاً مخزية ، ويسومون الفلاحين سوء العذاب حتى يستوفوا نصيبهم واكثر من نصيبهم باسم ضريبة العشر . وكثيرون منهم لا يؤدون ما عليهم للخرينة ، واذا لاحقت الدولة كفلاءهم قبل ان تحصل على حقها منهم ، فهم يتلاعبون بالكفالات ، ويغشون ، او ان تكون العقارات المرهونة للكفالة

ملكاً لاقطاعي في المنطقة لا يجرؤ أحد على شرائها ، فيما إذا حجزتها الدولة ، وطرحتها في السوق للبيع . لذلك لجأت الدولة في موسمي السنة الأولى والثانية من الحرب الكونية الأولى إلى تجربة جديدة هي الاتفاق مع متعهد أو ملتزم واحد في كل لواء ، أو مع بضعة ملتزمين يؤلفون شركة تتعهد بأن تقدم حصة الدولة ، أي ضريبة الدولة ، حبوياً بدلاً من المال ، وهي تطلق يدهم في استيفاء الضريبة من المزارعين والفلاحين . وأذكر في صيف السنة الثانية من الحرب ان المتعهدين من آل الاحدب التجار فرضوا حصاراً على مدينة حماة كي لا تنهرب الحبوب إلى أسواق المدينة وسكانها ، وان والدي كلفني بأن أذهب إلى قرية الخالدية التي تبعد خمسة أو ستة كيلومترات جنوب غربي المدينة ، واطلب من أحمد السلوم مختارها الذي يمت إلينا بصلة نسب أن يرسل لنا كيساً من القمح الذي زرعه لحسابنا في ذلك العام في قطعة أرض صغيرة ، كي نرسله إلى الطاحون ، فقد نفذ الدقيق من بيتنا . ولما وصلت إلى القرية قبيل الغروب ، رأيت في العودة أن أرافق بنفسي الفلاح الذي سيوفده المختار مع الدابة وكيس القمح ، حتى نجتاز في الظلمة أماكن المراقبة التي أقامها المتعهدون من آل الاحدب ، في مداخل المدينة ، وشغلهم مصادرة كل ما يرد من الحبوب إلى المدينة من الريف . ولما انطلقت مع الفلاح مئات الامتار عن القرية ، شاهدنا بغض الفرسان يتجهون نحو الجنوب الغربي من القرية ، وتركض خيولهم خبيماً في أراضي القرية . وكانت الشمس احتجبت وراء الافق الغربي ، وأخذ الليل يسدل ستوره على الأرض ، فخاف الفلاح ، وتنبأ بأن الفرسان من البدو او قطاع الطرق المسلحين ، وطلب مني ان نرجع بحملنا إلى القرية ، ولما ابست ، واصررت على المضي ، تركني وحدي ، وعاد ركضاً إلى القرية . وكنت يافعا في الرابعة عشرة من عمري ، لم اعتد في حياتي السير ليلاً بمفردي على الدروب في الريف ، ولكنني استشعرت بالخزي ان لا أقوم بالمهمة التي انتدبني ابي اليها ، ورأيت الفرسان القلائل يبتعدون ، ويسرون في اتجاه غير اتجاهي ، فتقدمت لوحدي اسوق الاثان مستعجلاً سيرها نحو حماة ، وكنت اخشى ان ينقلب الحمل عن ظهرها في

الطريق الخالي من المارة في الليل ، فلا أجد من استعين به في رفع الحمل الثقيل الى ظهر الدابة ، ويبلغ وزنه مئة وخمسين كيلو . ولفني الليل بظلمته الحالكة ، حتى أصبحت لا استبين من حولي وامامي غير معالم الطريق غير المعبدة ، والتي يحتاج اجتيازها الى ساعة ونصف الساعة على أقل تقدير . وكنت سمعت في صغري الكثير من حكايات الضباع والذئاب الكاسرة تتعرض لابناء السبيل في الليل ، وليس معي غير عود اسوق به الدابة . ثم ساورني الخوف حول منتصف الطريق ، لما طرق مسامعي وقع حوافر جواد يسير خبيثاً ورأى ، ويدنو مني ، ولكنني ثبت جناني ، وتوكلت على الله في أمري ، واستسلمت لقضائه ، وتابعت سيري غير ملتفت الى الورا ، حتى حاذاني الفارس المثلث بلباسه العربي ، وبندقيته بين يديه ، فحياني بلهجة المدنية ورددت التحية بمثله ، وتبينني يافعاً اسير في ظلمة الليل لوحدي ، في طريق موحشة ليس يطرقها غيري ، وسألني : « الى أين يا ولد ؟ » ، قلت دون ان اتوقف عن السير : « الى حماة ياعم ! » ، قال : « كيف تجرأت على السير في هذه الطريق وحدك ، وفي هذه الليلة المظلمة ؟ » قلت : « كان معي في بدء الطريق من الخالدية رفيق فلاح ، خاف خيلكم ، فعاد الى القرية ، وخلفني وحدي ، وابت نفسي ان اتخاذل ، وأهلي ينتظرون عودتي هذا المساء ! . » قال : « اسرع في سوق دابتك ، ورافقني الى المدينة ، حتى لا يتعرض اليك أحد في الطريق ! » فشكرته واخذ يتمهل في سير جواده ، حتى باننت مصابيح المدينة ، وادرك اننا اشرفنا عليها ، عندئذ حياني ، وانطلق بجواده نحو المدينة ، وغاب عني في حلكة الظلام .

دخلت المدينة ، بعد أن سلكت طريق العربات والمركبات ، أي الطريق الرئيسية بين حمص وحماة ، وكان فرحي عظيماً عندما تجاوزت بحملي نقطة الحراسة التي أقامها المتعهدون في مدخل خان إلى يسار الطريق من مدخل المدينة . وكنت لمحت أناساً يتراكمون نحو الخان ، وسمعت أصواتاً وضوضاء تصدر عن الخان ، فأسرعت في حث الدابة على السير ، حتى بلغت المنزل . وكما كانت دهشة ابي عظيمة ساعة رأيته وحدي مع حمل القمح على باب المنزل ،

وقصصت على الاسرة قصتي . وفي اليوم الثاني عرف والدي أن الذي نجاني من
خفراء المتعهدين بئر في الحان غمت على عامل كان يحاول إصلاح مضختها، تراكم
في قعرها غاز الفحم ، فتراكض الخفراء والناس لانتشاله من البئر قبل موته ،
وشغلوا بأمره عني ، اذ صادفت آنثذ لحظة مروري ، فقلت في نفسي : « مصائب
قوم عند قوم فوائد ! »

مع الاقطاع في القرى !

- ٩ -

ومن طرائف ما وقع صيف عام ١٩١٨ ، آخر اعوام الحرب ، عند تنفيذ
قانون ادارة الاعشار بطريق الامانة ، اي باستيفاء ثلاثة اجزاء من ثمانية اجزاء
الانتاج ، عيناً ، وحبوباً ، ومن البيدر مباشرة ، ان شاكر السباعي من أهالي
حمص ، كان يافعاً في مثل عمري ، يسكن مع أهله بلدة سلمية ، وهي مركز
قضاء تابع الى لواء حماة ، كان والده فيها اميناً لصندوق المالية ، اي خازناً ، ثم
توفي رجلاً لم يتقدم به العمر ، عن اسرة عدد أفرادها كبير ، واخوة اكبرهم شاكر ،
فاستدعاه مدير المال الى مكتبه ، وقال له ان المرحوم والده توفاه الله قبل ان
تكتمل سنوات حالته الى المعاش ، اي التقاعد ، وترك للأسرة راتباً ضئيلاً ، وانه
كرفيق وزميل لوالده رأى ان يعينه مأمور أعشار الى قرية لثريا بك العظم من
وجهاء حماه ، تابعة لسلمية ، واوصاه بان ينتبه للتعليمات ، وان يحافظ على
حقوق الخزينة ، وقرأ له الاوامر باحالة المقصرين من مأموري الاعشار
والمتلاعبين الى المحاكم العسكرية ، وزوده بالتعليمات والسجلات والاوراق ،
وأداة « الرشم » لصون البيادر ، وأكد عليه ان يهيء ، اول وصوله الى القرية ،
المستودع الذي ستخزن فيه الحبوب حصه الدولة ، وان يكون له قفلان ، كل
منهما بمفتاحين ، يحتفظ هو بمفتاح ويختار القرية بمفتاح ، فلا يفتح المستودع الا
بحضورهما معاً . وتوجه شاكر السباعي على قدميه الى القرية يحمل اوراقه

والرشم ، وسأل عند وصوله عن بيت المختار ليحل فيه ، وليشارك المختار مسؤولية العمل . ويظهر ان قرى الاقطاعيين في لواء حماة ، او متصرفيتها ، قل ان تكون فيها هيئات اختيارية صحيحة ، فقد كانوا يكتفون باسماء نكرات من الفلاحين ، او باختام لاسماء في قريتهم لا تمارس عملاً ، يستخدمها الاقطاعي في تذييل الاوراق والمذكرات الرسمية التي ترد الى القرية . واستقبل الحواط ، أي خادم المضافة ، مأمور الأعشار ، وادخله غرفة الضيافة التي أعدها مالك القرية ، والتي يطرقها عادة رجال الدرك ورجال الدولة ، واخذ يهيه له القهوة تكريماً ، ويسأله ماذا يعد له من الطعام ، ولكن شاكر السباعي كان يريد المختار ليلبغه التعليمات ، وليهيه معه المستودع لحزن الحبوب ، ويقوم بمهمته خير قيام حتى لا يعد من المقصرين في اداء الواجب . ولم يمهّل الحواط — بتشديد الواو — كي يطبخ القهوة ، واضطره الى ان يذهب الى قصر ثريا بك مالك القرية يستنجد به ، ويسأله حلاً لمشكلة المختار الذي يعرف الحواط ان لا وجود له في القرية ، الا ان اسمه محفور في الخاتم لدى المالك ، مع اسماء الامام والعضوين في الهيئة واختامهم . وعاد الحواط يبلغ مأمور الاعشار ترحيب ثريا العظم بمقدمه ، ويرجوه ان يرتاح من عناء السفر ، وان يقيم ضيفاً معززاً مكرماً ، فكل شيء سيكون حسب مشيئته واوامره ! ولم يجد السباعي الشاب الحريص على تنفيذ أوامر الدولة في هذا الكلام مادة ، فأعاد الحواط مثني وثلاث ورباع . . واشتد بالطلب ، وعلا صوته في تقريع الحواط ، مما أزعج البيك مالك القرية ، وكان بطبيعته شاذاً ، يدمن الخمر ، كثيراً ما يراه الفلاحون يمتطي ، بملابس النوم حافي القدمين ، جواداً دون سرج ، وينطلق بسرعة الريح في اراضي القرية ، حتى اعتادوا سماع هجر القول واقدع الشتائم منه . ولم ينل الحواط في ذلك اليوم غير الشتائم من سيده ، فقد افسد عليه بذهابه واياه قيلولته . واخيراً أفاق ثريابك في الاصيل ، وجلس كعادته الى مائدة الخمر في الشرفة التي تطل على اجمل مشهد في القرية ، بمباضله ، وبقميص النوم الابيض ، يجرع الكؤوس ، فلما انتشى أمر الحواط الواقف على الباب ان يستدعي اليه مأمور الاعشار من

دار الضيافة ، فأسرع شاكر السباعي اليه ، وجلس محيياً بين يديه ، وسرد على مسامعه التعليمات والامور المشددة الصادرة من وزارة المالية في استانبول ، وانه يطلب اول ما يطلب المختار وهيئة الاختيار لبدأ بتنفيذ اوامر الدولة .. واصغى اليه ثريابك حتى انتهى ، ثم فاجأه بأن كشف قميصه عن عورته زاعماً انها الهيئة الاختيارية التي يطلب ، فاذا لم تعجبه عليه ان يبلغ ذلك من عينه لهذه الوظيفة !.. وبهت السباعي ، وحرار في هذه القحة ، ثم غادر المكان مسرعاً ، وحمل امتعته من دار الضيافة ، وغادر القرية لا يلوي على شيء حتى بلغ سلمية ، وقابل في اليوم الثاني مدير المال ، وحدثه بما جرى ، فضحك وقال له : « انها غلطتي .. اذ ارسلتك الى قرية من قرى الاقطاع ، فاستعد غداً للسفر الى قرية غيرها يملكها اصحابها الفلاحون .. انك ليس بواجد بينهم مثل ما وجدت في قرية ثريا بك .. وستجد المختار والهيئة كلها ، وسينصاعون لاوامرك » . وطبعاً عين بعدها مدير المال مأمور اعشار من ذوي الخبرة الى قرية ثريا بك ، يعرف كيف يتفاهم معه !.. وقد اشترك شاكر السباعي بعدها في الثورة السورية ، وقص علينا فيها قصة ثريا العظم معه !..

فوزي القاوقجي ومجري التاريخ !

- ١٠ -

استمر انسحاب الجيش التركي من بلاد الشام في شهر ايلول عام ١٩١٨ ، ثم في شهر تشرين الأول . وقد حدثني القائد العسكري الثائر فوزي القاوقجي الذي اشترك في الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، وقاد ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، واشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ في العراق ، ورافقته في هذه الثورات العربية الثلاث - حدثني بأنه كان ضابطاً خيلاً برتبة نقيب (يوزباشي) في احدى الفرق التركية التي كانت في جبهة قتال فلسطين ، فتلقت

فرقته ، في بدء انهيار الجبهة التركية أمراً من القيادة بأن تغادر فوراً مواقعها في الغور ، وتتوجه بأسرع ما يمكن ودون توقف إلى موقع درعا باعتباره عقدة الخطوط الحديدية ، لأن قيادة الجيش التركي كانت تخشى سقوط هذا الموقع بيد الجيش العربي ، فيسحق الجيش كله في جبهة قتال فلسطين . وتحركت الفرقة فوراً باتجاه درعا ، ومن أقصر الطرق ، وأدركت من تحرك الفرق الأخرى أن هناك انسحاباً شاملاً ، وإن جبهة القتال خرقت . وكان أمر القيادة واضحاً بأن لا تتلهى الفرقة ولا تتدخل بأي شيء في الطريق ، كي لا تشغل عن الهدف ، وهو الوصول إلى محطة درعا . وواصلت الفرقة سير الليل بالنهار ، ولما اجتازت نهر الأردن في غور بيسان ، في الصباح الباكر ، شاهدت قتالاً يجري وراءها في سهل بيسان بين لواء من خيالة الإنكليز ، وبين سرية تركية من المشاة ، كانت تحاول جاهدة أن تتخلص من الوقوع في الأسر ، وتقاتل بضراوة ، وتراجع نحو نهر الأردن . ومن جميل المصادفات أن النقيب القاوقجي كانت أسندت إليه ، من قبل ، رئاسة أركان الفرقة بسبب قلة عدد الضباط في آخر الحرب ، وحسب التسلسل بالرتب ، فأخذ يتابع من مرتفع بمنظاره المعركة الدائرة بين قوتين غير متكافئتين ، فلاحظ أن السرية التركية على قلة عدد أفرادها تستخدم في المعركة الدائرة بضعة عشر رشاشاً ، مما لا عهد للجيش التركي به في تلك الحرب ، إذ السرية عادة لا تملك أكثر من رشاش أو رشاشين ، ثم شاهد أن الإنكليز ، رغم خسائرهم الجسيمة بالنفوس مصممون على سحق أو أسر هذه السرية ، بينما الألوف من الجنود الأتراك يستسلمون اليهم في ذلك اليوم حتى دون قتال ، فقد أدرك الجيش أن جبهته انهارت ، وأن لا جدوى من القتال . فذهب القاوقجي إلى قائد الفرقة ، ونبهه إلى تلك المعركة الغريبة ، وشرح له ملاحظاته ، بأن في السرية التركية شيئاً غير عادي ، ثم شاهدوا معاً الإنكليز يقذفون في أرض المعركة بلواء آخر ، وبمدفعية أقاموها مكشوفة في السهل ، أخذت تصب بهم نيرانها على السرية التركية المستميتة بالدفاع ، وتضعض من ثباتها ، وتعرقل تراجعها ، حتى بدا اليأس يدب في صفوفها ، فاقتراح القاوقجي أن تتدخل

فرقته لانقاذ هذه السرية التي يدل وضعها وملابسها قتالها ، على أنها غير عادية ، وإلا لما تحمل الانكليز كل هذه الخسائر في سبيل سحقها أو أسرها . واعترض قائد الفرقة على التدخل ، وقال ان الامر لديه صريح لا يقبل التأويل ، وان مخالفته قد تذهب به إلى المحكمة ، وإلى الموت رمياً بالرصاص ، وانه غير مستعد لتحمل مسؤولية مخالفة الامر . فرجاه القاوقجي ان يدعي المرض ، ويعهد اليه مؤقتاً بقيادة الفرقة باعتباره رئيس أركانها ، فيتحمل هو مسؤولية التدخل . وتم فوراً تبليغ الأمر الخطي للقاوقجي ، فوجه سريتين عبر نهر الاردن لنجدة السرية المتضرعة ، ونصب مدفعية الفرقة في موقع استراتيجي وراء النهر ، وأمر قائدها باسكات مدفعية العدو المكشوفة في السهل . وكان ضابط المدفعية من الممتازين ، فلم تمض لحظات حتى فوجئت القوات الانكليزية بقصف أسكت مدفيعتها ، وحطمها ، وبقوات جديدة عبرت نهر الاردن لنجدة السرية ، فتراجعت القوات البريطانية ، بسبب هول المفاجأة ، واستطاعت السرية أن تتراجع ، وتنجو ، تحمي تراجعها السريتان ، حتى عبرت نهر الاردن ، ووقف القاوقجي يترقب شأن هذه السرية ، وإذا بطليعة السريتين المنجذبتين يعلن ضابطها أن الفريق مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع وأركان حربه في هذه السرية من الحرس المزودة بعدد كبير من الرشاشات . والانكليز كانوا يعرفون أن في السرية صيداً ثميناً لذلك كانوا ينفذون بقواتهم للظفر بهذا الصيد ، ولا يبالون بالخسائر .

سمع القاوقجي صوت مصطفى كمال قادماً يسأل عن اسم القائد الذي تحمل مسؤولية التدخل في المعركة ، ومخالفة أمر القيادة ، وكان سبب انقاذ السرية ، دون أن يعرف من فيها . وكان ضباط السريتين حدثوه بالجدل بين قائد الفرقة وأركان حربه ، فتقدم اليه القاوقجي مهتماً شارحاً الموقف ، فقال له مصطفى كمال : « ان القليل في الجيش التركي من القادة يقدم على ما أقدمت عليه ، لأنه في حال الفشل كان يكلفك حياتك . الا انك بتحملك المسؤولية في هذا الحادث

لم تنقذ قيادة الجيش التركي فحسب ، بل أنقذت شرف الدولة العثمانية فإليك تهانئي ، وأنا مثلك تحملت مرة بمفردي ، في « انا فورطة » من حرب الدردنيل مسؤولية مخالفة الأوامر ، وشنتت هجوماً معاكساً على قوات العدو ، خلافاً لأمر القيادة العليا التي أمرتني بالانسحاب ، وهزمت العدو ، وأنقذت الحصن من السقوط ، فأطلق عليّ منذ ذلك اليوم لقب بطل أنافورطة ، وأنا أبارك الجيش الذي فيه أمثالك . ثم أخذ ورقة ، وكتب بحضور أركان حربيه ، وفي عدادهم المير الای نصوحي البخاري من دمشق ، كتاب تقدير للعمل العظيم الذي قام به القاوقجي وسلمه اليه ، وانطلق كل فريق في سبيله ، وإلى هدفه .

يقول القائد القاوقجي انه ما زال يحتفظ بهذا الكتاب الذي يسجل هذا الحدث الذي غير مجرى التاريخ . وحدثني بأنه بعد الثورة السورية ، لجأ مرة إلى تركيا ، وقابل الغازي مصطفى كمال بإشار رئيس الجمهورية الذي سمي بعدها « انا تورك » ، محاولاً أن يحصل على مساعدة من الحكومة التركية لاستئناف الثورة السورية من الشمال . وفي المقابلة أشار القاوقجي إلى المعرفة السابقة ، واللقاء الذي تم بينهما ، وذكره بالحادث ، فقال له الغازي : « هل تظن انني أنسى تلك اللحظة التاريخية التي غيرت مجرى التاريخ ؟ » . أجل انه لحادث غير حقاً وجه التاريخ ، فمن كان يستطيع أن يقوم بدور مصطفى كمال في ثورة الاناضول ؟ ومن كان مثله يحمل تلك الروح التي كان لها الأثر الأكبر في النصر ، يوم جزئت تركيا ووزعت تركتها بين الدول ؟ من يقود ثورة تركية لو أن مصطفى كمال كان يومئذ في عداد الأسرى ، وفي إحدى معسكرات الانكليز في مصر ؟

العام العربي يخفق في سماء دمشق

بعد الانسحاب والانهيار في جبهة قتال فلسطين ، كانت أول قوة عربية

دخلت دمشق بقيادة سلطان الأطرش ، مؤلفة من محاربي جبل الدروز ، سبقت الجيش العربي في دخول المدينة ، واحتلت حي الميدان ، والجيش التركي ينسحب مشتتاً ، ومصطفى كمال قائده يقيم في فندق فيكتوريا مقر قيادة الجيش على ضفة « بردى » مقابل دار الحكومة أو دار الولاية ، تحرسه قوة من جيش الصاعقة « بيلديرم اوردوسي » . وبلغ نبأ دخول الجيش العربي المدينة مسامع الوطنيين ، فتوجه عدد منهم برفقة الامير سعيد الجزائري حفيد الامير عبد القادر الجزائري ، إلى دار الولاية في ساحة الشهداء ، ودخلوها ؛ وأنزلوا العلم التركي عن ساريتها ، ورفعوا عليها العلم العربي ذا الألوان الاربعة ، وقامت ضجة في صفوف الناس الذين شهدوا الحادث ، وتذبه لها مصطفى كمال ، فنزل فوراً من الفندق ، وركب سيارته ، وغادر دمشق مع حرسه باتجاه الشمال ، وكانت وراءه سرية أخرى من جيش الصاعقة تنسف الجسور في طريقها لتعرقل تقدم جيش العدو . وبلغ مسامع أهل حماة أن مصطفى كمال باشا قائد الجيش حل في مدينتهم ، وآثر الإقامة في دار الحكومة على مقربة من جسرهما على العاصي . وكانت القطر تمر بمحطة حماة مثقلة بالجنود والركاب في طريقها إلى حلب ، والمئات بل الالوف من الجنود وأسر الضباط والموظفين الاتراك يحتلون سطح الشاحنات والمركبات ، لأنهم لم يجدوا مكاناً في داخلها ، وفي داخلها الحشر ، وعلى رفارفها حشر . وكان منظر المنسحبين يثير الشفقة ، ويعمل عمله في نفوس الحمويين المحافظين المتدينين ، فترى الوجوم على وجوههم ، يشعر بحزنهم الدفين ، وهم يرون هزيمة دولة مسلمة عاشت مع العرب أربعمئة سنة باسم اخوة الدين ، واعتبرتهم في البدء رعاياها ، لا فرق بينهم وبين سائر الأقوام التي تتألف منهم الدولة ، حتى جاء غلاة القومية التركية من حزب الاتحاد والترقي ، وتسلطوا على الحكم ، وبدءوا يبيتون الشر للعرب ، وللقوميات غير التركية ، ويخططون اضطهادها وصهرها في بوتقة قوميتهم الطورانية ، ثم غدروا بأحرار العرب الذين كانوا لا يرغبون أكثر من صون قوميتهم من الانحلال ، ورضوا بأن تبقى بلادهم في اطار الدولة العثمانية شريطة ان يشاركون في الحكم ، وان يكون لهم مثل ما

عليهم في الحقوق والواجبات ، لذلك اكتفوا بطلب اللامر كزية ليصونوا بها مقومات
امتهم ، ويهيئوا لها سبل النهضة . لقد أبى الحمويون ان يثأروا من المنهزمين ابناء
دينهم ، على الرغم مما فعلوا ، وقتلوا ، وافقروا ، واجاعوا ، وسخروا ، وخربوا
في البلاد العربية ، لذلك لم يقع اثناء انسحاب الاتراك في حماة أي حادث يسيء
اليهم ، اللهم إلا حادث واحد ، وقع خلال الايام الأخيرة من الانسحاب ، في
المحطة ، أو على مرمى سهم منها في اتجاه حلب ، بين شاب كان يمتطي جواداً ،
ويحاذي القطار السائر ، فقد حدث بينه وبين جندي تركي سوء تفاهم على شراء
بندقية أدى الى ان الجندي أطلق النار على الشاب وصرعه . ومع ان الاتراك
كانوا المعتدين ، لم يقع رد فعل للحادث بين الحمويين ، ولم يفكر أحد في العدوان
أو الثأر .

أما في دمشق التي شهدت مآسي الحرب أكثر من غيرها ، كمقر لقيادة الجيش
التركي ، وعلق الأحرار على أعواد المشاتق في ساحتها ، ورمي المئات والالوف
بالرصاص بتهمة الفرار من الجيش التركي في مرجها الأخضر ، فقد كان الحال
فيها على عكس مدينة حماة . كان الكثيرون من شبابها وشباب الضواحي
يسلبون الجنود الاتراك المنهزمين بنادقهم ، وإذا قاوم أحدهم وجهت اليه نيران
الأسلحة ، وصرع دون شفقة . وفي دمر متنزه دمشق ، وفي بعلبك نصف فريق
من الأهليين أكثر من قطار ، وسلبوا ما فيه . وفي سرغايا في قضاء الزبداني كانت
البندقية تسبب مصرع صاحبها الجندي ، لأن المسلحين من آل الشماط كانوا في
ايام الانسحاب الأخيرة يكنون ليل نهار في واديهم ، ويطلبون من كل جندي
يمر فيه ، سالكاً الطريق الى جانب الخط الحديدي ، ان يلقي سلاحه ، وينجو
بروحه ، فاذا أبى كلفه ذلك حياته . وقد شهد وادي سرغايا مجزرة ارتكبها
عقيد الشماط وجماعته ، إذ قتلوا سرية من الالمان حلفاء تركيا ، استطاعوا ان
ينجوا متجمعين بانفسهم ، وهم يتتبعون مشاة الخط الحديدي في انسحابهم ، فوقعوا
في كمين عقيد الشماط وجماعته ، وأنوا أن يسلموا اسلحتهم وقاتلوا قتالاً مريراً

حتى فنوا عن بكرة أبيهم ، وامتسلت أرض الوادي يحشهم . وفي دوما وبساتينها على طريق حمص وقعت حوادث اصطدام عديدة بين بعض الاهلين والجنود المنسحبين بسبب السلاح ، فقد كان المرابطون طمعاً بالسلاح لا يفرقون بين تركي أو عربي أو كردي ، ويقتلون كل من يستعصي عليهم ، ويقاوم تسليم سلاحه .

مكث مصطفى كمال ثلاث ليال في دار متصرفية حماة ، وصباح اليوم الثالث أفاق الأهلون على بيان يذيعه القائد التركي قبل رحيله يشكر فيه أهالي حماة على هدوئهم ، وعواطفهم الأخوية النبيلة التي أظهروها خلال انسحاب الجيش من مدينتهم ، ويودعهم بكلمات مؤثرة . وفي الضحى شاهدنا في الطريق العام الذي يخترق المدينة من الجنوب الى الشمال سرية فرسان من جيش الصاعقة تمر بخوذاتها الحديدية ، والبنادق مشهرة بأيدي رجالها ، حتى غادرت المدينة في طريقها الى حلب . وبعد ساعتين ، سمعنا انفجاراً يدوي ، وقيل ان هذه السرية نسفت جسر الضاهرية ، وهو جسر حديدي على العاصي ، يمر عليه القطار بعد مغادرة حماة الى الشمال . ونسف قبله جسر للقطار بين حمص وحماة في قرية « حر بنفسه » . وفي اليوم الذي سبق انسحاب القائد التركي من حماة سمعنا ، ونحن نلعب في باحة دارنا، بعد الظهر بقليل ، هدير طائرتين يختلف عن هدير الطائرات الألمانية التي كانت تمر بسما حماة ، ومنها الطائرة السوداء التي قيل ان قائدها الألماني فقد ساقه كلها في إحدى المعارك الجوية ، بعد ان أسقط العديد من الطائرات الانكليزية - شاهدناه في سماء حماة يجري أثناء الانسحاب ، مختلف الألعاب ، ويغادر سماء الشام في طريقه الى تركيا .

سمعنا هدير طائرتين فهرعنا الى سطح المنزل ، وشاهدنا طائرتين يلعب معدنها في ضوء الشمس ، ويزيد من بياضهما ، تتجهان نحو محطة المدينة ، ثم رأينا قطعاً تلمع تتساقط منهما ، تعقبها أصوات انفجارات رهينة هزت المنازل ،

فتراكضنا نحو السلم تحاشياً للخطر ، ثم عدنا لثلاث ففوتنا المعركة ، فشاهدناها تنقضان وتطلقان رشاشاتها ، ثم تعودان نحو حمص ، بعد ان افرغتتا حمولتهما من القنابل . وقد عرفنا بعدئذ سبب الغارة ، فقد أمر قائد الجيش اثناء وجوده في حماة بأن يفتح مستودع الحبوب الخاص بالجيش ، وهو على مقربة من المحطة ، لعشائر البدو تمتاز منه بدون ثمن حتى ينفذ ، فأقبل الاعراب من الريف يجهلونهم واباعهم يملأون الاكياس قمحاً وشعيراً وحمصاً وفولاً وعدساً ، ويحملونها ازواجاً على البعير ، وتنساب قوافلهم مثقلة بهذه الخيرات الى منازلهم . وأهل المدينة لا يحركون ساكناً ، فقد يكون القائد التركي اشترى هدوءهم اثناء الانسحاب بما سلبته الدولة من الشعب . وبينما كان هؤلاء الاعراب في حشرهم ونشرهم حول المستودع في ذلك اليوم ، فاجأتهم الطائرتان الانكليزيتان ، وشاهدنا الزحام والحركة الكبيرة في الميدان الفسيح بجانب المحطة ، والمحطة في حد ذاتها هدف لطائرات العدو ، فأمطرتا الاعراب وأباعهم بصوب من قنابلهما ، ولما تبشتت الجمع ، انقضتا برشاشيهما تحصدان النفوس ، فاختلط الحابل بالنابل ، ومادت الارض ، وشردت الجمال خفافاً وثقالاً ، وداست اصحابها ، وفر من فر هارباً لا يلوي على شيء ، وسمع أحد اقاربي ، وهو جالس في مقهى ، في موقع الموقف وسط المدينة ، بدويّاً شاردّاً من جهة المحطة يصيح ، وهو يمر راكضاً : « يا إما ! أنا ولّيت ! » ، فهو يهتف باسم أمه ، ويحسب انه لا بد من المقتولين ..

احتلال حماة وحلب

بعد ظهر اليوم الذي تم فيه انسحاب مصطفى كمال القائد العام للجيش التركي ، وسرية جيش الصاعقة ، انتشر في المدينة خبر وصول طليعة الجيش العربي على مشارف حماة ، وان الجيش العربي بقيادة الامير ناصر الهاشمي زاحف من حمص الى حماة ، فخرجت المدينة تشهد دخول الجيش الفاتح ، وغص

الشارع العام الذي يخترق المدينة بالرجال والنساء والاطفال ، وبعد قليل وصلت الطليعة ، ثم أعقبها الجيش العربي ، على ألوف من الهجن تحمل الضباط والجنود فرادى وردائف ، والاهازيج البدوية تشق عنان السماء . وقد سررت عندما رأيت امين الكيلاني زميلي في تجهيز دمشق ، ومن ابناء حماة . كان يتقدمني بثلاثة صفوف ، عندما رأيته ببزته العسكرية ، وعقاله العربي على هجين يمر أمامي مع طليعة الجيش . وكان أمين ، قبل ان يصبح الشيخ امين الاديب الشاعر في حماة ، استدعي الى الجندية التركية ، وتخرج من ميدان التدريب في الشام مرشحاً ، ثم ترفع لرتبة ملازم . ولما سمع باقترب الجيش العربي ، فر من الجيش التركي ، والتحق به ، وترفع الى رتبة ملازم أول . وقد أبهجتني رؤيته ، وداخلني شعور بالعزة ، فقد أصبح للعرب جيش يهزم الجيش التركي ، ويطارده الى الشمال ، قبل الجيش البريطاني ، ويحرر البلاد العربية من تسلط الدولة العثمانية وطفليانها . تابعت كتائب الجيش العربي اقتفاء أثر الجيش التركي ، وتعقبته الى معرة النعمان ، فحلب . وبعد يومين من رحيلها وصل الجيش البريطاني الى مدينة أبي الفداء مقبلاً من حمص ، ومعظمه من الخيالة الهنود وجنود المستعمرات ، ببنادقهم ورماحهم وسيوفهم ، وظل ساعات يجتاز المدينة في زحفه الى الشمال ، وراء الجيش العربي . ويظهر ان دخول الجيش العربي مدينة حلب الشهباء دون قتال ، أطمع الانكليز في تعقب الجيش التركي شمال المدينة ، وتوجيه ضربة اليه قبل ان يصل الى جبال طوروس ، ويتعلق بدروبها ، ويتحصن فيها . وتضايق مصطفى كمال من هذه الملاحقة السريعة ، وكان جيشه انتظم بعد حمص وحماة وحلب المدن الثلاث التي لم تهاجمه ، ولم تعتد عليه ، فأعد ، على بعد بضعة وعشرين كيلومتراً شمالي حلب على طريق اعزاز وكليس ، هجوماً معاكساً باغت به الجيش البريطاني ، ودحره حتى أبواب الشهباء ، حتى استعد الانكليز لإخلائها ، والتراجع عنها ، ولكن القائد التركي ، بعد هذه الضربة المفاجئة ، كان يدرك ان جيشه المنهزم لن يستطيع الصمود في سهول سوريا الشمالية ، فتابع انسحابه ، بعد أن لقن الانكليز درساً ، كفوا بعده عن مضايقته في انسحابه

الى جبال طوروس. وكان القائد يريد ان يتخذ منها خطاً للدفاع عن بر الاناضول حيث يبدأ الوطن التركي ، والولايات التي تسكنها أقوام غير عربية . ويشاهد المسافر اليوم الى بلدة اعزاز على يمين طريق السيارات نصباً تذكاريّاً أقامه الانكليز لقتلهم في أرض المعركة بينهم ضابط برتبة جنرال .

وأخيراً وقعت الهدنة في يوم ١١/١١/١٩١٨ ، (أي في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٨) بين الدول الحليفة ، والمانيا والدول المركزية حليفها ، وتوقف القتال على جميع الجبهات في العالم ، وساد السلام ، ولكنه السلام الذي فرضه المنتصر على المغلوب : السلام الذي اقتسمت فيه الشعوب الضعيفة غنائم حرب ، فكان من الطبيعي ألا يدوم هذا السلام .

الفصل الثاني

بلاد العدو المحتلة

- ١١ -

قام في ديار الشام ، بعد جلاء تركيا عنها حكم أجنبي شعاره « بلاد العدو المحتلة » ، فاحتل الفرنسيون منطقة الساحل من موقع الناقورة حتى الحدود الفاصلة بين سوريا الطبيعية وبر الاناضول التركي ، بما في ذلك الاسكندرونة ومرسين وطرشوس وأذنة بالإضافة الى منطقة كيليكيا ، واحتلت بريطانيا ما تبقى من الساحل السوري في الجنوب من الناقورة الى رفح والعريش ، كما احتلت سوريا الداخلية الى شمالي حلب ، وأقامت إدارة خاصة في لواء القدس المستقل في عهد الدولة العثمانية ، بعد اضافة متصرفتي نابلس وعكا من ولاية بيروت اليه ، واسميت هذه المنطقة « فلسطين » . وفي باقي المناطق التي احتلتها بريطانيا من سوريا اقامت ادارة عربية برئاسة الامير فيصل بن الحسين ، كنائب عن ابيه الذي سمي ملك العرب ، واستقل في ولاية الحجاز . وكانت الادارة العربية في سوريا لا تعتمد على قوة تستطيع الدفاع عن نفسها ، فالجيش العربي الذي أسهم في احتلال ديار الشام كان سلاحه هزيعاً ، وكان في اكثريته مؤلفاً من رجال

القبائل الذين اقتصت مهمتهم بانتهاء الثورة ، وبانتهاء عطاءاتهم من الذهب البريطاني ، وعادوا الى عشائهم . ولم يبق في هذا الجيش إلا المتطوعون ، على رأسهم الضباط العرب الذين التحقوا بالثورة ، فكانت هذه القوة التي اسموها الجيش العربي قليلة العدد هزيلة السلاح ، اتفقت بريطانيا مع حليفتها فرنسا من قبل على عدم تسليحها تسليحاً تاماً ، وعدم تقويتها ، ليتسنى لهما اقتسام البلاد العربية ، وفرض استعمارهما عليها . وتتابع الأحداث ، واحتل الحلفاء استانبول عاصمة الدولة العثمانية ، واحتل الفرنسيون كيليكية ، واحتل الطليان ارضاليا ، واعطيت منطقة ازمير لليونان ، ولاحق الارمن الذين بطش بهم الاتحاديون اقطاب حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، خلال سني الحرب ، لاحقوهم بعد هزيمة تركيا في الحرب ، فقتل سارو ملكيان « الارمني طلعت باشا الصدر الاعظم اللاجيء الى المانية بالرصاص - قتله عام ١٩٢١ في أحد شوارع برلين ، وقبض على القاتل ، ولكنه لما سرد امام المحكمة ما أنزلته تركيا بالارمن من الفظائع برأته المحكمة ، وسافر الى الولايات المتحدة الامريكية ، وتوفي في ٣٠ / ٥ / ١٩٣٠ ، في أحد مستشفيات سان فرنسيسكو » . وتسلب انور باشا وزير الحربية ، بعد الحرب العالمية الى تركستان في آسيا الوسطى ، وقام فيها بثورة ترمي الى استقلال تركستان ، مستفيداً من الفوضى التي عمت روسية اثر الثورة البلشفية ، ونازل الجيش الاحمر في عدة معارك ، لكنه سقط قتيلاً في احدى تلك المعارك .

وسمع احمد جمال وزير البحرية المختفي عن عيون الحلفاء بثورة انور في تركستان ، فتسلب باسم مستعار حتى بلغ القفقاس في طريقه الى تركستان . وقد كشف احد الارمن هويته هناك ، واغتاله ثأراً مما أنزله حزبه بالارمن . وكان العدل يقضي بأن يقتل احمد جمال السفاح بيد عربية جزاء ما ارتكب في بلاد العرب من فظائع وجرائم ، منها تعليق زهرة رجاءهم واحرارهم على اعواد المشائق ، وقتل الالوف منهم رمياً بالرصاص ، وقتل مئات الالوف بالامراض والمجاعات . ولكن شاء القدر ان يكون مصرعه على يد ارمني ، كمصرع طلعت باشا من قبله . وهبكذا تهاوى اقطاب الاتحاديين واحداً بعد الآخر .

وعلى ذكر الجيش العربي ودوره في الثورة العربية جاء في تقرير الجنرال اللنبي ما يلي : « .. وقد ساعدنا الجيش العربي مساعدة عظيمة بقطع مواصلات العدو قبل القتال ، وبمعاونته لفرساننا في أثناء الزحف على دمشق ، فقد رابط على الطريق التي تقهر منها العدو شمالي درعا ، فحال دون فرار جانب من الجيش العثماني الرابع ، وأنزل بالعدو خسائر كبيرة » . وجاء في كتاب للجنرال اللنبي أرسله إلى الحسين ونجده فيصل قال فيه : « أشكر لجلالة الحسين بن علي ملك الحجاز إخلاصه العظيم لقضية الحلفاء ، ولا أملك نفسي من توجيه عاطر الثناء إلى سمو الأمير فيصل لما أظهره من براعة في القيادة ، ولإخلاصه القلبي ، ولما أبداه من بسالة ومهارة في الأعمال الحربية التي قام بها الجيش العربي . وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج فاصلة في الحرب » .

وجاء في تقرير ان القوات التي شغلها الجيش العربي ، ونازلها ، او تعطلت عن خوض القتال ضد الانكليز ، تم احصاؤها كما يلي :

١٥ الف في المدينة المنورة بقيادة فخري باشا .

١٠ آلاف في محطة القطرانة من الفيلق الثاني لحماية المحطات .

٨٠ آلاف في معان واطرافها بقيادة الفريق محمد جمال باشا المرسيني ، وهو كما اسلفنا غير احمد جمال باشا السفاح .

٤٠ آلاف في تبوك بقيادة بصري باشا .

٣٠ آلاف في العلا بقيادة علي نجيب بك .

٤٠ فيكون المجموع أربعين ألف جندي .

كدت أمتهن الجندية !

افتتحت مدرستنا في دمشق باسم «مدرسة التجهيز الاولى» ، في مطلع شتاء عام ١٩١٨ ، متأخرة نحو ثلاثة شهور عن موعد العام الدراسي المعتاد ، بسبب

احداث الحرب التي وقعت في البلاد . ولما بدأنا الدراسة بالعربية ، كنا نعاني قلة المدرسين ، بعد انسحاب المدرسين الاتراك .

بعد بضعة أسابيع من افتتاح المدرسة ، جاءني ليلة أثناء ساعات المذاكرة ، الشيخ عبد القادر المبارك مدرس اللغة العربية في مدرستنا ، والذي تربطه بخالي محمود الرئيس رابطة ود وصداقة ، وسألني : ماذا انتظر في هذه المدرسة ، والبلاد في أول عهدها بالاستقلال ، تريد أن تبني جيشاً تعتمد عليه في صون هذا الاستقلال والدفاع عنه ، وان واجبي وواجب أمثالي الشباب ان نلتحق بالمدرسة الحربية لنتخرج منها ضباطاً نصبح عماد الجيش . وحدثني بان المدرسة الحربية افتتحت في مبنى جامع « دنكز » حيث كانت المدرسة الاعدادية العسكرية في عهد الدولة العثمانية ، وانها امتلأت بالطلاب ، وبشرت التدريس ، وأنه عين هو مدرساً للعربية فيها ، بالإضافة الى وظيفته في مدرسة التجهيز . أثري كلام الاستاذ المبارك ابلغ تأثير ، وحصلت في الصباح على اجازة ساعتين استطعت خلالها ان اقدم طلباً للمدرسة الحربية ، صحبتها بورقة الجلاء التي تثبت ترفيعي إلى الصف التاسع في التجهيز ، طلبت فيه قبولي في المدرسة الحربية ، واحلت الى الفحص الطبي ، بعد أن تقرر قبول الطلب ، وانتقلت الى الحربية . وصادف ان طالباً اسمه بدر الدين القطمة من حماة بلدي ، كان دوني صفاً في التجهيز ، التحق معي في نفس اليوم بالمدرسة الحربية . ولما كنا غريبين عن المدرسة الجديدة ، وزميلين داخليين في التجهيز من قبل ، ومن مدينة واحدة ، فقد ربطتني به أواصر صداقة في المدرسة الحربية . وفي أحد الايام دعي الطالب القطمة الى الادارة ، وعاد منها شاحب الوجه ، فلما سألتبه عما به ، أخبرني أن الادارة حققت معه حول السرقات التي وقعت من جيوب بعض الطلاب أثناء النوم في المدرسة ، فسألته عن موقفه من هذه التهمة ، وعما إذا احتج على هذه التهمة البشعة ؟ فأجاب بانه قال لهم أن لا علم له فيما وجه إليه من تهمة . قلت : « ان السكوت عن هذا الحادث جريمة ، وأنا على استعداد لسحب اوراق من ادارة المدرسة الحربية ، والعودة الى مدرسة التجهيز ، فهل يوافقني على العودة

معي؟» قال : «نعم !» ولكنه لم يجرؤ على أن يرافقني الى ادارة المدرسة ليطلب اوراقه مع اوراقى ، لذلك توجهت لوحدي ، وطلبت مقابلة الضابط المناوب ، واحتججت على ما وجه الى رفيقي من تهمة ، وطلبت ارجاع اوراقى المدرسية الي ، وشطب اسمي من المدرسة الحربية ، فسألني الضابط : « وما شأنك انت بالتحقيق الذي جرى مع الطالب القطمة ؟ » ، قلت : « انه زميلي في التجهيز ، وابن بلدي ، ودخلنا الحربية معاً في يوم واحد ! » ، فدخل غرفة المدير العميد شريف رمو ، وكان برتبة « ميرالاي » في الجيش العثماني ، وحدثه حديثي فخرج من غرفته مهتاجاً ، وصفعني على وجهي عدة صفعات ، وأمر بسجني ثلاثة ايام بدون طعام ، فاقتادني الجنود الى غرفة السجن حيث قضيت فيها النهار والليل وانا أفكر بطريقة للهرب من هذه المدرسة التي ليس للطالب كرامة فيها . وقبل موعد النوم سجلت اسمي في عداد الطلاب الذين هم بحاجة للاستحمام في الصباح ، وكان طالبو الاستحمام يرسلون مع جندي خفي في الصباح الباكر الى حمام في حي القنوات القريب من المدرسة .

دعيت في صباح اليوم الثاني من السجن لمرافقة زملائي زبائن الحمام ، فذهبت الى غرفة النوم ، وحملت أكثر ملابسني في صرة كبيرة ، وتوجهت بها الى الحمام ، يرافقنا جندي غفير غير مسلح من ملاك المدرسة . وكانت الاوامر صدرت اليه بان ينتبه ، باعتباري سجيناً ، وان يفوت علي كل محاولة للهرب . لذلك لم تسنح لي فرصة الهرب في الذهاب ، فقد كان يلزماني كظلي ، دون سائر الزملاء ، وكان الطريق خالياً من المارة ، قبيل الفجر أو مع تنفسه ، فعزمت أن أترك محاولة الهرب للعودة ، والطرق آهلة بالناس . وفعلاً لما عدنا من الحمام كان شارع النصر فيه حركة ، فلما دنونا من شارع رامي ، أطلقت ساقى للريح في اتجاه هذا الشارع ، وانطلق الجندي ورائي بقوة ، يصيح ويطلب من المارة ان يقبضوا علي . . وثقلت علي الصرة ، وكادت تفشل خطتي ، ويقبض الجندي علي ، فطرحتها من بين يدي ، واندفعت بالركض نحو ساحة الشهداء (المرجة) ، واجتزتها نحو البحصنة ، والازقة الضيقة ، فأضاع أثري الجندي ، وعاد بصرة

ثياني الى المدرسة التي اعتبرتني فاراً ، ومطالباً بتسديد ما انفقت علي المدرسة خلال الاسابيع القليلة التي قضيتها فيها ، وطلبت من قيادة الموقع القبض علي . وكنت أعرف انني سألاحق ، لذلك بادرت في اليوم نفسه الى السفر من دمشق الى دوما حيث كان عمي مديراً للمالية في هذا القضاء ، ولبثت في منزله بضعة ايام ، ثم غادرت دوما الى دمشق ، ومنها الى حماة بركبة تجرها الخيل ، لان القطر كانت لا تسافر اليها بسبب الجسور التي هدمها ونسفها الجيش التركي أثناء انسحابه من الشام . وفي حماة انتسبت الى مدرستها التي غدت في العهد العربي مدرسة تجهيز ذات تسعة صفوف ، أي ما يعادل المدارس المتوسطة اليوم . وكنا في الصف التاسع النهائي ستة طلاب منهم القاضيان عبد الكريم البرازي ، وفريد قنوت ، والمحامي ابراهيم الشيشكلي . وفي الفحص النهائي حصلت على شهادة المدرسة التجهيزية للدورة الاولى ، وهي شهادة كانت تخول صاحبها دخول الجامعة السورية . ولكن الجامعة السورية كانت غير موجودة ، فصممت في صيف عام ١٩١٩ أن أدخل مسابقة لتسع وظائف شاغرة ، كانت اعلنت عنها مديرية الديون العمومية أو العامة ، وفزت بالمسابقة على اكثر من مئة تقدموا اليها ، وعينت كاتباً وأمين صندوق ، أي خازناً لإدارة الديون في قضاء سلمية شرقي حماة ، والتابع لمتصرفية حماة ، براتب أصبح بعد بضعة شهور من تسلمي الوظيفة بضع عشرة ليرة ذهبية ، بما ضم اليه باسم غلاء المعيشة .

لم أعدم التدريب على السلاح !

أفدت في الاسابيع القليلة التي قضيتها في المدرسة الحربية من التدريب العسكري الذي يعتبر كافياً للقتال فيما اذا أضيف اليه تدريب عسكري آخر ، كنت مارسه في سنوات الحرب في المدرسة السلطانية الاولى ، فقد كانت الحرب فرضت على مدرستنا التدريب العسكري لتكون مؤهلين لخدمة الاحتياط عند دعوتنا الى خدمة العلم . وقد قام بتدريبنا أكثر من ضابط تركي . ولي

ذكريات في هذا التدريب ، خاصة يوم تولاه ضابط تركي شاب أحرق كان عضواً في ديوان الحرب العرفي ، أي في المحكمة العسكرية في دمشق . وكانت أقل شتيمة يوجهها الى الطالب المقصر : « أبو جهل قاربوزي ! » ، اي : « يا بطيخة ابي جهل الحمراء ! » . أما الضرب ، والصفع ، والتمرغ بملابسنا المدرسية بالتراب فكانت اموراً عادية تقع كل يوم تدريب . وكان التدريب يجري في ميدان خارج المدرسة ، بعد الظهر ، في يومين من كل اسبوع .

الاحتلال الافرنسي

١٢

كانت ظروف ما بعد الحرب قضت علي ان اصبح موظفاً ، وانا في الثامنة عشر من عمري ، لأن والدي طلب احواله الى المعاش ، فكان اول موظف سوري يحال الى التقاعد ، قبل ان يوضع قانون جديد للتقاعد ، فغدا راتبه ضئيلاً ، على الرغم من خدمته المديدة التي بلغت بضعا واربعين سنة قضاها في وظائف المالية . وكان لابد من مساعدته في اعالة الأسرة الكبيرة ، وتعليم خمسة من اخوتي واخواتي كانوا اصغر مني سناً .

اعلن المؤتمر السوري في الثامن من شهر آذار عام ١٩٢٠ استقلال سورية بحدودها الطبيعية من طوروس الى رفح ، تحت تاج الملك فيصل بن الحسين ، حسماً للاتفاقات السرية ، والتآمر بين الحلفاء على تجزئة سورية ، واقتسامها بين فرنسا وبريطانية ، وجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود . وابلغ المؤتمر قراره لجميع دول العالم ، فلم تعترف بهذا الاستقلال غير دول قليلة ، وفرض المنتصرون في الحرب على سورية والعراق انتداباً جاءت به المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم ، اذ وضع مؤتمر الصلح في شهر نيسان من عام ١٩١٩ في باريس ميثاقاً لعصبة الأمم نصت المادة الثانية والعشرون منه على ان بعض البلاد

المنسلخة عن تركيا يقطنها جماعات من الناس بلغوا من التقدم مبلغاً يحيز الاعتراف مؤقتاً بأنهم امم مستقلة، على ان يقود خطاهم منتدب ينصحهم ويعينهم في الادارة الى ان يصبحوا قادرين على السير وحدهم . ويجب ان يعتد برغبة هذه الجماعات في انتخاب الدولة المنتدبة . وكانت هذه المادة والميثاق وسيلة لتنفيذ احكام معاهدة « سايكس بيكو » السرية ، ووعدهم بلفور ، وخداع



يوسف العظمة شهيد ميسلون

الشعوب المستضعفة باسم جديد للاستعمار ، هو الانتداب . ولم تنقض ستة شهور على انسحاب الجيش البريطاني من مدن سورية الداخلية - عدا ما اسموها فلسطين - وقيام حكومة عربية فيها تحت تاج الملك فيصل ، حتى اصدر الجنرال غورو الفرنسي في بيروت انذاره الى الحكومة العربية في دمشق ، وتبع الانذار عدوان قوض استقلال سورية ، وفرض عليها الاحتلال الفرنسي .

وشهدت ، وانا في سلمية ، انهيار الآمال التي علقت على وعود الحلفاء وعهودهم للعرب ، واجتياح الجيوش الفرنسية في الاسبوع الاخير من شهر تموز عام ١٩٢٠ بلادي ، واحتلالها ، وفرض الانتداب الفرنسي والبريطاني عليها ، وتجزئتها الى دويلات اسمها فلسطين وشرقي الاردن تحت الانتداب البريطاني ، ودولة لبنان الكبير ، ودولة دمشق ، ودولة حلب ، ودولة العلويين ، ودولة جبل الدروز ، وحكومة لواء الاسكندرونة المستقل تحت الانتداب الفرنسي . وكنت اسمع بمقاومة الشعب العربي في سورية المحاولات الاستعمارية ، وبالثورات التي قامت في أجزاء من بلاده ، منذ بدء تقسيم سورية الى ثلاث مناطق للاحتلال ، اسميت بلاد العدو المحتلة . فقد نشبت ثورة في شمال سورية ، يوم كانت فرنسا تحتل منطقة الساحل وحدها ، شملت مناطق انطاكية والاقضية التي تحاذي المنطقة المحتلة في الشمال كجبال الزاوية والجبل الوسطاني في قضاءي حارم وادلب ، وبعض الاقضية التي احتلتها فرنسا وألحقها بمنطقة الساحل كقضاء الحفة وجسر الشغور ، تحاذيها ثورة أخرى نشبت بزعامة الشيخ صالح العلي عمت قرى العلويين (النصيرية) في جبال اللاذقية ، تحاذيها ثورة صغيرة ثالثة في جبال بعلبك التي ألحقت بعدئذ بلبنان ، تليها ثورة رابعة في جنوب لبنان مسرحها وادي التيم وتمتد حتى حدود فلسطين بزعامة الامير محمود الفاعور شيخ عشيرة الفضل في الجولان جنوب غربي دمشق . وكانت الحكومة العربية في سورية الداخلية تغذي هذه الثورات المسلحة ، وتمدها بالاسلحة والعتاد والمال ، واحياناً بضباط يعملون فيها بأسماء مستعارة ، هدفها إظهار مقاومة الشعب العربي في سورية لمحاولة استعمار بلاده وتقسيمها غنائم حرب ، وإرهاب المستعمرين انفسهم بتكبيدهم الخسائر . يضاف إلى هذه الثورات ثورة نشبت في الفرات الاعلى على حدود سورية ، إذ أن الانكليز ضموا ، في بادئ الامر ، لواء دير الزور المستقل في العهد العثماني إلى العراق ، ولم يحلوا عنه إبان جلائهم عن مدن سورية الداخلية قبيل إعلان المؤتمر السوري استقلال سورية ، فاندلعت فيه هذه الثورة التي لعب فيها رمضان شلاش من شيوخ عشائر الفرات ، دوراً ، وارغمت الانكليز على

الجلء عن لواء دير الزور وضمه إلى سورية . ثم كان هذا اللواء منطلقاً لثورة العراق عام ١٩٢٠ على الاحتلال البريطاني ، عمت وادي الفرات كله ، حتى أقصى جنوب العراق ، واستمرت أكثر من ستة أشهر كبدت الانكليز خسائر فادحة في النفوس والاموال ، وأرغمتهم على أن يدعوا الملك فيصل الذي طرد من سورية للجلوس على عرش العراق ، وانهاء عهد الاحتلال البريطاني الذي كان يرتبط بالادارة البريطانية في الهند مباشرة . وليست هذه الثورة بعيدة عن تخطيط الحكومة العربية في سورية الداخلية ومساعداتها في الأشهر الخمسة التي تخلصت فيه من الاحتلال البريطاني ، يضاف اليها الدعم الذي لقيته من مجتهدى الشيعة لعوامل سياسية كانت وراءها ايران التي كانت تحاول التخلص أيضاً من الاحتلال البريطاني .

سياسة فرنسا في العلويين

١٣

انتدبت في ربيع عام ١٩٢١ الى رئاسة ادارة السديون العمومية وكالة في قضاء مصياف غربي حماة . ومصياف قضاء في جبال اللاذقية كان تابعاً لمصرفية حماة ، ولكن فرنسا ، يوم أقامت دولة العلويين ، فصلته عن حماة ، بعد أن ضمت اليه قرى أخرى أكثرية سكانها من العلويين ، والحقته باللاذقية مركز حكومة العلويين التي كان يرأسها فرنسي ، ويحكمها مباشرة .

وصلت إلى بلدة مصياف في شهر آذار عام ١٩٢١ ، والقوات الفرنسية تكاد تكون منتهية من القضاء على ثورة الشيخ صالح العلي ، إلا أن الثورة التي تزعمها ابراهيم هنانو في الشمال ، منذ دخول الجيش الفرنسي مدينة حلب ، كانت تدفع عصابات العلويين المجاورة لمنطقتها إلى المقاومة . وكان بعض العصابات في منطقة انطاكية انضم ، بعد استسلام صبحي بركات للفرنسيين ، الى ثورة الزعيم هنانو ،

وانضم اليها ايضاً ثوار الحفة وغيرهم في الساحل السوري فأصبح مجال ثورة الشمال الجبال في اقصية ادلب وحارم وجسر الشغور ومعرة النعمان ، والريحانية وقرق خان الى شمال قضاء مصياف الذي كانت عصاباتة لم تستسلم كلها باستسلام الشيخ صالح العلي . ولذلك عين الفرنسيون « ليوتنان كوله » مستشاراً ، أي ضابطاً للمصالح الخاصة في هذا القضاء حيث جند كوكبة خيالة من المتطوعة أكثرها من عشيرة المتاورة ومنطقة وادي العيون برواتب مغرية ، كان همه بهذه القوة أن يقضي على آخر مقاومة للعصابات ، ويحول دون تسلل العصابات من المنطقة الشمالية التي ما تزال تشتعل فيها الثورة . وقد قام كل ضباط المصالح الخاصة الذين كانوا يسمونهم مستشارين في المناطق الثائرة بتأليف مثل هذه السرايا من المتطوعة الفرسان اسموها كتائب الحرس السيار ، دأبها مطاردة العصابات في القرى والجبال ، فضلاً عن الاستعانة بتسليح العملاء من أنصار فرنسة في المدن الصغيرة والقرى ، لحماية مناطقهم من الثوار ، ومساعدة فرق المتطوعة في مطاردتهم ، أمثال شعبان آغا في قرية « حلس » من قضاء حارم ، وصادق الحاج عيسى في منطقة القصير من لواء الاسكندرونة ، ومتطوعة قريتي القنية واليعقوبية في قضاء جسر الشغور وغيرهم .

ولقد شهدت بنفسي خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها في مصياف كيف كان ضابط الاستخبارات ، أو المصالح الخاصة الفرنسي يتحكم بمصائر المنطقة وسكانها كلهم ، ويسيطر على الموظفين ، ويقبض بواسطة جواسيسه وعملائه وجنوده على المتهمين من الفلاحين بمساعدة الثوار ، أو الاتصال بهم ، أو اطعامهم ، أو السماح لهم بالمرور من القرى ، أو الإقامة فيها ، ويلقي بهم في غياهب السجون ، أو يرسلهم الى أماكن التعذيب في القلعة والثكنات ، بل كان يجلب بعضهم الى مكتبه في دار الحكومة ، ويعذبه على مسمع من الموظفين واصحاب المصالح ، ويضعهم عزاة على لُهب البارود يشوي اجسادهم ، فيشتم الناس رائحة اللحم المشوي على نار المستشار الفرنسي ، أثناء تعذيب الأحرار من أبناء قرى الجبال التي يرتادها المجاهدون .

ومن القصص الطريفة ان سكان قرية « البيضا » التي تقع على بعد بضعة كيلو
مترات جنوبي بلدة مصياف ، ارادوا ان يوثقوا صلتهم كمسيحيين بالمستشار
الفرنسي في مصياف . وكان يقوم يومئذ بقيادة الموقع ووظيفة ضابط الاستخبارات
ضابط برتبة مقدم (قومندان) اسمه لاروش ، فتردد وجهأؤهم عليه ، واكثروا من
زيارته ، وأبدوا تعلقهم بفرنسة مرات في حضوره ، ثم دعوه مرة الى زيارة
القرية ، وتناول الغداء في قريتهم ذات المياه العذبة والاشجار والظلال ، فلبى
الدعوة ، وحدد لها يوم الاحد ، يوم عطلة الاسبوعية ، وامتطى ضحى ذلك
اليوم جواداً ، وسلك طريق القرية غير المعبد ، يرافقه جندي حارس من جنود
الخيالة . ولما خرج من الباب القبلي لسور مصياف على مشهد من الناس ، رآه على
ما يظهر بعضهم ، وعرف هدفه ، وابلغ عزيز هواش قائد ثورة المتاوراة إبان
ثورة الشيخ صالح العلي - ابلغه بالنبا ، وان القومندان لاروش في قرية البيضا
دون حراسة تذكر ، فهب عزيز هواش مع عدد من أفراد عصابته . وانطلقوا
باتجاه « البيضا » ، ينحدرون من الجبال ، ويطوون المسافة البعيدة . ولما
أصبحوا في جوار القرية ، رتب عزيز هواش تطويق القرية ، حتى لا يفلت منه
الصيد الثمين ، ويأخذه ، وهو في أوج لهوه وصفوه ، يشرب الخمر بجوار الينابيع
ويطرب لغناء شباب القرية وبناتها على أنغام المزمارة ، ورقصة الدبكة ،
والطبل يقرع دون هواده ، والهتاف بحياة لاروش وحياة فرنسة يشق عنان
السما . ومن سوء الحظ أن أحد الفلاحين تنبه لتسلل العصابة ومحاولتها
تطويق القرية ، فأسرع يبلغ القومندان لاروش ، وهذا بدورهِ ، قفز الى صهوة
جواده يعتليها ، وأطلق له العنان فأفلت من الطوق ، ونجا بأعجوبة من
الموت ، ولم يتمهل حتى أصبح وراء سور مصياف وعاد عزيز هواش بخفي حنين .
وفرض لاروش على اهل القرية غرامة بمئات الليرات الذهبية قبضها منهم
ثمناً لرأسه ، لم تجدهم بعد نقله من مصياف الشكاوى لرؤسائه بأن لا ذنب لهم في
حادث هجوم العصابة عليه . ولما عين الليوتنان كوله مستشاراً في مصياف ،
ومن مهباته مطاردة فلول العصابات ، صادق مرة بقواته مهربين صادر منهم ثلاثين
حملاً من التبغ المهرب ، جاء بها الى مصياف ، القضاء الذي ليس فيه ادارة

لحصر التبغ « ريجي » ، فاستشارني كرئيس للديون العامة ، ونصحتته بان يبعث بها ، ويسلمها الى مديرية حصر التبغ في مدينة حماه ، ففعل وسلمها بواسطة القوماندا « ميك » مستشار حماة الذي قبض المكافأة التي هي من حق مستشار مصياف وجنوده الذين صادروا التبغ ووضعها في جيبه ، ولما طالبه بها كوله انكر قبضها ، ثم رفض اعادتها وزعم انها من حقه . وبعد بضعة اسابيع صادف ليوتنان كوله تبغاً مهرباً في قرية « تل سلحب » في شمال القضاء ، صادره كله من المنازل وصادر معه دواب القرية لملئه الى مصياف . ولما بلغ البلدة استدعى الدالين ، وطرح التبغ للبيع في سوق البلدة بالجملة وبالمفرق ، وباعه كله ، وباع الدواب ايضاً ، ووضع الثمن في جيبه ، وصرح بأن غباوة تسليم التبغ لدائرة الحصر لن تتكرر في عهده ! .. وأذكر انني اشتريت بضعة كيلوات من هذا التبغ المباع في سوق البلدة بالمزاد أهديتها لوالدي ، ولم ألتفت إلى أحكام القانون التي داسها ضابط الاستخبارات صاحب السلطة العليا في مصياف ، ولم يسأل عن خسارة الخزينة ، ولا خسارة إدارة حصر التبغ التي هي في الاساس شركة فرنسية ذات امتياز في حصر التبغ في الدولة العثمانية كلها .

وحدث مرة أن إدارة الديون العمومية التي كنت ارأسها في مصياف صادرت مشروبات روحية ، أي خموراً تباع وتشرب علناً في مقهى البلدة ، دون ترخيص منها ، حيث كانت جوقة للرقص تقيم حفلاتها في ذلك المقهى ، وأغلق المقهى في اليوم الثاني ، وختم بالشمع الاحمر من قبل سلطات الامن ، حسب احكام القانون ، وبطلب مني ، حتى يؤدي صاحب المقهى الغرامة القانونية . ولكنني علمت في المساء أن الراقصات ذهبن إلى منزل « ليوتنان كوله » ضابط الاستخبارات ، وقابلن صديقة أو قعيدة له لبنانية ، يعاشرها كزوجة ، وشكون اليها إغلاق المقهى ، وتعطل اعمال الجوقة ، فنقلت شكواهن لرجلها ، وهذا استدعى الملازم قائد الدرك ، وهو لبناني الأصل ، وأمره بفتح المقهى ، وفك الاختام عنه ، ففعل ، وثابتت الجوقة على إحياء لياليها ، دون أن يؤدي صاحب المقهى الغرامة المفروضة عليه بحكم القانون ، لذلك قمت بمراجعات

خطية رسمية إلى قائم مقام مصياف ، ومديرية الديون العمومية في اللاذقية باعتبارها مرجعي ، وبعد بضعة أسابيع استدعاني الملازم كوله إلى مكتبه ، وأمامه كتاب من حاكم اللاذقية الفرنسي ، أو من رئيس دوائر الاستخبارات في حكومة العلويين ، يسأل عن أسباب فك الاختام عن المقهى دون استيفاء الغرامة من صاحبه ، وسألني عن قصة المقهى والغرامة ، فحدثته حديثها ، وأن المقهى بعد أن أغلق وختم بالشمع الأحمر من قبل قيادة الدرك ، صدر أمر شفوي منه لقائد الدرك ، وفتح المقهى دون استيفاء الغرامة ، فأرسل المستشار الفرنسي في طلب قائد الدرك ، وسأله : « بأمر من فتحت المقهى المغلق بالشمع ؟ » ، فأجابه : « بأمرك الشفوي يا مولاي ! » ، فرمقه شذراً كأن الأمر لم يصدر عنه ، ثم قال له : « قل لصاحب المقهى أن يدفع الغرامة لصندوق الديون العمومية ، والا تغلق مقهاه ويختم بالشمع ! » ، وفعلاً لم تنقض ساعات على هذا الأمر ، حتى أقبل صاحب المقهى إلى مكتبي ، ودفع لقاء إيصال ما فرضه القانون عليه من غرامة .

يتبين من هذا أن ضابط المصالح الخاصة هو صاحب الكلمة العليا في منطقته من دولة العلويين ، وأن القائم مقام الذي جعله منصبه المسؤول الأول عن إداره القضاء في سورية الداخلية ليس هو في منطقة العلويين سوى موظف تابع للمستشار الفرنسي ، حتى أنه لا يستطيع أن يقبل عريضة شكوى من الأهليين ما لم تقدم أولاً إلى مكتب المستشار الفرنسي ، ويوافق عليها ، ويحيلها مشفوعة برأيه ، أو يبقها عنده ، ويهملها ، أو يتدخل شخصياً في حلها مباشرة . كذلك رئيس المحكمة ، يعرض كل يوم ، قبل أن يجلس على قوس القضاء ، ما لديه من دعاوي الناس ، على ضابط الاستخبارات ، ويسأله أن كان له رأي خاص بالنسبة لبعض الأطراف فيها ، ويتلقى منه التوجيه ، فتكون كلمة المستشار أحياناً فوق الحق ، ويأويل من كان خصمه المستشار ! أما تراجع الملازم كوله في قضية

صاحب المقهى ، فلأن للديون العمومية مديرية عامة ومجلس ادارة في استانبول
اعضاؤه من انكليز وفرنسيين يمثلون دولهم الدائنة لدى الدولة العثمانية ، فكانت
المفوضية الفرنسية في سورية تسهر على مصالح الديوين العمومية باعتبار ان لفرنسة
دينياً على الدولة العثمانية والبلاد المنسلخة عنها ، ولولا ذلك لما تراجع المستشار عن
امر أصدره ، ولو كان مخالفاً للقانون . واستدعاني الملازم كوله مرة إلى مكتبه ،
ودون ان يشير الى بالجلوس ، كعادته ، ابلغني أن لديه امراً من مرجعه الاعلى
يمنع بيع الطوابع بانواعها باكثر من الثمن المرقم عليها بالعملة السورية . ولما كانت
دوائر الديون العمومية في سورية الداخلية ما زالت تعتبر الدينار الذهب اساساً
في معاملاتها ، انسياقاً مع العملة المتداولة قبل الاحتلال الفرنسي ، وكان الجنيه
المصري أو الاسترليني يساوي ٨٧ قرشاً ونصف القرش من الدينار الذي يساوي
مئة قرش ، وكان قضاء مصياف تابعاً إلى حماة ، أي لسورية الداخلية ، ثم بعد
الاحتلال ألحق فوراً باللاذقية ، وظلت ادارة الديون العمومية فيه مرتبطة
بحماة ، تحول أثمان الطوابع بالدينار إلى العملة السورية التي فرضتها فرنسة ،
حسب اسعار سوق النقد (البورص) تعدلها في رأس كل شهر ، وبيع الطوابع
حسب سعرها الشهري . ولما شرحت الأمر للمستشار ، واخبرته أن الأمر الذي
لديه يشمل الطوابع المالية في حكومة العلويين عدا قضاء مصياف ، لارتباط
ادارة الديون العمومية فيه بمديرية حماة ، قال : « انني ابلغك امراً ، واطلب منك
تنفيذه ، والا اعتبرتك متمرداً عليه ، واتخذت بحقك التدابير القانونية ! . . » ،
قلت : « انني اتلقى اوامري من مرجعي مديرية الديون العمومية ، وسأعود إلى
مكتبي الآن لانقل ما ابلغتني اياه برقياً إلى هذا المرجع ، وانتظر أوامره في هذا
الصدد . والمال للدولة وليس مالي حتى أفرط فيه دون أن اسأل ! » ، قال :
« أنا انذرتك ، وسانذر الآن باعة الطوابع في السوق بما انذرتك به ، وبهذا
كفاية ! » .

عدت الى مكتبي ، وأبلغت الامر برقياً الى مرجعي ، واذا بباعة الطوابع

يتراكضون يسألونني عن الخسارة التي ستلحق بهم ، فيما اذا نفذوا أمر المستشار ، فقلت لهم : « اذهبوا الى حوانيتكم ، واتوني بكلى ما تبقى لديكم من طوابع مالية ، حتى ارد اثانها اليكم بسعرها الذي اشترىتم به ، واذا جاءكم احد من اصحاب المصالح يطلب شراء طوابع منكم ، فدلوه على ادارة الديون العمومية ، حيث سأصرف في بيع الطوابع حسب الاوامر التي لدي من مرجعي ، وليفعل بي المستشار ما يشاء ! » ، وفعلاً توليت بنفسى بيع الطوابع بالمفرق للناس ، حتى جاءتنى برقية من مديرية الديون العمومية تعلمنى ، ان المديرية العامة وضعت في التداول طوابع جديدة تباع بالاسعار المكتوبة عليها بالعملة السورية ، وعلى ان اترقب وصولها ، وابيعها ، واسحب من التداول الطوابع القديمة ، ففعلت ، وتحديث كررة أخرى امر المستشار .

وحدث مرة اننى كنت في طريقي الى مكتب القائم مقام في دار الحكومة ، واذا بفلاح يافع يحمل عدداً من جلود الثعالب ، يفادر مكتب الملازم كوله المستشار . ولما كانت امثال هذه الجلود تابعة لاداء الرسم عنها كضريبة ، ويضاعف الرسم غرامة اذا بيعت مهربة ، سألت الفلاح الى أين ذاهب بهذه الجلود ، فقال : « ان المستشار اشتراها ، وكلفنى بأيصالها الى بيته ! . قلت : تعال الى مكنتى بجوار دار الحكومة لأكلفك شراء مثلها ، ولما بلغت به المكتب أمرت الموظف المسؤول بمصادرتها ، حتى يدفع صاحبها الغرامة والرسم عنها . وانطلق الفلاح راكضاً الى مكتب المستشار يشكونى ، فبعث يستدعيني ، وسألنى : « لماذا صادرت الجلود التي اشتريتها ؟ » . قلت : « ان هذه الجلود تابعة لضريبة تجبيها ادارتنا ، وتدمغ الجلود بخاتم كعلامة على أدائها ، وعندئذ يباح لصاحبها بيعها في السوق ، وعند المخالفة تصادر الجلود ، ويضاعف الرسم غرامة » . وانت اشتريت جلوداً خالف صاحبها القانون ، فحق عليه الرسم والغرامة ! » ، قال : « اهكذا يقول القانون عندكم ؟ » ، قلت : بلى ! » ، عندئذ اعطى الفلاح مبلغاً من جيبه ليسدده رسماً وغرامة ، ويسترد الجلود .

سياسة الفرنسيين في سوريا الداخلية

- ١٤ -

لم تطل اقامتي في مصياف ، لانني كنت منتدباً بالوكالة ريثما يعين رئيس للدائرة فيها ، فلما عين ، نقلت في صيف عام ١٩٢١ رئيساً لكتاب الديون العمومية في قضاء جسر الشغور من اعمال ولاية حلب . ولهذا القضاء قصة في ثورة الشمال ، فقد احتل الفرنسيون بلدة جسر الشغور مركزه سبع عشرة مرة ، وفي كل مرة كانت العصابات الثائرة تجليهم عنها . وموقع البلدة استراتيجي على نهر العاصي ، ولها جسر قديم ليس هناك ممر غيره للسيارات بين حلب واللاذقية ، وكذلك للقوافل والناس .

ولما وصلت الى البلدة كانت انباء انسحاب الزعيم ابراهيم هنانو بمن تبقى من رجال ثورته ، ضارباً عرض البادية لبلاوغ شرقي الاردن ، ثم القبض على عصابته في بادية الشام ، شرقي سامية ، حديث الناس . وكان لا يخفف أثر هذا الحادث على الناس الا نجاة الزعيم هنانو وعدم وقوعه بيد الفرنسيين . وكان حبل الامن ما يزال مضطرباً في المناطق الشمالية التي كانت مسرحاً لمعارك ثورة الشمال . ففي بلدة جسر الشغور نفسها كنا نباغت في بعض الليالي برشاشات الفرنسيين تطلق نيرانها من المرتفع الذي اقاموا عليه ثكناتهم شمالي البلدة . وقيل لنا مرة ان صبحي اللاذقاني المعروف في اللاذقية بصبحي حليلة ، ورفيقه خير والقصاب ، او خير الله القصاب من اللاذقية ايضاً ، ومن فلول ثورة الشمال ، دخلا مع عصابتهما ، عند صلاة العشاء البلدة ، وباغتوا وجيهاً من وجهاء البلدة في منزله ، واستاقوه معهم الى الجبال . وكنا نسمع ايضاً الكثير عن غزوات عقيل السقاطي ومغامراته ، وهو نائر من قرية « سقاط

التابعة الى قضاء حارم ، لجأ بعد انتهاء ثورة الزعيم هنانو الى تركيا ، اسوة بعدد من الثائرين في الشمال . وكانت تركيا تفيد من وجود هؤلاء اللاجئين اليها ، تستخدمهم كلما تعكر صفو الصلات بينها وبين فرنسا ، أو نشب خلاف بينهما على الحدود في سورية ، فينبثق عقيل السقاطي ، ومصطفى الحاج حسين ، وصبيحي وخيرو اللاذقيان ، كل منهم بعصابة صغيرة تجتاز الحدود الى سورية ، وتتسلل عبر الجبال الى أقضية ادلب وحارم وجسر الشغور ومعرة النعمان وما جاورها ، تخل بالامن ، فتقوم فرق المتطوعة بقيادة ضباط الاستخبارات في هذه الاقضية ، تؤازرها قوات أهلية من قرى ملس والقصير والقنية وغيرها بقيادة المتزعمين ، تقوم بمطاردة العصابة ، ويتناقل الاهلون احاديث المعارك والمفاجآت التي تقع في أثناء تلك المطاردات ، وخلال غارات تلك العصابات على بعض البلدان والقرى لخطف الاغنياء ، وارغامهم على دفع فدية لفك أسرهم ، والا كان مصيرهم القتل . وكنا نسمع من الاهلين الثناء على المجاهدين نجيب عويد ، والشيخ يوسف السعدون من زعماء ثورة الشمال اللاجئين الى تركيا ، لانها بعد لجوءها لم يقوموا بأي عمل من اعمال اخلال الأمن في سورية تستغلها تركيا لمصالحاتها ، أو يفسره الاهلون بأنه من اعمال الشقاوة والسطو وابتزاز المال من الاثرياء .

كان ضابط المصالح الخاصة في جسر الشغور ، كغيره في مناطق سورية الداخلية ، لا يتظاهر كثيراً بالتدخل في شؤون الحكومة والموظفين والاهلين ، إلا أن الواقع يشعرنا بأنه يتدخل بالصغيرة والكبيرة من وراء ستار ، حتى ان لترجمانه السوري من النفوذ في القضاء ما لا يضارعه نفوذ القائم مقام الذي هو اكبر موظف مسؤول عن ادارة القضاء . ويظهر ان الفرنسيين ، خلال المعارك التي جرت في هذا القضاء ، والمظالم التي ارتكبوها لاختفاء الثورة ، القوا الرعب في قلوب الناس ، حتى اذا مر ضابط المصالح الخاصة عرضاً بمقهى البلدة ، وقف الجالسون في الشارع على كراسي المقهى احتراماً له ، بما فيهم الموظفون . وقد

خالفت منذ البداية هذه العادة الذليلة ، وابتدت ان أقف ، وانا في المقهى لمثل الاستعمار في بلدي . مما لفت انتباه الضابط الفرنسي إلى استهتاري به ، ففوجئت مرة في الصباح ، وأنا على رأس عملي في الوظيفة ، بضابط صف في الدرك يدعوني إلى قيادة الدرك للتحقيق معي في حادث وقع في الليل ، كنت فيه عرضاً ، ومن باب المصادفة ، لم ارتكب فيه ما يستوجب المسؤولية . وبعد وصولي إلى قيادة الدرك ، وصل عريف من المتطوعة الذين يقودهم عادة ضابط الاستخبارات أو المصالح الخاصة ، وقال لقائد الدرك ان المستشار يريد ان ترسلوا اليه رئيس كتاب الديون العمومية ، فلبى القائد الطلب ، ورافقني إلى مكتب المستشار الذي استقبلني بتهكم قائلاً : « لقد بلغني ان لديك مسدساً جميلاً .. فهلا اريتني هذا المسدس ! » ، قلت : « ليس لدي مسدس ، ولم اك احمل مسدساً كما زعموا لك ، فالتهمة باطلة من اساسها ، سببها ان رجال الدرك يريدون ستر مخالفتهم لواجبهم في الحادث الذي وجدت فيه عرضاً ! » قال « انني اريد المسدس ! » ، قلت : « ليس لدي مسدس ! » . وتكرر الطلب من الضابط الفرنسي الذي كان برتبة ملازم أول ، وتكرر الاصرار مني بجرأة ، وبدون وجل ، فألتفت المستشار إلى ضابط الدرك ، وقال له : « اذهب إلى القائم مقام ، وابلغه انني قررت اعتقال رئيس كتاب الديون العمومية ، فهل هو موافق ؟ » ، وصدع الضابط العربي بالامر ، وعاد بعد هنيهة يعلن لضابط الاستخبارات موافقة القائم مقام على اعتقالي ، فامر ضابط الدرك بان يعتقلني في السجن المدني ، وخرجت مع هذا إلى دار الحكومة حيث السجن في جانب من باحتها ، ولكنني لما وصلت إلى الباحة تسلقت السلم إلى مكتب القائم مقام ، وقائد الدرك يركض ورائي ، ودخلت على جميل السلحدار دون استئذان ، وقلت للقائم مقام : « يجب ان تعلم انني اسجن ، خلافاً للقانون ، بموافقتك انت كقائم مقام مسؤول عن الموظفين ، فلا تتهرب غداً من المسؤولية ، عندما تسأل عن اعتقالي ! ولا تزعم ان ليس لك يد فيه ، وان المسؤول عنه ضابط الاستخبارات وحده ! وها أنا الآن ذاهب إلى السجن ! » ، وخرجت بينما كان القائم مقام مرتبكاً ،

يعتذر بكلمات مضطربة ، ولكنني سمعته يأمر ضابط الدرك بان يحتفظ بي في مكتبه ، وألا يدخلني السجن ، ولما وقفت أمام باب السجن ، ابعدني عنه قائد الدرك ، وزعم انه يريد اتمام التحقيق معي في مكتبه ، واحتجزني الى قبيل الغروب في المكتب ، إذ صدر الامر باطلاق سراحي ، وأحيلت اوراق التحقيق إلى محكمة الصلح بتهمة شهر سلاح على رجال الدرك ، واطلاق النار عليهم ، وهي تهمة كاذبة ، كما قلت ، املاها عليهم حقد رئيس الدورية علي ، لأنني كشفت اخلاله بواجبه في الحادث الذي اشرت اليه .

الثورة تعتلج في نفسي

كنت في قرارة نفسي ثائراً على الاوضاع ، يحز الألم في صدري لان بلادي لم تستطع الاستمرار في ثوراتها على الفرنسيين المحتلين ، معجباً ببطولة الأمة التركية في ثورتها بقيادة مصطفى كمال ، واستمرارها في الثورة والنضال حتى حررت بلادها من المحتلين ، واجلت جيوش الحلفاء واساطيلهم عن استانبول ، وعن المضائق التي كانت الدول الكبرى تتسابق الى احتلالها والسيطرة عليها . ولم اكن في سني وتجاربي لأميز الاسباب الكثيرة التي كانت سبب انتصار الترك في ثورتهم ، والتي كانت بلادي محرومة منها . ان تركية دولة ، لها كيان منذ اكثر من خمسمئة سنة ، ولها جيش مسلح ، ولديها اسلحة حديثة توفرت لهذا الجيش في الحرب الكونية التي خاضتها مع الالمان ، استعانت بها في ثورتها . ثم ان تركية بموقعها من العالم ، وبوجود المضائق في بلادها ، موضع خلاف بين الدول الكبرى ، تسعى كل منها ان تكون هي المسيطرة على تلك المضائق ، لذلك ما كادت تنشب ثورتها في الاناضول ، حتى هب البلاشفة الحاكمون في روسيا لمديد العون اليها ضد الدول الرأسمالية التي كانت وجهت جيشها الابيض للقضاء على الثورة الشيوعية الحمراء في عقر دارها ، وضد الحلفاء الذين يحتلون المضائق ، وهي هدف روسيا منذ ارسى القيصر بطرس الاول قواعد الدولة ، ورسم سياسة توسعها ، وخروجها الى البحار الدافئة . ثم هناك ايطاليا بين دول

الحلفاء ، لم يرضها ما اصابها ، عند تقسيم تركية الرجل المريض ، فانسحبت من مقاطعة أضاليا ، أي ولاية قونية ، ولحقت بها فرنسا ، اذ عقدت مع مصطفى كمال صلحاً في معاهدة انقرة ، تخلت فيها لتركيا عن كيليكية وجزء كبير من شمال سورية لتستطيع سحب قواها من كيليكية الثائرة عليها ، وتحشد معها قواتها في سورية لضرب ثورة الزعيم هنانو في الشمال ، والقضاء على كل مقاومة في سورية ، ولأن نزاع اعتراف تركيا وتنازلها عن سورية باعتبارها كانت جزءاً من بلاد الدولة العثمانية . وفي كل مرة كانت الاسلحة والذخائر تترك من الدولة الاجنبية المنسحبة ، للجيش التركي يستعين بها في حربه ضد اليونان ، الدولة التي تدعمها بريطانيا في توسعها في بر الاناضول ، وليس لاطاليا او فرنسا مصلحة في هذا التوسع . واليونان دولة صغيرة لا تقاس قوتها بقوة فرنسا التي تستعمر سورية ، وتضرب ثوراتها . وهناك ايضاً العالم الاسلامي بأسره كان يعطف على تركيا ، ويعتبرها دولة الخلافة الاسلامية ، ويؤيد ثورتها ، ويجمع لها التبرعات ، حتى ان سورية التي ذاقت من الظلم والاضطهاد التركي ما ذاقت جمعت لثورة مصطفى كمال الاموال تبرعاً ، وقدمتها اليها ، ويوم انتصرت الثورة التركية على اليونان ازدانت المساجد والمآذن بالمصابيح ، واحتفلت مدينة حماه بالنصر ، وتليت سيرة مولد الرسول الاعظم ابتهاجاً به ، واحسب ان المدن السورية لم تكن أقل بهجة من حماة . أما تركية ، فقد تخلت في معاهدة انقرة ، عن سورية للفرنسيين ، واقرت استعمارهم لها ، واقتطعت جزءاً كبيراً من الشمال السوري ، ضمته الى بلادها اغتصاباً ، واصطنعت حدوداً بينها وبين سورية لاغتصاب الخط الحديدي من ميدان اكبس الى نصيبين ، والاراضي التي تقع شمال الخط حتى جبال طوروس الحدود الطبيعية بين سورية وتركية ، ثم انها تخلت عن مساعدة ثورة الزعيم ابراهيم هنانو في الشمال ، بعد ان وعدت بمساعدتها في الكفاح المشترك ضد فرنسا التي كانت تحتل كيليكية وسورية مغاً ، وفرضت شرطاً في معاهدة انقرة يخول الاقلية التركية في لواء الاسكندرونة حقوقاً لا تتمتع بها اقلية في العالم ، مهدت ، بعد بضع عشرة سنة ، لاغتصاب

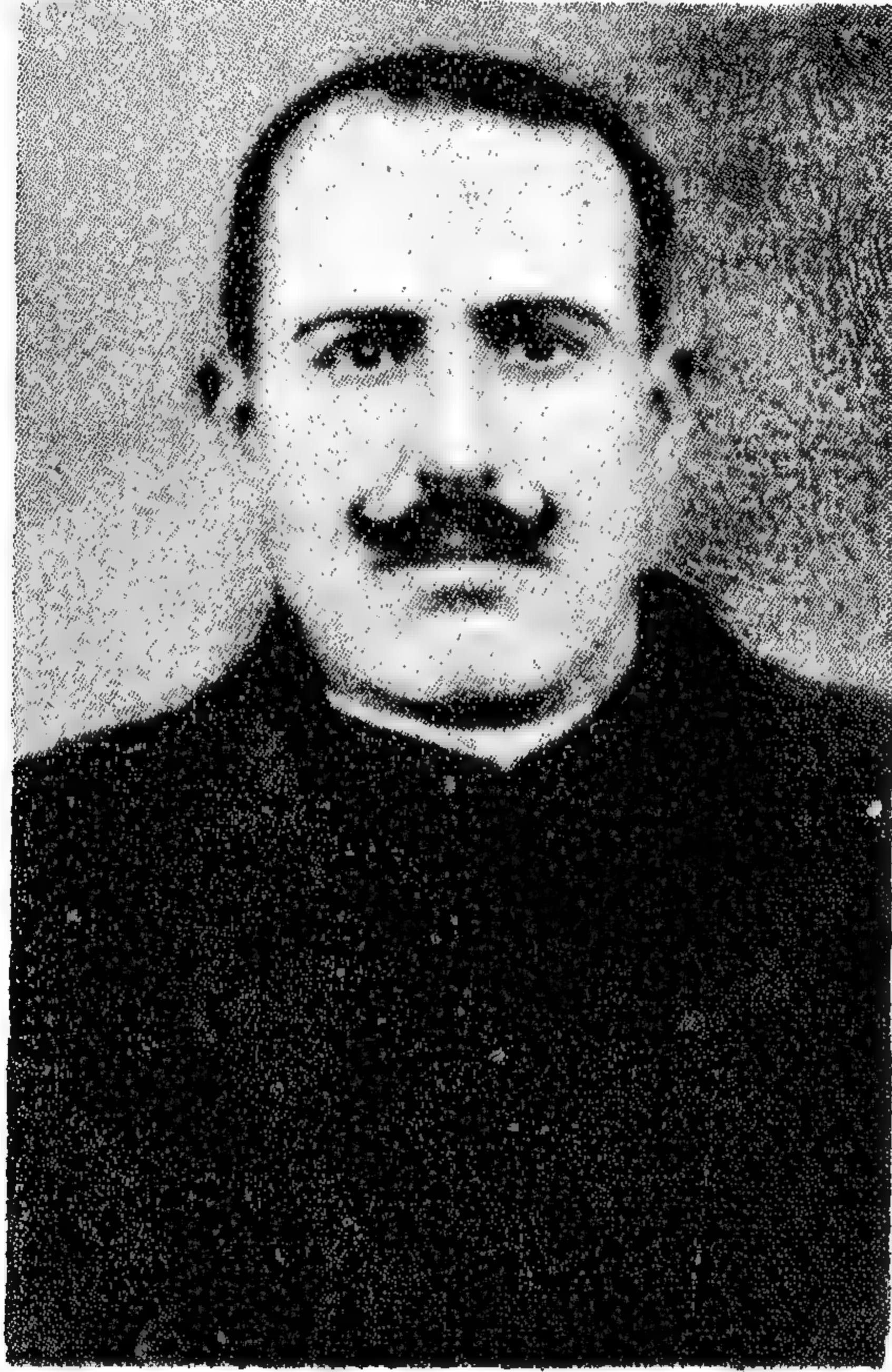
اللواء العربي بكامله ، مع جزء من قضاء جسر الشغور ، هو ناحية « الاردو » ولم تسلم من هذه الناحية إلا قرية كسب الارمنية ، بفضل مساعي زعماء طائفة الأرمن لدى الدول الأجنبية التي تأمرت مع تركية على اغتصاب اللواء .

كيف نجا هنانو من الفرنسيين ؟

- ١٥ -

سمعت ، بعد وصولي إلى بلدة جسر الشغور ، الكثير عن بطولات قومي في ثورة الشمال ، وثورة الشيخ صالح العلي . وأنا لا أريد ان اتعرض لاحداث ثورات لم اشترك فيها ، ولم اخض بنفسي معاركها ، فبقايا السيوف من ثورة الشمال كتبوا صفحات مشرقة عن تلك الثورة . الا انني سمعت مرة في منزل السيد جميل مردم في دمشق ، ومن فم الزعيم ابراهيم هنانو نفسه حديثاً عن انسحابه من الجبال التي كانت مسرحاً لثورته ، وضربه بمن تبقى من رجاله بادية الشام لبلوغ عمان في شرقي الاردن ، ارويهِ هنا تسجيلاً للتاريخ . قال الزعيم هنانو بلل الله ثرى جدته : حشدت فرنسا ، بعد عقدها معاهدة انقرة مع تركية كل قواتها لاجهاد ثوره الشمال ، وتعددت المعارك ، وكتب لنا النصر في العديد منها ، بفئتنا القليلة ، وسلاحنا الهزيل ، على قوات كبيرة مجهزة بأحدث واقوى الاسلحة ، حتى كادت تنفذ منا الذخيرة ، وخضعت اكثر القرى للقوة ، وللحملات التي كانت توجهها فرنسا تباعاً الى مناطق الثورة . ولم يبق حولي من الرجال إلا القليل ، فجمعت البارزين من اخواني ، وتحدثت اليهم عن الموقف المتدهور ، وان لا أمل لنا بعد اليوم بالاستمرار ، لان الاستمرار ، في حقيقته انتحار . وكنت اوفدت هزاع ايوب من مجاهدي جبل الزاوية الى شرقي الاردن ، برسالة مني الى اخواني احرار سوريا اللاجئين الى عمان في اعقاب انهيار الحكم العربي في دمشق ، وبينهم عدد من رفاقي في جمعية العربية الفتاة ، وفي حزب الاستقلال

الذي تألف بعد الحرب ، وفي المؤتمر السوري ، أسألهم رأيهم فيما اذا انتقلت مع عدد من رجالي الى شرقي الاردن ، هل سأجد العون من الامير عبدالله بن الحسين لاستئناف الثورة السورية من الجنوب ، فجاءني الجواب بأن انسحب ، على كل حال ، بمن معي من الرجال الى شرقي الاردن ، ما دام لم يعد هناك أمل باستمرار



المجاهد مصطفى الحاج حسين من البارزين في ثورة الشمال

الثورة ، والوقوف في وجه القوات الفرنسية المتألبة على المنطقة .
عدت مرة ثانية اجمع البارزين من رجال الثورة ، وطلبت منهم الموافقة على

اجتياز بادية الشام الى شرقي الاردن ، فوافق فريق ، وعارض فريق ، معددا
الاطار التي تحقيق بالطريق لبعدها ، ولأنها سهل ليس فيه موانع للاحتواء
واللجوء ، ولعدم الاطمئنان لولاء العشائر التي تسكن البادية ، مما يمكن
الفرنسيين من مطاردتنا بما لديهم من وسائل حربية سريعة ، واختار هذا الفريق
ان يكون اللجوء الى تركيا لقرب حدودها من مناطق الثورة ، والاتصال
الجبال الى ما وراء الحدود . أما انا فقد فضلت ان اقتل في طريق البادية الى
شرقي الاردن ، على ان الجأ الى تركيا الدولة التي تخلت عن مساعدة ثورتنا ، بعد
ان عقدنا معها اتفاقاً على التعاون ، والكفاح المشترك ضد القوات الفرنسية التي
تحتل سوريا ، وتحتل جزءاً من بلادها ، فلما لاحت لها الفرصة عقدت مع
فرنسا معاهدة انقرة ، دون ان تعلمنا ، ودون ان تطلب من عدوتنا أي شرط
في صالح حرية بلدنا ، وفوق ذلك اقتطعت جزءاً مهماً من شمال سورية ، وضمته
الى اراضيها وحدودها التي تنتهي عند جبال طوروس . وافترقت عن اخواني ،
وانحدرت بمن سار معي من الرجال الى المناطق الوعرة في قضاء معرة النعمان ،
وضربنا الليل في السهول الى الشرق نكمن في النهار ، ونسير في الليل ، حتى
اصبحنا شرقي سامية ، وعددنا لا يزيد على ثمانين مسلحاً اكثرهم من المشاة ، بينهم
بضعة عشر ألمانيا وبلغاريين من ضباط وجنود الفرقة الاجنبية في الجيش الفرنسي ،
كانوا التحقوا بثورتنا ، وربطوا مصيرهم بمصيرنا .

بلغنا قرية « عنز » من قرى سامية ، ومكثنا فيها بانتظار الاصل حق
نتابع السير نحو الجنوب ، ودليلنا هزاع ايوب الذي تعددت رحلاته في هذه
الطريق سيراً على الاقدام ، واذا بسياره تصل الى القرية تحمل الشيخ سلطان
الطيبار من زعماء العشائر يحمل الي رسالة من « الكابتن » فوزي القاوقجي
الضابط في الجيش الفرنسي ، يعلمني فيها انني وعصابتي مطوقون بالقوات
الفرنسية ، وبقوات قبائل البادية ، وان لا نجا لنا منها ، ويعرض علي ان
ادخل معه في مفاوضات على الاستسلام لقاء تعهده بضمان حياتي وحياة من

معي من افراد العصابة ، ومعاملتهم معاملة الاسرى ، ريثما يصدر عنا عفو من المفوض السامي الفرنسي ، فغضبت لهذه القحة ، واجبت الشيخ سلطان رسول القاوقجي بالرفض ، واصدرت أمري لجماعتي بالرحيل ، قبل ان يتم تجهيز الطعام الذي كانت القرية تعده لنا ، وانطلقنا نضرب في البادية ، نغذ السير في مهامها وقفارها ، الى ما بعد منتصف الليل . وكان لا بد من الراحة والاستجمام ، فجنحنا الى الراحة في القفر ، وانتبذ دليلنا هزاع ايوب مكاناً لوحده ، واستغرق في النوم من التعب . فلما افقنا في عتمة الفجر نستأنف سيرنا لم ننتبه لغيابه ، وفي الصباح افتقدناه ، فلم نجده ، وتابعنا السير ، واشرفت الشمس على الشروق ، واذا بأحد اخواني ينهني الى ان غباراً ساطعاً من ورائنا يخفي قوة من الفرسان تلاحقنا ، فالتفت الى الغبار استكشف بالمنظار عدد المطاردين ، وأصدرت امري بأن تتجه العصابة الى ارض وعرة كنت اراها غير بعيدة عنا ، يتخذونها للدفاع ، وبان يهيا الرشاش الثقيل الذي معنا فوراً لوقف الغارة التي لا نعرف عدد فرسانها من كثرة الغبار . وما كاد اصحابي ينزلون الرشاش عن الدابة ، حتى سطع غبار آخر من الغرب ، وآخر من الشرق ، وآخر من الجنوب . بل ثار الغبار من حولنا ، وظهرت الفرسان من تحته تغير بكل قوة جيادها علينا ، حتى ان المسؤول عن الرشاش لم يعد يستطيع ، لاضطرابه ، تثبيت سلاحه ، واطلاق النار ، فترجلت وعملت معه على تثبيت الرشاش وتركيزه ، واذا بفارس من اخواني يمسك بكتفي ، ويشدني عن الرشاش منبهاً ألا فائدة منه ، فقد وصلت الخيل المغيرة علينا ، وداهمتنا قبل ان نستطيع اطلاق النار ، وقبل ان يصل أكثر اخواني الى الوعرة التي وجهتهم اليها . وفعلاً بدأت الخيل تمر بنا تباعاً ، والرصاص يملأ الفضاء ، حتى ان فارساً من البدو ، مر بي كالسهم ، وقبض على ذراعي ليلقيني عن جوادي ، ولكن قوة اندفاع فرسه ابعدته عني ، وانقذتني من السقوط . والتفت حولي ، فرأيت في السهل

امامي جهة وعرة ، لا تتدفق الخيل منها ، وخطري أن امرق منها ، ولكزت
جوادي ، ودفعته إليها ، وبيدي مسدسي من نوع « برايللو » اطلق منه إلى
الوراء لابعد الفرسان عن اللحاق بي . وكان جوادي من كريم الخيول العربية ،
فما كاد يجتاز بي الوعة ، ويخرجني من نطاق الحشر ، حتى رأيت فارساً من
رفاقي ، ضرب قبلي في نفس الاتجاه ، فلويت عنان جوادي نحوه لنكون اثنين
خيراً من ان يضيع كل منا في جهة من مجاهل البادية . ولما دنوت منه عرفت انه
صباحي اللاذقاني المعروف بصباحي حليلة ، فحاذيته ، وكوكبة من الفرسان
البدو تلاحقنا بجيادها العربية الاصيلية ، واستمر السباق والطراد طويلاً بيننا
وبينهم ، ورصاصهم ينهمر علينا ، والله يحفظنا ، ويقينا شره ، فيطيش ، وكلما
تتالت الساعات في هذا السباق ، قصر عدد من المطاردين ، وقل عديدهم ، حتى
اصبحوا عشرات ، بعد أن كانوا مئات ، وتوسطت الشمس قبة السماء ، واصبحت
الجياد من شدة الحر والانهاك ، تكاد ترتمي ، والشهر تموز ، عندئذ قلت لصاحبي
ان فرسينا هلكتا من الطراد ، فلنعرج إلى هذا التل الذي تراه ، ونتخذ موقعاً
للدفاع ، حتى يستجم فرسانا ، وعرجنا نحو التل ، وترجلنا وراءه ، وصعدنا إلى
قمته ، وافترشنا الارض استعداداً للقتال ، واذا بالمطاردين ، يتوقفون ،
ويتشاورون ، ويدركون اننا مستميتان ، واننا سنصرع كل من يدنو منا ، ثم
يلوون أعنة جيادهم ، ويعودون من حيث أتوا ، حتى غابوا عن انظارنا . على أن
فرحتنا بالخلاص من المطاردة لم تكتمل ، فقد رأينا فرس صباحي اللاذقاني
ترتعش ، وتسقط ، وتنفق من التعب والعطش ، ورأيت صاحبي ينهار امام هذا
المشهد ، يحيل ناظريه في الصحراء الجرداء القاحلة المترامية الاطراف ، الملتهبة
بلهب الحر ، تمتد كالبحر ، فلا يدري كيف سينجو منها ، فواسيته بكلمة ،
وشجعته ، وقلت له ان راحلتي لي وله ، تتناوب ركوبها ، وقد يهيء الله لنا من
أمرنا فرجاً ، ثم اقترحت عليه ان نحدد قبل غياب الشمس اتجاهنا ، ونسير تواء
نحو الغرب لندرك المنطقة العامرة من سورية ، قبل ان نموت جوعاً وعطشاً في
البادية القفرء النفرء ، حتى ولو وقعنا بيد الفرنسيين ، وكان الموت نصيبنا ،

فالموت مدر كنا في الحالين ، إلا أن هناك املاً بأن نختفي وننجو من الفرنسيين .
أما الموت في البادية عطشاً فلا نجاة منه . رأيت صاحبي يعود اليه الأمل ، فهب
يفك لجام و رَسَن فرسه النافق لعلها ينفعان في متح الماء من بئر قد نصادفه في
طريقنا ، ثم يبحث في خرج جوادي لعله يجد فيها ما يبل حليقنا
الجافين ، فعثر فيها على تفاحة ذابلة ، ونقاطاً من الماء في وعاء الماء (المطرة)
بللنا بها الحلق ، وجلسنا فننظر الاصيل لنسير نحو الغرب ، آملين ان ينعشنا برد
الليل .

و فعلاً نشط جوادنا في الليل ، وتناوبنا ركوبه ، وقد هده الجهد والجوع
والعطش ، حتى بلغنا مكاناً متعرجاً من الارض ، تكثرفيه التلول ، صادفتنا فيه
اشجار متفرقة من البطم التي تكثر في أحراج سورية ، لم يستطع الجواد على
جوعه وعطشه ان يقتات بها ، فادر كنا اننا في جبل البلعاس شرقي سلمية
وحمص . وهذا الحرج كان كثير الشجر الا أن أيدي البسود ، وأيادي متعهدي
الخطب في الحرب العالمية قضت على اكثر ما فيه ، فقررنا بعد منتصف الليل ان
نركن للراحة ، ولو ساعة واحدة او ساعتين نستجم خلالها ، ويستجم الجواد ،
وانتحيناً جانباً من التلاع ، ونجمت من جراء الاستجمام مشكلة ، شغلت بالي ،
فرفيق دربي من عامة الشعب الذين التحقوا بالثورة ، وهو في مثل وضعنا ،
اخشى ان يبلغ به اليأس حداً تسول له نفسه فيه اغتيالي والاستئثار بجوادي
ينجوبه من خطر الصحراء ، ويذهب الى الفرنسيين مبشراً بأنه قتل ابراهيم
هنانو قائد ثورة الشمال الذي تدفع فرانسوا الوف الليرات الذهب ثمناً لرأسه ،
وقد منّت شيوخ العشائر بعشرات الوف الليرات الذهبية ان جاءوا بهنانو حياً
او ميتاً . لذلك كان لا بد من الحذر ، دون ان يشعر رفيق الدرب ، واقترحت
عليه ان لا ننام معاً ، وان تتناوب السهر ، وطلبت منه ان يسلمني بندقيته ،
وينام بدوره ، ثم اوقظه لانام بدوري ، وسلمني عن طيب خاطر بندقيته ،
ونام مطمئناً ، وانا اسلمت جفني للنوم ، بعد ان اطمأنت الى ان لا سلاح بيده

يغتالني به ، نمت بعد ان وضعت البندقيتين تحت فخذي ، وبعد ساعتين ، نهبت رفيقي ، واستأنفنا المسير حتى الضحى ، فبان لنا عيننا دروب صغيرة تتلاقى لتؤلف درباً أوضح نحو هدف ، سلكناه حتى وصلنا الى كهف ويحاذيه بئر ماء ، فكانت فرحتنا لا توصف ساعة تأكدنا من وجود الماء في البئر . وسارعنا الى المطرة نربطها برسن الفرس النافق ولجامها ورسن جوادي حتى بلغت الماء ، ونضعنا بها غرفة قدمناها للجواد الذي حمحم هو يرشفها رشفة واحدة ، واعدنا الكرة مئات المرات حتى ارتوى الجواد وارتوينا ، ودبت بنا الحياة مع الامل من جديد ، وأوينا الى الكهف نستظل فيه من الشمس المحرقة غير وجلين من الجوع ، فالمرء ، بعد وجود الماء ، يتحمل اياماً الجوع .

فوجدنا بعد الظهر ، ببديوي دخل علينا الكهف فجأة ، ولما رأنا انطلق يعدو ، ويصيح يدعو عدداً من الرعاة كانت مواشهم في طريقها الى البئر ، ويستعجلهم . ورأيناهم مسلحين ، أخذوا يترაკضون نحونا ، وصياحهم يدل على ما ينتوون ، فقلت لصاحبي ان الجواد الخائر القوى من الجوع لا يستطيع حمل اثنين ، وانت ليس معك مال تخشى عليه ، وليس هؤلاء مطمع الا ببندقيتك ، ونحن لا نريد ان نخوض مع هؤلاء معركة ، لأننا قد نلجأ الى منازل عشيرتهم ، فنقتل اذا قتلنا احدهم ، ولا نريد ان نستسلم اليهم ليسلبونا الجواد واسلحتنا ، لذلك سامني ببندقيتك لا نطلق بالجواد والسلاح بعيداً عن المكان ، وابق انت في مكانك ، فانهم لا يؤذونك اذا لم يجدوا معك مالا وسلاحاً ، بل ربما يطعمونك من زادهم ، وامتطيت صهوة الجواد ، واثقلت في الجهة المعاكسة لغارة الرعاة ، الف وادور ، واتجه نحو الغرب ، تحت وابل الرصاص ، حتى غبت عن انظارهم ، واخذت بعدها امشي الهويناء ، وقبيل الغروب لاحت لي خيام تتجه اليها قطعان الماشية ، فاضطرت لأن اعرج نحوها ، لانني وجوادي كنا بأشد الحاجة الى ما يقيم اودنا .

وفي غبشة الغروب دخلت الحي باحثاً عن اكبر بيت فيه ، اعرف انه بيت

رئيس الحي ، فلما وجدته ترجلت عن جوادي امامه ، وكنت ارتدي «القلب» التركي أو الشر كسي على رأسي ، وهو يصنع من فرو الخراف ، اجنة ، قبل ان تولد ، وفي عنقي منظار يتدلى ، وفي حزامي مسدس حربي ، وكان زبي عسكرياً أو شبه عسكري وعدة حصاني تزدان بالفضة ، سرجها وطوقها ، فهب صاحب البيت يرحب بالضيف كعادة الاعراب ، وتسلم من يدي عنان الجواد ، واكرم وفادتي ، ولما تفرق رجال الحي من منزله ، بعد ان ارتقوا من شرب القهوة ، سألتني : « هل يمكن ان اتعرف إلى ضيفي ؟ » ، قلت : « انني مفتش عد الاغنام في قضاء سلمية ضللت الطريق ، حتى اهتديت إلى هذا الحي ! » ، قال وهو يبتسم : « انني اعرف كل جبة سلمية ، وموظفي ماليتها ، بل كل موظفيها ، فلست انت منهم والله ! فلا تكتم عني امرك ، فانا اهل للكتان ، وانت ضيفي ، ومن واجبي ان اساعدك ! .. » قلت ، وقد تبدى لي في وجه مضيفي ، وهو شيخ عشيرة بني خالد ، عدم الاقتناع فيما قلت ، فعدت الفق قصة اخرى اكثر انطباقاً على مظهري ، فقلت : « اريد الصدق ؟ انني ضابط شر كسي من عمان ، فار من الجيش التركي ، واخشى ان يقبض علي الفرنسيون ، ويساموني الى الحكومة التركية ، بموجب ما بينهما من اتفاق ، فاحاكم بالموت ، واقتل جزاء فراري .. وكل ما أود منك ، ان تساعدني على الوصول الى شرقي الاردن ، فأهلي هناك من اغنياء الشر كس ، سيجزون من يوصلني إليهم جميل الجزاء ، بل سيفغنونني بالمال .. » ، فظهر الاقتناع على وجه محدثي ، ثم الأهتمام ، وطمأنني بأنني اصبحت في حرز أمين ، وانه سيساعدني على الوصول الى اهلي ، وسيجد لي الدليل الذي يرشدني الطريق ، ولكن يجب الآن ان انتقل من هذا البيت الكبير الذي يطرقه كل قاصد للحي ، وكثيراً ما يكونون من رجال الدولة ، وضباط قوة البادية وجنودها الذين تطوف دورياتهم كل مكان ، وهؤلاء خطر علي وعليه ان عرف احدهم بأمرى . وفوراً نقلني الى مضرب صغير في «الحي» « خربوش » ، وطلب مني ان اخلع ثيابي ، وارتدي ثوباً عربياً ، ثم جاءني بثوب عتيق رماه لي ، وكنت رأيتة يقلب بين يديه منظاري ، وسوطي من

الفضة قبضته ، فأهديتها اليه ، وقلت له خذ المسدس ايضاً ان شئت ، فشكرني واعتذر عن المسدس بأنه سلاح حربي ضخم يجلب النظر ، وربما تساءل من رآه من اين وصل الى يدي . أما المنظار والسوط فيمكن شراؤهما ، وليس اقتناؤهما ممنوعاً . وكان مضيفي الشيخ يمنيني بأنه أرسل من يبحث لي بين العشائر القريبة عن دليل يعرف الطريق جيداً إلى شرقي الاردن ، لأن المسافة شاسعة ، وبجاهل الصحراء لا يعرفها غير الخريت بين الادلة . ثم عاد لي وزوجه يوماً ليقول لي أنه لم يجد الدليل الماهر الذي يرضى بان يرافقني الى شرقي الاردن ، دون ان يقبض الاجر سلفاً ، إذ لا يصدق الأعراب أن اهلك سيجزونهم ، بعد وصولك اليهم . وكنت احتزم تحت ملابس الداخلية حزاماً للنقود ، فيه اكثر من مئة وعشرين ليرة ذهبية ، سرعان ما مددت يدي اليه احل اربطته ، وانا اسأله الشيخ عن المبلغ الذي يريده الدليل اجراً الى عمان ، والقيت اليه بعشر ليرات ذهباً مما كان معي ، ثم التفت لأرى عيني الرجل وعيني زوجته فلمع نهماً وشرهاً على ما في «الكر» من ذهب وهاج ، فأدركت أنني أخطأت ، وعرضت حياتي للخطر ، يوم كشفت لهما عما معي من دنائير ذهبية ، وسارعت أتلافى الخطأ فألقيت بالحزام كله ، بما فيه من ذهب إلى الرجل ، وقلت له : « كل هذا المال لك ، ادفع منه اجر الدليل ، وخذ ما تبقى لك حلاً هبة مني اليك جزاء مساعدتك إياي ! .. ولا اريد منك لقاء ذلك إلا ان توصلني إلى أهلي في عمان ! .. » ، وتلقى الشيخ البكرة بيديه حامداً لي أريحتي ، وهب وزوجه يخرجان ، وهما يقطعان على نفسيهما العهد بان يجدا لي الدليل ، بل اكثر من دليل ، ليلغني أهلي عزيزاً كريماً ، وبذلك ضمننت ان لا يغتالني الشيخ البدوي طمعاً في مالي ، اذ لم يبق على جسمي غير الثوب الذي تفضل به من قبل علي . وانقضى أكثر من يومين ، وانا سجين الخربوش ، مختفياً عن عيون الناس ، وإذا بالشيخ وزوجه يدخلان علي ، في صباح أحد الايام ، ويقول لي الرجل انه عجز عن ان يجد لي دليلاً في من حوله من العشائر ، وانه يرى لسلامتي وسلامته أن أغادر الحي فوراً ، وأذهب أنى شئت ، فقلت له : « ويحك .. بعد أن اخذت

مالي كله، ضننت علي باعرابي يرافقني، ويهديني سواء السبيل الى بلدي، ويوصلني إلى أهلي؟ هلا أعطيتني شيئاً من المال استعين به في طريقي الطويل الى عمان؟! « قالت زوجته: « بالله يا ابا فلان! هلا أعطيت ضيفك بعض الدنانير ينفقها في رحلته الشاقة! » ، فمد الرجل أصابعه إلى داخل الحزام الذي اتى به ، وألقى إلى بثلاثة أو أربعة دنانير قائلاً: « هاك .. بعض المال .. وقم ارحل عن هذا الحي! » ، قلت ان ما تعطيني لا يكفيني ثمن طعام وعلف لدابتي . فهلا زدت لعلني أجد في طريقي من استأجره دليلاً ببعض المال؟ » ، وشفعت لي مرة ثانية الزوجة ، فألقى إلي ببعض الدنانير ، وتوالت توسلاتي وشفاعة زوجته ، حتى أصبح في يدي بضعة عشر ديناراً استرددتها من مالي .. وكان سمح لي بالجواد وسرجه وعدته كلها ، كي لا تدل يوماً على وجودي عنده كشخص ملاحق .. فقلت له: « لا أريد السرج والعدة .. خذهما وأعطني سرجاً عربياً عادياً رخيصاً يتناسب مع هذا الثوب الخلق الذي ألبسه على جسمي! » قال: « لا أريد جوادك ولا عدته ، لانها يجلبان إلى الشبهة ، ويثيران الريبة في بيتي ، فالأعراب لا تقتني مثل هذا السرج الفرنجي! .. » قلت: « أعطني إذن ما أستر به هذه العدة والسرج عن العيون! » ، عندئذ ذهب ، وعاد إلي بقطعة قماش عتيقة ، كانت في الزمن الغابر خيمة يستخدمها الجنود الالمان ، وألقاها بين يدي ، فقامت أستر بها السرج، وأطوي العدة في الخرج، واربطها بخرقه بقطعة من حبل حتى تثبت فوق السرج ، ثم رجوت الشيخ! أن يعطيني ما أستر به رأسي من حر الشمس غير « القلبق » الذي يدل على انني ضابط تركي ، ويثير الشبهة ، لأنه لا يتناسب مع الثوب العتيق ، فاعتذر ، ثم جاءني بخرقه ثانية هي نصف كفية عتيقة مثلثة الاضلاع ، وبوصلة من الحبال ربطتها فوقها حول رأسي ، ولم أجد عنده حذاء ، فركبت جوادني حافي القدمين ، وبعدتي المسدس الذي لم يشأ أن يأخذه مني ، لأنه مسدس حربي كما قال من قبل .. ولكنزت الجواد في اتجاه الغرب ، وانا عن الساعة التي وقعت فيها بين يدي هذا البدوي الشيخ عديم الذمة .. الطماع .. حتى اذا ارتفعت شمس الضحى ، بلغت القرى المعمورة ، فأخذت أتجنبها ، وأسلك

طرقاً تبعدني عنها متجهاً إلى الغرب ، حتى صادفتني ساقية ماء سقيت منها جوادتي ، وشربت ، ثم مرغت ساقى وقدمي وذراعي ووجهي بوحلها ، ومسحته بعد أن جف حق لا تعرف ملاحى ، وحتى تتناسب قذارتي مع الخلقان الذي ألبسه . وفي وقت الظهيرة دخلت مدينة حمص من جهة الشرق ، وتغلغلت في حي الخالدية ، نسبة للمسجد المسمى مسجد خالد بن الوليد فيه ، وهو حي أكثر أهله فقراء ، خطر لي أن أطرق باباً من أبوابه ، لأودع فيه حصاني لقاء أجر ، ثم أتسلل إلى المسجد أقضي فيه نهاري مصلياً نائماً في زاوية من زوايا باحته أو حرمة ، حتى إذا لفني الليل ، تسالت منه إلى دار صديقي عمر الاتاسي ، وزميلي في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سورية في الثامن من شهر آذار عام ١٩٢٠ ، كي يهيم لي سراً سبيل الوصول إلى شرق الأردن . وتميزت الابواب التي كنت أمر بها ، حتى وقع نظري على باب ذي خصاص يدل على فقر ساكني الدار ، طرقته في حمارة القيظ ، وإذا بشاب يفتح الباب ، سألته إن كان في استطاعتي ربط جوادتي في داره لقاء أجر ، ريثما أذهب إلى المدينة أقضي فيها حاجتي وأعود ، فقال الشاب : « اهلاً وسهلاً بالعم .. إن في استطاعتك ايضاً أن تجدد لدينا أنت وجوادك مكاناً للراحة والمبيت ، فهلا دخلت أولاً ، واسترحت من عناء السفر ، فالوقت الآن وقت قيلول ونحن في هاجرة النهار .. تفضل يا عم وادخل ، فأنت في دارك وبين أهلك ! » .. شجعني كلام الشاب ، فترجلت ، وقاد الشاب الحصان إلى مربوط في صحن الدار ، وأدخلني غرفة ، على فقر ما فيها ، نظيفة ظليلة ، وفرش لي حصيراً ، ووسائد لاجلس عليها وأنام ، ولكنه انتبه إلى قذارتي ، فقال : « ما رأيك يا عم بحمام بارد في عتبة هذه الغرفة تنظف به جسمك ، وسأتيك بشباب تلقي بها عنك هذه الاثواب الوسخة ؟ » ، ولم يترك لي الشاب مجالاً للاعتراض ، بل ذهب ، ونقل إلى العتبة صفائح الماء البارد ، بعد ان انتشلتها من بئر الدار امرأة ، عرفت بعدئذ انها امرأة أخيه صاحب الدار ، فاغتسلت ، ولبست ثياباً يعبق منها أريج النظافة ، وجلست في المكان الذي أعد لي ، ورجوت الشاب أن يذهب بدينار مما كان معي ، يهيم لي ببعضه

غداء من السوق ، وعليقاً لجوادي ، فلبى الطلب ، ونمت هادئاً ، وفي الاصيل
فتح باب الدار ، ودخل رجل بلباس وطني مؤلف من القنباز والكفية والعقال ،
أدركت أنه صاحب البيت . ويظهر أن زوجته لوحت له من المطبخ ، حيث
نقل الجواد بناء على طلبي ، بحجة إبعاده عن الشمس ، والواقع أردت إبعاده عن
العيون ، عند فتح باب الدار وإغلاقه ، فخف الرجل إلى المطبخ ، وتميز الجواد
ودار بين الزوجين همس احتمال دقائق ، ثم أقبل الرجل علي في الغرفة ، وحياني
وجلس .. وكان لا بد من السؤال التقليدي : « من أي ديرة الضيف ؟ » ،
قلت : « من جهات المعرة أيها الأخ ! سرقت لي أغنام ، فركبت في أثرها إلى
البادية لعلمي أهتدي إليها ، وأستردها .. ولكن خاب أملي ، وسلبني قطاع
الطرق ملابسي ، حتى رماني القدر في داركم ! .. » قال « ولكن جوادك أيها
الصديق هو جواد الزعيم ابراهيم هنانو ، عليه تنطبق كل الاوصاف التي رواها البدو
والجنود الذين طاردوا عصابته وطاردوه شخصياً في البادية فهلا صدقتني القول
وطمأنتني عن سلامة الزعيم ؟ » ، وبانت اللفتة والصدق في عينيه ،
فكان لا بد لي من طرح أكذوبيتي الاولى ، قلت : ومن أين عرفت
ان الجواد حصان هنانو ؟ » ، قال : « انا جنباز خيل . قضيت
عمري في هذه المهنة ، والناس كلهم يلهجون اليوم بقصة الزعيم هنانو ، وجواده
الكريم الذي أنقذه من كل خيول البادية التي طاردته طمعاً بالجائزة التي مننت بها
فرنسة شيوخ العشائر ، والالسن تلهج بالدعاء لله أن يحفظ الزعيم فلا يهلك جوعاً
وعطشاً في الصحراء القاحلة ، ولا يقع بيد الفرنسيين اعدائه واعداء البلاد ، فهلا
اخبرتني صدقاً ان كان هذا حصانه ، وهلا طمأنتني عنه ! » ، قلت : « طب نفساً ،
وقر عيناً فهذا حقاً حصان هنانو ، وانا رفيقه الذي نجوت معه في الطراد ، وهو
في مكان أمين ، وحوز حريز ، لا خوف عليه إن شاء الله ، وقد أوفدني إلى حمص
بمهمة أنا في سبيل إنجازها له ، فهل انت مستعد لمساعدتي ؟ » ، قال : ان روحي
فداء الزعيم هنانو ، وبيتي وزوجي وأخي وكل أسرتي .. هلا حدثتني عن مهمتك
فأنا رهن إشارتك ! .. » ، فاغرورقت في عيني الدموع من صدق لهجة الرجل
وإخلاصه ، وأدركت أن في وطني شعباً ، هذا الرجل نموذج حي له ، شفت اقواله
نفسي مما لقيت لدى شيخ بني خالد ، هو أبعد ما يكون عن شيم العرب .. ولم أجد

بدأ بعد الاكرام الذي أخذ يتعاضم ، والحرص على سلامتي ، والصدق الذي لمسته من أن أطلع مضيفي على الحقيقة ، وأن أعترف له بانني ابراهيم هنانو ، فاذكب علي يقبل قدمي من شدة الفرح ، وانا ارفعه عنهما ، وطلبت منه ان يسهل اتصالي بعمر الاتاسي ، فغضب لذكر هذا الاسم على لساني ، وقال : « مالنا وهؤلاء الافندية الذوات الذين ليس في أخلاقهم ضمان ولا ثقة ، ونحن نرى نعال اكثرهم تخفق على أبواب المستعمرين ، سعيًا وراء مصالحهم .. انهم عبيد مصالحهم ، لا نطمئن نحن الفقراء من عامة الشعب اليهم .. وانا الفقير جنباز الخيل مستعد لأن أبذل روحي في سبيل وصولك إلى المكان الامين الذي يكفل سلامتك ، ولست أريد أن يعلم أحد غيري بوجودك هنا .. وسأقوم من هذه الساعة باعداد العدة لسفرك إلى شرقي الاردن من الطريق الامينة ، وسيكون سفرنا من هنا إلى دمشق ، ومن الطريق العامة ، ولكن بعد أن اغير ملامح الحصان ، وأجد لك الزي المناسب الذي لا يلفت النظر ، ولا يشير الشكوك ، فإذا بلغنا دمشق ، ضمنت منها سفرك الى جبل الدروز ، فهل انت ضامن في الجبل من يساعدك على الوصول إلى شرقي الاردن ؟ » قلت : « نعم ! لي فيه من أثق بوطنيته وإخلاصه وقدرته على العمل » ، قال : « حسنًا سأعد العدة ، وليس أمامي غير تغيير أوصاف جوادك الذي أصبح أشهر من داحس والغبراء ، والايجر والخضراء في قصص العرب . ولكنني انا جنباز سأغير معاملة وأبدل أوصافه ، وأجعل منه جواداً آخر ، لا يمكن لأعظم خبير في الخيل أن يعرفه ! »

وفعلًا جاء في اليوم الثاني باصباغ ، وبمقص للشعر ، وبدأ بتغيير اوصاف الجواد ، فقص شعر ذيله ، وبعض شعر لبدته ، وصبغ الفرة بنين ناصيته ، والبياض في ارجله ، وقص وصبغ حتى إذا رأيته حسبت أنه فرس آخر ، ثم ذهب إلى السوق ببعض نقودي واتاني بلباس كامل لزي أغوات عكار ، واخبرني انه استأجر رهوانة لعشرة أيام ، واننا سننطلق معاً في الأصل إلى دمشق ، ومن طريقها العام نسير في الليل ، ونستجم في النهار تحت ستار الحر

في شهر تموز ، حتى نبلغ غايتنا . وانطلقنا على هذا النحو ، وفي أول مرحلة بلغنا « حسياء » حيث قضينا فيها النهار ، وبلغنا النبك في المرحلة الثانية ، ثم القطيفة . وكان رفيقي خير مؤنس لي ، ليس فيه علة الا أنه كان يشرب الخمر في الطريق متذرعاً بأنه يقوي أعصابه في مهمته الخطيرة ! . وكان معه بطحاه يملؤها بالعرق ، كلما فرغت ، من القرى التي نلبث فيها أو نمر بها . ولما بلغنا ثنية العقاب في طريقنا من القطيفة الى جوبر يحوار دمشق ، صادفنا دورية من دركيين ترود المكان الذي تكثر فيه حوادث الشقاوة والسطو والسلب ، وخاصة في الليل ، فطلبنا منا التوقف ، وفي ضوء عود ثقاب تعرفنا الى وجوهنا ، فطلب أحدهما منا ان نسمح له بتخري ثيابنا وجيوبنا ومتاعنا من أجل رسائل لا تحمل طابع البريد . فحملها ، على حد زعمهما ، ممنوع حسب الاوامر الصادرة الى المخفر ، ويتعرض حاملها الى غرامة نقدية ! . فقلت لهما : « مهلاً .. فليس معنا رسائل ، وما نحن إلا عابراً سبيل نقصد دمشق لاشغال لنا فيها » ، قال احدهما : « لا بد من التفتيش ، فلدينا أوامر مشددة حول ذلك ! » ، ثم دنا من رفيقي الجنباز ، وأخذ يبحث في جيوبه ، حتى إذا عثر على علبة التبغ صادرها باسم تبغها المهرب ، وعلى مسدس قديم من نوع « طبنجة » لا تساوي قيمته ريالين في ذلك الوقت تسليح صاحبي به من حمص ، فصادره الدركيان باسم سلاح ممنوع حمله ، ثم عثرا على زجاجة العرق (البطحة) ، وفيها ثلثاها ، فصادراها ايضاً ، وهما شرب ما فيها على الطريق ! . وكنت في تلك اللحظة افكر بنفسي وبالمسدس الحربي « برايللو » الذي احملة ، واخشى ما أخشاه ان يقودني حمله الى المخفر ، فتكتشف هويتي ، واسلم للفرنسيين ، لذلك قررت ان اقتل الدركيين في حال اصرارهما على تفتيشي ، وافر بالجنال ، مهما كانت العواقب ، ولكن الله ابي ان يبلغ بي هذا المدى ، فقد التفت إلي أحد الدركيين ، وأنا أدافع عن صاحبي وتبغه ، ومسدسه ، وخمره ، واعارض مصادرتها ، وقال : « اننا يا آغا لن نفتشك احتراماً لك ، ولكن لا بد من مصادرة هذه الاشياء الممنوعة من رفيقك ! » ، ثم لكزاً جواديهما نحو القطيفة ، ورفيقي الجنباز يكاد يحن جنونه ،

فقد صودر سلاحه ، وأصبح بدون خمر ولا تبغ في طريق يستغرق قطعها بضعة ساعات أخرى!.. ولما رأيت حزنه وحنقه ، مددت يدي إليه بريالين ، وقلت : « الحق بالدركيين ، على الرغم انني ما صدقت أن أخلص من بلائهما .. وادفع لهما المبلغ رشوة ، فانهما سيعيدان إليك حاجاتك ». ولحق بهما ، وكان له ما أراد ، وعاد مسروراً يشرب ، ويدخن ويغني ، ويعتز بحمل « الطبنجة » ، وبلغنا قبل الصباح قرية جوبر ، فمكثنا فيها إلى الأصيل ، وكان أصيل يوم الاحد ، وحي القصاع غاص بالناس ، تجاوزناه ، دون أن نلفت النظر ، إلى حي الخراب ، وحللنا في خان ترتاده قوافل جبل الدروز ، وقضينا في الخان ليلة ، وفي أصيل اليوم الثاني ، ودعت رفيقي الجنباز الذي لا أنسى فضله علي ، ورافقت قافلة إلى جبل الدروز ، وقصدت القرية التي يسكنها أبو نايف علي عبيد ، وهو شخصية وطنية في الجبل ، رغم عدم معرفتي به من قبل ، قصدته واثقاً من إخلاصه ، فلما بلغت داره استقبلني ولده نايف ، ورحب بي ترحيباً حاراً كضيف ، وانزلني في غرفة الضيافة ، ثم ذهب يدعو أباه من مضافة أحد أصدقائه ، ولما جاء الأب رحب أكثر ، ثم فاجأني ، دون سابق معرفة بيننا قائلاً : « ألسنت في حضرة القائد المجاهد ابراهيم هنانو ؟ » ، قلت : « نعم يا ابا نايف ، ولكن كيف عرفتني ؟ » ، قال : « كان هزاع ايوب ضيفي هنا منذ بضعة ايام ، وقد ضاع منكم صبيحة هوجتم في البادية ، إذ رحلتم ، وخلفتموه مستغرقاً في النوم ، ولم يستطع اللحاق بكم ، بسبب تعرضكم للهجوم ، وجد وحده يقطع البادية ، حتى جاءني هنا ، وحدثني عنكم ، وسألته عن أوصافكم ، فلما وقعت عيناي عليكم الآن عرفت أن ضيفي ابراهيم هنانو . » ، وقام أبو نايف علي عبيد بالواجب ، وهياً لي السفر والرفاق إلى عمان في شرقي الاردن ، واجتمعت هناك باخواني أحرار الشام اللاجئين ، وعرفت منهم أن الأمير عبدالله بن الحسين خيب ظنهم فيه ، وبوالده ، وأسرته ، إذ جعل إرضاء الانكليز ديدنه وسياسته التي لا يحيد عنها ، في سبيل إرضائهم ، لذلك ضاعت كل الآمال التي بنيناها على هذه الاسرة حول مساعدة سورية في محنتها . قلت لا بد لي من مقابلة عبدالله بننفسه ، والتحدث

اليه في الموضوع ، وتوجهت إلى الصيوان الذي نصبه في مرتفع من جبل عمان لديوانه ، في انتظار بناء القصر الاميري ، وقابلته على انفراد ، واستنجزته الوعود التي قطعها والده وهو وأخوته للعرب ، وقلت ان الفرصة اليوم سانحة لتنظيم ثورة في جنوب سورية تطرق أبواب العاصمة دمشق ، وغوطتها ، تعتمد على مساعدة شرقي الاردن ، وانا لا اريد منكم رجالاً ، بل كل ما أريده سلاحاً وقليلًا من المال ، ثم تعتمد الثورة على نفسها ، بعد ان تقوى وتشتد وتتسع ! » ، قال : « ان الشعب السوري خيب آمالنا ، وتبين أنه شعب عديم الوطنية والاخلاص ، تخلى عن أخي فيصل ، وقوض عرشه ، وخان بيعته ، حتى أصبح أخي ملكاً شريداً بلا عرش ! .. » ، وجرى بيني وبين الامير الهاشمي جدل حاد أثبت له فيه وطنية الشعب العربي في سورية ، وتضحياته ، وبذل كل مرتخص وغال في سبيل حريته ، وحملت أخاه فيصلاً ، وبعض من تعاون معهم مسؤولية ضياع العرش ، وضياع استقلال سورية ، وانحيت باللائمة على سياسته كملك ، وتردده ، ومسايرته الانكليز والفرنسيين المستعمرين ، وأكدت له أن الشعب مستعد الآن لأن يبذل المهج وكل نفيس في سبيل استرداد استقلاله ، وإعادة العرش الهاشمي وحمايته ، وليس يطلب من الذين يندبون ضياع عرشهم ، بسبب سياستهم ، الا ان يقدموا له القليل من المساعدة . وبعد هذا الحديث والجدل أيقنت ألا رجاء للعرب في هذا الامير العميل ، وخرجت من لدنه مغضباً ، ورحت إلى أخواني استحشهم أن يتدبروا لي جواز سفر من الاردن يستطيع به أن أغادر البلاد العربية إلى الغرب للتداوي ، ففعلوا ، وغادرت عمان إلى فلسطين بطريقي إلى الغرب ، ولكن الانكليز كانوا لي في عمان بالمرصاد ، فقبضوا علي في فلسطين ، وأسلموني إلى أعدائي الفرنسيين الذين نقلوني إلى السجن العسكري في حلب ، وألفوا محكمة لحاكمتي ، كما هو معروف من الناس ، محاولين أن يحمّلوني مسؤولية أعمال فردية ، وقعت في ثورة الشمال ، اسموها أعمال شقاوة وقتل وسلب ونهب ، فدافعت عن نفسي ، وأثبت أن مثل هذه الحوادث تقع في الجيوش النظامية أحياناً عندما تحتل بلداً أجنبياً ، ولم تقع بأمرى ، بل

من قبل أفراد حوسب بعضهم ، ان لم يكن كلهم ، على ما ارتكبوا من اعمال خارجة عن أهداف الثورة ، ولما أعيانهم إثبات مسؤوليتي ، اضطروا إلى براءتي ، من تلك التهم ، واعتبروا ثورتي وطنية ، وأخلوا سبيلي ، بعد أن بقيت في سجنهم أكثر من ستة شهور. هذه قصة انسحاب عصاية الزعيم هنانو من شمال سورية ، بعد انتهاء ثورته ، ومطاردتها في بادية الشام رويتها كما سمعتها من الزعيم هنانو نفسه ، أضيف اليها ما سمعته عن محاكمته في حلب ، فقد سأله مرة رئيس المحكمة العسكرية عن عدد عصابته في إحدى المعارك التي نشبت ، وكتب فيها النصر للمجاهدين ، فرد هنانو بعد تفكير ، بأنه أكثر من ألف مسلح ! ، وتعددت جلسات المحاكمة ، وكرر الرئيس السؤال نفسه في جلسة أخرى ، فسكت الزعيم هنانو ، ولما أصر رئيس المحكمة على سؤاله أجابه الزعيم أن عدد المجاهدين كان بضع مئات ، فانتفض الرئيس الفرنسي غضباً ، واتهم هنانو بالكذب لان جوابه في هذه المرة يناقض جوابه في المرة السالفة ، فوقف الزعيم هنانو وصاح برئيس المحكمة : « اتالا اتهم بالكذب ! ولكنك سألتني عن عدد قواني في معركة هزم فيها الجيش الفرنسي ، وهو ألوف مؤلفة ، فأردت أن أحفظ كرامة فرنسا أمام المستمعين ، لذلك قلت ان عدد قواني اكثر من ألف مسلح .. ثم اخرجتني اليوم بالسؤال نفسه ، فأردت ايضاً أن أبقى لفرنسة كرامة جيشها ، فقلت ، ان عدد المجاهدين كان بضع مئات .. أما وانت تتهمني بالكذب ، فاني اقول صادقاً ان عدد المجاهدين الذين هزموا الحملة الفرنسية لم يكن اكثر من ستين مسلحاً ! ... » ، فوجم رئيس المحكمة ، وخفض رأسه ، وتابع سير المحاكمة .

ويروى في محاكمة الزعيم هنانوان المحكمة ، بعد ان استنفدت جميع الاجراءات ، واستمعت الى جميع الشهود ، وقبل ان تنتقل الى سماع أقوال النيابة ومرافعات الدفاع ، أعلن رئيس المحكمة ، أمام المستمعين ، ان المحكمة تبيح لكل من يريد من المستمعين الكلام في صدد هذه المحاكمة ، او الادلاء بشهادة ، دون ان يكون مدعواً لها ، فنهض سعد الله الجابري من رجالات الوطنية المثقفين في حلب ، وتقدم الى المحكمة بشهادة كانت كمرافعة للدفاع عن الثورات الوطنية ، وانها

غير مسؤولة عن بعض الجرائم التي يرتكبها افراد باسم الثورة ، قد تسيء
لاسم الثورة ، فالجيوش النظامية في الحزب ، يرتكب بعض افرادها جرائم
دون علم القيادة ، قد تكون ابشع من جرائم الثورات ، واستشهد بالجيش
التركي في الهجوم على رومانيا خلال الحرب العالمية الاولى ، وما ارتكب خلاله
من حوادث قتل ونهب وسلب لا تقرها انظمة الحرب ، واستشهد بغيره ، وطلب
ألا يعد القائد هنانو مسؤولاً عن الجرائم التي ارتكبت ، دون ارادته ، من قبل
افراد اندسوا على الثورة ، وجلس بين اعجاب المحكمة والمستمعين ، فقام رجل
آخر كهل من آل الجابري ، واراد أن يتكلم ايضاً في صالح الزعيم هنانو ، وحنق
رئيس المحكمة من اعجاب الناس بكلمة سعد الله الجابري ، وقحة آل الجابري ،
فبادر الشاهد بسؤال : « هل تحب انت فرانسة ؟ » ، وظهرت الحيرة على
الشاهد ، وخاف ان قال : « لا » ان يهينه رئيس المحكمة ، ويطرده من الشهادة ،
وان قال « نعم » ان يحتقره المستمعون ، واكثرهم من الوطنيين المهتمين بمحاكمة
الزعيم هنانو ، فأجاب : « على قدر الامكان ! » ، وترجم الترجمان الجواب ،
فلم يستطيع رئيس المحكمة ان يجد فيه سلباً ولا إيجاباً ، وابتسم وقال للشاهد :
« تكلم ! » فأدلى الجابري الكهل بما يريد قوله في صالح الزعيم هنانو ، وذهب
وذهب جوابه باللهجة الحلبية ، عن حبه فرانسة مثلاً يتندر به الناس
الى اليوم !

مقاومة الشعب للاستعمار

١٦

لم ينس الشعب في سورية قضيته ، على الرغم من خمود الثورات الكبرى
أمام القوة ، فالمقاومة للاحتلال الفرنسي كانت تظهر في ثورات ، وانتفاضات
محلية ، ماتكاد تخمد واحدة حتى تشتعل اخرى ، ففي الكتاب الذهبي لجيوش

الشرق » من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٣٦ ، اعتراف بنشوب العديد من الثورات المسلحة في سورية ، وان كانت الخسائر التي يشير اليها مؤلف الكاتب الفرنسي ، لا تدل أرقامها على الخسائر الحقيقية التي تكبدها الجيش الفرنسي في تلك الثورات ، اذ المعروف ان الفرنسيين يخفضون كثيراً أرقام خسائرهم وقتلاهم في المعارك ، وخاصة قتلى الفرنسيين . اما جنود المستعمرات وضباطهم ، فقل ان يحصوهم في عدد الخسائر ، باعتبارهم غير فرنسيين ، وخسارتهم ليس خسارة لفرنسة . وفي الكتاب اشارات واضحة الى ثورة عشيرة الموالي في اطراف حماة وحلب ، وخاصة قضاء معرة النعمان ، واسارة الى ثورة بدوية أخرى في الفرات ، ومعركة كبرى خاضها الجيش الفرنسي ، وسجل خسائر فيها . واذا تتبعنا الثورات الصغيرة ، والحركات في سورية ضد فرانسة ، لما استطعنا إحصاءها لكثرتها ، ففي مذكرات الجنرال « فيغان » المفوض السامي في سورية اعتراف بأن عدد الثورات المسلحة والتمرد على فرانسة في عهده ، أربى على ثلاثة ثورة وحادث تمرد ، في عدادها حادث دخول عصاة مسلحة حي باب سريجة في دمشق . أما الجنرال غورو الذي احتلت قواته سورية الداخلية ، وقوض معالم استقلالها ، وسرح جيشها ، وكان أول عمل له يوم دخل دمشق أن سار بموكبه الى قبر البطل السلطان صلاح الدين الأيوبي في جوار المسجد الاموي ، وطرق بسيفه على صفائح القبر ، وقال : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين ! » إشارة الى الجيوش الصليبية التي هزمها صلاح الدين في عهده . ان هذا القائد المتعصب المغرور ، جرى له حادث في سورية ، كاد يذهب بحياته ، وخلاصته أن الثائر احمد مريود من أحرار سورية الذين لجأوا الى شرقي الاردن في أعقاب الاحتلال الفرنسي ، ودخل قوات الجنرال غورو دمشق ، أبى ان يقيم في عمان ، مع إخوته ، بعيداً عن مجرى الحوادث في وطنه ، فاختر قرية « كفر سوم » في قضاء أربد ، قريبة من حدود سورية ، واتخذها مقاماً له ، ولبعض رجاله الأشداء . وجاءه في أحد الايام رسول من قريته « جبباتا الخشب » من اعمال قضاء قطنا (وادي العجم) ينبئه بان محمود باشا الفاعور رئيس عشيرة الفضل سيقم مأدبة

غداء للجنرال غورو في قرية « واسط » من أعمال قضاء القنيطرة ، (الجولان)
المجاور لقضاء « قطنا » ، وذلك بمناسبة قيام الجنرال برحلة تفتيشية إلى القنيطرة ،
وأن الاستعدادات تجري على قدم وساق لهذه المأدبة ، فلم يضع الشائر مريود
الفرصة ، ووجه فوراً خمسة من رجاله ، البسهم زي الدرك السوري ، وباتوا في
قرية من قضاء الزوية ، وفي صباح الثالث والعشرين ، وقد يكون الثامن والعشرين
من شهر حزيران عام ١٩٢١ ، رابط هؤلاء الأبطال في منعطف على طريق
القنيطرة - دمشق ، في موقع خان « أريثبه » ، وهو منتصف الطريق ، بين
دمشق - والقنيطرة ، بعد أن سدوا أحد جانبي المنعطف بحجارة لتعطيل السير ،
وإعاقة الموكب أثناء عودته من المأدبة . ولما بلغ موكب الجنرال غورو المكان ،
خفت السيارات من سرعتها بسبب المنعطف ، ووقف الفرسان الخمسة صفاً ،
كأنهم يريدون أداء التحية للجنرال ، فرفع الجنرال يده ليحييهم ، وإذا ببنادق
المجاهدين الخمسة تنطلق نارا ، فانكفأ على وجهه في أرض السيارة ، واختبأ تحت
مقعد السائق ، والقي حقي العظم رئيس دولة دمشق الذي كان جالسا إلى
يساره ، نفسه فوقه من الخوف ، وانطلق السائق بقوة سيارته يقفز الحاجز الذي
أقامه المجاهدون ، ومرقت سيارة الجنرال ، بعد أن قتل الضابط المرافق
للجنرال ، وجرح حقي العظم في كتفه ، وفخذه ، وشفته ، وجرح آخرون من
المرافقين والحرس ، وخرقت رصاصة بزة الجنرال ، وأطاحت بشاراته
العسكرية من على كتفه ، وربما لم تصبه الرصاصة ، لأن ذراع الجنرال وساقه
مبتوران في حرب الدردنيل ، إلى جانب فقد إحدى عينيه ، وذراعه الصناعية
كساقه وعينه ، لا يؤذيها الرصاص إذا اخترقها .

لقد حسب المجاهدون أن رصاصهم قتل الجنرال ، وقد رأوا قبعة المرافق القليل
تسقط من السيارة فحملوها ، وأطلقوا لجيادهم الأعنة ، وتفرقوا ، فسلك
بعضهم طريقاً غير طريق اخوانه تجنباً لمطاردة الفرنسيين . وقد تعرفت في
الثورة السورية إلى بعض افراد هذه العصابة الباسلة ، عرفت منهم محموداً ابا دياب
البرازي الذي كان ممن يعتمد عليهم المجاهد احمد مريود في اعمال الوطنية العنيفة

ومن أفراد هذه العصاة الباسلة محمود حسن وعارف احمد وغيرهم .
لقد نكل الفرنسيون بالقرى التي مرت بها العصاة ، ودمروا الدور
والمساكن ، وفرضوا الغرامات الباهظة على الأهلين ، وأحرقوا ، ونهبوا ،
وملأوا السجون بالأبرياء ، حتى بالاطفال والنساء ، وساموهم سوء العذاب ،
ونكلوا بهم أبشع تنكيل .



الفصل الثالث

ثورة سلطان الاولى

١٧

ونشبت في عداد تلك الثورات ثورة سلطان الاطرش الاولى ، ففي عام ١٩٢٢ ، أي بعد انقضاء نحو عام على حادث الجنرال غورو في الجولان ، لجأ أدهم خنجر أحد الملاحقين من قبل السلطات الفرنسية ، والصادر عليه حكم بالموت من المحكمة العسكرية الفرنسية ، إلى جبل الدروز ، قاصداً منزل سلطان الاطرش ليحتمي به ، ويسهل له صاحب البيت الفرار إلى شرقي الاردن. ووصل أدهم إلى « القرية » ، بلدة سلطان ، واجتاز طرقاتها في وضح النهار ، ملثماً على صهوة جواده ، بزي يختلف عن زي الدروز سكان الجبل ، مما لفت نظر رجال مخفر الدرك في القرية ، فلحقوا به ، واعترضوا سبيله ، وهو يترجل عن جواده أمام بيت سلطان الاطرش ، وعرفوا هويته ، وكان اسمه عندهم في عداد الملاحقين من قبل السلطة الفرنسية ، وقادوه الى المخفر ، ومن هناك أرسلوه مخفوراً الى بلدة « صلخد » حيث تسلمه ضابط استخبارات القضاء ، وزججه في السجن ،

ريثما يهيء سوقه مخفوراً الى السويداء مركز حكومة جبل الدروز المستقلة .
وأدرك أدهم خنجرانه مقضي عليه ، فارسل بطريق احد موظفي سجن « صرخد »
رسالة الى سلطان الاطرش ، وكان هذا ساعة القبض على ادهم غائباً عن بيته في
السويداء ، فلما عاد في المساء وجد رسالة ادهم يستنجد به فيها ، ويقول انه
قبض عليه وهو على باب دار سلطان ، وانه بحكم العرف والعادة والتقاليد العربية
يعتبر جاراً لاجئاً الى حماه ، وان في القبض عليه بهذا الاسلوب خرقاً لجوار صاحب
الدار المسؤول عنه أمام الله والتاريخ ، فتوجه سلطان في صباح اليوم الثاني مع
عشرة فرسان من اخوته ورجاله الى صلخد ، وقابل ضابط المصالح الخاصة
الفرنسي ، واحتج على القبض على أدهم خنجر من أمام باب داره ، وأن ذلك
يعد خرقاً للتقاليد والعادات الدرزية التي نصت الاتفاقية بين فرانسـة
وزعماء جبل الدروز على مراعاتها ، فلما قال له الضابط الفرنسي : « ولكن
أدهم خنجر محكوم عليه بالموت من قبل المحاكم العسكرية » ، رد عليه سلطان
بانه حسب التقاليد المرعية مسؤول عنه وعن حمايته ، مهما كانت جريمته ، ولو
كلفته حمايته بذل روحه ، وان في القبض على أدهم خنجر أمام باب داره ، وفي
بلده خرقاً للاتفاقية المعقودة بين فرانسـة والجبل ، ووصمة عار ستلحق به مدى
الحياة ، لا يحوها إلا الدم أو تسليم السجين اليه ، وإنه لا يبرح صلخد إلا
والسجين معه ، ولما اعتذر له المستشار بأن السجين أرسل إلى الكابيتن « كاربـيه »
المستشار الفرنسي في السويداء ، وانه عاجز عن ان يلبي طلبه ، قصد سلطان
وجماعته السويداء ، وقابل فيها « كاربـيه » مستشار حكومة جبل الدروز ،
وتحدث اليه نفس الحديث ، ولكن « كاربـيه » رفض بشدة تسليم السجين ،
وقال انه شقي مجرم حكمت عليه المحاكم الفرنسية بالموت ، وصدق المفوض
السامي حكمها ، وانه لا يقربان في القبض عليه خرقاً لاتفاقية جبل الدروز
مع فرانسـة ، وانه سيرسله محروساً الى دمشق ، فهدد سلطان بانه سيمنع بالقوة نقله الى
دمشق ، وخرج من لدن المستشار غاضباً ، وتوجه فوراً مع جماعته الى طريق
السويداء - ازرع ، باعتبارها الطريق الوحيدة المعبدة الى حوران ودمشق ،

ورابطوا فوق رابية تشرف على الطريق من جانبها حتى لا يفوته نقل السجين
اللاجيء الى جواره ، ويعمل على انقاذه بالقوة من ايدي آسريه .
اتصل « كارييه » هاتفياً بالامير سليم الاطرش حاكم جبل الدروز الذي كان
يقضي أكثر أوقاته في منزل له في دمشق ، ودعاه للحضور الى السويداء ليحول
دون الصدام بين فرنسة وابن عمه سلطان ، فجاء على جناح السرعة ، وتوقف
قرب السويداء يقنع سلطاناً بان يكف عن المقاومة والعنف ، وألا يعرض نفسه
لنقمة فرنسة التي يصر ممثلها على إرسال أدهم خنجر إلى دمشق ليلقى عقابه
القانوني ، وأصر سلطان على ألا مقام له بعد اليوم في جبل الدروز إن لم يغسل
بالدم وصمة العار التي لحقت به أمام مواطنيه . وكان « كارييه » ممثل السلطة
الفرنسية في الجبل أطلع رؤساءه في دمشق وبيروت على المشكلة التي أثارها
سلطان ، فوجهت قيادة الجيش في دمشق سيارتين مدرعتين من حوراب إلى
السويداء لنقل أدهم خنجر ، وتأديب سلطان الاطرش وجماعته في حال تعرضهم
للسجين . ولما أطلت المدرعتان قادمتين من جهة ازرع ادرك سلطان الاطرش
انهما قادمتان لضربه ، فانتخى وانتخى إخوانه أمامه ، وهي عادة عربية أصيلة
يشير بها المنتخون حماسة بعضهم بعضاً ، حتى يصبحوا في هياج نفساني يتحدون
به الموت ، واندفع سلطان وفرسانه العشرة بعد النخوة نحو المدرعتين اللتين
أخذتا تطلقان رشاشيهما ومدفعيهما على المغيرين دون جدوى ، حتى بلغ الفرسان
المدرعتين ، وقرعوا صفائحهما بسيوفهم وبنادقهم ، واطلقوا النار من ثقوب احدهما
وثغراتها فقتلوا الضابط والجنود فيها وعطلوها ، وفرت المدرعة الثانية نحو
ازرع ، وهي تطلق النار لتصد عنها غارة المغيرين ، وغاد سلطان وعصبتة إلى
الرابية يرابطون فوقها ، ويصرون على قطع الطريق . وبلغ القيادة الفرنسية في
دمشق مصير المدرعتين ، فأرسلت طائرة الى السويداء نقلت السجين أدهم خنجر
بطريق الجو إلى دمشق ، وبلغ الخبر مسامع سلطان ، فقال : « لا حيلة لنا
بالسواء .. أما في الارض فإننا مستعدون لبذل أرواحنا في سبيل كرامتنا ! » ،
ثم انصرف مع رفاقه الى بيوتهم ، ولم تلبث فرنسة ان جهزت حملة عسكرية

قوية ، وجهتها للقبض على سلطان وجماعته ، فخرجوا من القرية ، واخذ سلطان يطوف بهم قرى المقرن الجنوبي ، يستحث الدروز على الثورة ، ولكن الناس كانوا الى ذلك الحين لم يشعروا بوطأة الاستعمار الفرنسي ، فلم تلق دعوته آذاناً صاغية ، وبلغت الحملة « القرية » ، ونسفت منزل سلطان الخالي من أهله بالمتفجرات ، ثم سارت تتعقب آثار سلطان ، فيلجأ يوم تتكاثر عليه القوى الى بادية شرقي الاردن ، ينزل منها منازل شتى ، في الازرق ، وفي الاراضي الوعرة ، على مقربة من خرائب « أم الجمال » ، لا يبعد كثيراً عن حدود الجبل ، فترسل فرنسا الى بريطانيا حليفها في شرقي الاردن تطلب منها ان تساعد على سلطان الاطرش ، وتقبض عليه ، وتحول دون لجوئه الى أراضي الاردن . وتقوم قوة من الجيش الاردني بمباغته الأماكن التي يرتادها عادة سلطان ، ولكنها في كل مرة كانت تخفق ، لأن بين ضباط الجيش الاردني عرباً كانوا يجدون الوسيلة للإبلاغ سلطان بحركات القوة المسيرة لمطاردته ، قبل وصولها ، ويخبروه باتجاهاتها ، فيروغ عن طريقها ، أو يلجأ الى أراضي جبل الدروز ، ويقوم بغارة مفاجئة على المخافر الفرنسية ، يقتل من رجالها وضباطها ، ويعود الى أراضي الاردن . ومن هؤلاء القتلى الضابط الفرنسي «لاكسان» ، حتى ضاقت فرنسا ذرعاً بشورة سلطان ، على قلة عدد رجاله ، واضطرت لان تبحث مع الامير سليم الاطرش حاكم الجبل وابن عم سلطان أمر العفو عنه وعن جماعته ، لقاء تعهد منه بأن يقيم في الجبل هادئاً ، وأبدت استعدادها للتعويض عما أصاب داره من خراب على يد قواتها . واسفرت وساطة سليم الاطرش عن إعلان العفو عن سلطان في عيد الخامس من شهر نيسان عام ١٩٢٣ ، وهو عيد الاستقلال من اعياد جبل الدروز الرسمية ، اعتاد ان يحضره احياناً المفوض السامي بنفسه .

عاد سلطان الاطرش الى « القرية » بلدته ، بعد فضال استمر بضعة أشهر ، ولم يشأ ان يعيد بناء داره ، فقد اكتفى باصلاح غرفتين فيها لإقامة عائلته ، واقام أمام الدار الخربة مكاناً صيفياً للضيوف سقفه بأغصان الشجر والحصائر ،

كأنه كان ينظر بعين الغيب الى ان الثورة الكبرى ضد فرنسا لا بد منها ، وانها باتت قريبة ، وان ليس من المنطق لثائر مثله ان يبني اليوم داراً لتنسفها فرنسا بعد حين ، من جديد بالمتفجرات .

لم تطل حياة الأمير سليم الاطرش حاكم جبل الدروز ، بعد عودة سلطان الى الجبل ، فقد مات ، بعد حين ، وهو في ذروة رجولته ، وقيل ان الفرنسيين دسوا له السم ليخلصوا من عهد قطعوه على انفسهم في الاتفاقية التي عقدوها مع زعماء الجبل في بيروت ، قبل عدوانهم على سوريا الداخلية واحتلالها .

فرنسا سالت الدروز

- ١٨ -

وجدير بالذكر ان الفرنسيين ، يوم كانوا يخططون في بيروت لاحتلال سوريا الداخلية ، كانوا يحسبون حساباً لمقاومة الشعب في جميع المناطق السورية ، وخاصة في المناطق المسلحة كجبل الدروز والمحافظات الآهلة بالعشائر ، فأوفدوا عملاءهم وجواسيسهم يدعون سراً الى بيروت زعماء جبل الدروز ، وشيوخ العشائر العربية النافذين في قومهم ، فمن وفد منهم اكرموا وفادته ، وملأوا جيبه بالأصفر الزنان ، وطلبوا منه ان يكون الى جانبهم في حال تنفيذ صك الانتداب الذي أقرته عصبة الامم ، وشمل سوريا ولبنان ، ووكل أمر الانتداب على سوريا ولبنان الى فرنسا . ولما كان لا بد لزعماء الجبل من ان يتدارسوا مثل هذا الموضوع فيما بينهم ، على ضوء مصير جبلهم ، فقد اتفقت كلمتهم على ان يطلبوا من فرنسا عقد اتفاقية معهم ، تضمن لجبلهم بعض الحرية في ظل الانتداب الفرنسي ، الى جانب حقهم في ممارسة عاداتهم وتقاليدهم ، وان تبقى لهم حرية اقتناء السلاح وحمله دفاعاً عن انفسهم ضد عدوان جيرانهم سكان حوران الذين

بينهم وبين الدروز عداوة تقليدية ، وضد عدوان عشائر البادية ووعرة اللجاة المجاورة . وان يكون حاكم الجبل منهم ، ينتخبونه حسب عاداتهم وتقاليدهم ، فلبت فرنسا الطلب ، ووقع المفوض السامي مع عدد من زعمائهم اتفاقية اعترف فيها باستقلال جبل الدروز في ظل حاكم من ابنائه ، وان ترعى فرنسا عادات وتقاليد الدروز الى آخر المطالب . ولما غزا الجنرال غورو سوريا الداخلية ، وقوض استقلالها ، وطرد ملكها ، وحل جيشها ، وفرض الانتداب عليها ، غادر الملك فيصل واحرار سوريا دمشق الى فلسطين وشرقي الاردن ، بطريق حوران ، مما أثار نفوس الحورانيين ، فقاموا بمظاهرات مسلحة ضد الغزو الفرنسي ، لم تهدىء من شدتها المنشورات التي القتها الطائرات الفرنسية على حوران ، وما فيها من انذار وتهديد بالحرب والتدمير ، فتقدمت وزارة علاء الدين الدروبي التي ألفها الفرنسيون في دمشق اثر احتلالهم ، بأن يذهب وفد منها الى حوران ناصحاً الأهلىن بالهدوء والسكينة ، فغادر الوفد المؤلف من علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء ، وعبد الرحمن اليوسف ، وعطا الايوبي الوزيرين في الوزارة الدروبية دمشق بقطار خاص الى حوران ، ولما بلغوا محطة « خربة الغزالة » ، وكان خبر وصول اول قطار فرنسي من دمشق سبق القطار ، انهال الأهلون على القطار بالرصاص ، وهاجموه ، وقتلوا علاء الدين الدروبي ، وعبد الرحمن اليوسف ، ونجا عطا الايوبي من القتل ، إذ أنقذه أحد اصدقائه من زعماء حوران ، وجر الشوار جثة الوزيرين في أرض المحطة ، وأخفى الزعيم الحوراني عطا الايوبي في بيته ، وسهل له سبيل العودة الى دمشق ، واضطرت فرنسا ، بعد هذا الحادث ، الى تجريد حملة كبري اخضعت ثورة حوران ، وشعر الحورانيون ، خلال زحفها ، ان أكثر زعماء جبل الدروز موالون لفرنسا ، وانهم غير راضين عن ثورة حوران ، بل قيل ان هؤلاء الزعماء اعدوا جموعاً من المسلحين على حدود حوران ، تحت ستار حماية جبلهم من الحوارة الثائرين ، مما عجل في قمع ثورة حوران ، واتضح ان هناك اتفاقية بين ممثلي جبل الدروز وفرنسا ، عين الامير سليم بموجبها حاكماً على الجبل ، وعين الى جانبه الكابتن « كارييه » كمستشار ومعاون للحاكم .

تراجع فرنسا عن اتفاقيتها

ولما مات الأمير سليم الأطرش شمر الكابتن « كاربيه » لسلب الدروز حق تعيين الحاكم منهم ، بطريق التآمر والدس . وكان الترتيب في تنظيم الزعامة في جبل الدروز ، ان يخلف الأمير حمد الأطرش من دار « عري » نسيبه الأمير الراحل ، وان ينتخب من قبل المجلس الإداري الممثل لمقاطعات الجبل وعائلاته الكبرى حاكماً على الجبل ، لأن دار آل الأطرش في قرية « عري » فيها زعامة آل الأطرش السياسية ، وآل الأطرش فيهم الزعامة على الجبل كله . وقد أطلقوا على سليم الأطرش يوم عين حاكماً لقب أمير ، وسميت دار « عري » دار الامارة ، في حين ليس في آل الأطرش امراء ، والامارة على الدروز في آل ارسلان وخدمهم ، كما هو معروف بينهم .

شمر كاربيه لسلب منصب الحاكم من الدروز ، فاستدعى فوراً بعض كبار آل الأطرش ، وقابل كل واحد منهم على انفراد ، وقال لعبد الغفار الأطرش كبيرهم في السن ، لماذا يكون الأمير حمد الأطرش الشاب الغر حاكماً على الجبل ، ولا تكون انت عميد العائلة الحاكم العاقل الرزين الذي ترغب فرنسا في ان تتعاون معه . ولما تحدث عبد الغفار عن تقاليد الجبل في الزعامة ، وحصرها بدار « عري » قال المستشار ان هذا شيء سخي ، وان الاتفاقية بين زعماء الجبل وفرنسا تنص على ان يكون الحاكم من ابناء الجبل فحسب ، وليس فيها اشارة الى زعامة دار « عري » ، وفرنسا غير مقيدة بتقليد يأتي بيافع غر إلى منصب الحاكم ثم استدعى إلى مقابلته عميد آل عامر زعماء المقرن الشمالي ، وهم في العدد ، وامتداد القرى والارض ، أكثر من آل الأطرش ، وخلا به ، وسأله لماذا لا يكون هو حاكماً على الجبل ، وعائلته أكثر عدداً من آل الأطرش ، وقراها أوسع من قرى آل الأطرش ، وسخر ايضاً من التقاليد الموروثة ، وتعلل بالاتفاقية ، ورغبة فرنسا في ان يكون الحاكم هو ، وانها الفرصة السانحة لأن

تنقل الزعامة لآل عامر ، وهم أكبر عائلة في جبل الدروز . وهكذا بذر « كارييه » بذور الخلاف بين آل الاطرش انفسهم ، وبينهم وبين آل عامر ، وخلق منافسين للأمير حمد على منصب الحاكم ، وظن كل واحد قابله « كارييه » أنه الأثر لدى فرنسا . وبدا اثر هذه المؤامرة في الاجتماع الاول الذي عقد لتسمية خلف للحاكم الراحل ، فقد تبدى اختلاف الرأي في المجلس التمثيلي ، وتشعبت الآراء ، لان لكل واحد انصاره ، فاغتنم « كارييه » الفرصة ، واقترح تأجيل الموضوع بسبب الخلاف في الآراء ، وتعيينه وكيلاً للحاكم حتى تتفق الآراء على الحاكم الجديد ، فظن كل واحد من الطامعين ، بأن التأجيل في صالحه ، وافر التأجيل ، وافر تعيين كارييه وكيلاً للحاكم ، إذ لا بد للجبل من حاكم ، ومن الخير أن يكون الوكيل اجنبياً كحيادي بالنسبة لمنصب الحاكم الذي لا بد ان يملأه واحد من ابناء جبل الدروز تتفق عليه الكلمة . واستغل ، بعدها ، كارييه سلطته كحاكم للجبل ، في اضرار نار الخلاف بين زعماء الجبل ، حتى اصبح المجلس لا يجتمع إلا على خلاف ، تطور حتى بلغ حد تبادل الشتائم ، والمهاترات ، والتهديد بالحرب الاهلية بين الدروز بسبب خلافهم المستعصي على منصب الحاكم . وأوحى كارييه الى من كانوا يخشون تطور الخلاف ان يقترحوا تعيين وكيل الحاكم اصيلاً ، باعتباره الحل الأفضل ، فكان له ما أراد ، وعين بالاكثريه حاكماً اصيلاً ، وانتزع هذا الحق من الدروز ، وأحاط دار عري بجيش من الجواسيس ، ووجه اليها عملاءه ، باعتبارها دار الامير حمد صاحب الحق في المنصب السليب ، واخذ يضطهد أنصاره ، وكل من يزوره في الدار محتجاً على سلب حقه في منصب الحاكم ، حتى لم ينج أحد منهم من الوعيد ، والضغط ، والتهديد ، ثم الاعتقال والسجن ، بل السجن الفظيع في أقبية دار الحكومة التي تستخدم مستودع للفحم الحجري والوقود الذي يستهلك في تدفئة الدوائر الرسمية ، عدا سوق السجناء الى تكسير الحجارة في الشمس المحرقة على الطرق المقرر تعبيدها ، ومجاري المياه المقرر إصلاحها . وقد أذل « كارييه » بظلمه الرؤوس التي وقفت الى جانب الحق ، وأرهب بها سائر أبناء الجبل ، حتى فرض على القرى ان تهب

بإعلامها وطبوعها تفتتظر الساعات الطويلة ، والنهار والنهارين ، في الشمس المحرقة ، وفي المطر والبرد ، لاستقبال ضابط ، أو ضابط صف فرنسي ، فيما إذا كان مكلفاً بالسفر بمهمة إلى إحدى جهات الجبل . وكانت مهمة المستقبليين أن يهزجوا ويهتفوا ويرقصوا في استقبال كل موظف فرنسي مهما كان شأنه . وقد اطمع هذا الوضع كاتباً فرنسياً زار جبل الدروز بأن وصف أبناء معروف الأشاوس رقاصين ، هازئاً بالدولة العثمانية التي كانت تخاف ثوراتهم عليها ، وأكد أن شعباً هذه حاله ، هو أبعد الشعوب عن الثورة ، وأسلسها قياداً للحاكم القوي !

وكانت فرنسا ، منذ احتلال جيوشها سوريا ، خططت برامجها الاستعمارية حسب يقظة السكان ووعيهم في المناطق السورية ، فوجدت أن تنفيذ برامج شبيهة باستعمار الجزائر ، يمكن تحقيقها في منطقتي جبل الدروز ، واللاذقية التي تسكنها أكثرية من الفلاحين العلويين المتخلفين في العلم والثقافة ، فأنشأوا في جبل الدروز بعض المدارس الابتدائية الرسمية ، جاءوا لها بمعلمين من لبنان نصارى مارونيين ، وحملوا القرى على إنشاء المدارس الابتدائية الأخرى ينفق عليها السكان أنفسهم ، وعهدوا إلى اليسوعيين بإدارتها ، هذا بالإضافة إلى مدارس مماثلة أحدثت في حوران ومنطقة العلويين . وكان خريجو هذه المدارس يمنعون من اتمام دراستهم في المدارس السورية . وكان التلاميذ يتعلمون ، على أيدي الآباء اليسوعيين الديانة المسيحية وجغرافية فرنسا بالفرنسية . وكان في كتب التاريخ التي تدرس تشويه للتاريخ العربي ، وكذب ، ومزاعم أن أصل الشقر من سكان جبل الدروز وجبال اللاذقية غاليون و صليبيون ، كقولهم في تلك الكتب : « كان أجدادنا الغاليون شقر الشوارب ! » ومثل هذه الكتب كانت تدرس في الجزائر وسائر بلاد المغرب العربي ، وتوحي للنشء العربي أن أجدادهم من الغاليين الذين هم في نفس الوقت أجداد الفرنسيين . ولم ينشئ الفرنسيون في منطقتي جبل الدروز والعلويين مدارس ثانوية كاملة ، بل إن أعلى مدرسة أحدثوها كانت دون الأعدادية صفوفاً يتخرج منها طلاب فقدوا الإيمان بدينتهم وقوميتهم ، ناقصو الثقافة ، نصف جهلة ، لا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم وأمتهم العربية ،

يهزءون بأبجادهما ، ويكبرون كل ما هو فرنسي ، وكل ما تقوم به فرنسا . وكان هم فرنسا في هذه المناطق أن تخرج جيلاً متفرنجاً جاهلاً تستخدمه في أهدافها الاستعمارية التي ترمي إلى تنصير وفرنجة السكان أسوة بما صنعته في الجزائر . وهذا لا يعني أن الحكم الفرنسي في الدولة السورية التي انبثقت في مطلع عام ١٩٢٥ من ادماج دولتي حلب ودمشق كان أخف وطأة أو يرمي إلى هدف آخر ، فقد كان نمطاً آخر ، لأن الشعب في المدن السورية الداخلية كان على جانب من الثقافة والعلم ، وفي دمشق جامعة سورية تخرج الأطباء والصيادلة والمحامين والقضاة ، لذلك كان لا بد لفرنسا من أن تجرب نمطاً آخر من البرامج في الحكم ، اذ وضعت برنامج لفرنجة النشء على مدى أطول ، . انها لم تستطع إلغاء المدارس القائمة ، ولكنها أخضعتها لبرامجها وسلطانها ، ونسفت في البرامج كل ما هو عربي وإسلامي كالتاريخ والاجتماع ، وأحلت محله تاريخ فرنسا ولغتها وأدبها وجغرافيتها حتى يتخرج الشاب متفرنجاً يجهل تاريخ أمته وأبجادهما ، وآدابها وثقافتها . حتى القضاء كانت فرنسا تتدخل بشؤونهم ، مع ان جميع دساتير العالم صانته من التدخل . وأذكر بهذه المناسبة أن القومندان « ترانكا » رئيس المصالح الخاصة في دير الزور مركز متصرفية الفرات ، عز عليه أن يصدر حكم بالسجن من محكمة الجنايات على عميل من عملاء فرنسا سجين ، ثم يصبح الحكم مبرماً ، فاستدعى النائب العام إلى مكتبه ، وأمره بإطلاق سراح المحكوم عليه بالسجن سنوات ، فاعتذر النائب العام باستحالة تنفيذ أمره لأنه مخالف للقانون ، وإن كان لا بد له من اخلاء سبيل السجين ، فليسمع لدى المفوض السامي والحكومة باستصدار عفو خاص عنه ، ولكن المستشار أصر على إطلاق سراح السجين ، وأمهله يوماً واحداً ريثما يتخذ الأسباب لإخلاء سبيله . وفي اليوم الثاني عاد اليه النائب العام يحمل بيده قانون العقوبات مجلداً ، وأطلع المستشار الفرنسي على المادة التي تنطبق على جرم المحكوم عليه ، والتي حكم بموجبها بالسجن سنوات ، ليثبت له أن الحكم كان قانونياً على السجين ، فأمسك المستشار بالكتاب ، ومزق بيده الورقة التي فيها المادة القانونية ، وقال له : « أعتبر الآن هذه المادة غير

موجودة في قانون العقوبات ، وأطلق سراح السجين فوراً . ولما لم يقنع النائب العام ، أرسل المستشار عدداً من الجند الفرنسي على رأسهم ضابط أطلق سراح السجين بالقوة ، وحراس السجن المدني من رجال الدرك يشاهدون ذلك بأعينهم دون ان يستطيعوا منعهم .

وحادث آخر على غرار هجره جرى في بلدة الرقة مركز القضاء ، إذ كان في هذا القضاء الواسع محكمة بداية . وكان الاستاذ عادل حتاحت من شباب دمشق يتولى وظيفة قاضي التحقيق « المستنطق » في هذه المحكمة . ووقعت جريمة قتل في « تل أبيض » ، وهي ناحية تابعة لقضاء الرقة ، أسفر التحقيق فيها عن توجيه التهمة الى تركي لاجيء في بلدة « تل أبيض » يستخدمه الفرنسيون في أغراضهم ضد تركيا ، فيما إذا ساءت علاقاتهم بجاراتهم . ونقل التركي الى سجن الرقة ، بعد ان أصدر قاضي التحقيق مذكرة بتوقيفه . وجاء ترجمان رئيس المصالح الخاصة في الرقة ، إلى قاضي التحقيق يطالبه بإسم المستشار إخلاء سبيل المتهم باعتباره صديق فرانسوا ، فاعتذر القاضي بأن ليس في القانون مادة تستثني أصدقاء فرنسا من أحكامه ، وذهب الترجمان وعاد ، والمستشار يصر على إطلاق سراح المتهم ، والقاضي يرى أن القرائن في الجريمة توجب اتمام التحقيق مع المتهم موقوفاً . وأخيراً نفذ صبر المستشار ، فجاء بنفسه الى دار الحكومة ، وفيها السجن المدني ، ووراءه عدد من جنده الحرس السيار مسلحين ، وأخذ مفتاح السجن من يد السجنان ، وأخرج السجين ، وقاده بيده إلى غرفة المستنطق ، وقال له : « لقد أخليت سبيل صديقي ، كما ترى ، فإن كنت رجلاً حقاً أعده إلى السجن ! » فرد عليه الاستاذ حتاحت : « لو كان بيدي رشاش لما استطعت أن تخلي سبيل مجرم ، وتخرق القانون ! » .

غرامة على السويداء من أجل هرة !

استمر كاريبه في ارتكاب المظالم وتفريق كلمة زعماء الدروز ، وزاد من ألم

أحرار الجبل أن هذا الضابط الفرنسي كان مأفوناً يتناقل الناس من حوادثه ما يندى له الجبين . وبلغ الأمر في عهده أن الملازم الفرنسي « موره ل » أضع هرة كان يكتنئها في بيته ، ووجه منادياً في السويداء يطلب ردها ، ولما يئس فرض « كاربيه » حاكم الجبل على أهل السويداء عشر ليرات ذهبية غرامة ، لأنهم لم يردوا للضابط الفرنسي هرته . وهكذا شعر الدروز بوطأة الاستعمار ، شعور أخوانهم سكان المناطق الأخرى ، وادركوا أن نصوص الاتفاقية المعقودة بينهم وبين فرنسا أصبحت حبراً على قصاصة ورق ، لأنها أبرمت بين فريقين غير متكافئين ، قوي وضعيف ، وفطنوا لقول « مندا » : « لا قيمة في السياسة للاعترافات ، ولا للمعاهدات ، فكل من القوة والمصلحة تعقد المعاهدات ، وكل من القوة والمصلحة تنقضها » ، واخذ زعمائهم ، في تردهم على مدينة دمشق يتصلون بالوطنيين فيها ، ويحدثونهم بما يجري في جبلهم من المظالم ، وبالاستياء الشديد الذي يعم الجبل ، ويسود الشعب . وهكذا جمعت المصائب بين أخوان كانوا قبل أربع سنوات ، لا يتقابلون ، ولا يتناجون حول وضع وطنهم . كان كل منهم يعمل في سبيل . فريق يحسن الظن بفرنسا المستعمرة ، ويحسب أنه سيرتفع في ظل استعمارها بالعيش الرغيد ، وإذا به يدرك أخيراً أن الاستعمار لا يسلم أحد من شروره ، وأنه جاء ليسلب الجميع لقماتهم ، ويتحكم بمقدراتهم ، ويعبث بمصائرهم ، وفريق كان يعرف ذلك من قبل ، ويدعو إلى مقاومة الاستعمار وخططه .

كانت البلاد السورية إلى ذلك الحين رأت عدداً من المفوضين السامين . كانت جربت في مطلع عهد الاستقلال حكم الجنرال « غورو » الذي اعتبر احتلال سوريا استثنافاً للغزو الصليبي ، بعد أن قضت عليه في الشرق انتصارات البطل صلاح الدين الأيوبي . ثم خلفه الجنرال « فيغان » . وفي عهده ، وعلى وجه التحديد ، في أواخر عام ١٩٢٤ ، ألغى الاتحاد بين دول دمشق ، وحلب والعلويين ، وحل مجلس الاتحاد الذي كان يجتمع في دمشق ، وجرى إدماج دولتي

دمشق وحلب تحت اسم الدولة السورية ، الى جانب دولة لبنان الكبير ،
وحكومتى جبل الدروز ، والعلايين ، ولواء الاسكندرونة المستقل . وكانت
البلاد تتلهم الى وحدتها واستقلالها ، وتطالب ، في كل مناسبة ، بهما ، ويقاطع
الوطنيون ، ومن وراءهم الشعب ، الخطط التي تضعها فرنسا الدولة المنتدبة ،
وتعتبر الانتداب نفسه غير مشروع ، لانه فرض فرضاً على الشعب .

وكان هذا الشعب استفتي عام ١٩١٩ في مصيره من قبل لجنة « كراين »
الدولية ، فأبدت اكثرية الساحقة رغبتها في الاستقلال التام الناجز ، وقالت
ان كان لا بد من دولة تسدد خطوات الشعب السوري في بدء ممارسته استقلاله ،
فلتكن الولايات المتحدة الامريكية ، أو بريطانية إذا رفضت الاولى ، على ان
تكون مساعدتها فنية بحجة لا تمس جوهر الاستقلال . لقد تضمن تقرير لجنة
كراين الامريكية المطالبة بتحقيق رغائب السكان ، على اعتبار الشام قطراً
واحداً مستقلاً تماماً ، تساعد دولة اجنبية - سميت امريكا ، وإلا فانكلترا -
مساعدة مالية وفنية ، وان تكون دولة ملكية دستورية ديمقراطية لا مركزية ،
على رأسها فيصل بن الحسين ملك الشام ، وعلى ان يكون للبنان ادارة لا مركزية
واسعة (استقلال داخلي) ، وعلى ان تحدد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ويقطع
عن فكرة تهويدها ، وعن إقامة حكومة يهودية فيها .

كانت خيبة الشعب العربي في سوريا بالعدل الدولي شديدة ، يوم رأى
جيوش فرنسا تحتل بلاده ، وتقوض دعائم استقلاله ، وتجزئ اراضيه الى دويلات
تحكم بعضها فرنسا ، وتحكم بعضها بريطانيا باسم الانتداب ، وباسم عصبة الأمم ،
لذلك لم يبق له من طريق غير الثورات المسلحة ، والمقاومة السلبية يوم يفتقد
السلاح . ولما كانت الثورات التي نشبت كلها محلية ، تخمد في منطقة لتشتعل في
أخرى ، حيث توجه فرنسا اليها جيوشها لتخمدتها وتقضي عليها ، أصبح الشعب
يتشوق الى ثورة كبرى شاملة تنهك فرنسا ، وترغمها على الاعتراف باستقلاله ،
والجلاء عن اراضيه . وزاد في ايمان الشعب يحدوى هذه الثورة ، ما عرفه عن

ثورة الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف في المغرب الاقصى ، وكيف طردت قواته الثائرة الجيش الاسباني ، وألزمته الثغور يحميها بأساطيله الحربية وحصونه وقلاعته ، حتى كادت اسبانيا تسلم باستقلال الريف ، وترحل عن المنطقة التي احتلتها ، لولا ان بادرت فرنسا الى مساعدتها ، خشية ان يؤثر انتصار الثورة في الريف على استعمارها في المغرب ، فصمدت الثورة للدولتين المستعمرتين ، وانزلت بجيوشها الخسائر الفادحة في بادىء الامر ، حتى اضطرت فرنسا لان تنقل قوات أخرى من وراء البحار ، وخاصة من سوريا ، للقضاء على ثورة المغرب ، ولم يبق من جيشها في سوريا ولبنان أكثر من عشرين ألف جندي ، أكثرهم من المتطوعة المحليين ، أسمت كتائبهم في سوريا : « الجوقة السورية » ، وفي لبنان : « القناصة اللبنانية » ، الى جانب الحرس السيار بقيادة ضباط الاستخبارات ، او ضباط المصالح الخاصة ، وعددهم نحو ستين ضابطاً . وكان الواعون من الوطنيين ، وخاصة الشبان الثوريون ، يتتبعون وقائع ثورة الريف ، ويتلهفون للفرصة السانحة ، وهي انشغال فرنسا بثورة عربية ، قد تمكن ثورة عربية أخرى تنشب في سوريا من النجاح وبلوغ اهدافها . ورأت فرنسا ان تبديل المفوض السامي « فيغان » ، بالجنرال « ساراي » الذي سبقت اخباره وصوله ، بأنه عسكري يساري ، سيعمد الى تبديل جوهرى في أسلوب الحكم في سوريا ، فتنادى الوطنيون السوريون قبيل وصوله الى عقد مؤتمر لهم في بيروت اتخذوا فيه عدة مقررات ، في رأسها المطالبة بوحدة البلاد واستقلالها ، وجملا هذه المطالب الى الجنرال « ساراي » أثر وصوله مباشرة ، فاتهمهم بأنهم متطرفون لا يمثلون الشعب ، وان دعواهم تمثيلة باطلة ، فردوا عليه بان الاستفتاء والانتخابات الحرة والاعتراف بقيام الاحزاب هي الوسيلة لكسب صفة تمثيل الشعب ، وفرنسا منذ احتلالها الى اليوم لم تمكن الشعب السوري من ان يستفتى في مصيره .

السماح بتأليف الأحزاب في سوريا

انتهت المقابلة بأن قبل المفوض السامي الجديد بأن يتقدم اليه الوطنيون بطلب تأليف حزب سياسي ، ولما تقدموا سمح لهم بتأليف حزب واحد سموه « حزب الشعب » ، الى جانب حزب حكومي يضم عملاء فرنسا سمي « حزب الأمة » ، أفسح قيامهما المجال لحركة سياسية تعارفت بسببها القوى الوطنية ، وتكتلت ، واصبح لحزب الشعب فروع في جميع المدن السورية . وكان زعماء الدروز في غدوهم الى دمشق ورواحهم يتصلون بالوطنيين من أعضاء هذا الحزب الجديد ، ويطلعونهم على تطور الأحداث في جبلهم ، ومنها سفر الكابتن « كارييه » الحاكم الفرنسي ، في أول صيف عام ١٩٢٥ ، بإجازة ثلاثة اشهر الى فرنسا ، وتسلم الكابتن « رينو » منصب الحاكم في الجبل بالوكالة ، وهو أحد ضباط المصالح الخاصة في سوريا ، وكيف استمع الوكيل الى شكوى الوفود من انحاء الجبل ، واطلع على الظلم الذي أنزله كارييه حاكم الجبل بضمحاياه ، وانهم لم يستطيعوا ، خلال وجود الحاكم على رأس عمله ، أن يوصلوا أي شكوى الى المراجع الفرنسية العليا ، خشية بطشه بمن يتقدم اليها بالشكوى ، وانه الآن ، وهو وكيل الحاكم ، يأملون منه ان ينقل للمسؤولين شكواهم ، وكل ما يرجونه من فرنسا ان تنقذهم من ذلك الحاكم الظالم ، وان تعين مكانه حاكماً فرنسياً يطمثون الى عدله ، فهم قد تخلوا عن حقهم في ان يكون الحاكم من أبناء الجبل ، ولكنهم يريدون ألا يضطهدهم الحاكم الفرنسي ، وألا يذل أعزاءهم ، ويذيقهم الهوان ، وان الوكيل استمع الى شكواهم ، وانها حق ، وان فرنسا لا تريد ان يرتكب عمالها هذه المظالم ، وان المراجع الفرنسية العليا لو عرفت ذلك لبدلت « كارييه » بغيره ، وانصفتهم ، وما عليهم إلا ان يتقدموا اليه بهذه الشكاوي عرائض مكتوبة حتى يرفعها الى رؤسائه ليطلعوا عليها ، وان الوفود التي جاءت مهنته الحاكم بالوكالة بوضوله ، عادت الى مناطقها ، وقدمت الشكاوي معددة

بالأرقام والاسماء والتواريخ المظالم التي اقترفها الكابتن كارييه ومعاونوه في جبل الدروز ضد الأهلىن؁ وانهم ينتظرون لهذه الشكاوى صدى لدى كبار الفرنسيين المسؤولين؁ وانهم عازمون على ان يقوموا بمظاهرات؁ بعد الشكاوى؁ فيما إذا أصم المسؤولون آذانهم عن سماعها؁ فكان الوطنيون في دمشق يشجعونهم على الاستمرار بالشكاوى؁ والاستعداد للمقاومة؁ فيما إذا ركبت فرنسا رأسها؁ وأبت ان تبدل سياستها في الجبل؁ وان سائر المناطق السورية تتضامن مع جبل الدروز؁ فيما اذا تعرض لعدوان فرنسي؁ فالشعب السوري كله ناظم يريد ان يتخلص من ذل الاحتلال والتجزئة والطغيان والفظائع التي ترتكب باسم صك الانتداب وعصبة الأمم؁ وجبل الدروز هو الجبل العربي الأبي الذي تعددت ثوراته على الدولة العثمانية في إبان قوتها وسلطانها .

الفصل الرابع

ريح الثورة تمب

- ١٩ -

كان لهذه الاحاديث تأثيرها على زعماء الجبل ، وخاصة منهم الوطنيين الذين لم تتلوث أيديهم بقبض الأموال والتواطؤ مع فرنسا على توطيد دعائم استعمارها في سوريا، في مطلع عهد الاحتلال، فكثرت مراجعاتهم للكابتن «رينو» وكيل الحاكم ، ينتظرون من رؤسائه الانصاف ، فكان هو بدوره يشجعهم على الشكوى ، وتكرارها بالمضابط والوفود ، وينقلها لرؤسائه ، ويشير في كتبه الرسمية إلى الاستياء الشديد الذي يحتاج الجبل ، وإلى روح التدمير التي تعم الجميع ، وأن من مصلحة فرنسا ان تستمع إلى هذه الشكاوى ، وأن تعتمد إلى نقل الحاكم المجاز ، وتعيين حاكم فرنسي مكانه معروف بالاتزان . وربما كان «رينو» نفسه يطمح ، وهو الوكيل ، إلى ان يخلف «كاربيه» في هذا المنصب الخطير ، فقد سلمته الأقدار أن يشغله بالوكالة ، وأصبح بخبرته أحق من غيره في تسلمه أصالة ، لا سيما وهو ضابط استخبارات برتبة نقيب «كابتن» يتساوى مع

« كارييه » في الرتبة والمهمة ، وجميع من زاره من وفود زعماء الجبل ابدوا سرورهم من وجوده في وكالة الحاكم ، ومن اتزانه ؛ وعدله ؛ واعلنوا انهم سيكونون اشد سروراً يوم يعين اصيلاً في جبلهم .

لقد كان الحكم في سوريا عسكري الصبغة ، فالمفوضون السامون الذين تبادلوا السلطان على سوريا ولبنان عسكريون كلهم برتبة جنرال ، ورؤساء الدوائر في المفوضية الفرنسية العليا اكثرهم كانوا من العسكريين ، وضباط المصالح الخاصة او الاستخبارات الذين تتمثل فيهم سلطة المفوض السامي كلهم من الضباط ، حتى المندوب ، ومعاونو المندوب والحكام في المناطق السورية كدمشق وحلب وحمص والاسكندرونة ودير الزور واللاذقية والسويداء كانوا من العسكريين . وكانت المصلحة المشتركة تربط بين هؤلاء ، وتجعلهم كحزب عسكري له في فرنسا انصاره ومؤيدوه ، كيف لا وقد تقادم عهد الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي ، وافريقيا . والشرق الأقصى ، وأصبح رتيباً بالنسبة للمستعمرين انفسهم . اما في سوريا ، وهي فتح جديد بالنسبة للاستعمار الفرنسي فقد احتلت حديثاً ، وكانت من أغنى المقاطعات في الدولة العثمانية ، تكس فيها من الذهب والثروات خلال سني الحرب العالمية الاولى ، ما يسيل له لعاب الطامعين ، وأشرنا في هذه المذكرات الى أن الذهب الذي كان العملة المتداولة في الدولة العثمانية ، وماسك منه حديثاً في سنوات الحرب ، ارسل معظمه ، ان لم قل كله ، الى البلاد العربية ، وخاصة منها بلاد الشام ، لشراء الحبوب ومواد لتموين للجيش العثماني ولحليفه الجيش الالماني والجيش النمساوي ، فقد كانت المانيا النمسة (اوستريا وبلاد المجر) تعانيان في السنوات الاخيرة من الحرب أشد حاجة بلغت حد مزج نشارة الخشب بالدقيق ، وأكل لحوم فأر الحقل وكل يدب على الارض من حيوان يستسيغه جسم الانسان ، وان كان أكله غير مأف من قبل ، فلا جرم ان انتقل رصيد الدولة العثمانية من الذهب ولفض الى البلاد العربية التي نشبت فيها الثورة ، وفيها اخطر

جبهتين للحلفاء ، وشعبها يأبى التداول بالعملة الورقية ، ويعتبرها غير مضمونة ، وهو يرى الدولة صاحبة النقد في حرب طاحنة خفت فيها موازين النصر بالنسبة لها ولحلفائها . لذلك كانت سوريا ولبنان مرتعاً خصباً للفرنسيين المستعمرين ، ينهبون ثرواتها بشتى الأساليب والرشوة ، حتى أصبح من المتفق عليه ، في أسواق فرنسا ، ان يتنبأ التاجر ، عندما يرى سيدة فرنسية تشتري من محلته دون حساب ؛ بان زوجها موظف في سوريا ولبنان . ولذلك اصطدمت شكاوى الدروز ضد الحاكم « كارييه » المجاز بعناد الحزب العسكري المسيطر على مقدرات سورية ، ولا سيما اذا ما عرفنا ان كارييه ، بعد ان أصبح الحاكم المطلق السيد في جبل الدروز ، المسيطر على موازنة حكومة الجبل و ثروات اهله ، كان لا يألو جهداً في ارسال الهدايا الثمينة الى رؤسائه في بيروت ، الى أصحاب الكلمة النافذة حول المفوض السامي ، يغدق عليهم السيوف العربية ، والتحف الاثرية ، والنماذج من صناعات الجبل اليدوية ، والخيول العربية الاصيلة وغيرها ، حتى ضمن لنفسه التأييد المطلق في انتهج من سياسة القهر والبطش في الجبل . ولما انقضى اكثر من شهر على الشكوى العديدة دون جدوى ، خاف زعماء الجبل ان تنقضي اجازة الحاكم الحائر ، وان يعود الى ظلمهم وقهرهم والانتقام منهم ، فتداولوا الامر مع « رينو » الحاكم الوكيل ، واتفقت الكلمة على انتخاب وفد يمثل جبل الدروز ، يسلم الى بيروت ، ويقابل الجنرال « ساراي » المفوض السامي ، ويطلعه على ظلال سكان الجبل ، خشية ان يكون رؤساء دوائره في المفوضية العليا يحجبون عنه شكاواهم العديدة . وهكذا اراد وكيل الحاكم ازاء تصامم رؤسائه عن سماع شكاوى الدروز أن يضعهم امام الامر الواقع ، فارسل ينبتهم بتأليف الوفد الدري وسفره الى بيروت ، ويرجو ان يحظى بمقابلة المفوض السامي لخطورة الاوضاع في الجبل ، وخشية ان ينقلب الاستياء الى ثورة على فرنسة ، فيما إذا عاد « كارييه » حاكماً على الجبل ، لاسيما والجبل مسلح ، وسكانه عرفوا بتعدد ثورتهم على الدولة العثمانية .

رغم كل هذا استطاع الحزب العسكري المسيطر في سورية ان يقنع المفوض السامي برفض مقابلة وفد الدروز ، وزينوا له ان مقابلته ستعتبر لدى الدروز الجهلاء ضعفاً من فرنسا التي يجب ألا تفكر قط بتبديل حاكم الجبل ، لأن تبديله في هذا الجو العاصف من الاستياء يسيء الى هيبة فرنسا ، ويهدم كل ما بناه ممثلها كارييه في جبل الدروز ، وما بلغه من سيطرة فرنسا على هذا الشعب المتخلف الخشن . وابلغ الوفد الدرزي في بيروت ان المفوض السامي تمنعه مشاغله عن مقابلة الوفد ، فعاد اعضاؤه ، وهم نخبة زعماء الجبل ، والحنق يمسلاً نفوسهم . ولما بلغوا قرية المزرعة حيث احتشدت الجموع من جميع انحاء الجبل لاستقبالهم ، نزعوا عمامتهم ، وألقوا بها في الأرض ، وعلنوا للألوف المؤلفة انه لم يبق كرامة لجبل الدروز ، ولطائفة الدروز ، بعد ان طرد زعماءها من بيروت ، وضمن عليهم المفوض السامي بساعة من وقته يحدثونه عن ظلامة بني قومهم . وهاج المستقبلون وماجوا لهذا النبأ ، وزاد في هياجهم ألقاء العمامة الى الأرض ، والخطب النارية التي ألقى ، وكلها تدعوا الى الثورة على الظلم والاهانة التي لحقت بالجبل الاشم . وسطر رجال الخابرات الفرنسية ما جرى وما قيل في المزرعة ، وارسل « الكابتن رينو » وكيل الحاكم به تقارير مكتوبة ، وبرقيات مستعجلة يحذر رؤسائه . وتتالت الاحداث ، فقد وصل في أحد الايام التالية سلطان الاطرش مع عدد من فرسان الدروز ، يناهزون المئة ، الى السويداء ، وتظاهروا بالسلاح امام دار الحكومة ، ومكتب وكيل الحاكم ، وهددوا بالثورة ، فيما اذا عاد الكابتن « كارييه » المأفون حاكماً على جبلهم . ونقل الحاكم الوكيل أنباء هذه المظاهرة المسلحة الى رؤسائه ايضاً ، واندروهم بشر مستطير ، ولكن الحزب العسكري في بيروت أقنع المفوض السامي بان « الكابتن رينو » وكيل الحاكم متواطئ مع زعماء الدروز ، وطامع في ان يحل محل « كارييه » ، والا لمنع الشكاوى من اولها ، ولمنع التجمعات في المزرعة ، ومنع القاء الخطب التي أثارت الجماهير ، ولمنع بالقوة ايضاً سلطان الاطرش من أن يدوس بمئة من فرسانه حمى فرنسا في السويداء ، ويتظاهروا بالسلاح في اكبر ساحة فيها امام مكتب حاكم

الجبل ، ومكاتب الموظفين ، وعيون الضباط والجنود في حامية السويداء
وامام اعين سكان السويداء جميعاً.

وحمل الحزب العسكري المفوض السامي على ان يتخذ تدابير زاجرة لمنع
الاضطراب في جبل الدروز ، فلم ينقض يومان على مظاهره سلطان الاطرش
المسلحة ، حتى عززت حامية السويداء في القلعة المطلة على البلدة ، بقوة جديدة
وصلت الى السويداء ، ووصل معها القوماندان « تومي مارتان » رئيس مصلحة
الاستخبارات في دولتي سورية وجبل الدروز ، يحمل امراً بان يتسلم هو نفسه
الحاكم بالوكالة ، ويعود « الكابتين رينو » الى وظيفته في دوائر الاستخبارات
السورية ، فادرك زعماء الجبل ان الفرنسيين عزموا على استخدام القوة في اخضاع
روح المقاومة ، ولبنوا يترقبون ما سيقوم به وكيل الحاكم الجديد الذي لم يبادر
احد منهم للسلام عليه ، والترحيب بمقدمه ، كما جرت العادة ، بل الترحيب
باصغر منه من الموظفين الفرنسيين الجدد عند وصولهم الى جبل الدروز . وبعد
وصول القومندان « مارتان » وردت الى الجبل انباء تشير الى ان الكابتين
« كارنيه » قطع اجازته في فرنسة ، وهو عائد بعد بضعة ايام ليتسلم منصبه
بالذات ، فقامت مظاهرات في السويداء ، بمناسبة عيد الاضحى ، اعقبها كتاب
وجهه وكيل الحاكم الجديد الى كل من زعماء الجبل الذين اشتركوا في الوفد الى
بيروت ، ينبئهم فيه ان الجنرال « ساراي » المفوض السامي وصل الى دمشق ،
وانه حدد موعداً لمقابلتهم في دار المفوض السامي في الجسر الابيض ، فعليهم ان
يجمعوا في السويداء للسفر غداً الى دمشق ، ومقابلة الجنرال « ساراي » في
الموعد المحدد لهم . وقد بادر زعماء الجبل في السفر الى السويداء ، الا سلطان
الاطرش ، فقد انتقل من بلدته « القرية » - تصغير قرية - الى قرية « رساس »
حيث اجتمع بابن عمه متعب الاطرش الزعيم السياسي في تنظيمات الجبل التقليدية ،
وتبادل معه الرأي حول السفر الى دمشق ، وابدى خشيته من ان تكون الدعوة
خدعة لاعتقال الزعماء ، وفرض حكم الارهاب بعدها في الجبل ، واتفق الاثنان

على ان يلبي متعب الاطرش الدعوة مع باقي المدعويين ، ويتخلف عنها سلطان الاطرش الزعيم الحربي في التنظيم التقليدي ، معتذراً ، بوعكة طارئة ألمت به ، عن السفر مع الوفد . وفي اليوم الثاني وصلت انباء الى الجبل من دمشق تشير إلى اعتقال اعضاء الوفد كلهم ، وابعادهم إلى الميادين في لواء دير الزور ، بينهم الامير حمد الاطرش ، وعبد الغفار الاطرش ، ونسيب الاطرش ، ومتعب الاطرش ، وحسين الاطرش ، وصياح الاطرش ، وحسني صخر قائد الدرك ، وعقلة القطامي من مسيحيي الجبل وغيرهم من الزعماء . وكان من نوادر الثورة المسلحة ان أسقط المسلحون الدروز برصاص بنادقهم طائرة فرنسية في اليوم الثامن من شهر تموز عام ١٩٢٥ في قرية « متان » واعتقلوا طيارها .

مطاردة سلطان الاطرش

كان الفرنسيون يعرفون ان اخطر زعيم على استعمارهم في جبل الدروز هو سلطان الاطرش الذي افلت من قبضتهم ، وسبق له ان ثار عليهم في حادث ادهم خنجر ، لذلك جردوا حملة بقيادة « الكابتين نورمان » ، مؤلفة من ١٦٧ جندياً وضابط صف ، وسبعة ضباط ، منهم ١١١ من الجوقة السورية ، والاصح من الفيلق الثاني في الفرقة السورية بقيادة الليوثنان « هيلم غيزون » ، و ٥٤ فارساً صباحياً (سباهيس) من فيلق الصباحيين المراكشيين الثاني بقيادة « الكابتين ماي » يساعده « الليوثنان كاريار » ، ورافق الحملة « الكابتين فورنيه » الضابط الركن ، والطبيب دي فيربيزيه ، وجوزيف الصايغ الضابط السوري المترجم من الدرجة الثانية ، وضابط وثمانية جنود من الفرسان الدروز ، فانطلقت الحملة يوم ٢٠ تموز عام ١٩٢٥ من السويداء إلى قرية « الكفر » ، في طريقها إلى « القرية » بلدة سلطان الاطرش ، تحمل معها الامر بالقضاء على سلطان ، بعد التقاط اخباره من شبكات الجاسوسية في المنطقة . وحلت الحملة في كرمة للعنب ، تقع على مرتفع بجانب القرية ، حصنته ، واقامت مضاربيها فيه . واقبل الاولاد

من القرية يبيعون الجنود العنب والبيض والدخان وغيرها مما في خوانيت القرية ، فكان الكابتين « نورمان » يتحدث اليهم عن سلطان الاطرش ، ويسألهم عن مقره اليوم ، وانه سيفرغ قريباً كل رصاصات مسدسه في رأس هذا المتمرّد على فرنسة !

أما سلطان الاطرش ، فقد بلغت مسامعه انباء اعتقال الزعماء في دمشق ، فأخذ يتهيأ للمقاومة ، بان أبعد عائلته ، أي النساء والأطفال عن بلده ، وخرج بعدد من المسلحين فيهم الفارس والراجل ، وبينهم اخواه مصطفى وعلي ، وتوجه فوراً الى قرى المقرن الجنوبي يثير حماسة الجماهير ، ويدعوها الى الثورة ، ويشجب اعتقال زعماء الجبل ، ويدعو للثأر من معتقليهم ، وللوقوف في وجه الحملة الفرنسية الزاحفة الى القرية لمطاردته ، فكان ينضم اليه شجعان المحاربين من كل قرية ، ويتخلف المترددون وهم كثرة . وما انقضت ايام قليلة على نشاطه حتى تجمع حوله مئات من الفرسان والمشاة ، قر رأيهم على ان يتوجهوا نحو الحملة التي عسكرت في « الكفر » ، ويشتبكوا معها ، ولكن سلطان الاطرش ، وهو المسؤول عن ارواح اخوانه ، وافق على ان يدنو بجماعته من الحملة ، لعلها تعلم بخبره ، فتخرج من حصنها في الكفر ، وتمشي لمطاردته ، وعندئذ ينازلها في المكان الذي يختاره ، دون ان يحسب حساباً لتفوقها على جماعته بالسلاح .

يقول الفرنسيون في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ان المجتمعين حول سلطان الاطرش بلغوا مئتي فارس وخمسمئة راجل ، ولذلك توقف الكابتين « نورمان » عن الزحف على « القرية » بلدة سلطان ، وتحصن في كروم العنب ، وجدرانها ، لعلها تمنعه من هجوم مفاجيء .

اندلاع الثورة ومعركة الكفر

- ٢٠ -

على أن مصادر الدروز تشير الى ان عدد الرجال مع سلطان الاطرش لا يتجاوز اكثر من مئتي وخمسين مقاتلاً بين خيالة ومشاة ، قاموا يوم ٢٠ تموز بالدنو من حملة « نورمان » ونزلوا مساء على ماء « عري » القريبة ينابيعها من قرية « عري » مقر الامارة في الجبل ، وهياؤوا طعامهم وعلف خيلهم على الماء ، وباتوا يتداولون في الخطة التي يجب اتباعها للقضاء على الحملة الفرنسية ، فكان رأي الاكثرية الزحف ، ومهاجمة الحملة في مواقعها دون انتظار ، ولكن سلطان الاطرش كان حريصاً على ان تبقى حماسة إخوانه شديدة ، شريطة الا يجر الى معركة لا يكتب له فيها النصر ، فأى هزيمة تلحق بالدروز في المعركة الاولى تكون عواقبها وخيمة على جبل الدروز كله ، بل على سوريا التي يعرف أن احرارها يترقبون انباء الثورة التي ظهرت بوادرها في جبل الدروز ، وعلى نتائج المعركة الاولى يتوقف اندفاع الدروز جميعاً في تأييد الثورة التي عزم على ان يخوض غمارها ، ويكون رمزها وقائدها . وقد اصبح القوم على ماء « عري » ، ولما يستقر لهم رأي على خطة ، فالحملة لم تترشح من مواقعها لمطاردتهم على الرغم من قربهم منها ، ووصول أخبارهم لقائدها . ولما توسطت الشمس كبد السماء من آخر يوم في سنة ١٣٤٤ هجرية ، وفق ٢١ تموز عام ١٩٢٥ ، ولم توافقهم الحملة المكلفة بمطاردتهم ، هبوا يهزجون بحماسة ، حتى بلغ حداؤهم عنان السماء ، واندفعوا في الطريق الى الكفر ، وسلطان يخب بجواده بينهم ، يريد ان يثنى عن فكرة الهجوم على الحملة المتحصنة في موقعها المرتفع من الكرمة ، خشية ان تحصدهم بنيرانها الكثيرة ، على وضح النهار ، وفي وقت الظهيرة ، فسلح الدروز البنادق ، والحملة مجهزة برشاشات ثقيلة وخفيفة ، وقاذفات القنابل ، فضلاً عن

البنادق ، ولكن انى له ان يوقف الزحف ، وقد بلغت الحماسة باخوانه حداً جعل المشاة يسبقون الفرسان في جريهم نحو الهدف . ولم تأزف الساعة النصف بعد الثانية ظهراً ، وهو وقت القيولة ، وابتعد ما يكون عن تفكير قادة الحملة الفرنسيون في هجوم الدروز ، حتى بلغت سرية المجاهدين الكرم ، واندفعت من جوانبه كلها ، بغارة مفاجئة على المعسكر ، لم يثنها رصاص الخفراء ، ولا رصاص الرشاشات التي اخذت تطلق النار على المهاجمين ، فسقط من سقط من الشهداء ، بينهم مصطفى الاطرش شقيق سلطان الذي لما رأى سقوط اخيه برصاص العدو ، اقتحم بجواده الكرم ، وتعدى جدران قفراً ، واختلط الدروز بالجنود ، وبدءوا يصرعونهم بسيوفهم وخنابجرهم ورصاصهم ، وفي مدة لا تتجاوز النصف ساعة اجهزوا على الحملة الفرنسية في حصنها ، بعد ان نجا السرجان ، أي العريف ، كابيولادشي مع خمسة من الجنود ، تمكنوا ان ينسلوا من الطريق الشمالية الشرقية متجهين نحو السويداء ، يحمل ثلاثة منهم جراحيهم التي كانت تنزف دماً ، كما نجا من الحملة ضابط صف برتبة سرجان ، و ٤٧ من جنود الفرقة السورية بينهم ١٣ جريحاً ، ومعاون الضابط الخيال الفرنسي دو كار ، و ١٧ جندياً صباحياً منهم ستة جرحى ، وجندي من الرماة جريح . أما الباقون ، وهم سبعة ضباط فيهم ضابط سوري ، و ٦٢ جندياً من الفرقة السورية ، فهم ستة فرنسيون ، و ٣٦ صباحياً خيلاً ، بينهم ثمانية فرنسيون ، وسائق سيارة فرنسي ، فقد قتلوا كلهم ، حسب احصاء الفرنسيين انفسهم . ولم يكد المهزومون من الكفر يصلون الى السويداء ، يحملون انباء المجزرة ، حتى دب الرعب في قلوب الفرنسيين فيها فانتقل ضباطهم وموظفونهم بعائلاتهم الى القلعة يحاصرون فيها ، لأنهم ادركوا ان نباء الهزيمة سيثير الجبل كله ضدهم ، حتى المتوردين وضعاف النفوس ستجرفهم الثورة بانباء ظفرها الحاسم في أول معركة نشبت بينهم وبين الدروز . وهكذا كان فقد دخلت قوات سلطان الاطرش السويداء ، وزحفت جموع المسلحين على المراكز الحكومية ، وخاصة في قضاءي صلخد وشهباء اللذين اخلاهما الفرنسيون أثر معركة الكفر مباشرة ، تتجمع ، وتهزج ، وتهتف وتحدو للثورة التي عمت

انحاء الجبل كله ، ولم يبق للفرنسيين مكان فيه إلا قلعة السويداء وما فيها من
حامية ضرب عليها الحصار ، واخذ المدفع المقام في القلعة يقصف بقنابله تجمعات
الدروز ، ويصب نار حممه على منازل السكان في السويداء ارهاباً ، وابعاداً لهم
عن مهاجمة القلعة المحاصرة ، وهي ثكنة كبرى بنيت عام ١٨٩١ ، في عهد الدولة
العثمانية ، على مرتفع شرقي السويداء ، لاقامة حامية تركية كبرى في السويداء
قاعدة الجبل .

معركة المزرعة

او معارك ٢ و ٣ آب عام ١٩٢٥

- ٢١ -

طلب الفرنسيون المحاصرون في السويداء النجدة من القيادة العليا الفرنسية في
سورية ولبنان ، فاخذت تسوق قواتها من جميع انحاء البلاد ، وتحشدتها في
المحطات على طول الخط الحديدي في حوران ، وخاصة في ازرع البلدة التي يتفرع
منها طريق السيارات الى السويداء . واخذ الدروز يضيقون الحصار على
الفرنسيين في القلعة ، فقد قطعوا ماء عين قنية عنها ، وهي الماء التي جرت
بانايب من الاسمنت لتزويد القلعة بالماء النقي ، امكن تخريبها ، فلم يبق في القلعة
غير بركة ملئت بالماء ليستفاد منها في ايام الحصار . لقد تمكنت القيادة الفرنسية
ان تحشد خلال اسبوع واحد نحو تسعة آلاف جندي جاءت بهم من جميع
معسكراتها في سورية ولبنان ، وبدأت تستعد للزحف على السويداء لاختداد
الثورة ، وانقاذ المحاصرين في القلعة ، ووكلت قيادة الجيش الى الجنرال ميشو ،
فاخذ يتقدم بمخافره الى الامام . وفي يوم ٣٠ تموز عام ١٩٢٥ تقدم لواء المشاة
بقيادة « لونييه » الى بصرى الحرير ، وهذا اللواء مؤلف من كتيبة القائد « غابل »

التابعة لفيلق الرماة الافريقيين العشرين ، ومن كتيبة سنغالية ، وكتيبة سورية بقيادة « لوغاي » ، ومن كتيبة الرشاشات الثانية التابعة لفيلق الرماة الافريقيين الحادي والعشرين بقيادة الكابتن « غراي » ، وانطلق اللواء تعاضده مفرزة سيارات ومصفحة بقيادة « الليوتنانت » « غاسكه » على ان يحتل اللواء جسراً على طريق السويداء أزمع الدروز على تهديده ، فانتهت الحملة اليه عند هبوط الليل . وفي منتصف الساعة ٢٢ من الليل نفسه هوجمت الحملة ، واحيطت ، واستمر القتال طول الليل ، ثم توقف . وفي الساعة الحادية عشرة من يوم ٣١ تموز عام ١٩٢٥ ، هاجم نحو مئة من فرسان الدروز الحملة ، وتراجعوا عنها . ويعترف الفرنسيون بان خسارتهم في هذه المعارك ضابط وسبعة جنود ، وجرح ضابط و١٤ جندياً . ولست اريد أن أشير كرهة اخرى الى ان الفرنسيين في تقاريرهم يقللون من خسائرهم ، ولا يحسبون في اكثر المعارك القتلى والجرحى من جيش المستعمرات خسائر حقيقية من جيشهم .

كانت الحماسة قد بلغت أشدها في جبل الدروز ازاء حشد القوات الفرنسية في حوران للزحف على الجبل ، وكان الاندفاع في الحماسة الشعبية املى على الزعماء اقتراحاً حظي بما يشبه الاجماع ، هو الزحف من الجبل للقاء الحملة على الحدود قبل ان تتوغل في اراضيه . واخذت جموع القرى تتوجه للقاء العدو الذي جاءت الانباء تؤكد قرب زحفه الى السويداء .

ان جبل حوران الذي يسكنه الدروز ، يمتد من الشمال الى الجنوب موازياً للخط الحديدي بين دمشق ودرعا ، جرت العادة في الروع ان يتجمع محاربو أبعد قرية في كل مقرن من مقارنه الثلاثة : القبلي ، والشامي ، والشرقي - يتجمعون تحت راية القرية ليسيروا الى القرية التي تليهم ، يستقبلهم محاربوها ، وينضمون اليهم تحت علم قريتهم . ولكل قرية علم يختلف بألوانه واورصافه عن غيره . ويسير الجمع الى القرية الثالثة ، منضمّاً الى محاربيها ، وهكذا دواليك تتألب الجموع ، وتحتشد

الرايات ، وتسير نحو نقطة التجمع الاخيرة . وكانت نقطة التجمع في هذه المرة ، موقعها على طريق ازرع - السويداء ، غير بعيدة عن حدود الجبل ، حتى يكون الدروز على اهبة القتال عند اول حركة تبسّدو من الجيش الفرنسي الذي أتم تجمعه ، واستعداده السريع للزحف ، فمن قائل ان قواته بلغت في حوران اثني عشر ألف جندياً ، تخلف ثلاثة آلاف منهم احتياطاً ، في مواقع الحشد في حوران ، ومن قائل إنها بلغت تسعة آلاف جندي ، تعرض منها للزحف والقتال ستة آلاف ، واقیم ثلاثة آلاف قوة احتياطية في حوران .

بدأت حملة ميشو زحفها قبيل فجر اليوم الثاني من شهر آب سنة ١٩٢٥ من بصر الحرير وازرع ، فما وضع النهار الا والجيش الفرنسي يزحف بنسق الحرب منتشراً على يمين طريق السيارات ويسارها لعدة كيلو مترات ، تحمي جناحه الأيمن قوة كبيرة من الخيالة المراكشين « الصباحيين » ويتقدم قلبه رتل من السيارات المدرعة او المصفحة بمدافعها ورشاشاتها ، ويكشف مجاهل طريقه سرب من الطائرات الحربية ، يتقدمه ، ويقصف كل تجمع للدروز امامه . وأني أسجل هنا ما نقله الي بعض زعماء الدروز الذين خاضوا تلك المعارك عن اسلحة الجيش الفرنسي ، في تلك التجريدة او الحملة . اذ قدروها بستة وثلاثين رشاشاً ثقيلًا ، وبمئات الرشاشات الخفيفة وسبع مدرعات ، ومدفعين من عيار ١٠٥ ملمتر ، وبطارية من اربعة مدافع عيار ٧٥ ملمتر ، وبطارية اخرى من اربعة مدافع عيار ٦٥ م . م ، فضلاً عن عشرات الطائرات التي كانت تتناوب التحليق ، وتصلي تجمعات الدروز ناراً حامية من رشاشاتها وقنابلها . ولما بلغت طلائع الجيش الفرنسي موقع « تل الخروف » اكتشفت تقيدم كوكبة من فرسان الدروز نحوها ، تعد بالمشاة ، فاعز الجنرال ميشو الى الحملة بان تتحصن بالمرتفعات القريبة من مواقعها ، وينبطح فرادها ، ويحفروا الموانع التي تقيهم الرصاص . واوعز الى الخيالة الصباحيين بان تتقدم كتيبتهم لتشن غارة سريعة على فرسان الدروز ، تناوشهم ، ثم تتظاهر أمامهم بالهزيمة والانكسار لتجرهم الى خط

النار ، ثم تكشفهم بغتة لنار الحملة المتحصنة ، بالارض ، بحركة بارعة من حركاتها . وتقدم الصباحيون المراكشيون ، وهم من العرب المغاربة المعروفين بقوة البأس ، والبراعة في الفروسية واغاروا على خيالة الدروز ، وبادلوه اطلاق النار ، ثم انقلبوا امامهم منهزمين ، فخدع فرسان الدروز بالهزيمة ، واطلقوا لحيادهم الاعنة في مطاردة الصباحيين المهزومين ، غير حاسبين ان الوف الجند الآخرين مجهزين باحدث الاسلحة ، اتخذوا الارض في خط طويل لحصدهم بنيران اسلحتهم . ولما اصبح الفرسان الدروز على بعد مئات الامتار من خط النار ، انتظم الصباحيون بشكل سهم في تراجعهم ، فانكشف الدروز المهاجمون للحملة التي تلقت الامر باطلاق النار دفعة واحدة ، ثم انسل الصباحيون من خط النار ، وعادوا الى جناحهم ينتظرون الأمر بمطاردة فلول فرسان الدروز الذين قد ينجون من نار المشاة .

تساقط خيالة الدروز كورق الشجر امام نيران حملة ميسو ، وفيهم القادة والزعماء والشجعان من الدروز ، فانكفأ من كتبت له السلامة من النار ينجو من الموت ، تلاحقه الطائرات بقنابلها ورشاشاتها ، وتقطع عليه كوكبات الصباحيين الطريق ، فاذا نجا منها تعقبته المدفعية بقذائفها الى مداها البعيد . وكان لهذه الهزيمة المفاجئة اثرها الشديد على معنويات المشاة من مقاتلي الدروز الذين تعرضت جموعهم ، قبل ان تخوض المعركة ، لقصف شديد من الطائرات ، وقذف اشد من المدفعية ، فسرت الى صفوفهم الهزيمة ، واندفعوا مرتدين الى الشرق ، يلوذون بالاراضي الوعرة ، منهزمين ، لا يلوون على شيء ، مما اضطر سلطان الاطرش القائد العام ، لما رأى كلماته المشجعة ، واوامره لا تلقى آذاناً صاغية ، لان ينسحب مع فريق من زعماء الجبل الى قرية «سليم» ، يتذاكر معهم في عواقب هذه الهزيمة التي حاقت بالدروز ، ويرى الا طاقة للجبل بامكاناته الهزيلة والسلاح العتيق بمنازلة جيش منظم ، مجهز باقوى الاسلحة ، وان من حسن الرأي ان يبدل الاسلوب ، فتقلب ثورة الجبل من المواجهة الجماعية الى

حرب عصابات، تنازل الجيش الفرنسي بغتة ، في الفرص التي تسنح لها، وتكبيده من الخسائر اكثر ما تستطيع ، وتانسحب . يقول الذين شهدوا هذه المعركة ان المقاتلين من اهل السويداء، وهم بعددهم الكثير ، ورجولتهم المشهود لها، واندفاعهم في الدفاع عن بلدتهم التي هي هدف الحملة الفرنسية ، كانوا الامل المرتجى في معركة ذلك اليوم ، ولكنهم كانوا اسبق من غيرهم في الهزيمة خشية ان تبلغ حملة الفرنسيين السويداء ، قبل ان يجاؤا نساءهم واطفالهم عن منازلها ، لذلك قطع سلطان كل امل من المشاة في خوض معركة مع الجيش الفرنسي ، وانكفأ الى قرية سليم القريبة من السويداء يتداول مع اخوانه امر الثورة ، على ضوء احداث ذلك اليوم ، وقوة الجيش الفرنسي الزاحف ، ويشعرون بخطئهم في مقابلة الحملة الفرنسية في السهل قرب الحدود ، وهو يعرف ان من عادة الدروز ان كسبوا الجولة الاولى في حربهم ، غدوا كالعاصفة تقتلع كل شيء في طريقها ، وان خسروا الجولة الاولى وهزموا ، ركبوا رؤوسهم ، وغدت هزيمتهم شنيعة ، لا يتخلصون من أثرها إلا بعد حين ، او تثيرهم بارقة نصر يصيبه بعدئذ اخوانهم في احدى المعارك مع العدو .



شهداءونا في الثورة ملأت جثثهم السهل والجبل

حسب الجنرال ميشو أن الضربة التي وجهها في ذلك اليوم إلى الدروز ، وقضى فيها على مئات فرسانهم ، وفيها زعمائهم وابطالهم ، فتحت أمامه ابواب السويداء ، وكفته تجمع مؤونة الألوف من محاربي الدروز لقتاله . ولكنه لم يخرج من حسابه وعورة الجبل وجفاف مياهه والصعوبة التي سيلاقها في اخضاع مقارن الجبل ، واحداً بعد الآخر ، لذلك حزم أمره على ان يتقدم بالمقاتلة من جيشه ، دون ثقل ، لاحتلال قرية المزرعة ، والافادة من مياهها التي لا تكفي للحملة كلها مع الثقل ، فترك الثقل والمدفعية على الماء الذي وجدته والذي ينقل اليها من حوران القريبة ، وتقدم بجيشه الخفيف خيالة ومشاة ومدركات حتى احتل مياه قرية المزرعة ، وعسكر فيها ، على ان يغادرها في صباح اليوم الثاني إلى السويداء ، فيتقدم ثقل الحملة إلى مياه المزرعة ، ويبقى فيها ريثما يحتل هو السويداء ، ويسيطر على مياهها ، وفي كلا الحالين تستطيع المدفعية بمداهم البعيد ان تساعد ، تشق له الطريق وتحمي جناحيه ، وبذلك فصل مضطراً بين المدفعية والثقل وبين الجيش ، وترك بينهما مسافة بضعة كيلو مترات ، وهو فاصل لا تقره خطط سوق الجيش ، ولكن وضع الجبل وجفاف مياهه في في شهر آب ، بل قلة مياهه ارغمته على هذا التدبير ، حاسباً انه بما انزله بالدروز من هزيمة ستبلغ بهم قراهم ، وبلحاظه بجيشه الخفيف سيضمن سلامة المؤخرة بما فيها من مدفعية وثقل . واذا عرفنا ان المركبات التي تحمل الذخائر والعتاد لملته كانت اكثر من سبعة مائة مركبة تجرها البغال والخيول ، ادر كنا الظروف القاهرة التي ارغمته على فصل المؤخرة عن المقدمة ، وترك هذا الفراغ الشاسع بينها ، فمياه المزرعة تكفي للألوف من جنود حملته وجيادها والبغال التي تحمل الرشاشات والذخائر والعتاد معه ، ولكنها من المستحيل ان تكفي كل الجيش بما فيه الجنود والدواب التي تحمل الثقل ، وتجر مركباته بالمئات .

نصر من الله

قرر الجنرال « ميشو » ، وقد بلغ مياه المزرعة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، واحتلها ألا يتورط في نفس اليوم ، باحتلال السويداء ، التي لا بد أن يدافع عنها أهلها المسلحون ، فيتداركه الليل ، ويضطر للمبيت في اطراف السويداء ، تتهدده جموع الدروز التي قد تتحصن في الكروم والأراضي الوعرة . وشاء الله ألا تغيب شمس ذلك اليوم الاعلى نصر لعباده المؤمنين الذين يدافعون عن وطنهم وحقوقهم في الحياة ، فقد وصلت عصر ذلك اليوم جماعة من المقاتلة في المقرن الشمالي ، تخلفت ، والأصح تعوقت ، بسبب بعد قراها عن القتال ، وانتظاراً لتجمع الرايات وسيرها من قرية الى قرية ، حسب العادة المتبعة في الحشد للقتال . وكانت في طريقها الى نقطة التجمع ، تسمع هزيم المدافع ، إلا أنها لا تعرف شيئاً عن الهزيمة التي حلت بأخوانها وبني قومها الدروز . ولما بلغت نقطة التجمع المضروبة لها ووصلت اليها من أقصر طريق سلكته ، كانت رحى المعركة توقفت ، فراحت تبحث عن تجمع الدروز ، وعن جيش العدو لتعرف مكانها منها ، ولاحت لها ، حملة فرنسية معسكرة على مقربة منها ، كانت من حسن الحظ والمصادفات هي المدفعية والثقيل التي خلفها الجنرال ميشو وراءه بسبب قلة المياه . ولما لم يجد الدروز أثراً لأخوانهم حولها ، راحوا يتشاورون فيما بينهم ، فوجدوا من الجبن ، وهم مئات من المقاتلة ، ألا يناوشوا الحملة ، والمكان بوعورته مساعد للقتال ، والوقت مناسب أكثر ، فالليل قريب ، يستطيعون ، فيما إذا رجحت كفة العدو ، ان يتسللوا في ظلمته ، والارض أرضهم والجبل وراءهم وذخيرتهم كافية للقتال بضـع ساعات ، وهموا ، وعزموا ، وتسللوا بين الصخور ، حتى أصبحت خيام العدو بما فيها وبمن حولها تحت نيران بنادقهم ، ثم اصلوا الحملة ناراَ حامية ، لم يرد عليها ، في بادىء الامر احد ، ثم انطلقت نيران هزيمة متفرقة ، ثم ساد الاضطراب معسكر الفرنسيين ، فشدوا من حملتهم على المعسكر ، واذا بالجنود يفرون منه ذات اليمين وذات اليسار ، فريق يسلك طريق حوران يعود

من حيث اتى ، وفريق يسلك طريق المزرعة الى الجبل ، حتى خلا المعسكر من ساكنيه ، ولم يبق أي اثر للمقاومة ، فتنادي الدروز ، وتناخوا ، وقاموا بهجوم على المعسكر ، فوجدوا فيه ذخائر ومدافع ومركبات ودواب لا تحصى ، وخياماً خالية من الجند ، وهكذا أقبلوا على الغنائم ، يكسبون ما استطاعوا حمله ، وعادوا يجر كل واحد منهم وراءه عدة خيول وبغال محملة بالذخائر من عتاد ، وسلاح ، واطعمة محفوظة ، وامتعة وأغطية ، بعد ان حطموا ما حطموا ، وخربوا ما خربوا في المدافع ، عادوا يحدون ويهزجون ، تخفق راياتهم فوق رؤوسهم ، يملون بالقرى ، يسألون عن سلطان ورابعه ، ليعرضوا امامهم ، ويشهدوهم على نصرهم ، وعرفوا من سكان القرى ما جرى في ذلك اليوم ، وان الجيش الفرنسي الآخر بلغ مياه المزرعة ، فشدوا الرحال نحو قرية سليم حيث يقيم سلطان قائدهم ، وسبقت اخبارهم الى سلطان قبل وصولهم ، فأدرك القائد ان هؤلاء المحاربين التقوا مصادفة بمؤخرة الجيش ، واستطاعوا الاستيلاء عليها ، لأن من معها من الجنود هم من غير المقاتلة ، رجال مدفعية ، وسائقو مركبات ، وساسة خيل وبغال وخدم ، فروا أمام الهجوم المباغت الذي شن عليهم ، وسرعات ما خطر له استغلال الحادث في شحذ عزائم بني قومه المنهزمين أمام حملة « ميشو » ، فأرسل الرسل ، ووجه المبشرين ، إلى القرى القريبة والبعيدة يبشرها بنصر من الله ، ويحدثها حديث الغنائم التي لا تحصى ، والتي من الله بها على اخوانهم محاربي المقرن الشمالي ، وحثهم على المبادرة إلى قتال من تبقى من حملة العدو ، على مياه المزرعة ، وغنم ما معها من سلاح وذخائر أسوة بإخوانهم المنتصرين عليها . ولما بلغ الظافرون قرية سليم ، وعرضوا أمام سلطان وزعماء الجبل غنائمهم ، وجههم أيضاً إلى القرى القريبة ، يعرضون فيها ما أنعم الله عليهم به من غنائم ، وسرعان ما سرى خبر النصر والغنم في قرى الجبل ، سريان النار بالهشيم ، فعاد الى الدروز حماسهم ، وزحفوا من كل فج وصب نحو المزرعة ، مسلحين بالبنادق ، ومنهم بالمناجل والخناجر والسيوف والعصي والفؤوس ، وأخذوا على مدى الليل الطويل يحيطون بالحملة ، مستفيدين من ظلمة



سلطان باشا الاطرش يتقدم المجاهدين

الليل في الزحف والاقتراب منها ، حتى يسبق القريب البعيد في القضاء على الحملة ،
رغم ما معها من أسلحة وذخائر .

المعركة الفاصلة

- ٢٢ -

وصلت أنباء ما حل بالمؤخرة الى الجنرال « ميشو » من الجنود الذين فروا
منها باتجاه حملته ، ولحقوا بها ، وأدرك أن زحفه في الصباح نحو السويداء
أصبح خطراً عليه ، فجيئته أصبح بلا مدفعية ، ولا ذخائر ، ولا عتاد ، ولا
طعام ، وما معه من ذخيرة لا يكفي لقتال يوم أو يومين ، فإذا حوصر في

السويداء ، ونفذت ذخائره قضى الدروز على جيشه كله . وبعد التداول مع أركان حربه ، قرر أن يعود مع الفجر بحملته نحو حوران ، ينقذ في طريقه ، ما أمكن انقاذه من ذخائر المؤخرة التي هاجمها الدروز ، ويحملها معه إلى مواقع الحشد في حوران حيث يكمل في أيام نواقص حملته وتموينها ؛ ويعود للزحف بها من جديد على الجبل ، متجنباً الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه ، وهو الفصل بين الجيش ومؤخرته ، وابقاء المؤخرة دون حامية تحميها ، وأصدر أوامره المشددة بالانتباه ، وزيادة الحراسة ، حتى لا تفاجأ الحملة بهجوم ليلي من مقاتلة الدروز . وهكذا ظلت أسهم الاضاءة تنطلق من المعسكر تنير ما حوله كل ساعات الليل . وكان الدروز على ضوء الاسهم ، يركزون مواقعهم ، ويسدون الثغرات ؛ ويزحفون في الفواصل على بطونهم مقتربين من خطوط العدو . ولما أخذ الصبح يتنفس ؛ وبدأت تباشير النهار ؛ من اليوم الثالث من شهر آب عام ١٩٢٥ ؛ تمحو ظلمة الليل ، دبّت الحركة في معسكر الفرنسيين حول ماء المزرعة ، ورفعت الاثقال والاحمال على الدواب . وكان مقاتلة الدروز ينتظرون أن تتجه الحملة نحو السويداء ، اتماماً لزحفها في اليوم الماضي ؛ وإذا بها تتجه نحو حوران ؛ كأنها تشعرهم بالهزيمة ؛ مما زاد في عزيمتهم ؛ وخلق في روعهم أن عدوهم مهزوم ؛ فأصلوه ناراً حامية من بنادقهم ، ضععت صفوفه ؛ لقربها ؛ حتى دبّت فيها الفوضى ؛ وشجعت أبناء معروف على الهجوم ، واقتحام صفوف العدو ، والاشتباك معه بالسلاح الأبيض ، مما أبطل عمل الطائرات ، وعمل المدرعات ؛ وعمل الرشاشات ؛ واختلط الحابل بالنابل ؛ وأبناء معروف لا يعوزهم ثبات الجنان في المجازر ؛ يوم تتساوى الأسلحة ؛ فعملت سيوفهم وقؤوسهم وخنابجرهم في أجساد الجنود ؛ وتساقط القتلى والجرحى ، وجثث الجياد والبغال على طريق السيارات ؛ حتى سدت المسالك ؛ ووقف الجنرال ميشو يهيب بجنوده ؛ أن يثبتوا ؛ وإذا برصاصة تعاجل جواده ؛ فيسقط إلى الارض ، ويقدم له جنوده جواداً آخر يدفعه بين الجنود ؛ يستثير حماسهم ؛ ويحرضهم على الثبات ؛ واستخدام حراهم ؛ فيحل بالجواد الثاني ما حل بالأول ، ويؤتى له بجواد ثالث ، وإذا برصاصة تصيبه ، وتطيح

به من سرج جواده ، فيحمل الى مدرعة تنطلق به نحو حوران ، فتكون المدرعة الوحيدة التي نجت من بين المدرعات الأخرى ، فقد حوصرت هذه بين أكداس القتلى ، وجثث الخيل ، والمركبات والرشاشات ، وما هي ساعة حتى تمكن المجاهدون من السيطرة على الساحة كلها ، ومن اطلاق الرصاص من ثغرات الرماية في المدرعات ، يقتلون من فيها ، أو يشعلون النار حولها ، فتحترق بمن فيها ، أو يقلبونها بتكاثرتهم عليها ، حتى لم يبقوا منها إلا الحطام . وهكذا قضي على جيش الجنرال ميشو ، ولم ينج منه الا بضع مئات من الجنود والضباط استطاعوا أن يفروا نحو حوران ، لأن مقدمة الحملة ، كانت استطاعت في بدء المعركة أن تشق طريقها الى الغرب ، وكانت تجمعات الدروز تحيط أكثر ما تحيط ، بأطراف الجيش الثلاثة : جناحيه ، ومقدمته التي كان مقدراً لها ان تتجه الى السويداء ، فسنحت الفرصة للمهزومين ان ينجوا من الموت ، ولكن بعضهم بلغ قرية درزية في الطريق ، أظن أنها كناكر ، كان رجالها نفروا للحرب والنزال ، وليس فيها غير النساء والأطفال ، فدخل الجنود دار المختار لاجئين ، منهارة عزائمهم ، واستقبلهم ابنه اليافع الذي طلب منهم ان يلقوا بأسلحتهم حتى يضمن لهم السلامة من القتل ، فألقوا في فناء الدار بأسلحتهم ، ولجأوا الى ابن المختار الذي سلمهم بعدئذ أسرى لسلطان الأطرش ، الذي أمنهم على حياتهم ايضاً ، واطلق سراحهم عند اول مفاوضة مع الفرنسيين ، لقاء اطلاق سراح زعماء الجبل المبعدين في منطقة الفرات ، فهو يريد ان يتخلص منهم ، وليس باستطاعته ان يقيم في الجبل القاحل الماحل في تلك السنة معسكرات للأسرى .

لقد بلغت خسائر الدروز في هذه المعركة الفاصلة نيفاً ومئتي شهيد ، يقابلهم بضعة آلاف من جنود العدو وضباطه . وقد استشهد في يوم المزرعة سليمان العقباني من أبطال الدروز الذي كانت ضربات سيفه تقصد الضحية شطرين ، سقط

شهيداً وحوله عدد من ضحايا سيفه الصارم ، وقيل ان احد هؤلاء الضحايا قد من
كتفه الأيسر الى خاصرته اليمنى بضربة سيفه ، عدا الرؤوس التي كان يدحرجها
بضرباته رحمه الله .

واستشهد في معركة اليوم الثاني من شهر آب حمد البربور من زعماء الجبل
وأبطاله ، ومن رفاق سلطان في ثورته الأولى على الفرنسيين .

كيف وصف الفرنسيون سحق جيشهم ؟

لم يرد في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق سرداً لسحق جيش الجنرال ميشو ،
إلا انه ورد في الصفحة (٢٥٧) من الكتاب ، وفي خاتمة : ان جيش الشرق
الفرنسي سقط من رجاله في ساحات القتال التي خاض غمارها في فلسطين وسوريا
والشرق (٢٧٠) ضابطاً ، وتسعة آلاف جندي . وهذا رقم كاذب فخسائر الجيش
الفرنسي في معارك ٢ و ٣ آب عام ١٩٢٥ وحدها تقدر بأكثر من خمسة آلاف
جندي ، إذا لم تكن أكثر من ثمانية آلاف سقطوا ضرعى ، وظلت جيشهم
شهوراً مكدسة ، في ارض المعركة ، لا يستطيع المرء ان يقترب من فتنها الذي
ظل يزكم الأنوف اشهرأ من مسافات بعيدة . واذكر ان صحافيين المانيين ، كانا
ضابطين في الجيش الالماني زارا جبل الدروز ، بطريق عمان ، أثناء معارك
الثورة السورية الكبرى ، وطلبا من القيادة السماح لهما بارتداد ساحة المزرعة التي
نشبت فيها المعركة ، فصرحا بعد عودتهما الى السويداء بان ظفر الدروز ، ومصرع
الألوف من الجيش الفرنسي بالأسلحة البدائية التي كان يحملها الدروز أمر له مثيل
في الثورات التي نشبت في مختلف انحاء العالم ضد الجيوش النظامية ، فالجيش
النظامي بقيادة الماريشال « ليوتي » خسر في المغرب الأقصى أكثر من ثلاثين
ألف جندي في معارك نشبت بينه وبين العرب الثائرين ، ولكن الأمر الذي
يكاد لا يصدق العقل البشري ان يستطيع الدروز ، بالبنادق العتيقة والسيوف

والمناجل أن يستولوا على المدرعات المجهزة بالمدافع والرشاشات ، ويحطموها ، ويحرقوها ، فتقف في ساحة المعركة شاهدة على بطولات ومآثر لم يعرف تاريخ الثورات ، من قبل ، لها مثيلاً !

لقد أشار الكتاب الذهبي لجيوس الشرق إشارة عابرة الى معارك ٢-٣ آب ، فقال : « يوم ٢ - ٣ آب تناولت نيران الدروز مفرزات السيارات المصفحة من مسافات قريبة . وإذا توقفت أمام احد الحواجز انسل المهاجمون الى كنف زواياها التي لا تتناولهم النار منها ، وسددوا الرصاص الى داخلها من فوهات الرماية ، والمنافذ الاخرى ، فعطلوا خمس مصفحات ، اثنتين من الكوكبة الثامنة والعشرين ، وثلاثاً من الكوكبة الثامنة عشر . وفي اليوم الثالث من آب جددت المفرزة الاولى التابعة لكوكبة المصفحات الثامنة للالتحاق بفلول المؤخرة التي سحقها العدو ، وفكك أوصالها ، فاعترض طريقها حاجز من العربات المتشابكة ، فاضطر القائد الليوتنان « غاسكه » أن يستخدم مصفحته كآلة تهديم ، فهجم على المصفحة كمين من الدروز ، وحاولوا نزع صفيحتها الخلفية ، واستطاع أحد المهاجمين ان يطلق عياراً نارياً الى داخل المصفحة من احد مفاصلها ، فجرح شظايا رصاصته أفراد الركب جميعاً ، ولكن المصفحة الثانية توقفت لنفاد البنزين ، فحاول افراد الركب اللحاق بالأولى ، ولكنهم قتلوا جميعاً ، وتمكن « غاسكه » ومعاونيه « ارنولد » والسائقان من العودة جرحى الى أزرع . أما السرجان « كازانوف » التابع للواء الرشاشات الاستعماري الثاني والاربعين ، فقد قتل في اليوم الثاني من آب . »

وصفوة القول ان الضربة التي أنزلها الدروز بجيش الجنرال ميشو كانت قاضية ، فقد قتل في المعركة مئات الضباط الفرنسيين ، ولم ينج من قادة الحملة غير الجنرال ميشو نفسه ، إذ نقل بعد ان فرت به مدرعة الى حوران ، جريحاً . ولما شفي استدعي الى فرنسا ، ومثل أمام محكمة عسكرية هناك ، بتهمة مسؤوليته عن

سحق جيش كامل كان بقيادته ، فاعترف بأن السبب الواضح في الهزيمة ، كان فصل المقدمة عن المؤخرة يوم الزحف ، ونفوذ جماعة من مسلحي القرى مصادفة الى المؤخرة التي كانت تفتقد المحاربين ، وان الفصل فرضته عليه طبيعة جبل الدروز ، وقلة مياهه ، وجفاف بعض ينابيعه في صيف عام ١٩٢٥ ، وان الظروف السيئة التي أحاطت به ، بعد سحق مؤخرته ، أدت الى الكارثة المفجعة ، فبرأت المحكمة ساحته ، واعتبرته غير مسؤول عن خطأ حربي فرضته عليه أوضاع جبل الدروز ، وجفاف مياهه ، وتسلسل عصابة من محاربي الدروز الى المؤخرة .

كان النصر حاسماً لولا قلة الوعي

لقد كان النصر في معركة المزرعة مؤزراً حاسماً ، وكافياً لطرد فرنسا من سوريا ، لو ان الثورة كانت عامة تسود سوريا كلها ، وكان لها قيادة واحدة ذات كفاءة . ولكن ثورة سلطان في جبل الدروز نشبت محلية ، لأسباب تتعلق بسكان الجبل وحدهم ، وظلم الكابتن كارييه حاكمهم الأجنبي . وكان لا يعلم ما يجري في جبل الدروز الا القلة القليلة من السوريين في دمشق ، ممن كانوا على اتصال بزعماء الدروز ، خلال أحداث الجبل في عهد الكابتن « رينو » وكيل الحاكم . حتى ان معركة المزرعة التي سحق فيها الجيش الفرنسي ، لم يعرف سكان دمشق اخبارها ، إلا بعد أيام من وقوعها ، وبروايات مختلفة ، كان من الصعب تصديقها كلها لتناقضها ، لأن الفرنسيين حرصوا ، على ألا يذاع نبؤها حتى لا تتورد عليهم مناطق أخرى ، وعزلوا جبل الدروز عن سائر المناطق المأهولة بالسكان ، ورابطت قوات على الطرق المؤدية الى الجبل حتى لا يتصل بشواره أحد ، ولا تتسرب أنبأؤه الى حوران فدمشق ، وسارعوا لتأليف وفد درزي من اصدقائهم الزعماء في لبنان ، أوفدوه فوراً الى جبل الدروز يفاوض باسمهم زعماءه على الصلح ، ويعرض شروطاً فيها من السماحة ما تحمس للصلح

كثيرين من زعماء الجبل ، كإطلاق سراح المعتقلين من إخوانهم في الفرات ، وإعلان عفو عام عن كل جرائم الثورة ، وعدم مطالبة سكان الجبل بأي غرامة من المال والسلاح ، بل أعربوا عن إمكان جلاء فرنسا عن جبل الدروز لقاء السماح لحاميتهم المحاصرة في قلعة السويداء بالالتحاق بمواقعهم في حوران ، وأقاموا في دمشق الاسلاك الشائكة والمدرعات تحمي دار الحكومة ومؤسساتها في ساحة الشهداء ، وتحصنوا في القلعة والثكنات ، ونصبوا المدافع ، ووجهوها من قلاعهم في جبل « قاسيون » و « المزة » نحو دمشق استعداداً لقصفها ، في حال قيام أي حركة تهددهم فيها ، وإلى جانب ذلك طيروا البرقيات إلى فرنسا في طلب نجدات عسكرية من وراء البحار وفرنسا ، ترسل على جناح السرعة ، وإلا عمت الثورة سوريا كلها ، والقت بالحاميات القليلة الباقية إلى البحر .

أما الدروز الظافرون ، في حرب خاضوها بأسلوب عشائري ، وهم قوة غير نظامية ، فقد انكفأوا ، بعد سحق عدوهم وطرده ، إلى قراهم ثلثين بنشوة الظفر ، وبالغنائم التي ملأت الجبل ، غير حاسبين حساب المستقبل ، لم يفكر احد منهم بمطاردة فلول الجيش الفرنسي إلى اراضي حوران ، فالعداء التقليدي بينهم وبين أهل حوران خلق في روعهم ان جيرانهم ، وهم اكثر منهم عدداً ، وعندهم بعض السلاح ، قد يقفون إلى جانب فرنسا ، ثاراً من وقوف الدروز إلى جانبها في ثورة حوران عليها ، في مطلع الاحتلال ، بل كان الرأي السائد لدى أكثر الزعماء ، ان الدروز استطاعوا ان يطهروا جبلهم من الجيش الفرنسي ، ويسحقوه ، فلا أقل من أن تقوم كل منطقة في سوريا بنصيبها ، كما قاموا بنصيبهم ، وتطهر أرضها من جيش الاستعمار ، غير حاسبين ان المناطق السورية الأخرى عزلاء من السلاح ، من يحمل مسدساً غير مرخص به من أهلها يتعرض للسجن سنتين ، ومن يحمل بندقية غير فرنسية قد يحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ومن يقتني بندقية فرنسية قد يبلغ الحكم الصادر عليه الاعدام ، فضلاً عن ان دوائر

المخابرات والجاسوسية الفرنسية كانت بالمرصاد لكل وطني يبدي مقاومة لخطط الاستعمار ، تعتقله ، وتبعث به الى المنافي والسجون ، وكم امتلأت غرف السجن في قلعة ارواد وقلعة دمشق باحرار السوريين ، لأن الشعب في دمشق تظاهر اثر زيارة قام بها « مستر كراين » رئيس اللجنة الدولية التي زارت سوريا في عام ١٩١٩ ، باعتباره صديقاً للسوريين ، أو تظاهر بمناسبة زيارة اللورد « بلفور » وزير الخارجية البريطانية في الحرب العالمية الاولى ، دمشق ، واحتجاجاً على الوعد الذي كان قد قطعه آنئذ بأن تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود ، أو ألف جمعية أو حزباً سرياً وزع النشرات ضد الاستعمار الفرنسي . لقد كانت أكثرية سكان الجبل ينقصها الوعي القومي ، فقد وفقوا في سحق الجيش الفرنسي الذي زحف الى جبلهم ، واستولوا على جميع أسلحته ، وكان منطق الاحداث يقتضيهم ان يتقلدوا كل ما يستطيعون من سلاح ، وان يتعقبوا فلول الجيش الى حوران ، ويحاصروا المواقع العسكرية فيها ، إذا لم يستطيعوا احتلالها ، وتنطلق أكثريتهم الى دمشق العاصمة ينازلون مع سكانها الجيش الفرنسي في الشوارع ، وفي ثكناته ، وعدد جنوده قليل ، ومعنوياته منهارة . ومثل هذه الحركة كانت كفيلة بأن تدفع كل من عنده سلاح من السوريين ، في المناطق الأخرى ، الى الثورة على فرنسا ، وان يستخدم سلاحه في قتالها وطردها من سوريا ولبنان ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فالاستعمار عزل المناطق السورية عن بعضها ، وأثار فيها النعرات الطائفية والعنصرية ، وأقام من بعضها دويلات طائفية ، وفتح أبواب سوريا لهجرة جديدة للارمن والأكراد من تركيا ، ثم لهجرة الآشوريين من العراق ، وجند الشراكسة والارمن والاسماعيليين والعلويين والموارنة في جيش الشرق ، وحشدتهم في الجوقة السورية ، والقناصة اللبنانية ، والحرس السيار ، وسخر الضمائر ، واشترى العملاء ، وسلط في منطقة العلويين الزعماء الجشعين على الشعب الجاهل ، يستغلونه ، ويتحكمون بمصائره ، وسمح للإرساليات المبشرة بالكتلثة ان تنتشر ، وتعمل في قرى العلويين ، وان

لأتبني اديرة والكنائس لتنصير السذج منهم ، حتى إذا تنصر احدهم مع أسرته ، تخلصاً من الزعيم الاقطاعي واضطهاده ، بعث ضابط المصالح الخاصة في المنطقة الى ذلك الزعيم الظالم ان يرفع يده عن الأسرة المنتصرة ، لأنها دخلت بحماية فرنسا ، وأصبحت من رعاياها ، فيسقط الزعيم تلك الأسرة من حساب تسلطه ، لأنه ، في الواقع ، يستمد نفوذه من فرنسا ، ويعمل لخدمة مصالحها .

لقد فرقت فرنسا حتى بين الطوائف المسيحية التي تزعم انها إنما جاءت الى سوريا لحمايتها من الأكثرية المسلمة ، فاضطهدت المسيحيين من الفلاحين في بعض القرى لترغمهم على ان يبدلوا مذهبهم كاثوذكس أو سريان أرمن بالكنيسة . وقد شهدت ذلك بنفسي في قريتي القنية واليعقوبية من اعمال قضاء جسر الشغور ، فقد كانت القريتان العربيتان يدين أهلها بمذهب السريان الارمن ، إلا ان ارسالية تبشير كاثوليكية أقامت في قرية القنية ديراً ضخماً وكنيسة يرعاها أب طلياني يطلقون عليه اسم « بادري » ، ظلت ارساليته تعمل حتى حولت بعض سكان القنية الى الكنيسة ، فلما جاءت فرنسا منتدبة على سوريا ، وقفت وراء ارساليات التبشير للكنيسة في سوريا ، وزادتها ، وسخرت ضباط مخبراتها الحاكمين ليكونوا أداة اضطهاد للذين لا يتخلون عن مذهبهم من الفلاحين . وقد سلطت البادري على فلاحي قرية اليعقوبية المتكتلين للحفاظ على مذهبهم ، حتى أخرجهم منه ، إلا أسرة واحدة تحملت انواع الاضطهاد ، وأبت ان تتخلى عن مذهبها ، ولما اظهرت عطفاً عليها ، حرض البادري بعض فلاحي القنية على ان يقدموا شكوى ضدي لضابط المصالح الخاصة ، زعموا فيها انني ارهقهم بالرسوم والضريبة على خمر قريتهم لأنهم كاثوليك ، وخفضت الرسم أو الضريبة عن الأسرة السريانية . واستدعاني ضابط الاستخبارات الفرنسي الى مكتبه ، ودار نقاش بيني وبينه كتب على أثره تقريراً سرياً الى رؤسائه يؤكد فيه كرهى للانتداب الفرنسي ومثليه ، وعملي لمقاومته ، فلم يمض شهر على الحادث ، حتى انتدبت في شهر أيار

عام ١٩٢٥ برقياً إلى مصيف للاشراف على موسم الحرير ورسومه ، وبعد اسبوع من انتدائي وسفري الى مصيف ، وردت برقية من المديرية العامة للديون العمومية في بيروت بتسريح من الوظيفة ، باعتباري من الموظفين الموقتين الذين عينوا بعد الحرب العالمية لوظائف الديون العمومية ، ولم يكونوا أصلاء ، وليس لهم حصانة تقيهم التسريح التعسفي .

* * *

الفصل الخامس

في الطريق الى الثورة

- ٢٣ -

عدت الى موطني حماة ، ورتبت أمري للعمل في التعليم في شرقي الاردن ، وقدمت ما يلزم من الوثائق الى المراجع المختصة في عمان ، وبينما كنت في انتظار دعوتي في مطلع السنة الدراسية إلى عمان ، بلغت مسامعي أنباء الثورة في جبل الدروز ، فسافرت الى دمشق أترقب فيها أحداث الثورة ، وأنا مؤمن بأن على المناطق الأخرى في سوريا ان تهتبل الفرصة ، وتهب لنجدة الدروز بثورات أخرى تخفف الضغط العسكري على جبلهم ، وتوسع الثورة على الفرنسيين ، وإلا فمصير ثورة الدروز الى الاضمحلال والفشل الذريع . لقد كنت من المؤمنين بأن لا خلاص لسوريا من محنتها إلا بالثورة الوطنية المسلحة تعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، قبل ان تتمكن فرنسا ببرامجها الاستعمارية من إفساد التعليم والعقائد والضمائر ، وقبل ان تقضي على كل مقاومة لاستعمارها في سوريا ، شأنها في

الجزائر وفي سائر بلدان المغرب العربي .

و كنت في دمشق يوم تسربت أنباء هزيمة الجيش الفرنسي في معارك ٢ - ٣ آب ، فوطدت العزم على أن التحق بالثورة ، وأحمل السلاح مع أخواني أبناء معروف ، وقاتل المستعمرين ، وهذا أقل ما استطيع عمله ، بعد ان كدت أقنط من ان يتحسس أبناء وطني في المناطق الاخرى بواجبهم نحو اخوانهم الثائرين في جبل الدروز ، وتوجهت فعلاً الى منزل السيد عثمان الشراباتي في الصالحية قرب الجسر الأبيض ، بعد ان سمعت انه من الوطنيين المعارضين لسياسة فرنسا ، وانه من القائلين بمد يد العون لثورة الجبل ، وقابلته ، دون سابق معرفة بيدي وبينه ، وقدمت له نفسي ، وطلبت منه ان يساعدني على الوصول الى جبل الدروز ، ويهيني الى اضمن سبيل للالتحاق بثورة الدروز ، فوقف مني في حديثه موقف الحذر ، وسألني عن صلة القربى التي تربطني بنجيب الرئيس الصحافي الوطني في دمشق ، فقلت له انه ابن عمي ، وابن خالي ولكنه وطني يعمل بالقلم ، ولا يجرؤ على العمل لثورة مسلحة ، فقال لي : « مهما يكن الأمر ، فعليك أن تتدارس مع ابن عمك هذا الموضوع الخطير ، فهو أحق مني بذلك ، وخرجت من المقابلة غير راض عن الشراباتي . وفي اليوم الثاني صادفت في الفندق الذي اقيم فيه سعيد الترماني من شباب حماة الذين أعرفهم ، وبينه وبين أخي ناظم الرئيس صداقة ، فأفضيت اليه بمكنون نفسي ، وظهرت له نقمتي على الوطنيين السوريين الذين لم يعملوا الى هذه الساعة أي عمل لتوسيع شقة الثورة ، وقلب ثورة الجبل من ثورة درزية محلية ، الى ثورة وطنية شاملة هدفها استقلال سوريا ، لا تبديل حاكم فرنسي بحاكم فرنسي ! ولشد ما كانت فرحتي عظيمة يوم اسر لي بأنه موفد من إخوان له في حماة يفكرون نفس تفكيري ، ويعملون لثورة مسلحة في حماة تنصر ثورة الجبل ، وتخفف الضغط العسكري عليه ، وتوسع شقة الثورة الى مناطق أخرى ، لتكون كما أريد ، ثورة وطنية سورية بالمعنى الصحيح ، وانه كبير الامل بنجاح هذه الحركة التي انضم اليها سرّاً الكابتن

فوزي القاوقجي قائد سرية الحرس السيار في منطقة حماة ، وانضم اليها أيضاً عدد من أصحاب الاملاك والقرى القادرين على دعم خطة الثورة بالمال الذي ييسر شراء السلاح ، ، وانه جاء الى دمشق موفداً من قبل اخوانه في حماة ليطلع في دمشق على آخر تطورات الثورة في جبل الدروز ، فقد تراسى إلى مسامعهم ان وفداً درزياً من لبنان أمّ جبل حوران موفداً من قبل فرانسوا لعقد صلح بينها وبين الثائرين في الجبل ، وان اخوانه في حماة يخشون ان يتم هذا الصلح ، فتصبح حركتهم في حماه وبالأعلى عليهم ، مكتوباً لها الفشل ، حيث لا تقوى وحدها على الصمود في وجه القوات الفرنسية التي بدأت تصل كنجذات من فرانسوا ، ومن مستعمراتها فيما وراء البحار . وزاد على ذلك بأن أعلمني ان فوزي القاوقجي الضابط السوري في الجيش الفرنسي سيستخدم بعض جنوده المسلحين في ثورة حماة ، وانه اتصل ببعض ضباط الصف من الحمويين في ثكنات الجيش للاستيلاء في وقت واحد عليها ، وعلى دور الحكومة ومؤسساتها ، ولكن نشوب ثورة حماه يتوقف الآن على فشل الصلح بين الفرنسيين وبين زعماء الدروز ، واستمرار ثورة الجبل ، وانه قدم الى دمشق لمعرفة ما تم بين الوفد الدرزي اللبناني وبين زعماء الجبل ، وانه مضطر للبقاء في دمشق حتى يعرف ما آلت اليه المفاوضات ، فاقترحت عليه ان يعود الى حماه ، ويستحث إخوانه هناك على اتمام خطواتهم الثورية ، وتعهدت له بأن أقوم بالمهمة التي أوكلت اليه ، ما دمت في دمشق ، واتفقت معه على لغز ارسله برقياً بعنوانه في حماه حول مهمة الوفد الدرزي ، فقبل اقتراحه ، وطلب مني ان أسعى مدة اقامتي في دمشق لإيجاد ضابط سوري سبق له العمل في سلاح الرشاشات ، ليتعاون مع قيادة ثورة حماة على استخدام الرشاشات الكثيرة التي قد تتمكن الثورة من الاستيلاء عليها في ثكنات الجيش الفرنسي في مدينة حماة وشرقتها ، واتفقنا أيضاً على شكل للمراسلة لا يستطيع الرقيب فك رموزه ؛ وسافر سعيد الترماني الذي كنت أعرف أنه خدم كضابط احتياط في الجيش العثماني ، وجرح في إحدى المعارك في جبهة فلسطين .

لم يمض يومان على سفر الترمانيين حتى أبرقت اليه بفشل المفاوضات بين
فرانسا والدروز ، وعودة الوفد الدرزي اللبناني من الجبل ، وذلك بالغز
المتفق عليه بيننا . وكنت علمت أن بعض الوطنيين في دمشق ، بعد اجتماع
عقدوه في منزل الحاج عثمان الشراباتي ، أوفدوا السيد زكي الدروبي وتوفيق
الحلبي سرّاً إلى جبل الدروز ، يحملان رسالة شفوية إلى سلطان الاطرش تنبهه
إلى خدعة الفرنسيين ، وشروطهم السمحة في الصلح ، وانها لكسب الوقت ؛
فالتجذات الفرنسية بدأت تصل تباعاً من البحر ، وتحشد في المراكز
الاستراتيجية ، وان كل صلح سينقضه الفرنسيون ، بعد ان يستكملوا حشد
قواتهم في سوريا لغزو الجبل ، وان رضاهم بالجلء عن الجبل خدعة ايضاً ، فقد
أجلاهم الدروز عملياً عن كل أراضيه ، ولم يبق لهم فيه غير حامية السويداء
المحصرة التي هم أحوج ما يكون اليوم إلى انقاذها من الحصار الشديد المضروب
حولها ، قبل أن ترغم على الاستسلام ، وان أول شرط للصلح يجب أن يكون
جلء فرانسا عن سوريا كلها بما فيها لبنان ، وتنفيذ خطوات الجلء بسرعة ، بعد
تعيين مراقبين من السوريين يسهرون على الموانئ السورية - اللبنانية للحيولة
دون وصول قوات افرنسية جديدة ، ويشرفون على عمليات الجلء في أوقاتها
المحددة ، والا فان الفرنسيين سينقضون شروط الصلح ، ويزحفون بقواتهم على
الجبل لإخضاعه والبطش بسكانه . وفي الرسالة وعد بأن المناطق السورية ستثور
لشد أزر ثورة الجبل ، وهو وعد لا يستند الى ظل من الحقائق ؛ فالوطنيون
المجتمعون في دار الشراباتي غير ثوريين ، وليس لهم معرفة بالثوريين من أبناء الشعب ،
ولكنهم كانوا يحدسون بنشوب ثورات اذا تقام أمر ثورة الدروز ، ويريدون
لثورة الدروز أن تستمر ، لعلمهم في النتيجة يفيدون منها في حمل الفرنسيين على
تبديل سياستهم في سوريا ، كما علمت ان كل ما توصل اليه الوفد الدرزي اللبناني
في مفاوضاته مع زعماء الجبل هو الاتفاق على اطلاق سراح الزعماء المبعدين في
لواء الفرات ، واعادتهم الى جبل الدروز ، لقاء اطلاق سراح أسرى الجيش
الفرنسي في الجبل ، والسماح للنساء والأطفال الفرنسيين المحاصرين في القلعة

بالخروج منها ، والحقاق بمراكز الفرنسيين في حوران ، وان شهامة الدروز تأبى أن يعامل النساء والاطفال معاملة المحاربين ؛ ويقاسوا شدة الحصار في القلعة . وقد تم تبادل المبعدين بالمحاصرين من النساء والاطفال ؛ وسمح بينهم لفوزي الاطرش نجل فارس الاطرش الموظف في السويداء الذي دفعه ولاؤه والده لفرانسا ؛ إلى ان يحاصر مع الفرنسيين في القلعة - سمح له أن يخرج مع النساء والاطفال الفرنسيين ، ويلتحق بأسياده المستعمرين . ولا غرابة فوالده أيضاً عميل فرنسي في قرية « ذيبين » ؛ تنكر للثورة منذ بدايتها ، وكان لا يتورع عن التجسس لفرنسا أثناء الثورة ؛ وموافاتها بتقارير عن حركات الثائرين يحملها إلى القيادة الفرنسية في حوران بعض جواسيس فرانسا ؛ حتى ضاق قادة الثورة بأعماله ذرعاً ، وخاصة ابن عمه سلطان ، فقبض عليه ، بعد وصول الأمير عادل ارسلان الى الجبل ، وحمل اليه ، واستخدم كل براعته لاقتناعه بالعدول عن خطته التي تعتبر خيانة وطنية ، وأفهم انه لولا وشائج القربى التي تربطه بآل الاطرش لحكم عليه بالموت ، ونفذ به الحكم فوراً . واخيراً اضطر الأمير عادل لأن يجلبه أمام الحاضرين ، ولكن العميل لم يرتدع ، وظل على ولائه لفرنسا ، هو وابنه الذي سمح له بمغادرة الجبل مع قافلة النساء والاطفال الفرنسيين .

استطعت خلال اقامتي في دمشق ان اهتدي الى شاب من حمص اسمه مظهر السباعي كان ضابط رشاش في الجيش العثماني ، ثم في الجيش العربي ، ولما احتل الفرنسيون سوريا الداخلية ، وحلوا الجيش العربي ، التحق بشورة ابراهيم هنانو في الشمال ، وقبض عليه في البادية مع من قبض عليهم من أفراد العصاة وضباطها ، ثم أفرج عنه وعن إخوانه ، حسب نصوص معاهدة انقرة التي ورد فيها نص بالعفو عن جميع جرائم الثورات في كيليكية وسوريا ، فالتحق بعد خروجه من السجن بحكومة الحجاز ، وعين ضابطاً برتبة نقيب في جيش الملك الحسين ، هو وأخوه الضابط في الجيش العثماني سابقاً . ولما احتل السلطان عبد العزيز آل سعود الحجاز في الشهور الاولى من عام ١٩٣٥ ، سرح من الجيش مع من سرح من السوريين

والفلسطينيين ، وعاد الى سوريا . وكنت اهديت اليه مصادفة في إحدى سهراتنا الليلية مع فريق من رفاق المدرسة المتحمسين مثلي للثورة الدرزية ، وبعد انقضاء السهرة ، سميت حتى انفردت به ، وفاتحته بأمر ثورة حماة ودوره فيها ، فأظهر استعداداه لبذل روحه في سبيل خلاص وطنه من الاستعمار ، وتعاهدنا على العمل معاً ، وان يبقى معي في دمشق ، تحت الطلب ، ورهن إشارتي ، وبعثت بكتاب بالطريقة المتفق عليها إلى سعيد الترمانيني اعلمه بنجاحي في أمر الضابط الرشاش ، وإذا يجواب منه يدعوني ورفيقي الى حماة ، للعمل فيها ، فقررنا السفر اليها بقطار اليوم الثاني .

اعتقال الوطنيين في دمشق

و كنت في الأيام الاخيرة اتصل كل صباح ، في مقهى الكمال ، بابن عمي نجيب الرئيس الذي عرفت انه من المنتمين الى حزب الشعب ، واتحدث معه عن نشاط الحزب لدعم الثورة الدرزية ، وأستحث ، بطريقة ، أعضاء الحزب على تشجيع الثورة في المناطق السورية الأخرى ، وأطلعته ، لآخر مرة ، على انني مسافر مع رفيقي مظهر السباعي الى حماة ، فإذا كان الحزب بحاجة الى الاتصال بأحد أعضاء فرعه في حماة ، لأمر يخشى الجهر بها ، فأنا على استعداد للقيام بهذا الاتصال ، فطلب مني ان أقابله في صباح الغد ، أي في صباح اليوم المقرر فيه سفرنا ليلاً بالقطار الى حماة . و وعد بأن يحملني آخر تطورات الوضع والتعليقات لفرع الحزب في حماة . وجئت كعادتي في صباح ٢٧ آب عام ١٩٢٥ الى المقهى ، وانتظرت طويلاً فلم يحضر نجيب الرئيس ، خلافاً لعادته في كل صباح ، ولما قطعت الأمل من مجيئه الى المقهى ، توجهت مع رفيقي السباعي الى مكتب جريدة « المفيد » في بناية العابد ، وكان يومئذ يحرق فيها ، فوجدت مكتبه مغلقاً ، وعرفت من المستخدمين انه اعتقل في الليل الفائت مع عدد من إخوانه الوطنيين ، وانهم ما يزالون في سجن الشرطة معزولين عن أي اتصال ، فأسفت لانني لم استطع ان أقوم بواجب

الاتصال بين الوطنيين في دمشق وحماة . وعرفت في النهار نفسه ان سبب الاعتقال هو الاجتماع الذي عقده بعض أعضاء الحزب في منزل الحاج عثمان الشراباتي، وناقشوا فيه ، لأول مرة، موقف الحزب من الثورة في جبل الدروز، وكان هناك اعتراض من بعض الاعضاء ، وتعلل بأن عمل الحزب سياسي ، دون عنف ، كما ورد في نظام الحزب ، وان أي تدخل بالثورة يقضي على الحزب ، واخيراً اتخذ قرار بالاكثريّة الساحقة ، يقضي باتصال الحزب بقيادة الثورة ، وايفاد الدروبي والحلي من اعضائه الى الجبل بالمهمة التي كنت أشرت اليها ، ورسم خطة معها لدخول ثوار الدروز دمشق ، والعمل مع أهلها على إجلاء الفرنسيين عن العاصمة ، وبذلك تعم الثورة سائر المناطق السورية ، وتغدو ثورة وطنية شاملة . وكان في جملة المقررات أيضاً ان يتداعى المجتمعون الى السفر في اليوم الثاني الى قرية « حوش المتبن » لصاحبها جميل مردم ، حيث يتسللون منها فرساناً الى جبل الدروز بطريق المرج . وكان في هذا الاجتماع يحى حياتي الضابط الركن في الجيش العثماني سابقاً، والدكتور عبدالرحمن الشهبندر ، وجميل مردم ، وفوزي البكري ، وأخوه نسيب البكري ، وسعيد حيدر ، وسعد الدين المؤيد العظم ، ونبيه العظمة ، ونجيب الرئيس وغيرهم بالاضافة الى عثمان الشراباتي صاحب الدار . ولما انصرفوا من الاجتماع ، بعد منتصف الليل ، الى منازلهم ، خاف الدكتور الشهبندر ان يبلغ أحد أعضاء الحزب المشبوهين ، مقررات الحزب الى السلطة الفرنسية في الليل فيعتقل هو واخوانه ، لذلك لم يذهب الى بيته ، وغادر دمشق قبيل الصباح الى الزبداني حيث كانت اسرة زوجته من آل المؤيد العظم تصطاف فيها . وهناك اطلع نزيه المؤيد العظم ابن حميه على ما اتخذ من قرارات في الحزب ، وعلى عزمه وعزم اخوانه على الاجتماع في قرية « حوش المتبن » للسفر الى جبل الدروز ، فعادا معاً الى دمشق فحوش المتبن ، ولما لم يجد فيها غير العميد الركن المتقاعد يحى حياتي ، وتخلف الباقيون عن الحضور ، عاد الثلاثة الى دمشق . وكانت السلطة قد قبضت في الليل على فارس الخوري ، وتوفيق شامية ، والحاج عثمان الشراباتي ، ونجيب الرئيس ،

وفوزي الغزي وغيرهم من الوطنيين الذين عثرت عليهم في منازلهم ، وأخذت تتعقب الآخرين ، فأحاطت منزل الدكتور الشهبندر في عرنوس بالشرطة السرية والجواسيس ، ففر من فر ، واختفى من اختفى منهم ، ولجأ الشهبندر ، بعد عودته من « حوش المتبن » الى الزبداني . وبعد أيام اتضح ان الفرنسيين على علم بمقررات حزب الشعب ، نقلها اليهم ليلة الاجتماع أحد عملائهم في الحزب ، وأن السلطة علمت بعدئذ بوجود الشهبندر في الزبداني ، ففر الدكتور الشهبندر مع نزيه المؤيد من الزبداني بطريق سرغايا وحلبون الى الغوطة ، فحشوش المتبن في المرج ، حيث أرسلوا من القرية من يتصل بإخوانهم المختفين في دمشق ، فحضر جميل مردم صاحب الحوش ، وسعد الدين المؤيد العظم ، وحسن تحسين ، وإخوان لهم امتطوا كلهم الخيل في الليل ، وقد أصبحوا نحو عشرين فارساً ، وانطلقوا سالكين الطريق الصحراوي الى الجبل ، فبلغوا أولى قرأه في الصباح .

غلطة كادت تفسد كل شيء !

جلست مساء اليوم المقرر لسفرنا أتناول العشاء مع رفيقي السباعي في مطعم قرب السنجقدار ، ولما انتهينا ، سألت رفيقي ما قوله في ان أذهب بنفسي الى دائرة الشرطة ، باعتباري ابن عم نجيب الرئيس المعتقل ، واطلب مقابلته متذرعاً بحاجته الى نقود أو ملابس ، لعلمهم يسمحون لي بمقابلته ، فالتقط من بين شفتيه كلمة أو إشارة عما يجب عمله بالنسبة لإخوانه الوطنيين في حماة ، فوافقني على رأيي ، وهو عسكري قليل خبرة مثلي بالامور السياسية واعمال المخابرات . وكنا نجهل كل ما تم في اجتماع الوطنيين في دار الشرايات ، واطلاع السلطة على قراراتهم ، بل كنا نجهل حدوث الاجتماع من أساسه ، فنهضت ، وتوجهت بنفسي الى دائرة الشرطة أسأل عن ابن عمي المعتقل ، فأحلت الى دائرة التحري ، أي الشرطة السرية ، واستدعاني رئيسها حمي عزيز الشهير بأبي رباح ، وحقق معي عن صلي بنجيب الرئيس محاولاً بنظراته الحولاء استجلاء

ما اكتمه عنه ، ثم ابلغني ان نجيب الرئيس ممنوع من الاختلاط بأي احد من الناس ، اقرباء كانوا أو غير اقرباء . ولما خرجت من لدنه بخفي حنين ، اطلق ، على ما يظهر ، جواسيسه ورائي الى المطعم حيث ينتظرني رفيقي السباعي ، وبقينا تحت رقابتهم حتى ركبنا القطار حوالي منتصف الليل الى حماة ، فاعلم حملي عزيز دائرة المخابرات الفرنسية التي ارسلت برقية إلى ضابط الاستخبارات في حماة تطلب منه ان يراقب منير الرئيس ومظهر السباعي ، ويسجل حركاتهما في حماة . لقد كانت هذه الحركة المرتجلة غلطة مني في دمشق أدت الى وضعي مع رفيقي تحت رقابة شديدة اثناء وجودنا في حماة ، اذ لم نكد نصل بعد الظهر الى فندق العاصي حيث اعلنت ضيفي السباعي فيه ، ونخرج معاً للقاء عبد الحسيب الشيخ سعيد في مكتبه في سوق الدباغة ، وهو صحافي وصاحب مطبعة ، ومن المشتركين في التخطيط لثورة حماة ، حتى اشار اليانا من وراء منصته ان لا ندخل مكتبه ، وان نبتعد فوراً عن محله ، فتابعنا سيرى مع رفيقي السباعي نحو جسر العاصي ، وسلكنا الطريق الجديد على ضفة العاصي حيث يقوم فندق ابي الفداء ودار البلدية ، نتمشى الهوينى كأننا في نزهة ، واذا بشاب يلحق بنا ، ويقترب منا حذراً ، ويهمس في اذني بان برقية وردت اليوم الى ضابط الاستخبارات من دمشق ، بوضعنا تحت الرقابة ، وتعلمه اننا قادمان في القطار ، وان احد الاخوان الذين يخططون للثورة كان صديقاً لترجمان المستشار اطلع من قبيل المصادفات على هذه البرقية ، واعلمهم بمحتواها . وقد عرفت بعدئذ ان فهمي العظم هو المعني بالموضوع ، فقد ذهب نهار قدومنا الى حماة لزيارة صديقه الشيخ فؤاد حبيش اللبناني ترجمان ضابط الاستخبارات ، وكان مكلفاً من مخططي الثورة في حماة ان يبقى على صلة بالترجمان ، ويتودد اليه كصديق حميم ، ليفهم منه ما يستطيع من اخبار الفرنسيين وخططهم . وبينما كان جالساً الى جانب الترجمان في مكتبه استدعي هذا لمقابلة رئيسه ضابط الاستخبارات . وكان يومئذ في هذا المنصب « القومندان كوستيلير » ، فأخذ فهمي العظم الضليع باللغة الفرنسية يقرأ بسرعة الاوراق المبعثرة على مكتب الترجمان ، فوقع نظره على البرقية ،

وكان يعرف انني ورفيقي مرتبطان معهم في التخطيط لثورة حماة ، فحمل الخبر فوراً الى اخوانه ، واتخذوا التدابير كي لا تكتشف السلطة الفرنسية صلتنا بهم .
وفعلاً اغفلنا الفرنسيين بحركاتنا وتصرفاتنا ، واوهمناهم انني دعوت صديقي السباعي لزيارة حماة ، واللهو والتسلية ، وانتجاع المقاصف ، وتناول الطعام والشراب في المحلات العامة . وكنت بعد ان اوصله الى الفندق ، اتسلل إلى المواعيد التي اضربها للقاء بأخواني ، بعد ان اتأكد انني غير مراقب . وكانت ازقة حماة الضيقة تساعد على الافلات من تحدته نفسه بمتابعة خطواتي .

عقدت عدة اجتماعات للبت في تحديد موعد للثورة في حماة ، وكنت من المصريين على الإسراع في تحديد الموعد ، وتقريب أيامه ، واقول ان كل يوم ينقضي يزيد في قدرة الفرنسيين على حشد النجيدات والقوى ، ويقرب إمكان ضرب ثورة الجبل التي لا ينقذها من تكالب القوات الفرنسية عليها غير نشوب ثورة في منطقة حساسة من سوريا ، كحماة ، وتوزع القوات الفرنسية لمقاومة الثورات العديدة التي قد تنشب اذا ما نجحت ثورة حماة . ولكن كان بين الذين اطلعهم فوزي القاوقجي على نياته ، وطلب منهم دعم ثورته في حماة ، نجيب آغا البرازي من اصحاب القرى والاملاك ، وهو رئيس لبلدية حماة ، وبينه وبين القاوقجي صداقة دفعت القاوقجي الى اطلاعه على سره ، باعتبار البرازي من الأغنياء القادرين على مد الثورة بالرجال من القرى العشر التي يملكها في الريف ، وبالمال الذي تمتلئ به خزائنه ، فيما اذا اقتضى الأمر شراء السلاح لتزويد الرجال به . ونجيب البرازي ، في الواقع ، من اصحاب الاملاك الذين يقدمون مصالحتهم على مصلحة الوطن ، إلا انه تظاهر ، امام صديقه القاوقجي الذي وضع به ثقته ، بالاستعداد لعون الثورة في حماة ، لا سيما وهو يسمع أنباء هزيمة الفرنسيين في جبل الدروز ، وسوء وضعهم في سورية . لقد راح يتظاهر للوطنيين في حماة بأنه معهم ، حتى اذا نجحت الثورة في جبل الدروز ، وجاءت للبلاد بنصر سياسي ، حسب في عداد الوطنيين المجاهدين ، ولكنه لما وجد نفسه في الاجتماعات مطالباً بتحديد موعد لثورة حماة ، وبتقديم المال والرجال لها ، مما قد يؤدي به وبشروته الى مشارف الخطر ، في حال فشل الثورة ، اخذ يطلب تأجيل

الموعد الى أشهر الخريف . ريثما تنتهي اعمال الفلاحين على اليبادر في القرى ،
وتجمع الغلال ، خوفاً من سطو البدو عليها ، عند اختلال الأمن بسبب الثورة .
ولما قيل له ان القوات الفرنسية تتوالى نجاتها الى سوريا ، وتحتشد بقيادة
الجنرال « غاملان » في حوران للقضاء على الثورة ، وان ثورة حماة لا معنى لها
في حال ضرب ثورة الجبل والقضاء عليها ، تعلق بأنه لا بد اذن من الاتصال
بقيادة الثورة في جبل الدروز ، والاتفاق معها على شروط واضحة للتعاون بين
الثورتين ، وترك أمر تحديد الموعد لها ، لأنها ادرى منا بالوقت المناسب لنشوب
الثورة في حماة ، وأصر على رأيه هذا ، بما حمل القاوقجي واخوانه المجتمعين
للرضوخ لارادته ، فقد خشوا ، ان لم يأخذوا برأيه ، ان ينسحب من حركتهم
ويطلع الفرنسيين عليها ، فيقضي عليهم كلهم ، وعلى حركتهم . ولما كنت اعلنت
انني ورفيقي مظهر السباعي لن نشترك في ثورة حماة ، اذا لم يحدد لها موعد
قريب ، واننا في حال التأجيل سنبادر للسفر الى جبل الدروز للالتحاق
بالثورة ، والقتال في صفوف المجاهدين الدروز ، اقترح احد الاخوان ان نكون
رسولي الثورة الحموية الى قيادة الثورة في جبل الدروز ، وان نحمل اليها مطالبها .
وفي اليوم الثاني للتأجيل زارني الكاتب فوزي القاوقجي يرافقه احد مؤسسي
الحركة ، في دارنا ، وزودني بالشروط التي اتفق عليها لنحملها الى سلطان
الاطرش ، فحفظتها عن ظهر قلب ، حتى لا احملها مكتوبة ، واعرض نفسي
للقوع بأيدي الفرنسيين ، وسافرت الى دمشق لاستخراج جواز سفر الى الاردن ،
على ان يلحق بي ، بعد ايام ، مظهر السباعي الى دمشق ، فهو كان يحمل من قبل
جواز سفر . واخترت السفر الى الجبل بطريق عمان ، متذرعاً بأنني عينت
معلماً في شرقي الاردن . وقد يسر الله لي في دمشق من سهل لي امر جواز السفر ،
بعد ان وقفت دائرة الامن العام الفرنسي دون إعطائه . وفي الثالث عشر من
ايلول عام ١٩٢٥ وصل الى دمشق مظهر السباعي ، بعد ان حفظ عن ظهر قلب
ايضاً الشروط والمطالب التي اتفق عليها منظمو ثورة حماة . وفي صباح اليوم
التالي امتطى كل منا قطار عمان ، في مركبة غير المركبة التي فيها صاحبه ، زيادة

في الحذر ، حتى تجاوزنا حدود سوريا . وفي عمان اتصلنا بالمجاهد سعيد العاص ، وبعض اخوان لنا ، وطلبنا منهم تيسير سفرنا سرأ الى جبل الدروز ، حتى لا نقع بأيدي الانكليز ، حلفاء الفرنسيين في الاستعمار ، وتعدت لهم بان ادفع اجرة سيارة خاصة تنقلنا الى الجبل ، او أجرة راكبتين نركبهما الى مقر الثورة .

في مجاهل البادية .

كانت عمان تغص بالجواسيس الانكليز والفرنسيين ، لذلك قام العقيد المتقاعد سعيد العاص ، وهو في الاصل مواطن حموي ، والاستاذ عبد الستار السندروسي القاضي في محاكم عمان ، والمواطن الحموي جميل العلواني الموظف في عدلية عمان - قام هؤلاء الثلاثة بتسهيل سفرنا الى جبل الدروز ، فاستأجروا لنا سيارة ، حملتنا من ضاحية المدينة ، ووصلتنا عصر يوم ١٧ ايلول عام ١٩٢٥ الى منزل الشيخ حديثه الخريشي ، شيخ الخريشات في عشيرة بني صخر ، ورافقنا في السيارة شاب سوري اسمه علاء الدين المسوتي ، قيل لنا انه مثلنا يريد الالتحاق بالثورة . وفي المساء وصلت الى الحي سيارة اخرى من عمان تحمل الشيخ حديثه صاحب البيت ، ونصري سليم الضابط في فلسطين ، وشقيق المجاهد فؤاد سليم من دروز لبنان المثقفين ثقيفاً عالياً ، ومن الذين اشتركوا في الثورة العربية ، وفي الجيش العربي حتى بلغ فيه مرتبة عالية ، ثم نزع عن دمشق إثر الاحتلال الفرنسي ، واقام ردهاً في عمان وفلسطين يعمل مع اخوانه احرار سورية ، وخاصة اخوانه من المنتمين لحزب الاستقلال الذي تألف في سورية بعد الحرب العالمية الاولى ، وجمع بين المنتمين لمختلف الجمعيات والأحزاب العربية في العهد العثماني ، حتى ابعده الانكليز عن فلسطين وشرقي الاردن ، فاقام في مصر . ولما نشبت الثورة في جبل الدروز ، غادر مصر سرأ ، واجتاز سيناء مع الاعراب على ظهور الجمال ، وتسلل الى فلسطين وشرقي الاردن حتى التحق بثورة الجبل ، وكان قلبها النابض

بتجاربه في الثورة العربية ، وبثقافته الممتازة ، وبأنه من أبناء معروف يعمل ما لا يستطيع غيره ان يعمل من شباب العرب الملتحقين بالثورة .

كان اخواننا في عمان تركوا امر ايصالنا الى جبل الدروز للشيخ حديثة الخريشي ، فهو كشيخ في عشيرة الصخور قادر على أن يجد الرواحل والدليل ، فلما حضر الشيخ مساء تحدث مع السائق الذي جاء به من عمان الى قرية امالعمد والمضرب الذي نزلنا فيه ضيوفاً ، واخذ يقنعه بان يحملنا بسيارته الى جبل الدروز ، ويطمعه بالاجر ، فلما اتفقنا عاد السائق الى عمان ليتزود بالوقود ، ويكمل نواقص سيارته في رحلة طويلة سيضرب فيها بمجاهل البادية ، ثم بوعور الجبل البركانية ، وحوالي الساعة الخامسة من صباح ١٨ ايلول انطلقت السيارة ، من طراز فورد ، تحمل مظهر السباعي ، ونصري سليم ، وخير الدين اللبابيدي ، ومنير الرئيس ودليلاً من البدو كان هياًه الشيخ حديثة ، وتخلف في المضرب عند الشيخ ، علاء الدين المسوتي ، لان السائق ابى ان تحمل سيارته أكثر من خمسة ركاب لصعوبة الطريق .

وقد دفعت للسائق سلفاً نصف اجرة السيارة ، ودفع نصري سليم النصف الآخر ، ولم نبتعد عن أم العمد حوالي خمسين كيلو متراً حتى انفجرت احدي عجلات السيارة ، وتبين ان السائق نسي الآلة الرافعة في عمان ، فعملنا على تلافي هذا النقص ، بقوة عضلاتنا ، وبوضع الحجارة تحت السيارة ، ثم تبين ان السائق نسي ايضاً الخرطوم المطاط الذي يصل المنفاخ بالعجلة ، فتغلبنا ايضاً على هذا النقص بشق الانفس . تابعنا سيرنا في البادية دون سلوك طريق معينة ، يتبع السائق اشارة الدليل الذي يحاول ان لا تقع بيد الانكليز في « كامب » المفرق القريب من الحدود السورية . وقرب الظهيرة اضعنا اتجاهنا ، ووجدنا أنفسنا وسط ارض بركانية وعرة ، تسير السيارة بصعوبة فوق صخورها ، وقد انفجرت اكثر من مرة عجلاتها ، حتى لم يبق مع السائق احتياطي لتبديل



المجاهد الطيار خير الدين
اللبايدي

مطاط العجلات ، بل لم يبق مطاط الا
انفجر ، واستعصى اصلاحه ، فاضطر
الى ان يسير على العجلات الفارغة
من الهواء حتى اذا تقطعت اوصالها ، اخذ
يسير على الحديد ، واخيراً اهتدينا الى
خرائب ام الجمال ، وبعد اجتياز حررتها
الوعرة ، سلك الدليل بنا طريقاً يعرفها ،
اوصلتنا بعد الظهر الى قرية « ذيبين » ،
وتناولنا الغداء في منزل حسن حاطوم من
وجوهها. ولدى الحساب تبين اننا اجتزنا من
منازل حديثة الخريشي الى ذيبين اول قرية
جنوبي جبل الدروز ، مسافة تجتازها
الخيـل عادة بخمس عشرة ساعة - اجتزناها
نحن بالسيارة بأربع عشرة ساعة ، لأننا
ضللنا الطريق ، وقطعنا مسافة منه تسير
بنا السيارة على دواليب من حديد ، ليست
في سرعتها اسبق من الخيل.

معركة المسيفرة

- ٢٤ -

حدثنا حسن حاطوم والدروز الذين وجدناهم في داره ، في « ذيبين » ، عن معركة نشبت بين الدروز والفرنسيين في قرية « المسيفرة » من قرى حوران ، يوم السادس عشر من شهر ايلول ، أي قبل وصولنا بيومين الى الجبل ، سنتحدث عنها فيما بعد . تابعنا سفرنا ، بعد الغداء ، الى قرية المجيمر ، ومنها الى قرية « عري » ، وحللنا ضيوفاً في دار الامير حمد الاطرش ، فوجدنا في دار عري - دار الامارة - الزعيم الركن المتقاعد يحيى حياتي ، وسعد الدين العظيم ، وفؤاد سليم ، وحسني صخر . وكانت فرحة نصري سليم عظيمة بلقاء أخيه . اما أنا فقد طلبت من الامير حمد الاطرش ان يوصلني ورفيقي مظهر السباعي الى سلطان الاطرش ، لأننا نحمل رسالة خطيرة إليه ، لانبوح بها الاله ، فكان الجواب ، انه ومن عنده من الضيوف يجهلون مقر سلطان ، لانه يتجول دوماً ، ولكنه سيسعى للسؤال عنه ، فاذا عرف مقره اعلمه بأمرنا . وكان حذر الدروز في محله من ايصال الزوار الجدد الذين يجهلون أمرهم الى سلطان الاطرش ، او البوح لهم بمقره ، ومن مستلزمات الثورة ، فالجاسوسية الفرنسية كانت تعمل بكل نشاطها لمعرفة تنقلات سلطان في الجبل ، وتقصف الطائرات الفرنسية كل قرية يبلغها انه دخلها أو حل فيها . وكانت شبكة الجاسوسية في الجبل منظمة وقوية وخطيرة . ومن نشاطها ان كل غريب يصل الى جبل الدروز كان نبأ وصوله ، مع اسمه وهويته يصل الى الفرنسيين في مدة لا تتجاوز اليومين . وكثيراً ما كانت الطائرات الفرنسية تقصف القرية التي بات فيها سلطان الاطرش اكثر من ليلة واحدة ، لذلك اخذ سلطان يسرع في تنقله بين القرى ، ولا يبيت في قرية اكثر من ليلة ، وان

اضطر للأقامة مدة اطول اختار قرية صغيرة ، وسعى لاخلائها من الاطفال والنساء ، فقد كانت الغارة الجوية على القرية الواحدة تقوم بها عدة طائرات ، حتى يبلغ عددها احيانا السرب والسربين . وكان سلطان في جميع الغارات التي صادفها قدوة في رباطة الجأش ، فقد تعرض مرة ، في قرية « العطنة » ، وهو جالس في شباك احدى الغرف ، يكتب رسالة ، لغارة قامت بها طائرات عديدة ، دمرت بقنابلها الكثير من المنازل ، فلم يتزعزع من مكانه ، ولم يتوقف عن الكتابة ، مع ان اكثر من كان معه ، غادر الدار الى خارج القرية خشية أن تهدم على ساكنيها ، الا سلطان ، فلم يتزعزع ، ولم يبدل وضعه ، وكأن شيئا لم يحدث .

غارة على اطراف دمشق

كانت امنية الوطنيين السوريين ان يتقدم الدروز قبل ان تستكمل فرانسة حشد قواتها - ان يتقدموا نحو دمشق ، ويدخلوها بالاتفاق مع ثوار من اهلها ، في يوم يستعدون له . وقد حمل هذه الامنية إلى سلطان زكي الدروبي وتوفيق الحلبي رسولا الوطنيين في دمشق ، فتقدم يوم ٢١ آب مئات من مقاتلة الدروز ، اكثرهم من الفرسان ، نحو الكسوة في اتجاه دمشق ، حتى بلغوا قرية العدلية ، وقيل ان طلائعهم وصلت إلى بوابة الله في حي الميدان ، ولكن الطائرات الفرنسية طاردتهم ، وقصفتهم ، وأصلتهم من نار رشاشاتها ، وخرجت من دمشق قوة افرنسية لمطاردتهم ، وبعد صدام لم يطل أمره ، انسحب الدروز الى جبلهم ، فقد كان الوعد ان يستقبلهم ثوار من دمشق وحي الميدان خاصة ، ويدخلوا معهم المدينة ، ويهاجموا فيها مواقع الفرنسيين ، ولكنهم لم يجدوا من يستقبلهم فآثروا العودة الى الجبل . والواقع ان الوطنيين كانوا اعتقلوا أو اختفوا إثر اجتماعهم الاخير في دار الحاج عثمان الشراياتي ، ولم يبق أحد منهم على صلة بالثوريين من اهالي الميدان والشاغور والعمارة وغيرها من احياء دمشق ، ففشلت

حركة الدروز ، وعادوا من قرية العدلية يحملون السوريين مسؤولية الفشل . ولما وصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر واخوانه الى الجبل ، جرت مباحثات بينهم وبين سلطان الأطرش حول توجيه قوة من الدروز الى دمشق ، وتعهد يحيى حياتي باحتلال دمشق بعدد حده من المقاتلة ، ثم اخذ يزيد الارقام كلما تأخر الزمن ، متذرعاً بان النجيدات الفرنسية تصل تباعاً الى سورية ، ولا بد له من ان يدخل تزايد قوى العدو واسلحته في حسابه . ولم ينفذ هذا الطلب لان الدروز ، كما قلنا ، كانوا ينتظرون من المناطق السورية الأخرى ، وخاصة حوران ودمشق ، ان تقوم هي بواجبها ، وعندئذ يهبون لنجديتها ، وقد جربوا تجريدة العدلية ، فلم يجدوا أحداً من اهالي دمشق استقبلهم . وليس من السهل ان يدخلوا وحدهم مدينة كبرى ، ويخوضوا فيها مع الفرنسيين حرب الشوارع ، واهل تلك المدينة يتفرجون ، وينتظرون من الدروز ان يحرروا مدينتهم !..

وقد جاء في انباء الفرنسيين عن تجريدة العدلية ما يأتي : « يوم ١٧ آب بينما كان الجنرال « سوله » خارجاً بسيارته ، وبرفقته الكابتين « دو كوتل » لتفتيش الجنود قرب قرية الكسوة ، عارضه عند قرية المرجانية كوكبة من فرسان الدروز ، واطلقوا نار بنادقهم على السيارة ، فلم يصب احد بأذى ، واجتازت السيارة الحجارة الموضوعة خصيصاً لاعاقبتها عن السير ، ولكن كوكبة ثانية استقبلتها عند عقبة ثانية من الحجارة ، واطلقت عليها النار ، فاصيب الجنرال « سوله » في فخذه ، وجرح الكابتين « دو كوتل » في كتفه ، ونجت السيارة من الدروز .

وجاء في اخبار الفرنسيين ايضاً ان الدروز من المقرن الشمالي نسفوا جسر دير علي قرب محطة دير علي القريبة من الكسوة ، ورابطوا عنده ، فوجه الفرنسيون قوة من دمشق ، ولكن الدروز اشتبكوا معها ، وغنموا منها خيلاً وسلاحاً ، وعادوا الى جبلهم . وهذا يدل على أن الدروز ، مع الانعزال الذي فرضته عليهم أوضاعهم بالنسبة لاهل حوران وسائر السوريين ، لم يترددوا في جس النبض ،

عندما اتصل بعلمهم عزم فريق من اهالي دمشق على الثورة . ولكن السياسيين الذين عاملوهم من دمشق كانوا في الواقع غير ثوريين ، والا لرتبوا أمر الثورة في بلدهم ، وقاموا بها ، وعندئذ كانوا سيجدون الدروز يخفون لنجدتهم ، ولا دليل على ذلك اكثر من اختفاء اكثر الوطنيين عند القبض على فارس الخوري ، وفوزي الغزي ، ونجيب الريس واخوانهم ، واهتمامهم بالفرار الى الجبل ، بدلاً من الاختفاء في دمشق ، والاتصال بالثوريين من الاهلين ، وتنظيم الثورة ، والتعاون مع الجبل على خوض معركتها حسب خطة مرسومة .

معركة المسيفرة فذة في تاريخ الثورة

لما ادرك الدروز ، من الانباء المتواترة ، ان الجنرال « غاملان » يحشد قواته في المواقع الاستراتيجية في حوران للزحف على الجبل ، وان ما علقوه من آمال ، على ثورات قد تنشب في مناطق سورية اخرى ، لم يتحقق منها شيء ، بل كانت كلها سراياً ، بدأوا يتداولون ، فيما بينهم ، حول الخطة التي تمكنهم من عرقلة زحف الجيش الفرنسي على جبلهم . وكانوا على علم بان الفرنسيين في حوران تقدموا بقوة من جيشهم الى قرية « المسيفرة » في حوران ، وجعلوا من هذه القرية القريبة من حدود الجبل مخفراً امامياً للانطلاق منه نحو المقرن الجنوبي ، وفيه منازل آل الاطرش ، وبلدة سلطان الاطرش . وبعد التداول قرروا رأي قيادتهم على مهاجمة قرية « المسيفرة » لضربها من اراضيهم ، وإنزال ضربة قاصمة بقوات الجنرال « غاملان » قبل ان تدهمهم في جبلهم . وفعلاً ارسلت القيادة الى القرى تدعو المحاربين من الدروز الى التجمع ، ولما اكتمل عددهم وجهتهم في ليل السادس عشر من ايلول الى المسيفرة ، وعلى رأسهم عدد من زعماء الدروز ، ومن اللبنانيين العقيد فؤاد سليم ، ومن السوريين نزيه المؤيد العظم ، وسرحان الخالدي الشهير بأبي تركي ، وهو من قدامى الضباط غير المتعلمين في الجيش التركي . وكانت الخطة المرسومة ان يتسلل الدروز قبيل

الفجر ، الى القرية ، ويفاجئوا فيها القوة الفرنسية التي تحصنت بالقرية ، وحفرت حولها الخنادق ، واقامت الحصون والاستحكامات والاسلاك الشائكة ، ولم تترك غير منفذ غربي واحد من القرية الى حوران ، ومنفذ مثله شرقي الى الجبل - كانت الخطة ان تفاجأ هذه القوه التي كانت تعد بضعة آلاف جندي ، بالتسلل ، ثم بهجوم صاعق مباغت هدفه احتلال القرية ، واعمال السيف في رقاب الحملة المعسكره فيها . وقبل فجر السابع عشر من ايلول تقدم الدروز براياتهم ، في صف طويل سالكين الطريق الشرقي الى منفذ القرية ، يرومون منه التسلل ودخول القرية . ولما بلغ بعضهم المنفذ ، ووراءه رتل طويل من المقاتلة ، اطلق احد الجواسيس المهندس بين الدروز عياراً نارياً من بندقيته ، هبت على اثرها الحملة كلها تطلق نيرانها على تجمعات الدروز ، تساعدها اسهم الاضاءه على الرؤية ، فأخذ القتلى والجرحى يتساقطون بكثره ، وكان اصعبهم موقفاً المتقدمون ، فاندفعوا ، فرسانهم ومشاتهم ، الى القرية ودخلوها ، تخلصاً من نار العدو ، وتراجع المتخلفون منهم ، وهم الاكثريه ، وابتعدوا عن القرية ، تحت وابل من النيران الحامية ، وانبلج الفجر ، وفي القرية نحو ستمئة مقاتل من الدروز ، وعلى بعد من القرية في الغرب اضعاف هذا العدد ، لا يستطيعون ان يساعدوا اخوانهم ، للنار التي تنفثها اسلحة الوف الجنود من الحصون حول القرية ، ومن منازل القرية نفسها .

كانت المعركة بالنسبة للذين خرقوا الطريق ، ونفذوا الى القرية معركة حياة أو موت ، فنازلوا الفرنسيين في ازقة القرية وبيوتها ، وقتلوه ، وهزموهم ، حتى سيطروا على منازل القرية ، وركبوا اسطحتها ، وركزوا اعلامهم وراياتهم عليها ، ولكن الكثره من الجنود والضباط كانوا في الخنادق والحصون المقامة حول القرية ، وكان من المستحيل على الدروز ، لقلتهم ، وللأسلحة الخفيفة التي بيدهم بلوغ هذه الحصون والخنادق ، والاستيلاء عليها ، فلبث كل فريق في مكانه ، وتحصن فيه ، واخذ يدافع عنه ، حتى نفدت من الدروز ذخيرتهم ، فاستبدلوا

بنادقهم بنادق فرنسية غنموها في القرية . وربما افاد الفرنسيين الذين كانوا نياماً في القرية ، انشغال الدروز الذين دخلوا القرية بالغنائم اولاً ، ففر بعضهم لاجئاً الى الخنادق ، إلا ان العقلاء من الدروز ، وجدوا ان الخيل والبغال التي كانت تملأ دور القرية واسطبلاتها ، ستشغل المحاربين الدروز عن مهمتهم ، وهي القتال ، لذلك اخذوا يقتلون كل جواد فرنسي ، حتى كف اخوانهم عن الغنائم ، والتفتوا الى القتال ، فاستطاعوا تطهير منازل القرية من الفرنسيين ، وسيطروا عليها . ولما اشرق النهار بنوره ، وعلت الشمس ، وصلت اسراب الطائرات الفرنسية تقصف تجمعات الدروز شرقي القرية ، وتلاحقهم برشاشاتها ، حتى ابعدتهم كثيراً عن القرية ، وبعضهم انصرف الى قراه ، وبقي فريق قليل بعيداً عن نيران المعسكر الفرنسي ، ينتظر الليل لعله يستطيع ان يمد يد العون لـ اخوانه المحاصرين في « المسيفرة » . لقد كان بين الذين اقتحموا القرية عدد من آل الاطرش ، وحمزة الدرويش ، وفريق من اقربائه ، ومحمد عز الدين الحلبي مدير العدالة في حكومة جبل الدروز ، فقد ابلى هؤلاء البلاء الحسن في القرية ، وظلموا كل ساعات النهار يناوشون العدو المختبئ في حصونه ، حتى كان العصر ، وصلت كتيبة من الفرسان الصباحيين قادمة من الغرب لنجدة حامية المسيفرة ، وايقن الدروز في القرية انهم هالكون اذا ما تقاعسوا عن الدفاع ، فاصلوا الكتيبة نارا حامية من بنادقهم ، واخذوا بالحداء والاهازيج ، حتى اوقفوا غارة الصباحيين وارغموهم قبيل الليل على التراجع والعودة الى قواعدهم . وكان الليل امل الدروز المحاصرين المرتجى ، للخلاص من هذا المأزق . وربما كان الليل بعبع الفرنسيين المحاصرين في الخنادق والحصون خشية ان تصل فيه النجدات الى الدروز ، وتشن عليهم هجوماً فيسوء وضعهم .

واخيراً توارت شمس ذلك اليوم العصيب وراء الافق ، وكانت بالنسبة للدروز المدين اقتحموا القرية كشمس يوشع في بطئها ، وخاصة عندما لاحت في الأفق من الغرب النجدات الفرنسية تقترب من القرية . لذلك ما كاد الظلام يخيم

حتى تنادى الدروز الى الخروج من القرية التي كانت طرقاتها مليئة بجثث الخيل والرجال ، فراحوا يعملون نهباً بخيول الحملة في القرية . وخرجوا من المنفذ الوحيد الى الشرق ، تحت وابل من رصاص العدو الذي انفجرت ايضاً ازمتة بانسحاب الدروز من القرية. وقد ترك الدروز راياتهم منصوبة على سطوح منازل القرية ، لان كل واحد من حملة الرايات كان يريد ان يكون فارساً خفيفاً يخرج من بين الاسلاك الشائكة ، ويجتاز الطريق الطويل عرضة لنيران الجنود المحتمين بخنادقهم وحصونهم المسقوفة .

نجا معظم المنسحبين ، وسقط عدد منهم قتلى وجرحى ، وانضم الناجون الى الشرذمة التي بقيت تنتظرهم بعيداً ، وعلى رأسها العقيد فؤاد سليم ، شرقي القرية ، وحملوا معهم بعض الجرحى . ويقدر العارفون ان قتلى الدروز وجرحاهم في هذه المعركة بلغوا اكثر من ثلثمائة ، نصفهم ، او ما يقارب نصفهم من الشهداء . اما خسائر العدو بالنفوس ، فقد كانت بالغة تقدر بتسعمئة قتيل وجريح ، والبيض يقدرها بأكثر من ألف . أما خسارة الفرنسيين المادية ، فقد كانت كبيرة ، اذ خسرت الحامية اكثر خيلها وبغالها ، عدا الاسلحة والعتاد التي استولى عليها الدروز من مستودعات القرية . ويقدر خيل الفرنسيين التي قتلت في القرية بأكثر من مئتي رأس ، عدا مئات الخيول التي غنمها الدروز ، وخرجوا بها من القرية . ان معركة المسيفرة معركة فذة ، تعد من اعظم المعارك فخراً لابناء معروف ، فهم لولا الخيانة التي ظهرت في صفوفهم ، ونبتت الحامية الهاجعة بالطلق الناري لكانوا تسللوا الى القرية في الظلام ، ونازلوا بكثرتهم الحامية في خنادقها وحصونها ، وقضوا عليها قضاء مبرماً . وقد استغل الفرنسيون انسحاب الدروز من المسيفرة ، فطبلوا وزمروا بنصرهم الوهمي ، وجاءوا بأثنتي عشرة راية تخلى عنها الدروز فوق سطوح المنازل لينجوا بأنفسهم خفافاً من نيران الاسلحة عند انسحابهم ، وعرضوها كأنها رايات كسبوها في المعركة ، بعد ان افنو الجموع التي تسير تحتها . ومن دجلهم حول نتائج هذه المعركة ، اعترفهم

فقط بان حامية المسيفره خسرت ضابطاً وخمسة واربعين جندياً من الفرقة
الاجنبية ، عدا اربعة ضباط و ٧٣ جندياً جرحى من هذه الفرقة . اما خسارة
الحامية من فيلق الرماة التونسيين ، حسب اعترافهم ، فضابط واربعة رماة
قتلى ، و ١٤ جريحاً . كذلك اعترفوا بأن افراد الركب جميعاً في احدى
السيارات الرشاشة جرحوا كلهم . ويزعمون ان الدروز تركوا على الحضيض
(٢٥٠) قتيلاً ، وان مجمل خسائر الدروز ثمانية بين قتيل وجريح ، وعدد من
البنادق ، و ١٢ راية .

وكان في عداد القوات الفرنسية المعسكرة في المسيفرة اللواء الخامس من
الفيلق الاجنبي الرابع بقيادة قائد اللواء « كراتزر » ، أي الكتيبة ١٨ و ١٩ و ٢٩
مع كتيبة الرشاشات الخامسة ، مع كوكبة الفرسان الأجنبية الرابعة ، عدا
كتائب الرماة التونسيين الذين اعترفوا بمصرع عدد منهم ، مما يدل على ان القوات
الفرنسية في المسيفرة كانت بضعه الوف حشدت للزحف على جبل الدروز .
وصفوة القول ان عدد القتلى والجرحى من الدروز في معركة المسيفرة كاد ان
يساوي عدد شهدائهم وجرحاهم في معركة المزرعة التي قضت على جيش الجنرال
ميشو ، لذلك كانت المعركة ، بنسبة خسائرها وفي رد فعلها ، خيبة امل اثرت على
معنوياتهم . ويكفي اننا يوم وصولنا من شرقي الاردن الى قرية « ذيبين » في جبل
الدروز ، أي بعد يوم من انتهاء المعركة ، رأينا المضافة مكتظة بالدروز ، واخيراً
عرفنا منهم انهم جاءوا لتعزية حاطوم صاحب الدار الشيخ بسقوط اثنين من
اولاده شهيدين في المسيفره ، فتأثرنا لذلك ، واستغربنا ألا نسمع صوت نحيب
أو عويل في الدار ، وشابان من اهله يسقطان في المعركة ، وتحمل جثتها على
جمل اليها ، ونحن فيها فلا نسمع ايضاً أي صوت لنحيب أو عويل ، ثم يدخل
علينا مضيفنا والد الشهيدين مرحباً ، ولا نرى في عينيه أثراً للدمع حزناً على
فلذتين من كبده افتقدتهما امس في المعركة وجرىء بهما اليوم الى داره جثتين دامتين .
لقد ذهلنا لرباطة جأش صاحب الدار وأهله ، ولكننا بعد أن خالطنا الدروز

وعرفنا مزاياهم ، ادر كنا انهم لا يميزون في الحديث الرحمة على ميت ، مات
حتف أنفه ، فالرحمة تجوز في عرفهم على القتل في مواقف البطولة . وهذا
المشهد الذي رأيناه يذكرنا في صدر الاسلام بقول الفاتح العربي الكبير خالد بن
الوليد وهو على فراش الموت : « ان في جسمي كذا طعنة رمح ، وكذا ضربة
سيف ، وها أنا اموت على فراشي كالعير ، فلا نامت عيون الجبناء ! » انه
الايمان بان الشهيد في معارك البطولة حي ، وان من العيب ان تذرف على من
نال مرتبة الشهادة الدموع . انهم يكتمون أحزانهم في قلوبهم ، ويبدون ،
في المصائب ، غير هلعين ، ولا وجلين ، فجدير بنا أن نقصدى ببطولتهم ومآثرهم ،
فهم عرب أقحاح يحافظون على المآثر العربية ، ويتميزون على غيرهم بكثير من
الصفات والمآثر الكريمة . ومن مآثرهم العربية الكرم والشجاعة ، والإباء ،
وحماية الجار ، وهم لا يخضعون لزعمائهم خضوعاً اعمى ، فالزعم المحترم لا بد له
من أن يكون مبرزاً على أقرانه بالكرم ، او الشجاعة ، او المروءة ، وهم شديداً
الحرص على السمعة الطيبة والثناء العاطر ، فقد ثاروا مرات على الدولة العثمانية ،
وتحدوا جيوشها ، لأسباب تمس ، على الأكثر ، إباءهم ، حتى اصبحت حروبهم
مع تلك الدولة مبدأ لتأريخهم ، فيقولون سنة ممدوح باشا ، وسنة سامي باشا ،
أو بعد ممدوح باشا بسنة ، وقبل سامي باشا بعامين جرى كذا ، ووقع كذا ،
أو ولد فلان ، أو مات فلان . وهم يحبون الشعر ، وينظمون شعرهم الشعبي
بلهجتهم العامية ، وفيهم شعراء اذكىاء سجلوا ايامهم ووقائعهم ومعاركهم بقصائد
ما تزال تحفظ وتروى ، وتؤلف المادة في حدائهم واهازيجهم . واظن اننا نذكر
الشعر الشعبي الذي لحنه المطربة « اسمهان » ، وغنته بلحن الموال ، وحفظناه
اعجاباً بروعته ووطنية ناظمه ، إذ يقول :

يا ديرتي مالك علينا لوم يا ديرتي لومك على من خان
نحن رويننا سيوفنا من القوم

الى آخر تلك الابيات الرائعة ، فهي من نظم ابي نايف علي عبيد من كبار
المجاهدين وزعمائهم في جبل الدروز ، رحمه الله رحمة واسعة ، فهو من الذين لهم ،
طول حياتهم ، مواقف وطنية مشرفة ، ولهم في الثورة السورية بطولات تكتب
صفحاتها بماء الذهب ، وهو من المثقفين الذين تولوا مناصب في الحكومة إبان
العهد العثماني ، والعربي ، والانتداب ، وانتخب لتمثيل جبل الدروز في المؤتمر
السوري الذي أعلن للعالم يوم الثامن من آذار عام ١٩٢٠ استقلال سورية بحدودها
الطبيعية . ومن المؤسف ان الجهل الذي ران على البلاد العربية قروناً ، كانت
وطأته أشد على الفلاحين ، وخاصة في المناطق الجبلية المنعزلة ، لذلك بقي
الدروز على الفطرة وخلق البداوة ، فهم مع شجاعتهم ونخوتهم يحبون الكسب
والغنم كاللبداوة حتى ليكادوا يعتبرون الكسب بانواعه حلالاً . وهذا الطمع في
الكسب كثيراً ما سبب لبعضهم الأذى والخسائر في الممارك التي خاضوها في
الثورة السورية . فقد كنا ، في المعركة ، نرى احداً رفاقنا في السلاح يقفز من
مكانه ، ويخرج من استحكامه ، والمعركة على أشدها ، ليغنم بندقية من جندي
أصيب ، أو فرساً افتقد فارسه ، فتكلفه تلك الحركة احياناً حياته ، ويرى
اخوان له من بني قومه الدروز ذلك ، وتتكرر الحركة ، وتعاد في معركة
أخرى . ومحبو الكسب لو صبروا في مواقعهم ، ووجهوا همهم للقتال ، دون
الكسب والغنم ، لهزم عدوهم ، وجاءهم الغنم بعد المعركة أضعافاً مضاعفة دون
أن يصابوا بأذى . ولا أحب ان اطلق قولي هذا على الجميع ، فبين الدروز رجال
مثقفون ينكرون على المغالين في حب الكسب مغالاتهم ، ويؤنبونهم على أخطائهم ،
ولكنها عادة الغزو والكسب التي كان أجدادنا في الجاهلية عليها ، ما تزال لدى
الكثيرين من افراد العشائر البدوية والدروز الذين لم تتح لهم فرصة التعلم والتثقف
والتهذيب .

اللقاء بالشهيد ومردم

- ٢٥ -



بتنا ليلة وصولنا إلى قرية عري في دار الإمارة ضيوفاً على الأمير حمد الأطرش . ولما استيقظت في صباح التاسع عشر من شهر ايلول ، وخرجت من الغرفة إلى باحة الدار الرحبة ، وجدت أناساً يجلسون على مصطبة في طرف الفناء ، تدل أزياء بعضهم ووجوههم على أنهم ليسوا دروزاً ، وقد تطلعوا كلهم إلي ، وقال أحدهم ، وكان السيد جميل مردم للجالس بجانبه ، وكان الدكتور عبد الرحمن الشهيد :

« انظر اليه ! كم يشبه ابن عمه نجيباً ! » فأقبلت عليهم محيياً ، وقد عرفت منهم الدكتور الشهيد من صورته التي كانت تنشر في الصحف والمجلات السورية ، فقدم إلي رفيقيه جميل مردم ، ونزيه المؤيد العظم ، ثم نهض وأخذني جانباً ، وسألني عن المهمة التي جئنا من أجلها إلى الجبل ، فاطلعت عليها ، وقلت له انني ورفيقي مظهر السباعي جئنا نحمل رسالة شفوية من منظمي ثورة حماة إلى سلطان الاطرش ، يريدون منه ان يكون جوابه اليهم بأقصى السرعة ، وبواسطة مضمونة ، والرسالة هي ما يلي :

الدكتور عبد الرحمن الشهيد

فقدم إلي رفيقيه جميل مردم ، ونزيه المؤيد العظم ، ثم نهض وأخذني جانباً ، وسألني عن المهمة التي جئنا من أجلها إلى الجبل ، فاطلعت عليها ، وقلت له انني ورفيقي مظهر السباعي جئنا نحمل رسالة شفوية من منظمي ثورة حماة إلى سلطان الاطرش ، يريدون منه ان يكون جوابه اليهم بأقصى السرعة ، وبواسطة مضمونة ، والرسالة هي ما يلي :

١ - يطلب قادة ثورة حماة ، في حال قيامهم بثورتهم في منطقتهم ألا يعقد بعدها الدروز الثائرون أي اتفاق أو صلح مع الفرنسيين قبل الرجوع اليهم ، والاتفاق مع قيادة ثورتهم عليه .

٢ - يطلبون أن تحدد قيادة الثورة في جبل الدروز موعد القيام بحركتهم ، وتنفيذ خططها المرسومة ، لأنها أدري منهم بالوقت الملائم ، والظرف الذي يساعد على ضرب العدو ، واتساع نطاق الثورة في سورية .

٣ - يطلبون إعلامهم عن المكان الواجب الانسحاب اليه في حال فشل ثورتهم في قلب المدينة ، أو تكاثر القوات الفرنسية عليهم ، هل ينسحبون لإشعال نار الثورة بقواتهم في جبال الزاوية والمناطق الصالحة للثورة في شمال سوريا ، أم ينسحبون الى الجنوب للإلتحاق بثورة جبل الدروز ؟

٤ - كذلك يطلبون من قيادة الجبل ان تخطط لعملية حربية ، وضربة تنزلها قواتها بالفرنسيين في أطراف دمشق أو سواها ، قبيل الموعد المحدد لثورة حماة بيوم أو يومين ، يكون لها صداها العظيم في أنحاء سوريا كلها ، مما يرفع من معنويات الشعب ، ويزيد من حماسه للثورة على الفرنسيين .

هذه هي المطالب التي حملناها من حماة الى قيادة الثورة في الجبل ، فان وافقت عليها ، واجابت اخواننا في حماة عنها ، فيها ونعمت ، وإلا فإنني ورفيقي السباعي نضع أنفسنا تحت تصرف قيادة الثورة هنا لأي عمل تنتدبنا اليه ، بل اننا في كلتا الحالين جئنا لنضع أنفسنا تحت تصرف قيادة الثورة ، واننا مستعدون لذلك منذ هذه اللحظة ، فأجابني بأن في الجبل شبانا ورجالا مثلنا جاءوا من أنحاء سوريا للعمل في الثورة ، لم يستطيعوا الى الآن ان يقوموا بعمل جدي ، فاقترحت عليه ان يجتمع بهم ، ولو كانوا قلة ، لنؤلف عصابة مسلحة

تتسلل الى غوطة دمشق ، تكون نواة لحرب العصابات على أبواب العاصمة دمشق ،
وأنا مطمئن إلى ان يلتحق بها الثوار من سكان دمشق والغوطة والمرج والمناطق
المجاورة ، فتتفرع الى عصابات تثير القلاقل على الفرنسيين ، وتنزل بهجماتهما
المباغطة الضربات بهم ، وتشعل نار الثورة في كل مكان توجد فيه ، فوعدني
الشهبندر بأن يسعى لإيجاد سلاح لهذه العصابة ، واعتذر عن إيجاد جياذ لرجالها ،
لأن امكانيات الثورة لا تساعد على ذلك ، فقبلت ورفيقي السباعي بأن تكون
العصابة من المشاة ، وأن يكتفي بتسليحها بالبنادق والعتاد . وعدنا الى الحديث
عن ثورة حماة فقال : « إنني أصبحت لا أصدق أن بإمكان السوريين أن يقوموا
بأي حركة مسلحة تشد من أزر إخوانهم الدروز ، بل بت اعتقد اننا خدعنا
الدروز ، وأحبطنا مفاوضاتهم مع الفرنسيين على عقد صلح بشروط سمجة ، ما
يزالون يتحدثون عنها الى اليوم ، ويظهرون الندم على عدم قبولهم إياها ،
وغدوت أطرق خجلاً أمام الدروز كلما ذكروني واخواني السوريين معي هنا ،
بوعدنا ، وهو أن تقوم ثورة مسلحة ، بل ثورات مسلحة تتحمل نصيبها في
معركة التحرير ، فلا تلقى اعباء المعركة كلها على عاتق جبل صغير لا يعد
سكانه أكثر من ستين ألف نسمة ، بينما عدد السوريين يربي على الثلاثة ملايين .
وأطرق الشهبندر أمامي إطرقة ألم وحزن ، فقلت له : « لا تيأس يا دكتور !
إن ثورة حماة صائرة لا ريب فيها ! » ، قال : « أنا أعرف منك بذوات حماة
واغنيائها .. أعرف منك بنجيب آغا البرازي ، وفريد بك العظيم اللذين حدثتني
عن تضامنها مع اخوانك الشباب !.. فهؤلاء أسرى مصالحهم وعقاراتهم
وقراهم ، لا يجرأون على القيام بأي عمل يغضب السلطة الحاكمة ، خشية ان
تتعطل أعمالهم في قراهم وممتلكاتهم ، أو تصاب بضرر ، أو يتبدل عيشهم الهنيء ،
ويزول ما فيه من نعمة ورخاء !.. » ، قلت : « انت على حق في اقوالك ، لو أن
أغنياء حماة الذين حدثتك عنهم ، هم الذين يخططون ويعملون لثورة حماة ..
ولكن الواقع ان الثوريين الذين خططوا للحركة في حماة شبان خلص مستعدون
ان يذلوا أرواحهم في الثورة أمثال عثمان الحوراني ، وسعيد الترماني ، والدكتور

خالد الخطيب ، والدكتور محمد علي الشواف ، وعبد الحسيب الشيخ سعيد ، وفهمي العظم واخوانهم . ولو أن هؤلاء أيضاً وخدم في التخطيط والعمل للثورة في حماة ، لكنت مثلك أشك في نشوبها ، لأن امكانيات هؤلاء المادية والمعنوية لا تساعد على القيام بثورة مسلحة ، مهما تكن قوى الفرنسيين هزيلة في حماة ، فثورتهم لا تقوم اذا لم يكن لديهم المال والسلاح والرجال المدربون على القتال . . . ولكنني اجزم بنشوب ثورة في حماة ، لأن فيها الى جانب هؤلاء الشباب الثوريين قائداً عسكرياً في سرية المسماة باسمه « اسكادرون فوزي » في حماة ، وجنوداً وضباط صف في السرية من السوريين يأتمرون بأمر قائدهم ، ولأن فوزي القاوقجي ، في الأصل ، هو نفسه صاحب الفكرة ، وصاحب الفضل في التجميع لثورة حماة ، وإيجاد العناصر المقاومة لها ، فقد شعر هذا الضابط العربي بعد ثورة الدروز ، وهزيمة الفرنسيين في المزرعة ، بأنه آن الأوان ليضرب ضربته ، ويقوم بثورة مسلحة ضد الفرنسيين ، في موضع حساس تخرج ثورة الجبل من طابعها المحلي الى ثورة وطنية تعم البلاد السورية كلها ، وتفجر طاقات الشعب الكامنة التي يؤمن بانها لا تقل عن طاقات الشعب التركي في ثورته بقيادة مصطفى كمال ، ولا تقل عن طاقات الشعب العربي في ثورة الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف ، لذلك كن على ثقة يا دكتور بان الثورة ستنبش في حماة ، وفي الموعد الذي ستحدونه لها ، فاشرعوا بإرسال كتاب موقع من سلطان الاطرش قائد الثورة ، ومنكم ايضاً باعتباركم الدكتور الشهبندر الزعيم الوطني المعروف ، تجددوا ان الثورة نشبت ، وان آمالكم تحققت . . . » . فاقتنع بقولي ، وقام هو ، وجميل مردم ، ونزيه المؤيد العظم فوراً للرحيل الى قرية رساس ، والاجتماع بسلطان الاطرش في مقره المعروف لديهم ، وطلب الشهبندر ان يرافقهم واحد منا لقلة الرواحل معهم ، فأوفدت معهم رفيقي مظهر السباعي ، باعتباراه عسكرياً يلم بوضع الخطط الحربية ، في حال بحثهم موضوع الثورة في حماة ، وبقيت في « عري » انتظر عودتهم ، فلما عادوا في العشية يحملون كتاب سلطان الاطرش لثوار حماة ، علمت منهم ان سلطان

وافق على الشروط كلها، وحدد لهم في الكتاب غرة شهر تشرين الأول عام ١٩٢٥ موعداً لإعلان ثورتهم في حماة ، وباركها ، وتعهد لهم بأن لا يفاوض الفرنسيين



سلطان باشا الأطرش
والدكتور الشهبندر
وخلفهما المجاهدان محمد
أبوقاسم الصعيدي والسيد
نسيب شهاب .

على عقد أي اتفاق او صلح بدون الرجوع اليهم ، في حال قيام ثورتهم ، والاتفاق معهم في الرأي ، وترك لهم الخيار ، في حال عدم تمكنهم من الاحتفاظ بمدينة حماة في ثورتهم ، ان يحددوا ثورتهم في أي مكان في سورية يرونها مناسباً لها ، واذا لجأوا إلى الجبل ، فهم سيكونون بين إخوانهم وفي وطنهم ، ووعدهم بان يقوم الدروز قبيل الموعد المحدد لثورة حماة بحركة ضد الفرنسيين تنبئ الرأي العام ، وتثير حماسه ، وتعده لتقبل الثورة ، وشكرهم على مساعدتهم ، وحشهم على العمل ، وان يتوكلوا على الله ، ويقدموا ، فالوطن بحاجة إلى أمثالهم المخلصين الصادقين .

وفي الليل من ٢٠ ايلول ١٩٢٥ ركب نزيه المؤيد العظم ومظهر السباعي وسرحان ابو تركي من السوريين ضيوف الجبل جياداً ، ويمموا شطر الغوطة ، حتى بلغوا قرية فيها تخص والد نزيه المؤيد العظم ، حيث أوفدوا منها رسولا إلى دمشق ، جاءهم بالسيد محمد مردم شقيق جميل مردم ، وبالسيد علي زلفو من وجهاء حي الاكراد الوطنيين في دمشق ، وسلموا الكتاب اليها ، بعد ان اطلعوهما على الوضع في الجبل ، وطلبوا منها تأمين إيصال الكتاب إلى الدكتور

خالد الخطيب في حماة ، باعتباره أحد منظمي الثورة فيها ، وعاد الرسل الثلاثة إلى الجبل . وقد سلم أحد الرجلين اللذين حملا الكتاب الى دمشق ، الأمانة إلى السيد فهمي العوا بائع الطوابع والدخان في الدكان الصغيرة ، على ناصية مدخل السنجقदार من جهة ساحة الشهداء ، وهو من الوطنيين المخلصين الذين يعملون بهدوء وسكينة ، كي يسعى بوسائله الخاصة لإيصال كتاب سلطان الاطرش إلى حماة ، وتسليمه إلى الدكتور خالد الخطيب . وقد وصل الكتاب دون تأخير إلى أصحابه ، وقيل لي بعدئذ أنه بقي لدى سعيد الترماني ، إذ احتفظ به في منزله ، فلما فشلت ثورة حماة ، واضطر الترماني للاختفاء ، وجاءت قوة الامن الفرنسي للقبض عليه ، في منزله ، فلم تجده ، وقبضت على أخيه عثمان الترماني ، وحملته من فراش المرض ، وبعثت ما في المنزل من أوراق ، نثر هذا الكتاب في أرض الغرفة ، دون أن يجلب انتباه أحد ؛ وبعد ذهاب رجال الامن وجد من أهل البيت من أحرقه حتى لا يكون وثيقة بيد الفرنسيين على منظمي ثورة حماة .

مع الزعماء في دار « عري » !

بعد سفر نزيه المؤيد العظم ورفيقه الى الغوطة ، بقيت في دار « عري » ، انتظاراً لعودتهم ، ولتنفيذ الوعد بأن نؤلف العصاة السورية الاولى المسلحة في الغوطة . وكان في دار عري الزعيم العسكري يحيى حياتي ، وسعد الدين المؤيد العظم ، كما بقي فيها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وجميل مردم ، بعد سفر نزيه العظم .

وفي ضحى يوم ٢١ ايلول عام ١٩٢٥ ، بينما كنت مستلقياً في غرفة الضيافة ، والقوم يجلسون في مدخل الدار يستظلون من الشمس ، واذا بطائرة فرنسية تحلق في سماء القرية ، كأنها أخبرت بوجود الزعماء السوريين في دار عري ، وتبدأ بإلقاء قنابلها على القرية ، فتسقط في منازلها ، عندئذ خرجت إلى الباحة لأرى



طبعت هذه الصورة
ووزعت بالأبيات التي
كتبت تحتها في عهد
الانتداب الفرنسي ، وهي
ترمز الى هبة الشعب
السوري لنجدة ثورة جبل
الدروز ، بقيادة سلطان
الأطرش كي تعم الثورة
البلاد السورية ، وتعدو
ثورة وطنية عامة شاملة .

وفي الأبيات حض
للشعب على الثورة حتى
تتحرر بلاده من براثن
الاستعمار .

بعض المسلحين الدروز يعتلون سطح الدار ، يهزجون ، ويطلقون نار بنادقهم
على الطائرة . ولما كنت لا احمل سلاحاً ، ولا من الهلعين لافر من الدار ، رجعت
الى معلوماتي العسكرية القليلة ، فرأيت ان أعود ، واضطجع في الغرفة ، حتى
إذا سقطت قنبلة في فناء الدار لا يصيبني رشاشها . ولم اكد استلقي ظهراً في
مكاني السابق من بهو الضيافة ، حتى رأيت الدكتور الشهبندر وجميل مردم
يدخلان البهو ركضاً وجلين ، فأغمضت عيني حتى لا ينجلا مني ، بسبب هلعهما
من الطائرة ، ولما حسبا انني نائم ، قفزا من فوق الأثاث إلى شباك في البهو ،
يختبآن فيه ، وأسدلا عليهما الستارة ، حاسبين ان الشباك بقوسه الحجري يقيهما
شر القنابل . ولما انتهت الغارة ، اخذا يتضاحكان ، وهما خجلان من أن
أراهما يخرجان من الخبأ ، ثم أزالا الستارة قليلاً ، وأطل رأس جميل مردم ،

فأغمضت عيني ، مرة أخرى ، حتى لا ينجلا عند خروجها من الشباك ، وسمعت جميل مردم يقول للشهيندر : « انظر ! انه ما يزال نائماً ! لم يستيقظ من صوت كل هذه القنابل !.. » ، ثم قفزا من الشباك الى أرض البهو ، وخرجا منه بهدوء . ولما ظهرت بعد قليل في باحة الدار سألني جميل مردم مازحاً : عما إذا كنت علمت بالغارة ؟ ، فابتسمت .. وقلت له انني رأيته مع زميله يختبئان في الشباك !.. فضحك ، وظل ، بعد الثورة وعودتنا الى دمشق ، كلما فطن لهذا الحادث ، يقول لاصدقائي ومعارفه : « انني ما رأيته مثل منير الرئيس في الاستغراق في النوم .. ان قنابل الطائرات تتساقط فوقه .. وهو نائم ، لم توقظه كلها من النوم !.. » . ومرة كان يتحدث في داره بهذا أمام الزعيم ابراهيم هنانو ، طيب الله ثراه ، فابتسم هنانو وقال : « كان في ثورتنا هزاع ايوب ، نام معنا في البادية ، يوم كنا ملاحقين من الفرنسيين والبدو منتحياً عنا قليلاً ، وهو دليلنا في الطريق إلى شرقي الاردن ، ولما أفقنا لنستأنف المسير ، ظل هو مستغرقاً في النوم ، لم توقظه جلبة العصابة في رحيلها ، فأضعناه ، وأضاعنا !.. » ، وأخذ الزعيم هنانو يحدثنا عن تلك المغامرة والمطاردة التي رويتها في مذكراتي هذه ، كما سمعتها منه . وفاتني منها حفظ الأسماء ، فلم أسجل اسم شيخ العشيرة من بني خالد الذي لجأ اليه ، فسلبه دنائيره وأشياء وأساء ضيافته ، كذلك لم أسجل اسم جنباز او سمسار الخيل المخلص الشريف الذي كان له الفضل في تهريب هنانو من حمص الى جبل الدروز .

جلست ، في دار عري ، اتحدث مرة مع العميد الركن يحيى حياتي وسعد الدين المؤيد العظم ، والى جانبي سعيد الياني من الشباب العرب الذين التحقوا حديثاً بالجبل ، فعلمت من حديثها انها قررا مغادرة جبل الدروز ، والسفر الى عمان ، لأن مهمتهما انتهت ، فالاول وهو عميد ركن في الجيش العثماني سابقاً ، سارع الى الجبل أثر معركة المزرعة ليقنع زعماء الدروز بمهاجمة دمشق ، قبل ان يكتمل حشد الحملة الفرنسية على الجبل ، وتعهدهم في أول مرة بأنه يستطيع

احتلال دمشق بخمسمائة فارس مسلح من مقاتلة الدروز ، ولكنهم تعللوا في تجميع هذه القوة بان على أهالي دمشق أولاً ان يقوموا بثورة في مدينتهم . ولما قيل لهم ان دمشق يعوزها السلاح ، لأن حملته ممنوع ، ومن عنده سلاح حربي يخفيه ، ولا يبوح لأحد بمكانه ، ومن الصعب ، في مثل هذا الوضع ، قيام أهل دمشق بثورة مسلحة في مدينتهم ، ولا يمكن أن يتلاقى أصحاب السلاح ، ويعرفوا بعضهم بعضاً ما لم تدخل قوة مسلحة من الدروز مدينتهم ، وتهاجم مواقع الفرنسيين ، وعندئذ يظهر الثوريون ، ويستخدم من عنده سلاح سلاحه الخبوء ، وتعم الثورة ، وتذب الفوضى في صفوف الفرنسيين . وكان كلما انقضى يوم أو أكثر على هذا الحديث زاد الزعيم حياتي في طلباته عدد القوة التي سترافقه كشرط لاحتلال دمشق ، متذرعاً بالنجدات الفرنسية التي تصل تباعاً الى سوريا بطريق البحر ، حتى قطع أخيراً كل أمل ، وتأكد من تصميم الدروز على القتال في جبلهم ، أنهم لا يريدون الخروج منه ، وأيقن ان الفرصة فاتته ، وانه كضابط ركن لن يكون له دور ، بعدها ، في حرب غير نظامية يخوضها الدروز مع الجيش الفرنسي ، حسب عادات وتقاليد وخطط قديمة اتبعوها في حروبهم مع الجيش العثماني ، لا يصلح فيها ما يعرفه من فن القتال بين الجيوش النظامية . ولذلك فقد صمم هو وصديقه سعد الدين المؤيد على مغادرة الجبل الى شرقي الاردن ، لا سيما هو وصديقه ليس لديهما من المال ما يكفل بقاءهما في الجبل الذي يخوض أهله حرباً قاسية ، الى جانب حرب الطبيعة من قحط وجفاف لم يروا مثلها منذ عشرات السنين ، ولا بد لهما من الوصول الى شرقي الاردن ، والاتصال بأهليهما في دمشق ، بطريق التجار السوريين في عمان ، كي يرسلوا اليهما مبلغاً من المال يعيشان به ، فقد اضطرتهما الظروف ، وملاحقة الفرنسيين الى مغادرة دمشق الى جبل الدروز ، دون ان يتزودا بمبلغ من المال يكفيهما لإقامة طويلة . وغمز سعد الدين العظم من أمانة عبد القادر القواص احد الشباب الدماشقة الذين أموا الجبل باسم الإلتحاق بالثورة ، بأنه قبل خروجه من دمشق ، زار أهل سعد الدين في دارهم ، واخبرهم سراً بأنه مسافر ليلتحق بثورة الجبل ، وانه مستعد لان يحمل لولدهم

سعد الدين الذي سبقه الى الجبل كل ما يودون إرساله معه ، فزودوه بمبلغ من المال كي يوصله اليه ، ولكنه تصرف بالمبلغ كله ، وأنكره عليه ، وأشار في الحديث إلى ان المال المرسل اليه يبلغ عشرات الليرات الذهبية ، ولكنه لم يصله منه شيء ، لذلك فهو مضطر الى مغادرة الجبل ، حيث لا يمكنه ان يبقى فيه عالة على الدروز بدون مال ينفق منه على نفسه !.. ولما استغربنا كيف يسلم والده المبلغ لشاب لم يمتحن امانته ، قال : « ان هذا الشاب كان مستخدماً في مكتب حزب الشعب براتب ، وعزم ان يلتحق ، هو وخازن الحزب بثورة الجبل ، فاختلسا معاً مال الحزب ، واقتسماه ، ثم طافا عن منازل اعضاء الحزب الذين التحقوا بالجبل منذ البداية ، يعرضان على أسرهم استعدادهما لحمل كل أمانة يودون إرسالها إلى رجالهم في الجبل ، فسلمها من اطمأن اليهما ، وعرفها من قبل ، كوالدي ، مالا أضافاه الى المال المختلس من صندوق الحزب ».

وامتد بنا الحديث الى ان الثورة في الجبل يجب ان تمتد وتنتقل الى ميادين أخرى في المناطق السورية ، وان تبدأ بعصابات مسلحة تنزل الضربات المفاجئة بالفرنسيين ، وان واجب نقلها غدا في عنق السوريين ، ولا سيما شبابهم الذين التحقوا بالجبل . فأطلعت العميد يحيى حياتي على اننا عقدنا العزم على ان نكون أول عصابة مسلحة في غوطة دمشق ، فأبدى ارتياحه للفكرة ، رغم خطورتها ، لان مجالها سيكون على أبواب العاصمة السورية ، وهي زاخرة بالقوات العسكرية ، وفيها مقر القيادة العليا ، وفيها القلاع والثكنات والحصون والمدفعية والمطار ، ونصحنا ، في حال توجهنا الى الغوطة ، بأن نراعي قواعد حرب العصابات المعروفة بحرب الانصار ، والتي تدرس كعلم في المدارس الحربية ، فلا تبني العصابة المسلحة في مكان واحد أكثر من ليلة واحدة ، وان تبعد في مبيتها عن الطرق المعبدة التي تستطيع الحملات النظامية ان تسلكها بكل سهولة مع أسلحتها ، والافضل ألا تبني في القرى الآهلة بالسكان التي ترتبط بطرق معبدة ، وان تتجنبها ، وان تقيم حراسة في الاماكن التي تلجأ اليها ، وان تعرف العصابة

نقاط الضعف في جهاز العدو ، فنزل ضرباتها بها على حين غرة منه ، وئندسحب بسرعة دون ان تترك وراءها دليلاً على المكان الذي ستختفي فيه . وقال إن اول شرط لنجاح حرب العصابات ، في أي منطقة ، هو ولاء السكان للعصابات ، ولا يمكن لعصابة ان يستمر عملها في منطقة سكانها غير موالين لها ، لأنهم يستطيعون ، دون أن تشعر العصابة ، ان يدلوا عدوها على ملاحقتها وأما كن تنقلها وتموينها ، فينزل العدو القوي الذي يطاردها ضربته القاضية عليها ، هذا عدا تأمين لوازم تموين العصابة في منطقة غير موالية يغدو عسيراً ، وسبيلاً للاهتمام الى مكان العصابة وتنقلها وحركاتها . ولم يشر العميد حياتي أي اشارة الى سلاح العصابة ، والأجهزة التي يجب أن تمتلكها لايفاء مهامها ، فقد اصبحت حرب العصابات اليوم ، بعد ان تجربتها اكثر الأمم المغلوبة على امرها ، حرباً ذات اصول وشروط وتعاليم معروفة مدروسة ، حتى سميت ، كما قلت ، حرب الانصار ، تدرس أساليبها في المدارس ، واقل سلاح للوحدة التي ترتبط عادة بقيادة مسيطرة ، ان يكون لديها اجهزة مخبرات للاتصال بالقيادة ، وان يكون لديها رشاش متوسط ، ورمانات يدوية أي قنابل يدوية ، ورمانات البندقية ، اي قنابل ترمى بجهاز يركب على فوهة البندقية ، وبازوكا ، وهاون ٦٠ ، واحياناً الهاون ٨١ ، مع المتفجرات والالغام ومواد التخريب . ومن المؤسف ان العصابات التي تألفت بعدئذ في مختلف المناطق السورية ، لم يكن لها قيادة واحدة تسيطر على حركاتها ، وكان كل رئيس عصابة يعمل ما يروق له ، ويقوم بالحركة التي تناسبه ، وتتفق مع مصالحه . وكل سلاح افراد عصابته المؤلفين عادة من مشاة وفرسان ، كان من البنادق الحربية ، واحياناً يحمل بعض افراد العصابة الرمانات اليدوية ، مع بعض المسدسات والحتاجر . وكانت هذه العصابات تشترك في المعركة ، إذا تعرضت منطقتها لزحف حملة عسكرية عليها ، فيما اذا اراد زعيم العصابة الاشتراك في المعركة ، يخوضها مع عصابته ، كما يحلو له ويتخذ الموقع الذي يوافقه في المعركة ، وينسحب من القتال عندما يعن له ذلك ، ويقوم في المكان الذي يريد ، ويتنقل حسب هواه .

مصرع سعد الدين المؤيد

- ٢٦ -

وصل في أصيل يوم ٢٢ أيلول عام ١٩٢٥ ، الى دار عري بدويان من عشيرة السردية ، وهي عشيرة بدوية صغيرة تقيم في اطراف الجبل ، وفي وعرة اللجاة البركانية ، مع غيرها من العشائر الصغيرة التي يعمل أكثر افرادها رعاة لمواشي الدروز في جبلهم المجاور للجاة .

ولما نشبت الثورة في الجبل أخذت السلطة الفرنسية تحرّض شيوخ هذه القبائل على الدروز ، فأخذوا ، وهم مسلحون ، يسطون على قرى الجبل المجاورة لإحيائهم ومنازلهم في وعرة اللجاة ، ويسلبون المواشي ، ويسرقون كل ما تقع ايديهم عليه ، ويحتمون في مناطقهم البركانية الوعرة ، فاذا اتصل أحد رؤسائهم بالدروز انكر ان يكون هذا العمل من عشيرته ، واتهم العشائر الأخرى .

وصل هذان البدويان المسلحان ببندقية حربية واحدة الى دار عري ، ومعهما راحلتان امتطاهما يحيى حياتي وسعد الدين العظم ، وانطلقا ، بعد وداعنا ، من عري في طريقهما إلى الأردن ، وباتا بقية ليلتهما الأولى في منزل فريق من البدو نحيم على حدود الجبل .

وفي مساء ٢٣ ايلول انطلق ركبهم مجتازاً أراضي حوران ، متجنباً مواقع ونخافر الفرنسيين ، حتى أزف منتصف الليل ، فطلب الاعرابيان المكلفان بنقل حياتي والعظم لقاء أجرة ، من رفيقيهما ان يستريحوا ويناموا حتى تستجم الراحلتان ، فابتعد يحيى حياتي حوالي عشرين متراً عن رفيقه العظم ، والتف بفروته ، واستلقى للنوم . وما كاد الكرى يداعب جفونه حتى سمع طلقاً نارياً يدوي على

مقربة منه ، فرفع رأسه ليتحقق ما الخبر ، وإذا به يلمح احد البدويين مسدداً
اليه بندقيته ، فخفض رأسه بسرعة ، ولكن البندقية دوت في تلك اللحظة ،
وغشى نار الطلقة عينيه ، فبترت الرصاصة نصف أذنه ، ومرت بجانب الرأس ،
فارتقى كأنه أصيب برأسه - ارتقى دون حراك ، وهو يتوقع ان تصيبه طلقات
اخرى من البندقية ، ولكن السكوت الشامل الذي أعقب الطلقتين شجعه لأن
ينظر حوله ، فوجد الاعرابيين يبحثان عن المال في أمتعة رفيقه العظم الذي
صرعته الرصاصة الاولى ، فانسل يحيى حياتي من الفروة ، بعد ان ترك فوقها
كفيته وعقاله خداعاً للاعرابيين ، واخذ يزحف على بطنه مبتعداً في الظلمة عن
المكان ، ثم قام يركض بكل قوته ، والدم ينزف من أذنه إلى ان طلع النهار ،
وسخر الله له فلاحاً حورانياً كان يحرق الأرض ، فلجأ اليه ، دون ان يكشف
له عن هويته ، وحدثه حديث الاعرابيين الذين قتل رفيقه ، وباشرا قتله ،
وحسباً أنهما قتلاه ، فرثى لحاله ، واستصحبه الى قريته قرب بصرى الشام ،
وأخفاه اياماً في منزله يداوي جرحه ، ثم اوصله الى قرية عري ، حيث استقبلناه ،
وسمعنا منه تفاصيل قصته ، وحزنا على فقدان سعد الدين العظم ، وزادنا العميد
حياتي علماً بأن الذي أدخل الطمع في نفسي الاعرابيين القاتلين هو ان سعد الدين
رحمه الله ، اخذ ليلة الحادث يسأل الاعرابيين عن سبب عدم اشتراك عشيرتهما ،
وعشائر البدو المجاورة للجبل بالثورة على الفرنسيين المستعمرين ، مع ان تلك
العشائر مسلحة ، ومواقعها وعرة في اللجاة ، واستراتيجية يصعب على الطائرات
التأثير عليها ، ويصعب على الجنود النظامية اقتحامها ، وفي جملة ما قال لهما لحت
عشيرتهما على الثورة ، وهو يعرف طمع الأعراب بالمال ، إن الثوره غنية بالذهب ،
وان معه الكثير منه ، وان قيادة الثورة مستعدة ان تمد المشتركين بالثورة
بالذهب الوهاج ، والسلاح والعتاد ، فحسب الاعرابيان انهما وقعا على كنز ، وبدأ
يتشاوران همساً ، ويتخلفان احياناً عن الراحلتين في همسها المريب ، مما جعل
العميد حياتي يبتعد عند التوقف للراحة عنهما ، وعن رفيقه العظم ، وينتحي
مكاناً لوحدته ، مما كان سبب نجاته من الموت . وقال ان الاعرابي الذي اطلق

عليه الرصاصة حاول بعدها الدنو منه اكثر، ولكن رفيقه طلب منه ان لا يقرب ضحيته ، حتى لا يخفي عنه شيئاً من متاعه ونقوده ، وطلب منه ان يبدأ بمتاع العظم ، وانه لما اخذ يزحف على بطنه مخلفاً وراءه فروته وكفите البيضاء فوقها هب الأعرابي الذي اطلق الرصاصة فجأة نحو مهجع العميد حياتي ليتثبت من موته ، أو ليكشف صوت حركة قد تكون وصلت الى مسامعه ، عندما أخذ حياتي يزحف مبتعداً عن المكان ، فتوقف هذا عن الزحف ، ولما وجد الأعرابي الفروة والكفية والبيضاء في مكانهما ، اطمأن الى ان ضحيته صرعت بالرصاصة ، وعاد الى رفيقه يبحثان عن الذهب ، فلا يجدان منه إلا ما يكفي اجر الطريق ، وعيشة بضعة ايام ، فهناك العميد حياتي بالنجاء من الموت ، ولبت بيننا اياماً ريثما وجد واسطة أمينة اوصلته الى شرقي الاردن من طريق اخرى .

إنقاذ حامية السويداء

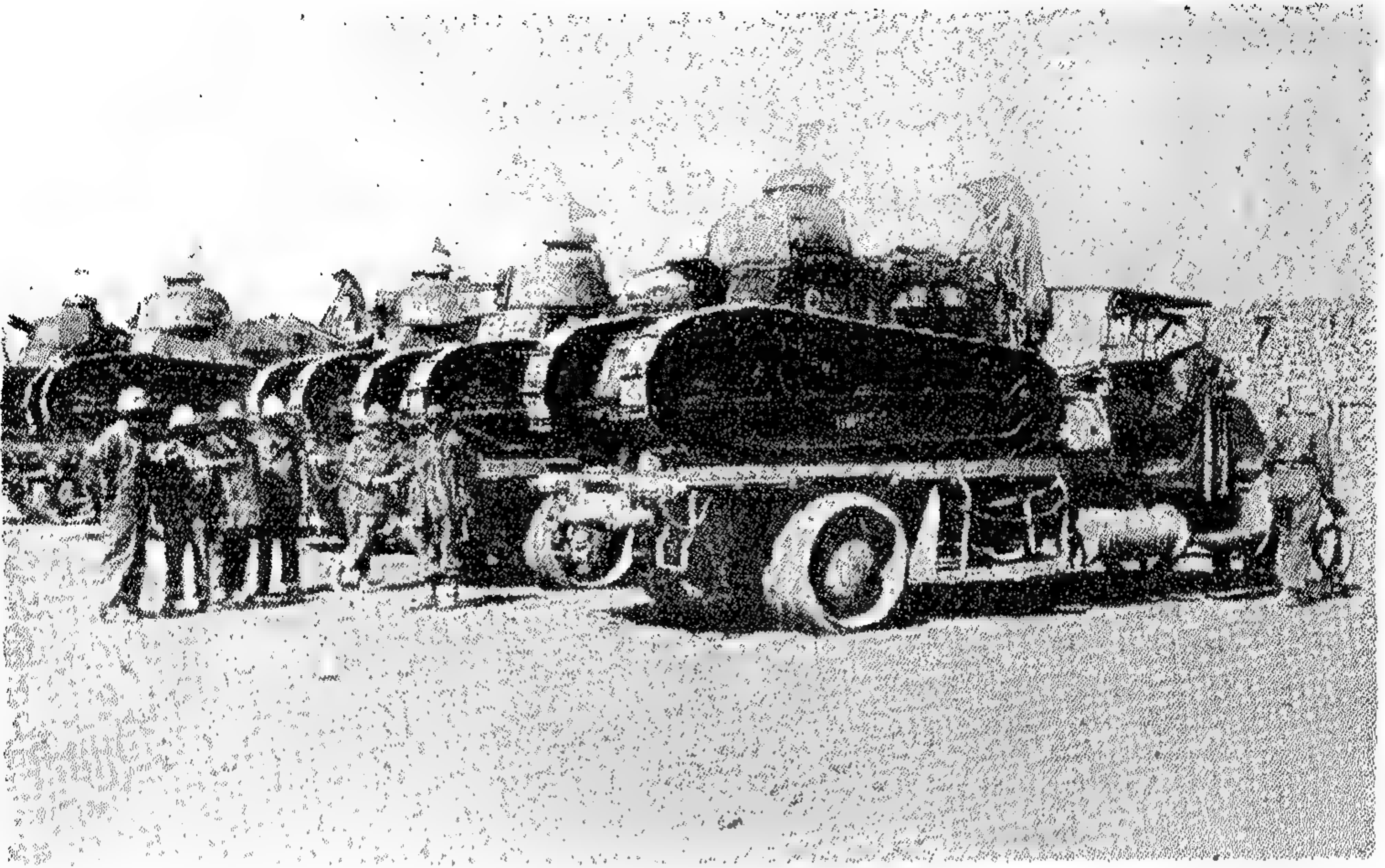
- ٢٧ -

بينما كنا جالسين صباح يوم الاربعاء في ٢٣ ايلول ، في دار « عري » ، بلغنا زحف الجيش الفرنسي الى الجبل بطريق قرى : المسيفرة - ام ولد - كناكر - السويداء . وهي اسهل الطرق من حيث طبيعة الارض ، واقلها وعورة الى السويداء فصعدنا الى سطح الدار ، نرقب بمنظار كان لدى الامير حمد طلائع الجيش ، فوجدناها بلغت موقعا يسمى « تلول خليف » ، والجيش يحجافله وراءها صفوفاً متلاحقة ، منتشرة على نسق الحرب ، وتتقدم بثبات نحو السويداء ، وبضع عشرة طائرة حربية تحلق في السماء ، وتكشف للزاحفين الطريق ، وتقصف تجمعات الدروز التي بدأت تظهر بشكل كوكبات صغيرة من الفرسان ، فقد بوغت الدروز بالزحف ، ولم يكونوا على استعداد له ، ولم يتوقعوا حدوثه بهذه السرعة ، فقد حسبوا ان الضربة التي انزلوها بالعدو ومعداته في المسيفرة ستؤخر زحفه بضعة أسابيع الى الجبل ، واذا بهم يفاجئون

- ٢٢٢ -

بالزحف ، ولما يمض أكثر من اسبوع على معركة « المسيفرة » . وكانت المدفعية الكثيرة تلاحق تجمعات الدروز التي تكشفها الطائرات ، وقد ركزت على تلول خليف ، والدخان يتصاعد من قرية « ام ولد » الدرزية القريبة من الحدود ، ثم تتبعها « كناكر » ، فعرفنا ان الفرنسيين دمروا وأحرقوا هاتين القريتين انتقاماً من ثورة الدروز . وكان احتلالهم « كناكر » وقت الظهيرة من ذلك النهار ، ثم اخذ جيشهم يتقدم نحو السويداء ، واهل السويداء والقري التي على طريقها شغلوا كلهم بإخلاء منازلهم من النساء والاطفال والأثاث ، كي لا يحل بهم ما حل بقريتي ام ولد و كناكر . لذلك لم يصل في ذلك النهار الى ساحة القتال الا نفر قليل من الدروز ، تحصن بعضهم في « تل الحديد » ، وهو تل صغير يشرف على طريق السيارات إلى السويداء ، فما كادت الطائرات تكتشفهم ، حتى رأينا التل يختفي في سحابة سوداء قائمة من دخان قنابل الطائرات ، وقذائف المدفعية ، ثم ظهر فرسان الدروز الواحد تلو الآخر من بين سحب الدخان مبتعدين عن التل الذي أخذت تتساقط عليه الحمم ، وتتفجر كفوهات البراكين . وهكذا انسحب الدروز القلائل مبتعدين عن النار المدمرة المحرقة ، في حين كانت كوكبة أخرى من خيالة الدروز ، وفيهم عدد من آل الاطرش ، تتجه من « عربي » نحو العدو ، فلا تلبث الطائرات ان تكتشف موقعها ، وتنقض عليها بقنابلها ، فنرى تحت قائم الدخان الذي أخذت سحبه تنقشع فرسان الدروز يتحلقون مبتعدين عن المكان .

لم يأزف عصر ذلك النهار حتى احتل الفرنسيون « تل الحديد » ، وأخذوا يقيمون حوله الجنادق والحفر والحصون الموقية ، وحول الأماكن الأخرى التي احتلوها ، فأدركنا أن الجنرال « غاملان » ، لا يريد ان يدخل السويداء في الليل ، وانه قرر المبيت بجيشه في المواقع التي احتلها ، وظلت الاسهم النارية للاضاء تنطلق طول الليل ، وتجعل الدجى نهراً حول الأمكنة التي عسكر فيها الجيش . ولما انبلج الصبح في اليوم الرابع والعشرين من ايلول ، أخذ الجيش



دبابات فرنسية محملة على السيارات في طريقها لميادين القتال

يتقدم نحو السويداء، وبعد قليل ركز مدافعه على تل «الحديد»، وأخذت تصب حممها على السويداء، وعلى الكروم والحوالكير في طريقها كي تطهرها من الدروز الذين قد يكونون متحصنين فيها، ولم تنقض فترة حتى حجب دخان القنابل والقذائف بلدة السويداء عن أنظارنا، وأخذت فلول الدروز تتراجع عنها، والحملة الفرنسية تتقدم نحوها، حتى احتلتها، وأنقذت باحتلالها حامية السويداء المحاصرة، التي انقضت ثلاثة وستون يوماً على حصارها، ذاقوا خلالها الأهوال.

الحصار كلف فرنسا عشرات الطائرات

كان عدد الحامية الفرنسية التي حاصرت في قلعة السويداء اثر معركة الكفر

بضع مئات من الجنود والضباط ، ويقال أنهم تسعمئة ، أقاموا حول القلعة ، من أربع جهاتها ، حاجزاً أو مانعاً عريضاً من الاسلاك الشائكة ، وحفروا وراء الاسلاك الخنادق ، وأقاموا التحصينات ، وكانت مجهزة بعدد كاف من الرشاشات الثقيلة والخفيفة ، عدا الرشاشات على أسطح القلعة ، وراء التحصينات بأكياس التراب ، ومن أبراجها المعدة للدفاع . وكان لدى الحامية مدفع من عيار ٧٥ ميليمتر ، أخذت منذ بدء الحصار تطلق منه القذائف على بلدة السويداء ، وعلى تجمعات الدروز ، حتى انها جعلت قصف منازل السويداء يومياً بكمية محددة من القنابل جزءاً من برنامجها اليومي ، تقلق به راحة السكان . وكنا عرفنا أن قلعة السويداء ثكنة كبيرة متينة ذات دورين ، أي طابقين ، وفناء واسع ، وحوض كبير لحزن الماء . جرت الى الثكنة أخيراً مياه عين قنية جراً فنياً ، ولكن الدروز في بدء الحصار خربوا مجراها ، وحولوا الماء عن القلعة تضيقاً على المحاصرين ، في أشهر الصيف وشدة الحر . وهذه الثكنة كانت بفتحها الدولة العثمانية عام ١٨٩١ ، بعد حربها مع الدروز المعروفة بحرب ممدوح باشا قائد الحملة التي أخضعت جبل الدروز ، حجارتها بيزالتيه سوداء ، وهي ذات قناطر وأقواس وأعمدة حجرية متقنة النحت والبناء ، تصمد للحصار ، لا سيما وليس باستطاعة الدروز بأسلحتهم الخفيفة احتلالها ، فغدت بقذائف مدفعها أداة ازعاج لاهل السويداء ، لذلك كان لا بد للدروز من تضيق الحصار عليها ، لا سيما بعد مذبحه المزرعة ، وانقطاع أمل الفرنسيين من الوصول عاجلاً إلى السويداء ، وانقاذ الحامية المحاصرة . وكان أمل الدروز هو أن ينفد الماء والغذاء المخزونان ، فيضطر المحاصرون الى الاستسلام ، وقد تم نفادهما فعلاً . ولكن فرانسة الدولة الكبرى كان لديها أسطول جوي ، وكانت على اتصال دائم بالحامية المحاصرة لاسلكياً ، تعرف كل حاجاتها ، لذلك سخرت طائراتها في نقل المؤن والدخائر ، وحتى ألواح الجليد ليستغني بها المحاصرون عن الماء ، كانت الطائرات تحلق كل يوم فوق القلعة ، وتهبط ، وهي تحوم ، إلى ارتفاع عشرات الأمتار ، ثم تلقي بأثقالها طروداً وأكياساً فيها كل ما ينقص الحامية

من مؤن وذخائر وألواح الجليد للاستعانة بها على قلة الماء . لذلك كان لا بد للدروز من القيام بعمليات جريئة لعرقلة التموين اليومي من الجو ، وتشديد الحصار على أعدائهم . وكان أول عمل قاموا به ، بعد وصول العقيد فؤاد سليم إلى الجبل ، وبتوجيهه ، وبمساعدة المدفعيين من السوريين الذين التحقوا بالجبل ، أن أصلحوا ثلاثة مدافع من بطاريات الفرنسيين المعطلة في مذبحه جيش الجنرال ميشو ، منها مدفع بعيد المدى من طراز « شنيدر » عيار ١٠٥ ميليمترات ، وقام العقيد سليم بالطواف على القرى يشتري القذائف الخاصة بهذه المدافع من الدروز الذين حملوا غنائم المؤخرة إلى منازلهم ، ومن القرى القريبة لأرض المعركة . وكان من الصعب أن يجد قذائف سليمة لأن الدروز كانوا ينتزعون القذيفة من غلافها ، أي ظرفها المعدني ، وينزعون « الكبسولة » من الطرف لبيعوه نحاساً للنحاسين في الجبل . أما البارود ، وهو شرائح مستطيلة تميل بلونها إلى السمرة القريبة من البياض ، فقد جربوه وقوداً للطبخ والتنوير يحمى به للخبز . ولو عرفوا قيمة هذه القذائف لما فرطوا بها ، ولكنهم على طريق البداوة كانوا لا يقتنون غير البنادق ، لذلك حطموا ، وأحرقوا ، وخربوا كل سلاح عدا البنادق ، حتى الرشاشات الثقيلة التي غنموها في معركة المزرعة عطلوها ، واتخذ بعضهم منها أداة ثقيلة توضع وراء باب الدار في الليل ، وأبواب زرائب الحيوان ، ومثلها فعلوا بالمدافع الصغيرة التي كانت المدرعات بجهرة بها ، ولم يسلم أي مدفع من تخريبهم ، إلا أن العقيد فؤاد سليم ومعاونوه من المدفعيين العرب الذين التحقوا بثورة الجبل ، أصلحوا من عشرة مدافع ثلاثة ، بأخذ قطع التبديل من مدفع نخرت لتحل محل قطعة مخربة في مدفع آخر . وبعد جهد أسابيع ركزوا المدافع الثلاثة التي أصلحت في جرج السويداء ، وفي مكان لا تكتشفه الطائرات ، وأخذوا يملأون الظروف الفارغة بكمية من البارود الذي جمعه ، ويجهزونها بالكبسول الذي وجدوا أيضاً كمية منه في القرى ، ويعيدون القذيفة إلى ظرفها ، وفي يوم مشرق أخذت مدفعية الثورة تصب قذائفها على قلعة السويداء ، تعمل فيها تخريباً ، وفي حاميتها تقتيلاً . وقد عجزت الطائرات الفرنسية عن كشف مكان المدافع التي أحسن العقيد فؤاد سليم إخفاءها ، وتبديل أماكنها .

وكان أشدها تأثيراً على المحاصرين قذائف المدفع الكبير ، فقد استطاع المدفعيون العرب ، بعد أيام من القصف أن يخرسوا مدفع القلعة ، وان يحطموه ، ويقتلوا من جنوده ، كما أن قذيفة من قذائفه اخترقت نافذة إلى مهجع في القلعة يلجأ اليه المحاصرون ، مزدحم بهم ، فقتلت عدداً كبيراً منهم ، عدا الجرحى ، ولم يسع المحاصرون ، لا أن يظهروا حزنهم على ضحاياهم في ذلك اليوم ، فرفعوا الاعلام السوداء على القلعة ، ونكسوا علمهم الكبير الذي كان يرفرف على القلعة . ومن المؤسف أن أزمة المحاصرين من قذائف مدفعية الثورة لم تدم طويلاً ، فقد علمت المخابرات الفرنسية من برقيات الحامية ما تلاقيه من شدة القصف ، فنشطت بواسطة شبكاتهما لإسكات المدفع الكبير الذي كان يهدم جدران القلعة ، ويفتح الثغرات في مهاجمتها ، ويزرع الموت والدمار في صفوف المحاصرين ، واستطاعت أخيراً أن تدس بين الدروز العاملين في المدفعية ، أو العمال الذين يزنون البارود ، ويملاؤن الفوارغ بمقدار ، جاسوساً تمكن من ان يضيف الى البارود إصبعاً من الديناميت ، أو يضع في ظرف قذيفة من القذائف كمية كبيرة من البارود لا تتحمل ضغط انفجارها سبطانة المدفع ، فانفجرت ، وجرح من انفجارها عدد من العاملين المحيطين بالمدفع ، ومنهم رفيق السلاح سعيد الياني أحد الضباط اليمانيين الذي كان مدفعياً في جيش الحجاز في عهد الملك حسين ، وسرح منه اثر استيلاء عبد العزيز آل سعود على الحجاز ، فالتحق بثورة الجبل ، لما سمع أن الدروز غنموا عدداً من المدافع الفرنسية ، لعله يستطيع أن يقدم خدماته كمُدفعي للثورة ، فقدمها مدفعياً ، وقدمها مجاهداً ببندقيته ، وكان احد المدفعيين العربيين اللذين اعتمد عليهما العقيد فؤاد سليم في إصلاح المدافع الثلاثة ، وقصف القلعة ، وإسكات مدفعها ، وإنزال الضربات الشديدة بالاعداء .

إن حادث انفجار المدفع الكبير كان صدمة لقيادة الثورة ، وقد أجرى سلطان الاطرش ، وبعض زعماء الدروز ، تحقيقاً في أسباب الانفجار ، والمسؤول عنه ، وقيل ان الفاعل لم يعرف . وقد يكون التحقيق دل على الفاعل ، ولكن الوضع العشائري في الجبل كان لا يسمح باعتقاله ومحاكمته وعقابه . ألم نر فارس

الاطرش كيف كان يعمل في قرية ذيبين بالجاسوسية ، ويقدم التقارير بأخبار الثورة وأسرارها إلى فرنسا ؟ لقد أمسك الدروز بكثير من الأدلة التي تدين هذا الجاسوس ، فلم يستطع سلطان الاطرش ان يعاقبه بسبب الوضع العشائري والعائلي في الجبل ، فهو ابن عمه لا يستطيع أن يهدر دمه . وظل على ولائه لفرنسة ، حتى استطاع في نهاية الثورة أن يشترك مع الفرنسيين ، ويحند لهم المتطوعة من الدروز في جيشهم للقضاء على الثورة . ثم ألم يلجأ ابنه فوزي الذي أصاب جانباً من العلم في معاهد فرنسا ، وعين موظفاً في السويداء - ألم يلجأ هذا إلى القلعة ، ويحاصر مع الفرنسيين ، ثم سمح له بالخروج مع الاطفال والنساء الفرنسيين ليلحق في حوران ودمشق بالفرنسيين ؟



المجاهد الشهيد العقيد فؤاد
سليم

إن الوضع العشائري كان يؤثر على سير الثورة ، فلا يحاسب المنحرفون خشية الانشقاق ، والثأر للدم المهرق ، ولو كان دم جاسوس قذر ، قد تذهب بتقرير منه ألوف الانفس ، أو ينقلب النصر في معركة إلى هزيمة يخسر فيها الدروز مئات القتلى والجرحى ، كما جرى في معركة المسيفرة يوم اطلق جاسوس عياراً نارياً نبه به الجيش الفرنسي ، وقلب النصر إلى هزيمة .

لقد خفت وطأة مدفعية الثورة على الحامية الفرنسية في القلعة ، بعد حادث

انفجار المدفع الكبير، لأن قذائف المدفعين من عيار ٦٥ و ٧٠ ميليمتراً ما كانت لتؤثر بجدران القلعة ، ولا تعمل عمل المدفع الكبير .

ومن اساليب الدروز في تشديد الحصار على حامية القلعة ان بعض المسلحين منهم كانوا يسيرون مع الفجر إلى المنخفضات القريبة من القلعة ، والتعاريـج الارضية التي لا يكشفها المحاصرون من القلعة ، ويتحصنون فيها بانتظار النهار، حتى إذا أقبلت الطائرات الفرنسية لتموين القلعة ، وأخذت تحوم وتهبط لتلقي بحمولتها ، بادروها بنيران بنادقهم ، وهم المدربون على الرمي بالبنادق أحسن تدريب ، وأصابوا بعضها ، وأسقطوها تتحطم أو تحترق وتتفجر أمام أعينهم ، أو تفر تحمل طيارها الجريح ، وإذا سلمت من رصاصهم وتحاشته ألقت بحمولتها من ارتفاع لا تستطيع منه التسديد الصائب ، فتسقط أكثر الطرود والاكياس المليئة بالمؤن والذخائر ، خارج نطاق القلعة والاسلاك الشائكة المحيطة به ، فينتظر الدروز ، حتى إذا تسلل جنود من القلعة لاستخلاص المؤن ، رموهم برصاص بنادقهم ، وهم الرماة الماهرون ، فيتساقطوا صرعى وجرحى . وإذا جن الليل ، وخيم على الارض ، زحفوا نحو الاكياس والطرود ، وحملوها أو جروها إلى مخابثهم ، ثم عادوا بها مؤناً الى منازلهم . وكانت هذه الصورة تتكرر كل يوم ، لأن الطائرات الفرنسية كانت مضطرة لتموين الحامية كل يوم . على أن هذه المغامرات اليومية من الدروز كانت لا تردون ضحايا منهم يصابون برصاص جنود الحامية الذين كانوا يتربصون بهم من وراء الاسلاك ، وهم يحاولون الدنومن الاكياس والطرود ، ومن الطائرات التي كانت تنقض على مخابثهم حول القلعة بقنابلها ورشاشاتها .

ان الخسائر التي نزلت بالقوة الجوية الفرنسية ، خلال الثورة السورية، جديرة بالتأمل لفداحتها ، ولا سيما إذا عرفنا أن سلاح الثائرين كان البنادق ، والبنادق وحدها ، والبندقية من الصعب أن تصيب برصاصها طائرة حربية سريعة حلقة على علو مرتفع تستطيع هي منه ان تستكشف ، وتلقي قنابلها على الأهداف

الكبيرة ، هي في الغالب بلدان وقرى وجموع من الثائرين الذين ينازلون الحملات الفرنسية ، أو يقيمون في مناطق سيطروا عليها ، وحرروها من الاحتلال الفرنسي . ولكن الوقائع اثبتت أن الثائرين برصاص بنادقهم أسقطوا أكثر من خمسين طائرة حربية فرنسية ، لأسباب تعود إلى أن الطريقة المتبعة في جبل الدروز الذي كانت قراه هدفاً للغارات الجوية كل يوم ، هو ان يهب المسلحون في القرية المعرضة للغارة إلى سطوح المنازل ، لا يهابون تساقط القنابل عليهم ، يسددون رصاص بنادقهم إلى الطائرات المغيرة ، وهم ، كما قلنا ، من خيرة الرماة ، فتصيب طلقاتهم أحياناً الطيار أو المحرك ، مما يؤدي إلى سقوط الطائرة وتحطمها . كذلك في المعارك التي كانت تدور رحاها بين الحملات الفرنسية والثائرين ، كانت الطائرات تضطر الى الانقضاض للكشف أو التسديد فتصاب أحياناً برصاص الثائرين . ويوم احتل الدروز اللجاة ، وهي حرة بركانية سوداء كثيرة الصخور والشقوق تمتد غربي جبل الدروز من جهة المقرن الشمالي ، للخلاص من عبث عشائرها التي كانت السلطة الفرنسية تحرض شيوخهم ، وهؤلاء يدفعون عشائرتهم للسطو والنهب والعدوان والتسلل إلى القرى ، والدروز في شغل شاغل عنهم ، ينازلون أقوى دولة استعمارية ، فكانت الطائرات الفرنسية تغير على اللجاة تقصف الدروز ، وتضطر ، بحكم طبيعة اللجاة إلى الهبوط كثيراً لتكشف الثائرين في الشقوق وبين الصخور ، مما كان يمكن هؤلاء من اصطيادها برصاص بنادقهم ، فضلاً عن أن حصار القلعة كبد القوات الجوية الفرنسية أفدح الخسائر ، مستشهدين على ذلك باعترافات الفرنسيين أنفسهم ، في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ، فهي ، وان كانت دون الحقيقة ، إلا أنها تعطي صورة واضحة عن خسارة الفرنسيين في الطائرات والطيارين ، فقد جاء في الكتاب حول هذا الموضوع ما يلي : « لما نشبت ثورة عام ١٩٢٥ كان فيلق الطيران ٣٩ يقوده الليوتنان كولونيل « بردال » ، مشتملاً على ثمانية أسراب . وقد سقطت في ٣١ تموز طائرة السرجان « رونه » والسرجان « فيفر » على بعد (٣٠٠) متر من القلعة . وفي أول آب اسقط العدو طائرة السرجان « مورو » ، والسرجان

« كوانبار » وقتلا . وفي ١٤ آب سقطت طائرة السرجان « شيفر » ، والسرجان ماجور « كروازيه » في جوار بصرى الحرير . وفي ٢١ آب سقطت طائرة السرجان « سيموتو » ، والسرجان « هوليبه » قرب القلعة فاحترقا . وفي ١ ايلول سقطت طائرة الادجودان « تالران » ، والليوتنان « دون » في اللجاة . وفي ١١ ايلول ١٩٢٥ تعطلت طائرة السرجان « املان » ، والسرجان « جميناز » . وفي ٢٣ - ٢٤ ايلول اشتركت في حملة الجنرال غاملان على السويداء (١٥) طائرة استكشافية ، وثلاثة أسراب ، اي (٢٤) طائرة مدمرة ، فسقطت طائرة الكابتين « لافوس » ، والسرجان « باسيل » ، ثم أسقط العدو من ٢ - ٩ تشرين الاول ١٩٢٥ أربع طائرات خلال زحف حملة الجنرال غاملان على عري ورساس ، وأصاب الرصاص ثلاث طائرات استطاعت العودة إلى قاعدتها . وفي ٢٤ - ٢٥ نيسان ١٩٢٦ وفي ايار ١٩٢٦ أحاط الجيش الفرنسي بالسويداء ، واحتلت الشهباء والمقرن الشمالي ، خسرت القوات الجوية في ٢١ أيار الادجودان « كوشوا » من السرب الثالث . وفي اليوم نفسه سقطت طائرة السرجان « بيكمال » ، والسرجان ماجور « اوتلبه » قرب بصرى الحرير ، وقتل سكان « خربا » طيارها . ومن ١٩ إلى ٢٥ تموز عام ١٩٢٦ سقطت طائرة الليوتنان « لوران دوازل » والسرجان « غريس » ، وذلك في ٢٠ تموز قرب كفر بطنا وقتلا . وفي اللجاة أسقط العدو طائرة السرجان « تارديغان » ، والسرجان « انفلر » ، واحترق طيارها ، وجرح الليوتنان « بابي » ، والادجودان « برونو » ، ولكنها استطاعا أن يسلموا . وأسقط العدو في اللجاة سبع طائرات أخرى هوت كلها وتحطمت .

نرى من هذه الوقائع أن الفرنسيين اعترفوا بسقوط ست وعشرين طائرة حربية من طائراتهم ، وفي كل طائرة منها طياران ، فيكون اعترافهم بإصابة اثنين وخمسين طياراً بين ضباط وضباط صف . على أن أحصاءات الثوره تدل على سقوط ضعف هذا العدد على أقل تقدير . ومهما يكن فإن إسقاط هذا العدد من الطائرات الحربية برصاص البنادق وحدها ، فيما لا يتجاوز سنة واحدة ،

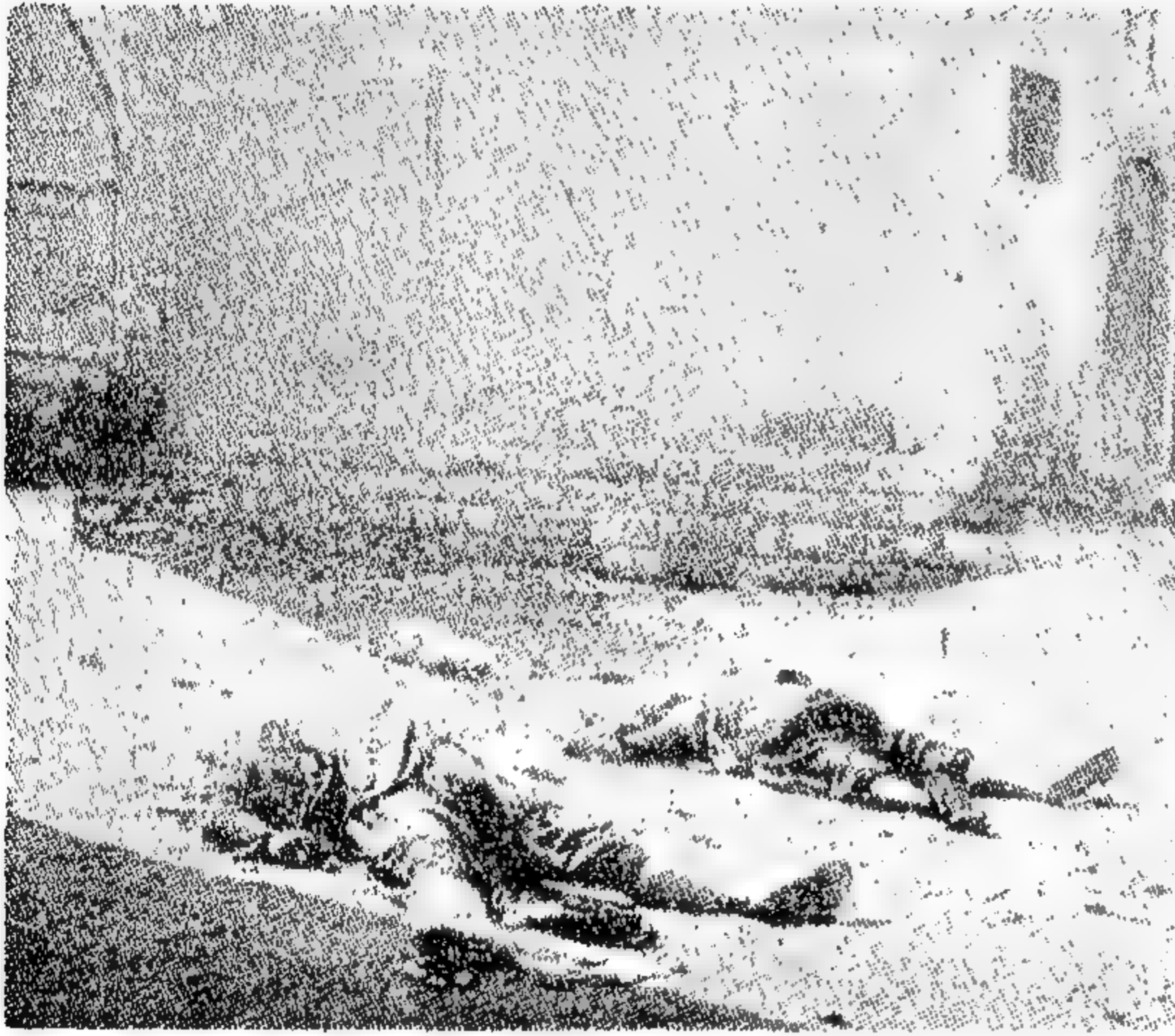
لدليل على بسالة الثائرين ، وشهادة بأنهم رماة مهرة ، يسددون رصاصهم لاخطر سلاح ، لا يقاومه عادة إلا سلاح من نوعه ، أو مدفعية كثيرة صنعت خصيصاً ضده ، وكلاهما كانت الثوره محرومة منه .

الفرنسيون حرقوا المعابد

احتلت حملة الجنرال « غاملان » السويداء في اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٢٥ ، وأعملت حرقاً ونهباً وتخريباً ببلدة السويداء عاصمة الجبل ، حتى لم يسلم منها ولا حانوت ، ولا معبد ديني ، فغدت تلك المدينة الصغرى خرائب وأطلالاً . وقد احرق الفرنسيون في السويداء معبد « عين الزمان » ، وهو اكبر معبد ديني لدى طائفة الدروز في جبل حوران ، مما زاد في سخط الدروز ونقمتهم على فرانسة التي لم توقر حتى المعابد من همجية جيشها وعدوانه ، حتى سمعت من بعضهم ما يشير الى أن معبد « عين الزمان » هو رب المعابد في الجبل ، لذلك سينتقم الله لبيته من الفرنسيين المعتدين ولضحايا فظائهم .

لقد كانت الروح المعنوية في الجبل سيئة منذ معركة « المسيغرة » التي لم يستطع الدروز ان ينتزعوا فيها نصراً حاسماً على العدو ، وزادها سوءاً الطابور الخامس الذي كان يبث الشائعات ، ويدس الدسائس ليفرق بين الدروز والغرباء من السوريين الذين التحقوا بالجبل محملاً إياهم مسؤولية فشل مفاوضات الصلح التي قام بها الوفد الدرزي اللبناني اثر معركة المزرعة ، وعرض فيها باسم الفرنسيين شروطاً يعتبرونها سمحاء لوقف الثورة في الجبل ، ويقولون إن فرانسة رضيت ان تجلو عن جبل الدروز ، وتتركه نهائياً لأهله ، لولا هؤلاء السوزيون الغرباء الذين زينوا للدروز ان مناطقهم ستشور على فرانسة بين ساعة وأخرى ، وها قد انقضى زهاء شهرين على معركة المزرعة ، دون ان تطلق في المناطق السورية الاخرى طلقة رصاص واحدة ضد الفرنسيين . كانت النشرات التي تلقيها الطائرات الفرنسية في غدوها ورواحها كل يوم على الجبل ، تضرب على هذا

الوتر الذي غدا حساساً بالنسبة لقلة الوعي القومي في الجبل ، وتدعو الفلاح الدرزي ان يتقلد المحراث ، وان يحرث ويزرع ويبنى ، وان لا يصغي إلى أقاويل الغرباء الذين يوقدون الفتنة ، ويسببون للجبل وأهله الخراب والدمار . وقد صدق الكثيرون الخدعة الكبرى بان فرانسة كانت على استعداد للتخلي عن استعمارها في الجبل والجلء عنه ، والاحتفاظ بسائر المناطق السورية ، وما قدروا ان فرانسة كانت في الواقع جلت رغماً عنها عن الجبل منذ انتصر الدروز في معركة الكفر التي كانت المعركة الاولى في معارك الجبل ، وهي حينما تعرض الجلاء عن الجبل اثر معركة المزرعة التي سحق فيها جيشها ، فانما تعرضه لكسب الوقت ، ريثما تستقدم نجدات لقواتها من فرانسة ومن مستعمراتها فيما وراء البحار ، بل تعرض شيئاً لا تملكه ، اي شيئاً ليس بيدها ، فقدته ، وذلك ريثما



تعد العدة وتحشد قواتها لإخضاع الجبل ، والثأر من أهله ، إذ لم يبق لها ، منذ معركة الكفر في الجبل غير حامية محاصرة منهارة ، كلما انقضى يوم على حصارها ، كلما انهارت أكثر ، وتكبدت القيادة الفرنسية

الخسائر في سبيل حملها على من فظائع الفرنسيين قتلى في الطريق العام الصمود وعدم الاستسلام . ولقد واجهت أثر هذه الدعاية الخبيثة صبيحة اليوم الثاني لوصولي إلى الجبل ، يوم قال لي الدكتور الشهبندر أنه غدا يطرق خجلاً أمام الدروز الذين يسألونه كلما رأوه : « أين ثورتكم الموعودة أيها السوريون ! لشد أزرنا في ثورتنا على الفرنسيين ؟ » ، وزاد الطين بلة زحف الجنرال « غاملان » بجيشه بغتة على السويداء ، وفي ظرف كان يقال ان معركة المسيفرة

على ما تحمل الدروز فيها من ضحايا ، كبدت الفرنسيين أكثر ضحايا في النفوس ، وحملتهم من الخسائر في الخيل والمؤن والعتاد والسلاح ما يحتاج تداركه إلى عدة أسابيع . والواقع أن تقدير الدروز من هذه الناحية غير خاطيء ، وإن كان مبالغاً فيه ، فجيش « غاملان » تلقى ، قبل أن يكمل ما مني به من خسائر في المسيفرة ، برقية لاسلكية عاجلة من حامية السويداء تنذر بها القيادة العليا بأنها مضطرة للاستسلام ، بعد مدة أقصاها ثلاثة أيام ، إذا لم تنقذ من الحصار المفروض عليها ، وذلك بسبب نفاد الماء ، والجوع ، وتفشي المرض بين أفرادها . وفعلاً فقد كتب لي زيارة القلعة بعد جلاء جيش « غاملان » عن السويداء ، ورأيت بأم عيني أطراف جثث الموتى من أفراد الحامية ظاهرة من الحفر والقبور التي حفرت في باحة القلعة ، حيث غصت الباحة على رحبها بتلك الحفروهي ، على تعددها وعمقها لم تتسع لأكداس الجثث من القتلى والموتى من المرض ، وحتى لم يعد تراب الباحة يكفي لطمس الجثث ، فظلت أقدام الموتى وأيديهم ظاهرة من الحفر تنشر النتن في أرجاء القلعة . لذلك اضطر الجنرال « غاملان » وبأمر من القيادة العليا ، لأن يزحف على الجبل ، قبل اكتمال استعداده الحربي ، لإنقاذ حامية السويداء ، فتعرض ببضعة آلاف من الجنود ، عدتهم الآلية تكفي لجيش عدده أضعاف عددهم ، فأسراب الطائرات التي اشتركت في القتال كانت تغطي السماء وتسيطر على أرض المعركة هذا عدا أرتال الدبابات الثقيلة التي لم تشترك في حملة ميشو ، وكانت في جيش غاملان تتسلق المرتفعات ، وتنحدر إلى المنخفضات ، وتتجاوز الصخور ، وتقلب جدران الحواكير ، وتقفز الخنادق ، وتحصد بمذافعها ورشاشاتها كل ما تراه في طريقها . وكان بديهاً ، والزحف تم على حين غرة ، وفي وقت لا يتوقعه أحد من الدروز ، والروح المعنوية على ما هي عليه من السوء في الجبل ، ألا يتقدم للقاء الجيش الفرنسي إلا عدد قليل من الدروز ، اضطروا إلى الانسحاب والتقهقر أمام نيران الحملة الحاصدة المدمرة ، وأن يصل « غاملان » إلى السويداء هدفه ، وينقذ حاميتها ، ويلبث فيها بعض الوقت ، ريثما يستعد للانسحاب ، فقد كان رغم انتصاره على الدروز ، ووصوله

إلى السويداء قاعدة الجبل ، غير مستعد لمتابعة الزحف على القرى ، لأن جيشه كما قلنا ، لما يكتمل استعدادده ، وكان لا بد له من الانسحاب ، إلا أنه غير مستعجل فيه ، فقد استقبل في السويداء الرؤساء الروحيين الذين جاءوا لزيارته ، وقدموا خضوعهم لفرنسة ، وولاءهم لها ، والتنصل من تبعات الثورة ، فقد زعموا أن الثورة القائمة في الجبل هي ثورة سلطان الاطرش ، وعدد من الدروز معه أغراهم ، أو خافوا بطشه ، بعد تسلطه على الجبل ، إثر معركة الكفر ، وان سلطان لا يمثل الشعب الدرزي في الجبل ، وإنما يمثل أكثريّة شيوخ المذهب الذين سيضعون كل إمكانياتهم تحت تصرفه لعودة الهدوء والسكينة إلى الجبل في ظل العلم الفرنسي . ووصل في الوقت نفسه إلى السويداء وفد من بعض عملاء فرنسة ، أكثر أعضائه من آل عامر الذين ساقتهم المنافسة على زعامة الجبل إلى مخاصمة آل الاطرش ، وقدم الوفد ، زاعماً أنه يمثل المقرن الشمالي ، خضوع المقرن لفرنسة ، وولاء سكانه لها ، فوبخهم على هذا الزعم الكاذب ، وهو يعرف اشتراك الشعب في مقرنهم الذي هو أكبر مقرن في الجبل بالثورة ، والالما خضع هذا المقرن الكبير لسلطان وعصابته ، وللمقرن الجنوبي الذي يسكنه آل الاطرش ، وطلب منهم ان كانوا صادقين في دعوى ولائهم وولاء مقرنهم لفرنسة ، أن يقدموا دليلاً جديداً على هذا الولاء ، وعلى قدرتهم على مقاومة نفوذ سلطان الاطرش ، بتسلم قلعة السويداء من الجيش الفرنسي ، والمحافظة عليها أياماً ريثما يعود هذا الجيش بقيادته إلى السويداء ، وان يصونوها من أي تخريب ، والا فسيعتبرهم مسؤولين مع سلطان الاطرش عن الثورة ، ويعاملهم معاملة المتمردين . وبعد هذا اللقاء أخذ الجنرال « غاملان » يستعد للرحيل ، لا سيما وقواته كانت تعاني في السويداء الشدة من قلة الماء ، فقد قطع الدروز مجرى « عين قنية » التي يبعد نبعها بضعة عشر كيلومتراً شرقي السويداء ، وحولوه عن السويداء ، ولم يبق من ماء قريبة للسويداء غير ماء « ام صاد » التي تبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن البلدة ، وحشد الدروز قواتهم في طريقها ، وحولوها في المرتفعات ، وتحصنوا في مواقعهم ليحولوا دون وصول القوات

الفرنسية الى ينبوعها ، حتى يلزمها العطش في السويداء . ولكن قلة الماء ليست هي السبب الحقيقي في انسحاب الجنرال غاملان بجيشه من السويداء ، فقد كانت استعداداته لم تكتمل ، وكانت له خطة أخرى مرسومة لغزو الجبل بعد اكتمال عدة جيشه ، فاحتلال السويداء لا ينهي ثورة سلطان ، ولكن غزو المقرن الجنوبي واخضاعه ، ينهي في نظره ثورة الدروز أو ثورة سلطان ، ولإخضاع المقرن الجنوبي طريق غير طريق السويداء . لذلك غادر السويداء في صباح يوم ٢٦ ايلول عام ١٩٢٥ الباكر ، مستفيداً من الضباب الكثيف الذي كان مخيماً صبيحة ذلك اليوم على السويداء والوديان المحيطة بها ، متستراً بجيشه به ، ولا سيما والدروز كانوا حشدوا قواتهم بأمر سلطان الاطرش في طريق ماء « ام صاد » لأنهم يقدرّون أن حملة غاملان بدلها أن تحتلها لتستطيع البقاء في السويداء ، والزحف منها الى القرى لإخضاعها ، ولم يكتشف الدروز انسحاب جيش غاملان الا بعد أن أصبح على بعد بضعة كيلومترات في طريق حوران ، في نجوة من مطاردتهم ولما اكتشفوا أخيراً انسحابه دخلوا السويداء ، فنبههم العقيد سليم الى ضرورة هدم القلعة ، اذ لا بد من عودة جيش غاملان الى السويداء ، واستخدام القلعة كشكنة للجيش ، وحصن يهدد السويداء ، فوافقت قيادة الثورة على الهدم ، وعهدت اليه بتنفيذ قراره ، وراح فؤاد سليم يطوف القرى يجمع منها المتفجرات التي في حوزة الدروز من الغنائم ، ويعتمد ، في الاكثر ، على قنابل الطائرات التي كانت تسقط في أنحاء الجبل ، ومنها ما هو ضخّم ، ولا تتفجر بسبب عطّل فيها ، وكان الكثير من هذه القنابل منزرعاً في القرى والاراضي المحيطة بها ، فأخذ الدروز يحفرون حولها ، ويخرجونها ، وينزعون « كبسولها » ، ويحملونها الى العقيد سليم في السويداء ، يفجرها بوسائله ، ويدك بها جدران القلعة وحصونها ، ولكنها كانت قلعة عظيمة لم يؤثر فيها كثيراً كل ما جمع وفجر في ثغراتها من متفجرات ، وانما استطاع هدم بعض بروجها ومهاجمها ، وجعلها بحاجة الى جهود كبيرة كي تصلح في المستقبل للسكنى والحصار . وتبين بعد الانسحاب أن الفرنسيين استردوا مدفعاً من الدروز كان أقيم قريباً من السويداء

لقصف القلعة ، من عيار ٧٥ ميليمتراً لم يفطن أحد لنقله فاسترده جيش « غاملان » .

نشاط موقت يسود الجبل

- ٢٨ -

لقد شغلت طائرات الفرنسيين ، بعد انسحاب جيش الجنرال « غاملان » من السويداء إلى مواقعه في حوران ، بقصف بلدة صلخد مركز المقرن الجنوبي ، وقصف بعض القرى في هذا المقرن وغيره كقرى الكفر ، والعفينة ، والرحى ، والقرية بلدة سلطان قصفاً شديداً . وصادف يوم كنت مع بضعة رفاق من السوريين المتحقين بثورة الجبل ، في قرية « بككة » في ضيافة صياح الحمود الاطرش ، فتعرضنا لقصف شديد ، في غارة قامت بها عصر ذلك اليوم ، ثماني طائرات على تلك القرية الصغيرة ، ولم يصب أحد منا بأذى ، على الرغم من كثرة القنابل التي ألقيت على القرية . وعلى الرغم من هذه الغارات الجوية الشديدة على قرى المقرن الجنوبي ، فقد عاد للدروز بعض نشاطهم وحماستهم ، بعد انسحاب جيش غاملان من السويداء ، وبعد أن تبين لهم أن الهدف من الزحف كان انقاذ الحامية المحاصرة في السويداء ، وان الفرنسيين ما زالوا ضعفاء يأبون الزحف على الجبل رغم تخاذل شيوخ المذهب ، والمعارضين من آل عامر أمام الفرنسيين ، ورغم وجود عملاء للفرنسيين في الجبل ، وحتى من آل الاطرش انفسهم . وقد تبين لنا في هذه الايام أن فوزي فارس الاطرش لم يكن الدرزي الوحيد الذي حاصر مع الفرنسيين في قلعة السويداء ، بعد معركة الكفر ، ولكن هناك موظفاً من آل عامر شاركه هذا العار ، وخرج من القلعة مع نساء الفرنسيين وأطفالهم ، والتحق بهم في حوران ودمشق .

كان السوريون الغرباء المتحقون بالجبل ، يتحسسون كل يوم بما يدور حولهم

من أحاديث بالهمس والجهر ، وحول مناطقهم السورية المتقاعسة عن شد ازر الثورة في الجبل ، خاصة بعد الوعود الكثيرة التي قطعها زعماءهم الوطنيون برسلهم ورسائلهم ، وقولهم ان دمشق ستكون اول مدينة تهب لنصرة الدروز في ثورة عارمة ، لا يحتاج أمرها الى اكثر من كتيبة درزية تصل الى مشارف العاصمة السورية ، وتشغل الفرنسيين بمقدمها . وكان الطابور الخامس في الجبل يثير دوماً هذا الموضوع ، وينمي الكراهية بين الدروز وضيوفهم ، حتى أصبحت الكراهية تبدو في العيون اينما حل السوريون وارتحلوا في انحاء الجبل ، بل هناك من أصبح يعتقد بان التفاهم ما يزال ممكناً مع فرانسة ، فيما اذا طرد هؤلاء الغرباء من الجبل ، وترك الدروز وشأنهم يتدبرون امرهم فيما بينهم !

انسحاب السوريين الغرباء من الجبل

لذلك غادر الجبل الى شرقي الاردن سعيد حيدر ، وحسن الحكيم ، وفوزي البكري ، وأخوه مظهر البكري ، والعميد يحيى حياتي ، في الفترة التي سبقت زحف الجنرال غاملان على السويداء . ولما وصلت انباء الزحف الى مسامع البارزين من السوريين الغرباء في الجبل ، اوعزوا اليها سرّاً بالابتعاد عن السويداء لان الوضع خطير بالنسبة للغرباء عن الجبل ، فتوجهت مع بعض الرفاق ، يوم احتلال الفرنسيين السويداء ، الى « القرية » بلدة سلطان ، وقضينا فيها ليلة واحدة ، ومساء الخامس والعشرين من أيلول سرنا الى قرية « بكّة » ، حيث وافتنا في اليوم الثاني البشائر بانسحاب الفرنسيين من السويداء الى حوران . لذلك عدنا في السابع والعشرين من ايلول الى « القرية » بلدة سلطان الاطرش ، حيث التقينا بنزيه المؤيد العظم ، وعرفنا انه عاد مع رفيقه من الرحلة الى غوطة دمشق لايصال كتاب سلطان الى منظمي ثورة حماة .

توجهنا يوم التاسع والعشرين من ايلول الى قرية المجيمر ، وحللنا في منزل سليم الاطرش ، حيث تلاقينا بالدكتور الشهنذر ، وجميل مردم ، والعقيد فؤاد سليم ، ونزيه المؤيد وغيرهم من السوريين . وبينما كنا في انتظار العشاء في

باحة الدار الواسعة ، دنا صاحب الدار منا ، وقال للدكتور الشهبندر ، في صوت خافت سمعناه ، ان في الدار جريحاً من معركة المسيفرة ، التهب جرحه لعدم وجود طبيب او عناية طبية في الجبل ، وهو يقاسي مر الآلام ، ولما سمع الليلة ان في الدار ضيوفاً بينهم طبيب الح يأن يعود الدكتور الشهبندر لعله يستطيع ان يصف له ما يخفف من آلامه ، وفجأة سمعنا الدكتور الشهبندر يغضب ، ويخرج عن طوره ، ويصيح بصاحب الدار : « انا هنا لست طبيباً .. انا زعيم سياسي .. ولست احمل معي أي اداة للطب والتداوي .. فماذا استطيع ان أصنع لجريحك ؟ .. اذهب وقل له ان ليس بين ضيوف الدار طبيب ! .. » ، فوجئنا كلنا لان اللهجة التي تكلم بها الدكتور الشهبندر كانت غير مهيبة ، ولا يجوز للطبيب التقاعس عن عيادة جريح مجاهد في الدار نفسها ، ولو من قبيل المواساة التي تخفف من آلامه ، عند العجز عن اسعافه بدواء ، وبان الوجوم في وجوهنا ، ورجا صاحب الدار الدكتور الشهبندر أن يزور الجريح من قبيل المواساة ، فذهب أخيراً لعيادة الجريح مكرهاً ، وخجلاً من صاحب الدار ، وعاد دون أن يصف له أي وصفة تخفف من التهاب جرحه ، مع ان الطبيب الانساني لا يعدم وصفة من طب البيت وحواضره ، أو من طب الاعشاب وحواضرها ، لتخفيف الالتهاب وآلامه على الجريح . ونحمد الله على ان بعد هذا الحادث بأسابيع قليلة وصل الى جبل الدروز الدكتور محمد علي الشواف من منظمي ثورة حماه ، فكان أول عمل قام به أن أسس مستوصفاً في السويداء لمداواة الجرحى والمرضى ، ولم يمنعه عمله في ثورة حماه ، ولا وجوده كلاجئ سياسي في الجبل ، دون أن يقوم بواجبه ، ويؤديه كطبيب نحو اخوانه المجاهدين الدروز .

كذلك التحق بعده بالجبل الدكتور امين رويحة خريج جامعات المانية ، والاختصاصي بالجراحة والعظام من اكبر مستشفياتها ، والطبيب الجراح في اكبر مستشفيات الاسكندرية ، وساعد الدكتور الشواف في مستوصف السويداء ، ثم لما علم ان اخوانه المجاهدين في الغوطة يجرحون ، ويموتون من تسمم جراحيهم

لعدم وجود طبيب ، اشترى بندقية ، والتحق باخوانه الثائرين الذين يقاتلون
فرنسة في معامل الغوطة ، وفور وصوله أسس في قرية « للافريس » مستشفى
للجرحى كان يشرف عليها بنفسه ، ويجري العمليات التي يستطيع عملها ، وإذا
سمع قصف المدفعية ونبا معركة في أي جانب من جوانب الغوطة أو المرج ،
كان يتنكب بندقيته ، ويخف الى ساحة المعركة . وكنا نرجوه ، كرفاق
سلاح ، أن يحفظ حياته لإخوانه ، فلا يفرط بها ، ويعرضها لخطر القتال ،
فليس بيننا طبيب غيره ، ولكننا كلنا محاربون ان فقد منا عدد حل محله
كثيرون ، ولكننا ان فقدناه كطبيب ، فليس فينا من يحل محله ، فكان يبتسم
ابتسامته الهادئة الرزينة ويقول : « لا تحرموني شرف الجهاد معكم .. مع
اخواني ورفاقي في السلاح .. قل لن يصيبنا الا ما كتب لنا » ، وينصرف بخطى
ثابتة الى المعركة ، ويقاقل في الصفوف الاولى ، يقاتل ويضمد جراح اخوانه
المجاهدين في خطوط النار . وقد عاد مع القائد فوزي القاوقجي مرة الى
اطراف الصفاة ، الحرة البركانية شرقي دمشق ، بعد مغامرة لهما في شمال سورية
نجا هو ورفيقه منها بأعجوبة ، بل بأعاجيب ، حيث طاردهما القوات الفرنسية
أياماً ، وفي كل مكان ، واستخف فريق من البدو سكان المنطقة بهما ، ورفضوا
أن يقدموا لهما الزاد ، خشية من بطش الفرنسيين الذين يلاحقونهما ، ولكن ذلك
لم يمنع الدكتور أمين رويحة من أن يخف لإسعاف ابن رئيس الحي ، لوقف النزف
الذي كان ينزف دماً من أنفه ، دون أن يكون لديه ، في تلك الظروف وسيلة
من وسائل الإسعاف ، ولكنه كطبيب مجاهد انساني لم يعدم الوسيلة ، من
حواضر الحي ، لوقف النزف الشديد الذي كاد يؤدي بحياة المصاب ، فقد ربط
قطعة قماش بخيط عقمها بوسائله الحاضرة ، ومرار طرف الخيط من أنف المصاب
الى حلقه ، وجره باصبعيه خارج الفم ، حتى سدت قطعة القماش الصغيرة الانف
وترك المصاب بوضع صحي ، حتى وقف النزف ، ونجا المريض من الخطر .

وأصيب مرة في المنطقة نفسها مجاهد من رفاق الدكتور رويحة بجراح أو

دمل كبير في صلبه شله عن الحركة ، وسبب له من الآلام المبرحة ما لا يطاق ، وليس لدى الدكتور أمين رويحه في المغارة التي كانوا يلجأون اليها ، في ذلك المكان البعيد عن العمران ، أي وسيلة من وسائل الطب لشق الخراج ، وإجراء عملية تشفي المريض ، وتخفف من آلامه ، فخف إلى قطعة زجاج حادة طهرها بالنار ، وشرط بها الخراج ، فانفقاً ، وسال منه الصديد حتى جرى في أرض المغارة ، وقام على تطهير الخراج ، ووسيلته النار والماء وما وجد في الحي من مواد ، حتى شفي المريض ، واستطاع أن يرافق اخوانه في السفر .

الزحف الكبير على الجبل

- ٢٩ -

توجهت في صباح الاثنين من شهر أيلول الى قرية «عري» ، وحلت ضيفاً في دار الامير احمد الاطرش . وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة ، في الثاني من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ ، زحف الجنرال غاملان بقوات جيشه التي حشدتها في حوران وجهازها أتم تجهيز الى قرية «خربا» في جبل الدروز ، واحتلها . وفي مساء اليوم نفسه وصل الى دار «عري» عقلة القطامي من وجهاء المسيحيين في جبل الدروز وساكن قرية «خربا» ، وأخذ يخلو بالأمير حمد الاطرش ، والاهتمام يبدو على وجه الاثنين في مشاوراتهما همساً ، وفي خلواتهما ، فقدرت أن في الجو غيماً ، وأن هناك مفاوضات مع الامير حمد ، ربما لها علاقة بزحف الفرنسيين نحو «عري» ، وفيها دار الإمارة ، وفيها الرجل الذي من حقه أن يكون حاكماً على جبل الدروز بعد وفاة الامير سليم الاطرش . وكان لا بد لنا من الرحيل عن «عري» ما دامت هدف الجيش الفرنسي في اليوم الثاني . وقيل لنا أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم غادرا الجبل الى عمان ، وطلب السوريون القادمون الى عري مني ومن رفاقي أن نصحبهم في رحلتهم ، فغادرنا «عري» في الليل فرساناً ومشاة ، وكنت من المشاة ، حتى بلغنا بلدة

صلخد ، وفيها قلعة قديمة . ولم نلبث أن تابعنا السير حتى بلغنا قرية « عنز » ، وهي من القرى الدرزية التي تقع في آخر المقرن الجنوبي ، أي على مشارف البادية التي تصل جبل الدروز بشرقى الاردن . وحللنا في منزل حسين باشا الاطرش ، وهناك أبدى لنا بعض الرفاق سوء وضع السوريين الغرباء في الجبل ، وانه غدا شاذاً وخطيراً ، وان زحف جيش « غاملان » للمرة الثانية الى الجبل معناه تصميم الفرنسيين على ضرب الثورة ، واخضاع الدروز الذين لم يطيقوا ، قبل بضعة ايام ، مقاومة بضعة آلاف من هذا الجيش في زحفهم على السويداء ، فكيف يطيقون ، هذه المرة ، وقف زحف جيش عرمرم مجهز بأقوى الأسلحة وأقطعها ، لا سيما وقد ساء الوضع في الجبل منذ معركة المسيفرة ، وضعفت معنويات أهله ، وسمعنا كيف تقدم شيوخ المذهب الى الجنرال « غاملان » في السويداء ، يعلنون باسمهم خضوع الجبل لسيطرة فرنسة ، ثم تقدم وفد آل عامر « العوامرة » عن المقرن الشمالي بمثل هذا الخضوع ، وان الجنرال « غاملان » اذا تمكن هذه المرة في الجبل ، فقد يجد بين عملاء فرنسة من الدروز من يقبض على السوريين ، ويسلمهم اليه ليقتلهم ، أو يخذلهم ، لأنهم ، في نظر الدروز ، السبب فيما حل بالجبل من مصائب ونكبات نجمت عن تخلف المناطق السورية الأخرى عن مساعدة الثورة في الجبل ، وأن السوريين الغرباء قرروا السفر الى عمان التي سبقهم اليها الدكتور الشهبندر وجميل مردم . وبعد هذه المحاضرة الطويلة دعينا الى استئجار مطايا من قرية « عنز » ، يقوم به مضيفنا حسين الاطرش ، لنترافق كلنا الى شرقي الاردن ، نبقى فيها كلاجئين ، بعد ان خاب الأمل في نجاح ثورة الدروز . لقد أثرت هذه الاقوال في أكثرية السوريين الموجودين ، اما انا وقليل من الرفاق ، بينهم سعيد الياني ، فقد اعتذرنا عن السفر ، والانسحاب من الجبل ، قبل ان يطلب منا الدروز ذلك ، وقبل ان يستسلم المقاتلون من رجاله ، لأننا في الأصل جئنا لنحمل السلاح مع اخواننا الدروز ، ونقاتل معهم العدو المشترك ، ولم نأت كسياسيين فشلوا في حركة جاءوا من اجلها ، فأثروا الانسحاب .

بعد منتصف الليل غادر القرية إلى شرقي الاردن العميد يحيى حياتي، ورضا الصبان، وأسعد البكري، وجميل البيك، وعبد القادر القواص، ونزيه المؤيد العظم، وياسين الحكيم زميل القواص في حزب الشعب، وبشير الهندي شقيق الضابط محمود الهندي، وإبراهيم صدقي وعدد من اخوانهم، وكانوا بضعة عشر رجلاً، استأجروا الدواب ودليلاً يهديهم سواء السبيل، ومنهم من أقدم على السفر سيراً على الأقدام، لأنه كان لا يملك أجرة الدابة التي تحمله إلى عمان.

الشائر يخوض المعركة مباشرة

توجهت في اليوم الثالث من شهر تشرين الأول من قرية «عنز» إلى قرية «أم الرمان»، ومنها إلى قرية «ذيبين»، وفيها التقيت بالعقيد سعيد العاص المحوي الموطن المقيم في عمان، والذي كان في عداد من سهل سفري من عمان إلى جبل الدروز، وبرفقته الدكتور محمد علي الشواف من منظمي ثورة حماة. وقد غادر موطنه، بعد أن يش من ثورة حماة بسبب التأخير الذي أصابها على أيدي بعض المشتركين فيها، ولكن الدكتور الشواف لما علم بالوضع السيء في الجبل عاد أدراجه إلى عمان. أما المجاهد سعيد العاص فقد تابع على راحلته السير إلى أرض المعركة، وخاض غمارها مع خيالة الدروز بمسدسه الحربي من طراز «برابيلو»، وابتدى من البسالة ما كان موضع إعجابهم، ثم سعى لنقل المدفع الوحيد الذي بقي للثورة لاستخدامه ضد الدبابات.

توجهت في السادس من شهر تشرين الأول من ذيبين إلى القرية بلدة سلطان انتظر فيها مع اخواني القلائل نتيجة المعركة الدائرة في جبل الدروز، لعلنا نستطيع بعدها ان نتسلح، ونقوم بتأليف عصابة في الغوطة تعمل لنقل الثورة إلى ابواب دمشق عاصمة الدولة السورية. قلت قبل الزحف ان الطائرات الفرنسية كانت تنشط كل يوم لقصف قرى الجبل، وخاصة منها قرى المقرن

الجنوبي ، والمقرن الشرقي والسويداء وتملأ الفضاء بنشرات تنذر بدنو الساعة التي تجتاح فيها الجيوش الفرنسية أراضي الجبل ، وتطلب من الدروز أن يلقوا السلاح، ويعودوا لتقلد المحراث الذي هو وسيلتهم لاستثمار الارض، وجني خيراتها. أما تنكب السلاح فلا يجلب لهم غير الموت والخراب والدمار ، وتحرضهم على طرد الأجانب من جبلهم .

مما يتألف جيش غاملان ؟

تبين أن جيش الجنرال غاملان بدأ يتحرك في غرة شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ في تنفيذ خطة زحفه على الجبل. وكان يتألف ، حسب تقديرنا، من بضعة وعشرين ألف جندي ، جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق عن قطعاته انها مؤلفة من :

قوة المشاة بإمرة الكولونيل « اندريا » من اللواء الخامس من الفيلق الرابع، واللواء الاول من فيلق الرماة الافريقيين الثامن عشر ، واللواء الثاني من فيلق الرماة الافريقيين الواحد والعشرين، والكتيبة الاولى من اللواء الثاني من فيلق الرماة الحادي والعشرين ، واللواء الثاني من فيلق الرماة السنغاليين السابع عشر، ومن فيلق الرماة التونسيين، وهو ثلاثة ألوية ، فيكون مجموع المشاة سبعة ألوية وكتيبة .



القائد المجاهد سعيد العاص من
اليمن وإلى يساره نزيه
المؤيد

مجموع المشاة سبعة ألوية وكتيبة .

أما قوة الخيالة فكانت بإمرة الكولونيل « ماسيه » وتتألف من فيلق الصباحيين المراكشين الحادي والعشرين المؤلف من أربع كوكبات، والكوكبة الرابعة من فيلق الصباحيين التونسيين الثاني عشر ، والكوكبة الشر كسية بقيادة الليوتنان « كوله » فيكون مجموعها ست كوكبات .

وكانت قوة المدفعية بإمرة رئيس الكوكبة « غلوك » مؤلفة من بطاريتين من عيار ٧٥ ميليمتر (كل بطارية مؤلفة من أربعة مدافع) ، وبطاريتين من عيار ٦٥ ميليمتر ، والكتيبة ٣٣ من الشعبة الفنية التاسعة ، وفصيلة من اللواء التلغرافي الثالث والأربعين قوة الدبابات المصفحة مؤلفة من كتيبة من فيلق الدبابات المصفحة (٥٠٢) .

السيارات الرشاشة : مؤلفة من الفريق الثامن المؤلف من الكوكبات ٨ ، ١٨ ، ٢٧ ، (كل كوكبة مفرزتان) .

قافلة الذخيرة بإمرة الكولونيل « كورنه » التابع لفيلق رماة افريقية الشمالية الحادي والعشرين .

قافلة عجلال (مركبات جر) تحمل ستة عشر طناً من الخرطوش .

قافلة سيارات تحمل أربعة وعشرين طناً من الذخائر . وقافلة سيارات أخرى تحمل ثلاثين طناً من القوات هي مؤونة يومين .

وقافلة سيارات تحمل ثمانية عشر طناً من الماء ، وقافلة سيارات تحمل خمسة اطنان من البنزين . وسرية صحية واحدة .

استسلام الامير حمد

- ٣٠ -

انطلق هذا الجيش الذي يزيد ، حسب تشكيلات الجيش الفرنسي ، عن ثلاثين الف جندي ، يوم الخميس في غرة تشرين الاول من المسيفرة الى قرية « سهوة القمح » التي قال الفرنسيون انها قرية عقلة القطامي ، مع انني اعرف ان عقلة القطامي يقيم في قرية خربا التي احتلها الجيش في اليوم الثاني من تشرين الاول ، وهي تقع غربي قرية « عري » .

وصباح اليوم الثالث من تشرين الاول واصل الجيش زحفه نحو الشرق ، فاحتل قرية « عري » ، بعد مقاومة طفيفة قامت بها شردمة من الدروز ناوشت الجناح الايمن من جيش « غاملان » . وكان الدروز ، في هذه المرة ايضاً ، على غير تأهب للقاء الجيش ، لان سكان القرى التي كان الجيش يزحف إليها ، او هي في طريق زحفه المقدر ، شغلوا بنقل الاطفال والنساء والارزاق الى قرى بعيدة عن المنطقة ، والاكثرية من السكان تقاعسوا عن القتال بسبب الخور الذي أصابهم خلال الأيام السابقة للزحف ، وحرب الأعصاب التي شنها الفرنسيون ، والنشرات التي كانت تلقى من الطائرات ، ونشاط الطابور الخامس ، وأنباء الوفود التي قابلت الجنرال « غاملان » في السويداء ، وقدمت إليه الخضوع باسم الجبل . وقد اختار « غاملان » المقرن الجنوبي في زحف جيشه ، وتجنب السويداء لأنه أدرك اثر هذا المقرن على الثورة ، وانه المقرن الذي يسيطر عليه آل الاطرش ، وان في اخضاعه اخضاعاً للثورة كلها . واختار في طريق جيشه مواقع المياه فهو في الاستيلاء على قرية « عري » يضمن لجيشه المياه الغزيرة ، القريبة منها ، ويحتل دار الامارة الرمز الأعلى لآل الاطرش وسيادتهم وزعامتهم ،

ثم بعدها ينتقل الى رساس ، وفيها ماء يساعد الحملة - وهي جيش لجب - على تجنب الخطأ الذي وقع فيه الجنرال « ميشو » يوم فصل المؤخرة عن المقدمة بسبب قلة المياه ، وخلق بينها مسافة كانت السبب في القضاء على جيشه .

سعى سلطان الاطرش السعي الحثيث لتجميع الدروز في مواجهة الجيش الزاحف ، ولكن رسله وكتبه الى القرى في هذه المرة ، لم تكن لتلقى الحماس الذي لقيته يوم الدعوة الى مقابلة جيش الجنرال « ميشو » . لقد كان المتقاعسون عن القتال في هذه المرة ، اكثر من المبادرين . وقد أخلى الدروز قرية « عري » ، إلا الأمير حمد الاطرش ، فقد غادرها تاركاً دار الامارة التي تعد اكبر واجمل دار في الجبل ، بكل ما فيها من أثاث وازراق ومؤون ، يرعاها بعض الخدم . فلما وصل الجنرال « غاملان » الى الدار أمر بان توضع فيها الالغام استعداداً لنسفها ، ثم أرسل مع احد الخدم في الدار انذاراً الى الأمير حمد الاطرش بأن يستسلم له ، والا نسف الدار ، ولم يبق فيها حجراً على حجر . وقد اطلع الأمير حمد سلطان الاطرش وبعض ابناء عمه من آل الاطرش على الانذار الخطي ، وبعد التشاور بينهم ترك له امر البت في الموضوع ، فقيادة الثورة يتولاها فعلاً سلطان ابن عمه ، وليس له شأن فيها ، واستسلامه لا يقدم ولا يؤخر في قيادة الثورة ، اللهم الا من الناحية المعنوية واثرها على سكان الجبل ، والرأي العام في سورية ، وفي العالم . لقد فضل الأمير حمد اخيراً انقاذ داره وثروته بالاستسلام ، فتوجه الى « عري » حيث استقبله قائد الجيش ، وعزفت الموسيقى ابتهاجاً بهذا النصر الذي حققه الجنرال « غاملان » في أول خطوة من الزحف الى الجبل . وربما كانت خطة الاستسلام هذه جرت حسب مباحثات سبقت هذا اليوم ، قام بها عقلة القطامي بين الجنرال غاملان والأمير حمد ، واتفق على ان تمثل بهذا الشكل ، لانقاذ سمعة الأمير حمد بين الدروز . ولقد أثر استسلام الأمير حمد على ضعاف النفوس ، فتبعه سلمان بن عبده الاطرش مستسلماً عندما وصل جيش غاملان الى قرية المجيمر ، واقتدى بإبن عمه ، وفتح الباب لآخرين من آل الاطرش .

احتلال قرية رساس

استعد جيش الجنرال غاملان ، بعد نصره المادي والمعنوي للزحف من « عري » واحتلال ينابيع الماء التي تبعد نحو نصف ساعة ، سيراً على الاقدام عن القرية ، والتي تحصن الدروز المقاتلون الذين أمكن جمعهم حولها للدفاع عن الماء ، وصد الجيش عنها . ولكن الحملة انحرفت يساراً ، وتجنبت الاماكن الوعرة التي يتحصن بها الدروز ، وسلكت السهل الممتد في الشمال الشرقي من القرية ، وسلكت الطريق الى رساس ، واحتلتها بعد قتال اشترك فيه جناحها الايمن ، وبذلك احتلت الماء الغزير بجوار القرية ، وضمنت لنفسها كفايتها من الماء . وبينما كان الجند يهدمون وينسفون بيوت السكان أرسل الجنرال « غاملان » انذاراً الى متعب الاطرش حكيم آل الاطرش وعارفته أو عراف جبلهم ، ولكن متعب رفض الاستسلام ، فنسف الجيش المحتل منزله الجميل الجديد ، ولما بلغه الخبر لم يبد حزناً عليه ، وقال : « لقد هدمت فرنسة ما بني بمال فرنسة ! .. » إشارة الى ما كان قبضه بعض زعماء الدروز من المفوض السامي الفرنسي في بيروت ، قبل احتلال الفرنسيين سورية الداخلية كرشوة لهؤلاء الزعماء ، ولبعض شيوخ العشائر السورية ، كي يكونوا بجانبها ، أو يكونوا هادئين على الاقل عند احتلال وطنهم ، وبذلك ضمنت فرنسة يومئذ ولاءهم لها .

لقد ارتكب الفرنسيون أقبح الفظائع في رساس ، القرية الصغيرة ، ولم يكتفوا بقتل الرجال المستسلمين وبتهديم المنازل ، بعد نهبها ، بل قطعوا الاشجار ، واستأصلوا الكروم ، حتى لم يبقوا غصناً أخضر في القرية وكانوا في قرية « عري » لا قوا استقبالا طيباً عند احتلالها من الاقلية المسيحية في القرية ، اذ بادر النساء والاطفال منها ، يستقبلون الجند بالماء والاطعمة والفاكهة ، ولكن ذلك لم ينقذ الاقلية المسيحية من عدوان الجنود على منازلهم ، ونهبها ، والاعتداء على النساء ، وكان في هذا درس لهؤلاء الذين ضلوا السبيل ، وأحسنوا الظن بالمستعمرين الذين

لا يفرقون في طغيانهم بين مسلم ومسيحي . ولو وقفوا الى جانب اخوانهم الدروز ، وأجلوا نساءهم عن القرية ، لما حل بهم ما حل . فاتي أن أذكر أن حملة الجنرال « غاملان » تعرضت يوم احتلال قرية « عري » لهجوم من الدروز على جناحها الايمن الممتد الى قرب قرية المجيمر ، بقيادة نسيب الاطرش أبلي فيه المجاهدون البلاء الحسن ، ولكنهم فجعوا بسقوط نسيب الاطرش شهيداً في المعركة ، وكان ركناً من أركان الثورة ، وخطيبها المفوه ، رحمه الله ، وجعل مثواه الجنة . وقد كان لاستشهاده دوي في الجبل ، وأثر عظيم على الثورة ، ورنه حزن شملت الجميع لما ثره الكريمة .

قضت الحملة يوم ٥ تشرين الاول في قرية رساس وأطرافها ، بعد ان اقامت حولها الاستحكامات والخنادق ، فبادر المقاتلة الدروز الى التحصن في الاراضي الوعرة التي بين رساس وقرية الكفر ، علماً منهم بأن هذا الجيش اللجب ، لا بد له في زحفه من الماء ، وليس بعد مياه قرية رساس ، الا مياه الكفر التي يستطيع بها البقاء ، ثم الزحف على القرى الأخرى من المقرن الجنوبي موطن آل الاطرش ، وضربها قرية بعد قرية واخضاعها ، كما أحاط فريق من مقاتلة الدروز بجناحي الحملة الايمن والايسر ، حتى يخوضوا معها معركة في حال قيامها بالزحف نحو الكفر ، وأرسلوا كوكبة من فرسانهم الى قرية « كناكر » سدت طريق السيارات بالحجارة والصخور لتقطع الاتصال بين الجيش والحاميات التي اقامتها وراءها في القرى التي احتلتها ، وبين مقرها الخلفي وقواتها الاحتياطية في حوران . وقد استطاع هؤلاء الفرسان ان يغنموا سيارتين تحملان خموراً ومؤناً للحملة ، واشتبكوا مع السيارات المصفحة ، اي المدرعات التي كانت تقوم بمهمة حراسة الطريق الرئيسية بين الحملة ، وبين مراكز الجيش في حوران ، واستمرت المعركة الى الليل ، إذ أخذت المدرعات تطلق في الفضاء شارات مضئية حمراء إنذاراً لقيادة الجيش بان الطريق الى حوران تتعرض لهجمات الدروز ، وانها مسدودة . وصباح السادس من تشرين الاول لم تبد الحملة اي حركة مما زاد في استغراب الدروز الذين اخذت تجمعاتهم تتزايد بوصول بعض النجيدات اليهم من

القرى البعيدة ، ولكن الاعتقاد السائد هو ان هذه التجمعات كلها لا تستطيع الصمود طويلاً في وجه جيش « غاملان » بألياته واسلحته الجهنمية ووفرة قواته ، عند زحفه الى قرية الكفر .

انسحاب جيش غاملان من الجبل

- ٣١ -

أخذ جيش « غاملان » تدب فيه الحركة في الصباح الباكر من اليوم السابع من تشرين الاول ، وتهيأ للمسير ، فاستعد مقاتلة الدروز بالمقابل للقائه ، وهم يتربصون منذ يومين به ، في مواجهته وحول جناحيه ، ولكن الجيش بدلاً من ان يتقدم نحو مياه « الكفر » ، انكفأ ، واتجه من أقصر طريق واسهله نحو حوران منسحباً ، متراجعاً ، متجنباً القرى ، مخلياً القرى التي احتلها ، مما زاد في يقين الدروز ان الجيش الفرنسي ينسحب من المواقع التي احتلها في اسبوع لأمر طارئ ارغمه على الانسحاب ، لذلك اشتدت عزائم المقاتلة الدروز ، ولحقوا بالحملة يضربون مؤخرتها ، وسبقها فرسانهم ينازلون اجنحتها ، حتى لا يضيعوا الفرصة التي اضاعوها يوم انسحابها من السويداء . وما ارتفعت الشمس في كبد السماء حتى اشتدت وطأة الدروز على الحملة الفرنسية ، رغم ان اكثر القوى كانت محتشدة في طريق الكفر من الدروز لم تستطع اللحاق بالحملة ، وخوض غمار المعركة لبعدها عن ساحة القتال . وكلما تقدم النهار زاد الضغط على الحملة ، رغم كل ما معها من سلاح قاطع ، ورغم البراعة التي تجلت في قيادتها ، حتى دبّت في ساعات النهار الاخيرة الفوضى في مؤخرتها ، فقد ايقن الدروز ان الحملة منهزمة من جبلهم ، همها الجلاء بسرعة ، لذلك اقدموا ، وزادوا ضغطهم على المؤخرة والجناحين . وكان لاشتراك عدد كبير من الزعماء والقادة في معركة هذا اليوم اثرها القوي على حماسة الفرسان الذين كانوا يواكبون اجنحتها ، ويصلونها ناراً من بنادقهم ، وعلى رأسهم زيد الاطرش شقيق سلطان ، وأصغر

إخوته ، وفضل الله الاطرش ، وفضل الله الهندي ، ومحمد عامر ، وصباح
الحمود الاطرش ، ومحمد عز الدين الحلبي ، وحمزة الدرويش ، وفؤاد سليم وغيرهم .
ولما اخذت الفوضى تدب في مؤخرة الحملة من ضغط المقاتلة الدروز ، وكادت
تنقلب إلى هزيمة ، خشي الجنرال « غاملان » المغبة ، وان تصير حملته إلى ما
صارت اليه حملة سلفه « ميشو » ، فوجه الفرسان الصباحيين إلى مؤخرة الحملة ،
ينجدونها ، ويشدون من عزائم جنودها ، ولما عجزوا ، راحوا يضربون الجنود
المنهزمين بسيوفهم ، يصرعونهم ، فيرى الجندي نفسه مقتولاً في الحالين ؛
برصاص الدروز ، أو بسيوف الحيلة الصباحيين ، فيختار الصمود والقتال . لقد
بلغ الخوف والرعب في قلوب الفرنسيين انهم اخذوا في أصيل ذلك اليوم
يتركون ويتخلون عن قتلاهم في ارض المعركة ، وهم ينسحبون ، ولولا الدبابات
والطائرات الكثيرة التي كانت تحمي أطراف الحملة ، وتصد عنها بنيران اسلحتها ،
وتدود عنها ذود الأم الرؤوم عن اولادها ، لآلت المعركة في آخر النهار الى
هزيمة شنعاء . وأخيراً اجتازت الحملة قرية كناكر ، وبلغت قرية « الشعلة » ،
فأخذت تتحصن في أطراف هذه القرية للمبيت ، وقد فرق الظلام بينها وبين
اعدائها ، فرجع الدروز يحملون غنائمهم من سلاح العدو الذي تركه في طريق
انسحابه ، ومن الذخيرة والعتاد والبغال ، إلى جانب رشاشين انتزعها الدروز
من الحملة بعد قتل جنودها . وكان بلاء القائد فؤاد سليم ، والقائد سعيد العاص في
ذلك اليوم حديث الدروز ، فجرح الاول جرحاً طفيفاً ، وخرقت رصاصة
بطن الفرس الذي يركبه سعيد العاص ، ونفذت من الجانب الثاني ، دون ان
تصرعها ، واصابت رشة من رشاش المرشحة المتدليسة الى جانب بسبب شدة
الطراد ، فثقتها في ستة مواضع وسلم القائد العاص ، رغم كل هذا الرصاص الذي
أصاب فرسه ومرشحته .

قضت الحملة تلك الليلة في قرية الشعلة وحوّلها ، وفي صباح الثامن من تشرين
الاول تابعت انسحابها الى قرية « المزرعة » واكداس قتلى جيش ميشو مكومة

في ساحاتها ، واحتلت مياهها الغزيرة ، فخشي الدروز ان يكون بقاء الحملة على مياه المزرعة خطة للرجوع الى السويداء من الطريق الرئيسية للسيارات ، لذلك اخذوا يحشدون قواتهم على الطريق المؤدية للسويداء لتحول دون تحول الحملة وتقدمها . وقد كنت قبل يوم المعركة ، اي في السادس من تشرين الاول ، وصلت الى قرية الكفر ، ثم سرت يوم المعركة الى قرية « الرحي » حيث التقيت لأول مرة بسلطان باشا الاطرش الذي رحب بي ، وبشرني بان الانباء المتسربة من سورية تشير الى نشوب ثورة مسلحة في مدينة حماة على الفرنسيين ، قد تكون هي التي ارغمتهم على الانسحاب والجلء عن جبل الدروز ، خشية ان يتفاقم امرها ، وتعم المدن السورية الأخرى ، الحساسة بمواقعها بالنسبة لهم . ومع ذلك امر بأن ينتقل المدفع الوحيد الذي بقي للثورة من عيار ٦٥ مليمترأ الى حرج السويداء ، كي يكون رجاله على استعداد لاستخدامه في صد الزحف الى السويداء ، فيما اذا كان انسحاب جيش الجنرال « غاملان » من رساس خطة للزحف الى السويداء .

لا اعلم ماهو شعور الجنرال « غاملان » ورجال جيشه ، في تلك الليلة ، وهم يبيتون على مياه المزرعة وفي أراضيها التي شاهدت قبل شهرين تقريبا اقصى صراع دموي بين الدروز الذين يلاحقون حملته اليوم ، وبين جيش افرنسي كجيشه ، اسفر عن سحق الجيش وابادته ، تشهد على ذلك ارض المعركة المليئة بحطام المدرعات ، وانقاض المركبات ، والهياكل العظمية للألوف من بني الانسان والحيوان . انني اقدر ان جفون الكثيرين من الضباط والجنود الفرنسيين لم تغمض في تلك الليلة ، لاسيما وهم يسمعون طلقات الرصاص تنز حولهم ، من البنادق والرشاشات التي تهميهم من مناوشات الدروز المحيطين بهم في الليل بقيادة حمد عامر ، وهم مقاتلة المقرن الشمالي الذي اعتقد الجنرال « غاملان » انه خضع لفرانسة ، ولم يبق أمامه غير المقرن الجنوبي . ان حمد عامر لم يكن في عداد الوفد الذي ألفه اقرباؤه ، وقابل الجنرال غاملان في السويداء .

ما كاد فجر التاسع من تشرين الاول يبرز حتى هبت الحملة تسرع بالرحيل من هذا المكان الموحش بذكرياته ، والدروز يناوشونها حتى دخلت اراضي حوران ، وخلفت وراءها الجبل الثائر الذي عادت إليه حماسته ، والذي لم تتجاوز خسائره في معارك الايام الثلاثة اكثر من بضعة عشر شهيداً ، وعشرات الجرحى ، وبين الشهداء حمد عامر الذي يعتبر اكبر زعيم في القرن الشمالي ، ومن أنبل زعماء الجبل وأكرمهم وأشجعهم . أما خسائر الحملة الفرنسية في ايام انسحابها فتقدر بمئات القتلى والجرحى ، بينهم عدد من الضباط وكبار القادة ، فقد اقام الفرنسيون يوم وصولهم إلى مواقعهم ومراكبهم في حوران حفلاً عظيماً لدفنهم . وقد جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق نبذة عن حملة غاملان وانسحابها ننقلها كما يلي :

« زحفت حملة « غاملان » في أول تشرين الاول من المسيفرة الى قرية « سهوة القمح » بلدة عقلة القطامي . وفي الثالث من تشرين الاول زحفت على « عري » بطريق المجيمر فاحتلتها ظهراً . ومنع الدروز الحملة من ورود الماء .

في الرابع من تشرين الاول وصل الجيش إلى رساس ، واحتل مياهها ، وظل يومي ٥ و ٦ تشرين الاول يتبادل الرصاص مع شراذم الدروز . وشد الدروز في اليوم السابع من تشرين على الحملة ، فاضطر غاملان ، ان يشرك كل قوات الاحتياط بالقتال . وظهرت وطأة العدو بنوع خاص على لواء « لونه » الثامن من فيلق الرماة الافريقيين الذي كان يزحف في المؤخرة ، وعلى لواء « كراتزر » الخامس من الفيلق الاجنبي الرابع ، فلم يتمكن اللواءان من التخلص إلا بعد ان نزلت بهما الخسائر الباهظة . وخسرت الحملة في ذلك النهار ٣٨ قتيلًا و ١١٣ جريحاً فيهم اربعة ضباط . ولم يشر الكتاب الى خسائر الايام الاخرى ، وبشارته الى استخدام الجنرال غاملان كل قواته الاحتياطية بالقتال في ذلك اليوم ، والى وطأة الدروز على لواءي « لونه » و « كراتزر » ،

وانهما لم يتمكننا من الخلاص الا بعد ان نزلت بهما الخسائر الباهظة ، لدليل على ان خسائر جيش الجنرال غاملان أثناء انسحابه من الجبل كانت اضعاف اضعاف العدد الذي اعترفت به القيادة الفرنسية ، وربما كانت الخسائر المعترف بها هي بالفرنسيين وحدهم ، دون خسائر الحملة من جنود الرماة الافريقيين ، والفيلق الاجنبي ، فجنود هذين اللواءين ليسوا افرنسيين ، وخسارتهم لا تعتبر خسارة للجيش الفرنسي .

الفصل السادس

ثورة حماة

- ٣٢ -

لقد تبين ، بعد انسحاب جيش الجنرال « غاملان » ان السبب الوحيد في الانسحاب هو نشوب ثورة مسلحة في مدينة حماة ، أنزلت الرعب في قلوب الفرنسيين ، واشعرتهم بانهم على أبواب ثورة قد تعم اكثر المدن السورية واريافها ، تحبط كل ما خططوا لإخماد الثورة في جبل الدروز ، لذلك أبرق الجنرال « ساراي » المفوض السامي الفرنسي الى الجنرال « غاملان » ، وهو على رأس جيشه في قرية رساس ، ينبئه بنشوب ثورة في مدينة حماة ، يخشى من امتدادها الى سائر المدن والمناطق والبادية ، ويطلب منه أن يفرز ألوية وكتائب من قواته ، ويوجهها الى حوران لتكون تحت امرة القائد العام لجيوش الشرق ، يخمد بها الثورات التي قد تنشب في أي منطقة من المناطق السورية الأخرى ، فكان رد الجنرال « غاملان » يشعر بان الدروز حشدوا حشودهم في وجه الحملة ، وجناحيها ، وانهم يحاولون بفرسانهم سد طريق حوران ، وقطع كل صلة لملته بمراكز التموين في حوران ، وانه بقواته الحاضرة يعاني خطر تطويق حملته وعزلها ، لذلك إما أن يتقدم الجيش بأسره ، وينفذ الخطة المرسومة لإخضاع

الجبل ، واما أن يرجئها ويعود أدراجها الى حوران ، واصر غاملان على رأيه ، وبلغ الهلع بالفرنسيين حداً حمل المفوض السامي على أن يأمر بانسحاب جيش « غاملان » من مواقعه في قلب الجبل ، وان يعود الى حوران ، وان يرجىء الخطة المرسومة لإخضاع الجبل ، فكان الانسحاب الشاق الذي كاد ينقلب الى هزيمة منكرة ، بفضل ارتفاع معنويات الدروز ، واشتداد حماسهم ، عندما شاهدوا جيش غاملان ينقلب على اعقابهم تاركاً ما احتل من قرى جبلهم ، فنازلوه ببسالتهم المعهودة ، وحماسهم الشديدة ، وكان ما اشرنا اليه من خسائر اصاب الجيش الفرنسي في اثناء الانسحاب .

دور القاوقجي في ثورة حماة

وصل كتاب سلطان الاطرش الى منظمي ثورة حماة ، بعد بضعة ايام من تاريخ تحريره ، واطلعوا منه على ان قيادة الثورة في الجبل حددت لهم غرة تشرين الاول موعداً لإعلان ثورتهم ، فلم يبق عذر للمتخلفين والمسوفين . وكان فوزي القاوقجي ، خلال هذه الفترة ، اكثر من الاتصال بمعارفه من الضباط ، وضباط الصف العرب ، والوجهاء ، واطلعهم على امر الثورة في حماة ، رامياً الى الإكثار من الانصار والامكانيات لنجاح الثورة ، الا ان المثل المأثور : « كل سر جاوز الاثنين ذاع ! .. » اخرج السر من نطاق المنظمين الاولين القلائل الى عدد من الناس يصعب ان يكتم السر بعضهم ، فأخذت الالسن تلوك الشائعات عن قرب نشوب ثورة في حماة ، وان وراء هذه الثورة فوزي القاوقجي .. ومن الطبيعي ان تصل مثل هذه الشائعات الى آذان المخبرين والعملاء والمنافقين ، ينقلونها بتقاريرهم واحاديثهم الى دوائر المخابرات الفرنسية ، وعلى رأسها القومندان « كوستليير » ضابط المصالح الخاصة في حماة ، فلم يصدق « كوستليير » ان فوزي القاوقجي الضابط السوري الوحيد الذي عين في الجيش السوري المختلط برتبة « كابتين » ، اي نقيب ، بينما لم يعين ضابط عربي غيره ، مهما بلغت رتبته من قبل في الجيش التركي أو العربي الا برتبة ملازم ثان في الجيش السوري

المختلط ، وان فوزي القاوقجي الضابط السوري الوحيد الذي يحمل وسام
جوقة الشرف (لوجيون دونور) ، من مرتبة « كومان دور » منحه إياه فرنسا ،
والذي يتحسر الضباط الفرنسيون الذين هم أعلى منه رتبة على وسام من هذا
النوع أو دونه مرتبة ، وان فوزي القاوقجي الذي تطلعه فرنسا على أسرار
مخابراتها ، يوم يتسلم وظيفة ضابط المصالح الخاصة بالوكالة في مدينة كحماة ، كلما
غاب الضابط الافرنسي الاصيل عنها بالاجازة ، وان فوزي القاوقجي الذي
سيصبح أول جنرال في جيش الشرق ، وان فوزي القاوقجي يتمتع براتب
أضخم من راتب متصرف حماة ، هل يمكن أن يخون فرنسا ، ويخون وسام
جوقة الشرف ، ويخون الجيش ، ويرتكب مثل هذه الحماقة ؟ ومع ذلك فقد
تواترت إليه التقارير والاعخبار عن اتصالات القاوقجي الكثيرة بالوطنيين
والوجهاء في حماة ، فاستدعاه أخيراً إلى مكتبه وسأله فجأة : « يقال ان
ثورة مسلحة ستندشب ضدنا في حماة ، فما قولك في هذا الخبر الذي ملأ اسماعنا »
وابتسم فوزي القاوقجي ، وقال للمستشار بهدوء : « وهل صدقت هذه الاشاعة ؟
ثم .. من سيقوم بالثورة المسلحة في حماة ؟ هل يقوم بها الوطنيون ، واكثرهم
من الطبقة المثقفة التي ما اعتادت ان تحمل السلاح ، ولا تعرف كيف تحشو
البندقية ، والتي امكانيات أفرادها لا تستطيع أن تسليح ثلاثة رجال ؟ ام الوجهاء
الاغنياء ، وهؤلاء أنت أعرف مني بهم في حماة ، وكيف فعالمهم كل يوم تخفق
وراء بابك من أجل مقابلتك ، وتأمين مصالحهم في قراهم وممتلكاتهم بواسطتك ؟
ان هؤلاء عبيد مصالحهم يستمدون نفوذهم على الفلاحين من الموظفين أصحاب
السلطة ، فهل تقدر ان يجرؤ هؤلاء على الثورة على فرنسا التي بدونها لا يستطيعون
أن يقابلوا فلاحهم في القرى ؟ بلى .. لو قالوا لكم إن مظاهرة وطنية ستقوم
في حماة .. صدقوا قولهم .. هذا ممكن .. لذلك انتبهوا في ايام الجمعة خاصة الا
يخرج بعض الاهلين ، بعد صلاة الجمعة ، من احد المساجد متظاهرين ! .. »
وراق هذا الجواب للمستشار كوستليير ، وله عدة سنوات قضاها في حماة ، يعرف
ان كل ما قاله القاوقجي صحيح ، ومع ذلك ، او عز بعد يومين من هذا اللقاء

للقاوقجي بان يتوجه مع سريته إلى البادية لجباية « الودي » وهي رسوم تفرض على العشائر البدوية ، ولمنع تجاوز البدو على زروع القرى ، فلبى الامر ، ولكنه اتفق مع اخوانه على ان يوافوه الى أماكن عينها لهم حسب برنامج تنقله في الريف والبادية فيما اذا تلقوا شيئاً من قيادة الثورة في جبل الدروز . لذلك لما وصل كتاب سلطان الاطرش الى حماة ، توجه بعض هؤلاء الى مقابلة القاوقجي في الريف ، واطلعوه على الكتاب ، وتشاوروا في امكان تنفيذ خطة الثورة في الموعد المحدد ، الا ان احدهم اقترح ان يقدم الموعد يومين ، اي للتاسع والعشرين من ايلول ، وفق مولد الرسول العربي (صلعم) ، لان مدينة حماة تكون في تلك الليلة مبهجة ساهرة ، مزدحمة الشوارع بالناس ، تخفي بحركتها الصاخبة تنقلات واجتماعات الذين سيباشرون الثورة مع فجر تلك الليلة ، فوافق الجميع على هذا الاقتراح ، وطلب القاوقجي منهم ان يعدوا اجتماعاً في منزل عبد الرحمن المعط من اخوانهم ، يدعون اليه المطلعين على سر الثورة ، وكل من يرجى منه الاشتراك في الثورة ، أو مد يد العون للقائمين بها ، وعلى ان يكون الاجتماع ، بعد صلاة العشاء ، وانه سيحضر هو بنفسه في الليل رأساً الى مكان الاجتماع للاتفاق مع المجتمعين على مراجعة الخطة الاخيرة لمباشرة الثورة في فجر تلك الليلة . ولما أظف الموعد ، عقد الاجتماع ، وحضر القاوقجي من الريف ليلاً الى منزل سعيد الترماني ، ثم الى دار عبد الرحمن المعط حيث وجد جميع المنتظمين في الحركة هناك ، الى جانب عدد من الوجهاء والوطنيين ، كان الحرص على سرية العمل حال دون اشراكهم فيه من قبل ، وباشر القاوقجي فوراً في وضع الخطة الاخيرة ، فطلب منهم ان يتوجه ، بعد منتصف الليل عدد من مسلحي حي الحاضر في حماة بقيادة مصطفى عاشور الى بستان « العدسة » على مقربة من ثكنة المرباط ، يكمنون فيه بانتظار مجيئه ليقودهم ، ويهاجم بهم الثكنة القريبة ، ثم يتوجه بهم الى ثكنة « الموقف » المجاورة لمنزل عبد الرحمن المعط الذي عقد فيه الاجتماع ، حيث ينتظره عدد آخر من المسلحين يحيطون بالثكنة من المنازل المجاورة لها ، ويهاجمونها ، فيما اذا استعصت وأبت الاستسلام ، ثم ارسل

بعض الجنود الذين رافقوه الى حماة من سرية بسيارتين ، وعددهم ثمانية ، بينهم ضابط الصف ميشيل النحاس ، ليتصلوا سرّاً ببعض ضباط الصف السوريين في الثكنة ، وخاصة منهم الحمويين ، ليعلموهم بموعد الحركة ، وكانوا منتظمين فيها سرّاً ، وتعهدوا بان يسلموا الثكنة بالتأثير على الجنود السوريين ، فيما اذا لم يكن في الثكنة ضباط فرنسيون ، فقد اعتاد هؤلاء الضباط الا يناموا في الثكنات ، بل عند أسرهم في المنازل . واوفد القاوقجي عدداً من الشباب الحاضرين ، من غير حملة السلاح ، على رأسهم عبد القادر مليشو الى طريقي دمشق وحلب ، خارج المدينة ليقطعوا قبل الصباح اسلاك البرق والهاتف بين مدينة حماة وسائر المدن الاخرى . قرأ المجتمعون الفاتحة تيمناً ، وتوجه كل منهم للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه ، وقطعت اسلاك البرق والهاتف كلها في تلك الليلة ، عدا اسلاك الخط الحديدي التي سها عن قطعها المكلفون بالمهمة ، وهكذا عزلت مدينة حماة تلك الليلة عن سائر المناطق السورية ، ولم يبق لها غير سلك الخط الحديدي للاتصال بالعالم . راح فوزي القاوقجي ، بعد ان وضع حراسة شديدة على السيارتين اللتين جاء بهما من الريف ، ووضعهما في مقبرة « باب الجسر » ، كي يلجأ ورفاقه اليهما في حال فشل الخطة وراح يسير مع زميله في الحركة عثمان الحوراني من رجال التعليم في حماة ، ينتظر الوقت المحدد للالتقاء بالملحين في بستان العدسة . ولما أظف الوقت ارسل الحوراني الى البستان ، فعاد يعلمه انه لم يجد أحداً منهم ، وتكرر الذهاب الى البستان ، ثم ذهب القاوقجي بنفسه اليه ، ودنا الفجر ، والبستان لم يصل اليها المسلحون الذين سيبدأ القاوقجي بهم احتلال الثكنتين في حماة ، وثكنات الشرفه خارجها . وكان يعلم ان ليس في الثكنات اكثر من نيف ومئة جندي ، لا يعجزه احتلالها بقواته ، ومن سينضم الى الثورة من المسلحين . وادركه الوقت ، وهو الذي جاء المدينة دون علم السلطة الفرنسية به ، وسار في الشوارع ليلاً على مرأى من الناس ، وفي الاضواء المشعة ، وصادف دوريات لرجال الأمن ، وتظاهر أنه مهتم مثلهم بأمن المدينة ، فكان افراد الدوريات يحيونه ، فينادي الضابط او العريف الذي يقودها ،

ويصدر اليه الاوامر بأن ينتبه ، إذ يخشى أن يقوم بعض الوطنيين المتهوسين بمظاهرة في ليلة المولد ، فيحييه آمر الدورية ، ويؤكد له أنه على أتم الانتباه لمثل هذا الموضوع . ولما قارب الفجر ، أو أظف ، ولم يصل من المسلحين احد الى المكان المقرر ، أدرك القاوقجي حرج موقفه ، وأنه مقضي عليه ، ان لم يغادر المدينة ، فودع صديقه الحوراني ، وركب مع جنوده السيارتين ، وانطلق الى مقر سريته في الريف ، يحبر تقريراً الى القومندان كوستليير مؤرخاً بتاريخ تلك الليلة عن أعمال سريته ، وحال الريف والبادية ، والامن فيها ، وارسله مع رسول من سريته الى المستشار ، كي لا يصدق التقارير التي ستصله حتماً عن محاولة اضرام نار الثورة في مدينة حماة ليلة عيد المولد النبوي ، ووجود القاوقجي ليلاً في المدينة لهذا الامر ، وانتقل بسريته الى الاماكن التي كان اتفق عليها مع الحوراني ، منتظراً الانباء التي ستصله من حماة ، عما سيقوم به الفرنسيون اثر قطع الاسلاك الهاتفية والبرقية ، والاجتماعات التي عقدت في المدينة وحضرها أناس لم يكونوا من قبل على علم بالحركة ، قد يشيعون خبرها فيصل الى أسماع المستشار الفرنسي . ولما طلع النهار ، ولم تبدأ الثورة ، وعرف منظمو الحركة ان القاوقجي غادر المدينة الى الريف بسبب اخطاء ارتكبت تلك الليلة ، اختفوا هم في منازل غير منازلهم ، توقعاً لاعتقالات تقوم بها السلطة الفرنسية ، لا سيما وهم هدف مراقبتها منذ زمن بعيد . وقد تبين اخيراً ان مسلحي حي الحاضر ، وعلى رأسهم مصطفى عاشور ، اخلفوا وعدهم ليلة المولد النبوي ، لأنهم أرسلوا احدى إلى بستان العدسة فوجد أنها ارض لا شجر فيها ، ولا زرع ، يصعب اختفاء عدد من المسلحين فيها ، دون ان يلفتوا النظر ، فعاد اليهم يقترح تبديل المكان ببستان آخر قريب اسمه بستان « ام الحسن » على بعد مئة متر من بستان العدسة ، فكان ذلك ، ولكن دون أن يعلم القاوقجي بهذا التبديل ، واني له ان يعلم وقائد المسلحين لم يرسل من قبله احداً الى بستان العدسة ينتظر فيها القاوقجي ليهديه الى المخبأ الجديد . وكان في تلك الليلة نفسها شابان وطنيان هما فؤاد رسلان ، وعبد الهادي المعصراني على رأس خمسة عشر شاباً من مدينة حمص ،

يحلون في بيت المجاهد سعيد الترماني انتظار ألنشوب ثورة حماة ، والاستيلاء على الأسلحة والعتاد من الثكنات العسكرية ، يحملون منها ما تيسر إلى إخوانهم في حمص . وكانوا على موعد مع ثورة حماة ، للقيام بثورة مسلحة في مدينة حمص ، تتبعها ، في نفس الوقت ، ثورة مسلحة في بعلبك ينظمها توفيق هولو حيدر من رجالات بعلبك الوطنيين ، فاضطر الحمصيون لأن يتسربوا سراً في اليوم الثاني عائدين الى مدينتهم كي لا تكشف السلطة امرهم .

الارتجال في الثورة

٣٣

اصبح الصباح ، وهبت المدينة الى اعمالها كالعتاد ، وعلم الفرنسيون بقطع الاسلاك البرقية والهاتفية ، ولكن حاميتهم في حماة ، كانت من القلة لاتساعدهم على أعمال البطش ، لا سيما والإشاعات عن قرب نشوب ثورة في حماة تملأ التقارير في دائرة مخابراتهم ، لذلك لبثوا مترقبين ، وزادوا حذرهم ، وربما عدوا قطع الاسلاك في تلك الليلة عملاً من أعمال التخريب قام به بعض المتهورين من الشباب الوطنيين ، قد يقف عند هذا الحد . ولما انقضى النهار دون أن يقوم الفرنسيون بأي عمل سلمي في حماة ، أخذ منظمو الحركة يخرجون تباعاً من مخابثهم ، يتصلون ببعضهم بعضاً ، ويتشاورون فيما يعملون ، فقر رأيهم على أن يتصلوا بفوزي القاوقجي ، فتوجه في اليوم الثالث سعيد الترماني مع رفاق له بسيارة الى قرية « معرشحور » على بعد عشرة كيلومترات من المدينة ، وقابلوا فوزي القاوقجي الذي عرف منهم انباء المدينة ، وأفهمهم أن وضعه اصبح في خطر ، وأنه يترقب ان تستدعيه السلطة الى حماة وتعتقله ، أو ترسل قوة للقبض عليه ، لذلك لا بد من العمل السريع لتنفيذ خطة جديدة للثورة في حماة ، واتفق معهم على أن يكون ليل الرابع من شهر تشرين الاول موعداً لإعلان

الثورة ، وكلفهم بأن يجمعوا كل اخوانهم من جديد في مساء تلك الليلة ، اذ يوافيهم الى حي الحاضر حيث يجد منهم من يرشده إلى مكان الاجتماع ، على أن يكون القادرون على حمل السلاح مهئين بأسلحتهم أيضاً في المكان نفسه ، أو في مكان آخر ، فيباشروا أعمال الثورة دون تردد ، فلا تقع الخطيئة التي وقعت ليلة عيد المولد ، ولا تتكرر . وعاد الترماني إلى حماة ، وأطلع إخوانه على ما اتخذ من قرارات مع القائد القاوقجي ، فهبوا ينفذونها ، ويطلبون من كل من يعرفون أنه قادر على حمل السلاح من أبناء المدينة ، أو بحوزته سلاح أن يتهيا للعمل في تلك الليلة ، وانصرف القاوقجي في الريف إلى الاتصال ببعض شيوخ العشائر القريبة من حماة ، وأطلعهم على عزمه ، وطلب منهم الاشتراك معه بالثورة . وكان له بحكم وظيفته نفوذ على شيوخ العشائر ، فلباه عدد من شيوخ الموالي والسبعة منهم الشيخ صالح بن هديب ، والشيخ سلطان الطيار ، والشيخ فارس العطور وغيرهم . حتى أن عدداً من فرسانهم رافقه مساء اليوم الرابع من تشرين الأول إلى مدينة حماة للاشتراك بالثورة . وكان القاوقجي أوفد الضابط الفرنسي في سريته ، واسمه الليوتنان «جرباي» إلى بلدة محردة وقرية السقيلبية إبعاداً له عن جو الاتصالات التي يجريها القاوقجي في تنقلاته كي لا يطلع عليها ، ويعلم مستشار حماة . ولما حل اليوم الرابع من تشرين الأول عام ١٩٢٥ ارسل ميشيل النحاس ضابط الصف وبعض جنود سريته المطلعين على سر الثورة يستدعون إليه الضابط الفرنسي ، ولما وصل قبض عليه ، واعتقله في حي من حي الاعراب الذين أظهروا استعدادهم للثورة معه .

كانت مدينة حماة نهار الاحد في الرابع من شهر تشرين الأول عام ١٩٢٥ نائرة حقاً ، اذ لم يبق أحد من أهلها لا يعلم ان الثورة ستنشب في الليل ، وكان المتحمسون للثورة يسألون عن السلاح والعتاد علناً من بعضهم بعضاً في الشوارع والاسواق ، يشتررون حاجتهم ممن يتاجرون بالسلاح أو يحوزونه في الخبايا ، هذا يسأل : « هل عندك خرطوش ألماني ؟ » ، وذلك يسأل : « هل عندك بندقية للبيع ؟ » ،

وكان هذا يجري علناً ، وآذان الفرنسيين تصغي ، وتسمع ، فأدركوا ان المدينة ستثور عليهم في الليل ، وليس لديهم قوة كافية للبطش بالمحرضين الذي تعرف أكثرهم ، لذلك لجأوا فوراً إلى ترحيل عائلاتهم بالقطار إلى بيروت ، وغادر ضباطهم منازلهم إلى الشكنات يحصنونها باكياس الرمل ، وبالإسلاك الشائكة ، وينصبون الرشاشات في الأماكن المسيطرة على ما حولهم . كل ذلك على مشهد من المحويين . وما غابت شمس ذلك النهار حتى أغلقوا ، على غير عادتهم ، أبواب الشكنتين في قلب المدينة ، وقبعوا وراء رشاشاتهم المنصوبة ينتظرون ساعة الصفر التي يجهلوننها ، والتي يتوقعونها في تلك الليلة . وأيقن منظمو الحركة أن ما لهم من أعوان بين ضباط الصف السوريين والمغاربية في الشكنات أصبحوا مشلولين لا يستطيعون مساعدة الثورة ، لأن الضباط الفرنسيين سيطروا بأنفسهم على الجنود ، وسيقتلون كل من يتمرد عليهم من أفراد الحامية أو يشتبهون بأمره .

توجه ، بعد غروب ذلك اليوم ، عدد من منظمي ثورة حماة إلى حي الحاضر ينتظرون وصول القائد فوزي القاوقجي وأخوانه ، وتجمع حولهم المسلحون من أهل الحي ، دون وجل . لأن الفرنسيين سلكوا سبيل الحصار منذ الغروب ، وأغلقوا عليهم أبواب الشكنات ، ولم يبق ما يخشاه الشوار منهم في أحياء المدينة . ولما أظفت الساعة الثامنة مساء وصل القاوقجي ومعه عدد من جنوده وشيوخ العشائر ورجالهم المسلحين ، لا يتجاوز عددهم كلهم العشرات ، وسأل القاوقجي أخوانه الذين كانوا في انتظاره عن اجتماعهم ، فأطلعوه على الوضع ، وأن الفرنسيين حاصروا بالشكنات ، لأنهم على علم بأن الثورة ناشبة هذا المساء ، وأدرك أن الخطة التي كان وضعها من قبل للاستيلاء على الشكنات لم تعد تناسب الوضع ، ولم يبق أمامه غير استخدام القوة سبيلاً لثورته ، لذلك أطلق من بندقيته طلقة في الهواء إيذاناً ببداية الثورة ، وسار بمن معه من المسلحين الذين استولوا أولاً على مخفر الشرطة في حي الحاضر ، وسائر الخافر في المدينة ، ثم

اتجهوا نحو دار الحكومة وفيها السجن المدني ، ومع ان ضباط الدرك السوريين كان اكثرهم على علم بامر الثورة ، وبعضهم على صلة بالقاقجي ، الا ان ضابطاً برتبة ملازم منهم لم يكن في تلك الليلة ضابطاً مناوباً ، تطوع من نفسه لأداء هذه المهمة ، وقاد قوة الدرك في دار الحكومة لمقاومة الثوار لعله يرقى رتبة ، أو ينال وساماً من الفرنسيين ، فلما وصلت قوة من الثوار الى دار الحكومة قوبلت من قوة الدرك المتحصنين في النوافذ وبابل من الرصاص ، فرد عليهم الثوار ، وتجمهر حول دار الحكومة الاهلون مسلحين وغير مسلحين ، يريدون اقتحام الدار ، فسقط عدد منهم شهداء ، واخيراً ، بعد منتصف الليل ، تمكن فريق منهم ان يبلغ الباب الكبير المغلق ، وان يحطمه ، وان يشعل النار في احد المكاتب ، فتسرى النار الى الدوائر الرسمية ومكاتبها المليئة بالدفاتر والسجلات والاوراق والمقاعد والمنصات الخشبية والاثاث ، تلتهم كل شيء في طريقها ، فاضطرت قوة الدرك ، وقوة الحرس السيار التي تحرس السجن ، وكلتاهما تقاوم الثوار ، لان تلجأ الى الاقبية ، خشية ان يذهب افرادهما طعماً للنار . وهناك اخذ المحاصرون يبحثون لأنفسهم عن منفذ للنجاة فوجدوا نافذة في اعلى القبو تسدها عوارض من الحديد ، تطل على باحة دار ، هي سكن فريد العظم الذي كان القاقجي فاتحه ، في جملة من فاتحهم ، في امر الثورة ، واطهر استعداداً لمساعدتها ، فأخذ الجنود يصرخون مستغيثين ، ويطلبون من سكان الدار كسر عوارض الحديد ، او خلعها ، وفتح النافذة التي ليس لهم منفذ سواها ، فقام الخدم والرجال في منزل العظم بخلع عوارض الحديد من النافذة ، وفتحها حيث تسلل منها رجال الدرك ورجال الحرس السيار بأسلحتهم الى الدار ، واجارهم صاحبها ، وتركهم يتسللون في ظلمة الليل الى منازلهم ، او منازل اصدقائهم يختبئون فيها ، وبعضهم ظل لاجئاً الى مضافة دار العظم . وقد زار فوزي القاقجي ، في الليلة نفسها ، دار فريد العظم ، اى بعد حرق دار الحكومة ، وانقاذ المساجين في سجنها ، فلم يخبر صاحب الدار القاقجي بحمايته قوات الدرك والحرس السيار في داره ، واخفى عنه امرها . وقد حدثني خالي علي

الرئيس ، انه كان بين المهاجمين الذين استطاعوا اخيراً اقتحام باب دار الحكومة ، تحت وابل من رصاص المدافعين عنها ، واستطاعوا تحطيمه ، ان الكثيرين من رفاقه سقطوا شهداء حوله ، ولكنه مع نفر من رفاقه المهاجمين ، تمكنوا من الدخول الى مكاتب الدار ، واشعلوا النار فيها ، وبذلك قضوا على المقاومة الضارية التي قام بها الضابط على رأس قوة الدرك والحرس السيار ، انضمت اليهما في النهار قوة الدرك في سلمية كان استنجد بها الفرنسيون ، واستقدموها ، وضموها الى القوة في دار الحكومة ، ولولاه لاستسلم الجنود ، باعتبارهم من أبناء البلاد ليس على رأسهم ضابط فرنسي ، فقد كان يهدد باعلام الفرنسيين باسم كل من يتهاون في الدفاع عن الدار .

صمود الشكنات الفرنسية

أخذت ثكنات الفرنسيين في المدينة وخارجها تطلق نار رشاشاتها على ما حولها ، حتى لا يقرب منها الثوار ، وتحمي نفسها ، وأخذت المدفعية تقصف المدينة من ثكنة « الشرفة » المطلة على المدينة من جوار محطة الخط الحديدي ، ورغم ذلك ، فقد اندفع الشعب في تأييد الثورة ، فدقت الطبول في الأحياء ، وزغردت النساء ، وتجمع عدد كبير من الأهلين ، مسلحين وغير مسلحين ، على قرع الطبل في حي آل البرازي ، لا سيما ، وكان قد شاع في المدينة أن نجيب آغا البرازي عميد العائلة ، مشترك في الثورة ، الا أن هذا الجمع اصطدم بحسني البرازي الذي جاء يندد بالثورة والقائمين بها ، وانهم جروا الى مدينتهم الموت والدمار ، وسمع نجيب البرازي صوت ابن اخيه ، فخرج من داره يعلن أمام الجماهير براءته من الثورة والقائمين بها ، ويدعو الناس الى التفرق الى منازلهم والتزام الهدوء ، والا فسيضطر الى أن يعلم السلطة الفرنسية بأسماء المتمردين ، فانفض الجمع ، وتوقف الطبل عن القرع ، ولم يتقدم احد في تلك الليلة لمهاجمة الشكنات الفرنسية في الشطر الغربي من المدينة حيث يشطر نهر العاصي المدينة الى شطرين : السوق وهو الشطر الغربي ، والحاضر وهو الشطر الشرقي . وكان

المتفق عليه ان يتولى ، في تلك الليلة ، القاوقجي ورجاله تطهير الشطر الشرقي من المدينة من قوات الدرك والشرطة ، وأن يتولى نجيب البرازي واصلات البرازي وآل البرازي برجالهم المسلحين مهاجمة الثكنات في الشطر الغربي من المدينة . ولكن موقف نجيب البرازي خذل الثورة ، وأرهب الناس ، فوصل في أول الليل الى حماة نحو عشرين فارساً من الحرس السيار في بلدة « محردة » ، وانضموا الى القوة الفرنسية المحاصرة في ثكنة « الموقف » دون ان يعترض سبيلهم أحد في الشطر الغربي من المدينة ، وحوالي منتصف الليل خرج من هذه الثكنة « الليوتنان ديرفو » الفرنسي مع فصيلة من قواته معهم رشاش واحد ، وأنقذ المال من خزانة المصرف السوري في حي الدباغة ، فلم يجد من يعترضه في الذهاب والاياب . وقد تحدث هذا الضابط عن نفسه بعد الثورة ، فقال : « كنا في الثكنة من القلة في العدد ما نجد الدفاع عن الثكنة ضرباً من الجنون ، لان ثكنتنا كانت محاطة بالمنازل والخوانيت من اربعة اطرافها ، والمنازل المرتفعة متسلطة عليها . ولكننا لما بدأت الثورة ، وانقضت الساعات دون ان تطلق رصاصة واحدة على ثكنتنا ، ووافتنا نجدة من الحرس السيار في محردة اشتدت عزيمتنا ، وقررنا الدفاع عن انفسنا ، وفكرت بانقاذ أموال المصرف السوري ، فخرجت مع افراد قلائل من الجنود من الثكنة ، وأديت المهمة ، وكنت خلالها اتوقع ان استسلم لأي قوة تعترض سبيلي من الثوار ، ولكن لم اصادف أحداً منهم ، ولم تطلق علينا رصاصة واحدة ! » . وبلغ استهتار القومندان كوستليير بالثورة أنه لم يغادر مسكنه في حي « الحوارنة » ، وهو منزل مرتفع يطل على ما حوله ، واكتفى باستدعاء ثمانية جنود مع رشاش ثقيل أقامه على شرفة المنزل ، كان رصاصه يصوب الى اي انسان يخطر امام الجنود في الأزقة والشوارع التي تطل عليها الشرفة ، ويصرعه . وفي الصباح الباكر ، صباح الخامس من شهر تشرين الاول ، وصلت الى حماة سرية من الجند ، هي حامية بلدة مصياف غربي حماة ، لا يتجاوز عدد افرادها الثمانين ، وانضمت الى حامية حماة في الثكنات ، وكان افرادها من الرعب والخوف ، وهم يحتازون طريقهم

الى الثكنة ، على استعداد للاستسلام لأي قوة من الثوار تواجههم ، أو تعترض سبيلهم . واقبلت الطائرات في النهار تقصف المدينة ، بالإضافة الى المدفعية التي كانت تستمر في قصفها البطيء من ثكنة الشرفة . وتداول وجهاء حماة أو اغنياءها « الذوات » ، وتشاورا فيما بينهم ، فوجدوا من مصلحتهم ان يتبرأوا للقومندان كوستيلير ضابط المصالح الخاصة من مسؤولية الثورة التي لم تستطع الاستيلاء على مواقع الفرنسيين في مدينتهم ، فألفوا وفداً منهم ، كان في عداده نجيب البرازي وفريد العظم ، وتوجه أفرادهم الى دار المستشار في حارة الحوارنة ، يرفعون المناديل البيضاء شارة الاستسلام ، فاذن لهم المستشار ، وقابل دعوى التبرؤ من مسؤولية الثورة بالهزء ، ولم يصدق ان فوزي القاوقجي يجنود سريته القلائل يستطيع ان يشعل ثورة في مدينة حماة التي يربي عدد سكانها على سبعين الف نسمة ، لو لم يكن زعماء المدينة مشتركين او متواطئين معه على الثورة ، ووقف المستشار عند قناعته بمسؤوليتهم عما يصيب المدينة من تدمير بسبب الثورة ، وبعد حوار وجدل قال لهم انه سيظل يعتبرهم مسؤولين عن ثورة حماة حتى يقبضوا على فوزي القاوقجي وشرذمة جنوده ، ويسلموهم اليه ، وعندئذ فقط يكف عن قصف المدينة ، ويرفع عنها أذى الجنود وتقتيل كل من يلوح لهم من الاهلين . واخيراً لم يجد اعضاء الوفد بداً من التعهد للمستشار بالقبض على فوزي القاوقجي وعصابته ، وخرجوا من لدنه يسألون عن مكان القاوقجي . وكان القائد مع شرذمة من رجاله انتقل في الضحى الى شطر السوق ، لما علم ان ثوار هذا الشطر لم يهاجموا الثكنات ، بسبب موقف نجيب البرازي واضرابه ، ممن كانوا يتعهدون بامداد الثورة بمئات الرجال المسلحين ، ويضعون تحت تصرف قيادتها ما يملكون من ثروة . لقد كان نجيب البرازي يقول للقاوقجي واخوانه : « اني املك عشر قرى في اطراف حماة ، فهل اعجز عن نجدتكم بعشرة مسلحين من كل قرية فيكون لديكم يوم الثورة مني وحدي مئة مسلح ؟ ثم انني املك اليوم سبعين الف ليرة ذهبية نقداً ، وانا مستعد ان اضعها كلها تحت تصرف قيادة الثورة ، فلا تخافوا .. ولا تحزنوا .. اننا جميعاً معكم ! .. » . ان هذا

الرجل وبعض أقربائه الذين أظهروا استعدادهم لحمل السلاح والقتال بأنفسهم ، كانوا متعهدين باحتلال الثكنات الثلاث في حي السوق ، الشطر الغربي من المدينة . ان هؤلاء لم يكتفوا بخذل الثورة والتعاس عن القيام بدورهم ، بل صدوا الناس عن الانخراط في الثورة ، وهددوهم ، وأخافوهم ، وفرقوهم بدلاً من ان يوجهوهم إلى مهاجمة الثكنات ، وخاصة منها المحاطة بالمنازل ، فقد كان احتلالها سهلاً ومضموناً .



قلنا ان فوزي القاوقجي انتقل ، في ضحى ذلك اليوم ، من حي الحاضر الى شطر السوق ، وصعد مع قليل من المسلحين إلى مئذنة مسجد تشرف على ثكنة الموقف ، وأخذ يهاجم حاميتها برصاص البنادق ، وبالرمانات اليدوية ، فأردى منهم قتلى ، وأصاب جرحى ، وإذا برجال من أبناء المدينة يلحقون به ، ويحدثونه حديث وفد الوجهاء الذي قابل « القومانندان كوستلير » ، وتعهد له بالقبض على فوزي القاوقجي وعصابته ،

المجاهدون الشهداء عبد القادر مليشو ، ومصطفى عاشور ، وعلاء الدين الكيلاني ، ورزوق نصر ، يتوسطهم الشهيد الدكتور صالح قنباز

وان نجيب البرازي إثر عودته من المقابلة بدأ يسأل الاهلين عن مكان القاوقجي ، وانهم يخافون عليه وعلى إخوانه من الغدر ، فهبط مع رجاله من المئذنة ،

وانسحب توأ إلى حي الحاضر . وقبيل الظهر وصل قطار حلب إلى محطة حماة يقل أكثر من مئة جندي ، وجهوا من الشمال لنجدة حامية حماة ، وبعد الظهر وصلت قوة أخرى أكبر بقطار قادم من الرياق ولبنان دخلت المدينة ، واطلقت نيرانها على كل من صادفته من الاهلين في الشوارع والازقة ، وفوق أسطحة المنازل ، واحتلت الاماكن المرتفعة في المدينة كحي الحوارنة ، والباشورة ، وتل الدباغة « صفرون » ، وسلطت نيران أسلحتها على الاهلين ، حتى كثر عدد القتلى والجرحى منهم ، فلا يجد الاهلون مجالا لدفن شهدائهم ، فإذا خرجوا إلى المقابر انهم عليهم رصاص الرشاشات من المرتفعات ، وأصاب عدداً منهم . وفي أول الليل أصابت القوة المتحصنة في تل « صفرون » من حي الدباغة برصاصها رجلاً عابراً سبيل من أقرباء الدكتور صالح قنبار ، سقط بالقرب من باب الدار التي يسكنها الطبيب على التل ، فاستغاث الجريح ، وهب الدكتور لنجدة ، فصرعته رصاصات من رشاش للجنود ، وسقط الدكتور قنبار شهيداً الى جانب قريبه الجريح . ولم يستطع أهله دفنه ، والمدينة تحت رحمة قوات الجيش التي تحتل مرتفعاتها ، وتسلب نيرانها على كل من يخطر امامها من الاهلين ، فدفن في زاوية آل الشرايبي القريبة من الدار ، ثم نقل بعدئذ جثمانه الى الضريح .

عارض الثورة فكان ضحيتها

وقد كان لمصرع الدكتور صالح قنبار رنة حزن في المدينة ، وفي كل انحاء سورية ، فقد كان من رجال الحركة العربية ، واستاذاً مدرساً في مدرسة حماة الاعدادية ، ابعده الترك ، في الحرب العالمية الاولى إلى الاناضول مع من أبعد من أحرار سورية ، وهو ، رحمه الله ، كان معارضاً لنشوب ثورة في مدينة حماة ، بل كان معارضاً لكل ثورة مسلحة على الفرنسيين الاقوياء ، فهو يؤمن بتربية جيل تربية وطنية صالحة ، ليستطيع هذا الجيل بالاسلوب الذي يراه تحقيق استقلال سورية ، وخلصها من الاستعمار الفرنسي الذي ابتليت به . وكنت مع

عدد من اخواني منظمي ثورة حماة ، ناقشناه مرة ، في سهرة لنا على تل « صفرون » ، في ظروف ثورة الجبل ، وضرورة تخفيف الضغط عليها ، وشد أزرها بثورات تنشت في مناطق أخرى من سورية ، فعارضنا الدكتور قنبار ، وأبدى آراءه السامية ، وانه لا يؤمن بالثورات المسلحة وسيلة للحرية ، لا سيما ضد فرنسا الدولة القوية التي انتصرت على المانية في الحرب الكونية الاولى ، ولما قلت له : « ولكن الفرنسيين سيطروا على أداة التعليم ، ووضعوا البرامج الاستعمارية لتخريج جيل يجهل قوميته ، وأبحاده ، وتاريخ أمته ، وانهم أفسدوا العقائد فأصبح المتخرج من المدارس الثانوية لا يعرف غير تاريخ فرنسا معرفة واسعة ، ولا يعرف غير ادبائها وشعرائها وابطالها وأبحادها ، ويرى فيهم القدوة .. » ، قال : « علينا بافتتاح المدارس الخاصة ، تعلم ابناءنا كما نريد ، وتنشئهم تنشئة وطنية . » ، قلت : « ولكن الفرنسيين سيطروا ، كما قلت ، على برامج التعليم ، وارغموا المدارس الخاصة على التقيد بها ، واخضعوا طلابها لنظام البكالوريا ، ولبرامجهم التي تعنى بالثقافة الفرنسية دون غيرها ، وتعلم النشء عظمة فرنسا وحبها ، وهما هي مدينة حماة ليس فيها غير مدرسة « دار العلم والتربية » الخاصة ، فهل تستطيع هذه المدرسة الوطنية ألا تخضع لبرامج التعليم التي وضعتها فرنسا ، وإلا لعجز طلابها عن نيل الشهادة الابتدائية « سرتفيكا » ، أو شهادة الكفاءة « بروفه » ، أو شهادة الثانوية « بكالوريا » ، في مراحل التعليم ، ولما استطاعوا بعدها إتمام دراستهم العالية في الجامعة السورية وجامعات العالم . ثم ان الدولة لا تسمح ولا ترخص لمدرسة خاصة بالافتتاح ما لم يتعهد صاحبها بالتقيد بالانظمة ، والخضوع لبرامج التعليم ، والقبول بإشراف الدولة على مدرسته ، فكيف نستطيع افتتاح مدارس خاصة وتنشئة جيل جديد ؟ » ، وأصر الطبيب قنبار على رأيه ، وأصررنا على رأينا في أن الثورات هي الطريق إلى الحرية ، وأغلقتنا باب الجدل معه ، فقد كان أستاذنا ومربينا في مدرسة حماة الإعدادية ، وما كنا ندري أن ثورتنا ستودي بهذا المربي العالم ، والوطني المؤمن ، صاحب رسالة السلم !

انسحاب القاوقجي من حماة

أذاع قائد الموقع الافرنسي صبيحة يوم الثلاثاء في السادس من شهر تشرين الاول بلاغاً بإخضاع مدينة حماة للأحكام العسكرية ، ومنع التجول ، ولكن سيطرة الفرنسيين لم تعد الشطر الغربي من المدينة ، رغم ان الكولونيل «مارتي» قائد موقع حمص وحماة جاء بنفسه ينظم الدفاع في مدينة حماة ، ويشرف على القوات المتحصنة في الثكنات والمرتفعات ، وأدرك فوزي القاوقجي أن ثورة حماة فشلت موضعياً ، فأراد ان يستأنفها في الريف ، لذلك انسحب مع عدد من الثوار من حي الحاضر في الليل باتجاه الشمال ، وضم الى قواته بعض مسلحي البدو من عشيرة الموالي وغيرها ، وهاجم بهم مخفر الحمراء ، وبلدة معرة النعمان ، ونازل قوات الحرس السيار فيها نحو اربع ساعات ، وغنمت قواته عشرات من الخيل والبنادق ، عدا ما انزل بالافرنسيين من خسائر بالنفوس ، واحرقت قواته محطة كوكب على الخط الحديدي شمالي حماة ، ولكن الفرنسيين ما لبثوا ، بعد ان استقر لهم الوضع في مدينة حماة ، وأصبح لديهم قوات كبرى بانسحاب جيش « غاملان » من جبل الدروز ، ان استدعوا شيوخ العشائر ، وفي مقدمتهم امراء الموالي ، وساموهم بالإغراء تارة ، وبالتهديد تارة أخرى ، على الغدر بفوزي القاوقجي ، والقبض عليه ، وتسليمه اليهم ، فعاد امراء الموالي ، وقبضوا على فوزي القاوقجي ، ولكن الشيخ سلطان الطيار وفريق من شيوخ عشيرته المجاورة للموالي ، استطاع بأسلوبه انقاذ فوزي القاوقجي من ايديهم ، وحمله على الابتعاد عن المنطقة ، وعن العشائر القريبة من حماة ، فأمن بالبادية ، وضرب في أرجائها يأوي من حي إلى حي ، حتى علم من حمويين قابلهم في حي للأعراب كانوا نزلاءه ، ان الفرنسيين وجهوا سيارات للبادية فيها جنود وجواسيس باسم تجار للسمن ، يتتبعون أثره ، كي يكتشفوا مكانه ، ويقبضوا عليه ، أو يقتلوه ، فاضطر إزاء هذا الخبر لان يبتاز الحدود

السورية إلى العراق ، ويلجأ إلى شيخ عشيرة الدليم في لواء الرمادي ، وهي عشيرة كبرى في المنطقة ، يعرفه القاقوجي قبيل الحرب العالمية الأولى ، يوم كان ضابطاً في الجيش العثماني برتبة ملازم في مدينة الموصل ، وأدى للشيخ ولوالده خدمة كبرى ، إذ أنقذ الولد الذي كان أبوه الشيخ يومئذ ، من السجن ، ومن حكم كاد يصدر عليه بالموت . والولد ، بعد وفاة والده ، أصبح شيخ العشيرة فأكرم مشوى فوزي الذي أقام بضعة أسابيع في ضيافته . وكان يرافق فوزي في هذه الرحلة المجاهد الحاج مصطفى الديب السبسي من أهالي حي الحاضر في



فريق من الاعراب الذين اشتركوا في الثورة السورية

حماة ، واحد المجندين في سرية فوزي أيام خدمته في الجيش الفرنسي ، فكان يرسله ، في فترات ، الى بغداد ، يأتيه بالصحف لعله يقع فيها على أنباء وطنه سورية التي كان يحسب ان ثورة جبل الدروز فيها قد أخذت ، بعد فشل ثورة حماة ، لا سيما وهو يعرف ان جيش الجنرال « غاملان » اللجب كان في قلب الجبل يسير من نصر الى نصر ، يحتل القرى الرئيسية ويخضعها ، ويستسلم اليه زعماء الدروز . وفجأة عثر في الصحف مرة على أن الثورة السورية اتسعت ، وغدت على أشدها ، وان عصابات من الثوار تحيط بدمشق ، وتتخذ من

غوطتها معتصماً لها، ومنطلقاً لمهاجمة العاصمة ، وان سرايا من المجاهدين وصلت الى جبال لبنان ، فاتسعت الثورة الى وادي التيم ، وامت مناطق جبل الشيخ (حرمون) ، وما يسمى اقليم البلان وحاصبيا وراشيا وجديدة مرجعيون ، وان جبل الدروز متحرر خال من أي قوة افرنسية ، يوجه سراياه الى المناطق السورية الاخرى ، فصمم على العودة الى الشام ، واستأذن مضيفه بالرحيل ، فزوده هذا ببعيرين ودليلين ينتمي كل منهما الى عشيرة كبرى ، في طريقهم من البادية الى دمشق ، معروف انها في خصام مع العشيرة الثانية ، وبما يلزمهم من زاد لاجتياز البادية الى غوطة دمشق . وكان لا بد لركب صغير كركبهم من ان يتعرض للغزاة من البدو والطامعين بالكسب ، فإذا كان الغزاة من عشيرة الأول ، عرفهم من لهجتهم ، وتقدم ليقول لهم انه « وجه » في عرفهم ، وان رفيقه المدني بحمى شيخ العشيرة ، وانه موفد من قبله لابلاغ المدني جاره المكان الذي يريد ، وإذا كان الغزاة من العشيرة الثانية تقدم الدليل الآخر كوجه ، وسكت الاول عن النطق حتى لا يعرفه الغزاة من لهجته ، وتكلم بمثل كلام صاحبه ، وهكذا استطاع الركب أن يجتاز البادية في نحو شهر ، وان يصل في الشتاء الى مقربة من قرية « ضمير » حيث لبث القاوقجي واحد الدليلين مع الراحلتين ، وانطلق الثاني الى القرية ، وجلس في مضافة مختارها يصغي الى أحاديث روادها دون أن يتكلم ، كضيف وعابر سبيل ، وبدون أن يسأل أحداً ، ويثير الشبهة ، عرف أن المجاهدين يملأون غياض الغوطة ورياضها ، وان جبل الدروز ما يزال بخير ليس للمستعمرين سلطان عليه ، وان الثورة تقوى وتشتد وتتسع . ولما عاد الى زميليه ، دخل القاوقجي القرية ، وشكر الدليلين « الوجهين » واعطاها الراحلتين ، وزودهما بما يساعدهما على العودة الى أهلها ، وحملها تحياته لشيخ عشيرة الدليم مضيعة في العراق ، وتابع ، بعدها ، فوزي طريقه الى الغوطة فجبل الدروز .

فضائع الفرنسيين في حماة

- ٣٤ -

أعلن الفرنسيون ، بعد اخضاع مدينة حماة ، وقتل المئات من أهلها ، وحرقت الحوانيت والدور المحيطة بالشكنات أو المجاورة لها ، أعلنوا بواسطة مناد أن يخرج الأهليون لرفع جثث قتلاهم من الشوارع والازقة ، وان قيادة الجيش فرضت على المدينة خمسة آلاف ليرة ذهبية ، وبضع مئات من البنادق يجب أن تسلم للسلطة الفرنسية في يوم الخميس الثامن من شهر تشرين الاول. ولما كانت المدينة في حال من الخوف والفوضى ، لم يستطع أهلها جمع الغرامة وتسليمها في الموعد المحدد ، فأرسل الفرنسيون طياراتهم تقصف المدينة من جديد ، وخاصة منها حي الحاضر ، فدمرت المنازل فوق رؤوس سكانها ، بما فيهم الاطفال والنساء والشيوخ ، وسارع وفد من أهل المدينة استمهل القيادة في جمع الغرامة ، فأمهله ثلاثة أيام ، جمعت خلالها الغرامة من مال وسلاح ، سلمها للفرنسيين الذين أخذوا يعتقلون الوطنيين مثقفين ، ورجال دين ، ومالكين ، وأساتذة مدارس ، ومن عامة الشعب ، وحتى الطلاب اعتقلوا فريقاً منهم ، وأكثرهم ليس له صلة بالثورة ، ولا تنظيمها ، حتى ضاقت الشكنات بالمعتقلين الذين عوملوا اسوأ معاملة ، حملوا على تطهير حفر الشكنات من الاقذار ، ونقلها بالسطول ، وعلى تنظيف الاسطبلات من الروث والبول ، وغسل الجياد والبغال ، وتلميع شموورها بالفرشاة ، وانتدبت ضابطاً في الدرك من أصل تركي ليكون قاضي تحقيق ، يلاحق الناس ويتهمهم بأنهم من مسببي الثورة والمشاركين فيها . وكان النقيب عبد الله الجركس قائد الدرك في حماة ، وهو في الاصل جركسي من قرى حمص ارتكب جريمة قتل ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولكن القومندان كوستليير ، وهو يبحث عن قائد للدرك حازم يؤدب أهل

حماة السلبين في وطنيتهم مع فرنسة ، ذكر له أحدهم عبد الله الجر كس هذا ، فذهب بنفسه الى حمص ، وأخرجه من السجن بعفو من المفوض السامي ، وعينه ضابطاً برتبة نقيب في الدرك ، وولاه قيادة حماة ، فكان هذا الضابط ، وهو صنيعة المستشار الفرنسي ، أشد الناس ايذاء للمعتقلين ، وخاصة من كان من عامة الشعب منهم ، فقد كان دأبه أن يمر كل يوم بالسجن ، ويضرب بسوطه وبيده عدداً من المعتقلين ضرباً مبرحاً ، كوجبة يومية يقدمها لهم ترفاً إلى أسياده الفرنسيين .

لقد كانت ثورة حماة مأساة على أهلها ، ولا سيما الأحرار منهم ، ولكنها أنقذت ثورة الجبل من الاضمحلال ، اذ أرغمت الجنرال « غاملان » الذي أصبح في الحرب العالمية الثانية القائد العام للجيش الافرنسي كله - أرغمته على أن ينسحب بجيشه من قلب الجبل ، ومن القرى المهمة في المقرن الجنوبي مركز الثورة وقاعدتها ، بعد أن احتلها وهدمها ، وأن يستعيد الدروز حماستهم ، بعدما بلغ مسامعهم وتأكدوا أن اخوانهم السوريين في المناطق الأخرى ثاروا على فرنسة مؤازرة لهم ، وان ثورتهم لم تعد ثورة محلية اسمها ثورة الدروز ، وانما غدت ثورة وطنية اسمها الثورة السورية الكبرى ، فوجهوا ، بعد ثورة حماة سراياهم الى الغوطة ، والى وادي التيم واقليم البلان في جبل الشيخ (حرمون) ، وجنوبي لبنان ، وتوجه ثائرون آخرون من الغوطة الى قلمون ، فطهروه من الافرنسيين ، وحرروه من الاستعمار ، وبذلك عمت الثورة مناطق واسعة في ديار الشام ، واضطر الفرنسيون لان يوزعوا قواتهم لمقاومتها ، وان يجلبوا نجدات جديدة من فرنسة ، ومن مستعمراتهم فيما وراء البحار . ومع ذلك اشتدت الثورة ، وقويت شوكتها ، واستمرت اكثر من عامين ، وكبدت فرنسة من الخسائر ما ابهظ ميزانيتها ، وضعضع جيشها . وسنتكلم عن وقائع تلك الثورة ، بعد ان اوردنا موجزاً لثورة حماة التي لها الفضل على اتساع ثورة جبل الدروز ، واخراجها من صيغتها المحلية الى ثورة وطنية عامة اخذت تبحث في اجتماعات

عصبة الامم ، وتقدم الدليل تلو الدليل للعالم ان السوريين العرب الاباة لا
يرضون عن حرية وطنهم بديلاً ، وينتزعونها بالدم والحديد والنار .

الثورة في معاقل الغوطة

- ٣٥ -

لم يبق في جبل الدروز ، خلال الايام التي زحفت فيها حملة « غاملان » على
مقرنه الجنوبي من الوطنيين السوريين إلا عدد قليل ، منهم نسيب البكري ،
ورمضان شلاس ، وخير الدين اللبابيدي ، ومنير الرئيس ، والحارس الليلي حسن
الخراط مع بضعة شباب من حيه الشاغور في دمشق ، وزكي الدروبي ، وصادق
الداغستاني ، وسعيد الياني ، فكان من الصعب تأليف عصابة منهم تكون نواة
لثورة في غياض الغوطة وبساتينها على أبواب دمشق ، الا ان ثورة حماة التي
هزت البلاد السورية هزاً ، وارغمت الجيش الفرنسي على الانسحاب من قلب مقر
قيادة الثورة ، والوقوف في موقف الدفاع بدلاً من الزحف والهجوم ، اثارت
الحماسة في صدور الثوريين من السوريين في كل مدينة وبلد ، فأخذ بعض المتحمسين
من اهالي دمشق ، يعقدون الاجتماعات سرّاً ، ويتذاكرون في حمل السلاح ،
والتسلل الى الغوطة يحتمون في معاقلها ، وينطلقون منها الى مهاجمة المخافر
والمراكز الحكومية ، فقصده يوماً الشيخ عرب الخيمي ، وعبد الوهاب الرجولة ،
وفديم شهاب ، ومنير الطحان ، وحسن المقبعة ، ومحمد الخطيب ، وابو صلاح
العرجا ، وشفيق السكري ، والضابط في الجيش العربي سابقاً عبد الوهاب
الدوجي موقع الزور في الغوطة الكائن بين قرى جسرين ، وعقربا ، والمليحة ،
والحتيتة ، وكفر بطنا ، وهو مكان تتخلله جداول الانهر ، ويكثر فيه شجر
الحور والصفصاف واشجار الفواكه ، يكاد المختفي فيه لا يرى من التفاف
الشجر ، والتعرجات في ارضه ، فانتشر خبر هؤلاء الرجال المسلحين في الغوطة ،

واخذ المؤمنون الشجعان من فلاحي الغوطة يلتحقون ، وينضمون اليهم . وبعد ايام وصل حسن الخراط من جبل الدروز ، ومعه اثنا عشر رجلاً من ابناء حيه كانوا رافقوه الى الجبل ، وساء وضعهم كاخوانهم الآخرين ، فأثروا بعد ثورة حماة التوجه الى الغوطة ، وانضموا الى اخوانهم الذين سبقوهم الى موقع الزور . وبعد بضعة ايام انضم اليهم ابو عبده ديب الشيخ ، وفريق من شباب حي العماره في دمشق ، وبعض فلاحي جوبر حتى تجاوز عدد العصاة مئة مسلح ، قاموا بالاستيلاء على مخفر الدرك في قرية « النشابية » من قرى المرج ، واخذوا



الشهيد الشيخ محمد

الفحل زعيم

عصابة المشايخ

سلاح افرادهم وخبولهم ، فوجه اليهم الفرنسيون الذين لم يأبهوا لهم ، في بادىء الامر ، قوه من رجال الدرك ، توجهت يوم العاشر من شهر تشرين الاول ، على راسها الضباط رفيق العظمة ، واديب كفر بطنا ، وعبد الرحيم الداغستاني ، واحمد يغمور ، يزيد عدد افرادها على مئة خيال . وكان هم القادة الضباط الا يصطدموا بالثائرين مواطنيهم ، وان يشعروهم بقدمهم ووجودهم لعلهم يبتعدون عن

موقع تجمعهم ومقرهم في الزور ، لذلك آثروا السير الوئيد من قرية الى قرية ، حتى بلغوا في المساء قرية المليحة ، فنزلوا فيها ، وتفرق الجنود على المنازل للمبيت ، كأنهم في مهمة سلمية لتبليغ أوراق جلب واحضار للمحاكم المدنية ! .. ونام الضباط ، بعد العشاء والسهرة في منزل المختار المعد اكثر من غيره لراحة الضيوف الرسميين . ولما رأى الفلاحون أهل القرية غفلة قادة حملة الدرك ، توجه بعضهم الى موقع الزور ، وأطلعوا العصاة الثائرة على أمر قوة الدرك ، وتعهدوا لهم بأسر أفرادها ، فسار المجاهدون مع الفلاحين الى القرية ، وبلغوها بعد منتصف الليل ، وباغتوا الضباط في منزل المختار واعتقلوهم ، ثم توزعوا على منازل الفلاحين ، يطرق الباب اولاً الفلاح الثائر ، ويطلب من صاحب الدار فتح الباب ليطلع على أمر

مهم ، فاذا فتح باب داره ، ولجئ الشائرون ، واعتقلوا رجال الدرك النائمين في الدار ، حتى قبض على أكثر جنود الدرك ، وفر القليلون منهم ، وغنموا جيادهم وسلاحهم ، ثم اطلقوا سراح الافراد كلهم ، ما عدا الضباط الاربعة ، فقد ارسلوهم مخفوريين الى جبل الدروز ، ولكن سلطان الاطرش اطلق سراحهم ، بعد أن عرف عدم مقاومتهم للمجاهدين ، وكفلهم زكي الدروبي وصادق الداغستاني من ضباط الدرك السابقين اللذين التحقا بالجبل باعتبارهما من زملائهم .

معركة الزور الاولى

لما علم الفرنسيون بمصير قوة الدرك ، وجهوا من دمشق في الرابع عشر من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ قوة من جيشهم يزيد عدد أفرادها على الالف ، حاولت قبيل الفجر تطويق موقع الزور ، لعلمهم بأنه اتخذ مقراً دائماً للعصابة ، ولكن أحد الفلاحين من اهالي المليحة سبق الحملة الى عصابة الثائرين ، واخبرهم بزحف الحملة عليهم ، فاستعدوا لها ، ولما وصلت طليعتها الى جسر « الغيضة » من جهة قرية جسرين ، توقفت الحملة ، واخذت تطوق المكان ، وسرعان ما اصطدمت بمقاومة العصابة التي كانت متأهبة للقائها ، واحتدمت المعركة ، واستخدم الفرنسيون مدافعهم ومدافعاتهم ورشاشاتهم وطائراتهم ، فاسقط المجاهدون طائرة منها ، وحوالي الظهر شعر المجاهدون بنفاد العتاد منهم ، فأخذوا ينسحبون باتجاه قرية « عقربا » ، واستشهد منهم في المعركة ثلاثة ، وجرح بينهم حسن الخراط ، وفشلت الحملة في القضاء على العصابة ، واصيبت بخسائر بلغت عشرات القتلى وعشرات الجرحى ، مما احق قادتها ، فامروا جنودهم بقتل الفلاحين في قرى المليحة ، وجرمانا ، وبلاط ، فقتلوا اكثر من سبعين فلاحاً كانوا يعملون في اراضيهم ، أو يقيمون في قراهم ، وحمّلوا جثثهم الى دمشق ، وعرضوها في ساحة المرجة ، أي ساحة الشهداء ، على انها جثث الثوار في الغوطة ،

ولكن الاهلين سرعان ما ادر كوا ان القتلى من الفلاحين العزل ، فهم ادرى الناس بملابس الفلاحين وزيههم في الغوطة . كما احترقت الحملة قرية المليحة جزاءاً لها على سرية الدرك التي بات افرادها وضباطها في المنازل ، فوقعوا بايدي الثائرين . لقد نجا المجاهدون في الغوطة من الوقوع بالفخ بفضل الفلاح الذي نبههم قبيل الفجر بزحف الحملة ، فاستعدوا للمعركة ، الا ان خطأهم يجعل موقع الزور مقراً دائماً لعصابتهم ، يأكلون ويشربون ويقيمون فيه صلواتهم ، على مرأى ومسمع من كل طارق وابن السبيل ، مما لا يتفق مع شروط حرب العصابات التي كنا اوردنا بعضاً منها ، ولكن افراد العصابة كانوا من عامة الشعب يجهلون اصول حرب العصابات ، وقد يجهلها ايضاً الضابط السابق في الجيش العربي الذي معهم ، فهو ضابط احتياط صغير لم يدرب على مثل هذه الحرب ، وليس له الكلمة النافذة بينهم . لذلك رأيناهم ، رغم علمهم بزحف الحملة عليهم ، يكاد يقعون في الطوق ، ثم بعد قتال ينسحبون من المعركة مشتتين في قرى الغوطة والمرج ، يبحث واحد عن رفاقه فلا يجدهم ، ولا يقر لهم قرار الا في قرية « الهيجانة » آخر قرى المرج في اتجاه جبل الدروز ، مما يدل على انهم كادوا يؤثرون الانسحاب الى الجبل ، والتوقف عن الحركة التي بدأوها ، بعد اول معركة خاضوها مع قوه افرنسية . وشاء الله ان يلتقوا في قرية الهيجانة بجموع كبيرة ، تدفقت من جبل الدروز والمناطق المجاورة له ، يرافقها نسيب البكري ورمضان شلاش ، تنوى الزحف الى دمشق ، بعد ان شجعها عليه انسحاب جيش الفرنسيين ، بما يشبه الهزيمة من جبل الدروز ، وانباء ثورة حماة ، والوعود التي زينها لها نسيب البكري بان الفرنسيين سينهزمون من دمشق بمجرد دخول قوة من المجاهدين المدينة ، لان اهالي دمشق سيهبون لقتال الفرنسيين ، وسيرغمونهم على الجلاء عن مدينتهم . وكانت جموع الثائرين اكثرها من مسلحي القرن الشمالي ، والقرن الشرقي ، وعشيرة الغياث التي تسكن وعرة الصفاة ، فتوجهت هذه القوة من الهيجانة الى قرية « ضمير » مقر قيادة قوة البادية الفرنسية ، المعروفة بالهيجانة ، والتي تشرف على أمن البادية ، وتساعد

على ادارة العشائر ، والاعراب من عشيرة الغياث في قوة الثورة يعرفون هذه القوة الفرنسية ، ويمارسون تفوذها عليهم ، لذلك وجهوا جموع الثورة لمهاجمتها ، فهاجمت في مقرها ، قبيل الفجر ، وبعد معركة دامية استمرت بضع ساعات استولى الثائرون عليها ، وغنموا نحو ثمانين ذلولا من ركائبها ، وعشرات البنادق وثلاثة رشاشات .

الهجوم على دمشق

- ٣٦ -

توجهت بعد ذلك قوة الثائرين الى قرية « حران العواميد » في المرج ، وهناك بلغهم أن حملة فرنسية وصلت الى قرية « الريحان » في الغوطة الشمالية لمطاردة ابي عمر ديبو الكردي وعصابته في قرية « حوش المباركة » ، فأنجدوه بعدد من رجالهم استطاعوا بعد مناوشة قصيرة أن يرغموا الحملة الفرنسية على التراجع نحو دمشق ، والاحتباء فيها . وعندئذ أخذ رؤساء الثائرين يرسمون خطة الدخول الى دمشق ، فقرروا أن يدخلوها من ثلاث جهات ، ووزعوا قواتهم التي انضم اليها عدد من القرويين المسلحين في المرج والغوطة ، الى ثلاث سرايا ، توجهت يوم الثامن عشر من تشرين الاول سرية الدروز مع نسيب البكري ودخلت حي الميدان بعد الظهر ، ودخلت السرية الثانية ومعها ديب ، الشيخ من بساتين باب السلام والعقيبة ، ودخلت السرية الثالثة ومعها حسن الخراط وعصابته ولفيف من دروز جرمانا ، من بساتين الشاغور ، بعد معركة نشبت بينها وبين قوة فرنسية أكثرها من جنود السنغال كانت ترابط قرب مقابر المسيحيين واليهود ، فرت اخيراً الى داخل المدينة تحت وطأة الثائرين المهاجمين ، وبدرت بعض المقاومة من مخافر الشرطة في المناطق التي دخلها الثائرون ، الا

أن هذه المقاومة ما لبثت أن انهارت ، واغلقت مدينة دمشق حوائطها عندما سمع الاهلون أزيز الرصاص ، وتفجر القنابل ، وعرفوا ان سرايا الثائرين أصبحت تجوب شوارع مدينتهم وأحياءها القديمة ، ولجأوا الى المنازل خشية ان يصيبهم الأذى من التحام الثائرين بالقوات الفرنسية التي كانت تعسكر في ثكنات الحميدية ، وقلعة دمشق ، وبوابة الصالحية ، وعلى طريق بيروت عند مدخل دمشق، وفي المزة، وتتحصن بالقلاع التي بنتها في مرتفعات المزة وجبل قاسيون ، وتحمي قلب المدينة ، وطريق الصالحية باعتباره الحي الذي يسكنه الأجانب ،



من قصور دمشق التي أحرقتها الفرنسيون

وأكثرهم من الضباط أو الموظفين الفرنسيين. ولما وصلت قوة الشاغور إلى اسواق المدينة ، ومنها سوق مدحت باشا ، علمت ان الجنرال «ساراي» المفوض السامي الفرنسي يزور في تلك اللحظة قصر آل العظم الأثري في البزورية ، المجاور للمسجد الأموي، فهب فريق من مسلحي دمشق والدروز لمهاجمة القصر من بابه، ومن سطوح المنازل المجاورة له . وكان الجنرال «ساراي» في تلك اللحظة

غادر القصر ، لما اتصل بعلمه دخول الثائرين المدينة ، تحمله مدرعة الى جادة الصالحية حيث اجتمع ، في مقر قيادة الجيش المقابل للبرلمان اليوم ، الى قائد جيوش الشرق وأركان حربه ، يتشاورون في طريقة ابعاد الثائرين عن مدينة دمشق . وبوصول الثائرين الى قصر آل العظم الاثري نشبت بينهم وبين حرس القصر معركة أدت الى احتراق جانب من القصر ، وتعطيل سيارة رشاش ، وقتل وجرح أفراد ركبها ، بينهم الليوتنان « دي روابير » ، وضابط صف وجندي قتلوا ، واستشهد في هذه المعركة حسن المقبعة من المجاهدين الاولين الذين ألفوا عصاة الغوطة ، واستشهد أيضاً ابو علي كليب من فلاحى جرمانا . ولما علم الثائرون بفرار الجنرال « ساراي » قبل وصولهم ، كفوا عن مهاجمة القصر ، وعادوا الى الشاغور .

المستعمرون يريدونها حرباً طائفية !

تخلى الفرنسيون في دمشق عمداً ، عن حماية حي المسيحيين في القصاع وباب توما والباب الشرقي ، وحي اليهود ، وتركوهما دون حامية لعل الثائرين ينهبون اهلها ، ويستحلون أموالهم ، وتقع ضحايا من الطائفتين ، ليجعلوا من ذلك دليلاً على أن هدف الثورة السورية القضاء على الاقليات المسيحية التي يتغنون دوماً بانهم جاءوا سورية لحمايتها من الاكثريّة المسلمة المتعصبة ، مع ان المسيحيين عاشوا كعرب بين اخوانهم المسلمين ألفاً وثلاثئة سنة ، متمتعين بجميع الحريات ، يشاركونهم السراء والضراء . وقد فطن الثائرون الى مؤامرة الفرنسيين ، فأقاموا من شباب الاحياء ومنهم حراساً على احياء المسيحيين واليهود ، وطاف بعض قادتهم تلك الاحياء ، وطمأنوا ساكنيها بان لا خوف عليهم ، وانهم اخوانهم في الوطن ، وان هدفهم اجلاء المستعمرين عن بلادهم ، ففشلت مؤامرة الفرنسيين ، ولم يقع في الاحياء التي تسكنها الاقليات الدينية أي حادث اعتداء خلال اقامة الثائرين في دمشق . ولم يبق امام الفرنسيين الا ان يستروا هزيمتهم بقصف احياء دمشق القديمة التي احتلها الثائرون ، بقذائف مدفعيتهم ، وقنابل

طائراتهم ، وبالقاء القذائف المحرقة ، وقذائف النفط الملتهبة التي اشعلت الحرائق في كل مكان . ولما رأى سكان هذه الاحياء المنازل تدمر على رؤوسهم ، وتحترق خرج النساء والاطفال والشيوخ العجُز الى الازقة والشوارع لاجئين الى قلب المدينة واحياء الصالحية والمهاجرين التي لم تقصف ، يطرقون كل باب ، ويلجئون كل دار تأويهم عن سابق معرفة ، او دونها ، والفرنسيون لا يكفون عن القصف ، وجنودهم في المواقع التي تحصنوا فيها يحصدون الارواح برصاصهم دون تفريق بين رجل أو امرأة ، وبين تاجر أو مسالم .

لقد بدأ قصفهم من أصيل يوم الاحد في الثامن عشر من تشرين الاول ، دون سابق إنذار ، ودام الليل كله ، واستمر في اليوم الثاني نهـاره وليله ، فخف وجوه حي الميدان والاحياء التي شملها القصف الى قادة الثائرين يطلبون منهم الانسحاب من المدينة ، مادامت قواتهم غير قادرة على احتلال قلاع الفرنسيين وحصونهم وثكناتهم في المدينة وما حولها ، ولان بقاءهم في المدينة عرض أحياءها الى الخراب والدمار وهلاك الانفس البريئة من النساء والاطفال والرجال العزل ، فلبى قادة الثائرين طلبهم ، وقرروا الانسحاب من المدينة ، وبدأوا انسحابهم في صباح يوم الثلاثاء وفق العشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ . وفي اليوم نفسه توجه وفد من أهالي دمشق ، قابل الجنرال « غاملان » ، وطلب منه التوقف عن قصف المدينة واحراقها ، ما دام الثائرون انسحبوا منها ، وكرروا طلبهم رحمة بالنساء والاطفال ، فوعدهم بوقف القصف ظهر يوم الثلاثاء ، فيما اذا قدم الاهلون مئة الف ليرة ذهبية ، وثلاثة آلاف بندقية مع عتادها غرامة الى السلطة ، جزاء مساعدتهم الثورة ، وقبولهم دخول الثائرين المدينة ، ولم يسمع اعتراضهم وتذرعهم بان الثائرين مسلحون ، ولا طاقة للاهلين العزل بمنعهم من دخول المدينة ، ولكنه أصغى الى اعتراضهم ، بان مدد المهلة لجمع الغرامة الى الساعة الخامسة من يوم السبت في الرابع والعشرين من تشرين الاول ، وهدد باستئناف القصف في تلك الساعة اذا لم تسدد الغرامة كلها ، وبأنه سيدمر كل حي تطلق منه رصاصة ، على رأس ساكنيه ، مهما كان سبب

اطلاقها . ومع ذلك استمر القصف الى ظهر الثلاثاء ، وخرج الفرنسيون من
جحورهم ، بعد جلاء الثائرين عن دمشق ، وأرسلوا سياراتهم المدرعة الى سوق
مدحت باشا تطلق قذائف مدافعها على أبواب الحوانيت والمخازن ، تخرقها ،
ليلقي الجند من خروقتها قطع النفط الملتهبة ، فاشتعل السوق كله ، واشتعل حي
«سيدي عمود» حي وجهاء دمشق ، بمنازله العربية الجميلة ، وما فيها من تحف
وآثار وأثاث فخم ، حتى بلغت خسائر دمشق ما يقدر بعدة ملايين من الليرات
الذهبية ، عدا الآثار القيمة التي ذهبت طعماً للنيران والدمار ، والتي لا تقدر
بشئ ، ولا يزال اسم حي «سيدي عمود» يعرف الى اليوم بحي «الحريقة» اشارة
الى ما اصابه من حريق ودمار في نكبة دمشق التي أسالت عبرات كل من يعرف
هذه المدينة التاريخية من العرب ، فرثاها كبار الشعراء والكتاب والادباء ،
وقال احمد شوقي امير الشعراء في رثائها قصيدته الرائعة بمطلعها :

سلام من صبا « بردى » أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وقال خير الدين الزركلي شاعر الشام قصيدته الشهيرة بمطلعها :

الاهل اهلي والديار ديارى وشعار وادي النيربين شعاري

وقال غيرهما من الشعراء ما قالوه في رثاء اقدم مدينة في العالم ، كانت على
مدى قرن عاصمة الدنيا ، تخفق رايات دولتها الاموية من حدود الصين في أقصى
الشرق الى أواسط فرنسا في الغرب . ولم يقف وقع جريمة فرنسا في تدمير
دمشق على العرب وحدهم ، فقد هال عملها الإجرامي قناصل الدول الاجنبية في
دمشق ، فاجتمعوا ، وقدموا احتجاجهم على ضرب المدينة وقصفها دون سابق
إنذار ، وفيها السكان الآمنون ، والجاليات الاجنبية من جميع الامم والاجناس ،
وحمل احتجاجهم الى السلطة الفرنسية قنصل بريطانيا ، باعتباره اقدم
قنصل في المدينة ، واذاع هذا القنصل مساء يوم الجمعة ، عندما علم ان المدينة لم
تستطع جمع الغرامة المفروضة عليها ، بسبب التدمير والفوضى وهجرة اكثر الاهلين
منازلهم ، وان المهلة الممنوحة لها ستنتهي في الغد ، وستدمر المدينة من جديد ، اذاع
بياناً في الصحف أنذر فيه الرعايا البريطانيين بما سيحل بالمدينة ، وطلب منهم ان

يحضروا قبل الموعد لانتهااء المهلة الى القنصلية البريطانية يحملون إعاشتهم لبضعة ايام ، مصحوبين بجوازات سفرهم ، واوراقهم الثبوتية الرسمية ، فحل الخوف والهلع بالاهلين من جديد ، إذ لا سبيل إلى مغادرة المدينة ، فقد منعت السلطة السفر ومغادرة دمشق منعاً باتاً خلال تلك الايام . ولما ادرك الفرنسيون ألا



سبيل إلى جمع المال ، والمدينة على ما هي من فوضى واضطراب وخراب وتدمير ، أوعزوا الى الحكومة المحلية ان تدفع الغرامة نيابة عن السكان ، على ان تجبيها منهم مضافة الى الضريبة على العقارات ، وان تستخدم القوة في جبايتها ، كما أوعزت الى عملائها ، والى المتطوعة في الكتائب الشرسية أن يخرجوا السلاح القديم من مستودعاته في القلعة ، وان يبيعوا البندقية بعشر ليرات ذهباً ،

ثائر يساق الى المشنقة وظهر بالصورة
أمامه المفوض حلمي عزيز

ليقدمها أهالي دمشق
من غرامة السلاح

المفروضة عليهم ، وهي ثلاثة آلاف بندقية .

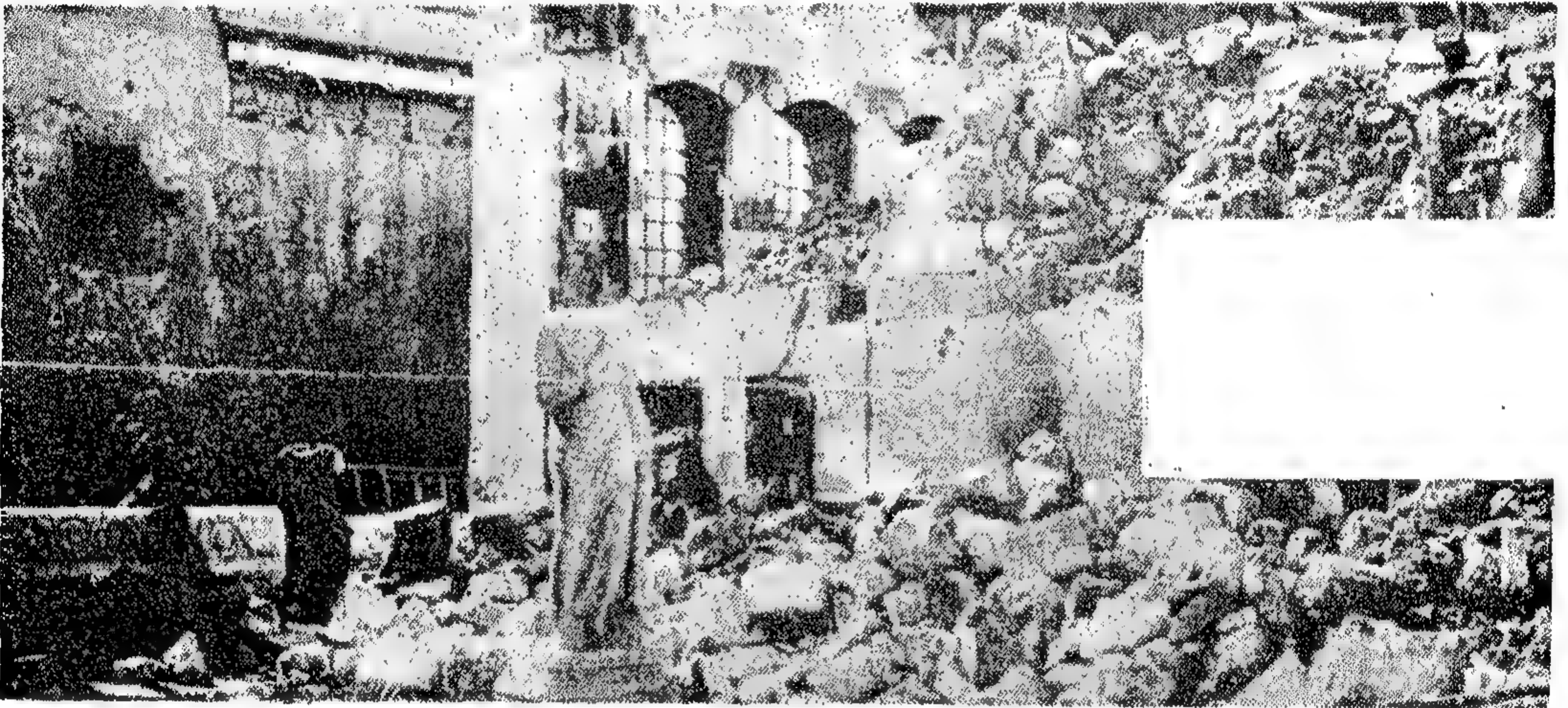
لقد ارتكب الفرنسيون في دمشق من الفظائع والجرائم ما يشيب له

الولدان ، وكان « مسيو بيجان » مدير الأمن الفرنسي ، يؤتى له بالمعتقلين من الشوارع ، يفرز منهم من يشاء ، يصرعهم برصاص مسدسه ، ويأمر زبائنته بأن يحفروا لهم قبوراً في بستان « الكركة » المجاور لدائرته ، يدفنهم فيها ، او يحمل ضحاياه على حفر قبورهم بأيديهم ، ثم يطلق رصاص مسدسه على رؤوسهم ويصرعهم ، ويأمر بأن يلقوا في الحفر ، ويهاال التراب على جثثهم . وكان سجن « الشيف » في القلعة الاثرية ، هو السجن الذي يعتقل فيه المحكومون والملاحقون من قبل السلطة العسكرية ، وكان فيه سجن منفرد « زنزانة » حجارة جدرانها ناتئة في الداخل ، يساق اليها المعتقلون بتهمة الثورة أو مساعدة رجالها وايوانهم واطعامهم ، واحداً بعد الآخر ، فإذا دخل المتهم ظل يلکم برأسه حتى تتحطم جمجمته على حجارة الجدران ، وتصبغها دماؤه ، ويموت . وقد سميت الغرفة سجن الدم ، لا يدخلها سجين ، ويخرج منها الا جثة هامدة .

ثغرات في خطة الهجوم على دمشق

انتهت مأساة دمشق التي اتينا بموجب عنها بانسحاب جموع الثائرين الى الغوطة وقرى المرج ، فريق منهم يعود الى قراه ، وفريق يطلب مزيداً من الغنيمة ، فقد كان الطمع بالغنيمة الدافع الاول لاكثرهم من دخول دمشق ، لا سيما ونسيب البكري ورمضان شلاش اثارا في نفوسهم هذا الطمع ، والاثنان في الواقع لا يصلحان لقيادة الثائرين الى القتال ، ولا يجترآن على خوض معركة بنفسهما ، لذلك رأينا الاثنين ، بعد دخول القوة المرافقة لهما ، الى الاحياء القديمة الخالية من الفرنسيين ، يحل كل منهما ضيفاً على وجيه في حي الميدان ، ويترك المدينة بين ايدي المسلحين لا قائد لهم ينظمهم أو يردعهم ، بينهم أعراب جاءوا وراء رئيس من رؤساءهم يحدوهم الطمع في الكسب والغنائم ، مما أدى الى وقوع الكثير من حوادث السلب والنهب ، كان ابطالها بعض الدروز ورجال البدو من عشيرة الغياث . ولولا وجود ثائرين من اهل دمشق معهم ، ومن العصاة الاولى التي تألفت في الغوطة ، نازلوا الفرنسيين في الدرويشيه وباب الجابية ، لقلنا ان

سائر المسلحين الذين دخلوا دمشق لم يعملوا عملاً غير نشر الفوضى في المدينة . ولا غرو فالثائرون الذين دخلوا دمشق لم يدخلوها بأمر القيادة ، ولم يكونوا أهلاً لهذا العمل العظيم الذي يحتاج الى خبرة فنية وعسكرية وقيادة قادرة بارعة ، واسلحة ثقيلة مفقودة بأيدي الثائرين . واذا اعترض معترض وقال ان نسيب البكري من رجال الثورة العربية ، قلنا له ان الرجل التحق بفيصل بن الحسين ، يوم فرت حاشيته من دمشق كي لا تقع بيد احمد جمال السفاح ، وكان عمله في جيش فيصل غير حربي ، يكلف ببعض المهمات السياسية والاتصالات ، وتوزيع المال ، فهو لم يخض غمار معركة واحدة . ولما استقر الحكم للأمير فيصل في سورية



خرائب قصر آل العظم الذي حوصر فيه المفوض السامي في دمشق

الداخلية ، وتوج ملكاً عليها ، وجد نسيب البكري واخوه الاكبر فوزي البكري ، ان ما نالاه من وظائف في الحكومة الفيصلية لا يشبع طموحهما ، لذلك انقلبوا على الملك فيصل ، وأخذوا يلسعانه بالسنة حداد ، لما وطرد الفرنسيون الملك فيصل من دمشق ، وراح الى لندن يسعى وراء عرش له ، وجد نسيب البكري ان الفرصة سانحة لإشباع طموحه ، فأرسل كتاباً الى المفوض السامي الفرنسي يعرض عليه ان يجعل منه اميراً أو ملكاً على سورية ، واذا كانت مزية فيصل الهاشمي انه من سلالة بنت الرسول او آله ، فهو يمت أيضاً بنسبه الى

قريش وجده ابي بكر الصديق ، فلم يلق العرض قبولا لدى الفرنسيين ، لذلك التحق بالجليل اثر نشوب الثورة فيه ، والقضاء على جيش الجنرال « ميشو » ، لعل الفرصة لا تفوته ، عند انتصار الثورة من اشباع طموحه . وقد ظل هذا الأمل يدغدغ أحلامه ، وهو يتردد بين الجبل والغوطة ، واخوته يقيمون في عمان ، دون ان يخوض بنفسه معركة حربية واحدة من معارك الثورة السورية ، مع انه كان فارساً يتقلد السيف والبندقية ، ويتقدم الصفوف في الاجتماعات ، الا ان احداً من المقاتلة لم يره مرة الى جانبه يطلق الرصاص على العدو . واذكر مرة زرته ، ابان الثورة ، برفقة القائد فوزي القاوقجي في مزرعة آل البكري في قرية القابون ، ومعنا بضعة من رفاق السلاح ، وباغتتنا ، ونحن في المنزل ، عصر اليوم الثاني ، حملة فرنسية وصلت طليعتها الى مفرق القابون على طريق دمشق - دوما ، ووصل رتل من الدبابات كان يسير نحو القرية من طريق حي الاكراد في دمشق ، فنفرنا مع شباب القابون من الفلاحين المسلحين لقتال الحملة ، وتجاوزنا منزل آل البكري عشرات الامتار ، واذا بنسيب البكري وزكي الدروبي يخرجان من فناء الدار على جواديهما كسهمين في الاتجاه المعاكس لاتجاهنا ، ولما صاح بهما القاوقجي داعياً اياهما الى اللحاق به ، اجابا بأعلى صوتيهما انهما ذاهبان لاستنفار المجاهدين ، ثم غابا عن الانظار ، ونحن نضحك لفرارهما ، لاننا كنا نعرف ان الاثنين يحملان السلاح ليقال انهما ثائران ، ولكنهما يتجنبان كل قتال يخوض غماره الثائرون . ومن طرائف الحياة ان نسيب البكري ، سعى بعد الثورة ، في دمشق ، حتى اسس جمعية اسمها « رابطة رجال الثورة » ، جعل من نفسه رئيساً عليها للاستغلال ، في وقت لم يبق له الكثير من املاكه في الغوطة وسمع ان قيادة الجيش السوري افتتحت متحفاً حروبياً في تكية السلطان سليم في دمشق ، خصصت بهواً منه للثورة السورية واعلنت ادارة المتحف انها تقبل كل اثر من آثار الثورة يهدى للعرض في ذلك البهو ، فتوجه نسيب البكري يوماً مع عدد من اتباعه في الجمعية الى المتحف ، بعد الاتصال بمديره ، كي يستقبله الاستقبال اللائق ، وهو يقدم اثراً ثميناً للمتحف ، وحمل معه سيفاً

عربياً قدمه الى المدير وقال له : « ارجو ان يوضع هذا السيف في الموضع اللائق به في بهو الثورة السورية ، فهو سيف عزيز علي ، خضت به عشرات المعارك ضد العدو بالسلح الأبيض إبان الثورة السورية الكبرى ! » ، وبادر المدير ، وهو ضابط تقاعد شاباً من الجيش ، لا يعرف موضع نسيب البكري ، وأعماله في الثورة السورية ، مطمئناً إياه بأنه سيضع السيف في مكانه الرفيع من البهو ، وما درى الضابط ان بندقية نسيب البكري لم تطلق بندقية واحدة في اتجاه العدو في الثورة السورية ، حتى يخوض صاحبها عشرات المعارك بالسلح الأبيض ، ويضرب بسيفه وهو الذي لم يجرؤ أن يطلق عليهم رصاص بندقيته من بعيد .

وما يرد على نسيب البكري يرد بعضه على رمضان شلاش ، فهو من عشيرة صغيرة ليس لها قيمة بين العشائر ، تشتغل بالزراعة على شاطئ الفرات في لواء دير الزور ، في عداد من يسميهم أهل دير الزور « شوايا » ، و « معدان » من الفلاحين ، دخل مدرسة العشائر في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وتخرج ضابط عشائر بتعليم سطحي . ولما احتاجت حكومة الملك فيصل في سورية لإثارة منطقة الفرات ضد المحتلين الانكليز ، تقدم هو للعمل ، واستغل ثورة العشائر في الفرات ، ليجعل من نفسه متصرفاً في دير الزور ، ولكن أهالي مدينة « دير الزور » والاقضية التابعة للواءهم ، رفضوا أن يتقدم عليهم رمضان شلاش أو يحكمهم ، واتفقت كلمتهم على أن يكون في دير الزور ثلاثة متصرفين أحدهم رمضان شلاش ، وكانت فترة حكم الفوضى ما يزال سكان الفرات يتندرون بها . ولما احتل الفرنسيون سورية ، توهموا أن رمضان شلاش ذو أثر في منطقة الفرات ، فدعوه إلى دمشق ، وفرضوا عليه الإقامة فيها ، ورصدوا له راتباً على ألا يغادرها . ولما استتب لهم الامر في المنطقة ، وعرفوا أن ليس لرمضان شلاش شأن يذكر بين عشائرها ، قطعوا عنه الراتب ، فاحتج لدى مندوب المفوض السامي في دمشق ، وهدد بالسفر الى عمان ، إذا لم يبق له الراتب . وكانت عمان ، في ذلك العهد ، ملجأ للاحرار السوريين ، فسأله المندوب الفرنسي : « متى أنت مسافر اليها . . حتى أخرج لوداعك ؟ » ، وسافر رمضان شلاش إلى عمان ،

وليس له مورد يعيش منه ، فأثقلت كاهله الديون ، يستقرضها من التجار السوريين في عمان ، ويزعم أنه لاجئ سياسي فرّ من الإقامة المفروضة عليه في دمشق . ولما سمع بأنباء ثورة جبل الدروز ، خف اليها تخلصاً من ضنك العيش ، ومن ملاحقة الدائنين ، ورافق نسيب البكري إلى دمشق ، وحل ضيفاً على وجيه في الميدان ، وسلمه قائمة بلوازمه من لباس وزاد وقهوة يحتاج اليها كقائد من قادة الثورة السورية ، وراح بعد الانسحاب من دمشق ، يرأسه من الغوطة ، يطالب وجهاء الميدان بجمع قيمتها وإرسالها اليه ، واصطدم صلفه وغروره بسلطة حسن الخراط رئيس عصاة الشاغور ، فقبض عليه ، وجاء به الى قرية « سقبا » في الغوطة ، ليحاكمه أمام مجلس من الثائرين ، وشهر به ، وقرأ رسائله الى وجهاء الميدان ، ومطالبته اياهم بالمال والقهوة والملابس والزاد ، وأتهمه بالسلب والنهب ، وجرده من سيفه وخنجره وحصانه ، وهدده بالقتل ، ولكنه شغل عنه بغارة جوية شنتها ساعتئذ الطائرات الفرنسية على « سقبا » ، فانسل رمضان شلاش الى جواده ، وانطلق هارباً من الغوطة إلى « قلمون » ، يستضيف في منازل مختاري القرى ، ويتنقل من قرية إلى قرية ، حتى وجد بين المجاهدين أفراداً قلائل غرر بهم ، ودعاهم إلى مرافقته في رحلة الى منطقة الفرات ، وانه بفضل عشيرته ونفوذه في المنطقة سيثملها ثورة تحرق الاخضر واليابس على الفرنسيين ، وانطلق معهم بطريق البادية ، محاولاً اجتيازها الى منطقة الفرات . ولما بلغ أطراف بلدة سلمية من أعمال متصرفية حماة ، بعث بكتاب مع رسول الى امرائها يطلب منهم التوسط له لدى « مسيو دي جوفنيل » المفوض السامي الجديد بالعفو عنه ، تجاوباً مع ندائه : « الحرب لمن يريد الحرب ، والسلم لمن يريد السلم » ، فكان له ما أراد ، واستسلم رمضان شلاش للفرنسيين ، والقت الطائرات صورته ، وهو يقدم خضوعه للمفوض السامي الافرنسي ، ونثرتها على جميع مناطق الثورة ، مع دعوة إلى اخوانه الثائرين أن يقتصدوا به ، ويلقوا بسلاحهم ، ويستسلموا الى فرانس ، فتعفو عنهم ، وتحسن معاملتهم ، كما لاقى هو منها . ولكن أحداً لم يستسلم من الثائرين رغم دعوة رمضان شلاش ، لانهم

يعرفون أن عمله كان في الثورة التنقل من مضافة إلى أخرى ، يجلس على المراتب بصلف ، ليوهم مضيفيه انه رجل عظيم ، وعند نشوب المعركة كان يمتطي جواده ليبعد عن ساحتها الى مضافة جديدة ، حتى وجد بين المجاهدين من أوصله إلى منطقة سامية ليستسلم إلى فرنسا ، ويحظى براتب منها ، ظل يتقاضاه سنوات وأدخل ولده المدرسة الحربية ، وخرجه ضابطاً في الجيش الفرنسي .

على ان نهاية نسيب البكري في الثورة اختلفت عن مصير رمضان شلاش ، فهو لما أخذت خدة الثورة تضعف تحت وطأة الجيوش التي خشدتها فرانسة ، وخاصة التي جاءت بها من المغرب العربي بعد انتهاء ثورة الامير عبد الكريم الخطابي ، لجأ نسيب البكري الى فلسطين ، وأقام في مدينة يافا ، فلم يقبض عليه الانكليز ، كما قبضوا على غيره ، كالزعيم ابراهيم هنانو ، وجميل مردم ، اذ قبضوا عليهم وسموهم للفرنسيين ، بل ظل هناك نحو سنتين ، لم ينقطع خلاهما عن الاتصال بمعارفه في سوريا ، كي يتوسطوا له بالعفو لدى الفرنسيين . ولما دعيت البلاد إلى انتخاب مجلس تأسيسى يسن لها دستوراً في عام ١٩٢٨ ، كان هو وعدد من الثائرين اللاجئين الملتفين حوله في يافا الفئة الوحيدة التي أصدر عنها المفوض السامي الافرنسي عفواً ، دون سائر المجاهدين اللاجئين الى البوادي والبلاد العربية الاخرى . وقد عاد نسيب البكري مع أسرته واخوته ورفاقه إلى دمشق ، ورشح نفسه في قائمة الشيخ تاج الدين الحسيني عميل فرنسا الذي اختارته عامئذ رئيساً للدولة السورية ، وأرادت أن تجعل منه رئيساً للجمهورية ، فخاض غمار الانتخابات ضد الوطنيين وأكثرية الشعب التي كانت تؤيدهم ، وشق الصف الوطني ، وظل مع اخيه فوزي البكري صنيعه الفرنسيين ، يستخدمونها في محاربة الكتلة الوطنية التي كانت تتزعم الحركة الوطنية في سوريا ، الا في فترة حاول فيها بعض المجاهدين أن يوفقوا بين نسيب البكري الذي اشترك في ثورتين ، وبين الكتلة الوطنية ، وعملوا حتى فاز مرة بالنيابة برضاء الكتلة الوطنية ،

ولكنه ما لبث ان عاد إلى انحرافه ، وانتمى في عهد الاستقلال إلى حزب الشعب ، وعين سفيراً لسوريا في الاردن ، ثم أحيل الى المعاش ، وظل في عهد الوحدة يتمنى لو ان الحكومة تخصص له ولآل البكري رواتب ، كما فكرت بأن تخصص لورثة احمد عرابي بطل الثورة عند دخول الانكليز مصر ، واحتلال أراضيها بدعوة من الحديوي توفيق . ولما تأمرت الرجعية والاستعمار ، وفرضوا الانفصال على الشعب السوري ، كان هو أول من هب ، باسم رابطة رجال الثورة لتأييد الانفصال ، وتأييد مأمون الكزبري رئيس حكومة الانفصال الاولى ، لعله يجعل منه وزيراً في وزارته . وفي عهد حزب البعث الذي سبق الرجعية في ابعاد سورية عن الوحدة ، ظل نعل نسيب البكري يخفق على باب مكتب منصور الاطرش ، وعمه زيد الاطرش ، لعل الوزير يسكت عن التصرف غير القانوني بأموال رابطة رجال الثورة ، ويبقيه رئيساً للرابطة في حال تجديد انتخاب مكتبها .

هذان النموذجان من الرجال قادا الجموع المسلحة لدخول دمشق ، فكان دخولهم مأساة ، وكارثة على أهلها ، لان ثورة حماة أغنت كل مدينة سورية عن سلوك أسلوبها الذي قابله الفرنسيون بالقتل العام والتدمير ، وهي وأن حققت أهدافها في ارغام الفرنسيين المنتصرين في جبل الدروز على الانسحاب والجلاء عنه ، وقلب ثورته من محلية الى ثورة وطنية شاملة ، الا ان فظائع الفرنسيين في حماة ظلت تحدث بنفسها عن انهم سيدمرون كل مدينة يدخلها الثائرون ، أو تبدر فيها بوادر ثورة ، ثم يغرقونها بغرامات المال والسلاح .

الاستيلاء على دوما والنبك وجيرود

- ٣٧ -

انسحب الثائرون من دمشق ، وتفرقت بعض جموعهم ، وظل العديدون منهم في الغوطة ، ولا سيما منهم رجال العصابة الاولى . وقد زاد عددهم ، وعرفوا أن بلدة دوما ، وهي مركز قضاء قريبة من دمشق ، ليس فيها حامية فرنسية ، وكل ما فيها قوة صغيرة من الدرك ، فقرروا الاستيلاء عليها ، وهاجموها ، وبعد معركة مع الدرك الذين تحصنوا في دار الحكومة والمسجد ، أحرق في نهايتها الثائرون دار الحكومة ، استسلم رجال الدرك ، وغنم الثوار أسلحتهم وخيولهم ، وسقط من الفريقين بعض القتلى والجرحى . وكان نسيب البكري عاد الى جبل الدروز ، وعاد معه الكثيرون من الدروز الذين رافقوه الى دمشق ، فقرر رمضان شلاش ، وخلف النعير شيخ عشيرة الغياث الزحف بما تبقى معها من الدروز والبدو والفلاحين المتجمعين بقصد الكسب ، الى بلدة «جيرود» ، وهي مركز قضاء ، بعد ان علموا أن وضعها لا يختلف عن وضع بلدة دوما ، ففيها موظفون وقوة صغيرة من الدرك لا تتجاوز الفصيل ، وما علم هؤلاء باقتراب الثائرين من بلدتهم ، حتى فرّ القائم مقام وقائد الدرك وجنوده إلى بلدة «النبك» مركز قضاء قلمون ، وتقع على بعد ثمانين كيلومتراً شمالي دمشق ، فدخل الثائرون جيرود دون مقاومة ، واتجهوا الى القطيفة ، وهنا بدأت مطامع خلف النعير ومن معه تظهر ازاء اغراءات فقراء الفلاحين الذين انضموا الى الجمع ، من القرى المجاورة لقرية «معلولا» المسيحية ، والتي لا تبعد أكثر من بضعة وخمسين كيلومتراً شمالي دمشق ، يدفعهم الى ذلك الجهل والتعصب والطمع بالنهب

والسلب ، الى جانب ما بدر من أكثر المسيحيين في سورية ، إن لم نقل كلهم ، من ميل لفرانسة ، وتأيد لانتدابها في سورية . وكانت الدولة العثمانية تغذي التعصب في بلادها ، وكان حكم سلاطينها السنيين الأحناف يقوم على التعصب الديني والمذهبي ، يضطهدون كل طائفة دينها أو مذهبها يخالف دينهم ومذهبهم ، ويشيرون في النفوس الكراهية ضدها ، فلا غرابة أن يستغل فريق الفلاحين المتعصبين وجود جموع المسلحين الذين الفت بينهم المطامع قبل المثل العليا والمبادئ ، على مقربة من قرية معلولا المسيحية ، وراحوا يحرضون على غزوها ونهبها ، فوجد هذا التحريض هوى في نفس خلف النعير وجماعته من عشيرة الغياث ، وأخذوا يلحون على رمضان شلاش بمهاجمة القرية ، مع انه ليس له سيطرة على الجموع ، ولكنه كان يدرك أثر هذا العدوان على الثورة ، وانه سيؤدي إلى سمعتها اساءة تستغلها فرانسة لتملأ أسماع الدنيا وأعضاء عصبة الأمم بشاهد على أن الثورة ضد فرانسة في سورية ليست وطنية ، قام بها المسلمون المتعصبون لتقتيل الأقلية المسيحية ، ونهب قراها وأحيائها ، وان فرانسة التي تعتبر نفسها حامية الاقليات هناك مضطرة لقمع تلك الثورة بشدة حرصاً على أرواح المسيحيين والأجانب وأموالهم . لذلك أخذ رمضان شلاش يعارض الهجوم دون مبرر على القرية الآمنة المطمئنة ، ولكنه حبا بالظهور مظهر القائد ، والفرصة سانحة له بمرافقة هذه الجموع ، كان يسير معها نحو معلولا ، حتى وصلت تلك الجموع الى قرية « عين التينة » المجاورة لقرية « معلولا » ، والتي بينها وبين معلولا ، بسبب اختلاف الدين احتكاك مباشر ، قد يزيد في التحريض على الهجوم . ولما لم يجد رمضان شلاش مناصاً من مهاجمة القرية ، ازاء اصرار المسيطرين فعلاً على القوة كخلف النعير ، وزعماء شرازم القرى ، بحكم سيطرة كل واحد منهم على جماعته ، اقترح ان يرسل أولاً إلى وجهاء قرية معلولا انذاراً بطلب كمية من المؤن كالذقيق والسمن واللحم ، مع مبلغ من المال ، وكمية من السلاح مساعدة لجيش الثورة الذي تخلف أهالي معلولا عن أن يكون لهم

مسلحون بين سراياهم وراياته ، وارسل الكتاب ، وحدد موعداً للانداز ، فاجتمع وجهاء قرية معلولا ورؤساء الكنيستين فيها للتداول والتشاور ، بينما المسلحون من اهل القرية راحوا يتحصنون في المواقع الاستراتيجية لصد أي هجوم يقع على قريتهم ، وفيها اطفالهم ونسائهم وأموالهم ، لا سيما وقد سبقت أخبار الجموع إلى مسامعهم ، فاستعدوا للدفاع عن القرية ، وهي تقع في قلب شعب صخري يحيط بها من أطرافها الثلاثة ، ومنازلها في قلب صخوره ، وليس من طريق اليها إلا من جهة الوادي الذي فيه بسايتهم وكرومهم وحواكيرهم .

تداول وجهاء القرية ورجال الدين في الأمر ، وقد سبقت ، كما قلنا ، إلى مسامعهم أخبار الجموع التي ساقها اليهم الحقد والتعصب والطمع ، واصبحت على أبواب قريتهم ، فقرروا ان يقدموا للجموع المتحفزة للهجوم عليهم ما طلبه قادتها من مؤن ومال فهو طلب حقيق من جيش ثائر ضد دولة تقاعست عن حمايتهم ، ويحتاج فعلاً إلى تجهيزات ومؤن ليستمر في ثورته ، ولكنهم اعتذروا عن تسليم أي بندقية أو عتاد ، لأنهم ، بعد ان صنفوا في عداد اعداء الثورة ، بحاجة إلى هذا السلاح في الدفاع عن قريتهم ضد أي عدوان يقع عليها ، وأرسلوا بهذا جواباً حملاً رسول منهم ، مع المطالبة بمهلة أيام قليلة ، يستطيعون خلالها جمع المال والمؤونة ، فلم يرض امتناعهم عن تسليم السلاح زعماء الجموع ، وقرروا الهجوم على القرية التي لم تكن في طريق زحفهم من القطيفة الى النبك ، وإنما قصدوها عامدين متعمدين للعدوان ، وزحفت تجمعات المسلحين الى القرية تبغي النهب والسلب ، وتخلف رمضان شلاش كمعادته عن المعركة ، في عين التينة ، ودخلت طلائع المهاجمين المنازل القريبة من الوادي المنبسط أمام الشعب والرواق الصخري في ذروة الجبل المحيط بالقرية ، وخرج بعضهم يحمل ما وصلت اليه يده من أثاث وحيوان ومؤن غنيمة ، فانهال عليهم المسلحون من اهل معلولا المتحصنين في أعالي القرية ، والرواق الصخري بالرصاص ، وتساقط القتلى والجرحى بال عشرات ، وأدرك المهاجمون ان اقتحام القرية المنيع التي جعلت منها الطبيعة

حصناً حصيناً مستحيل عليهم ، وسيكبدهم من الخسائر بالأرواح أكثر مما يحمون به من الغنائم ، ففروا منهزمين تاركين جثث قتلاهم في أرض المعركة ، وانسحب جيش النهابين من قرية « عين التينة » ، وانفض عنه الذين فازوا ببعض الاسلاب من القرية ، أو جرحوا في المعركة ، وذهبوا بغنائمهم وجراحهم الى قراهم ، وانكفأت بقية الجموع تزحف إلى بلدة النبك لعل فيها ما يعوض لهم ما حملوا به من غزو معلولا . ولما علم موظفو النبك وقائد الدرك بدنو جموع المسلحين من بلدتهم فروا الى حمص ، ودخلت الجموع النبك ، وحل رمضان شلاش ضعيفاً على وجهه من وجهائها ، وعاد خلف النعير ومن التف حوله من النهابين الى وعرة الصفاة منازل عشيرته ، بعد أن نهب في طريقه مواشي قرى القسطل وقلدوت وجيرود والناصرية والعطنة والرحيبة والمعضمية والقטיפفة وغيرها ، وكان بعض أهالي هذه القرى اشتركوا معه في الزحف إلى معلولا ، فلم ينجحهم ذلك من سلب مواشيهم . ولم يكتف خلف النعير بما فعل ، بل كان خلال سني الثورة ، ينطلق بين الحين والحين ، من وعرة الصفاة بغزواته ، ويهاجم مواشي القرى القريبة ، وخاصة قرى قضاء جيرود التي يطلق عليها قرى « الجورة » ، ومواشي قرى قلمون الشرقية . وقد هاجم مرة مواشي بلدة النبك ونهبها ، يوم علم ان المسلحين من أهالي النبك انضموا الى قوة للتائرين توجهت لمهاجمة مدينة حمص . ويقدر عدد المواشي التي نهبها في هذه الفترة بأكثر من اربعين ألف رأس من الماعز ، مما أوغر صدور القرويين على الثورة التي جاءت به إلى منطقتهم ، وحمل الكثير من أهالي قرى قلمون والجورة على التنكر للثورة ، والتسلح لصد التائرين عن دخول قراهم ، لا سمح وهي قرى غير زراعية التربة ، تعيش على تربية الماشية . ومن لم يستطع منهم مقاومة التائرين ، كان يقف من الثورة موقف المتردد أو المتفرج أو المراوغ ، مما أفقد الثورة قوى وطنية مسلحة كانت قادرة على إحراز النصر في المعارك ، وتوسيع شقة الثورة على الفرنسيين .

اعتقال مردم وفوار الشهبندر

لم يطب المقام للدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم في عمان اثر انسحابهما من جبل الدروز يأساً من استمرار الثورة ، فقررا السفر الى فلسطين ، والاقامة في مدينة حيفا ، والسعي لاحضار عائلتيهما اليها والسكنى فيها ، حتى تواتيها الظروف للعودة الى الوطن ، ولكن عيون الفرنسيين كانت لها بالمرصاد في شرقي الاردن وفلسطين ، وطلبت فرانسة من حليفتها بريطانيا القبض عليهما وتسليمهما اليها باعتبارهما مجرمين حرضا على الثورة . ومن يعلم ؟ فقد تأتى ظروف يظهر في فلسطين من يحرض على الثورة على انكلترا ، ثم يلجأ الى سوريا ، وتحتاج الدولة عبوز الاستعمار الى القبض عليه بواسطة حليفتها فرانسة . . . لذلك أوعزت السلطة البريطانية إلى قيادة قوى الامن في حيفا بالقبض على الاثنين ، وبلغ الخبر أحد الضباط الفلسطينيين العرب من الوطنيين ، فأوفد صديقاً له من رجالات حيفا الوطنيين يبحث عن الشهبندر ومردم ، ويحذرهما من الانكليز ، ويطلب منهما مغادرة حيفا وفلسطين كلها الى شرقي الاردن . وكان الرجلان في مطعم يتناولان وجبة الغداء ، عندما اهتدى اليهما صديق الضابط ، وأبلغهما النبأ . فترك الشهبندر وجبة الطعام التي أمامه ، وغادر المطعم فوراً إلى المرآب حيث استقل سيارة إلى عمان . أما جميل مردم الذي شق عليه أن يقطع غداءه ، ووعد الشهبندر بأن يلحق به الى المرآب فور انتهائه من الطعام ، فقد أدركه رجال الامن الفلسطيني في المطعم ، وقبضوا عليه ، وساقته السلطة البريطانية بالقطار مغلول اليدين إلى درعا حيث سلمته الى السلطة الفرنسية .

ومن غريب المصادفات ان عائلة جميل ، أي زوجه وأولاده كانوا غادروا دمشق بقطار حيفا في نفس اليوم ، فلما التقى القطاران في محطة درعا شاهدت الأسرة ربهما في القطار الذاهب الى دمشق مغلول اليدين تحرسه قوة من الدرك الفرنسي ، فانهمرت الدموع من العيون ، وعلا النواح ، واضطرت الأسرة لأن

تعود في اليوم الثاني إلى دمشق ، حيث علمت ان السلطة الفرنسية نقلت جميل
مردم إلى قلعة ارواد في الجزيرة الصغيرة القائمة على مقربة من بلدة طرطوس ،
حيث يعتقل عدد كبير من الوطنيين السوريين . ولما وصل الدكتور عبد الرحمن
الشهيندر الى عمان ، ولبت فيها أياماً ، اتصلت بمسامعه أنباء ثوره . حماة ،
وانسحاب جيش الجنرال « غاملان » من جبل الدروز ، وانتشار الثوره إلى
دمشق والغوطة وقلمون ، ووادي التيم وجنوبي لبنان ، فغادر عمان الى الجبل ،
وأقام في بلدة السويداء حيث كان الدكتور محمد علي الشواف سبقه إليها عائداً من
عمان ، وأسس فيها مستوصفاً لمداواة الجرحى والمرضى .



الفصل السابع

الثورة في وادي التيم واقليم البلات

- ٣٨ -

تسكن قرى منطقة اقليم البلات ، كما يسمونه اليوم ، وهو السفح الشرقي من جبل الشيخ « حرمون » ، طوائف من الدروز والمسيحيين وقلة من السنيين ، وتمتد هذه القرى الى ابواب دمشق ، فقرى صحنايا ، والجديدة ، وعروطور ، وغيرها على ابواب دمشق من جهة الجنوب ، تسكنها الطوائف الثلاث : دروز ، و سنيون ، ومسيحيون ، ويعيشون معاً رغم السياسات التي تفرق بينهم في العهد العثماني ، وفي عهد الانتداب الفرنسي ، لذلك كان طبيعياً ان يتأثر الدروز في هذا الاقليم اكثر من غيرهم بثورة اخوانهم دروز جبل حوران . وكانت رسلهم على اتصال دائم بالجبل يستطلعون ما يحدث فيه ، ويترقبون نتائج المعارك الدائرة فيه ، ويبلغون سلطان باشا الاطرش استعداد اقليمهم لشد أزر الثورة ، شريطة ان ينجدهم بسرية من مجاهدي الجبل ، يشد وصولها الى منطقتهم الغزائم ، ويشحذ الهمم ، ويخرج بالمرتدين من ترددهم ، ويرهب بعض المسيحيين الذين يقاومون الثورة ، وهم على اتصال بالفرنسيين . ولكن زحف الحملات الى الجبل ، وتصميم الدروز ،

في بدء الثورة ، على عدم الخروج من جبل حوران ، جعل إرسال هذه النجدة اليهم متعذراً ، لذلك اتفقوا مع قيادة الثورة على إحياء العادة القديمة ، وهي إشعال النيران الكثيرة في قمم الجبال ، يراها ليلاً سكان القرى في الجبل الثاني ، على بعد الشقة بينها ، كدليل على زحف الحملة الفرنسية ، ونشوب القتال بينها وبين الدروز . وكنا نرى في الليالي النيران تشتعل في ذرى جبل حوران أيام كانت الحملات الفرنسية تزحف اليه ، وتهاجم سكانه ، ثم بعد حين أمسينا نراها في الليالي تشتعل في مرتفعات جبل الشيخ ايذاناً بالمعارك الدائرة فيه بين الثائرين وبين الحملات الفرنسية التي اخذت توجه لقتالهم . والسبب ان ثورة حماة ، وانسحاب جيش « غاملان » من قلب الجبل أفسح المجال لتسرب المقاتلة من الدروز الى خارج الجبل ، فأوفد دروز اقليم البلان رسلهم الى سلطان الاطرش ، يعلمونه ببدء الصدام بينهم وبين جيرانهم المسيحيين في قريتي جندل ومجدل شمس ، وان الفرنسيين ، جردوا ، على الأثر حملة وجهوها الى اقليمهم ، هي اليوم في طريقها اليهم ، وانهم يطلبون نجدة من جبل حوران تساعد على صد الحملة ، وتوسيع شقة الثورة في اقليم البلان .

ومن جميل المصادفات ان سلطان الاطرش ، كان ، في ذلك الحين ، عقد اجتماعاً لزعماء الدروز ، تقرر فيه تجريد نجدة كبرى لمساعدة اخوانهم المجاهدين الذين دخلوا دمشق ، اثر وصول كتاب من نسيب البكري يعلمهم بالجموع التي رافقته اليها ، وانها غير كافية لاحتلال دمشق ، ويطلب نجدة من الجبل توافيهم لاحتلال المواقع ، والقلاع ، والثكنات التي يتحصن فيها الفرنسيون في دمشق وجبالها . وكانت هذه القوة التي تجمعت تعد نحو الف وخمسمئة مسلح عين زيد الاطرش شقيق سلطان قائداً عليها ، واشترك فيها حمزة الدرويش ، وصياح حمود الاطرش ، وحسن الاطرش ، والعقيد فؤاد سليم ، واخوه نصري سليم ، وسعيد اليماني ، ورافقهم من السوريين ، نزيه المؤيد العظم الذي عاد مع الشهبندر الى الجبل ، وزكي الدروبي . انطلقت قوة الثائرين من الجبل يوم الثلاثين

من شهر تشرين الاول الى « الهيجانة » لنجدة الثائرين الذين حاولوا احتلال دمشق ، وكانوا انسحبوا منها بسبب قصفها ، ومن الهيجانة توجهت القوة إلى قرية الخيارة في الغوطة ، وأقامت فيها أياماً للراحة ، فأغارت عليها الطائرات الفرنسية ، وقصفت القرية ، فاستشهد في الغارة سالم الاطرش ، ومحمد البربور من المجاهدين ، وبضعة اشخاص من الفلاحين في القرية . وهذا الحادث ينبه قادة الثائرين الى خطأ البقاء اكثر من يوم واحد في قرية قريبة من مراكز العدو ومطاراته . انتقلت الحملة من الخيارة الى قرى عقربا ، ويلدا ، وببيلا من قرى الغوطة ، والاهلون يكرمون وفادتها ، كماداتهم في كل من يمر بقراهم من المجاهدين . وفي يلدا وافاهم وفد من وطنيي حي الميدان ، يرجوهم باسم اهالي دمشق ألا يدخلوا المدينة ، ويعرضوها كرة أخرى للتدمير ، فطمأن زيد الاطرش الوفد بأن حملة المجاهدين لن تدخل المدينة ، وستقاتل الفرنسيين خارجها ، ان تجرأوا وخرجوا لقتالها . وفي اليوم الثاني وصلت الى قيادة الحملة انباء تشير الى أن الفرنسيين ينكلون بدروز الاقليم ووادي التيم ، ويفرضون عليهم غرامات المال والسلاح ، ويعتقلون زعماءهم ، وانهم نسفوا بالمتفجرات بعض المنازل في قرية « بقعاتا » ، ويشيرون الفتن بين الدروز والمسيحيين ليجعلوها مذبحه طائفية ، وهم ، في سبيل هذه الغاية ، يسلحون المسيحيين ، ويجردون الدروز من السلاح ، وعقب الانباء وصل كتاب من الاقليم يطلب النجدة ، فقررت قيادة الحملة التوجه الى الاقليم ، وفي الليل انشطرت الحملة الى فريقين : فريق سلك طريقاً تمر جنوبي قرية القدم المجاورة لحي الميدان متجهاً من اقصر طريق الى قلعة جندل حيث كانت تدور معركة بين أهلها ، وبين حملة إفرنسية ، فوصل الفريق بعد انتهاء المعركة بانتصار القرية على الفرنسيين . وفريق مر بقرية القدم ، وعلى مقربة منها ثكنة للفرنسيين اسمها « ثكنة القدم » او « قشلة القدم » ، والكلمة تركية محرفة من كلمة « قيشلاق » ، أي المشقى ، نسبة الى ان الجند يقضون فيه أشهر الشتاء ، فقبع الفرنسيون في حصون الثكنة حتى مرت قوة الثائرين ، ثم أخذوا يطلقون نيران اسلحتهم خوفاً ، ودون ان يهاجمهم احد . واتخذ هذا الفريق

طريقه ماراً بالقرب من داريا حتى بلغ صحنايا نحو منتصف الليل ، واكثر افراده من المشاة ، لذلك رأى قادتها ألا يتقدموا في السير خشية ان يدركهم الصباح ، وهم في امكنة مكشوفة ليس فيها شجر ، فيتعرضوا لغارة الطائرات ، لذلك قرروا المبيت في بساتين القرية وغياضها دون ان يشعر السكان بوجودهم ، ولكنهم وجدوا في الصباح انهم لبثوا في مكان خطر تهدده قلاع المزة بمدافعها ، وعلى مقربة منهم مطار دمشق الحربي ، تملؤه الطائرات المقاتلة والقاذفة ، وأحس اهل القرية بهم ، فانقسموا إلى فريقين : الدروز يؤيدون الثائرين ، والمسيحيين يريدون مقاومتهم ، وأعلام السلطة بأمرهم ، واخيراً اوفد قائد المجاهدين يطمئن الاهلين ، على انهم لا يريدون دخول القرية ، وان همهم قتال الفرنسيين ، وانهم راحلون عنهم غداً ، وزعم ذلك انسلت امرأتان من القرية الى «جديدة عرطوز» وهي قرية مجاورة قريبة الى المطار ، وابلغت عملاء فرنسا فيها أمر الحملة الدرزية ، فتطوع عميل منهم الى المطار ، واعلم الفرنسيين بوجود الدروز الثائرين



جنود فر نسيون يسوقون الاهلين بالقوة لحمل عتادهم

في بساتين صحنايا ، فحلقت الطائرات تقصفهم ، وتنقض عليهم بالرشاشات حتى

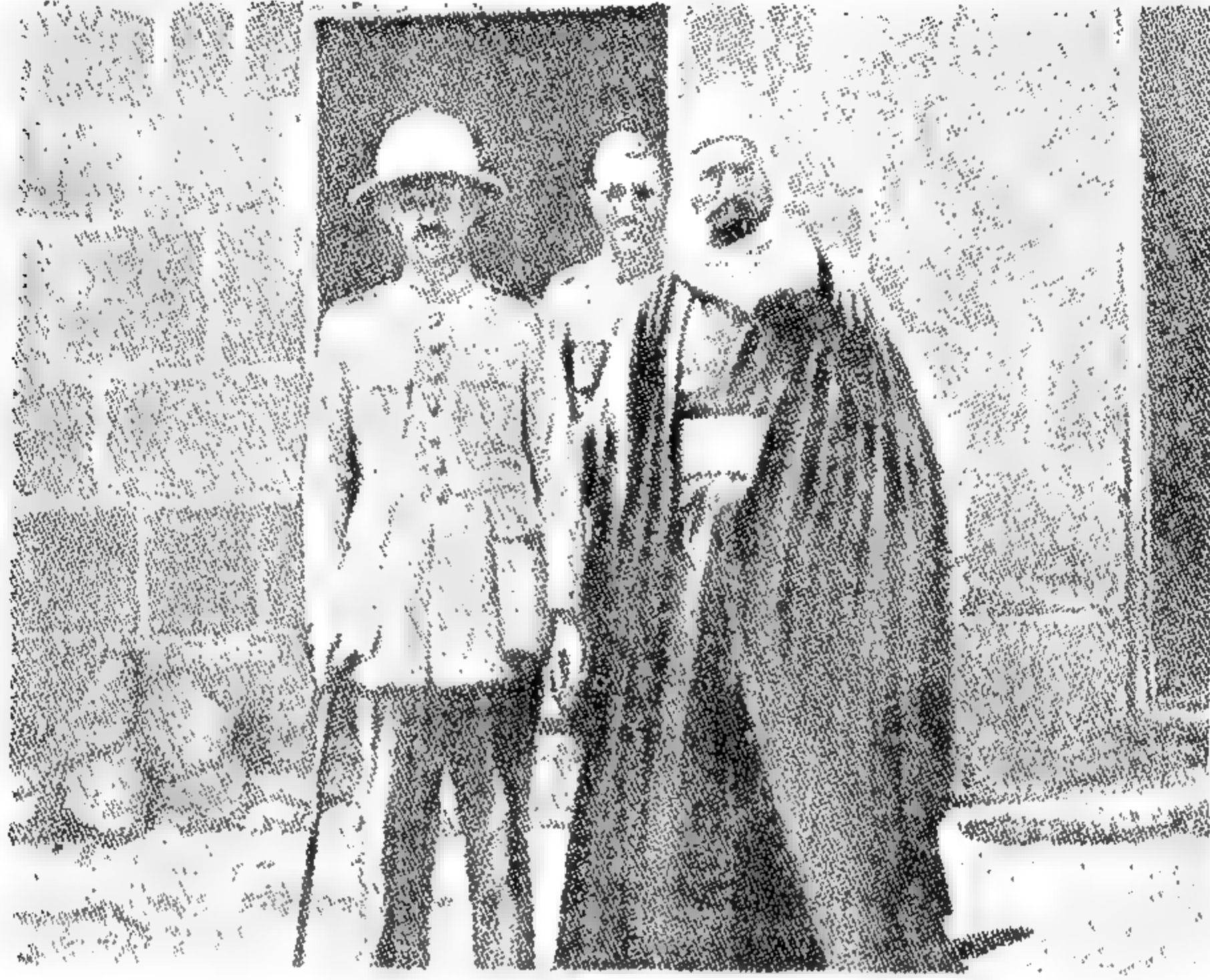
اقبل الليل ، دون ان يصاب في القصف كله ، غير جوادين جرحا ، ونفق احدهما .
ولما أرخى الليل سدوله انطلقت الحملة الى الاقليم ، بعد ان تطوع شبان قريتي
صحنايا والاشرفية للسير معها ، يهدونها سواء السبيل ، ويحنبونها بلدة قطنا التي
كانت قوات كبيرة من الفرنسيين تعسكر في ثكناتها .

ولما أصبح الصباح كانت حملة المجاهدين تسلك الطريق الى قرية « عرنة » في
معارج جبل الشيخ ، حتى اذا بلغت استقبلت من الدروز الذين هم اكثرية
السكان ، بالاهازيج والزغاريد ، وعرض المسلحون منهم قوتهم امام الحملة ،
وكان على رأس المستقبلين شقيب وهاب من دروز الجبل ، والذي كان يعمل في
جيش الحجاز ، في عهد الملكين الحسين وابنه علي ، والشيخ ديب القديمي من
وجوه قرية القدم المجاورة لدمشق . وكانا التحقا بالاقليم من قبل . وخلال
مهرجان الاستقبال مر بقرية « عرنة » شبان يحملون على البغال كمية كبيرة من
البنادق ، جمعت من اهالي القرى المجاورة غرامة لتسلم الى الفرنسيين ، فاستولى
عليها المجاهدون ، ووزعوها على من ليس بيدهم سلاح من اهل القرية . وفي
اليوم الثاني توجهت الحملة الى قرية مجدل شمس حيث انضمت الى القوة التي
سبقتها وعلى رأسها زيد الاطرش ، واستقبلت بحفاوة ، ثم عقد زيد الاطرش
اجتماعاً للقادة والبارزين من رجال حملته ، في منزل اسعد الكنج من زعماء
المجدل ، أعلن فيه انه جاء من الجبل بقواته بأمر من سلطان الاطرش لنجدة أهل
الاقليم ، وتلبية لرغبتهم ، والهدف تحرير أرض الوطن من يد الغاصبين ، وأعلن
ان الامر شوري بينهم ، وانه دعاهم لتحقيق هذه الغاية باستشارتهم والاخذ
برأيهم ، وطلب منهم أن يدلوا بأرائهم واقتراحاتهم حول خطة المستقبل ، ومن
أقصر الطرق وأكثرها صواباً ، فاقترح البعض مهاجمة بلدة القنيطرة الشركسية
لأنها تقدم المتطوعين للكوكبات الشركسية في الجيش الفرنسي ، وتقف من الثورة
موقف العداء ، فلم يتفق على هذا الاقتراح ، وقيل في معارضته ان البلدة كلها
لا تؤخذ بجريرة بعض أبنائها ، والشركس قوم مسلمون هجروا ديارهم في القفقاس

لما احتلها الروس المستعمرون ، وآثروا الهجرة الى البلاد الإسلامية في سبيل الحفاظ على دينهم ، لذلك لا يؤخذون كلهم بحريّة من يتطوع منهم في الجيش الفرنسي طمعاً بالمال والكسب والنهب . واقترح البعض توسيع شقّة الثورة الى حاصبيا ووادي التيم ، فقبل الاقتراح . وقد أغارت طائرة على مجدل شمس أثناء هذا الاجتماع ، وتكررت الغارات الجوية على القرية ، وأسقطت طائرة منها ، فوجهت القيادة سرية من حملتها الى حاصبيا بقيادة حمزة الدرويش ، دخلتها صباح اليوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٢٥ ، ولحقت بها سرايا اخرى . أما حاصيتهم الفرنسية الصغيرة ، فقد لجأت الى الشيخ حسين قيس قاضي المذهب ، فأجارها قبل وصول المجاهدين ، وأخرجها من البلدة لتلحق بمرجعيون والنبطية .

وسكان وادي التيم خليط من الدروز والسنيين والنصارى ، أشهر بلدانهم حاصبيا وراشيا ومرجعيون ، وجديدة مرجعيون ، أي « مرج العيون » . وكانت منطقتهم تنقسم الى قضاءي حاصبيا وراشيا من أعمال ولاية الشام في العهد العثماني ، وقاعدتها دمشق . ولما نشبت الثورة في جبل حوران ، وزع الفرنسيون ، كعادتهم ، السلاح على النصارى من سكان هذا الوادي ، ليشعروهم بعطفهم ، ويستميلوهم الى جانبهم ، ويرموا بذور الكراهية والبغضاء بينهم وبين الدروز والسنيين ، وأخذوا بالمقابل يجمعون السلاح من المسلمين ، ودروز وسنيين ، ويفرضون عليهم الغرامات . وكان اول ما فكر به قادة الثورة الذين دخلوا حاصبيا التشاور مع زعماء البلدة ، على توسيع نطاق الثورة في منطقتهم ، فنبههم هؤلاء الى قرية « كوكبا » ، وانها أشد المسيحيين غروراً وعداء للثورة ، فقرروا عدم التعرض لها ، كي لا يقال ان الثورة تضطهد المسيحيين ، وأوفدوا أناساً من وجهاء حاصبيا الى بلدة مرجعيون ، يفاوضون اهلها على دخول قوة من الشائرين بلدتهم اسوة بحاصبيا . وتواردت الوفود من راشيا والقرى الى حاصبيا تعلن تأييدها للثورة .

وفي اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني وصل وفد من مسلحي جديدة مرجعيون ومسيحييها يعرض فتح بلدتهم لجيش الثورة دون قيد او شرط ، ويعلن ان الفرنسيين قد اخلوها عندما بلغهم وصول الثائرين الى حاصبيا ، فاقضى



حمزه الدرويش مع الجنرال اندريا بعد استسلامه في صاخذ

الموقف السير بسرعة الى جديدة مرجعيون ، توسيعاً لنطاق الثورة ، وكسباً لامكانيات سكانها في تأييد الاهداف الوطنية .

حرق كوكبا

- ٣٩ -

لذلك اتجه حمزة الدرويش يتقدم سرية من المجاهدين الى الجديدة ، ولما بلغت السرية موقعاً على مقربة من قرية « كوكبا » القرية المسيحية القائمة على سفح جبل مرتفع يشرف على الطريق ، وافاها كاهن القرية ، وبعض شبان القرية



في الوسط رشيد بك بيضون نائب بيروت وقد اشترك في المقاومة
السرية فكان يخرج مع الثوار ويقاوم ثم يعود الى المدينة دون ان
يشعر به احد

الى يساره المجاهد المعروف رضا الفقير والى يمينه رضا نظام .

المسلحين بسيارة يدعون المجاهدين الى تناول الغداء في القرية ، فاعتذر قادة
الحملة عن قبول الدعوة خشية أن تكون سبباً في الاحتكاك والصدام بينهم وبين
الموالين لفرانسة من رجال القرية ، الا ان حمزة الدرويش لبى الدعوة ، رغم
تحذير اخوانه اياه ، وركب السيارة مع الكاهن ، يرافقه بعض رجاله ، وتوجهوا
الى القرية ، فما كاد يصل اليها حتى اطلق الموالون لفرانسة الرصاص على السيارة ،
فسقط ثلاثة من رجال حمزة الدرويش قتلى ، ونزل الدرويش ومن بقي سالم معه
من السيارة ، وتحصنوا في أحد المنازل ، ونادى حمزة الدرويش خصومه بأن
يكفوا عن اطلاق الرصاص ، فالمجاهدون لم يأتوا لمحاربة بني قومهم ، وانما
لمحاربة فرانسة وتحرير البلاد من استعمارها ، وهددهم بالخسران ان هم تمادوا في

العدوان ، فكان الجواب وابلًا من الرصاص عليه ، فاضطرت سرية المجاهدين المرابطة قريباً من القرية لمهاجمتها ، وانقاذ قائدها . وكانت لا تبعد أكثر من كيلو متر واحد من القرية ، فأغار عليها الفرسان ، وزحف وراءهم المشاة إلى القرية ، لا يأبهون لو ابل الرصاص المنهمر عليهم ، حتى دخلوها عنوة ، واضرموا النيران في منازلها ، وفر المعتدون كالأرانب ، مخلفين وراءهم النساء والأطفال والشيوخ ، فلم يؤذ الدروز احداً منهم ، بل هدءوا روعهم ، وواسوهم ، وحماوا الطائشين من رجالهم تبعة ما وقع ، وأمنوا على أرواحهم ، ولكنهم استولوا على كل ما وقع بأيديهم من أموال القرية التي اعتدت عليهم ، وقتلت رجالهم غدرًا . وكانت خسائر كوكبا بالنفوس كبيرة ايضاً من رصاص المدافعين والمهاجمين ، وقتل كاهن القرية الوطني الذي أراد ان يثبت للمجاهدين ان النصارى وطنيون لا يتخلفون عن تأييد الثورة ، واستقبال الشائرين الذين جاءوا لتحرير البلاد من ربقة الاستعمار . وعاد الثوار بعد حرق « كوكبا » الى حاصبيا ، حتى لا يساء تفسير حرق ، كوكبا ، ولا تتعرض الحملة لصدام آخر في إحدى القرى التي تمر بها في طريقها الى جديدة مرجعيون .

وشاع اثر هذا الحادث ان حمزة الدرويش كان اتصل من حاصبيا سرّاً باهالي « كوكبا » ، وطلب لنفسه مبلغاً من المال باسم الثورة ، قيل يومئذ انه خمسمئة ليرة ذهبية ، فلامه بعض اخوانه المجاهدين على ذلك ، وحملة مسؤولية الحادث ، وانكر هو ، واقسم انه لم يطلب مالاً ، ولكنه طلب مؤناً وسلاحاً ، ولكنه غدا ، بعد هذا الحادث ، الذي استغله الفرنسيون أبشع استغلال مسؤولاً امام التاريخ ، اذ كان باستطاعته ان يحجب المجاهدين طريق « كوكبا » ، بل بإمكانه ، على الاقل ، ألا يقبل الدعوة من كاهن القرية ، ويتابع طريقه دون ان يدخل « كوكبا » ، ويسبب الحادث . وقد أساء الحادث الى سمعة حمزة الدرويش ، وأفل نجمه في الثورة ، وانفض إخوانه من حوله ، فغادر وادي التيم الى جبل الدروز ، واستسلم بعدئذ للفرنسيين متأثراً بما أصابه من الدروز ، فكان

لاستسلامه دوي ، لأنه كان في طليعة المجاهدين ، ومن أصحاب الكلمة والرأي في الثورة ، ملازماً لسلطان الأطرش القائد الذي كان يستشيريه في كل امور الثورة ، ويطلعه عليها . وقد تبين بعدئذ ان الفرنسيين جاءوا بعصابة من «زغرتا» في شمال لبنان اسمها عصابة بطرس وغطاس كرم ، وحشدوا في القرية عملاءهم وجواسيسهم ، وسلحوا العصابة بسلاح فرنسي ، وحضوها على التحرش بالمجاهدين ، والاعتداء عليهم ، لتكون فتنة بين المسلمين والنصارى ، فكانت مأساة « كوكبا » . ولما بلغ زيد الاطرش قائد الحملة العام نبأ المأساة أذاع بياناً طمأن فيه المسيحيين في وادي التيم ، وان الحملة الوطنية لا تفرق بين مسلم ومسيحي ، وان هدفها وطني قومي ، وان الدين لله والوطن للجميع .

قرر المجاهدون في حاصبيا ، بعد حريق كوكبا ، احتلال جديدة مرجعيون ، فتوجهت سرية منهم اليها ، ولما وصلوا إلى قرية « ابل السقي » ، وهي على الطريق العام ، تبعد ثلاثة كيلومترات عن مرجعيون ، استقبلهم أهلها ، وأكثرهم من المسيحيين ، وطلبوا منهم أن يقبلوا ضيافتهم ، فقرروا قبولها ، والمبيت فيها . وفي الليل تلقوا كتاباً من بطرس وغطاس كرم موجهاً الى زعماء الدروز فيه تهديد وقح ، وشتائم لا تصدر عن رجل مهذب ، وفي ختامه انذار بوجوب انسحابهم من « ابل السقي » ، وعدم التعرض لجديدة مرجعيون ، والانذار صادر عنها ، فثارت ثائرة المجاهدين ، وهبوا للزحف في الليل ، ولكن وجد عقلاؤهم من الانسب تأجيل الزحف إلى الصباح ، حتى لا تتكرر مأساة كوكبا ، وأرسلوا جوابهم المهذب عن الكتاب بأن ثورتهم وطنية ، وليست دينية ، وهم حريصون على الا يثيرهم العملاء ، ولا يجروهم الى تلويث ايديهم بدم اخوانهم المسيحيين ، لذلك عدلوا عن المجيء الى جديدة مرجعيون ، وسيفادرون « ابل السقي » في الصباح ، ليثبتوا للملأ أجمع انهم يحافظون على وعودهم وعهودهم ، وفعلاً عادوا في الصباح الى حاصبيا ، فوجدوا فيها زيد الاطرش والعقيد فؤاد سليم وسائر القادة والزعماء ، وجموعاً غفيرة من الثائرين الدروز ومن انضم اليهم من أهل المنطقة ، فحدثهم حديث عملاء فرنسا ، وما اتخذوه

من موقف .

ويظهر أن عودتهم الى حاصبيا ، أطمعت عصابة كرم ، فوجهت عدداً من رجالها الى مزرعة « برغز » التي تخص سامي شمس وأمين شمس من وجهاء الدروز في حاصبيا . وكان فيها صدفة شكيب وهاب وعدد من رفاقه المجاهدين ، قاوموهم فاستسلم اليهم ستة عشر مسلحاً من العصابة ، جردوا من السلاح ، وأطلق سراحهم رغبة في أن يعودوا الى إخوانهم ، وينصحوهم بعدم التعرض للحملة الوطنية ، فكان جواب عصابة كرم الهجوم بجميع افرادها على مزرعة « برغز » ، حيث صمد لها شكيب وهاب ورجاله ، وأرسلوا الى حاصبيا يعلمون القيادة بالأمر ، فأنجدهم بقوة ما كادت تصل الى « برغز » حتى انهزمت عصابة كرم نحو جديدة مرجعيون ، وتعقبها المجاهدون ، ودخل بعضهم وراءها بالبلدة ، واذا بالرصاص ينهال عليهم من الحامية الفرنسية التي وصلت الى البلدة في اليوم نفسه ، ونشبت بين الحامية المتحصنة بالبلدة ، ومعها عصابة كرم ، وبين المجاهدين معركة استمرت النهار كله ، وقرب الغروب انهزمت الحامية الفرنسية من البلدة بسياراتها نحو النبطية ، بعد ان خسرت الكثيرين من رجالها ، واستولى المجاهدون على راية عصابة كرم ، وعلى فرسه ، وقتلوا عدداً من رجاله ، وكاد غطاس كرم نفسه يقع أسيراً بيد اسعد الكنج أحد زعماء مجدل شمس ، وعندئذ دخل المجاهدون البلدة ، وطمأنوا أهلها ، وخاصة المسيحيين منهم .

ضمان حدود لبنان

عقد قادة المجاهدين وزعماء الدروز في حاصبيا اجتماعاً ، في اليوم السادس عشر من تشرين الثاني ، قرروا فيه عدم التعرض للبنان ، وان ينحصر نشاطهم في المناطق التي سلخت من دمشق وضمت الى لبنان الكبير ، وعلى الاثر انسفوا

جسر الخردلة على نهر الليطاني بين النبطية ومرجعيون ، ووجه زيد الاطرش بياناً جديداً الى وجوه واعيان المسلمين والنصارى في جبل لبنان بين فيه اسباب الثورة على فرنسا واهدافها ، وحذر من دسائس الفرنسيين الذين يريدون بفتنتهم أن يفرقوا بين المسلمين والمسيحيين ، وهم شعب عربي واحد ، وكشف أساليبهم في الدس والفتنة ، وتسليحهم بعض المخدوعين من النصارى ، وتجريدهم المسلمين من السلاح ، ليحرفوا الثورة عن هدفها الوطني ؛ وجرها الى مذابح دينية وطائفية ، وكان من ثمار هذه الفتن حادث كوكبا المؤسف ، وكيف ان عصابة العملاء قتلت كاهن القرية ، وكيف حشدت قواتها في جديدة مرجعيون ، وأرادت جر الحملة الوطنية الى حادثة ثانية بتعرضها الى مزرعة « برغز » ، وجر المجاهدين الى كمين مبيت في الجديدة ، ولكن النتيجة كانت الفشل ، وهزم المعتدون ، وناشد البيان عقلاء الطائفتين أن يقفوا دون هذه الدسائس والمؤامرات ، التي يريد بها الفرنسيون خلق فتنة بين أبناء الوطن الواحد ، والاثار قضية حدود لبنان وحدود سورية ، فهي قضية تبحث بين الأخوة ، بعد الخلاص من المستعمرين الغاصبين ، واذا استولت القوات الوطنية ، لضرورة عسكرية على أمكنة معينة في لبنان ، فلا داعي للقلق ، اذ لا علاقة لذلك بالحدود ، وانما يكون تنفيذاً للخطة التي تهدف لاجلاء الاجنبي الذي لم يرحم اطفالنا ونساءنا في جبل حوران ، فألقى عليهم في بضعة أسابيع ما يزيد على ثمانئة الف كيلو من المتفجرات ، فهل ترون ، بعد هذا ، من الشهامة والمروءة ان تكونوا أنصاراً لهذه الدولة الاستعمارية الغاشمة ، وهل من مصلحتكم ان تخلقوا عداً بينكم وبين إخوانكم سكان الداخل ، وهم الأكثر عدداً ، وهم المصممون على ان يتخلصوا من الانتداب الفرنسي ، ولو اضطروا الى محاربة كل من شاء ان ينتصر لعدوهم . وقال زيد الاطرش في نهاية بيانه : « واني لفي انتظار جوابكم لنعلم هل هذا البيان كاف لازالة ما علق بأذهان بعضكم من الخطأ الناتج عن الدعايات المغرضة الكاذبة ام غير ذلك . » فكان لنشر هذا البيان اثر طيب لدى الوطنيين اللبنانيين

من مسلمين ومسيحيين ، اذ وصل وفد من النبطية وجبل عامل الى حاصبيا يطلب من الحملة الوطنية ان تتقدم الى مناطقهم ، وانهم مستعدون لاشعال نار الثورة فيها لاجلاء الفرنسيين ، فأفهم اعضاء الوفد ان القيادة قررت عدم التجاوز على حدود لبنان ، دون المناطق التي سلبت من سوريا الداخلية والساحل السوري



المجاهد سعيد الاظن من دمشق اشترك في معارك

وادي التيم والاقليم

والحقت بلبنان ، اذا لم تجد نفسها مضطرة الى ذلك . اما اذا شاء سكان لبنان ان يثوروا في مناطقهم ، فإننا سنؤيد ثورتهم ونندعمها وننجدها اذا طلبوا منا ذلك .

معركة راشيا واقتحام قلعتها

- ٤٠ -

وصل وفد من أهالي راشيا الى حاصبيا يستنجد بالحملة الوطنية ويستغيث بها لأن الحامية الفرنسية في قلعة راشيا تسوم الدروز أنواع الظلم والاضطهاد ، متذرة بانهم موالون للثورة ، مما اخرج بعض شبان الدروز عن هدوئهم ، ودفعهم للاصطدام مع الجند صداماً مسلحاً أسفر عن سقوط قتلى من الجانبين . وعلى الاثر تحصن الفرنسيون وعملاؤهم في القلعة ، وهي قلعة حاصبيا ، يسمونها « السراي » دار من دور الامراء الشهابيين الذين كانوا يحكمون وادي التيم وأجزاء أخرى من لبنان ، تسيطر على البلد ، وتشرف على الوادي والطريق المؤدية الى البلد من الشمال ، وأخذوا يطلقون نيران أسلحتهم على الاهلين الذين وجهوا وفدهم مستنجدين ، وسرعان ما دعا زيد الاطرش الى اجتماع تقرر فيه نجدة راشيا بقوة على رأسها أسد الاطرش ، وحمزة الدرويش ، وشكيب وهاب ، ورافقها نزيه المؤيد العظم ، وصبري فريد البديوي ، وغيرهما من الدمشقيين ، ولحق بها خلق كثير من عشيرة الفاعور وأهل منطقة العرقوب . وكانت قوة الثائرين تواجه في طريقها النازحين عن راشيا من أسر الدروز ، وهم بحال يرثى لها ، فوصلت الى راشيا قبيل فجر الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني ، وانقسمت الى اربع فرق ، كل فرقة أخذت موقعها ازاء جانب من جوانب القلعة . ولما تنفس الصبح ، وتعارفت الوجوه ، بدت القلعة أمام الثائرين عامرة ، حصنت نوافذها واسطححتها بالحجارة وأكياس الرمل ، وركزت وراءها الرشاشات ، وشعرت حامية راشيا بقوة المجاهدين ، وأخذت تصلبهم من نيران اسلحتهم ، وقنابلها اليدوية ، وقذائف مدافع الهاون ، وقابلوها برصاص بنادقهم ، ثم كفوا عن اطلاق الرصاص ، لان ذخيرتهم قليلة ، ولان الرصاص

لا يؤثر بالقلعة وحصونها ، واخذوا يفكرون بوسيلة لاقتحام القلعة . وفي الليل اجتمع القادة والزعماء في راشيا يبحثون الخطة التي تمكنهم من القضاء على الحامية في القلعة الحصينة . وكانت الحامية هدمت من قبل المنازل الملاصقة للقلعة ، واقامت حولها من الجهات الاربع الاسلاك الشائكة الكثيرة ، فوجد المجاهدون أن الوسيلة الوحيدة للاقتراب من القلعة هي في فتح ثغرات في جدران بعض المنازل التي تهيء للمجاهدين طريقاً مستترة تجعلهم على مقربة من القلعة ، وافتتحت الثغرات حتى استطاع المجاهدون ان يصبحوا من جهة الجنوب على مقربة من الاسلاك الشائكة في اسفل جدران القلعة . ولما كان من الصعب الدنو من القلعة والاسلاك الشائكة قبل ازاحة الجنود المحاصرين من حصونهم المطلة على المكان ، شرع المجاهدون بفتح ثقب لبنادقهم في جدران المنازل المقابلة للقلعة ولتحصينات الجنود على سطوح القلعة ، وفي نوافذها . وتقدم المجاهدون يطلقون بشدة ، من ثقب تلك الجدران ، نيران بنادقهم على الجانب الذي يواجههم من القلعة ، حتى أكرهوا المتحصنين في نوافذه وسطحه على الابتعاد عنها ، وتقدم بعض المجاهدين نحو الاسلاك الشائكة ، ولكنهم فوجئوا بوابل من القنابل اليدوية ومدافع الهاون تتساقط عليهم من الجنود الذين عرفوا خطة المجاهدين لاقتحام القلعة ، فجعلوا من المكان جحيماً بقذائف مدافع الهاون وبرماتهم اليدوية ، فقتل وجرح عدد من المجاهدين ، ولكنهم في النهاية استطاعوا ان يقتلعوا الاسلاك الشائكة ، وجاءوا بسلمين طويلين من الخشب شدوا الواحد الى الآخر ، كي يبلغا ارتفاع الجدار الذي يزيد على بضعة عشر متراً ، وصعد المجاهدون على السلم الواحد تلو الآخر . وكان في مقدمة الصاعدين شاب من آل الجربوع في السويداء ، ما كاد يصل الى اعلى السلم ، ويتسلق الحصن حتى أردته رصاصة فهوى شهيداً الى ارض الحصن ، فصعد وراءه مجاهد ثان صرع أيضاً برصاص الجند ، وهوى من اعلى السلم الى الارض ، أما الثالث فقد تسلق والقى على الحصن رمانة يدوية ، اتبعها بثنائية وثالثة ، انفجرت كلها ، واقتحم الحصن بعد ان تأكد ان حاميته اصبحت بين

قتيل وجريح ومنهزم ، ولحق به عدد من اخوانه الدروز والدماشقة ومجاهدي
البقاع الذين اخذوا يلقون رمات يدوية على حصون القلعة ، ويردون الجنود
برصاص بنادقهم ، فذب الرعب في قلوب الجنود من هذه المباغثة الجريئة ،



مجاهد صغير اشترك في معارك حاصبيا وراشيا

واخذوا يفرون الى داخل القلعة ، ولجأ عدد كبير منهم الى مهجع كان سقفه
الحشي قريباً من الحصن الذي احتله المجاهدون ، فطلب هؤلاء من اخوانهم

نفطاً ، فوافوهم بطريق السلم بصفيحة منه ، أخذوا ينقعون بنفطها كفياتهم ، أي غطاء رؤوسهم ، ويشعلونها ، ويلقونها على السقف حتى اشتعل ، وتساقطت نيرانه على المحاصرين في المجمع ، فذعروا ، وفروا الى الاقبية في الدور الارضي من القلعة ، يطلقون منها الرصاص ، وأسهماً نارية مضيئة حمراء ، كانت تضيء الفضاء فوق القلعة ، وهي شارة الخطر وطلب النجدة . وخلال ذلك وجد المجاهدون المحيطون بهذا الجانب من القلعة ممراً ضيقاً إلى القلعة سد بالحجارة ، فاقتلعوها ودخلوا القلعة يهزجون ، وحدائهم يقطع نياط قلوب المحاصرين ، ثم استطاعوا أن يحطموا باب القلعة ، ويدخلوا منه مهللين مكبرين ، وأحاطوا بالأقبية التي حوصر فيها الجند ، ولكن الطائرات الفرنسية وصلت في تلك اللحظة ، وأخذت تحوم فوق القلعة ، وتلقي قنابلها على القادمين الى البلدة والخارجين منها ، ولم تلق قنابلها على البلدة خشية أن تصيب القلعة ، وفيها الحامية الفرنسية ، ولكنها ألقت صناديق خشبية صغيرة ، سقط احدها بيد المجاهدين ، واذا فيه أمر عسكري موقع من الجنرال « غاملان » القائد العام لجيوش الشرق في سوريا ولبنان ، موجه الى قائد الحامية هذا نص ترجمته : « ستصل النجدة الى راشيا في الوقت المقرر لكي تحيط بالدروز . نهنئكم على دفاعكم المجيد » .

وفي هذا الوقت شغل المجاهدون الذين اقتحموا القلعة بالاستيلاء على الخيل والبغال والاسلحة والذخائر والعتاد - شغلوا بها عن الانقضاء على أقبية القلعة وإلقاء الرمانات اليدوية على المحاصرين الذين يدافعون عن أنفسهم ، وقد أصبحوا على آخر رمق ، لولا هذا الامر العسكري الذي يبشرهم بسير الحملات لنجدتهم ويشد من عزائمهم على الثبات إلى ان تأتيهم النجدة . ومع ذلك فقد استسلم عدد من رجال الدرك اللبنانيين كانوا محاصرين في إحدى غرف القلعة ، فأطلق المجاهدون سراحهم ، بعد الاستيلاء على أسلحتهم ، كما استطاع نزيه المؤيد العظم الذي كان في الحصن الاول الذي احتله المجاهدون في أعالي القلعة ، ووقعت بيده نسخة من الامر العسكري ، ان يهبط إلى باحة القلعة ، ويحذر إخوانه من عاقبة

الانشغال بالسلب والنهب ، وهي العادة القبيحة التي كثيراً ما كانت سبباً في فشل الحركات الحربية التي كان ينظمها القادة المخلصون في الثورة ، ولكن احداً لم يصنع لإنذاره ، بل اخذوا يخرجون من القلعة محملين بالغنائم متجهين نحو حاصبيا ، تاركين الحامية في الأقبية ، ومن لم يصبه غنم من القلعة سارع إلى نهب حوانيت البلدة ومخازنها ، وسلب الاقمشة والبضائع ، ولم يبق داخل القلعة إلا النزر اليسير من المجاهدين بينهم شكيب وهاب ، ومع الغروب بانث طلائع الحملات الفرنسية القادمة من لبنان لنجدة حامية راشيا فاضطر الباقون في القلعة ، وهم قلة ، الى الخروج منها ، والاتجاه لمقابلة الحملة الكبيرة القادمة من الشمال . وكانت الحملة تسير في ببطء بظلام الليل ، وتصعد المرتفع الذي تقوم عليه بلدة راشيا ، في ضوء الانوار الكاشفة ، والاسهم النارية التي كانت تطلقها حتى صدمتها شرذمة المجاهدين ، ووقوفها بضع ساعات ، رغمًا عما اطلقته من نيران حامية على المجاهدين الذين كادت ذخيرتهم تنفذ ، فاضطروا الى الانسحاب في جنح الليل ، وعادوا الى راشيا التي فر منها اكثر اهلها ، وانسحب منها النهابون من الثائرين ، وتخلوا حتى عن عشرات الجرحى من إخوانهم او من الغرباء الذين اشتركوا في معركة راشيا ، والذين كانوا نقلوا الى منزل الشيخ نعمان زاكية وافراد أسرته ، فقد صرعهم رصاص الجند ، واجهز على الجرحى كلهم ، واحرقت الحملة الفرنسية بعض المنازل والاسواق ، وانسحبت شرذمة المجاهدين التي صمدت ساعات للحملة الفرنسية الكبيرة ، بطريق « العرقوب » الى قرية « شبع » . ولقد جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق حول الدفاع عن راشيا من ٢٠ الى ٢١ تشرين الثاني ما يلي : « في الايام الاخيرة من تشرين الاول كانت تجريدة سريعة من الخيالة والدرك تعمل في ناحية حرمون الغربي على قمع الشقاوة التي اتسع نطاقها بسرعة حتى كاد يتناول لبنان الجنوبي . وزادت الحال توتراً وخطورة ، فاستقر الجيش في قلعة راشيا يوم الخامس من تشرين الثاني . والقلعة تشرف على البلدة التي يقطنها ثلاثة آلاف نفس ، نصفهم دروز ، ونصفهم مسيحيون ، وتسلط من الشمال على الوادي الذي ينتهي الى البقاع ، ومن الشرق على مضيق حرمون ، ومن الجنوب الغربي على السبل المؤدية الى حاصبيا . وهذه القلعة حصن فرنسي قديم يشارفها قسم

من البلدة . وكانت حاميتها بقيادة الكابتين « غرانجر » من فيلق الصباحيين الثاني عشر مشتملة على الكوكبة الرابعة من فيلق الصباحيين الثاني عشر (الكابتين غرومار فياي) ، والكوكبة الرابعة من الفيلق الأجنبي الاول (الكابتين لاندريو) ، ومفرزة الرشاشات التابعة لفيلق الصباحيين الثاني عشر ، والليوتنان « تينه » ومئة جندي من الدرك اللبناني .

في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني اغلقت الاسواق في راشيا ، وتهيأت القلعة للدفاع ، فبوشرت أعمال التحصين بنشاط ، ونظمت اماكن الرشاشات ، وأعدت مراكز راشقي القذائف ، واقامت الجدر حول نوافذ المنازل والأقبية ، وطوقت القلعة بشبكته من الأسلاك الشائكة ، وهدمت بعض منازل القرية ، تقوياً لخط الرماية . في اليوم الحادي والعشرين من الشهر قطع الدروز جميع سبل المواصلات ، فلم يبق لدى القائد لتأمين اتصاله بالخارج إلا ست حمامات زاجلة . فلما بزغ الفجر شرع العدو بالمهاجمة متسرباً الى بيوت القرية ليصبح على مقربة من صفوفنا ، واحتل الهضاب والصخور في الجنوب الشرقي ، فارسل منها ناراً حامية اردت من جنودنا أربعة وجرحت خمسة عشر . وفي منحنى النهار أصبح على تماس بالمدافعين ، رغم التقذيف الشديد الذي قابلته به اسلحتنا الاوتوماتيكية . وفي ٢٢ تشرين الثاني حاول الدروز تقطيع شباك الاسلاك ، ولم ينفكوا عن الهجوم طوال النهار بالبنادق والقذائف ، بينما كان رماثهم الحاذقون يسددون الرصاص من البيوت والصخور القائمة في الجنوب الشرقي من القرية ، كأنهم قصدوا الى شل عمل الدفاع . وفي منتصف الساعة التاسعة قتل الكابتين « غرانجر » برصاصة اخترقت صدغه . وعند الظهيرة شد الدروز بعنف على الجانب الجنوبي . على ان جنود الفيلق الأجنبي ثبتوا ثباتاً حسناً ، وقابلوا المهاجمين بالقذائف ، بيد ان الذخيرة آذنت بالنفاد ، فصدر أمر القائد الى الجنود ان يتحرزوا بإنفاقها . وكان التعب قد أدرك المدافعين ، ولكنهم استمروا على رباطة جأشهم ، وعززت معنوياتهم رسالة ألقتها إحدى الطائرات منبئة ان الحامية ستنقذ حوالى اليوم الرابع والعشرين . ما ازفت الساعة الخامسة صباحاً حتى حمل العدو على

الجهة الجنوبية بالقذائف تمهيداً للهجوم العام . وفي الساعة الثامنة اغار على حين غرة ، فتمكن من تسديد القذائف على البرج مرات عديدة ، فتلاشى وانعدم عمل الموقع الذي استقر فيه مطلقو البواريد الرشاشة ، وراشقو القذائف ، فاستطاع الدروز ان يتسلقوا السلام الى البرج ، واستطلوا من الجنوب على القصر وسطوح الساحة . وفي هذه الاثناء كان العراك حامي الوطيس عند مدخل القلعة الصغير ، لان العدو تمكن من ولوج نفق تحت البيت الذي يتسلط على ذلك المكان . اما الليوتنان « كاستان » فاستمر صامداً مع جنود الفيلق الاجنبي والصباحيين في الطابق الاعلى . وانتظمت مفرزة الصباحيين الاحتياطية بقيادة معاون الضابط الخيال « ميغرو » في خط المقاومة وراء البيوت القائمة في الجانب الجنوبي ، بينما كان الدروز يغيرون على البرج ، فيكادون يصلون اليه . وحاولوا عبثاً اعمال النار في أرجائه . وجرح الليوتنان « مودرانو » بعمار ناري تناوله عن كعب . وفي الساعة الثامنة والنصف أرغم جنود الفيلق الاجنبي على التخلي عن البرج نهائياً ، وعن البيت القائم عند المدخل الصغير . وفي منتصف الساعة التاسعة استقر الدروز نهائياً في البرج ، وشرعوا يصوبون النار على حماة الساحة ، ويقتلون الجياد . وفي هذه الاثناء اكتشف الدروز سرداباً ينفذ إلى الساحة ، فسلكوه ، وتخرج الموقف في الساحة ، فأغار الليوتنان « ديغاري » على رأس رهط من جنود الفيلق الاجنبي والصباحيين ورجال الدرك ، وانطلقوا برؤوس الحراب ، فاستعادوا السرداب والبيت الذي يعلوه ، فتعدلت وضعية الدفاع . وفي الساعة السابعة عشرة نفدت القذائف ، فوزعت الخرطوشات الاخيرة على رجال الحامية ، وانقضى عصر النهار بانتظار النجدة المطلوبة ، وأبصر الارصاد لدى الساعة العشرين سهماً نارياً أخضر ينطلق على بعد بضعة أميال في السهل ، وابعثته بعد نصف ساعة اربع طلقات مدافع من شمالي القرية ، وظهرت في الوقت نفسه علامة نارية تشير الى فيلق الصباحيين السادس .

وقد ورد في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ، وفي الصفحة ١٧١ منه صورة لامر عسكري برقم ٣٩٣ مؤرخ في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٢٥ هذا نصه : « ان

الجنرال القائد الأعلى للجيش الافرنسي في الشرق ينوّه في الجيش بفصيلة الكابتين « غرانجر » الذي سقط في ساحة الشرف أثناء المعارك ، وخلفه في القيادة الكابتين « غرومار فياي » ، وهي تشتمل على الكوكبة الرابعة لفيلق الصباحيين الثاني عشر ، ومفرزة الرشاشات ، والكوكبة الرابعة التابعة لفيلق الفرسان الأجنبي الأول ، والمعقود اللواء للكابتين « لاندريو » ، والليوتنان « تينه » قائد فريق من الدرك اللبناني الذي قتل في ساحة الشرف ، ويمنحها الصليب الحربي ، فقد وكل اليها ان تحمي قلعة راشيا فدافعت أربعة أيام أمام هجمات العدو المتكررة ، وسطرت بين تلك الجدران التي تتحدث بماضي السلف المجيد ، صفحة من الاساطير تسامي أروع ما في حروبنا البعيدة من المعارك . وقد صمدت حتى الرصاصة الاخيرة ، وحتى وصول النجادات التي دحرت الثوار .

يجمل بنا ان نشرك في بطولة الحامية امرأة ورجلاً من سكان البلدة : ان السيدة مريم ابنة ابراهيم النحاس وزوجة الخوري السرياني الكاثوليكي يوسف طعمة أبصرت الرسالة التي رمتها احدى الطائرات في ٢٢ تشرين الثاني ، واذ رأتها تسقط خارج القلعة ، والهجوم على اشده ، هرعت الى التقاطها ، وجدت الى ايصالها الى الحامية ، وتمكنت من بلوغ السور على ان الرصاصة التي أصابت ذراعها الايمن منعته من التمسك بالحبل الذي القاه المدافعون لجذبها ، بيد ان هؤلاء خرقوا الحائط ، فاستطاعت ان تنسل الى داخل القلعة ، تحت نار الثوار . وقد كوفئت على جراتها واندفاعها بوسام الحرب ، وبالاستحقاق اللبناني من الدرجة الاولى .

اما السيد مالك من راشيا فلم ينفك منذ بدء الاضطرابات عن مرافقة الجيش الفرنسي دليلاً ومترجماً ، وقام في القلعة مع المدافعين أثناء الحصار ، فدافع الى جنبهم بشجاعة فائقة ، فاثيب بالوسام الحربي والاستحقاق اللبناني . « . »

ان ما سطرته اقلام الفرنسيين في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق على ما فيه من كذب عن نفاق العتاد والذخيرة من الحامية ، ليشهد على البطولات الرائعة

التي سطرها المجاهدون الذين اقتحموا حصون قلعة راشيا ، ولولا ان المجموع التي دخلت القلعة من السرداب والباب شغلت بالكسب والغنائم عن القتال ، لاستسلم المحاصرون في الاقبية من جنود الحامية وضباطها ، ولكانت قوات الثورة التي تفرقت وغادرت ارض المعركة حرصاً على الغنائم ، قادرة على صد الحملة التي خفت لنجدة الحامية ، لأن القلعة ، وموقع راشيا المنيع ، والاسلحة والعتاد الذي أصبح بين ايدي الثائرين كافٍ لصد الحملة الفرنسية الآتية من السهل الشمالي وهزيمتها ، ولكنها ليست المرة الاولى التي تذهب ريح الطمع وحب الكسب بالنصر الذي يصبح قاب قوسين او أدنى من المجاهدين في معاركهم مع فرانسة .

الحياة رتيبة في جبل الدروز

- ٤١ -

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عاد الى جبل الدروز في الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول ، يرافقه نزيه المؤيد شقيق زوجته ، بعد ان لاحقه الانكليز في حيفا ، وفر هو ، وقبض على جميل مردم . وقد حدثنا الشهبندر بعد عودته ، انه تعرض لخطر القبض عليه في طريق العودة ، فقد اصبح هو ونسيبه ودليلهما من أهل المنطقة على مقربة من قلعة بصرى الحرير في حوران ، حيث اقام الجيش الفرنسي في قلعتها حامية ، ومثلها في قلعة بصرى الشام ، لدى كل منهما مدفع تقصف به قرى جبل الدروز القريبة منها ، فاسرع الركب يبتعد عن بصرى الحرير في اتجاه الجبل ، واذا بأربعة فرسان مسلحين يلحقون به من القرية ، ويصادرون بندقية الدليل ، ثم يبدأون بالتحقيق عن هوية افراد الركب ، فيسأل احدهم الشهبندر عنها ، ومن اين هم قادمون ، والى اين ذاهبون ؟ ، فقال لهم الشهبندر : « اننا من منكوبي دمشق ، هجرناها ، بعد ان احترقت منازلنا ، ونحن هائمون في حوران لنجد لنا مأوى في احدى قراها ! » ، فقال الحوراني :

« ان الضابط الفرنسي قائد حامية القلعة شاهدكم بالمنظار ، وأمرنا بأن نلحق بكم ، ونحضركم اليه ليحقق عن هوياتكم ، فلا بد من مجيئكم معنا .. » ، وحاول الشهبندر بكل ما وهبه الله من زلاقة لسان ان يستدر عطف هؤلاء الاجلاف ، وتظاهر بالضعف والبؤس ، واكثر الشكوى مما اصابه وأصاب اهل دمشق من القصف والحريق والتقتيل ، ولكن كل هذا لم يحرك عاطفة الرحمة في قلوبهم . ولما رأى ان لا مناص من الانقياد لأسريه ، اخرج من جيبه عدة بطاقات للزيارة مطبوعة بأسمه ، ومزقها إرباً تحت عباءته ، والقاهها جانباً ، ولكن احد الفرسان شاهد قطع الورق ، وترجل بسرعة يلتقطها ، ويضم مزقها ليقرأ الاسم ، وسأل الشهبندر عن اسمه فقال : « عبد الرحيم ! » وسأله عن كنيته فقال : « شاهين ! » ، قال الحوراني : « وهذه الرء في آخرها ؟ .. » قال الشهبندر : « شاهيندر .. ياسيدي ! » فقال الحوراني : « لم اسمع بحياتي بعائلة « شاهيندر » فما هذا اللقب ؟ .. » ، قال : « اصلنا اترك .. وهذا اللقب انتقل الينا من جدنا التركي ! .. » قال الحوراني : « اذن انتم مسلمون ؟ » ، قال نعم .. والحمد لله .. ونحن منكوبون ، فلا تأخذنا الى هؤلاء الظالمين الذين دمروا بيوتنا ، واحرقوها ، وفيها اطفالنا ونساؤنا .. دعنا نذهب في سبيلنا نسعى لان نجد ملجأ ومأوى لنا .. » ، ومد يده فاخرج من جيبه بعض قطع النقود الفضية « ريات » ، وضغطها في يد الحوراني ، فانشنى هذا يقول الرفاقه : « ان الجماعة مسلمون منكوبون ! . فلنتركهم يذهبوا وشأنهم ! .. » ، وابدى هؤلاء رضاءهم ، بعد ان نفحهم الشهبندر ببعض النقود . وهكذا تخلص الشهبندر والمؤيد من الوقوع بأيدي الفرنسيين على أهون سبيل ! .. ولما بلغا الجبل مكث فيه الشهبندر ، ورافق نزيه المؤيد حملة زيد الاطرش ، وعادت حياة الجبل ، بعد انسحاب الفرنسيين هادئة ، رتيبة بالنسبة لاهله ، لولا المدفعية الفرنسية التي كانت تقصف كل يوم قرى « بككة » ، و « القرية » و « ام الرمان » من قلعة بصرى الشام ، وقرية ونجران وغيرها من قلعة بصرى الحرير ، ولولا الغارات الجوية التي كانت تشنها الطائرات الفرنسية على قرى الجبل ، وتلقي عليها ما تحمل من وسائل الخراب والدمار ،

ولا يخفف من وقعها ، الا المحاربون الدروز الذين كانوا يقابلونها برصاص بنادقهم ، فتضطر للتخليق عالياً حتى لا يدركها رصاصهم ، وتخطىء اهدافها في القصف من علٍ ، وتسقط اكثر قنابلها في اطراف القرية وخارجها . كانت الطائرات المغيرة تلقي احياناً قنابل من الوزن الثقيل على اهداف معينة في الجبل ، تحمل الطائرة منها قنبلة او قنبلتين ، فتفتح القنبلة الكبيرة حفرة في الارض عمقها بضعة أمتار ، وقطر دائرتها اوسع ، واذا اصاب منزل دمرته وما حوله من المنازل ، ودكتها فوق سكانها دكا . ولما كثرت الغارات على بعض القرى ، وخاصة السويداء ، اخذ الاهلون يجلون نساءهم واطفالهم الى القرى الشرقية البعيدة تحاشياً لها .

لقد صادفت في الاسابيع القليلة التي قضيتها في جبل الدروز اكثر من عشرين غارة جوية قامت بها الطائرات على القرى التي كنت اتنقل بينها ، منها غارة قامت بها خمس طائرات ، واخرى قامت بها ثماني طائرات ، ومرة خمس عشرة طائرة . وصادفت في السويداء غارة قامت بها احدى وعشرون طائرة قاذفة . وكانت السويداء ، بعد انسحاب جيش « غاملان » من الجبل تقصف كل يوم ، حتى اصبحت الغارة اليومية كوجبة تأتي في موعد محدد من النهار .

الفصل الثامن

السفر الى الغوطة

- ٤٢ -

قضيت في جبل الدروز نحو خمسين يوماً ، انفقت خلالها ما تبقى معي من نقود ، وتحملت شظف العيش في المأكل والمشرب والمبيت ، وكنت أقطع أحياناً في اليوم الواحد الثلاثين والأربعين كيلو متراً مشياً على الأقدام في تنقلي بين القرى ، وأنا أنتظر أن تسلمني القيادة ، فقد كنت انفقت على نفسي وعلى رفاقي منذ ارتبطت بثورة حماة أكثر من خمسين ليرة ذهبية ، كانت كل ما املكه في ذلك الحين . وكان العقيد فؤاد سليم يشجعني ، ويشحن من عزمي ، كلما قابلته في الجبل ، بكلماته الصادرة من قلب مملوء بالآيمان وحب الوطن ، ويطمئنني بقرب وصول إعانات مالية ، ومساعدات لقيادة الثورة من البلدان العربية الشقيقة ، تمكن من شراء سلاح وراحلة لي ولبعض إخواني . وقد سمعت مرة أن مبلغ سبعة وخمسين جنيهاً وصل من مصر إعانة للثورة ، وأن سلطان الأطرش اشترى منها بندقية وجوادة لزميلي خير الدين اللبابيدي ، وبندقية لسعيد العاص ، وبنادق أخرى لزمي الدروبي ، ونصري سليم ، وسعيد الياني ،

- ٣٢٣ -

وثلاثة بغال للأثقال والذخائر التي يريد العقيد فؤاد سليم استخدامها في مسيره مع حملة زيد الاطرش ، وسافر هؤلاء الرفاق ، بعضهم الى الغوطة ، وبعضهم الى اقليم البلان ووادي التيم . وكنت كلما ذكرت سلطان الاطرش بوعدده ، أمني خيراً ، واستمهلني متذرعاً بأنه لم يجد لي راحة بسعر معتدل وشكالي قلة المال بيده ، مما جعلني اقدر ان هناك من الرفاق من أبلغه أن معي مالاً أخفيه عنه ، ولا أريد ان أشتري سلاحي وراحلي به . والحقيقة انني كنت أحمل معي بضع عشرة ليرة ذهبية يوم وصولي الى الجبل ، هي ما تبقى لدي ، بعد دفع اجرة السيارة من عمان الى



المجاهدون ابو عمر ديبو ، وحسن رعد ، في الصف الاول ، والأمير احمد الشهابي الى اليمين في الصف الثاني وإخوان لهم

جبل الدروز ، وكنت بهذا المبلغ استطيع ان اتسلح واشتري دابة من غنائم الجيش الفرنسي ، ولكنني اطمأنيت لوعده الدكتور الشهبندر بان قيادة الثورة على استعداد لتسليحي وتسليح اخواني السوريين ، وايفادنا الى الغوطة لنؤلف أول عصاة في رياضها ومعقلها ، لذلك أنفقت هذا المبلغ علي وعلى رفاقي الذين كانوا لا يملكون شيئاً من النقود ، وكثيراً ما كنا نأكل من الحوانيت ، لا نحمل مضيقنا عبء اطعامنا ، لاننا كنا نعلم ما يعانيه سكان الجبل ، في تلك السنة ،

من القحط والجفاف ، وأكثرهم فقراء ، يقدمون أحياناً من الطعام ما لا يقيت ويسد الرمق ، حتى لم يبق معي غير ليرة ذهبية واحدة . وأخيراً ، وبعد إلحاح على سلطان الاطرش ، واطلاع الشهبندر على حقيقة وضعي المالي ، استدعاني سلطان ، وأبلغني أنه اشترى جواداً بخمس عشرة ليرة ذهبية لركوب العقيد فؤاد سليم ، سيرسله معي كي أسلمه اليه في وادي التيم ، ويعطيني الجواد الذي يركبه ، فقد علم أن فؤاد سليم غير مرتاح لركوب جواده ، وهو من خيل الفرنسيين التي غنمها الدروز في المعارك ، واعتذر لي بأنه لم يعد لديه مال لشراء بندقية وعتاد لي ، فاضطرت ان أبيع ساعتى من طراز « زينيت » ، وخاتمي الذهب ، واضيف ثمنها البئس في الجبل ، الى الليرة التي معي ، واشترى بندقية فرنسية طويلة السبطانة ، خاصة بالمشاة ، وغادرت السويداء في اليوم السادس من تشرين الثاني عام ١٩٢٥ برفقة العقيد سعيد العاص ، وحسني صخر قائد الدرك السابق في حكومة جبل الدروز ، وثلاثة عشر من خيالة الدروز ، وعلاء الدين المسوتي من دمشق ، في طريقنا الى الغوطة .

مررنا في طريقنا ، بقريتي عتيل ، ومردك ، وبلدة شهباء ، وقريتي اللاهثة ، والرخيمة ، وبتنا ليلتنا في الرخيمة في منزل آل عزالدين الحلبي ، والحلبية احدى العائلات الثلاث الكبرى في جبل الدروز ، تأتي بالترتيب بعد آل الاطرش في العدد ، واكبر هذه العائلات آل عامر .

توجهنا صباح السابع من تشرين الثاني من الرخيمة نمر بقري : خلخلة ، والصورا الصغرى ، والصورا الكبرى ، وهي آخر قرى الجبل في طريقنا الى الشمال ، واجتازنا قفراً بين الجبل وقرى المرج بثماني ساعات ، حتى بلغنا قرية « دير الحجر » من قرى المرج . وبعد راحة قصيرة ، وبزوغ القمر ، تابعنا سيرنا الى قرية « شبعاء » في طرف الغوطة حيث قضينا ليلة فيها .

تابعنا في صباح الثامن من تشرين الثاني سيرنا الى قرية « دير العصافير » ،

ومنها الى قرية « زبدین » ، فوجدنا فيها شباناً من مجاهدي دمشق ، أبلغونا أن محمد عز الدين الحلبي ، وكان مديراً للعدلية في حكومة جبل الدروز ، وعين قائداً لمنطقة الغوطة ، سرى ليلاً ليهاجم مع الفجر بقواته الحامية الفرنسية المربطة في معمل الزجاج خارج الباب الشرقي من دمشق ، وانه سيعود الى زبدین ، فلم يطل بنا المقام في « زبدین » حتى عاد بقواته اليها ، وحدثنا بأنه هاجم بها حامية معمل الزجاج ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على الحصن لمناعته ، ويقظة حاميته ، وقوة نيرانها . وقد التقينا بخير الدين اللبابيدي ، وابي عبده ديب الشيخ ، وبشير البكري شقيق نسيب البكري الذين وصلوا الى الغوطة من الجبل قبلنا بيوم واحد . سرنا مع قوة محمد الحلبي ، في التاسع من تشرين الثاني الى قرية « سقبا » ، وفيها تلقى الحلبي كتاباً من رمضان شلاش في « قلمون » ، ينبئ بان الفرنسيين زحفوا بحملة صغيرة من حمص لاحتلال بلدة « النبك » مركز القضاء ، ولكنهم دحروا أمام دفاع الثائرين في البلدة . وكانت منطقة « قلمون » تحررت من الفرنسيين ، إثر وصول قوة من الثائرين تابعت زحفها من معلولا الى الى النبك ، وأخذ شبان بلدة النبك وقرى قلمون يتسلحون ، بعد تفرق قوات الثورة التي كان جمعها الطمع وحب الكسب من بلدهم . وقد وصل بعدئذ الى النبك حسن الخراط مع عدد من رجال عصابته ، وعصابة اولاد عكاش ، لا يزيد أفرادها على الثلاثين مسلحاً ، جاءوا اليها ابتعاداً عن الغوطة التي اخذ يكثر فيها زحف الحملات الفرنسية لإنشاء مخافر فيها حاميات افرنسية غايتها تطويق الغوطة وفصلها عن المرج ، فأحدثت مخافر ثابتة في دوما ، والمحمدية ، واوتايا ، وحوش خرابو وغيرها لتحدد من تنقل عصابات الثائرين في ارجاء الغوطة ، ولتشعر سكان المنطقة بأن فرنسة قوية ، وغير محاصرة في مدينة دمشق ، حتى لا تستفحل الثورة حول دمشق . وقد جاء للفرنسيين ، في أثناء ذلك من عيونهم ، ان قلمون خلت من العصابات ، فجهزوا ، على ما يظهر ، حملة صغيرة لاسترداد بلدة « النبك » ، وارجاع حكومة القضاء اليها ، وجهوها من حمص ، لا يعدو أفرادها المئة جندي نظامي ، وفصيل من الدرك ، جاءت

بالسيارات ، تتقدمها ثلاث سيارات مدرعة . ولما بلغ الثائرين في بلدة النبك خبرها ، وبينهم عصابة الخراط ، أرسلوا يستنجدون بجمعة سوسق واخيه احمد سوسق في قرية « رنكوس » ، فجاء الاول بعدد من مسلحي قريته والقرى



السلاح دوماً بأيدي المجاهدين

المجاورة لها في الجرد ، وانضم الى مسلحي النبك وعصابة الخراط ، وكمن الجميع في بساتين بلدة « النبك » التي تقع الى شرقي طريق السيارات من شمال النبك . ولما أطلقت الحملة بادروها بوابل من الرصاص ، وهي في سياراتها ، فأصيب الكثيرون من جنودها ، وقتل ضابط فرنسي ، وأسر ضابط الدرك واكثر جنود فصيلته ، وفر سائر جنود الحملة في اتجاه مدينة حمص . وقد جرد رجال الدرك من السلاح ، وأخلي سبيلهم ، وغنم الثائرون أربعة رشاشات ثقيلة ، وعدة

بنادق ، وعشرة صناديق عتاد ، وثلاث سيارات نقل ، وفرت

المدرعات مع سائر السيارات تحمل المنهزمين ، واكثرهم مثخن بالجراح . تقاسم المنتصرون الرشاشات والسيارات ، وخص حسن الخراط منها برشاشين . وبعد هذه المعركة دخل حسن الخراط بعصابته بلدة يبرود التي كانت تتمنع على الثورة لوجود طائفة مسيحية كبرى فيها ، وصادر بعض الآلات الموسيقية

النحاسية من فرقة المدرسة الطائفية التي يرعاها الدير في يبرود ، وأخذ أفراد عصابته ينفخون بابواقها ايداناً بالتجمع والنهوض والنوم ، على نمط ما يجري في الجيوش النظامية . وبعد بضعة ايام من المعركة عاد حسن الخراط واولاد عكاش الى الغوطة يتنقلان بعصابتها منفردين ، دون أن تربطهم بقوة محمد عز الدين الحلبي رابطة غير رابطة المجاملة .

الغوطة في مطلع عهد الثورة

تعد الغوطة أصلح مكان لحركات الثورة وحرب الانصار والعصابات ، لأنها أراض مشجرة كثيفة الشجر ، تمتد أشجارها عشرات الكيلومترات ، وتحيط بدمشق من ثلاثة أطرافها ، عدا الشمال ، وفيها أكثر من خمسين قرية ومزرعة مأهولة بالسكان الذين يعمل أكثرهم بالزراعة ، وبعضهم بالصناعة اليدوية والتجارة ، وهم فلاحون متحضرون ، منازلهم لا تقل اثاثاً عن منازل أكثر سكان دمشق في الأحياء القديمة ، واغنياؤهم ، لا تختلف منازلهم عن منازل الخاصة من سكان دمشق بفرشها ، ونظافتها ، وأسلوب ترتيبها . وفي قرى الغوطة حمامات عامة للاغتسال ، والمقاهي لا تخلو منها قرية ، والأسواق حافلة بالحوانيت والدكاكين ، فيها كل ما يلزم أهلها من حاجات يأتون بها من دمشق ، ويتعاملون بسببها مع تجار المدينة . ومناعة الغوطة او صلاحها لحرب العصابات يأتي من كثرة الشجر والأقنية والجداول والأنهر وجدران البساتين المصنوعة من الطين ، واحدة يسمى « الدك » ، ويقوم مقام السياج في صون البستان وتحديد حدوده . وفي بناء الدك يصب الطين في قوالب كبيرة من الخشب ، ويحفف ، ثم يبنى الجدار من قطع الطين المكيفة حسب القالب ، وهي قطع كبيرة ، قد تبلغ القطعة في سطحها متراً مربعاً ، او ما يقاربه ، ولا يقل ثخنها عن ثلث متر . وهذه الجدران تختلف في ارتفاعها عن الارض ، من المتر الى عدة امتار ، وهي بطبيعتها موانع تقي الثائرين نيران الرشاشات وقذائف مدافع المدرعات

والدبابات ، وان كانت لا تقوى على مقاومة قذائف المدافع المتوسطة او قنابل الطائرات . ولما كانت أرض الغوطة سهلاً لا يخلو من تعرج وانخفاض وارتفاع ، كثرت فيها الموانع التي تتخذ للدفاع ضد اكثر الاسلحة الآلية التي لا تجر الا على الطرق الممهدة والمعبدة . هذا عدا الدبابات التي هي سلاح قاطع مؤثر في الغوطة ، لا يقف في وجهها دك ولا قناة ولا جدول ، حتى ولا نهر صغير من أنهر الغوطة التي هي في حد ذاتها فروع وجداول لأنهر دمشق المتفرعة كلها من نهر « بردى » الصغير ، ولا يصدها مرتفع أو حاجز أو منخفض ، فهي بصدمة تقلب الدك على من وراءه من الثائرين ، وتتسلق بسلاسل عجلاتها المرتفعات ، وتهبط المنخفضات ، وتجتاز الحواجز والاقنية والأنهر الصغيرة ، فليس في الغوطة جدول أو نهر يحول بعمقه وعرضه دون عبور الدبابات من جانبه الى الجانب الآخر . لذلك كان سلاح الدبابات هو السلاح القاطع الذي يحسب حسابه الثائرون ، يؤثر بهم ، ولا يتأثر برصاص بنادقهم ، على عكس الطائرات فإنها لالتفاف الشجر ، وكثرة الموانع في الغوطة لا تستطيع اكتشاف مكامن الثائرين ، وحركاتهم ما لم تنخفض الى علو قريب من ذرى الأشجار ، مما يعرضها لخطر رصاص البنادق . ولما كان فلاحو الغوطة وسكانها أرقى طبقة بين الفلاحين السوريين ، فإن وعيهم الوطني والقومي زاد في حماسهم للثورة على الفرنسيين ، يفتحون منازلهم للثائرين ، وتستقبل قراهم جموع الثورة معها بلغ عددها ، لا يبخلون في إطعامهم ، وإيوائهم ، وتقديم كل عون لهم . وقد رأينا حماسهم واندفاعهم عند خروج أول عصابة من دمشق الى موقع « الزور » في غوطتهم ، ينضم اليها شبابهم ، بعد ان يشتروا السلاح بمالهم ، ويحملوا اليها ما تحتاج اليه من زاد وذخيرة ، ويزودوها بأخبار العدو وحركاته ، بل ويتقدمون بأنفسهم ، ويسيرون أدلة وهداة للثائرين الى مواقع العدو وثغراته ، فقد جاء قرويون من « المليحة » ، يوم نزلت كتيبة الدرك في بلدهم ، يخبرون عصابة الزور بأمر الدرك ، وعددهم ، وضباطهم ، وغفلتهم ، وتقدموا العصابة يساعدونها ويهدونها الى أبرع الإساليب ، حتى قبضت العصابة على جنود الدرك وضباطهم ، وكان

جزء قرية المليحة الحرق والتدمير بسبب القبض على كتيبة الدرك . لقد تحمل سكان الغوطة أنواع الاذى والظلم من الثائرين ومن الفرنسيين ، على حد سواء ، منذ انطلقت جموع الدروز من الجبل ، اثر ثورة حماة ، تمر كلها بقرى المرج والغوطة ، لا يكتفي بعضها بالضيافة الكريمة في تلك القرى ، بل كثيراً ما يلجأ بعضهم الى السلب والنهب والسرقه ، وارغام القرويين على أداء المال باسم مساعدة الثورة . ونعتقد أن الطابور الخامس وعملاء فرنسة في جبل الدروز ، لما عجزوا عن مقاومة الثورة جهاراً ، ورأوا الهزائم تنزل بسيادهم ، تظاهروا بتأييد الثورة ، ومنهم من قام بتجميع أعوانه وغيرهم ، وخرج بهم من الجبل في سبيل الكسب والنهب ، يحوبون قرى المرج والغوطة ، ويرتكبون من الاعمال ما أساء لسمعة الثورة ، وسمعة الدروز . ويوم وصولنا الى الغوطة ، وانضمامنا الى قوة محمد عزالدين سمعنا أن جموعاً اخرى من الدروز ، تنتقل من قرية الى قرية ، فهناك ما يطلقون عليه جيش شبلي عزالدين ، وجيش نجيب عامر ، وجيش زيد عامر ابي خمري ، وجيش محمود كيوان ، كلها جموع من جبل الدروز ، تنتقل بين القرى ، ولا تتقيد بأمر ولا نظام ، وترتكب من الاعمال ما يسيء ويضر بسمعة الثورة . ومحمد عزالدين الحلبي الذي عينه سلطان الاطرش قائداً على الغوطة ، لا يستطيع بقوته ان يردع هذه الجموع ، او يخضعها للنظام ، خشية الصدام ، لا سيما والدروز عشائر وعائلات ان سال دم واحد منهم انتصر له ابناء اسرته او عشيرته او قريته ، وانقلب النزاع الى مذابح لا يعلم الا الله ما تكون عواقبها . لذلك كان محمد عزالدين يسعى دوماً لإقناع زعماء تلك الجموع بالحسنى والنصيحة والرجاء ، حتى ضج سكان القرى من اعمال الفوضى ، وهجر بعضهم قراهم . ولما بدأت المعارك الحامية تنشب بين القوات الفرنسية التي كانت تزحف احياناً الى الغوطة ، وبين القوة التي يقودها محمد الحلبي ، انسحب النهابون السلابون الى جبلهم ، لأنهم في الأصل انما جاءوا للتخريب والنهب ، لا للقتال والحرب .

الهجوم على حامية دوما

- ٤٣ -

كانت فرنسة أقامت من جيشها حامية في بلدة دوما، تحصنت في دار كبيرة شرقي البلدة تشرف على طريق السيارات بين دمشق - حمص ، وتفصلها عن منازل البلدة مئات الامتار ، حتى لا تتخذ المنازل وسيلة لاقتحام الحصن ، فأصبحت بمثابة ثكنة محاطة بالاسلاك الشائكة من كل جوانبها ، وفي جدرانها ثقب وشقوق للرشاشات ، وعلى جوانب سطحها معازل من اكياس الرمل لمقارن الرشاشات تحصد بسلاحها كل من يهاجم الدار أو يدنو منها. وقد اضطرت السلطة الفرنسية لإقامة هذه الحامية ، اذ هاجم بعض الثائرين الذين انسحبوا من دمشق ، مرة ، دوما ، واحتلوها ، وغنموا أسلحة وجياد جنود الدرك فيها . وبعد انسحاب تلك الجموع أعيد تنظيم الحكومة في دوما ، وارسلت قوة جديدة من الدرك اليها ، ولكن لم يلبث أن هاجمها محمود كيوان بقواته ، وأسر جنود فصيل الدرك ، وغنم خيلهم وسلاحهم ، فأدركت السلطة الفرنسية الا مقام للحكومة في دوما ما لم تقم فيها حامية فرنسية ، فوجهت قوة من المغاربة العرب والفرقة الاجنبية على رأسها ضباط فرنسيون حلت في تلك الدار ، وحصنتها ، وقطعت الاشجار من حولها حتى لا تكون وسيلة لاقتراب الثائرين منها ، فأصبحت الثكنة مكشوفة من جوانبها الاربعة . وصلنا في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني ، واتفقنا على مهاجمة بلدة دوما مع فجر اليوم الثاني ، ومباغته حاميتها ، وارسل محمد عزالدين فوراً رسائل الى شبلي عزالدين ، وزيد ونجيب عامر ومحمود كيوان كي يوافوه بقواتهم الى قرية « مسرابا » للاشتراك مع قوته بالهجوم ، وانتدبت ، في تلك الليلة لتخريب « جسر تورا » على طريق دوما عند مدخل دمشق ، وقرب مفرق القابون . وتورا اسم نهر من فروع

«بردى» ، والجسر لا يبعد كثيراً عن المستشفى الانكليزي في حي القصاع حيث أقامت فرنسة مخفراً مجهزة بالرشاشات للدفاع عن دمشق ، في حال تعرض العصابات لها . وقد توجهت قبيل منتصف الليل مع زميلي خير الدين اللبابيدي وثمانية مسلحين ، وبضعة شبان عزل من أهالي عربين يحملون الفؤوس ومنشاراً ، ونصف قارورة نفط . وكان العقيد سعيد العاص سلمي اصبعين من الديناميت مع كبسولتين دون فتيل ، لا يملك الثائرون غيرهما في الغوطة من وسائل التخريب بالمتفجرات . ولما بلغنا الجسر ، وزعت المسلحين ، لحايتيه من جهتي دمشق ودوما ، حتى لا نفاجأ بهجوم مباغت علينا من احدى الجهتين ، وكلفت الفلاحين بنشر أعمدة البرق والهاتف وقطع أسلاك المواصلات على جانب الطريق ، ونزلت بملابسي في ماء النهر ، وعمقه لا يتجاوز ثلاثة أرباع المتر ، وتقدمت تحت الجسر ، وهو ذو فوهتين وركيزة من الحجارة الكبيرة بينهما ، صنعه الالمان في الحرب العالمية الاولى ليتحمل نقلياتهم وآلياتهم ، ونقليات الجيش العثماني ، صنعوه من شجر الحور الكبير صفت الى جانب بعضها على طول الجسر ، ومدت فوقها طبقة من الخشب ثم طبقة من السمنت ، ثم طبقة من الزفت ، فأصبح كانه جسر من الحجارة . وكانت تعليمات العقيد العاص أن اجرب اصبعاً واحداً من الديناميت ، وضعت في الصفيح ، في تخريب الجسر ، فأخذت انفذ تعليماته بحذافيرها ، وفتحت خرقاً بين حجارة الركيزة حشوت فيه الاصبع ، بعد ان جهزته بالكبسولة ، وملأت الكبسولة بالبارود الاسود المستعمل في الصيد ، وردمت جانب النهر من الركيزة بالحجارة ، حتى اصبح ارتفاع الكومة موازياً لموضع الاصبع ، ووضعت حجراً منبسطاً الى جانب الركيزة فوق الكومة ، رششت فوقه خطاً من البارود طوله بضعة عشر سنتيمتراً يتصل ببارود الكبسولة وخرجت من النهر اعز للمسلحين في جهة دمشق ان يرتدوا الى الضفة النهر من جهة دوما ، مبتعدين هم واخوانهم عن الجسر ، يتوسدون الارض . وجئت بقصبة طولها بضعة امتار ربطت برأسها خرقة مبللة بالبتروول ، اشعلتها ، وادنيته من طرف البارود ، حتى اذا اشتعل ابتعدت ركضاً ، ثم توسدت الارض

فما هي الا ثوان حتى سمع صوت انفجار ، ولكن الجسر بقي في مكانه ، لم يزل الانفجار منه شيئاً ، ولم يهدم أي حجر من الركيزة ، وكل ما عمله تفتيت الحجارة حول الثقب الذي أحدثته في الركيزة ، وحشوت فيه الاصبع . عدت ثانية الى العمل ، ولكن الاصبع الثاني لم ينفجر في هذه المرة لعطل في « الكبسولة » ، او لخطأ مني . وأدركت أن اصبعاً او اصبعين من « الديناميت » لا تؤثران في ركيزة متينة ، وجسر يحمل أثقال عشرات الاطنان ، وكان لا بد



من عمل شيء لتخريب الجسر ، فدعوت رفاقي الى تحطيم ابواب دكان بقال على ناصية الجسر ، خال من البضاعة ، كل ما فيه اخشاب لوضع البضاعة ، فأخرجنا من الدكان أحمالا من الخشب ، وادخلت تحت قنطرتي الجسر أعمدة الهاتف والبرق متصالبة في الماء ، واقمت فوقها وفوق الماء الاخشاب التي جئنا بها من الدكان ومن ابوابها الكثيرة المطلة على جهتين : جهة النهر ، وجهة الطريق ، ونثرت عليها البترول من صفيحة وجدتها في الدكان مليئة الى اكثر من نصفها ، واشعلت النار بالاخشاب الجافة

كلها ، بعد ان حفرت على طول الجسر بالفؤوس ثلاث حفر أو ثغرات في ارض الجسر ، بلغت بها محي الدين المحصي الى الخشب وسوق الحور ، كي تكون منافذ لألسنة اللهب التي اضاءت المكان وجوه ، فأخذ مخفر المستشفى البريطاني يطلق نيران رشاشاته باتجاه النار ، ولكننا كنا ابتعدنا عن المكان الى عربين ، ومنها سرت بالملحين الى « مسرابا » كي ننضم الى قوة محمد عز الدين الحلبي المتأهبة للزحف الى دوما ، وابلغت القائد ، في الساعة الثالثة من صباح الثاني عشر من شهر تشرين الثاني ، ما صنعنا بالجسر ، وانه تعطل باحتراق اخشابه تحت السمنت ، ولم يعد يصلح

لمرور السيارات والدبابات ، فشكرني . وبعد حين سارت القوة نحو دوما ،
و كنت مع محمد الحلبي وسعيد العاص وخير الدين اللبابيدي وبشير البكري في
المقدمة ، ولما بلغنا مع الفجر ابواب دوما ، نحاذر أحداث ضجة حتى نباغت
الحامية وجنودها نياماً ، اخذ بعض الدروز ينبهون اخوانهم ، ويدعونهم بكلمة
« هس » الى عدم احداث ضجة ، واذا بصوت جهوري يصيح بقوة : « شو
هس .. شو مس ؟ .. نحن الدروز لا نعرف الهس .. ولا المس .. ولا نحارب الا
علناً وعلى المكشوف ! » ، واطلق نار بندقيته في الهواء ، فانطلقت وراءها
مئات الطلقات في الهواء من الدروز ، ولمعت السماء من وهج الرصاص ، واندفعت
الجموع في ازقة وشوارع البلدة ، ولكن الحامية الفرنسية استيقظت ، واخذت
رشاشاتها تدوي في غبشة الفجر ، لتدفع عنها الهجوم . وبينما كنت اقود جوادي
في سوق دوما متجهاً مع الجمع نحو الشرق لنطل على ثكنة الحامية ، واذا بصوت
من ورائي ، يناديني ، عرفت انه صوت بشير البكري ، يقول لي : « دع
القوم ، واتبعني ! » ، فليس ثمة فائدة من الهجوم ، بعد ان استيقظت الحامية ،
واستعدت للدفاع .. اتبعني لنحرق معاً منزل وديع الشيشكلي في دوما ، فهو
عميل للفرنسيين يركب الدبابة مع قواتهم ليهديهم الى مواقع المجاهدين ومعاقلهم
في الغوطة ! .. » ، فتذكرت ان وديع الشيشكلي من اغنياء دوما العريقين
بالبجاسوسية والعمل لحساب فرنسة ، لذلك عدت مع بشير البكري ، وصادفنا
تنوراً يخبز صاحبه الخبز ، ليبيعه في الصباح ، فوقفنا عليه ، وحملنا من مخبزه كمية
من عيدان القنب التي يستخدمها وقوداً ، مع قارورة نفط ، واتجهنا الى دار
الشيشكلي ، يهديننا اليها رجل دومانى صادفناه في السوق ، وهي غير بعيدة عن
السوق ، تقع في زقاق ضيق مسدود من احد طرفيه ، وراح البكري يضع
القنب وينثر عليه النفط ، ويشعله امام باب الدار الخشبي ، بينما كنت اقف عند
مدخل الزقاق احرس المكان من المفاجئات ، حتى اتم عمله ، وغادرنا المكان ،
ولحقنا بقوة الثائرين التي شرادما تقف في منافذ الازقة والشوارع المطلة على
الثكنة ، يفصل بينها وبين الثكنة سهل فسيح غير مشجر ، والرشاشات المسلطة

على تلك الجهة تحول دون تقدم أحد من الثائرين ، لذلك لذنا بجائط كرم مقابل للشكنة ، ورحنا نصلي الشكنة ناراً من بنادقنا . وكان النهار اشرق بنوره ، واخذ الفرنسيون يتعرفون الى مواقع قوتنا ، ويوجهون نار اسلحتهم اليها من وراء معاقلمهم وحصونهم . ولما اقتربت شردمة من الثائرين زحفاً الى الشكنة ، استطاعوا قتل وجرح عدد من أفرادها ؛ فانسحبت ، وسقط امامنا جريح من رفاقنا في طرف السهل ، حاولنا حمله ، فسلطت علينا نيران الرشاشات ، واخيراً جئنا بجبل القيناه للجريح ، شده تحت ابطيه ، جررناه به الى وراء الدك الذي كنا نتحصن به ، وضممنا جراحه ، ولكنه قضى شهيداً . وقد ظلت قوتنا تناوش الحامية الى قرب الظهر ، دون جدوى ، فانسحبنا الى بساتين دوما القريبة ، نتواري بين اشجارها من الطائرات التي وصلت في الضحى لنجدة الحامية ، تغدو وتروح ، وتقصف البلدة والبساتين باحثة عن الثائرين ، حتى اهدت اخيراً الى مكاننا ، واخذت تقصفنا وتنقض علينا برشاشاتها ، وتذهب فارغة وتعود محملة بالقنابل تفرغها علينا ، ودام قصفها الى ما بعد العصر ، اذ قررنا الانسحاب ، لأن البقاء امسى لا يجدي نفعاً ، ولا سيما قوات شبلي عز الدين وزيد ابي خمري عامر ، ونجيب عامر ، ومحمود كيوان لم تأت لتشارك معنا في المعركة ، والدروز من قوتنا اخذوا يتسللون تبعاً مبتعدين عن قصف الطائرات وعن دوما ، منتشرين في القرى القريبة منها ، حتى لم يبق حولنا اكثر من ثلاثين فارساً توجهنا بهم الى قرية « زملكا » . وقد علمنا بعدئذ ان حملة فرنسية كبيرة خرجت من دمشق لنجدة حامية دوما ، ولما بلغت « جسر تورا » ، وشاهدته محترقاً توقفت عن المرور ، واضطرت للعودة الى المدينة ، وسلوك الطريق التي تمر بحي الاكراد الى القابون ، فطريق دوما ، فلم تصل الى دوما الا قرب الغروب ، اي بعد رحيلنا الى قرية « زملكا » . كانت خسارتنا في هذه الغزوة غير الموفقة ثلاثة شهداء وثلاثة جرحى . ونعتقد ان خسائر حامية دوما لا تقل عن هذا العدد رغم تحصنها في الشكنة . بتنا تلك الليلة في قرية « زملكا » ، وفي ضحى اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني دخل القرية ، ونحن فيها ، ثمانية

جنود من خيالة الصباحيين ، يدل وضعهم البنادق معلقة في ظهورهم على انهم لم يتوقعوا وجودنا في هذه القرية القريبة من دوما . ولما بلغوا متهى القرية ، فوجي بهم الدروز الذين كانوا جالسين فيه ، وعددهم ايضاً لا يتجاوز اصابع اليد ، وهبوا الى بنادقهم ، فانكفأ الخيالة عائدين من حيث اتوا ، واطلقوا الاعنة لجيادهم ، واطلق الدروز عليهم نار بنادقهم ، وسمعنا الطلقات ، فخرجنا من المنازل نتعقب الجنود الفارين ، ورأيناهم يعدون بجيادهم بين الشجر ، وتقدمنا ورائهم خشية ان يكونوا طليعة للحملة التي سمعنا انها وصلت من دمشق الى دوما ، فوجدنا عثائم بعض الصباحيين في الارض من اصطدام رؤوسهم بالشجر ، وهم فارون من « زملكا » ، وشاهدنا على الارض آثار دم ، مما يدل على إصابة احدهم او اكثر بجروح . وقد صادفنا في الطريق فلاحاً اخبرنا انه شاهد دبابه ورائها جنود من السنغال في مكان قريب منا ، فتقدمنا حتى بلغنا المكان ، فلم نجد احداً من جنود العدو ، وقدرنا ان يكونوا مع الخيالة طليعة لجناح الحملة الفرنسية التي عادت في ذلك اليوم الى دمشق ، بعد ان انجذت حامية دوما .

قرارات تبقى حبراً على ورق !

- ٤٤ -

بلغنا في اليوم الخامس عشر من تشرين الثاني ، ونحن في قرية «حمورية» ، ان عصابة حسن الخراط ، وابناء عكاش عادت من النبك ، وانها في طريقها اليها ، فخرجنا لاستقبالها في مكان بين قريتي سقبا وحمورية . ولما وصلت ، وعدد افرادها نحو خمسين مسلحاً اكثرهم من دمشق ، استقبلناهم استقبالا حماسياً على طريقة الدروز ، وتوجهنا جميعاً الى قرية « سقبا » ، حيث عقدنا اجتماعاً



حضره حسن الخراط ، وسعيد
عكاش واخواه أبو احمد مصطفى
عكاش ، وابو دياب عكاش ،
والشيخ محمد حجاز ، وحسن
الزيبقى ، ورفاق لهم ، بحثنا فيه
أمر تنظيم حركاتنا في الغوطة ،
ومنع فرض أي اتاوة أو غرامة
على القرى ، ومعاقبة كل من
ينهب ويسلب من الثائرين وغير
الثائرين ، وتوحيد قوى الثورة
في الغوطة بقيادة واحدة ،
فرداً كان أو هيئة ، كي تخطط
للحركات المقبلة ، ومنازلة
الحملة التي تزحف الى الغوطة
لمطاردتنا ، أو لتموين المخافر
الفرنسية ، وتنظيم ادارة منطقتي
الغوطة والمرج تنظيماً ينجيهما

الثائر الشيخ محمد حجاز

من الفوضى السائدة فيها ، وألا يجبي مال من سكان الغوطة إلا بقرار من القيادة ،
ولشراء العتاد والذخائر وضرورات الثورة . وكان سعيد العاص يسجل تلك
القرارات ، وكلما انتهينا من قرار كان احد ابناء عكاش يصيح بأعلى صوته
« الفاتحة » ، فيقرأها الموجودون تيمناً ، ودلالة على اتفاق الكلمة ، حتى قرأنا
عشر فواتح ، وتعاهدنا على تنفيذ القرارات ، ولكن لم تمض أيام كثيرة على هذا
الاجتماع ، حتى وصل الى قرية من قرى الغوطة الدكتور خالد الخطيب احد
منظمي ثورة حماة ، قادماً من جبل الدروز ، بعدما نجا من يد الفرنسيين إثر فشل
ثورة حماة ، وسمع ان الخراط وعصابته في القرية ، فذهب اليه ، وبعد التحية
وتقديم نفسه اليه ، سأله عن العقيد سعيد العاص ، وهو مجاهد وعسكري
معروف يعمل منذ اسابيع في الغوطة ، وعن اخوانه ، فأجابه الخراط بأنه لا

يعرفه ، ولا يعرفهم ، فأبدى الدكتور الخطيب استغرابه ، وتظاهر الخراط بأنه
يعن في التفكير ، ثم قال : « اخشى ان يكون صديقك هو الذي يعمل خيطي
بيطي !.. » كناية عن ان العقيد العاص يعني بالخرائط ، وكتابة المقررات ،
ورسم الخطط !.. مع ان الخراط قابل في اول يوم من وصوله الى الغوطة العقيد
سعيد العاص ، وتعرف عليه ، واشترك معه في وضع المقررات التي ظلت حبراً
على ورق ، وكان اول من نقضها الخراط وجماعته ، ولكنه كان يريد الهزء
بالتنظيم والتخطيط ، لأنه يريد ما فوضى ، يعمل فيها ما يريد ، ويفرض من
الأموال على القرى ، وعلى اغنياء دمشق اصحاب المزارع في الغوطة ، ما يملأ
جيبه بالأصفر الرنان !

كيف شوه التاريخ ؟

- ٤٥ -

لقد تألفت في مصر ، حيث يقيم ميشيل لطف الله وأخواه من أثرياء
اللبنانيين ، والأصح الشاميين ، لجنة انبثقت عن مؤتمر عربي عقد في عام ١٩٢١ ،
حضرته شخصيات سورية ولبنانية وفلسطينية كالامير شكيب ارسلان ، والشيخ
رشيد رضا ، واحسان الجابري ، ورياض الصلح ، وميشيل لطف الله ، وطعان
العماد ، وتوفيق حماد ، وامين التميمي ، ونجيب شقير ، وتوفيق فايد ، وجورج
يوسف سالم ، وشبلي الجميل ، وصلاح عز الدين ، ووهبة العيسي ، وتوفيق
اليازجي ، وعلي الغاياتي وغيرهم ، اسموه : « المؤتمر السوري الفلسطيني » ، فقام
هذا المؤتمر بتوجيه نداء إلى عصبة الامم عن القضية السورية ، وعن مطالب
السوريين ، وترك للجنة التي انتخب ميشيل لطف الله رئيساً لها ، ونجيب شقير
أميناً عاماً للسر ، ان تتابع العمل من أجل ايضاح القضية السورية للعالم .
ولما نشبت الثورة في جبل الدروز أخذت هذه اللجنة تعمل لإيصال ما يحدث في

سورية إلى اسماع الجالسين على مقاعد عصابة الامم . وكانت خلال الاشهر الاولى من الثورة تصطدم نداءات اللجنة ومذكراتها وبياناتها وبرقياتها برد فرانسة على ان في سورية ثورة محلية درزية ، أسبابها الاولى ان الدروز الذين يسكنون جبل حوران متخلفون دأبهم الثورات والعدوان بالسلاح على جيرانهم . والقتل والنهب والسلب ، وثوراتهم على الدولة العثمانية معروفة ، وان فرانسة في سبيل النهوض بهؤلاء تلقى العنت ، وهي تعمل لإخماد هذه الثورة بوسائل بعيدة عن العنف والقسوة . أما سورية فراضية عن الانتداب ، وجميع مناطقها الاخرى هادئة ساكنة ، لم تتقدم أي شكوى من سكانها ، وليس فيها أي أثر للثورة ، ولم يقع فيها أي حادث يفسر بأنه عدم رضا عن الانتداب ، فلما نشبت ثورة حماة ، وبلغ اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني نبأها ، ونبا تأليف أول عصابة غير درزية في الغوطة على أبواب دمشق ، أخذت تركز في بياناتها ونداءاتها على تلك العصابة ورئيسها حسن الخراط ، كي تظهر للعالم ان الثورة في سورية وطنية ، وليست درزية محلية قامت من اجل تبديل حاكم فرنسي بآخر . وتكررت نداءاتها ، وورد فيها اسم الخراط في كل مرة ، ونشر في الصحف ، فبلغ الغرور مبلغه بهذا الرجل غير المثقف ، والذي كان يعمل حارساً ليلياً في أسواق دمشق ليعيش ، حتى ظن حقاً ان ما يذاع في بيانات اللجنة والصحف من عمله ، وانه عظيم ، وانتفخت أوداجه ، وبدأ يفرض بواسطة عصابته المسلحة الاتاوات على القرى والمزارع ، ويبعث برسله إلى اغنياء دمشق يفرض عليهم الأموال ، ويهددهم بحرق حوانيتهم وممتلكاتهم إن لم يدفعوا . وكان لهذا الرجل من زوجته ربيب شاب اسمه فخري الخراط ، أفاد من دخول زوج والدته مع عصابته دمشق ، فهاجم الماخور في حي الشاغور ، ونهب الاموال ، وسلب القوادات والبغايا ، ولم ينسحب مع زوج أمه الى الغوطة ، فقبض عليه الفرنسيون في دمشق ، وحوكم في المجلس العدلي الذي ألفه الفرنسيون ، وحكم عليه بالاعدام ، ونفذ الحكم فيه شنقاً في ساحة المرجة ، وورد في حيثيات الحكم وصف الجرائم النهب والقتل التي ارتكبها في الماخور . من هنا بدأت شهرة الخراط ، وكانت

اللجنة التنفيذية في مصر ، على بعدها وعدم اتصالها بما يجري في سورية ، تجهل من يحوصل المعارك في الغوطة من كتائب الدروز ومجاهدي الغوطة أنفسهم ، فاستمرت كلما أذيع بلاغ رسمي افرنسي عن وقوع معركة في الغوطة ، أو بلغ مسامعها نبأ معركة نشبت فيها ، على اسناد تلك المعركة إلى حسن الخراط وعصابته كي تظهر ان الثورة في سورية وطنية ، وليست درزية محلية ، ودأبت على ذلك ، حتى بعد فرار الخراط من الغوطة ، ولجؤته إلى بلدة النبك وقلمون اسابيع عديدة ، هرباً من الحملات الفرنسية التي كانت تروح وتغدو بين دمشق وقرى الغوطة . ولكنه لما سمع ان في الغوطة قوات درزية استقرت فيها ، واخذت تهاجم معاقل الفرنسيين في معمل الزجاج على ابواب دمشق ، وفي دوما ، جمع عصابته ، وعاد إلى الغوطة ، وهو ينتوي أن تكون له الكلمة العليا فيها ، دون ان يكون قادراً بعصابته على خوض معركة جديّة مع الفرنسيين . ولو ان ما جمعه الخراط وابناء عكاش ، وهم ثلاثة اخوة من اهالي حي الاكراد في دمشق - لو ان ما جمعه من اموال انفقوه على تسليح عصابتهم ، وعلى ما ينفع الثورة ، لكان في عملهم ما يبرره ، ولكنهم كانوا ينفقون القليل على تسليح عصابتهم ، ويكتنزون الكثير في جيوبهم ، او في منازلهم ، أو لدى أقاربهم وأهليهم في دمشق . ويكفي للدلالة على نمط هذه الفئة ذات الماضي في الشقاوة ، ان مصطفى عكاش ، احد الاخوة الثلاثة ، تطوع ، بعد الثورة ، في الجيش الفرنسي ، او ما يسمونه الحرس السيار ، وان كبير عصابة حي العمارة ومسجد الأقباب والعقبة ، كان ، بعد الثورة ، أصدق صديق للقومانندان كوله قائد كوكبات الشر كس الذي خاص معظم المعارك ضد المجاهدين ، وارتكبت كتائبه من الفظائع ضد سكان القرى ما يشيب لهوله الاطفال . والضابط كوله الذي كان في عداد ضباط المصالح الخاصة ، لمع نجمه في الثورة السورية ، وقفز بالرتب العسكرية حتى اصبح جنرالاً ، تولى بعد الثورة مناصب خطيرة في دار المندوب الفرنسي في دمشق ، واصبح رئيساً للمخابرات ، وقطب السياسة الفرنسية في سورية ، يستخدم رئيس عصابة العمارة في اغراضه ، وهذا لا يحجل من أن يتردد

على مكتبه ، واذا أبطأ في التردد عليه زاره كوله رئيس المخابرات في منزله ،
او في المقهى الصيفي الذي افتتحه ، وتولى ادارته في شارع بغداد .

كان من جراء تسلط هذا النوع من زعماء العصابات الدماشقة والدروز على
القرى والفلاحين ان اخذ سكان الغوطة ينزحون عن قراهم الى دمشق ، أو الى
القرى البعيدة ، وفي مقدمة النازحين النساء والأطفال ، وان يعتمد شبان كل
قرية الى شراء السلاح ، وتأليف عصابة تحمي القرية من هؤلاء النهابين ، وتخوض
المعارك الى جانب المجاهدين ، فيما اذا زحفت حملة فرنسية الى الغوطة ، حتى
اصبح الوافد الى الغوطة لا يجد في قراها بيتاً يستضيف فيه ويطعمه ، وإن
وجد بيتاً خالياً من السكان لاقامته ، فهو مضطر لأن ينتمي الى احدى العصابات
لتكفل باطعامه ، كعصابة الشاغور ، وعصابة الميدان ، وعصابة العمارة ،
وعصابة حي الأكراد وغيرها من العصابات التي كانت تنتمي بأسمائها الى احياء
دمشق . وقد سهل مهمة رؤساء العصابات النهابين أن لاصحاب المزارع الدماشقة
في الغوطة منازل جميلة مفروشة ، لبعضها حشائق غناء ، ولهم أبقار ودواب
وجارات وأدوات زراعية ذات قيمة يخشون أن يصادرها أو ينهبها رئيس
العصابة الذي يفرض عليهم الإتاوات ، يؤدونها مرغمين كي يحموا حوانيتهم من
الحرق ، وأموالهم من السلب والنهب . وكان الخراط وأولاد عكاش ومن ينحو
نحوهم في فرض الإتاوات على المزارع والقرى ، يضخمون كل زلة يرتكبها
الدروز في الغوطة ، فاذا صودرت من مقاتل درزي ملابس مسروقة من المنازل
التي حل فيها ، ضخمت الجريمة ، وقيل علناً للدروز : « ارحلوا عن بلدنا . نحن
لا نريدكم ، ولا نريد جهادكم ! » ، مع ان القتال كان يقع عبثه على الدروز الذين كان
يقودهم محمد عز الدين الحلبي ، باخلاص وتفان . اما رؤساء العصابات الاخرى
فيغفر لاكثرهم نهب الوف الليرات يفرضونها على الاغنياء ، ويفرون يوم الروع ،
يبعدون عن ساحة القتال ، وينتحلون لابتعادهم الاعذار ، بل ينتحلون للسلب
اعذاراً بأنهم ينفقون على عصاباتهم ، ويسلحونها ، ولذا يجب الا يحاسبهم عليها

أحد ، حتى الضغائن كانت تلعب دورها في العدوان على أصحاب المزارع والخوانيت ، فقد أحرق نزيه المؤيد العظم حانوت آل الكيلاني في قرية « حمورية » لضعائن بين الشهبندر وبين صاحب الحانوت ، قبيل الثورة ، وصرعت الأبقار الثمينة بالرصاص ، وخرب ما في المزرعة ، وحرق كل شيء ، فكانوا في فظائع جرائمهم لا يقلون عن الفرنسيين المستعمرين

معركة الزور الثانية

- ٤٦ -

كان تقرر في الاجتماع الأول الذي عقد في قرية « سقبا » ، وحضره الخراط وأبناء عكاش الاخوة ، ورفاقهم أن يشتري المجاهدون في الغوطة مدفعاً صغيراً من مدافع المدرعات التي حطمت في معركة المزرعة ، يؤتى به من جبل الدروز مع عتاده ، وللرشاشين اللذين مع عصابة الخراط ، ليستخدم الضابط سعيد اليمني المدفع ضد الدبابات في المعارك التي يخوضها المجاهدون ، فقد كان سلاح الدبابات أكثر الأسلحة الفرنسية تأثيراً على المجاهدين في معاقل الغوطة . وقدر المجتمعون عشرين ليرة ذهبية ثمناً للمدفع والعتاد ، تدفع لمن يملك مثل هذا المدفع من دروز الجبل ، فتقدم ابو عبده اجانا مختار قرية « سقبا » الذي عقد الاجتماع في منزله متطوعاً ، واعلن استعداد قريته للتبرع بالعشرين ليرة ذهبية لشراء هذا المدفع الذي يعتقد الجميع بضرورته للمجاهدين في معاركهم مع الفرنسيين ، وطلب امهاله بضعة ايام ليجمع المبلغ من اهل القرية الذين سيدفعونه عن طيب خاطر . وفي صباح اليوم السابع عشر من تشرين الثاني ، توجهت قوة محمد عز الدين الحلبي الى قرية « عقربا » ، وانتدبني قائدها لجلب العشرين ليرة من مختار « سقبا » الذي كان حدد ذلك اليوم موعداً للانتهاء من جمعها ، ورافقني ثلاثة من فرسان الدروز ، على أن لوافيه الى قرية « عقربا » ، فتوجهت مع رفاقي

الى سقبا ، ولكن المختار الذي حللنا في منزله ، اعتذر بأنه لم يستطع جمع المبلغ في الموعد المقرر ، وانما أتم توزيعه على الفلاحين بنسبة ما يملكون من أرض القرية ، وان أكثر الفلاحين توجهوا في الصباح الى دمشق للبيع والشراء كعادتهم ، وطلب منا الانتظار الى الليل ، كي يحظى مساء بعودتهم ، ويجمع منهم المبلغ ، وأكد لنا ان أكثرهم توجه للمدينة لبيع كمية من محصول القنب كي يؤدي ما عليه في المساء . ثم جاءنا مختار سقبا ، وحدثنا عن طائرة فرنسية حلقت في الصباح فوق قرى الغوطة ، تكشف مواقع الثائرين ، ولكن عصابة الخراط وابناء عكاش أسقطتها بنار الرشاشين الذين لديها ، فوجهت القيادة الفرنسية قوة لانقاذ الطيارين الذين جرحا ، ومنعت هذه القوة فلاحى الغوطة من دخول دمشق والخروج منها ، فبقي معظم فلاحى « سقبا » في دمشق ، وطلب المختار منا ان نبيت تلك الليلة ضيوفاً عليه ، حتى يستطيع في الغد جمع المبلغ ، فقبلنا عذره ، وبتنا ننتظر . وفي الليل جاءنا مضيفنا « ابو عبده اجانا » ، وأنبأنا بأن اصحاب المزارع « الحوانيت » في الغوطة من اهالي دمشق ارسلوا الى وكلائهم وفلاحهم في المزارع ، الا يخرجوا الحيوانات ودواب الحرث والفلاحة في الصباح الى الارض ، لأن الفرنسيين سيزحفون غداً بحملة قوية الى الغوطة لقتال الثائرين ، فلم نأبه للخبر ، وحسبناه من الاشاعات التي تروج كل يوم على اللسن ، وقلنا : من أين لاصحاب المزارع ان يعرفوا مقدماً خطط القيادة الفرنسية ؟ .. ولكن في الصباح الباكر من اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢٥ ، جاءنا مضيفنا ينقل اليانا ان الحملة الفرنسية زحفت فعلاً من دمشق في آخر الليل ، وطوقت مع الفجر موقع الزور القريب من « سقبا » ، حاسبة ان موقع الزور ما زال ملجأ للعصابات المسلحة ، ولما لم تجد فيه احداً كمنت فيه ، وهي ما تزال الى هذه الساعة في موقع الزور باعتباره معقلاً وعقدة طرق عديدة تمر به ، ولا يعرف احد الى اين ستتجه الحملة بعدئذ ، وأكد لنا ان الفلاحين الذين خرجوا في الصباح الباكر مع دوابهم من سقبا والقرى المجاورة الى العمل في الارض ، شاهدوا الحملة ، وعادوا بدوابهم الى منازلهم هرباً من الحملة .

كانت قرية « سقبا » لا تبعد أكثر من نصف ساعة سيراً على الاقدام من موقع الزور حيث تعسكر حملة الفرنسيين التي قد تزحف باتجاه سقبا ، لذلك قررت ورفاقي الثلاثة ان نلحق بقرية « عقربا » ، وننضم الى قوة المجاهدين فيها ، وهي تعد بضع مئات من المسلحين ، لا يمكن تحديد عددهم بالضبط ، فهم عرضة دوماً للزيادة والنقصان بنسبة الوافدين من الجبل والمنسحبين اليه . وكان من طبيعة الدروز وإلحاح ضرورات العيش عليهم في الثورة التي عطلت اعمالهم الزراعية ، ان المسلح ببندقية منهم كان يقصد الغوطة للقتال والتجارة ، فإذا مل المقام فيها باع بندقيته لفلاح في الغوطة بزيادة ليرتين أو ثلاث ليرات ذهبية عن سعرها في الجبل ، وعاد الى قريته ليشتري ببندقية غيرها ، وينفق من الربح . وكان هناك من الدروز جماعة تسافر الى شرقي الاردن لشراء البنادق بسعر أرخص وحملها الى الجبل للتجارة ، وهكذا تسير تجارة السلاح ، ويفيد الدروز منها بتنقلهم بين قراهم وبين قرى الغوطة وغيرها من المناطق الثائرة . والبنادق التي تحمل عادة من شرقي الاردن الى الجبل هي من طراز البنادق الالمانية والتركية المصنوعة في بلاد الالمان ، وعتادها كان غالي الثمن لقلته . أما البنادق الفرنسية فكانت كثيرة في الجبل من غنائم الحرب ، تباع بأسعار أرخص ، وعتادها يباع كل عشرة أمشاط (٥٠ طلقة) بريال واحد ، بينما المشط الواحد من الطراز الالمانى والعثمانى كان يباع بنصف ريال وأحياناً بأكثر .

قررت مع اخواني اللخاق بعقربا ، وخرج مختار سقبا معنا الى طرف القرية يهديننا الطريق الى أول قرية مجاورة سنواجهها في مسيرنا ، وإذا بفلاح يركض من القرية ، ويخبر المختار بأن عصابة الخراط وابناء عكاش مرت الآن باطراف سقبا الى قرية « حمورية » ، فقررت مع رفاقي ان نلحق بعصابة الخراط في حمورية القريبة منا ، ونحوض معها المعركة ضد الحملة الفرنسية ، وتوجهنا فوراً الى حمورية ، فرحين بهذا اللقاء الذي وفر علينا كثيراً من الجهد والسير في طرق بعيدة تدور وتلف حتى لا نمر بموقع الزور الذي تحتله الحملة . ولما أقبلنا على المقهى في قرية حمورية ، وجدنا الخراط وعدداً من أفراد عصابته جالسين

يشربون قهوة الصباح ، ويدخنون « الثراجيل » ، فحييت ، وترجلت مع اخواني ،
وقلت للخراط : « ماذا تنتظرون يا ابا محمد ؟ والعدو على بعد نصف ساعة منا ،
قابع في موقع الزور ؟ هلا سرت بنا الى قتاله !.. » قال : « أهذا ما ترتئيه ؟
اجلس ، وتناول فنجاناً من القهوة ، ريثما نجمع الرفاق !.. » ثم نادى حامل
البوق ، وأمره بأن ينفخ في جمع القوم ، فنفخ ، واجتمعت العصابة في ساحة
القرية امام المقهى ، وكان عدد افرادها أربى على المئة مسلح بين فرسان ومشاة ،
والمشاة هم الاكثرية . وركب الخراط وابناء عكاش ، وحملا معهم رشاشاً
واحداً ثقيلاً ، وسرنا والعلم يخفق أمامنا ، متجهين من أقصر طريق الى موقع
« الزور » . وفي الطريق صادفنا فلاحاً قادماً من جهة الزور ، أخبرنا بأن الحملة
تقدمت طلائعها نحو قرية « بالا » ، على طريق دمشق - حوش خرابو ، فتابعنا
سيرنا الى قرية جسرين . وكان في طريق القرية شجرة تعلو قبراً لرجل صالح
يسمى امشاله مزاراً ، عقدت على اغصان الشجرة قطع كثيرة من الخرق الملونة ،
فاندفع بعض افراد عصابة الخراط المشاة ، يتعلقون بجذوع الشجرة ، ويتمسحون
بالمزار ، ويبتهلون الى الشيخ محمد ولي الله ان ينصرهم على عدوهم في المعركة
القادمين على خوضها ، وجهلوا ان ساكن المزار لا يقدم ولا يؤخر ، وان النصر
من عند الله . ولما دنونا من جسر الغيضة ، وهو الممر الوحيد في طريقنا الى موقع
الزور المنخفض وراء الجسر مباشرة ، كان يتقدمنا ، على بعد عشرين او ثلاثين
متراً المجاهد محمد الأغواني من قرية « بيت سوا » في الغوطة ، على صهوة جواده ،
يحاذيه فارس آخر من رفاقه ، فما كادا يتوسطان حلبة الجسر حتى أطلق عليهما
جنود الحملة النار ، ودوت الرشاشات من وراء الجسر ، وكنا على مقربة منها ،
فقتل الفرس الاول ، وجرح الفارس في ساقه ، ولكنه تحامل على نفسه ، وعاد الينا ،
فاضطررنا ، وكنا بضعة عشر فارساً كطليعة نتقدم العصابة ، لان نترجل ،
ونربط جيادنا بالاشجار على قارعة طريق السيارات المعبدة ، ونلجأ الى قناسة
صغيرة جافة الى يمين الطريق توازي الجسر ، ولا تبعد عنه أكثر من عشرات
الامتار ، بينما تراجع اكثر افراد العصابة المتخلفين ، تحت وابل الرصاص المنهمر

علينا من موقع الزور ، وأكثر المتراجعين كانوا من المشاة ، انسحبوا من المعركة لاجئين إلى القرى وراءنا ، ومنهم من فك جيادنا من الأشجار ، وامتطى صهوتها ناجياً بروحه ، وبعضهم لم توقف هزيمته كل قرى الغوطة ، فخرج منها بعيداً إلى قرى المرج ، لا يسأل عما حل برفاقه القلائل الذين تركهم امام الالوف من جند العدو .

كانت اوراق الشجر تتساقط من الرصاص ، من فوق رؤوسنا ، من مرتفع مشجر وراءنا متصل بالبساتين . وقد حاول عبثاً حاملو الرشاش نصبه على قاعدته المثلثة الى جانب الطريق عند رأس القناة التي كنا نتحصن فيها ، فتقدم رفاقي الدروز الثلاثة لمساعدتهم ، وركزوا الرشاش الذي اخذ يطلق رشات قابلها العدو بزيادة نيرانه على موقعنا ، وحمي وطيس المعركة ، والحملة بنسبة كثرة نيرانها تعد حتماً بضعة آلاف ، فيها كوكبات من المتطوعة في الحرس السيار ، أكثرهم من الشركس الذين انضم اليهم العشرات من مسلحي الشركس في قرية « مرج سلطان » من قرى منطقة المرج ، فقد القى اليهم أمر اللحاق بالحملة باكراً من احدى الطائرات .

استمرت المعركة ، ونحن ثابتون في موقعنا من القناة الصغيرة ، ساعة ونصف الساعة ، اندفع خلالها رفاقي الدروز من القناة ، نحو الجسر ، وهم يستحثون الجميع على الهجوم ، فتقدم معهم حسن الخراط ، واستطاع الاربعة أن يجتازوا الجسر زحفا الى الزور حيث يكمن جيش العدو في معازل الزور ، ويتحصن وراءها ، فسد العدو نيرانه الى الزاحفين بشدة ، وأصاب رصاصة منها بندقية الخراط ، وحطمت خشبها ، وخرجت أصبعه ، فاضطر الاربعة الى التراجع زحفاً ، واجتازوا الجسر عائدين إلى مواقعهم بيننا ، فهأناهم على بسالتهم ، ولكن الدبابات وصلت في تلك اللحظة ، ورابطت على ضفة الجسر من جهة الزور ، تسدد نيران مدافعها ورشاشاتها إلى موقعنا من القناة ، بعد ان

اكتشفته ، فسقطت بعض قذائفها حولنا ، وأطلقت رؤوس مدافع الدبابات ورشاشاتها علينا من وراء الجسر ، فأشار الخراط بالانسحاب ، وصعدنا من طريق ضيقة إلى البساتين المرتفعة من ورائنا ، وتعرضنا إلى وابل من رصاص العدو ، كنا لا نصدق ، ونحن مكشوفون ، أن ننجو منه ، دون أن يصاب الكثيرون منا ، وكشفت الدبابات انسحابنا ، فتقدمت ، وتقدم وراءها الجنود يجتازون الجسر ، فاضطر اخواننا لأن يحملوا الرشاش دون قاعدته أو منصبه ، وينجوا بأنفسهم ، كما تمكن رفاقي الثلاثة الدروز من الوصول إلى جسادنا التي كانت في مرابطها تجمع ، وترفع قوائمها الأمامية في الهواء من صوت المدافع والقذائف المتفجرة والرشاشات ، وان يعتلوا صهوات جيادهم ، وينطلقوا بها في الطريق إلى جسرين ، بينما كنا نحن نتراجع بين الأشجار في طريقنا إلى قرية « كفر بطنا » ، وفوجئنا برصاصة أصابت كتف حسن الخراط ، وألقت به أرضاً ، وترا كضنا ننهض به ، ونتابع انسحابنا تحت وابل من جحيم النيران ، حتى ابتعدنا عن الحملة ، وأصبحنا في منجاة من نيرانها . وقد قيل لنا بعدئذ أن بضعة من الثائرين كانوا في قرية « زبدین » ، أي في الجانب الآخر من الزور ، سمعوا أصوات احتدام المعركة ، فتقدموا لمناوشة الحملة من الخلف ، ولكنهم اضطروا للانسحاب تحت وطأة نيرانها الشديدة .

ووصلت أصوات مدفعية الدبابات إلى مسامع إخواننا المجاهدين في قرية « عقربا » ، فتقدم بهم محمد عز الدين الحلبي نحو الزور مارين بقرية « المليحة » ، ولكن نيران الحملة كانت شديدة حين فاجأتهم ، فاضطروا إلى التراجع نحو قرية « بلاط » حيث آووا جيادهم . لكن العقيد سعيد العاص ، وخير الدين اللبابيدي ، مع ثلاثة من المجاهدين ، ثبتوا في مكانهم ، وخاضوا المعركة مع الجند ، وحمي وطيسها ، واستحال على محمد عز الدين ورجاله الوصول إليهم ونجدهم ، فيئس من انقاذهم ، وتراجع بقواته نحو قرية « جرمانا » حيث وافاه عدد من شبابه الدروز المسلحين ، وأشاروا عليه بأن يكمن بقواته

في مكان يشرف على الطريق العامة التي لا بد للحملة أن تسلكها في انكفائها إلى دمشق .

دامت المعركة حوالي ثلاث ساعات بين سعيد العاص واخوانه الأربعة ، وبين الحملة الفرنسية ، إلى ان نفذ عتادهم ، ولم يبق غير بندقية واحدة من بنادقهم الخمس تطلق الرصاص ، وشعر جنود الحملة بضعف المقاومة أمامهم ، فركزوا الحراب في رأس البنادق ، وقاموا بهجوم مركز على موقع العاص الذي كان أطلق وحده (٣٥٠) طلقة حتى نفذت ذخيرته ، فاضطر مع اخوانه للانسحاب ، مستنثرين بالأشجار والمواقع ، وسقط منهم محمد فرحان شهيداً في أثناء الانسحاب ، وهو من أبطال الدروز الميامين ، فغنم الجنود بندقيته ونقوده ، وأرادوا حمل جثته ليعرضوها في دمشق ، ولكن بدء المعركة بين حملتهم وبين قوة محمد الحلبي أرغمتهم على تركها في ارض المعركة .

استمر القتال بين قوة محمد عز الدين والحملة الفرنسية في عودتها إلى دمشق من ساعة قبل الغروب إلى ساعة ونصف الساعة بعد الغروب ، أي ساعتين ونصف الساعة ، لم يفرق بينهما إلا الظلام . وقد استبسل الدروز في حربهم ، وثبتوا في مواقعهم ، وأصلوا الحملة المنسحبة نارا حامية من بنادقهم ، مما جعلنا نقدر خسائر الحملة الفرنسية في ذلك اليوم ببضع مئات من القتلى والجرحى . أما خسائر المجاهدين في معارك ذلك اليوم ، فهي ثلاثة شهداء وأربعة جرحى .

مصرع متطوعة الشركس في حمورية

- ٤٨ -

وصلنا في انسحابنا مع عصابة الخراط الى قرية « حمورية » التي انطلقنا منها في الصباح أكثر من مئة مسلح ، وعدنا اليها بضعة عشر نائراً ، انضم اليها فيها عدد من الذين انسحبوا في بدء المعركة من عصابة الخراط . وفي أول الليل ، ونحن جلوس في بيت المختار حول فراش حسن الخراط الجريح ، وافانا شاب يافع يلتهث من الركض ، ليخبرنا بأن خيالة من الشراكسة مسلحين دخلوا القرية من الطريق العامة ، ووصلوا إلى الساحة التي فيها المقهى ، ووقفوا يحياهم يسألون من في المقهى عن طريق دوما . وكان عدد من أفراد عصابة الخراط في المقهى ، وبنادقهم مسندة الى الجدران ، فبغتوا من المفاجأة ، وتيبسوا في أماكنهم ، وأسرع أحد الفلاحين يهدي خيالة الشركس المسلحين ، وعددهم تسعة ، الى الطريق التي تمر بالقرية ، وتوصلهم الى دوما ، فانطلق خيالة الشركس يجتازونها ، بينما أسرع الفلاح اليافع اليها ينبئنا بنبئهم ، فتواثبنا إلى بنادقنا ، ونحن لا نتجاوز العشرة ، واندفعنا من الغرفة ، والخراط يقول لنا : « لا تتركوني يا أولادي جريماً بين أيدي العسكر ! » ، فقلنا له : « لمينيك يا أبا محمد ! » ، وتراكم الرفاق نحو ساحة البلدة والمقهى ، وأدركت بالهامي الا نفع من الوصول الى الساحة ما دام الخيالة الجراكسة غادروها في طريقهم من قلب القرية إلى طريق دوما ، فقبضت على ذراع الشاب اليافع ، وجذبتة ليهديني إلى طريق مختصرة توصل إلى آخر القرية من جهة طريق دوما ، فهرول أمامي ، وتبعته حتى أشرفنا على مكان مقابل لحانوت آل الكيلاني في آخر القرية ، يشرف على طريق دوما ، ووجدت أمامي دكا تحصنت ورائه ، ولبثت اترقب ، وإذا بأول فارس من الشراكسة يظهر في الشارع ووراءه فارس ثان ، سددت اليه

نار بندقيتي ، وأطلقتها ، فانكفاً مع رفيقه ، ومن وراءهما من الخيالة مذعورين إلى داخل القرية ، حاسبين انهم وقعوا في كمين للثائرين متربص بهم في آخر القرية . وعلى صوت الطلقات من بندقيتي أطلق أفراد عصابة الخراط نار بنادقهم وراء الخيالة من أزقة القرية والساحة التي فيها المقهى ، فوقع الشراكسة بين نارين ، وأخذوا تحت وابل الرصاص يتساقطون مع جيادهم ، وينادون مستسلمين . ووصل في تلك اللحظة الفرسان الدروز الثلاثة رفاقي قادمين من طريق دوما حيث كانوا في قرية مجاورة لجأوا إليها بعد انسحابنا من المعركة ، ولما سمعوا أن الخراط جريح في حمورية قدروا انني معه ، فجاءوا الى القرية ليلاً ، وصادف وصولهم اليها صدامنا مع المتطوعة الشراكسة ، فأطلقوا رصاص بنادقهم ، واندفعوا بجيادهم مارين من أمامي هازجين ، ولما وجدوا الرصاص يلعلم ، وقد سقط من الشراكسة قتلى وجرحى ، أجهزوا على من وصل لايديهم منهم ، فكانوا اربعة قتلى وأسيراً واحداً انقذه أفراد عصابة الخراط من القتل بأيدي الدروز ، وقد فر اربعة من الخيالة ، بعد أن قتلت جيادهم ، تسللوا من شق في جدار أحد البساتين قبيل حانوت آل الكيلاني ، فقد عثرنا بعدئذ على أغطية رؤوسهم « قلبى » ملقاة في البستان التي فروا منها في طريقهم الى دوما حيث لجأوا فيها إلى الحامية الفرنسية : عدنا الى منزل المختار ، ومعنا الاسير ، وكان أحد الثائرين احتز رأس أحد القتلى ، والقاه في الغرفة أمام الفراش ، الذي يضطجع فيه الخراط هاتفاً : « لعينيك يا أبا محمد ! » ، فلم أقر هذا التمثيل بالموتى ، رغماً من المبررات التي أدلوا بها ، وقولهم ان الفرنسيين ، وهم جيش نظامي ، يجهزون على كل جريح من الثائرين ، ويحرقون جثته بالنار ، فلم يسلم جريح وقع بأيديهم من المجاهدين ؛ هذا عدا تقتيلهم السكان العزل الآمنين !

بدأنا التحقيق مع المتطوع الأسير وكان : في مستقبل العمر ، زعم ان لا علاقة له ولرفاقه بالحملة الفرنسية ، وانهم شراكسة مسلحون للدفاع عن انفسهم فحسب ، وانهم كانوا في طريقهم الى دمشق من قريتهم « مرج سلطان » ، إلا انهم وقعوا

تحت نيران الدروز الذين كانوا ينازلون الحملة على الطريق العامة في اراضي « جرمانا » ، فاضطروا الى ان يغيروا طريقهم ، ويسلكوا طريق حمورية إلى دوما لقضاء ليلتهم فيها ، ثم استئناف السير في الصباح الى دمشق . وكانت حقائب الخيالة « خراجهم » في الغرفة ، ففتشت ، وإذا في حقيبة الاسير علم فرنسي ، فسألناه ما معنى هذا ؟ فارتبك ، وزعم أولاً انه علم للتلويح به للطائرات الفرنسية حتى لا تحسبهم ثائرين بملابسهم المدنية ، وتقصفهم او تحصدهم برشاشها ، ثم اعترف بأنهم متطوعة سلحتهم فرنسا، وانهم كانوا في قريتهم صباح اليوم الباكر ، حيث حلقت في السماء طائرة فرنسية ، والقت اليهم بأمر عسكري كي يلحقوا بالحملة الافرنسية المعسكرة في موقع « الزور » ، فتوجه المتطوعون المسلحون وانضموا الى الحملة ، يحملون العلم الفرنسي ، وقاتلوا معها، ولكنهم بملابسهم المدنية، ساروا في مؤخرة الحملة اثناء عودتها الى دمشق، وشدد الثائرون في اراضي « جرمانا » برصاصهم في المساء على الحملة ، وأدركهم الليل، حتى لم يستطيعوا الاستمرار في طريقهم ، فانفصلوا عن الحملة تسعة خيالة ، وانكفأوا راجعين ، يسلكون الطرق الى القرى، محاولين لنجاتهم الوصول الى دوما ، ما داموا لم يستطيعوا الوصول الى دمشق . وفي حمورية حدث لهم ما حدث .

ما كدنا لننتهي من التحقيق مع الأسير حتى وافانا الى حمورية فريق من عصابة الخراط المبعثرة في القرى بسبب معركة النهار ، قبضوا في الطريق على جاسوسين للفرنسيين ، وجدوا معها أوراقاً ورسائل تثبت أنها يعملان لحساب مصلحة الاستخبارات الفرنسية التي اوفدتها اليوم بمهمة إلى الغوطة ، فوقعا مصادفة بيد عصابة الخراط، فبدأنا من جديد التحقيق معها، واعترفا بجريمتها، وقررنا ، بعد انتهاء التحقيق ، اعدام الأسير الجركسي والجاسوسين شنقاً على ابواب دمشق ، امام معمل الزجاج الذي فيه حامية الفرنسيين ، وكتبنا قرار الحكم بخط كبير عن جريمة كل منهم على حدة ، وأرسلناهم ، قبل فجر العشرين

من تشرين الثاني ، مع عدد من افراد عصابة الخراط ، حيث شنقوا تعليقاً على الأشجار مقابل المعمل ، فأصبح الجند من الحامية ليجدوا ثلاثة يتأرجحون امام ثكنتهم ، قتلوا ليكونوا عبرة لكل جاسوس وعميل لدولتهم المستعمرة .

في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني أعاد لي احد افراد عصابة الخراط جوادي الذي امتطاه ، وفربه ، دون علمي ، منذ بدء المعركة ، مصاباً في مطوى فخذيه ، وقرب بطنه برصاصة . أخذ بعدها القحيح يسيل من جرحه ، حتى أصبح غير صالح للركوب ، فسأته بمعرفة محمد عز الدين الحلبي ، الى صاحب مزرعة من آل القوتلي ، حللنا في القرية التي فيها المزرعة ، على ان يعطيني فرساً عوداً من عنده اركبها ، وهو بدوره يقود الجواد ليداويه في دمشق ، فشكرته ، ولم أعد لأراه مرة ثانية ، وقيل لي ، بعدئذ ، ان الحصان نفق ، وان السيد القوتلي سأل عني ليسترد فرسه ، ولم يجدني في الغوطة ، وقيل لي ان الحصان شفي واعتبر العملية مبادلة ، فالحصان مهر أصيل ، وفرسه عود أصبحت في اواخر سني حياتها ، على انني لا انكر انها فرس اصيل كريم ، اعانتني كثيراً في الثورة ، على ضعفها ، وشقيت بي ، حتى سلبها الافرنسيون مني في حادث سآتي على ذكره فيما بعد . ولعل القاريء يتساءل : لماذا لم أوصل الجواد الى العقيد فؤاد سليم في وادي التيم ، وابادله به على الجواد الذي يركبه ، كما أوصى سلطان الاطرش قائد الثورة ، وسألني في السويداء كتاباً بخطه وتوقيعه بهذا المعنى ، فأقول ان الذين رافقتهم من جبل الدروز كانوا في طريقهم إلى الغوطة فقط ، وليس بالمستطاع ان اغادر الغوطة وحدي إلى جنوب لبنان ، بل كان علي ان انتظر ركباً من المجاهدين الى تلك المنطقة ارافقه . وخلال الانتظار خضت معركة الزور الثانية مع عصابة الخراط ، واصيب جوادي فيها ، وارسلته الى دمشق للتداوي ، ثم بلغني بعد ايام قليلة سقوط العقيد فؤاد سليم شهيداً في احدي المبارك التي نشبت في سفوح جبل الشيخ ، فكان حزن المجاهدين عليه شديداً لانه كان دعامة من دعائم الثورة بمواهبه وشجاعته وذكائه المتوقد ، رحمه الله ، وجعل الجنة مثواه .

مرت بعد معركة الزور الثانية فترة سكون على الغوطة ، لعل سببها المعركة نفسها ، فقد اخذ الفرنسيون بعدها يزيدون من عدد كوكبات الشر كس ، وكان فلاحو الغوطة يسمعون من أفواه متطوعة الشر كس في دمشق التهديد تلو التهديد ، والوعيد لاهالي حمورية ، فقد عدوهم مسؤولين عن مصرع الخمسة من ابناء جلدتهم في قرية حمورية ، وايقن الفرنسيون بعد المعركة ان القوات الثائرة في الغوطة لم تعد عصابة واحدة يستطيعون ان يطوقوها في ساعة ، وبقضوا عليها ، او يحملوها على الهزيمة من كل المنطقة تبحث عن ملجأ لها في قلمون أو جبل الدروز ، وانما اصبح في الغوطة قوات كبيرة من محاربي الدروز الشجعان ، تدعمها عصابات من اهل دمشق ، وعصابات من فلاحو الغوطة ، ولا بد للتغلب عليها من زيادة كوكبات المتطوعة من شر كس وعرب اسماعيليين وعلويين ، واكراد وارمن ، لان العصابات من الصعب قتالها بجيوش نظامية بطيئة الحركة ثقيلتها ، وانما تقاوم بقوات غير نظامية خفيفة مثلها ، اقرب في تشكيلاها الى العصابات من الجيوش . لقد غيرت المعارك التي نشبت في الغوطة ووادي التيم واقليم البلان الاسلوب الفرنسي في قتال الثائرين ، فأخذت القيادة الفرنسية تزيد من عدد المتطوعة والحرس السيار ، حتى اصبح لديها من الشراكسة وحدهم ثماني كوكبات تعد نحو الفين او اكثر من الجنود ، هذا عدا ما في الجيش الفرنسي من قوات الحرس السيار ، جيء بأكثرها لقتال العصابات الثائرة حول دمشق . واهم ما وقع في الايام التي اعقبت معركة الزور الثانية ان العصابات قامت ثلاث مرات بمناوشة حامية معمل الزجاج في ليال متفرقة ، وارسل محمد عز الدين الحلبي الضابط خير الدين اللبابيدي ، في ليل ٢٤ - ٢٥ تشرين الثاني ، مع شردمة من الدروز قامت بتخريب جسر صغير قرب دمشق على خط حوران الحديدي ، وقطعت اسلاك البرق والهاتف هناك وعادت . والقت طائرة فرنسية قنابلها علينا في قرية العدلية فجرحنا اثنين من قوتنا ، وقتلت ثلاثة جياذ . وقامت عصابة الخراط في ليل الثامن والعشرين من تشرين الثاني بمهاجمة مخفر للشرطة في دمشق ، متسللة من البساتين الى بوابة الله والشاغور ، وغنمت خمس بنادق

من المخفر ، والقت طائرة في صباح التاسع والعشرين من تشرين الثاني قنابلها علينا في قرية عقربا فاستشهد مجاهد واحد وقتل فرس ايضاً . ووصل في اصيل هذا اليوم من دمشق عبد القادر سكر ، وهو في العقد السادس من عمره ،



من وجهاء الميدان ، ملتحقاً بالثورة ، ووصل ايضاً صبري العسلي ، وفائق العسلي ، ونسيب شهاب ، و خليل الحموي ، وياسين الخاني من شباب دمشق المثقف والاسر المعروفة ، وكلهم من خريجي الجامعة السورية ، اجتمعنا بهم في قرية « بيت سحم » ، وقالوا انهم التحقوا بالثورة ليضعوا كفاءاتهم العلمية في تنظيم الثورة الى جانب اشتراكهم في القتال لتحرير وطنهم من الاستعمار .

المجاهد عبد القادر سكر رئيس اول عصابة لحي الميدان في دمشق

الاستيلاء على مخفر باب المصلي

- ٤٩ -

دعاني محمد عز الدين الحلبي ، في ليل التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني ، ونحن في قرية في بيت سحم ، وارفقني بخمسين مسلحاً من دروز الجبل ودروز قرية جرمانا في الغوطة ، وعهد إلي بالاستيلاء على مخفر الشرطة في باب المصلي من حي الميدان التحتاني ، بعد ان بلغه ان حسن الخراط يفخر دوماً أمام فلاح في الغوطة بان عضابته دخلت مدينة دمشق اكثر من مرة ، واستولت على مخفر

الشاغور ، وغنمت خمس بنادق من مرتب شرطة المخفر ، فتوجهت بمن معي الى دمشق ، ولما تجاوزنا منتصف الطريق الى المخفر ، وكانت الليلة مقمرة ، اخذنا نسير في طريق تقوم على جانبيها البساتين ذات الجدران ، لذلك نظمت اخواني صفاً واحداً متتابعاً ، وطلبت منهم ان يسيروا في ظل الجدار من جانب الطريق الايسر ، حتى يخفى سيرنا على من قد يقابلنا من جهة المدينة ، وتقدمنا نحو « برية المسلخ » ، المكان الذي اتخذته بلدية دمشق لذبح الاغنام وتكوين المدينة باللحوم ، وفجأة انطلقت رصاصة من بندقية احد الرفاق معي ، فأوقفت سيرهم ، وسألت عن اطلاق الرصاصة ، فاعترف أحدهم فوراً بأنه نسي تأمين بندقيته ، فاصطدمت اصبعه بالزناد اثناء السير ، فثارت بندقيته المعلقة بكتفه دون اختيار منه . ولما كنا ما نزال بعيدين عن المخفر ، وقنعت بان المجاهد صادق في قوله ، طلبت من الرفاق كلهم ان يؤمنوا بنادقهم بنقلها حتى لا يتكرر الحادث ، وقد لاحظت على الوجوه التشاؤم من هذا الحادث ، لان الرصاصة التي ايقظت حامية المسيفرة ، وكبدت الدروز مئات القتلى والجرحى في تلك المعركة ما زالت ماثلة في أذهان الجميع . تابعنا سيرنا في ظل الجدار ، تحاشياً لضوء القمر أن يكشف جمعنا ، وما كدنا نتقدم مئات الامتار ، حتى أخذت طلقات رصاص تثور من البساتين التي أمامنا ، ولكنها بعيدة عنا ، كأنها اشارات بين اناس مسلحين موزعين في البساتين . وكان القائد الحلي نبهني إلى أن لديه معلومات عن عميل فرنسي في حي الميدان الف عصابة مسلحة لخدمة الفرنسيين ، وطلب مني الحذر ، وألا أباغت فيما إذا صادفت هذه العصابة في طريقي الى حي الميدان ، فلم أتوقف عن السير ، وتابعت طريقي ، وأنا أسير في الطليعة على أتم الحذر ، وبعد شوط من السير برز من تقاطع الطريق التي نسلكها ، وعلى بعد خطوات منا ، أربعة فرسان مسلحون بالبنادق ، ولكن بنادقهم كانت مستقرة امامهم ، مما يدل على اطمئنانهم ، فأشرت الى الرفاق بالتقدم ، والقبض عليهم دون اطلاق رصاص ، واندفعنا بغتة نحوهم ، وكنا لا نبين في ظل الجدار المعتم ، ونسير كأننا رجل واحد ، يتبع الواحد منا الآخر ، فما شعروا إلا

وبنادقهم وأعنة جيادهم تمسك بها أيد قوية ، وتحيط بهم جمهرة من المسلحين ، كأنهم كانوا لهم في كمين . وسألته عن هوياتهم ، وماذا يعملون في هذا المكان ، والى أين كانوا قاصدين ؟ ، فقال احدهم ، وقد تبين اننا ناثرون ، وان جمهرتنا من أبناء معروف : « اننا جماعة عبد القادر سكر من حي الميدان ، سبقنا الى الثورة أمس ، وكنا نخرج الليلة على موعد مع بعضنا للحاق به ، والالتحاق بالثورة ، والعمل بقيادته ، وخرجنا من الحي متفرقين ، واجتمعنا على موعد قرب هذا المكان ! . » ، قلت : « وهل طلقات الرصاص منكم ؟ » قالوا : « نعم .. خرجنا من أماكن مختلفة في الحي ، لنجتمع على موعد قرب هذا المكان ، ولكن أضاع بعضنا الآخر ، فأطلقنا بعض الطلقات لنهتدي بها الى بعضنا بعضاً .. » ، وفي تدقيق هوياتهم قال احدهم انه من آل المطيط ، وهي عائلة معروفة في الميدان فتقدم شقيق محمد عز الدين الحلبي الذي كان في عداد عصابتنا ، وقال : « انا اعرف هذا الرجل ، وهو حقاً من آل المطيط في حي الميدان . » ، قلت : « لا بأس عليكم ان كنتم خارجين للثورة ، ومن جماعة عبد القادر سكر ، فهو معنا في قرية قريبة من هذا المكان ، فاسمحوا لي ببنادقكم ، حتى أرفق معكم من يهديكم الى صاحبكم في القرية » قالوا : « نحن لا نسلم سلاحنا ، ونجد في تسليمه عاراً علينا ، ونكون شاكرين اذا ارفقتنا بمن يوصلنا الى عبد القادر سكر رئيسنا ! .. » ، فأقررتهم على اعتراضهم ، وفرزت عشرة مسلحين من جماعتي على رأسهم عريف ، أوصيته بان يرافقهم ، ويعاملهم كإخوان سلاح ، ويوصلهم الى القائد محمد عز الدين وضيغه عبد القادر سكر ، وتابعت السير مع سائر الفصيل نحو دمشق ، على نفس النمط السابق ، ولم نكد نتقدم نصف كيلو متر ، حتى عثرنا على جثة رجل غارقة بالدم ، اعترضت سبيلنا على قارعة الطريق ، والجثة لرجل حسن الهندام يلبس زياً شعبياً من الجوخ ، مكتمل الرجولة ، فالتف الرفاق حول الجثة ، وتبينوا ، من الدم الذي لما يتجمد ، انه فارق الحياة منذ قليل من الوقت ، فأوعزت بالسير ، ولكن الكثرة ظلت متجمعة حول الجثة تتأملها ، وتتهامس بينها ، فقلت : « ما شأن اخواني

الدروز ؟ ألم يروا قبل الليلة جثة قتيل ؟ .. اننا اصبحنا على مقربة من المخفر ،
فلا تضيعوا علينا الوقت ! » ، ولكن شقيق محمد عز الدين الحلبي ، واظن ان
اسمه عبد الغفار ، تقدم من بينهم نحوي ، وقال : « ليس بين الدروز اخوانك
من لم ير جثة قتيل ! .. ولكننا نحن الدروز والله نتفاءل ! .. - كناية إلى انهم
يتفاءلون ويتشاءمون من الظواهر - ، ثم قال : « في المرة الاولى انطلقت رصاصة
خطأ من بندقية أحد اخواننا .. وهذا أول فآل .. ثم انطلقت عدة رصاصات
في البساتين من اخواننا الشوام - اي الشاميين - الذين صادفناهم قبل دقائق ..
ونحن لسنا بعيدين عن المخفر الذي نجحنا في الاستيلاء عليه يتوقف على عامل
المفاجأة .. وهذا ثاني فآل .. والقتيل الذي جثته أمامنا لا نعرف من قتله ،
وقد تكون قتلته العصابة التي قيل لنا أن الفرنسيين الفوها في حي الميدان ضد
الثورة .. وهذا ثالث فآل .. اقول هذا باسم اخواني الدروز الذين هم معك ،
وتعرفهم انهم ليسوا جبناء يوم الروع ، وهم يقترحون أن نؤجل مهاجمة مخفر
الشرطة الى ليلة الغد ، حتى لا نصاب بأحد ، بعد كل هذه الفالات ، والغريب
فيها انها طابقت ثلاثة فالات .. ! .. ولك الكلمة أولاً واخيراً فأنت القائد
علينا .. » ، قلت : « انني أولاً لا اعتقد بالفآل ، ولا اتشاءم بالظواهر .. ثم
اننا اصبحنا قاب قوسين أو أدنى من هدفنا .. فماذا نقول لأخيك محمد عز الدين
القائد إذا عدنا اليه دون ان نقوم بالمهمة التي انتدبنا اليها .. ؟ انقول له : اننا
والله تشاء منا من مشهد قتيل على قارعة الطريق ، فعدنا من برية المسلخ ؟ ان
طلقات الرصاص التي ثارت كانت بعيدة .. وهب انها نبهت رجال المخفر ، اليس
بأيدينا سلاح ؟ لماذا لا نجرب مهاجمة المخفر ، فإذا استعصى علينا عدنا بعد أن نكون
قننا بالواجب .. انا لا اعترض على من يتفاءل منكم .. واسمح له بأن يتخلف
هنا .. وانا سائر الى اداء المهمة فمن أراد منكم أن يرافقني فليأت معي .. ومن
شاء فليبق في مكانه منتظراً عودتنا ! » ، وسرت فتبعني أبناء جرمانا كلهم ،
وعبد الغفار عز الدين ومعه قليل من أبناء جبل الدروز ، وتخلف في المكاتب
حوالي النصف من رفاقي .

فأكتفيت بمن سار معي ، لأنني أعرف أن مرتب مخفر الشرطة لا يحتاج الى عدد كبير في الهجوم عليه ، والمرتب عادة لا يزيد عن سبعة على رأسهم ضابط ، او مفوض شرطة كما يسمى في ذلك الحين . حاولت ، بعد السير ، ان اشحن من معنويات رفاقي ، فتقدمتهم ، وتجاوزتهم اكثر من خمسين متراً ، وقمت بمهمة الطليعة لهم . ولما نفذت الى الشارع العام قبلهم ، وجدت على الناصية حارساً ليلياً يجلس على كرسي صغير من القش ، وبيده عصا ، وكنت اخفي بندقيتي الفرنسية القصيرة التي استبدلتها ببندقيتي الطويلة ، ودفعت فرق ثمنها — كنت اخفيها وراء ظهري بلباسي العسكري ، وانا اسير بخطى جريئة متزنة ، لا تبين انني تأثر بخشي خطره ، حتى الحارس خدع بي وظنني جندياً او ضابطاً حكومياً . ولما رأيت الحارس لا يحمل سلاحاً حربياً تجاوزته الى الشارع العام الذي يمر به خط الترام الى الميدان الفوقاني ، وانحرفت الى اليسار باتجاه المخفر الذي وصف لي الرفاق من ابناء جرمانا مكانه ، وحددوه لي ، واخترت ان اسير بنفس الخطوات القوية المتزنة في منتصف الشارع ، كأني عابر سبيل ، او قادم بمهمة الى المخفر ، لعلي اصل اليه ، قبل ان ينتبه احد الى رفاقي القادمين من الطريق الجانبي ، ففوجئت برجال شرطة المخفر جالسين مع مفوضهم على الكراسي في الرصيف المقابل للمخفر ، يلبسون قراء من جلود الخراف فوق لباسهم الرسمي ، اتقاء لبرد الليل ، وبايديهم بنادقهم تستند كعابها الى ارض الرصيف ، فسرت بخطواتي الثابتة نحوهم ، لا يريهم شكلي ، لا سيما وانا وحيد اظهر كأني غير مسلح ، وظلوا ينظرون اليّ ، ولكن ظهور رفاقي في الطريق العام ، وتجمعهم على الحارس الليلي ، يسلبونه مسدسه الضخم ، وعصاه وملابسه ، نبه رجال الشرطة الى انهم امام عصابة من الثائرين ، فنفروا من مقاعدهم يركضون على الرصيف في اتجاه الميدان الوسطاني ، فاضطربت لان اطلق النار عليهم ، حتى لا اترك لهم مجالاً للمقاومة او اصابة احد من رفاقي الذين شغلوا لحظات بالحارس ، ثم اندفعوا في الشارع العام يطلقون رصاص بنادقهم في الهواء ، فأطلق رجال الشرطة طلقات قليلة من بنادقهم ، ثم اختفوا في الازقة الى الجانب الايمن من الشارع ،

بعد ان ترك بعضهم فراءه على الكراسي ، فذهبت غنيمة للثائرين . وكنت ، عند البدء باطلاق الرصاص ، شاهدت سلك الترام المكهرب قد انقطع من رصاص جماعي ، وسقط بقوة الى الارض ، فلذت بناصية زقاق ضيق ، أتميز منها بنساء المخفر من بين المنازل والخوانيت القائمة على يسار الطريق ، ووصل الى جانبي ، في تلك اللحظة احد شباب جرمانا ، وهداني الى المخفر القريب ، وهو في الطابق الاول ، فوق الخوانيت ، يصعد اليه بسلم . وكان مضاء بالكهرباء ، فأطلقت رصاصة على نوافذه ، واطلق مثلها صاحبي ايضاً ، فلم نشعر بأي مقاومة من المخفر ، وادركت ان جنوده كلهم كانوا جلوساً في الشارع ، حيطة ، بعد سماع الطلقات المتقطعة الصادرة من البساتين القريبة ، وانهم نجوا بانفسهم ، قبل ان يؤخذوا على غرة . وكنت اسمع بعض طلقات بنادقهم تصدر عميقاً من بعيد ، فأوعزت بالهجوم على المخفر ، وتقدمت الهجوم ، فلما بلغت الباب اندفع الرفاق كلهم يصعدون السلم ، وهم يحدون ويهزجون ، حتى لم يبق غيري وغير صاحبي ، فأمسكت بذراعه ، وحلت دون صعوده وقلت له : « ابق معي في الشارع باتجاه مخفر الشيخ حسن القريب ، وأمرته ان يطلق النار على كل قادم من تلك الجهة ، وركعت الى جانب ركيزة حانوت لنحتمي اخواننا من المفاجآت ! » ، واقمته وراء ركيزة حانوت متجهاً الى الميستان الفوقاني ارقب الطريق ، ومنافذ الازقة القريبة حتى لا نباغت بشرطة المخفر المنهزمين ، أو بغيرهم ، وإن كنت اعرف انهم راضون بالسلامة ، وان هزيمتهم لا رجعة لها . بعد بضع دقائق هبط الرفاق يهزجون ، يحملون كل ما عثروا عليه في المخفر من أثاث يمكن حمله ، حتى آلة الهاتف جاؤوا بها مع الفرش وأغطية أسرة الجنود ، فغادرنا المخفر ، وعدنا بنفس الطريق ، ولما انعطفنا في طريق بركة المسلخ ، سمعنا طلقات رصاص عميقة صادرة من ناحية مخفر الشيخ حسن ، فقدرنا ان شرطة المخفر يطلقون الرصاص خوفاً من ان يهاجموا ، بعد ان سمعوا الطلقات الكثيرة التي اطلقناها على المخفر المجاور لمخفرهم . بعد قليل تقدم نحوي شاب من جرمانا ، وقال : « انني وجدت هذا المسدس على المنصة

داخل المخفر ، ويجانب آلة الهاتف ، وأنا أقدمه هدية اليك ! .. » ، قلت :
« شكراً لك .. انك احق مني ، لانك كسبته حلالاً في اشتراكك معنا ،
ودخولك المخفر .. فابقه لك .. انه سلاح تحتاج اليه في جهادك . » ، وقدرت
بعد هذا الحديث ان شرطياً كان في المخفر ، الى جانب آلة الهاتف ، تخلى عن
مسدسه ذعراً .. ووجد لنفسه مخبأً او سبيلاً للفرار من السطح الى المنازل
المجاورة ، اذ ليس من المعقول ان يتخلى شرطي عن مسدسه ، ويجلس على قارعة
الطريق ، عند منتصف الليل ، خاصة في ايام الثورة . وصحت نبوءتي ، فقد
نشرت جريدة « الف باء » الدمشقية لصاحبها يوسف العيسى ، وصفاً لمهاجمة
مخفر باب المصلى في تلك الليلة ، قالت فيه ان شرطياً من مرتب المخفر كان داخله
لها اجتاحه الثائرون ، ففر الى السطح ، وربط نفسه من تحت ابطيه بجبل
للغسيل وجده على السطح ، بعد ان خلع ملابسه الرسمية ، حتى لا يعرفه
الثائرون اذا ما وقع بأيديهم ، وبقي بالثياب الداخلية ، وتدلّى الى خلف
المخفر يريد الفرار من البستان الخلفي ، ولكنه اصطدم بان الحبل قصير ، والمسافة
التي تفصله عن الارض كبيرة ، فخشي ان تتكسر عظامه اذا قفز من هذا
العلو الشاهق ، وظل ساعات معلقاً من تحت ابطيه يتدلّى على الجدار ، حتى سمع
اخيراً احد المارة صوته ، واخبر رفاقه ، فخرجوا ، وانقذوه من
كربته ! ..

عدنا في الساعات الاولى من صباح اليوم الثلاثين من شهر تشرين الثاني ١٩٢٥
الى بيت سحم ، بعد ان انضم الينا رفاقنا المنتظرون عند جثة القتيل ، واطلعت
القائد على ما تم ، فشكرني . وهذا ما نشرته جريدة « الف باء » عن الحادث
بالنص الحرفي :

« انتقل جماعة الثوار الذين هاجموا اول امس معمل القزاز (الزجاج) في
الشاغور ، كما ذكرنا في عدد امس ، الى محلة الميدان ، فدخلوها في الساعة الواحدة
بعد نصف الليل ، وتقدر قواتهم بمايتي رجل ، فهجموا على المخفر الموجود في

باب المصلى ، واطلقوا نيران بنادقهم عليه ، فثقبوا جدرانها من محلات عديدة .
وحدث ان احد رجال الشرطة كان على سطح المخفر ، فلما سمع صوت الرصاص
خاف خوفاً شديداً ، فألقى برذائه وقلبه في سطل ماء هناك ، ودلى حبلاً كان
معه الى البستان الذي بجانب المخفر ، وتدلى عليه ، ولكنه لم يصل إلى طرف
الحبل حتى رأى ان مسافة بعيدة تفصله عن الارض ، واذ لم يتمكن من
الصعود ثانية لأنه بلا سلاح ، قضى معلقاً في الفضاء . اما باقي رجال الشرطة ،
فلم يكونوا اذ ذاك في المخفر ، فلما علم الثوار بعدم وجود الشرطة ، هجموا
عليه ، واخذوا جميع ما وجدوه من الاسلحة والامثلة التي وقعت بأيديهم ، ثم
أطلقوا بعض طلقات نارية في الفضاء ، وقفلوا نحو الساعة الثانية والنصف راجعين
من حيث أتوا . ولا تسل عن الرعب الذي استولى على قلب الاهالي في تلك
اللائه ، اذ قضوا تلك الليلة ، ولم يغمض لهم جفن . ولما خرجوا صباحاً ،
ذهبوا الى حيث كان الثوار في الامس ، فرأوا الارض مفروشة تقريبا بالخرطوش
الفارغ الذي كانوا يطلقونه في الفضاء . « ، وهكذا قدر رجال الشرطة عددنا
بمئتي مسلح ، في حين ان عددنا لا يزيد عن العشرين !

فرنسة تسعى لعقد هدنة

٥٠

القت الطائرات في اليوم الثلاثين من الشهر قنابلها علينا في قرية « يلدا » من
قرى الغوطة ، فقتلت سائق مركبة نقل من الاهلين ، ودابتى المركبة ، وجرحت
مساعد السائق ، وقتلت اثنين من المجاهدين الدروز . وفي اليوم نفسه هاجمت
عصابة الخراط نهراً مخافر الشرطة في حي الميدان ، وقتلت اربعة من رجال
الشرطة ، واعتقلت خمسة منهم . وفي الليل توجهت قوتنا بقيادة محمد عز الدين

الى جسر للخط الحديدي بجوار قرية « سبينه وسبينات » على طريق دمشق - حوران ، جنوبي دمشق ، واسمه « جسر الباردة » ، وخربناه ، واقتلعنا ما يقدر طوله بثلاثمائة متر من الخط الحديدي ، وعدنا الى قرية يلدا ، فألقت طائفة قنابلها علينا في اليوم الاول من شهر كانون الاول ١٩٢٥ . وفي الليل أرسلنا شحنة من قوتنا الى مخفر « بوابة الله » ، في حي الميدان ، فوجدته خالياً خاوياً . لذلك عادت ، بعد ان أطلقت نيران بنادقها على ثكنة القدم لإزعاج حاميتها .



وفي اليوم الثاني من كانون الاول عاد زكي الدروبي ونزيه المؤيد العظم من وادي التيم اثر معركة راشيا . وفي اليوم الثالث من الشهر القت طائفة قنابلها علينا في قرية « بيت سحم » ، فأصابها رصاصنا ، وتعطلت ، وسقطت قرب قرية القدم . وقبل ظهر هذا اليوم استشهد العقيد فؤاد سليم قلب الثورة النابض ، وضابطها المثقف الشجاع ، في موقع « التل الاسود » ، قرب قرية « السحيطة » من أعمال مجدل شمس في

اقليم البلان . استشهد بمرمى مدفع اطلقه العدو ، المجاهد عبد الحليم الدركزلي .
اثناء معركة نشبت هناك ، فكان لاستشهاده دور في كل مناطق الثورة ، لما كان للبطل الشهيد من حب وتقدير في القلوب .

وقد علمنا من محمد عز الدين الحلبي قائدنا أن الامير طاهر الجزائري من وجهاء دمشق ، وعميد أسرة الامير عبد القادر الجزائري ارسل اليه يطلب منه ان يقابله على انفراد في قرية « حوش بلاس » جنوبي دمشق ، وانه موفد من قبل

الفرنسيين للمفاوضة مع قيادة الثورة في الغوطة على عقد اتفاق للهدنة بين الفريقين ، بمناسبة وصول « مسيو دي جوفنيل » المفوض السامي الجديد الى بيروت ، يحمل حلولاً للقضية السورية تحتاج الى مفاوضة بينه وبين زعماء البلاد . وقد توجه محمد عز الدين في الوقت المحدد إلى القرية ، ولكنه لم يجد الامير طاهر الجزائري فيها ، وكان غادرها إلى دمشق ، لان السلطة الفرنسية استدعته ، في آخر لحظة من القرية ، وطلبت منه الغاء المقابلة مع قائد ثورة الغوطة ، حتى لا يفسر موقفها بالضعف . ولكن الحادث ، بما سبقه من اتصال بين دي جوفنيل والوطنيين السوريين في مصر ، في طريق قدومه إلى سورية ، يوضح ان الفرنسيين اصبحوا في وضع حرج من انتشار الثورة في سورية ، واشتداد حملاتها على مواقعهم ، وعجزهم عن انتزاع نصر عاجل عليها . وفي اليوم الرابع من شهر كانون الاول بلغنا ان الفرنسيين الفوا عصابة في ضواحي حي الميدان على رأسها عميل يدعى « سليم المفتي » ، مهمتها الفتك بالثائرين ، واغتيال زعمائهم وقادتهم ، واكد ناقلو الخبر الينا في قرية « ببيلا » ان العصابة تتجول علناً في النهار في البساتين المجاورة لحي الميدان ، فانتدبني محمد عز الدين للقضاء على هذه العصابة ، وأرفقني بخمسين فارساً من مجاهدي الدروز ، ومجاهدي حي الميدان ، ورافقني نزيه المؤيد العظم ، فأخذنا بعد الظهر نخترق البساتين ، حتى دنونا من « بوابة الله » ، وهو موقع في حي الميدان من دمشق ، على مقربة منه ثكنة القدم ، وفيها حامية افرنسية قوية . وما كدنا نصل حتى سمعنا أزيز الرصاص ، وعلنا من البارة ان الفرنسيين وجهوا من الثكنة قوة تقدمت نحو البساتين المجاورة لحي الميدان ، واصطدمت بعصابة صغيرة من مجاهدي حي الميدان على رأسها أبو القاسم شقيق عبد القادر سكر (قد يكون أبو قاسم الدرخباني من البارزين في عصابة الميدان) ، فأطلقنا أعنة جيادنا نحو ساحة المعركة ، ولما دنونا منها ترجلنا ، وبدأنا نضيق الحصار على الفرنسيين الذين ما كادوا يشعرون بوصول نجدة الى الثائرين المشتبكين معهم ، حتى فروا إلى الثكنة تحميمهم الرشاشات المنصوبة وراء معقلها وحصونها وثغراتها . ولجأ بعض الجنود الى معمل القدم

العائد لإدارة الخط الحجازي تاركين وراءهم عدداً من القتلى والجرحى . وكان الليل اخذ يحيم على المنطقة ، فعدنا الى قرية « ببيلا » حيث علمنا ان محمد عز الدين توجه بقواته الى قريتي حتيته التركان ودير العصافير لمواجهة متعب الاطرش وعلي الاطرش ، ومعها حملة من المجاهدين الدروز جاءت بطريق الغوطة لنجدة الثورة في اقليم البلان ووادي التيم ، فقد بلغ قيادة الثورة في الجبل أنباء عن تكرار الحملات الفرنسية على تلك المنطقة الثائرة ، وحاجتها لنجدات تواجه تلك الحملات .

معركة يلدا وبييلا

٥١

سرت بالفرسان الذين معي الى قرية «عقربا » للمبيت فيها ، على أن نلحق في الصباح الباكر بمحمد عز الدين الحلبي ، ولكن رسالة وردتني في الليل من نزيه المؤيد العظم الذي بقي مع عدد من مجاهدي الميدان في قرية « ببيلا » يعلمني فيها أن نبأ وصل اليه من مصدر ثقة في دمشق يشير الى ان حملة كبرى من الجيش الفرنسي ستزحف في الصباح الباكر الى قريتي يلدا وبييلا اللتين أصبحتا مقراً للثائرين ، يقومون منهما بالهجوم على أحياء المدينة ، وخاصة منها حي الميدان ، ويطلب مني الحضور ليلاً بمن معي من فرسان الى يلدا وبييلا ، والاستعداد للقاء الحملة قبل زحفها . ولما كنا سرية من الفرسان موفدة من القيادة بمهمة أديناها ، اتفق رأينا على أن نسير قبل الفجر لننضم إلى قيادتنا ، ونخوض المعركة معها ، ان صح النبأ . وكان من حسن الحظ ان أهالي يلدا وبييلا في طليعة فلاحي الغوطة إقبالا على شراء السلاح ، وتأليف عصابة من شباهما ، تحمي القريتين من النهابين ، وتخوض المعارك الى جانب المجاهدين . وبعدها أخذت سائر قرى الغوطة تقتفي اثرهما ، فبادرت قرية جوبر بعدهما لشراء

السلاح ، فاشترت مئتين وخمسين بندقية في اسبوع واحد ، وغدت بعصابتها القوية حارساً أميناً للثورة على ابواب دمشق .

سرنا مع فجر الخامس من شهر كانون الاول من قرية « عقربا » ميممين شطر دير العصافير ، وما بزغت شمس ذلك اليوم حتى سمعنا أزيز الرصاص من جهة حي الميدان ، ورأينا محمد عز الدين بقواته قادماً نحونا ، بعد ان انضم اليها فريق من مجاهدي الميدان على رأسهم عبد القادر سكر ، وانضمت اليهم ايضاً القوة القادمة لنجدة اقليم البلان بقيادة متعب وعلي الاطرش ، واقبل مسلحو جرمانا بالعشرات ، وتخلف عن الزحف زيد عامر ومعه حوالي اربعين فارساً من الدروز . وكان هذا الرجل لا يعرف غير الطواف بمن معه على القرى يستضيفها ، ويفرض عليها طلباته ، ويرتكب فيها أساليب النهب والسلب ،



جنود الغاصبين يحتمون وراء الحصون

فإذا جد الجد ، وشمّر المجاهدون للحرب ، ابتعد عن أرض المعركة ، وإذا حمي وطيس المبارك ، انكفأ بمن معه الى جبل الدروز يستجمر فيه من وعاء السفر .

عدنا بزحفنا الى قرية « عقربا » ، فاستشفتنا احدى الطائرات الست المحلقة منذ الصباح الباكر في سماء الغوطة ، وقصفتنا بقنابلها ، فترجلت ، وسلمت فرسي الى فلاح من أهالي عقربا ، وسرت مع الجيش الثائر الذي اربى بعدده على ستمئة مسلح ، نصفهم بقيادة متعب وعلي الاطرش ، حتى بلغنا قرية ببيلا حيث كان العدو بلغها بقواته ، بعد ان اصطدم بنحو ساعتين ، بمجاهدي الميدان ومسلحي يلدا وببيلا ، الذين راحو مع الفجر ، ورابطوا في البساتين القريبة المشرفة على السهل المحاذي لطريق الميدان — بويضة ، ولكن المدفعية والطائرات ارغمتهم على التراجع الى قرية ببيلا يصدون عنها العدو الذي ما شعرا لا والمجاهدون اطبقوا عليه ، وصدموه ضدمة هلع لها . وكان الزحف من قواتنا مركزاً في اول الامر على جناح العدو الايسر ومقدمته ، ثم اخذت قواتنا تحيط به . وكانت حملته في ذلك اليوم تبلغ عدداً بضعة آلاف من الفرسان والمشاة ومفارز الرشاشات والجنود المغاربة والفرق الاجنبية والسنغال ومتطوعة الشر كس وغيرهم ، تحميمهم سبع دبابات وست طائرات ومدفعية قوية تؤازرها المدفعية من قلاع دمشق وثكناتها . ذهل العدو لهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها ، فقد كانت مخابراته تحصي عدد الثوار في الغوطة بمئات من المسلحين ، مبعثرين في عصابات لا تربطها قيادة موحدة ، واذا به بعد الصدام ساعتين مع عصابة لا تعد اكثر من مئة مسلح ، يجد نفسه امام جيش من الدروز احاط به فجأة وصدم مقدمته وجناحيه ، وانزل به من الخسائر في اقل من ساعة ما لم يكن يتوقعه ، فتوقف اولاً عن الزحف واخذ بنيرانه الشديدة يحاول الثبات في مواقعه ، ولكن ابطال الدروز ، وبينهم القادموون الجدد ، وفي عدادهم من اهل السويداء المعروفون بشجاعتهم ، تبادلوا مع العدو الرومانات اليدوية ، على مسافة لا تزيد عن الاربعين متراً ، مستفيدين من موانع الغوطة واشجارها واقنيتها وجدرانها للدنو منه ، ثم قاموا بهجوم على مواقع الرشاشات التي تحمي العدو ، فسقط ستة مجاهدين ، ووصل الباقون الى الرشاشات يصرعون جنودها برصاصهم وسيوفهم ، فاندحر العدو أمامهم ، وتضعضت صفوفه الباقية ، ودبت فيها الهزيمة ، ولحقت بها الدبابات

تخشى ان يصيبها ما أصاب المدرعات الفرنسية في معركة المزرعة ، تدفع جهد طاقتها هجمات المجاهدين على الجند ، وجثث القتلى والجرحى من الفرنسيين تغطي ارض المعركة ، فلا يجد المنهزمون وقتاً لهم معهم . وما انتصفت الشمس كبد السماء حتى كان المجاهدون على ابواب مدينة دمشق ، والمهمة تلجأ الى حي الميدان ، وثكنة القدم ، والمقبرة بجانبها ، ومعمل الخط الحديدي ، منهزمة ، تتحصن فيها . وما لبث المجاهدون ان ارغموا المتحصنين في المقبرة على مغادرتها ، ففروا يتحصنون بالثكنة ، وبشوارع حي الميدان وأزقته ، فتعقبهم المجاهدون في الازقة والشوارع ، وخرج النسوة من المنازل يحملن اكداس الخبز مع الطعام واواني الماء يستقبلن بها المجاهدين ، ويزغردن ، وقد سفرن عن وجوههن ، وهن المحجبات في خدورهن ، المعروفات بانهن يعشن في حي الميدان المحافظ على عاداته وتقاليده . وقد ارتبك واضطرب الفرنسيون من هذه الهزيمة التي لم تدخل في حسابهم ، وعززوا جندهم المنهزم بقوات جديدة ، وملأت الدبابات والمدرعات البساتين المجاورة لحي الميدان ، والطائرات تساعد بالقفص ، وتدخلها على تجمعات المجاهدين . والحق يقال ان يوم يلدا وببيلا كان يوماً معدوداً من أيام الثورة ، عرفت دمشق ان على ابوابها قوة من المجاهدين تدحر الجيوش ، وتهزمها شر هزيمة ، وترغمها على ان تلوذ باوكارها من الحصون والثكنات .

دنا الغروب فاخذ المجاهدون يغادرون حي الميدان والبساتين المحيطة به ، يحملون الكثير من الغنائم : بنادق ورشاشات ، وصناديق ذخيرة ، وملابس كثيرة من قتلى العدو وجرحاه ، فبلغ ما غنموه اكثر من مئة وخمسين بندقية ، وثلاثة رشاشات ثقيلة ، وعشر بنادق رشاشة ، وعتاد كثير حتى بيع كل مئة وعشرين طلقة فرنسية بزيال واحد من الفضة . وأربت خسائر العدو على ستمئة قتيل وجريح . اما خسائر المجاهدين فكانت ثمانية شهداء ، وبضعة عشر جريحاً .

عدنا مساء الى قرية « بيت سحم » ، فوجدنا حسن الخراط وابناء عكاش وعصابتهم يخطرون في ازقة القرية زاعمين انهم لبعدهم عن ساحة المعركة لم يستطيعوا خوضها ، واللحاق بالدروز ، في حين ان نزيه المؤيد ارسل اليهم في الليل يعلمهم بنبا الحملة ، وسمعوا من الصباح الباكر قصف المدفعية ، وتفجر قنابل الطائرات ، وازين رصاص المعركة ، اذ كانوا في قرية « عربين » على مسافة بضعة كيلومترات من ارض المعركة ، ولكنهم ، بعد معركة الزور الثانية ، وجرح الخراط ، اتفقوا فيما بينهم على ان لا يخوضوا معركة وجهاً لوجه مع الجيش الفرنسي ، وتركوا ذلك لقوة محمد عز الدين الحلبي لعلها تسحق مرة فيتخلصوا منها ، وتبقى لهم الغوطة بخيراتها ، يتحكمون بمقدراتها ، ويتسلطون على الاغنياء اصحاب الحوانيت والمزارع فيها من أهالي دمشق . ولكي تبقى لهم سمعتهم الثورية قرروا ان يهاجموا احياناً مخافر الشرطة في احياء مدينة دمشق ، وتدخل شراذم منهم بعض احياء دمشق القديمة الخالية من الدفاع الفرنسي ، ليلاً أو نهاراً ، وتخرج بالإتاوات من أغنيائها ، وتناوش احياناً في الليل حامية معمل الزجاج خارج الباب الشرقي من مدينة دمشق . وسمع زيد ابو خمري عامر بالنصر المؤزر على العدو ، فجاء بعصابته الى « بيت سحم » ليحضر اجتماع قادة الثورة دون خجل أو حياء .

استمرت مدفعية دمشق تقصف الغوطة من القلاع كل ساعات الليل بطوله ، وظلت الطائرات تخلق فوق حي الميدان وبساتينه الى ما بعد الغروب من نهار المعركة ، رغم ظلمة الليل ، مما يدل على ان الفرنسيين كانوا يخشون التأثيرين في المدينة ، وان يحاولوا احتلالها ، ومهاجمة ثكناتها وقلاعها ، ولم يعلموا ان الظروف هي التي جمعت قوة كبيرة من مسلحي الدروز في الغوطة ، يوم زحفت حملتهم لضرب الثائرين في مناطق الغوطة القريبة من حي الميدان ، وان حوالي نصف القوة التي قابلتهم في المعركة غادرت في اليوم الثاني الغوطة متجهة الى اقليم البلان ووادي التيم .

لقد كان هدف الفرنسيين من زحفهم على قريتي يلداء وبيلا القضاء على قوة
الناشرين التي أكدت مخبراتهم أن عددها لا يتجاوز ثلاثمائة مسلح في الغوطة
كلها ، أو على الأقل القضاء على عصابة حي الميدان التي أخذت تزداد وتقوى ،
وتقوم كل يوم بدخول الحي ليلاً ، وترجع الفرنسيين بهجماتهما على مواقعهم ،
وترابط في النهار في البساتين المحيطة بالحي ، تنازل أي قوة فرنسية تخرج من
ثكنة القدم ، حتى أصبحت حامية تلك الثكنة في حال حصار دائم ، مع أنها
ثكنة في مدينة دمشق . أو ربما كانوا يرمون إلى اظهار قوتهم اثر وصول مفوضهم
السامي الجديد الى بيروت ، وتصريحه الشهير : « الحرب لمن يريد .. والسلم لمن
يريد السلم ! » ، وكان دي جوفنيل صرح بهذا اثر فشل مفاوضاته مع ممثلين عن
لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني في مصر . لذلك كانت هزيمتهم في معركة يلداء
وبيلا كبيرة الاثر عليهم ، قلبت خططهم رأساً على عقب ، وحملتهم على سحب
الكثير من قواتهم في جنوب لبنان واقليم البلان الى دمشق ، بعد ان اقاموا
حاميات ثابتة في حاصبيا وراشيا وجديدة مرجعيون وغيرها من المواقع التي
يخشون هجمات المجاهدين عليها ، وفتحوا باب التطوع لشباب الشر كس
والاقلية العنصرية والمذهبية ، يدفعون اكثر من عشر ليرات ذهبية للمتطوع من
المشاة راتباً ، وخمس عشرة ليرة ذهبية للفارس ، ولابدأوا يرسمون خطة جديدة
لضرب الناشئين في معاقل الغوطة ، وانشاء مخافر جديدة تفصل ما بينها وبين
قرى المرج ، وترسم قوساً يحيط بها ، وتساعد على تطويق العصابات والاحاطة
بها ، في حال تمكن الجيش الفرنسي من توجيه الضربات اليها عند زحف قواته
الى الغوطة ، او وضع خطة لتطويقها . وقد شاع ان دي جوفنيل المفوض السامي
الفرنسي اضطر الى ارجاء زيارة دمشق ، حسب البرنامج الذي كان أعلنه ، فقد
حملت اليه تقارير مخبراته ان الناشئين أعيدوا خطة لقتله أثناء تلك
الزيارة .

عدوان الخراط على رمضان شلاش

لم يقتصر اثر النصر الذي انتزعه المجاهدون في معركة يوم السبت في الخامس من شهر كانون الاول ، على الفرنسيين وحدهم ، بل كان اثره كبيراً ايضاً على سكان الغوطة الذين كانوا مثلاً أعلى في البذل والتضحية منذ بدء الثورة ، الى آخر يوم من ايامها ، فقد هبوا يشترىون بمالهم السلاح لمؤازرة الثورة ، والحفاظ على قراهم من النهابين والслаبين . وكان مقاتلة الدروز يبيعون اسلحتهم لأهل الغوطة بأسعار جيدة ، ويعودون الى قراهم في الجبل ، مما انقص عدد الثائرين الدروز في الغوطة ، بل كان بعضهم التحق بحملة متعب الاطرش وعلي الاطرش التي سارت الى اقليم البلان ، وغادر الغوطة ، فضعفت قوة محمد عز الدين الحلبي التي كانت القوة الوحيدة التي تنازل وتصمد للحملة الفرنسية عند زحفها الى الغوطة ، وتواجهها في معارك طاحنة وجهاً لوجه ، واصبح نصف أفرادها عزلاً من السلاح ، عبثاً بإعاشتهم على أهل القرى ، وعبثاً على قيادتهم .

كنا مع القائد محمد عز الدين في قرية « سقبا » ، وإذا بالخراط وعصابته يصلون الى القرية ، ويدعو الخراط إلى عقد اجتماع عاجل للقادة ، ثم يطلب إحضار رمضان شلاش الى الاجتماع ومحاكمته على ما يقال عن فرضه الاتوات على القرى ، وعن جمعه المال باسم الثورة . وكان الخلاف بين الخراط وشلاش معروفاً وشائعاً ، يوم كان الاثنان في قلمون مبتعدين عن جو الغوطة المثلث بالحملة والطائرات الفرنسية . وانتدب الخراط عدداً من رجاله ليأتوه بخصمه ، فلما احضروه امر بتفتيش جيوبه وحقيبته ، وصادر ما معه من اوراق ، واخذ يقرأ ما فيها ، وصادر ما معه من نقود ، بلغت عدداً تسع ليرات ذهبية ، تبين انه استدانها من أحد معارفه ، يوم ان كان مع نسيب البكري ضيفين على وجهاء الميسدان ، وسلبه الخراط سيفه وخنجره والوسام الذي كان منحه اياه الملك الحسين في الحجاز مع لقب « باشا » ، وعلق الخراط الوسام على صدره

قائلاً له : « انا احق منك بهذا الوسام ! » ، ولما سمعت بما صنعه الخراط برمضان
شلاش ، عاتبت العقيد سعيد العاص على سكوته عن مهزلة المحاكمة التي اتخذها
الخراط وسيلة لشفاء احقاده على رمضان شلاش ، وعجبت كيف وافق هو
ومحمد عز الدين الحلبي ونسيب البكري وغيرهم ممن حضروا الاجتماع على هذه
الاجراءات الظالمة التي لا تستند إلى منطق أو قانون ، فاعتذر العاص بانهم
وافقوا مبدئياً على استدعاء رمضان شلاش الى الاجتماع ، والتحقيق في التهم
الموجهة اليه ، فإن ثبتت صحتها اجبر على السفر الى جبل الدروز مع تقرير
يوضح لسلطان الاطرش قضيته ، ولكن الخراط استغل الاجتماع ، وأهان
شلاش ، واعتبر التهم الموجهة اليه بحكم القضية المقضية ، ونصب نفسه خصماً
وحكماً ، ولم يتمكنوا من ردعه حذراً من وقوع صدام بين الثائرين يؤدي الى
مذبحة هم في غنى عنها . وقد اشرنا من قبل الى اغتنام رمضان شلاش فرصة
الغارة الجوية على قرية « سقبا » في ذلك الاجتماع ، وانفراط عقد المجتمعين لالتقاء
الغارة ، حيث بادر الى جواده ، واعتلى صهوته ، وفر الى قلمون ، ثم وجد بين
المجاهدين من مناه بالاماني ليرافقه الى عشيرته في منطقة الفرات توسيعاً للشورة ،
حتى اذا بات على مقربة من سلمية أرسل الى امرائها يوسطهم في استسلامه
للفرنسيين ، واستسلم لقاء راتب خصص له ، الى جانب تعليم أبنائه في المدارس
على نفقة فرنسا .

معركة مع المدرعات

- ٥٢ -

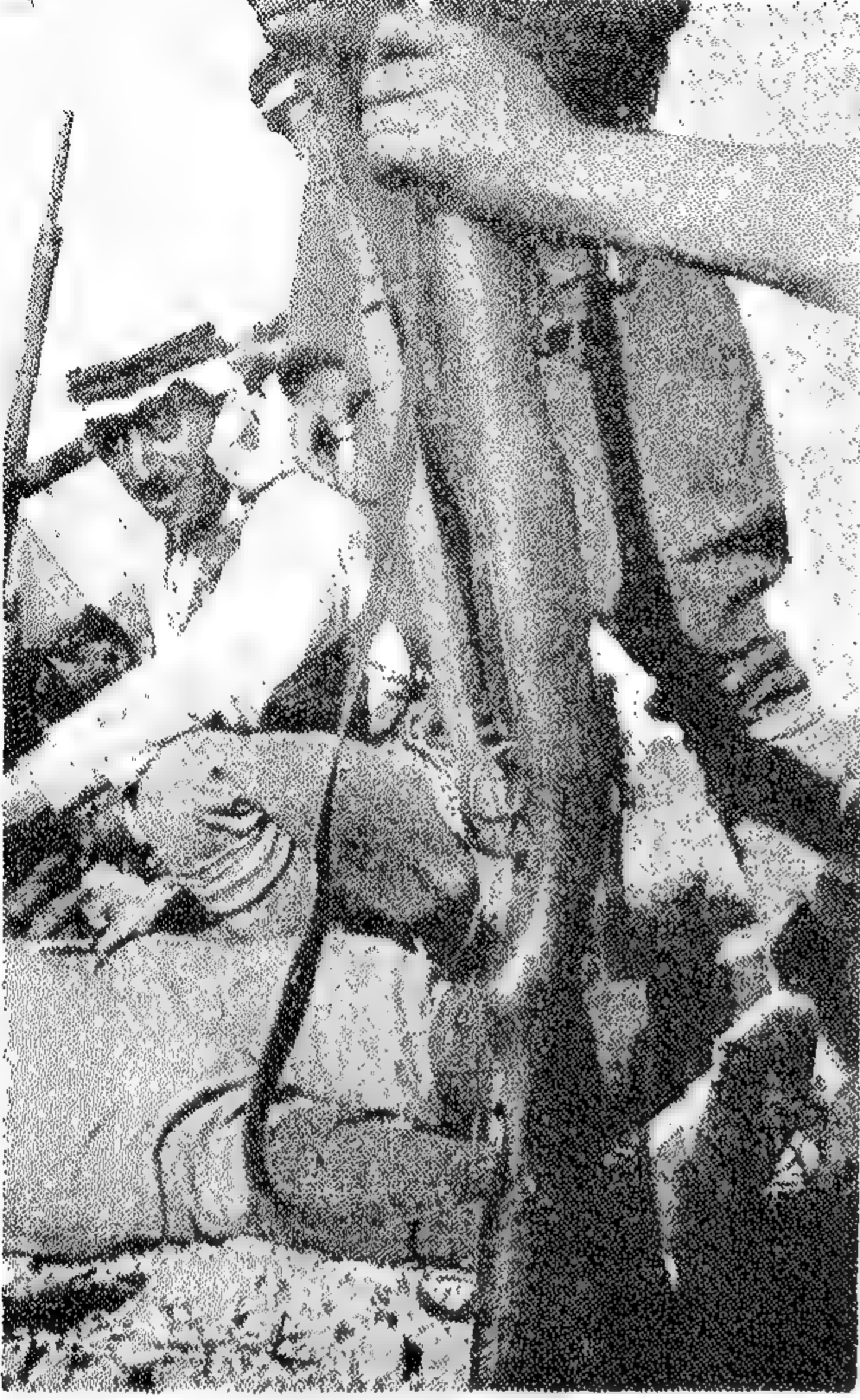
أخذت مدفعية الفرنسيين ، بعد هزيمتهم الاخيرة ، تقصف من قلاع دمشق
وئكناتها قرى الغوطة في الليل والنهار ، خاصة منها جوبر ، ويلدا ، وببيلا ،

وعقربا ، وكفر بطنا ، وبيت سحم ، وسقبا ، وحمورية ، كما أخذت طائراتهم تشن الغارات ، وتدمر المنازل على الاطفال والنساء والشيوخ ، فنزح معظم العائلات الى دمشق ودوما وقرى المريج البعيدة ، وخلت المنازل من أهلها . واذكر ليلة قضيناها مع قوة محمد عز الدين في جوبر ، استيقظنا في منتصفها على اصوات تفجر القذائف ، وانهيار المنازل ، فجمعنا قوتنا ، وانتقلنا بها الى قرية القابون حتى تمكنا من النوم والراحة بقية الليل . وكان الشائرون في المقابل يقومون بهجمات في الليل والنهار على احياء المدينة ، وتتكفل كل عصابة بالحي الذي تنتمي اليه ، فعصابة ديب الشيخ تتسلل الى العمارة ، وتهاجم المواقع الفرنسية فيه أو القريبة منه ، وعصابة الخراط تشغل حي الشاغور واطرافه ، وعصابة الميدان تقض مضاجع الفرنسيين في مواقعهم في هذا الحي ، وأخذت احياء دمشق الاخرى تدفع بشبابها ورجالها الى الغوطة تؤلف العصابات ، وتهاجم المواقع الفرنسية في تلك الاحياء .

وفي اجتماع اتفقت كلمة رؤساء العصابات على أن يقوموا يوم العاشر من شهر كانون الاول عام ١٩٢٥ بمهاجمة مدينة دمشق بقواتهم من عدة جهات ، ويبقوا فيها وقتاً محدداً قصيراً ، ثم يعودوا الى قواعدهم ، فدخلنا دمشق مع محمد عز الدين الحلبي ، ودخلت العصابات الاخرى من جهات أخرى ، وسمع أزيز الرصاص في كل مكان ، وهوجمت مخافر الشرطة ومراكز الدفاع الفرنسي ، ثم انسحب الجميع الى قواعدهم .

وبلغ مسامعنا صباح اليوم الثاني أن ثلاث مدرعات توجهت من دمشق تحرس قافلة سيارات تنقل المؤن الحامية دوما ، فتوجهت قوة محمد عز الدين الى طريق دمشق - دوما ، ورابطنا على مقربة من قرية عربين في نقطة تشرف على الطريق ، ثم أقبلت عصابة أبناء عكاش التي انفصلت عن عصابة الخراط ، وانضمت اليها في انتظار عودة السيارات المدرعة ، وقام الشائرون بحفر خندق يقطع طريق السيارات عرضاً ، وربطوا سلكاً غليظاً ، أي حبل معدنياً بها

يستخدم في قطر وجر السيارات ، شدوه بين شجرتين على جانبي الطريق ، كي
نرغم المدرعات عل التوقف عند عودتها الى دمشق . ورابطنا في البساتين المشرفة
على الطريق . ولما دنا وقت الظهيرة ، وصلت المدرعات ، وحاول أفراد ركبها
إزالة الموانع ، ولكننا أصليناهم ناراً قابلاً وناباً شد منها من رشاشاتهم ومدافعهم ، ودامت
المعركة حوالي ساعة واحدة ، قفلت بعدها المدرعات راجعة الى دوما . ثم حلقت
طائرة فوقنا ، وتابعت طريقها الى دوما فدمشق . ولما دنا العصر فوجدنا بخمس
طائرات تقصف مواقعنا ، وتنقض علينا برشاشاتها وتعود الى دمشق . بلغني
بعد الغارة الجوية أن العقيد سعيد العاص احضر المدفع الصغير الذي كنا ارسلنا
لشرائه من الجبل بتبرعات اهل سقبا ، وهو مدفع منزوع من مدرعة ، ومن عيار
٣٧ ميليمتراً ، واقامه في مكان قريب جداً من طريق السيارات ليستخدمه ضد
المدرعات ، فيما إذا عادت ثانية من دوما ، فتوجهت نحو المكان لرؤية المدفع ،
ولما أصبحت على بعد عشرين متراً منه ، في مكان مكشوف ، وصلت المدرعات
من دوما ، وأخذت تطلق نيران مدافعها ورشاشاتها علينا ، ووصل في نفس
الوقت ثلاث مدرعات أخرى من دمشق ، معها سيارة نقل تقل جنوداً من
المتطوعة ، فأطلق سعيد العاص ورفاقه نار بنادقهم على السيارة حاملة الجنود
الذين أسرعوا بالقفز منها ، والتحصن في الجانب المقابل من الطريق ، بعد أن
أصيب بعضهم بجراح ، وانضمت مدرعات دمشق للمعركة ، وصبت نيرانها
بشدة على المكان الذي تحصن فيه سعيد العاص ، وهو أقرب موقع اليها من
مواقع الثائرين ، فاستلقيت ، وزحفت نحو قناة قليلة العمق صادفتها ألقى بها
النار ، حتى غمرتني اغصان الشجر المتكسرة من قذائف المدرعات . وسقط
الكثير من القذائف بجاني ، وهي تسدد الى معقل العاص واخوانه فتجاوزوه الى ،
وحجبني الغبار ودخان القنابل . وكان هناك شاب يافع من الفلاحين أعزل من
السلاح صادف ما صادفته ، فألقى بنفسه قريباً مني ، ثم أخذ يزحف حتى
التصق بي ليحتمي من النار ، فبدأت روعه . وقد دامت المعركة حتى الغروب ،
ثم تراجع المدرعات والجنود ، كل الى الجهة التي اتى منها ، دون ان يستطيعوا



اجتياز المانع الذي احدثناه في الطريق . وفي الليل ، ونحن في قرية عربين ، عادت المدرعات من دوما ، وكانت الطريق خالية ، مما ساعدها على إزالة المانع من الطريق ومتابعة السير بأمان الى دمشق . لم يصب احد منا في هذه المعركة التي استمرت عدة ساعات من النهار ، عدا مجاهد واحد جرح في رجليه جرحاً خفيفاً . ولم يستطع سعيد العاص من استخدام المدفع لعطل فيه ، فقد حاول محاولته قبل أن يقوم بتجربة المدفع ، ويتأكد من صلاحه للاطلاق .

فريق من المجاهدين في فترة الراحة والاستجمام

وشائج العروبة

- ٥٣ -

وصلنا في اليوم الثالث عشر من كانون الاول الى قرية « قبرالست » حيث مقام وضريح السيدة زينب من العترة النبوية الطاهرة . وفيها بلغنا من مصدر ثقة ان الفرنسيين سيؤخفون في الغد من اربع جهات لتطويق عصابات الثائرين في

الغوطة ، ثم تبين في الغد ان الزحف كان لاحداث مخفرين قوين في قريتي « اوتايا » و « حوش خرابو » . وعلى ذكر المصدر الثقة أحب أن أوضح أن الكابتن « عطف » الضابط العربي المغربي في كتائب الفرسان الصباحيين في دمشق ، قدم خدمات جلى للتأثرين في الغوطة ، فقد كان هذا العربي المخلص ، بحكم وظيفته ، يطلع على الاوامر العسكرية التي تصدر قبل حين من الزحف ، وتزود القادة بمهماتهم في الحملة وخطة الزحف . فكان هذا العربي الشهم يبادر فوراً الى الاتصال بالامير طاهر الجزائري ، وغيره من الوطنيين المغاربة في دمشق ، ويطلعهم على الاوامر الصادرة اليه ، وهؤلاء يقومون بدورهم بالاتصال بإخوانهم الوطنيين لبلاغ قادة الثورة في الغوطة قبل حين عن خطة الفرنسيين ، وتحرك حملاتهم في الغوطة ، ليكونوا على حذر ، ويستعدوا للقتال . وكان هذا الضابط العربي وإخوانه من الضباط والجنود المغاربة ، في كل حملة ، يتعرضون مع الافرنسيين لرصاص الثائرين ، دون تمييز بينهم وبين الكتائب الاخرى . اما من جانبهم ، فقد كانوا يطلقون رصاص اسلحتهم طائشاً حتى لا يصيبوا بني قومهم ودينهم من المجاهدين العرب ، وكلما سنحت لهم الفرصة القوا ببعض عتادهم وذخائرهم في الحفر ، ووراء الاشجار ، حتى اصبحنا ، كلما تقدم بنا العهد في الغوطة ، نجد ، بعد كل معركة ، كميات من العتاد الفرنسي ، نجمعها ، ونزود بها إخواننا المسلحين ببنادق إفرنسية . وكم مرة عثرنا على صندوق للذخيرة مليء ملقى في حفرة ، أو مطمور اكثره بالتراب بجانب جذع شجرة ، وكم جمعنا مئات الامشاط المليئة بالرصاص ، مبعثرة وملقاة هنا وهناك ، فكنا نعجب من قومية إخواننا عرب المغرب الذين كانت فرنسة تسوقهم رغماً عنهم لقتالنا ، يطلعوننا سراً على حركة الفرنسيين ، لنعد العدة للقائها ، وهم يتعرضون لرصاصنا الذي كنا نسدده الى جيش العدو دون تفريق ، أما رصاصهم فيطلقونه طائشاً وعالياً لا يصيب أحداً منا ، وكلما سنحت الفرصة لهم ألقوا عتادهم وذخائرهم في ارض المعركة يزود الثائرين إخوانهم بالرصاص القاتل الذي يوجه اليهم ايضاً ، وشعارهم : « علي » وعلى أعدائي يا رب ! » . انهم كانوا يؤثرون إخوانهم في

العروبة والدين الثائرين ، على انفسهم . ولم يكتفوا بهذا ، فقد فر عدد منهم إلى صفوف الثائرين ، وعرضوا اسرهم وعائلاتهم في المغرب العربي لبطش فرنسة وانتقامها ، وقاتلوا في الصف العربي ، ومات منهم شهداء في سبيل حرية بلاد الشام المقدسة في نظرهم ، ولم تحل الالوف من الاميال التي تفصل بين الشام ، وبين بلادهم دون هذا البذل . لقد رافقنا في الغوطة جنديان مغربيان هما محمد وعبدالله ، وجندى ثالث فلسطيني من قرى نابلس هو عبد الحميد المرداوي ، التحقوا بثورة الغوطة ، وفروا من الجيش الفرنسي ، وظلوا أشهراً يسرون معنا عزلاً من السلاح ، يخدموننا بأمانة وإخلاص ، وينتظرون أن يتسير لهم يوماً السلاح غنيمة . ولما تسلحوا خاضوا معنا المعارك الضارية ، واستشهد محمد المغربي منهم في معركة « وادي فيسان » ، في جبال الهرمل في شمال لبنان ، سقط شهيداً الى جانبنا يهتف باسم اخوة العروبة والدين التي تربطنا به . وكان اثنان من الجنود المغاربة الملتحقين بثورتنا ، رافقانا إلى قلمون ، واقامها سعيد العاص في احدى المعارك على رشاش خفيف ، في هضاب بلدة النبك الغربية ، واستشهدا معاً بقذيفة مدفع رحمها الله .

معركة جوبر الاولى والثانية

- ٥٤ -

كان الخبر في تلك الليلة من الكابتين « عطاف » الذي اطلقنا عليه اسماً مستعاراً بيننا ، حتى لا يفتضح امره عند الافرنسيين ، فيما اذا اشرنا اليه في أحاديثنا . لذلك استيقظنا في فجر الرابع عشر من شهر كانون الاول ، وتوجهنا الى قرية يلدا ، ثم تقدمنا بطريقها نحو دمشق ، ونحن نجهل الطريق التي ستسلكها الحملة ، فقد كان الخبر ، هذه المرة ، مقتصرأ على زحف الحملة من دمشق الى

الغوطة في البكور ، دون تحديد الطريق . وما كاد النهار يشرق حتى سمعنا
أزيز الرصاص ، وأصوات المدافع تدوي ، وقدرنا انها صادرة من جهة قرية
جوبر ، وان الحملة الفرنسية زاحفة من طريق دمشق - دوما ، ونحن يعيدون
عنها ، ومع ذلك قررنا نجدة مجاهدي جوبر ، واذا بالخرائط وعصابته ومعهم
الشيخ محمد حجاز ، يلاقوننا ، ويقترح الخراط مهاجمة دمشق ، بينما الحملة
الفرنسية تزحف الى الغوطة ، فقلنا ان هذا لا ينبغي اخواننا الجوبريين المشتبكين
في قتال عنيف مع حملة كبرى للعدو ، وبعد جدل بيننا وبين الخراط ورفيقه
الشيخ حجاز ، حرد الخراط ، وذهب بعصابته بعيداً عنا وعن أرض المعركة ،
لأننا لم نوافق على رأيه ، وتقدمنا مسرعين ، ترافقنا عصابة الميدان ، نحو جوبر
من أقصر الطرق ، فبلغناها بعد انتهاء المعركة ، واجتياز الحملة في طريق دوما
قريتي عربين وحرستا ، حيث اصبح اللحاق بها مستحيلاً علينا ، فربطنا في
بساتين قرية جوبر لعل الحملة تعود في المساء الى دمشق من نفس الطريق ، ولكن
انتظارنا ذهب سدى . وعلمنا من اخواننا مجاهدي جوبر ان الفرنسيين خرجوا
مع الفجر من دمشق بجيش لجب عدده بضعة آلاف من المغاربة والفرقة الاجنبية
والجوقة السورية ، ومتطوعة الشركس وغيرهم ، ترافقهم عشرون دبابة ، وتمهد
لهم المدفعية من قلاع دمشق وثكناتها ، فكمن لهم مجاهدو جوبر في مجرى نهر
تورا الجاف ، والبساتين المطلة على طريق دوما ، وصدموا الجناح الايمن من
حملتهم ، ودارت بين الفريقين المعركة نحو ساعتين ، ثم تابعت الحملة سيرها نحو
قرية « عربين » ، فصدمتها عصابة أبناء عكاش التي كانت مرابطة في بساتين
القرية ، وتبع مؤخرة الحملة فريق من مجاهدي جوبر ، ولبثوا يناوشونها حتى
بلغت دوما ، وعسكرت في بساتينها . وقد استشهد من المجاهدين سبعة في هذه
المعركة ، وجرح بضعة عشر ، وتخلّى أبناء عكاش للحملة عن رشاش خفيف ،
عندما زاد الضغط عليهم ، واضطروا الى الانسحاب . أما خسائر الحملة فتقدر
بمئات القتلى والجرحى . وكان سبب فشلنا في اللحاق بالحملة ان الخبر من المصدر
الثقة نقل الينا محرفاً ، صدق من جهة زحف الحملة ، ولكنه كذب من جهة



المجاهد حسن السقا
اشترك صغيراً
بأحدى المعارك
ونقل الرسائل
للمجاهدين فقبض
عليه الفرنسيون
وعذبوه

تعرضها من أربع جهات ، فنال شرف خوضها
بجاهدو جوبير الذين ثبتوا في معاقلمهم ، ثم مجاهدو
عصابة أبناء عكاش . وكانت هذه اول معركة
يخوضها مجاهدو جوبير مع حملة فرنسية ، بعد
شرايهم السلاح ، وتأليف عصاباتهم ، فكسبوا ،
في بادئ الامر ، شرف منازلها وحدهم ،
وكبدوها خسائر فادحة .

عدنا في المساء الى قرية جوبر ، وقضينا فيها
ليلتنا ، ولم نغادرها رغم اطلاق مدفعية دمشق
قذائفها في الليل على القرية . وفي صباح اليوم
الخامس عشر من كانون الاول توجهنا الى قرية
عربين ، ورابطنا في اراضيها المشجرة على طريق
دوما - دمشق ، انتظاراً لعودة الحملة من دوما ،
ولكن خبراً بلغنا ، بعد الظهر ، عن تحول الحملة
من دوما الى قرية « اوتايا » ، ومنها الى قرية
« حوش خرابو » ، وانها عسكرت فيها ، فقدرونا
انها ستبدل طريق عودتها ، وتسلك طريق بالا -

دمشق ، لذلك انتقلنا الى غابة « الزور » وكمنّا فيها بانتظار عودة الحملة لئنازها .
وعند الغروب عدنا مع نجدة وصلت اليها من الجبل الى قرية « بلاط » حيث بتنا
فيها ، بعد أن وجهنا ثمانية عشر مسلحاً في الليل ناوشوا الحملة في حوش خرابو ،
وأقضوا مضاجع أفرادها . وفي صباح السادس عشر من كانون الاول توجهنا
بتواتنا ، ترافقنا عصابة الميدان ، وعصابة الخراط الى « حوش خرابو » لمنازلة
الحملة في معسكرها ، أو في أثناء سيرها ، فلم نجد لها أثراً ، وعلمنا من الجوار
انها بعد ان اقامت مخفراً ، وعززته عادت الى دوما ، فعدنا ادراجنا الى قرية

«بالا» حيث وافانا رسول اليها ينبئنا بأن الحملة عادت الى دمشق بطريق دوما ، فصار الفرسان منا خيباً ، ومررنا بقرية كفر بطنا ، ونحن نسمع ازيز الرصاص ، وتفجّر القنابل والقذائف قريباً من ناحية «عربين» و «جوبر» ، فبلغنا عربين ، بعد الظهر ، وقد اجتازتها الحملة الى جوبر ، لذلك سلكنا طريقاً بين عربين وجوبر تحت الرصاص ، وتفجّر القنابل والقذائف حولنا ، ودخلنا قرية «جوبر» في الوقت الذي وصلت طلائع الحملة الى جدران المنازل محاولة اقتحامها ، واحتلال القرية ، والثأر من أهلها ، ولم يبق بين الفرنسيين وبين القرية سوى مجرى نهر تورا الجاف الذي هدم اهل القرية الجسر الذي عليه ليحولوا دون عبور الحملة الى قريتهم . وكان عتاد مجاهدي جوبر اوشك على النفاد ، بل نفد عتاد اكثرهم بعد صدام دام زهاء ثلاث ساعات ، فأدركت قوتنا العدو على أبواب جوبر ، ودخلت طلائعها الازقة ، وتحصنت فيها ، وفي بعض المنازل ، وكان فريق من قوتنا يزحف من البساتين بين قريتي «عربين» و «جوبر» ، ويحاذي كتائب العدو ، وبدأت المعركة من جديد ، وانطلقت بنادقنا تصلي العدو ناراً حامية ، فدحرناه عن القرية ، وألزمناه طريق السيارات التي لا تبعد اكثر من مئة متر عن جدران المنازل ، ثم وصلت بقية قواتنا . وتحصنت في مجرى النهر الجاف ، فكانت ساعة صمت لها الاذان ، تطلق القذائف من جميع قلاع وثكنات دمشق وقاسيون والمزة التي ركزت فيها المدفعية الثقيلة ، على جوبر وبساتينها ، والطائرات تفرغ وتعود لتحمل من مطار المزة حمولتها ، تقصفنا بها ، وتطلق الشارات لتهدي المدفعية الى مواقعنا ، والدبابات ، وقد انتشرت في ساحة المعركة ، تطلق نيران مدافعها ورشاشاتها على مواقعنا التي كانت تعيق سير الحملة ، وتلتقط الجرحى وجثث القتلى من الجنود ، وتنقلها الى سيارات الإسعاف . وكنت مع الطليعة التي دخلت قرية جوبر ، وصدت الجند عن منافذ القرية ومداخلها ، ثم تحصنت وراء جدران البساتين تنزل بالحملة المتقهقرة الخسائر ، حتى ارغمتها على الدخول الى دمشق مشتتة ، ولحقنا بمؤخرتها الى قرب المستشفى الانكليزي في القصاع ، ولم تمنعنا ملاحقتها في قلب دمشق

إلا حصون تلك الحامية المتسلطة على مداخل المدينة .

عدنا مساء الى قرية جوبر مبتهجين باننا وصلنا في الساعة الحاسمة ، وانقذناها من يد العدو الحاقد على مجاهديها واهلها ، فقدم لنا اهلها العشاء تحت تساقط القذائف من مدفعية دمشق ، وكنا قضينا النهار بطوله لم نذق الطعام . وقد كانت خسائر قوتنا ثلاثة شهداء بينهم المرحوم مصطفى الاغواني من وجهاء قرية « بيت سوا » وكرام مجاهديها ، واربعة جرحى . أما العدو فخسائره تقدر بمئات القتلى والجرحى ، وعند ختام المعركة لم يتمالك حسن الخراط نفسه ، فتقدم يقبل شاري محمد عز الدين الحلبي إعجاباً بما أبداه من بسالة نادرة ، فقد جمعت ظروف المعركة الاثنين جنباً الى جنب في مكان واحد ، واعترف الخراط بأنه اعطى بندقيته في المعركة إلى أحد أفراد عصابته ليقاتل فيها ، لأنه شيخ ، وبصره لا يساعده على التسديد في الرمي ، ورغم ذلك فإنه كان مغروراً يستهين بكل ثائر من غير عصابته . واذكر مرة ، في اجتماع تم بيننا وبينه في موقع الزور ، ان جاءه رسول بكتاب من نسيب البكري ، وسلمه إياه قائلاً بعد التحية : « هذا كتاب يا ابا محمد من نسيب بك البكري اليك ! وهو يقرئك السلام !.. » فنظر اليه الخراط شذراً ، والقى الكتاب في وجهه قائلاً : « من هذا نسيب بك ؟ انا لا اعرف رجلاً بهذا الاسم .. ولا صلة لي بالبكوات !.. » ، مع أن الخراط رافق نسيب البكري الى دمشق يوم سببوا الكارثة للمدينة التاريخية .

واذكر ايضاً ان نزيه المؤيد الذي وصل الى جوبر معنا ، ورأى اقتحام الجيش الفرنسي متافذ القرية ، انسحب مع عدد من الثائرين دون ان يطلق رصاصة من بندقيته ، وحسب ان جوبر احتلها الفرنسيون ، فابتعد عنها . ولما عاد في المساء ، الى جوبر ، بعد انتهاء المعركة ، وكنت اول من صادفه مقبلاً على القرية ، ورأى محافظ الرصاص « الجنادات » فارغة في عاتقي ، وكان رآها عند انسحابه مليئة بالبندقى « الرصاص » ، اندفع يقبلني ، ويشتم الذين أوهموه ، واخافوه ، وحملوه على الانسحاب من ارض المعركة ، ويهنيء بالنصر الذي

احرزناه في تلك المعركة التاريخية .

نجوت بأعجوبة من الموت

- ٥٥ -

في صباح السابع عشر من كانون الاول ، اي في اليوم الثاني لمعركة « جوبر » تلقينا رسالة من ابي عمر ديبو الكردي ، وهو احد وجهاء المزارعين في قرية « حرستا » المعروفين في منطقة الغوطة وما يجاورها ، يقول فيها أن نسيب البكري الذي غادر الغوطة مع زكي الدروبي وعدد من الثائرين ، عقب معركة يلدا وببيلا ، الى منطقة الجورة ، اي الى قضاء جبرود وما حوله ، قام بمهمة حث اهالي القرى على مؤازرة الثورة ، واستطاع ان يوجه نحو الف وخمسة مسلح من قرى جبرود ، والمعضمية ، والرحيبة ، وضمير ، والحفر ، والحفير ، الى الغوطة ، وان هذا الجيش وصل الى قرية «بيت سوا» للانضمام الى مجاهدي الغوطة ، فلم يجد أحداً منهم ، لذلك يجب الإسراع لاستقباله ، وضمه الى قوة المجاهدين في الغوطة ، قبل ان ينفرط عقده ، ويعود أفرادہ الى قراهم ، فأسرع محمد عز الدين الحلبي وعبد القادر سكر ، وبعض مجاهدي الميدان الى قرية « بيت اسوا » ، فلم نجد فيها أثراً لهذا الجيش او الجمع المسلح ، وقيل لنا انه عاد الى قرية « الشفونية » ، و « حوش الريحان » ، فتابعنا سيرنا الى الشفونية ، وهناك قيل ان المجموع عادت الى قرية «عدرا» ، فتابعنا سيرنا اليها حتى لانعد مقصرين في اكتساب هذا العدد الكبير من المسلحين لصفوفنا . ولما وصلنا الى «عدرا» في المساء لم نجد احداً من مسلحي الجورة ، وعلمنا انهم تفرقوا كلهم ، وعادوا الى قراهم ، فأدركنا ان سكان تلك المنطقة أوفدوا جموعهم خوفاً أو خجلاً من نسيب البكري وجماعته ، وتهديداته بان القرى التي لا تؤازر الثورة ، وفيها رجال مسلحون ستعد معادية للثورة ، وستفرض قيادة الثورة عليها جمع ذلك السلاح ، وتقديمه

اليها لاستخدامه في اغراض الثورة وأهدافها . قررنا المبيت في قرية « عذرا » بعد سير شاق على مشاتنا استغرق النهار كله ، واضطررنا لأن نبقى عدداً من مشاتنا في قرية الشفونية وحوش الريحان . وفي منتصف الليل وصل الى « عذرا » رسول من الغوطة يعلمنا ان الفرنسيين سيزحفون في الصباح الى قرية « جوبر » لتدميرها وحرقتها والبطش بأهلها ، ثاراً من تعرضها للحملة الفرنسية في الذهاب والاياب . ولكن عبد القادر سكر رئيس عصاة الميدان الذي كان معنا ، وهو رجل مسن ، لم يصدق الخبر ، وقال انه كاذب كالإشاعات الكثيرة التي كانت تصل عن زحف الحملات الى الغوطة ، ثم لم يتحقق اكثرها ، وقال : « لا يعقل



الجلوس من اليمين : سعيد العاص ، عبد القادر سكر ، الامير

عزالدين الحسيني الجزائري

ان يزحف الفرنسيون غداً الى جوبر ، بعد ان خاضوا أمس معارك حامية الوطيس في الغوطة ، فاضطر محمد عز الدين الحلبي لأن يبقى تلك الليلة في « عذرا » ، وان لا يرهق قوته المتعبة بالمسير ليلاً . وجاءنا مع الفجر رسول ثان يؤكد ما قاله الاول ، ويستنجد بنا ، فنهضنا نتهياً للمسير ، وما اصبغ صباح الثامن عشر من كانون الاول حتى اخذت مدفعية قلاع دمشق تقصف بشدة لم يسبق لها مثيل ،

فنسمع هزيم المدافع كالرعد ، ونحن على بعد عشرين كيلومتراً من دمشق ، فقد رنا من شدة القصف أن خبر زحف الحملة الى الغوطة صادق ، فقد اعتاد الفرنسيون ان يبدأوا منذ الفجر بقصف المنطقة المجاورة لدمشق التي تسير حملتهم على طريقها ، حتى يبعدوا عنها عصابات الثائرين ، ويلقوا الرعب في قلوبهم ، لذلك اسرعنا الى جياتنا نمتطيها ، وسرنا ومن معنا من المشاة خيباً وركضاً لاجتياز المسافة البعيدة التي تفصلنا عن الغوطة . وفي الطريق وافانا رسول ثالث يعلمنا ان الفرنسيين زحفوا من دمشق الى جوبر ، ودخلوها بعد معركة مع عصابتها ، واحرقوا عدداً من منازلها . وكنا كلما أمعنا في السير قابلنا من عصابة الخراط فرادى وازواجاً قادمين الينا ، وكلما سألناهم عن الحملة أكدوا لنا انها احتلت جوبر ، وانها تزحف نحو « عربين » ، وانهم موفدون اليها كي نسرع لمواجهتها . والحق ان حملة ثقيلة تعد بضعة آلاف جندي مجهزين بأحدث الاسلحة ، لا تستطيع عصابة الخراط ان تقف في وجهها ، لان عددها لا يزيد عن مئة مسلح ، ورئيسهم في الاصل يتجنب خوض المعارك مع الحملات ، ما لم يجبر بحكم المصادفات الى خوضها مع قوات ثائرة اخرى ، فالاحرى بهذه العصابة الا تخوض المعركة وحدها اليوم ، وان ينتشر افرادها في القرى يبحث كل واحد منهم عن سلامته . أما اهالي جوبر فإن شبابهم ورجالهم المسلحين كانوا استنفدوا كل اعتدة سلاحهم في معارك الايام الماضية ، ولا قبل لهم ، بعتادهم القليل ، ضد حملة كبرى تزحف لاقتحام قريتهم من جميع الجهات ، لا المرور بها في طريقها الى مكان آخر . كان طريقنا الذي سلكناه من عدرايمر بين مخفري دوما واوتايا الفرنسيين ، وبارض غير مشجرة ، فكشف مخفر دوما جمعنا ، وسلطت حاميته علينا رشاشاتها من بعيد ، فلم نأبه لها ، وتابعنا سيرنا حتى بلغنا الاراضي المشجرة في الغوطة . وكنا اضطررنا لان يسبق فرساننا المشاة في اسراعهم للقاء الحملة الفرنسية . ولما بلغنا قرية « بيت سوا » ، صادفتنا الطائرات تحلق في سماءها ، وتقصف القرية وما حولها . وفيها عرفنا ان الحملة الفرنسية دخلت بعد « جوبر » قرية « عربين » ، وزحفت منها الى قرية « حمورية » ، وهي في طريقها اليها ، دون ان تلقى أي مقاومة ،

وان جنودها ، وفيهم كوكبات الشر كس والحرس السيار ، ارتكبوا انواع السلب والنهب والعدوان على الاهلين ، حتى انهم دخلوا ظهر يوم الجمعة المساجد في عربين والناس فيها يصلون صلاة الجمعة ، فاشبعوا المصلين ضرباً ، وسلبوهم كل ما في جيوبهم من نقود ، وبأيديهم من ساعات ، ودخلوا المنازل ، ونهبوا ما شاءوا من محتوياتها ، واعتقلوا عدداً من وجهاء القرية الكبيرة ، وارتكبوا فيها من الفظائع ما يتحدث به المهزموون من فلاحى القرية وقالوا ان ما فعلوه في قرية جوبر كان أشد واعظم .

وقد علمنا أيضاً ان عصابة أبناء عكاش ، كانت هجرت الغوطة ، بعد معركة جوبر الاولى ، وانتقلت الى جهات دمر ووادي « بردى » ، وأن عصابة العمارة تبعثرت في قرى الغوطة والمرج ، بعد جرح رئيسها ديب الشيخ ، لذلك لم تلق الحملة الفرنسية مقاومة تذكر منذ زحفها من دمشق ، الى ان اصبحت ، كما قيل لنا ، على ابواب قرية « حمورية » . وكنا على علم بما يكنه الشراكسة في الجيش الفرنسي لقرية حمورية من حقد اسود ، بسبب مصرع خمسة من شراكسة « مرج سلطان » ، عشية معركة الزور الثانية ، فتشاورنا ، ونحن لا نتجاوز الخمسين خيلاً ، وسائر قوتنا من المشاة خلفناها ورائنا على بعد بضعة كيلو مترات ، فاتفق رأينا على ان نسارع لدخول قرية حمورية قبل وصول الحملة الفرنسية اليها ، ندافع عنها ريثما تصل اليها قوتنا من المشاة ومن الفرسان المتخلفين ، لاننا قدرنا الفظائع التي يرتكبها الشراكسة في هذه القرية وبسكانها العزل ، بعد التهديدات التي كانوا يطلقونها ، ويسمعها فلاحو الغوطة من افواههم في دمشق . تقدمنا من اقصر طريق نحو حمورية ، وامامنا دليل يهديننا الطريق . ولما اصبحتنا على بعد مئات الامتار من القرية ، نسير بين اراض مشجرة ، في طريق على جانبها الجدران القصيرة « دك » ، باغتتنا العدو بوابل من رصاص رشاشاته وبناذقه ، فادر كنا ان جنوده يتحصنون بين الاشجار ، وراء الموانع في البساتين ، لذلك ترجلنا بسرعة عن جيادنا وراء جدار « دك » ، وكنا بضعة وعشرين

فارساً سبقنا اخواننا ، محاولين قبلهم دخول القرية ، وسلمنا كل بضعة جواد
لواحد منا ، وصعدنا الى البستان في الجانب الثاني من الطريق ، وتحصنا وراء الدك ،
نرد على نيران العدو ، وقد اختفى وراء معاقله ، لا نلمح منه جندياً واحداً ،
الا ان ما يطلقه علينا من رصاص يدل على كثرة عدده . وكنا نظن اننا نقابل
طلائع الحملة التي لما تصل الى حمورية . ولما يثسنا من رؤية جنود العدو بين الاشجار ،
وهدفنا الوصول الى القرية ، صاح العقيد سعيد العاص : « لنترك هذا المكان ،
ونتقدم ، وندخل القرية قبل ان يدخلها العدو ! » ، وكان تقديرنا خاطئاً ،
فالعدو سبقنا الى القرية ، واحتلها وتمركز فيها ، واحتل ما حولها من البساتين ،
وهو من طائراته كان على علم بزحف قوة من الثائرين نحوه ، لذلك استعد وراء
الموانع والمعازل الطبيعية للقائنا . ولما كنت في صف محمد عز الدين الحلبي ،
وسعيد العاص ، وعبد القادر سكر ، ورفاقهم في اقصى اليمين الى جهة القرية ،
سرت مع اثنين من الدروز الشباب ركضاً في الطليعة ، وتقدمنا اخواننا في
دخول القرية ، وسبقناهم نحو خمسين متراً في طريق اليها تطل عليها من اليسار
جدران المنازل ، لا يفصلها عن الطريق الا بستان شجر الحور ذات جدار عال
« دك » ، سرنا وراءه نريد بلوغ مدخل القرية ، فصادفنا فيه شقاً من انهدام
جزء منه ، ولم يابه له ثلاثة من شباب الدروز كانوا أمامي ، واجتازوه مندفعين
الى الامام ، ولما خطوت وراءهم ، واصبحت امام الشق سمعت صوت حركة في
بستان الحور ، فتلفت الى يساري ، واذا بسرية من متطوعة الشراكسة بملابسهم
العسكرية ، وزيههم ، وعلى رؤوسهم « القلبق » يزحفون نحونا لا يفصلنا عنهم
أكثر من عشرة أمتار ، ولما وقعت العين على العين ، انبطح فريق منهم ، وركع فريق ،
ووقف فريق ، وصوبوا بسرعة بنادقهم الى الشق ، فقفزت الى الامام
مندفعاً بسيري لأجعل الجدار سترأ لي من رصاصهم ، واذا بالدروز الثلاثة الذين
تقدموني يعودون نحوي مسرعين ، فقد صادفوا ، من شق ثان في الجدار كان الى
يسارهم ، كتلة كبيرة من الجنود الشراكسة تندفع الى الشق ، لا يفصلها عنهم غير
الجدار ، فأنكفأ الثلاثة نحوي منهزمين ، واطلق الشراكسة الرصاص من الشقين .

ولما بلغ رفاقي الثلاثة الشق الاول سقط احدهم قتيلاً ، وجرح الثاني ، ونجنا الثالث . ورأيت أن مصيري القتل إن تبعتهم ، فقد أصبح الجدار وحده يفصل بيني وبين الجند ، والجند يزحفون من شقيه ، واذا بقيت وراءه ، وألقى احدهم رمانة يدوية قتلتني ، واذا ترددت في الابتعاد عنه خرجوا الي من الشقين ، وصرعوني برصاصهم ، وانا وحدي ، وهم كثرة ، لذلك سرعان ما خطوت الى منتصف المسافة بين الشقين من الجدار ، واخذت ابتعد عمودياً عنه ، حتى كشفني الجنود من الشقين رحت منحنياً أعدو بسرعة لالقي بنفسي في قناة الماء عميقة اعترضت سبيلي ، حيث اختفيت فيها لحظة عن عيونهم ، ووقتي رصاصهم ، ولكنها كانت بمجراها تنحرف نحو القرية ، ولا مصلحة لي في الدنو من القرية المليئة بالجنود ، وهي عميقة وفيها ماء جار ، قريبة جداً من الجند ، رأيت انها لا تصلح للدفاع ، فقررت ان اخرج منها الى ضفتها الثانية ، وهي اعلى من الاولى ، واتابع الابتعاد عن الجند ، وابتلت عباءتي الرقيقة ، وهي من نوع المشلح ، بهاء القناة ، والتفت حول ساقى تمنعني من الحركة ، فالقيت العباءة بالماء تخفيفاً عني ، وخرجت الى الضفة الثانية ، واذا امامي كرمة مكشوفة ليس فيها غير سوق شجيرات العنب الجافة العارية في الشتاء ، فركضت منطوياً على نفسي ابتعد عن مواقع الجند ، ولكن وابل الرصاص الذي امطرني به الجنود من الشقين ، ومن النوافذ واسطحة المنازل التي احتلوها ، وتحصنوا فيها ، كان من غير المستطاع والمعقول الا اصاب منه ، اذا ما استمررت على الركض ، فالقيت بنفسي في ارض الكرمة على بعد عشرات الامتار من القناة ، واستدرت نحو القرية ، اطلق من بندقيتي الرصاص على مواقع الجند ، دون ان اراهم من مكاني ، واستمر اطلاق الرصاص ، وكان يتساقط حولي من عل كالبرد ، ويشير الغبار من ارض الكرمة .

وفجأة ، انفجرت البندقية بيدي ، وثار بارودها في عيني ، فظننت انها أصيبت بطلقة من رصاص العدو ، ورحت أتميزها ، واذا بسبطانتها قد انشقت

من فوهتها بضعة سنتيمترات طويلاً ، لإنسداد فوهتها بالتراب الناعم من ارض الكرمة ، وانفجارها من ضغط البارود عندما أطلقت الرصاصة الاخيرة ، واصبحت البندقية عاطلة ، قد تكون العصا افضل منها للدفاع عن النفس ، واسقط في يدي ، وادركت اني هالك لا محالة ، فنهوضي تحت وابل الرصاص فيه هلاكي ، وبقائي على بعد أمتار من الجند فيه الخطر الاعظم ، ولبثت مستلقياً في ارض الكرمة ، وما حولي يشتعل برصاص الجنود الذين تقدموا ونفذوا من أزقة القرية وشوارعها ، عدا من تحصن منهم في السطوح والنوافذ ، يتعقبون برصاصهم الفئة القليلة من الثائرين التي لاحت لهم على ابواب القرية ، وانسحبت بعد ان تركت بعض جثث افرادها على الارض. وبعد نصف ساعة لم يسمع فيها غير صوت الرصاص ، وقف اطلاق النار فجأة ، وخيم سكون موحش على المكان ، وانا في مكاني لا أرى احداً ، فرفعت رأسي لأرى ما حولي ، فلم يقع بصري على أحد ، ونهضت يجذعي ما استطعت فلم أرَ احداً ، وقررت ان اقف على قدمي لعلني ابتعد عن القرية ، ويا لهول ما رأيت ! .. رأيت على ضفة القناة المنخفضة التي القيت فيها بعباءتي مجموعتين او كتلتين من الجنود الشراكسة وقوفاً امامي وبيدهم بنادقهم ، لا يفصلني عنهم اكثر من عشرين متراً ، وبين المجموعتين فاصل لا يعدو طول الجدار ذي الشقين ، فتقدمت بخطوات ثابتة نحوهم ، وبيدي بندقيتي المعطلة ، حتى وصلت الى ضفة القناة ، وهبطت فيها ، ثم تسلقت ضفتها الثانية ، فأصبحت في الوسط على محاذاة الجند ، وانا اتوقع ان يتحركوا ، ان يطبقوا عليّ ، ان يرموني برصاص بنادقهم ، ولكن احداً منهم لم يتحرك ، كأن على رؤوسهم الطير ، ينظرون الي من مواضعهم كأنني البس طاقة الاخفاء في الاساطير ، وتلفت الى اليمين ثم الى اليسار ، ولما رأيت ان حال سرية اليمين لا يختلف عن حال سرية اليسار ، تابعت سيري بخطواتي الثابتة المستسامة للموت ، وتجاوزت كتلي الشراكسة من ذات اليمين وذات اليسار ، فلم يلحق بي احد منهم ، وازدادت خيرتي ، وادركت ان في الامر معجزة ، واستقبلني في اتجاهي الى القرية المليئة بالجند بيدر لحزم القنب التي تستخدم وقوداً في الافران ، بعد

قشر مادة القنب الصناعية عنها . وكان هذا البيدر يمتد من طرف القناة الى جدران القرية ، ويشغل مساحة كبرى ، تقوم عليه اكوام القنب الواحدة بجانب الاخرى بشكلها المخروطي . وعادوني الامل بالحياة ، فاندفعت ، بعد ان غبت عن انظار الجنود الشراكسة ، الى كومة على يميني اشق بيدي في قلبها مكاناً لي للاختفاء ، ولما فتحت فجوة فيها ، القيت بثقل ظهري فيها ، اوسعها بالدفع ، حتى ولجت داخل الكومة ، واخذت اشد بيدي حزم القنب لاسد الثغرة التي نفدت منها ، وشبكت العيدان امامي حتى اطمأنت الى ان اي انسان يمر بين اكوام القنب لا يمكنه ان يراني ، اذا كان خالي البال من وجودي . وانقضت الدقائق سراعاً ، وانا انصت الى كل حركة وسكنة حولي ، فقد اصبحت في قلب حملة الافرنسيين ، متطوعة الشراكسة عن يساري وسائر الحملة الفرنسية عن يميني ؛ واذا بي اسمع احد المتطوعة الذين على مقربة مني يقول لرفاقه بالتركية ؛ وانا اتقنها : « انظروا الى ابن اللخناء ! كيف ترك عباءته هنا في القناة ! » .

ويظهر انه انحدر الى القناة يقلب العباءة المبتلة التي القيتها ليري آثار الدم عليها .. وكان القاؤها سبب نجاتي ، كما أراد لي الله ، اذ كنت البس معطفاً عسكرياً تحت العباءة من غنائم الجيش الفرنسي ، يقيني البرد ، لم أجد ، ساعة باغتتنا الحملة برصاصها ، وقتاً لأن أخلمه واخلع العباءة عني ، فترجلت عن فرسي ، ودخلت المعركة بهما ، فلما القيت العباءة المبتلة التي اخذت تلتف على ساق في القناة ، اصبحت بمعطفي ، وبغطاء ساق من الجلد « كيتر » ، وبمحافظ الرصاص « الجذادات » الافرنسية على صدري ، وبندقيتي الفرنسية ، لا اختلف في الزي ، عن جنود الحرس السيار ، حتى بالكفية والعقال اللذين على رأسي ، فبينهم ، على ما يظهر ، من كان يلبسها من المتطوعة . ولما نهضت من مكان لا يبعد عشرين متراً عن متطوعة الشراكسة ، واتجهت ، بقدره الله ، بخطوات ثابتة نحوهم ، اجتازهم من وسطهم الى القرية دون خوف ، حسبوا انني احد

المتطوعة في الجيش الفرنسي ، تقدمت اثناء المعركة إلى الامام لمطاردة الثائرين .
وكانوا رأوني في البدء بالعباءة ، ولم يروني بالزي الذي اقبلت عليهم به ، فأبهم
عليهم حالي ، ولم يحسبوا انني كنت مقبلاً نحوهم ، مستسلماً للموت مصيري ،
فنجاني الله من الموت بأيديهم ، وحسبوا انني متطوع اعود الى القرية لأنضم
لسريتي ، وبذلك سذحت لي الفرصة . ووصلت الى بيدر القنب ، واستطعت
ان أختفي فيه . سمعت من مخبئي الجندي الشركسي يشير إلى عباءتي ، ويشتم
صاحبها اقدع شتيمة ، فيجيبه رفيقه بالتركية : « لاريب ان صاحبها أصيب ..
انظر أليس عليها أثر للدم ! » ، وقلب الشركسي العباءة وقال : « ليس عليها
أي أثر ! .. » ، ورد عليه رفيقه : « ان صاحبها قتل ولا ريب .. والا أين
يختفي ويسلم من أيدينا ؟ » . وشغلوا بعد هذا الحديث ، بفتى فلاح من اهل
القرية ، كان ، على ما يظهر مختبئاً في منحنيات القناة ، فأخرجوه ، وأحاطوا به
يضربونه ضرباً مبرحاً ، وهو يستجير منهم ، ويستغيث بالله وبمحمد رسوله ، وهم
يشتمون خراطه ، فكل اهل حمورية ، في نظرهم ، متواطئون مع عصابة الخراط
على قتل الخمسة من المتطوعين الشراكسة في مرج سلطان ، يوم معركة الزور
الثانية ! .. وانصرف ، على ما يظهر ، العدد الكبير من الشراكسة مع الفقى
الاسير إلى القرية ، اذ ابتعدت اصواتهم واصوات وقع اقدامهم عني ، وانصت ،
واذا بصوت من جانب القناة يقول بالتركية : « ويحك يا علي ! .. لم يبق غيرنا
في هذا المكان .. فلنبتعد عنه ! » ورد عليه صاحبه : « لا تخف يا صديقي !
وانظر الى الجثث الملقاة على الارض ، تنبئك بمصير الثائرين ! .. » ، قال هذا ،
ولكن الخوف كان ساوره وساور الشرذمة الباقية من رفاقه على طرف القناة ،
فقد سمعت وقع خطواتهم تبتعد ، بعد هذا الحديث ، باتجاه القرية . وساد
السكون حولي ، واطمأنت اكثر ، بعد ابتعاد الشراكسة عن مخبئي ، وأخذت
أصغي الى الصراخ والعيول يرتفع من القرية ، واصوات التحطيم والتكسير
والتخريب ، واصوات اللهب والسنة النار من المنازل المحترقة في القرية ؛ تنقلها
الى مسامعي ريح شرقية باردة ، فأدركت ان المتطوعة الشراكسة فتكوا بالقرية

الآمنة ، وقتلوا من وجدوه من رجالها ، وافترسوا نساءها ، ونهبوا منازلها ،
ثم تركوها طعمة للنيران .. ثم بعدها سمعت وقع حوافر جياد تمر بأرض الكرمة
التي كنت فيها ، وأصوات الجنود الصباحيين يتحدثون بلهجتهم المغربية متجهين
نحو قرية « بيت سوا » ، ثم سمعت بعدهم هدير الدبابات تمر بالكرمة ايضاً ،
فأدركت أنني أصبحت تماماً في قلب الحملة ، وإن الأسلم أن أبقى في مخبئي حتى
يهبط الليل ، لعل لي فيه مخرجاً من مأزقي ! .. ولكن الأقدار ما كانت تريد لي
الهدوء في مخبئي ، فقد سمعت .. ويا هول ما سمعت !.. سمعت اصوات النيران
تلتهم بشدة أكوام القنب التي على البيدر ، وتنقل الريح رماد القنب الاسود يمر
امام ناظري كأسراب الجراد ، وأنا في جوف احدى الاكوام التي ستصل اليها
حتماً النيران وتلتهمها ! .. لقد أصبح موقفي حرجاً جديداً ، ان لبثت في مخبئي
فستأكلني النيران وتحرقني ، وإن خرجت منه فقد أقع بيد الجيش الفرنسي ، وفي
ذلك هلاكي .. وازداد اشتعال القنب ، ودنت النيران من مكاني .. وكنت
أسمع صوت تآكل النار بالقنب قريباً مني .. وصممت على ألا أخرج من الخبأ قبل
أن تصل النار الى الكومة التي اختفي في جوفها ؛ لعلني بين لهب النار والدخان
اتسلل الى القناة القريبة اختيئاً فيها الى الليل ؛ فليس غير الليل ما يسترني عن
عيون الجند ، ويساعدني على التسلل من قلب حملتهم . اشعلت لفافة تبغ
ادخنها في مخبئي بغير حذر ، فدخانها لا يظهر بين دخان الحريق الذي أصبح
يغطي المكان .. ولما انتهيت منها اطفأت عقبها بكفي ، حتى لا تتسرب ناره
الى القنب حولي ، فأعجل باحتراقه ، ولم اقنط من رحمة ربي التي انقذتني من
الموت اكثر من مرة ، ان تنجيني من الموت حرقاً بين أكوام القنب .. ومرّ
الوقت وثيلاً ، وبدأت أصوات اللهب من اكوام القنب تخفت ، واصوات فرقة
القنب وهو يشتعل تهدأ ، وتغدو عسيماً .. ودنا الغروب وساد القرية سكون
كسكون المقابر ، بعد العويل والصراخ والبكاء ، واصوات التحطيم والتكسير ،
ولم تبق إلا اصوات اللهب ، من المنازل المحترقة ، تنقلها الريح الى مسامعي ، واخذ
الليل يرخي سدوله ، مع اصوات الفلاحين من القرية يتنادى لإطفاء النيران ،

واصغيت بكل جوارحي الى اصوات ابي عبده وابي محمد وابي ابراهيم تصدر عن القرية مع اصوات اللهب ، فأيقنت ان الفرنسيين جلوا عن القرية ، وإلا لما دخلها الرجال الذين لم اسمع لهم اصواتاً في النهار .. انها اصوات الفلاحين يتنادون لاطفاء الحرائق ! عندئذ تحركت من مخبئي ، ومددت رأسي وعنقي من ثغرة فتحتها في كومة القنب استطاع ما حولي ، ولما اطمأنت اندفعت من جوف الكومة ، واذا امامي منظر رهيب اسود ، فقد غدا البيدر المتسع لمئات الاكوام قاعاً صفصفاً ورماداً ، ولم يبق من كوماته إلا الكومة التي أنا فيها ، وكومة اخرى امامها عفت عنهما النيران ، فوقفت اسبح ربي على قدرته ، وأحمده على لطفه بي ، وسرت فوق الرماد الأسود اجتاز البيدر الى القرية في غبشة اول الليل ، فمررت بجشتين محترقتين في نطاق احد الاكوام المحترقة من اعواد القنب ، وكانت فقايع الدهن من جمجمتهما مازالت تلتهب ، وقدمما احدهما لم تأكلهما النيران بجذائهما القديم من النوع الذي يلبسه عادة الفلاحون ، فقدرت انهما من الفلاحين لاذا مثلي بالقنب من شر الفرنسيين ومتطوعتهم ، فقتلتها النار ، أو قتلها الجنود ، واحترقت جثتاها بالنار ، حتى غدت كل منهما بحجم جسم صبي صغير .. وما كان للرعبة والرحمة ساعتئذ أثر في قلبي ، فقد كان مقدراً لي ان اقتل او احترق مثلها ، لذلك تابعت سيري نحو القرية ، وتسترت ، وانا أطل على شارع رئيسي في القرية ، يجدار ، فرأيت فلاحاً يخرج من باب داره ، يتلفت في الشارع ذات اليمين وذات اليسار ، فبرزت له من جانب الطريق ، وتقدمت نحوه ، فاسرع بالفرار الى داره ، وناديته : « أنا لست جندياً .. بل أنا نائراً ! » وتردد أولاً في تصديقي ، ثم نظر الى غطاء رأسي ، واطمأن قليلاً ، ثم طلب مني ان اسرع وادخل داره ، فعدوت اليها ، وأنا احسب ان هناك خطراً يتهددنا ، ولما دخلت الدار اغلق الفلاح بابها ورائي ، واخذ يضع خلف الباب مساند من الخشب والاشياء الثقيلة ، وانا اسأله : لماذا يحصن باب داره ، هل في القرية جنود ؟ فيجيب : « كلا ! .. ولكن ربما عادت الحملة الى القرية ! .. » ، قلت : « إذا عادت الحملة تقضي علي ، فدعني اذهب ! » ، قال : « وعلي ايضاً .. إنها لم

تترك رجلاً في القرية صادفته ، إلا وقتلته ! .. » ، قلت : « وكيف نجوت من أيديهم ؟ » ، قال : « كنت في البيت وحدي ، ودخلت الحملة ، وانتشر الجنود الشرا كسة يقتلون كل من يصادفونه من الفلاحين ، في القرية ، حتى قتلوا أكثر من ثلاثين فلاحاً ، واعتدوا على الاعراض ، وحطموا الابواب ، ودخلوا المنازل يسلبونها ، ويحرقونها ، وسمعت باب داري يحطم ، فأنحدرت الى البئر من صحن الدار ، ألوذ بمائها وظلمتها ، فنجاني الله من القتل ، ولما خرجت منها ، وجدت انهم سلبوا الثمين مما في الدار ، وحطموا الباقي ، وحتى المؤن في جرارها واوانيسها الزجاجية حطمت ، وها هي كما تراها في قاع الارض يسيل السمن الى جانب الزيت ويختلط ، بالدبس ! .. » وسار الى زاوية من الغرفة يخرج ، من وعاء زجاجي تحطم نصفه ، مربى المشمش ، يضعه في اناء ، ويحمله إلي ، يدعوني الى أكله ، وكنت لم أذق طعم الزاد في نهاري ، ولم يدخل في جوفي قطرة ماء ، وحلقت من هول اليوم جاف ، فجاءني بكوب ماء ، تناولت بعده مشمشة بدلت بحلوها طعم فمي المر ، وشكرته ، وأشعلت لفافة تبغ ، بعد ان قدمت مثلها لمضيفي ، وأشار الى سقف الغرفة الذي رشه الجنود بالوقود السائلة ، فاشتعل جانب منه ، وهو من الخشب والقصب ، ثم انطفأ بقدرة قادر ، وقال : « احمد الله على انه نجاني من الموت ، وانقذ بيتي من الحرق ، وان سلب الظالمون ما فيه من أثاث ثمين . . . بالاضافة الى خسارتي الكبيرة في المؤونة ، ولكن الله سيعوضني عنها ! » ، واذا بباب الدار يطرق بشدة ، وفلاح من اهل القرية ينادي مضيفي باسمه ، فيفتح له الباب ، واسمع القادم يقول له : « ما بقاؤنا في هذه القرية ، بعد ان قتل رجالنا ، وفضحت نساؤنا ، ونهبت منازلنا ، وأحرقت ؟ .. هيا بنا نغادرها قبل ان تعود الحملة ، وتقضي على البقية الباقية منا ! » . قال مضيفي . « ولكن الى اين يا ابا محمد ! في هذا الليل البهيم ؟ » قال : « الى دمشق ، نلجأ اليها ، ونقيم مع عشرات الوف اللاجئين الذين سبقونا اليها . » اقبال صاحبي : « ولكن دمشق في الليل مغلقة ، وحولها ضرب نطاق من الحصون ، والاسلاك الشائكة ، يصرعنا جنود المخافر من حولها بالرصاص فيما اذا اقبلنا عليها في الليل ! » .

قال أبو محمد : « نقيم في البساتين القريبة من دمشق ، ثم ندخلها في الصباح مع الداخلين ، خير من ان تعود الحملة وتقضي علينا كلنا ! » ، فتردد صاحبي أولاً ، ثم وافق ، وعندئذ خرجت إلى باب الدار ، وبيدي بندقيتي المعطلة ، وقلت : « استودعكما الله ! ، وشكراً يا صاحبي علي ضيافتك ! » ، قال : « إلى أين ؟ » قلت . « انكما ذاهبان الى دمشق ، وانا نائر محرم علي دخولها الا غارياً . لذلك فأنا سائر في هذه الغوطة حتى اجد لنفسي مبيتاً في غير هذه القرية المنكوبة ! » وانطلقت اسير في الشارع على ضوء الحرائق التي جعلت ليل القرية نهاراً ، والفلاحون يحاولون بوسائلهم الضعيفة اطفاء النار في بعض المنازل ، ولكن انسى لهم ذلك ، وابواب جهنم مفتحة ، والنار تسري من منزل الى منزل ، تلتهم ما تجد في طريقها .

سرت في ضوء الحرائق بعيداً في طريق قرية « سقبا » ، ولما بلغتها وجدتني خالية هجرها اهلها فراراً من بطش الحملة ، وخوفاً من ان يصيبها ما أصاب قرية « حمورية » : ومع ان الحملة الفرنسية لم تدخلها ، إلا انها احترقت بيادر القنب في اطرافها ، فاحترق معها بعض المختبئين في جوف أكوامها من الفلاحين . بحثت كثيراً بين منازل القرية لعلني اهتدي الى احد ، واخيراً وجدت فلاحاً سألته عن الجهة التي اتجهت اليها حملة الفرنسيين ، حتى اتجنب الطرق التي سلكتها ، أو قد تسلكها في العودة ، فأجابني بانه لا يعرف شيئاً عن وجهتها ، لانه كان في عداد الفارين من القرية ، عندئذ تابعت سيري وحيداً الى جسرين ، واذا بمنازلها مغلقة كلها ، وازقتها معتمة مظلمة ، لا يخطر في ازقتها حي . حاولت جاهداً ان أجد بيتاً مفتوحاً ، أو انساناً في الطريق ، فلم اجد ، واخيراً ، وقد طال تطواني في ازقة القرية ، سمعت صرير باب في الزقاق الذي اسير فيه ، وفتح الباب ، ولكن وقع اقدامي حملت من فتحه على اغلاقه بشدة ، والاختفاء في الدار ، وعرفت الباب ، ورحت اطرق ، دون ان يرد علي احد ، وناديت سكانه ، وقلت اني ضيف طارق أريد المبيت في هذه الساعة من الليل ، واخيراً قلت اني نائر لن

أترجّح ، ولا بد لي من الدخول ، وانني سأكسر الباب واطلق عليه الرصاص إذا لم يفتحه أصحاب الدار باختيارهم ، وفتح الباب ، وولجته ، فوجدت في الدار اثنين من الفلاحين ، اوقدا ناراً في موقد احدى الغرف ، وعليه ابريق الشاي والحليب ، فشاركتهم شرايهم ، ونمت الى الصباح ، ثم ودعتها سالكاً طريق الزور الى قرية « زبدین » ، وحذرت ان يكون في الغابة كمين ، ثم سمعت صوت طلقات من رشاش صادر من جهة دمشق ، فتركت الطريق العام ، وسرت في ظل الاشجار الكثيفة حتى بلغت قرية « حتيتة جرش » ، وتجاوزتها الى زبدین ، فلم أجد للثائرين فيها من أثر ، ولم اسمع من اهلها خبراً عنهم ، لذلك تابعت سيري الى قرية المليحة ، ثم الى قرية « بلاط » ، تحت تهطال المطر ، حيث وجدت حسن الخراط مع عدد من افراد عصابته في منزل من منازل القرية . حميتهم ، ودخلت اخلع ثيابي وأجففها على النار ، والخراط يعتب ، ويقول : « اين كنتم امس ؟ .. اين هربتم وتركتمونا وحدنا أمام الحملة في الغوطة ؟ .. » ، قلت : « نحن لا نهرب يا أبا محمد مثل غيرنا من الحرب والقتال ! .. وانا خضت معركة حمورية أمس ، وخلصت من الموت باعاجيب .. لا بأعجوبة واحدة ! .. » فقال : « الحمد لله على السلامة يا ولد ! » ، وما كاد ينتهي هذا الحديث القصير بيننا ، حتى دخل فناء الدار بضعة رجال بينهم فارس واحد من الدروز ، قادمين من الجبل ، وقف الخيال أمام باب الغرفة وحيا ، وسأل : « أيها الربع ! اتعرفون مقر محمد عز الدين الحلبي ؟ » ، فقال الخراط : « في جهنم ! » فرد عليه الدرزي : « جهنم تحرقك ! » ، واحتدم الجدل والسب بين الدروز وعصابة الخراط ، وخفت ان يتطور الى صدام ، فوقفت ، وقلت للفارس من ابناء معروف : « هدىء من روعك ، فأنا مثلك أبحث ايضاً عن مقر محمد عز الدين الحلبي ، وسأرافقكم توأ للبحث عنه ، والسؤال من القرى المجاورة . » ، وتوجهت مع الدروز ، وبينهم المسلح وغير المسلح ، الى قرية « حتيتة التركمان » في المرج ، حيث بتنا ليلتنا فيها نستقصي اخبار عصابة محمد عز الدين الحلبي ، فتواترت الاخبار عن

وجودهم في قرى المرج ، من جهة الشمال الشرقي من الغوطة ، لذلك سرنا في صباح العشرين من شهر كانون الاول عام ١٩٢٥ نقصد قرية « حران العواميد » في المرج ، وفي طريقها السهل المكشوف ، لحنا وراءنا ، عن بعد ، بضعة فرسان يعدون ، تنطلق خيلهم خبيبا تظلمهم راية ، فحسبنا انهم طليعة لجملة فرنسية . وكانت معنا أربع بنادق صالحة للقتال ، وزعت اصحابها للدفاع وراء فوهات لقنباة تجري تحت الارض المنبسطة المكشوفة . ولما رأى الفرسان اننا اختفيننا عن انظارهم ، أدركوا قصدنا ، وراحوا يلوحون بكفياتهم

الدكتور خالد الخطيب

البيضاء ، وبالراية التي معهم ، فقدروا انهم من الثائرين ، وظهرنا لهم ، ثم سمعنا اصواتهم عندما اقتربوا منا ، ينادونني باسمي ، فتأكدنا انهم اصدقاء ، ولما وصلوا عرفناهم ، وهم الدكتور خالد الخطيب من منظمي ثورة حماة ، وجميل العلواني الحموي الموطن والموظف في عمان ، وفؤاد رسلان ، وسليمان المعصراني ، واخوه عبد الهادي المعصراني ، ومصباح الحسامي من شبان حمص الوطنيين الذين كانوا في مدينتهم على صلة بمنظمي ثورة حماة ، قادمين من جبل الدروز ، فقد تسللوا اليه ، بعد فشل ثورة حماة ، وهناك تسلحوا ، وقصدوا الغوطة للانضمام الى العقيد سعيد العاص واخوانه ، ومنازلة الفرنسيين في معاقلمها ، وصادف وصولهم الى قرى المرج ، بعد حملة الفرنسيين على جوبر وعربين وحمورية وانسحاب قوة محمد عز الدين الحلبي من الغوطة الى قرى المرج في الشمال الشرقي من دمشق . وكان ركبهم المثقف بلغ قرية الحتية بعد رحيلنا عنها في الصباح وحدثهم مختارها حديثنا ، واننا نبحث ايضا عن مقر محمد عز الدين الحلبي ، وان احدا اسمه منير ، ووصفني لهم ، فتأكدوا انني رفيقهم في ثورة حماة ، وجدوا للحاق بنا ، وكان اللقاء الذي طرنا له فرحا . ولما بلغنا

قرية حران العواميد في أصيل ذلك اليوم ، أرسلنا فلاحاً برسالة من الدكتور خالد الخطيب يبحث في قرى المرج الشمالية عن محمد عز الدين الحلبي والعقيد سعيد العاص واخوانها . وفي صباح الواحد والعشرين من كانون الاول فوجئنا بقوة محمد عز الدين تتجه إلى حران العواميد ، وعدد أفرادها لا يزيد عن المئة ، أكثرهم عزل من السلاح ، باعوا بنادقهم في الغوطة ، وهم الآن في تنقلهم ، ليجدوا الفرصة سانحة للعودة الى جبل الدروز . وقد تبين ان عدداً كبيراً من أفراد القوة فارقهم اثر معركة « حمورية » عائداً إلى قرى الجبل . لقد كانت لقائي بإخوان السلاح ورفاقه شائعاً ، اذ كانوا حسبوني في عداد شهدائهم الذين سقطوا على أبواب قرية « حمورية » ، وحدثوني عن اضطرارهم للانسحاب من حمورية لقلة عددهم ، بعد ان باغتهم العدو بجنده الكثير من منافذها وبساتينها ومنازلها وسطوحها ، وتعقبهم الى قرية « بيت سوا » حيث نشبت بين الفريقين معركة عنيفة احتل على اثرها الفرنسيون القرية ، فعادوا أدراجهم الى قرية « عدرا » خلفين وراءهم الغوطة ، ولم يخسروا في هذه المعارك إلا بضعة شهداء سقط أكثرهم على أبواب « حمورية » ، ولكن قوة التأثيرين تبعثرت امام الحملة ، وكثرة عددها ، وقوة أسلحتها ، وغادر الكثيرون الغوطة عائدين الى قراهم في الجبل . وقد بلغنا ونحن في حران العواميد ان العقيد الركن محمد اسماعيل الطباخ ، والمقدم الركن مصطفى وصفي السمان ، وشكري القوتلي من وطني دمشق ، وأركان حزب الاستقلال ، وصلوا الى قرية « دير العصافير » في الغوطة قادمين بطريق الجبل ، فأرسلنا من هداهم الى مكاننا ، وبعد وصولهم ، عقدنا اجتماعاً عاجلاً للبحث في تلافي الحال التي آلت اليها الغوطة ، واصلاح الوضع .

في قرية فخري البارودي

- ٥٥ -

انتقلنا في اليوم الثاني والعشرين من كانون الاول الى قرية الجربا ، وفيها منزل لفخري البارودي من وطني دمشق ، وبعض أراضيهما الزراعية ، أو كلها ملك له . وقد وجدنا على الجدار في منزله أبياتاً من الشعر كتبها أحد خلانه الذين كانوا يرتادون ، قبل الثورة ، القرية للهو والاستجمام ، ما زلت أحفظ مطلعها :

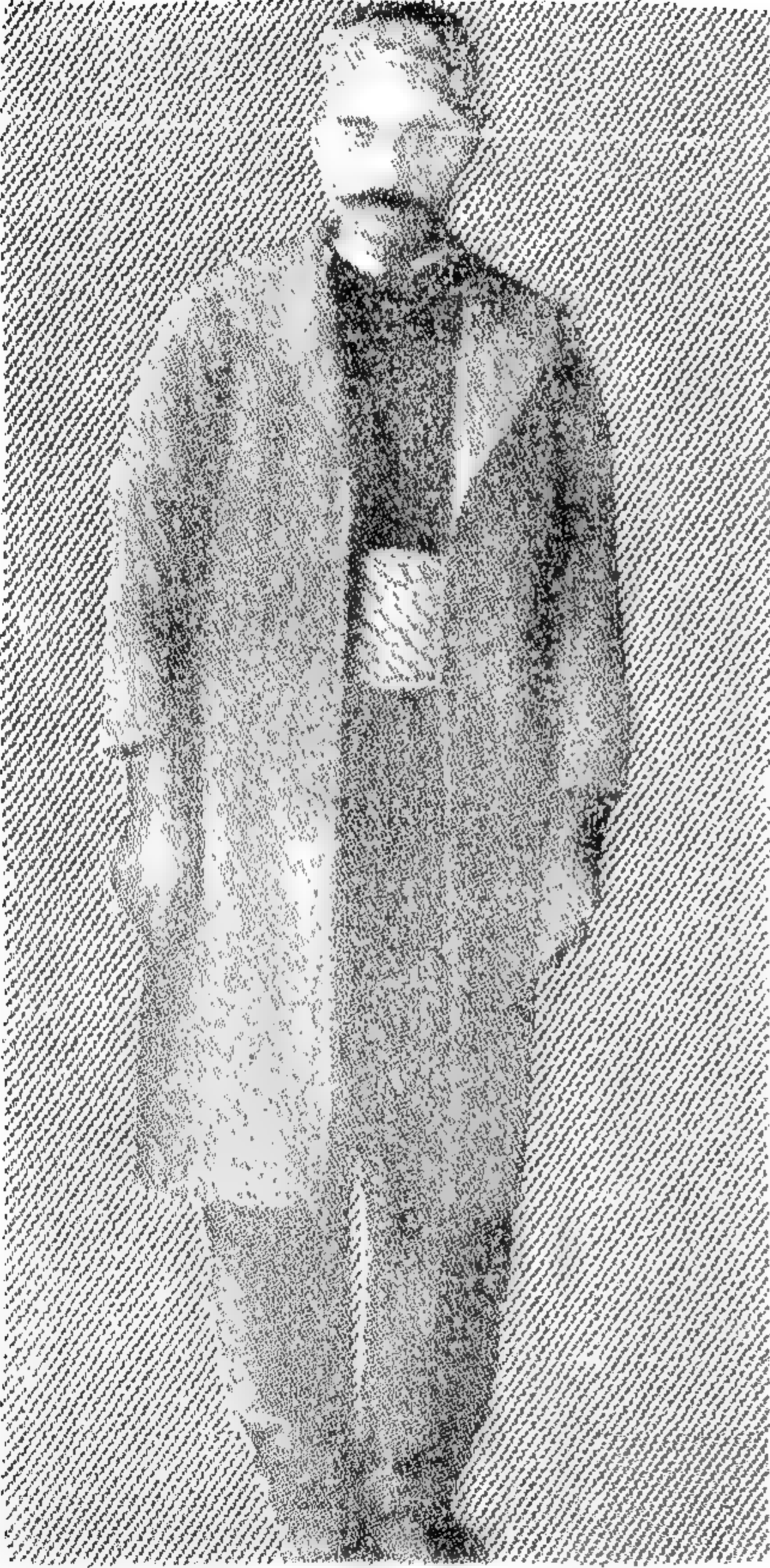
الا يا صاحب الجربا بلاك الله بالجرب

وفي الأبيات شكوى مرحة من براغيث القرية ، وسوء حال ضيوفه في ضيافته .

وقد اتصل بنا ، ونحن في القرية زحف حملة افرنسية الى الغوطة ، وتأسيسها مخفراً جديداً في قرية « شبعاء » على طرف الغوطة الجنوبي ، دون أن تلقى أي مقاومة في الزحف والعودة الى دمشق . وهكذا طوقت الغوطة من أطرافها بمخافر فرنسية فيها حاميات قوية هي : دوما ، اوتايا ، حوش خرابو ، شبعاء . وبين مخفري شبعاء وحوش خرابو تقع قرية « مرج سلطان » الشركسية ، ورجالها كلهم مسلحون بأسلحة فرنسية ، ويعتبرون من الحرس السيار لهم رواتب شهرية . وقد سد اهلها منافذ القرية ، وحصنوها ضد العصابات ، وكانوا يناوئونهم ، ويتحدونها ، ويشتركون كلما سنحت لهم الفرصة في المعارك التي تخوضها الحملات الفرنسية قريباً من قريتهم .

استشهاد حسن الخراط

- ٥٦ -



أخذ الفرنسيون ، بعد
احداث هذه الخافر ،
يوجهون حملاتهم الى الغوطة
لمطاردة فلول العصابات فيها .
وزحفت ، في مرة ، حملة أكثرها
من المتطوعة ، الى قريتي « يلدا »
و « ببيللا » ، وباغتت في الطريق
حسن الخراط مع عدد من افراد
عصابته يكمنون في ارض مشجرة ،
أي بستان ، استشهد في المعركة حسن
الخراط ، ودفن في قرية ببيللا ،
وانسحب الثائرون من الغوطة ،
وعاد محمد عز الدين الحلبي بفلول
قوته الى الجبل ، وبانسحابهم
غادر الغوطة إلى الجبل محمد
اسماعيل الطباخ ، وشكري
القوتلي ، ومصطفى وصفي ،
وخليل الحموي ، وصبري العسلي ،

الثائر حسن الخراط

ونسيب شهاب ، وفائق العسلي ، ورفاقهم من مثقفي شباب دمشق الثائرين ،
ومنهم من تابع طريقه الى شرقي الاردن وفلسطين ومصر معتبراً الثورة انتهت

في الغوطة والمناطق السورية الاخرى ، وليس لهم نفع للدروز ، في حال بقائهم في الجبل ، الا ان يكونوا عالة على أهله .

الشائرون المؤمنون لا ينسحبون

أما العقيد سعيد العاص ، وفؤاد رسلان ، وخير الدين اللبابيدي ، والاخوان المعصرانيان ، ومنير الرئيس ، وجميل العلواني ، ومحمد علي الدروبي ، وابراهيم صديقي ، والاخير ضابط في الجيش التركي ثم في الجيش العربي ، سرح من الاخير شاباً ، وعمل معلماً في المعارف ، حتى اقتصد بعض المال ، ثم انتمى الى الجامعة السورية ، حتى بلغ الصف الاخير من كلية الحقوق ، ولكن الثورة حملته على ترك الجامعة ، فالتحق بها ، وهو وحيد والديه . أما هؤلاء فقد عقدوا اجتماعاً في قرية « الجربا » حضره الدكتور خالد الخطيب الذي كان من رأيه الانسحاب الى الجبل مع المنسحبين ، وإصلاح وضع القيادة لصالح وضع الثورة ، قبل مباشرة أي عمل ، ولكن هؤلاء ، خلافاً لرأي الدكتور الخطيب ، واعتقاداً منهم بانهم غير قادرين على تغيير او اصلاح وضع القيادة ، بالنسبة لأوضاع جبل الدروز وتقاليده ، فقد قرروا الاعتماد على انفسهم ، والعمل على توسيع شقة الثورة الى الشمال ، حتى تصل الى حمص وحماة المدينتين اللتين ينتمي اكثرهم اليهما ، واذا أمكن ان تشمل المنطقة الوسطى وتتعداها الى الشمال من سورية ، والا فإن الثورة مقضي عليها ، لأن الفرنسيين متى اخضعوا الغوطة والمناطق الداخلية من سورية ، سيزحفون بقواتهم الكبيرة التي جاءوا بها من المغرب الاقصى ، ومن فرنسا ، ومستعمراتهم الاخرى في افريقية والهند الصينية ، خاصة بعد ان قضوا على ثورة الامير عبد الكريم الخطابي في المغرب - سيزحفون الى جبل الدروز لإخضاع أهله ، وبإخضاعهم تنتهي الثورة ، ويعود الفرنسيون الى التحكم بمقدرات سورية ، دون ان يلقوا مقاومة .

لقد اتفقت كلمتنا ، عدا الدكتور الخطيب ، على السفر الى قلمون ، وتوحيد

كلمة قادة الثورة فيه ، وجمع مسلحية ، والزحف الى حمص فحماة لتوسيع نطاق الثورة ، وشغل الفرنسيين ، وإلهائهم عن جمع قواتهم لضرب ثورة الجبل في اول الربيع .

وغادرنا نزيه المؤيد العظم ، وعبد القادر سكر ، واحمد المنلا من مثقفي حي الاكراد في دمشق بمن تبقى معهم من عصابة حي الميدان وحي الاكراد الى غربي دمشق ، وانضموا الى عصابة أبناء عكاش ، وقاموا بتخريب الخط الحديدي في وادي بردى بين دمشق والزبداني ، يساعدهم في ذلك الفلاحون الشبان في قرى الوادي ، وتمكنوا ، كما علمنا ، من توقيف قطارين ، والاستيلاء على غنائم فيهما ، حتى اصبح وجودهم في تلك المنطقة يهدد المواصلات بين دمشق ولبنان ، وبين دمشق وشمال سورية ، فوجه الفرنسيون عدة حملات لمطاردتهم ، واصلاح الخط الحديدي . وقد نشبت معارك بين هؤلاء الثائرين وبين الحملات الفرنسية ، كنا خلالها نهدد حمص بقواتنا ، مما شغل الفرنسيين بمنازلة العصابات الثائرة في الشمال ، وغربي دمشق ، والهائم عن الغوطة ، فأخذت العصابات تعود اليها ، وتنشط عصابات قراها ، وتزداد قوة كلما انضم شبان جدد من دمشق إلى عصابات الاحياء الدمشقية التي عادت تتمركز في قرى الغوطة قريباً من احيائها .

مناطق تتذكر للثورة وتقاومها

- ٥٧ -

توجهنا في صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الاول ، وعددنا تسعة أشخاص الى بلدة القطيفة ، فوجدنا اهلها قد سدوا المنافذ اليها ، واقاموا الابواب لبلدتهم يحرسونها ليل نهار من العصابات الثائرة ، تحت ستار الحراسة من غزو

عشيرة الغياث ورئيسها النهاب السلاب . وقد حسبونا ، في بادئ الامر ، من موظفي الحكومة السورية ، لان اكثرنا كان يرتدي اللباس الغربي ، والزي العسكري ، فسمحوا لنا بدخول بلدتهم الصغيرة ، وعرفنا منهم انهم ساروا على هذا النهج منذ حوادث خلف النعير واضرابه من النهابين ، فقضينا الليلة في سهرتنا نقتنع زعماء البلدة بان اعمال خلف النعير واضرابه من السلابين ليست بموافقة قيادة الثورة التي تشجب هذه الاعمال المنكرة ، وان قادة الثورة الحقيقيين قرروا ان يؤدبوا كل من يرتكب اعمال السلب والنهب وفرض الاتاوات على السكان . وقد بلغنا ، ونحن في القطيفة ، ان نسيب البكري وبعض رفاق معه في قرية « عين التينة » ، فتوجهنا صباح اليوم الثاني اليها ، فلم نجدهم ، وقيل لنا انهم توجهوا إلى بلدة « النبك » في قلمون ، فتابعنا مسيرنا اليها ، وادركنا المساء قرب قرية « قلدون » ، واهلها من التركان ، فقررنا المبيت فيها ، ولكن اهلها استقبلونا مساء بالرصاص ، بعد ان تحصنوا وراء جدران قريتهم والحواجز التي اقاموها لمنع العصابات من دخول قريتهم . وبعد توقف طويل ، وتبادل الشارات والنداءات ، ارسلوا الينا رجلاً منهم ، تفاهمنا معه على ان يسمح لنا اهل القرية بالمبيت ، وافهمنا باننا لا نضمر شراً للقرية واهلها . وهكذا دخلنا القرية ، وقام اهلها بضيافتنا على احسن وجه ، واكدنا لهم ان اهداف الثورة شريفة ، وانها لا تقر اعمال السلب والنهب . وتبين لنا ان الفلاحين مستأثرون جداً من الاعمال التي ارتكبها زعماء الثورة في منطقة قلمون ، وخاصة خلف النعير ومن معه من عشيرة الغياث . لقت صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الاول طائفة قنابلها على قرية « عين التينة » نتيجة لزيارة نسيب البكري ، ثم لمورنا بها . ولما اقبلنا ضحى على بلدة « النبك » مركز قضاء قلمون شاهدنا طائفة تقصفها بالقنابل . وبعد الظهر أعادت الكرة ، ونحن في البلدة . وليلاً اجتمعنا برمضان شلاش الذي لجأ الى قلمون بعد حادثته مع حسن الخراط ، ثم اجتمعنا بنسيب البكري ، وبحثنا وضع الثورة في الغوطة وقلمون ، وعرفنا اننا وصلنا الى منطقة واسعة متحررة من الفرنسيين ، ولكن الفوضى تسودها ، والخلافات

على أشدها بين زعمائها ، والاهلون في البلدة والقرى التابعة للقضاء غدوا احزاباً وشيعاً ، هناك فريق مع الثورة وفريق ضدها يقاومها بقوة ، وفريق على الحياد ، او سلمي يريد الا يقرب الثائرون قريته ، ويعلن انه لا يساعد الفرنسيين ، ولكنه لا يحاربهم فيما إذا جاءوا . وقد علمنا خلال الايام التي قضيناها في النبك ان اعمال قادة العصابات ، وفي مقدمتهم حسن الخراط ، وابناء عكاش ، وجمعة سوسق ، واحمد سوسق ، وخالد النفوري الذين يحملون اسم الثورة ، هي التي اوصلت المنطقة الى هذا الوضع المتدهور ، فقد أساءت اعمالهم وتصرفاتهم الى سمعة الثورة ، وزعزعت ثقة الكثيرين من الفلاحين وسواد الشعب باهداف الثورة . لقد كانت الجريمة الكبرى التي ارتكبها ادعياء الزعامة في الثورة هنا العدوان على قرية «معلولا» المسيحية ، مما حمل قرى صيدنايا ، ومعلولا ، وصدد ، والحفر ، ورأس بعلبك وغيرها من القرى المسيحية ، او القرى التي فيها طوائف مسيحية كبرى ، ان تتنكر للثورة ، وان تعاديا علناً ، وان تتسلح لمقاومتها . واستغل الفرنسيون الحادث ليوزعوا السلاح على القرى المسيحية أو القرى التي اكثرية سكانها من المسيحيين ، ويحرضوا اهلها ضد الثورة . ثم جاءت بعدها جريمة عدوان خلف النعير الذي جاء المنطقة مع جموع الثوار ، ومع نسيب البكري ورمضان شلاش ، اثر انسحابهم من دمشق جاءت جريمة عدوان هذا الشيخ وأتباعه من عشيرة الغياث على مواشي المنطقة وسلبها ، فانقطع الاهلون عن معاضدة الثورة ، وقاموا يحصنون قراهم ، ويتسلحون لحمايتهم وحماية ماشيتهم من النهب . لذلك كانوا يقفون موقفاً سلبياً من العصابات الثائرة ، ويمنعونها ، اذا ما استطاعوا ، من دخول قراهم ، ولو اضطروا الى استخدام السلاح .

والجريمة الثالثة الاتاوات التي كان يفرضها قادة العصابات على القرى باسم الثورة ، ثم التعدي على المسيحيين في يبرود ، ودير عطية ، وفي بلدة النبك نفسها ، فقد قام بذلك حسن الخراط ، وابناء عكاش معه ، وقام بعدهم بذلك جمعة سوسق واحمد سوسق من قرية رنكوس ، واستبدوا في المنطقة ، وخاصة ، بعد اندحار الحملة الصغيرة التي وجهها الفرنسيون من حمص في محاولة لإرجاع

سلطان الحكومة على النبك. واذكر ان حسن الخراط روى لنا بنفسه في الغوطة قصة مصادرة القطع الموسيقية من مدرسة «يبرود» الطائفية في الدير ، وكيف عرضت الطائفة المسيحية في يبرود عليه خمسمئة ليرة ذهبية كي يعيدها الى المدرسة ، فرفض ، ولم يستفد من هذه الآلات النحاسية ، وتركها يأكلها الصدأ ، واستخدم منها بوقين للتظاهر امام القرويين بان عصابته اصبحت كجيش نظامي تستخدم في حركاتها البوق ! .. وقد قام المسيحيون ، اثر هذه الاحداث ، يجتمعون الى زعماء اخوانهم المسلمين في يبرود ودير عطية وغيرها من القرى الكبيرة في المنطقة ، يبحثون معهم عن حماية قراهم من العدوان والسلب ، فاقترى هؤلاء بالقرى المسيحية ، وسدوا منافذ قراهم ، وحصنوها ، واشتروا السلاح ، ووقفوا في وجه كل من يريد الدنو من قراهم باسم الثورة ، واصلوا في بادئ الامر انهم على الحياد ، ولكن تهديد العصابات المتواصل اجبرهم على الاتصال بالسلطة الفرنسية ، وطلب مساعدتها ، فشجعتهم على موقفهم ، ووجدت في منطقتهم تربة خصبة لبذر التفرقة ، والشقاق ، وشل تيار الثورة ، وشغلها بالخلافات ، حتى اصبحت عدد المسلحين بالبنادق في منطقتي قلمون والجورة ، أي في قضاءي قلمون وجيرود ، اكثر من ثلاثة آلاف مسلح ، ولكنها قوة مشلولة لا يمكن لاي كان ان يوحدها ، أو ينتفع منها في حركة تفيد الثورة. وكان اول من انضم الى الثورة من وجهاء النبك خالد النفوري تخلصاً من الاقاوة التي فرضها عليه حسن الخراط وأبناء عكاش . ولما قوي ساعده بمن انضم اليه من مسلحي النبك ، اقتفى اثر غيره من الطماعين ، وقام بقوة عصابته يحارب الذين كانوا ينازعونه الوجاهة والنفوذ في النبك وفي منطقة قلمون كآل طيفور ، وآل ملحم في بلدة النبك ، ومصطفى دعبول في بلدة دير عطية ، وبذلك طغت المنازعات الشخصية على الاهداف السامية للثورة . وقد قام خالد النفوري هذا بدعوة الثائرين في قلمون الى تجهيز حملة وطنية زعم انه يريد بها احتلال مدينة حمص ، وتحريرها من الفرنسيين ، فقلده خالد الطيفور ، وسليم الملحم من وجهاء النبك ايضاً ، وحسن السويدان من وجهاء قرية «قارة» غيرة منه ، وساروا بأنصارهم

ايضاً نحو حمص ، حتى اصبحوا على مقربة منها ، ولكنهم ، في آخر الامر ، اکتفوا بنهب قرية « الفحيلة » المسيحية ، ونهب قرية « الرغامة » النصيرية (العلوية) ، شرقي حمص ، متذرعين بان هاتين القريتين استعصتا على جيش الثورة الذي يقودونه ، وقاومتاه بالسلاح ، وانفرط عقد جيشهم اثر عمليتي النهب ، وعاد افراد هذه هذا يحمل قدراً ، وذلك يتنكب لحافاً ، وآخر يجر حماراً . وكان من نتائج عملهم قيام جميع قرى النصيرية في محافظة حمص بالتسلح ضد الثورة ، وانحياز زعمائهم علناً للفرنسيين ، متذرعين بما أصاب أهالي « الرغامة » على ايدي الثائرين . ثم جهز احمد سوسق من رنكوس والقرى القريبة منها مسلحين ضمهم الى جماعة خالد النفوري في بلدة النبك ، وسارت حملتهم مجتازة سلسلة الجبال الغربية إلى سهل القصير جنوبي حمص ، ودخلت بلدة القصير مركز الناحية بدعوة من حسن رعد الذي كان متزعماً فيها ، فأضعف الاحتلال الفرنسي نفوذه ، وخرج عليه ، اول من خرج ، النصاري في بلده اعتماداً على صلتهم بضباط الاستخبارات الفرنسيين ، وتحذوه ، وحقد عليهم ، حتى وافته فرصة اقتراب الثائرين من بلده ، فدعاهم إليها ، كي يبطش بخصومه النصاري الخارجين على زعامته ، وشفاء لأحقاده ، فقتل الثائرون ثلاثة من الفرنسيين المدنيين كانوا يعملون هناك في مسح الارض وفرزها وتنظيمها « كاداستر » ، ونهبوا أموال المسيحيين في القصير وقرية « الدمينه » المسيحية ، واقتلعوا قضيباً واحداً من الخط الحديدي بين حمص - الرياق ، ثم عادوا الى قراهم ، واضطر حسن رعد واولاده ، وكلهم شبان ، للجلأ عن بلدة القصير خوفاً من بطش السلطة الفرنسية بهم ، فنهب النصاري منزله وامواله واستولوا على اراضيه واملاكه مقابلة له بالمثل ، ولم يفكر قادة الثائرين الذين بلغ عدد حملتهم حوالي ألف مسلح بالزحف الى حمص ، أو الاستيلاء على نجفر من نجافر الفرنسيين في المنطقة ، في حين كانت حامية حمص الفرنسية لا يتجاوز عددها مئتي جندي ، وجاءتهم دعوة من الوطنيين في حمص بالزحف الى المدينة ، مع معلومات صادقة عن ضعف الحامية الفرنسية ، واستعداد الشعب في المدينة

لما أوزرتهم ، ولكن الهدف من الحملة ، في الأصل ، لم يكن قتال الفرنسيين ، وإنما كان نهب المسيحيين ، وشفاء أحقاد حسن رعد في القصير . والانكى من هذا ان قادة حملة الثائرين بلغهم وهم يقتربون من حمص ان معظم أغنياء المدينة ، وخاصة المسيحيين منهم ، نزحوا إلى طرابلس في لبنان ، بعد ان جمعهم المتصرف وضابط الاستخبارات الفرنسي ، وأعلننا لهم ان ليس لدى الحكومة قوة تقف في وجه وصول الثائرين الى المدينة ، فبلغت اجرة المركبة تجرها الخيل من المدينة الى محطة القطار ليرة ذهبية لكثرة النازحين من الخوف الى مدينة طرابلس . وكان من نتائج غزوة النهب والسلب هذه اتفاق كلمة اهالي القصير مسلمين ونصارى على مقاومة الثورة وتوسعها ، وكثر اعداؤها ، واصبح السكان لا يجدون عاراً في اللجوء الى السلطة الفرنسية ، وطلب مساعدتها لحماية قراهم واموالهم من عدوان العصابات عليها .

هذا هو الوضع الذي واجهنا في قلمون عندما وصلنا الى بلدة « النبك » نحمل الآمال الكبار في امكان جمع الكلمة ، وتجنيد المسلحين للزحف الى الشمال من أجل توسيع الثورة وانتشارها نحو الشمال .

لقد زار نسيب البكري ، بعد وصولنا الى النبك ، بلدة يبرود داعياً اهله الى معاضدة الثورة ، والعدول عن موقفهم السلمي منها ، دون جدوى . كذلك أوفد رسولا الى بلدة « دير عطية » ، فأشبعه اهله ضرباً ولكماً وشتماً ، ومزقوا رسالة البكري . ولما بلغه نبأ مصير رسوله قنط من صلاح الوضع في قلمون ، وغادر النبك الى جبل الدروز . وفي طريقه التقى بفوزي القاوقجي قائد ثورة حماة ، وكان وصل حديثاً الى الغوطة ، قادماً إليها من العراق ، فترافقا الى الجبل .

أما نحن التسعة القادمون من الغوطة فلم نأس ، ولم نقف مكتوفي الايدي ، ففقدنا الاجتماعات مع أصحاب الكلمة في النبك ، وتوجه قائدنا سعيد العاص

يرافقه خير الدين اللبابيدي من الغوطة مباشرة ، عند رحيلنا عنها ، الى قرية
رنكوس لاقتناع جمعة سوسق واحمد سوسق الاخوين في جمع تجريدة من ثائري
قلمون هدفها مدينة حمص ، وتوسيع شقة الثورة الى الشمال .

ولما وصل العاص واللبابيدي الى النبك بطريق يبرود استأنفنا اجتماعتنا مع
وجهاء النبك ، وقربنا بين نزعاتهم باسم مصلحة الثورة ، وحاربنا دعاية
الفرنسيين التي بلغت حد إرسال وثائق بالعفو عن آل طيفور ، وآل ملحهم ،
وآل مالك وغيرهم من وجهاء النبك وقلمون ، على ان يقفوا بانصارهم على الحياد
من الثورة ، ويقاوموا أعمال خالد النفوري الذي ينازعهم النفوذ بقوة الثورة .
وكتبنا نشرات وزعناها على القرى تدعو الى اتفاق الكلمة إزاء المستعمر عدو
البلاد المشترك ، واوضحنا اهداف الثورة السامية ، وانها لا تقرب ما وقع من اعمال
السلب والنهب والعدوان على أي مواطن بسبب اختلاف المذهب او الدين أو
الرأي ، واحدثنا من اخواننا اصحاب الاقلام هيئة للدعاية ، واكدنا في كل
اجتماع تم ، اننا سنكون مع الاهالي الشرفاء للضرب بيد من حديد على أيدي
النهابين السلايين ومستغلي الثورة لمصالحهم الشخصية . وكنا نسمع من أفواه
اكثريّة الشعب ، ومن اصحاب التجربة المخلصين ان المنطقة بحاجة الى قوة
توفدها قيادة الثورة في الجبل ، يلتف حولها الشرفاء في تنفيذ مخططات الثورة ،
ورددع كل رئيس عصابة او متزعم في بلده او قريته من ارتكاب الاعمال المنافية
لأهداف الثورة . ولما كانت يدنا لا تطول هذه القوة ، فقد قررنا الاتصال بجمعة
سوسق ، لعلنا نشير فيه نزعة الخير والوطنية ليجعل من عصابته نواة لجمع مسلحي
قلمون في حملة تزحف الى حمص .

استسلام رمضات شلاش للفرنسيين

- ٥٨ -

توجهنا مع سعيد العاص الى رنكوس من الجبال القريبة من حدود لبنان ،
ووصلنا إليها تحت تهطال الثلوج ، نشق سبيلنا بصعوبة في الطرق التي كانت
تغمرها الثلوج . ولما استقر بنا فيها المقام ، اقنعنا الاخوين سوسق بالفكرة ،
أو انها تظاهرا أمامنا بانهما قنعا ، وان الهدف من الحملة سيكون حرب العدو
المستعمر ، والا فرق بين المسلم والمسيحي في نظر الثورة ، فكلاهما مواطن له ما
للآخر من حقوق ، وعليه ما على الآخر من واجبات ، وان قيادة الثورة ضد كل
اعمال السلب والنهب والعدوان ، وألفنا لجائاً في القرى تحصي عدد المسلحين ،
وتهيشهم للزحف والجهاد في سبيل الوطن ، وتنظمهم ، وتتدارك اعاشتهم لمدة
من الزمن ، واعلنا ان جزاء الجاسوس القتل ، واننا سنعاقب كل من يقاوم
الثورة بالقوة أو بنفوذه وماله ولسانه . وبعد مساعي واسفار ورحلات شاقة في
الجبال تحت الثلوج ، وفي البرد القارس ، وبعد تحمل الكثير من التعب والشقاء ،
استطعنا نحن التسعة تجميع نحو مئتي مسلح ساروا معنا الى بلدة النبك ، حيث
جددنا فيها المساعي لتوحيد الكلمة ، وازالة الضغائن ، واستطعنا ان نقنع
زعماءها المتنايدين بالمسير معنا ، فتوجهت قوتنا التي زاد عددها على خمسمئة مسلح
من النبك الى الشمال ، وكان مسيرها في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الثاني
عام ١٩٢٦ ، وعلى رأسها من زعماء المنطقة جمعة سوسق ، ومحمد محسن شيخ
قرية الجبة ، وخالد النفوري ، وغيرهم من زعماء قلمون ورنكوس . وقد تخلف
احمد سوسق عن السير مع الحملة بسبب جرح من شظية اصابته من قنبلة القتها
الطائرات الفرنسية علينا في النبك قبل الرحيل .

كنت قبل سفرنا الى قرى الجرد ، اي الجبال ، لتجميع قوى الثائرين ،
توجهت مع رمضان شلاش ، وجميل العلواني ، و ابراهيم صدقي ومحمد علي الدروبي
الى قرية « جريجير » غربي بلدة النبك لإقناع اهلها بالانضمام الى جيش الثورة
الذي سيؤحف الى الشمال . وخلال اقامتنا في القرية اقنع رمضان شلاش جميل
العلواني ومحمد علي الدروبي من اخواننا بمرافقته الى منطقة الفرات ، بطريق
البادية ، لاشعال نار الثورة فيها ، مستعيناً بعشيرته هناك . وكان مع رمضان
شلاش رجلان من اتباعه ، فأصبحوا خمسة ، حملوا معهم البندقية الرشاشة التي
أتى بها اخواننا من جبل الدروز ، يوم التقينا بهم على طريق حران العواميد في
المرج . وعلى مقربة من بلدة سلمية ، كشف رمضان شلاش لرفاقه عن نيته في
الاستسلام للفرنسيين ، فافترق عنه جميل العلواني ومحمد علي الدروبي ، وكان
جواد الاول قد نفق في الطريق من الجوع ، وسرق تابعا شلاش بندقية الدروبي
والرشاش الخفيف . وعاد العلواني والدروبي اليها ، بحال يرثى اليها ، اذ تسلل
كل منهما بطريق سلمية الى بلدة حمص وحماة ، ومنها الى قلمون ، فوصلا اليها بعد
عودتنا من معارك الزراعة على مقربة من قصير حمص .

الفصل التاسع

خُطَّةُ الزَّحْفِ إِلَى حِمَصَ

- ٥٨ -

كان زين مرعي جعفر وثلاثة من أبناء عمه من عشيرة الجمافرة الشيعية في جبال لبنان الشمالي ، وعشيرتهم يتزعمها آل خمادة في بلدة الهرمل ، وصلوا إلى النبك قبل رحيلنا عنها ، للاطلاع على اوضاع الثورة في السهل ، لان منطقة قلمون تعد سهلاً ، في نظر هؤلاء الجبليين ، على ما فيها من جبال ومرتفعات ، وقابلوا سعيد العاص قائداً ، فشجعهم بدوره وحشهم على الثورة وقتال فرانسة ، وزودناهم بنشرات كنا كتبناها ، وبتعليمات وضعناها عن أهداف الثورة . فوعد زين مرعي جعفر القائد العاص بأنه عائد إلى منطقته لاعلان الثورة على الفرنسيين ، وموافقتنا بمن ينضم اليه من الثائرين إلى جسر « الحارون » بجانب قرية « الزراعة » ، على مقربة من بلدة القصير ، لان خطتنا كانت تخريب هذا الجسر الحديدي ، وتعطيل سير القطر من رياق إلى حمص ، ثم التوجه بقواتنا إلى الاراضي الوعرة غربي حمص ، والتي تمتد إلى بساتين مدينة حمص ، وتتصل بسلسلة جبال اللاذقية ، مما قد يساعدنا على نشر الثورة وتوسيعها إلى الغرب والشمال في مناطق صالحة للثورة ،

ذات معاقل تُحد من عمل السلاح الجوي ، وسلاح المدرعات والدبابات . وكنّا مدرّكين ان قوتنا القليلة لا تساعد على مهاجمة حصص من الجنوب والشرق بسبب السهول الممتدة من الجهتين الى المدينة ، ولا سيما بعد ان عزز الفرنسيون حامية حصص حتى زادت على الف وخمسمئة جندي من مختلف الاسلحة ، قاموا عند علمهم بحركتنا ، يحصنون المدينة ، ويسدون مداخلها بالأسلاك الشائكة ، وحراسها .

لقد اقتصرنا في خطتنا على محاولة توسيع الثورة في جبال المتاولة ومنطقة الهرمل ، وشمال لبنان ، وفي منطقة العلويين (النصيرية) ، وجبال اللاذقية ، وتهديد المدن الوسطى والساحلية ، ثم توسيع شقة الثورة الى الشمال وتهديد مدينتي حلب واللاذقية ، فتصبح الثورة تعم سورية من اقصاها الى اقصاها ، ويتسع الخرق على فرائسه ، فلا تستطيع القضاء على الثورة بالزحف الى جبل الدروز واحتلاله وإخضاعه . لقد علمتنا التجارب في الغوطة ، واقليم البلان ، ووادي التيم ، وقلمون ان وصول قوة من الثائرين ، وعملهم الدائب في المنطقة يشجع أهلها على التسليح ، ثم يدفعهم الى الثورة ومنازلة القوات الفرنسية ، ولا سيما اذا استطاع الثائرون القادمون الى المنطقة الانتصار على الفرنسيين في المعارك الأولى . ان السكان ينتقلون من مساعدتهم بالزاد والايواء الى تسليح شبابهم ، وتآليف عضابات منهم ، تشترك في المعارك ، وباشتراكهم تصبح منطقتهم من مناطق الثورة الرئيسية ، وان جلا عنها الثائرون الاول .

الفرنسيون يستعدون للدفاع عن حصص

توجهنا في اليوم السادس عشر من كانون الثاني من قرية قارة الى قرية « البريج » ، بعد ان عجزنا عن استصحاب مسلحي قارة معنا ، لان حسن السويّدات من وجهائها ، كان تسلم سراً وثيقة من السلطة الفرنسية بالعفو عنه ،

وكان واسطته في ذلك عبد المجيد آغا سويدان صاحب قرية حسية أو «حسياء»،
وصاحب قرى واراخي كثيرة حولها، فيها سلسلة الجبال التي تقع غربي حسية،
والتي تمتد الى لبنان، ومساحتها تبلغ ملايين الدونمات، وهو من اصحاب
الاملاك المماليك لفرانسة، يسكن على الاكثر مدينة حمص، خاصة ايام الثورة،
فهو يخشى ان تناله الثورة بأذى لقاء ما يقدمه من خدمة للفرنسيين. لذلك لما
علم بزحفنا الى حسية قريته، غادرها الى حمص، وارسل من اقربائه في القرية
من يرجونا الا ندخل حسية كي لا يتعرض هو واقرباؤه واهل القرية لبطش
الفرنسيين، فلم نأبه لرجائه، ودخلنا مساء السابع عشر من كانون الثاني حسية،
فاستقبلنا فيها سعيد سويدان مدير ناحية حسية وشقيق عبد المجيد سويدان،
وعرفنا ان سيارة فيها ضابط فرنسي كانت ترابط في حسية تراقب زحفنا،
وتقدر عدد قوتنا، انطلقت الى حمص، عندما اقبلنا على القرية، لتنبيه
الفرنسيين بآخر المعلومات عن زحفنا، وعددنا، ومعداتنا، واسلحتنا،
وفرساننا ومشاتنا. وقد كانت حملتنا هذه المرة، لها ثقل، ترافقها مركبات
تجرها الدواب، فيها ذخائر وزاد وبارود اسود وغيره. والبارود يستخدم
عادة في تفجير الصخور، فأهالي النبك بينهم الكثير من عمال البناء، وقطع
الحجارة، استحضروا معهم كمية من البارود لاستخدامها في النسف، بدلاً من
المتفجرات الحربية التي تنقصنا.

لقد خفي على الفرنسيين الوجهة التي سنسير إليها، بعد وصولنا إلى حسية،
لذلك استعدوا في حمص للقائنا، وزادوا في تحصين مراكزهم في المدينة، وهم
يتربصون ان تصلهم أخبارنا الجديدة من شبكات تجسسهم، ومن أصدقائهم في
حسية. لذلك سرنا من القرية في الساعات الاولى من يوم الثامن عشر من شهر
كانون الثاني متجهين الى الغرب، واجتزنا ممراً بين الجبال، وودياناً اوصلتنا، مع
شروق الشمس، إلى مغاور وكهوف تقع على بعد ثلث ساعة مشياً من قرية
«الزراعة» - بتشديد الرء - وجسر الحديدي المعروف بجسر الحارون، على

الخط الحديدي بين رفاق - حمص ، وكمننا في تلك المغاور والكهوف المطلة على السهل الذي يمتد فيه الخط الحديدي ، محاولين ان نخفي اثرنا حتى عن سكان المنطقة ، لنباشر عملنا في الليل ، ولكن سكان المنطقة كانوا كشفوا في الصباح الباكر جموعنا ، وهم يحرثون اراضيهم في السهل . لقد وسعت المغاور والكهوف جموعنا ، وخیولنا ، ومركباتنا كلها . وكان أمامها نبع ماء فاتر اسمه « عين السخنة » ، ويحانبها من الشمال مجرى سيل جاف اسمه « سيل الضبع » . وكان الزاد والماء متوفرين لدينا ، لذلك لم نرسل إلى القرى بطلب الزاد . وكانت القطر ذات الركاب تمر عادة كل يوم بذلك السهل نهائياً ، فمر قطار للركاب ضحى أمامنا ، واجتاز السهل قادماً من الرفاق ، ورابط في محطة القصير القريبة ، ثم غادرها إلى حمص . وحوالي العصر وصل قطار مصفح مسلح الى جسر الحارون قادم من حمص ، ورابط عنده ، واستدعى ضابط فرنسي في القطار مختار قرية الزراعة المجاورة للجسر ، وسأله عن الثائرين ، او حسب عرفه ، عن المتوخشين ، إذ كان الفرنسيون يطلقون على الثائرين كلمة « بدوان » ، أي البدو ، وسأله هل ظهر لهم اثر في هذه الجهات ، فأجابه بالنفي ، ولكنه قال له : « ان الاشاعات تتواتر عن وصولهم الى الجبال ، فماذا علينا ان نعمل في حال وصولهم الى قريتنا ؟ » . فقال : « وماذا يمكنك ان تعمل سوى إعلامنا عن وصولهم ، وتنقل الينا اخبارهم ! » . وتابع القطار سيره الى محطة « رأس بعلبك » ، ولحق به قطار الركاب القادم من حلب بطريقه الى « الرفاق » . لقد جرى كل هذا دون ان يظهر أحد منا للعيان ، مع تقديرنا ان عملاء فرانسة في حمية اعلاموا السلطة الفرنسية في حمص عن وجهتنا ، وزودوهم بكل ما سألوهم عن اخبارنا ، لذلك توقعوا ظهورنا في سهل القصير ، ورافقوا قطار الركاب الثاني بقطار مسلح لحراسته أثناء المرور بسهل القصير .

معارك مع القطر المسلحة والطائرات !

- ٥٨ -

لم تكد شمس ذلك اليوم تحتجب وراء الافق حتى برزنا من مكننا ، ووجهنا فصيلاً من قوتنا بقيادة محمد محسن شيخ قرية الجبة المعروف بشجاعته في جرد قلمون ، فرزناه من مسلحي قريته ، وعدد افراده عشرون ، أرفقناهم بالضابط خير الدين اللبابيدي لتخريب القضبان الحديدية على بعد ساعة مشياً جنوبي جسر الحارون ، حتى نحول دون وصول القطار المسلح الى الجسر أثناء عملنا في تخريبه ، وزودناهم بمطربة ثقيلة لتحطيم « البزال » ، أو المسامير المحوية (البراغي) التي تشد القضبان إلى بعضها بعوارض حديدية . وكنا مضطرين لان نعمل طويلاً بوسائلنا البدائية في تخريب الجسر . ثم اردنا توجيه مئة من قوتنا الى الشمال لتخريب القضبان الحديدية بعيداً عن الجسر حتى لا يذاهمنا قطار من حمص ، فاعترض خالد النفوري على اقتراحنا ، وأكد الا خطر يأتينا من جهة حمص . ولما لم يكن لنا على الحملة غير إبداء الرأي ، سكتنا على مضض ، وتقدمنا بقوتنا كلها إلى جسر الحارون ، واقتلعنا نحو مئتي متر من القضبان ابتداء من الجسر الى الشمال ، وابتدأ من له إلمام من التأثيرين بالبناء وقطع الحجارة من مقالعها ، ينقب في ركيزة الجسر اليمنى من جهة الشمال ، وقد بنيت الركائز الاربع من الحجارة المنحوتة ، حتى إذا تم فتح ثقب في الركيزة ، ونقب بعده ليملاً بالبارود ، ويفجر لنسف الجسر ، تبين ان البارود مبلل من المطر لا يشتعل ، فذهب العمل ساعات في نقب الركيزة سدى ، ولم يبق أمامنا سوى هدم الركيزة حجراً حجراً ، وهي عملية شاقة تحتاج الى وقت طويل ، وعمل دائب لمتانة الجسر . وصلت فصيلتنا الى موقع بالقرب من قرية « جوسية الخراب » ، وما كادت تباشر تحطيم المسامير المحوية ، وتزحزح قضيباً واحداً من الخط الجديد

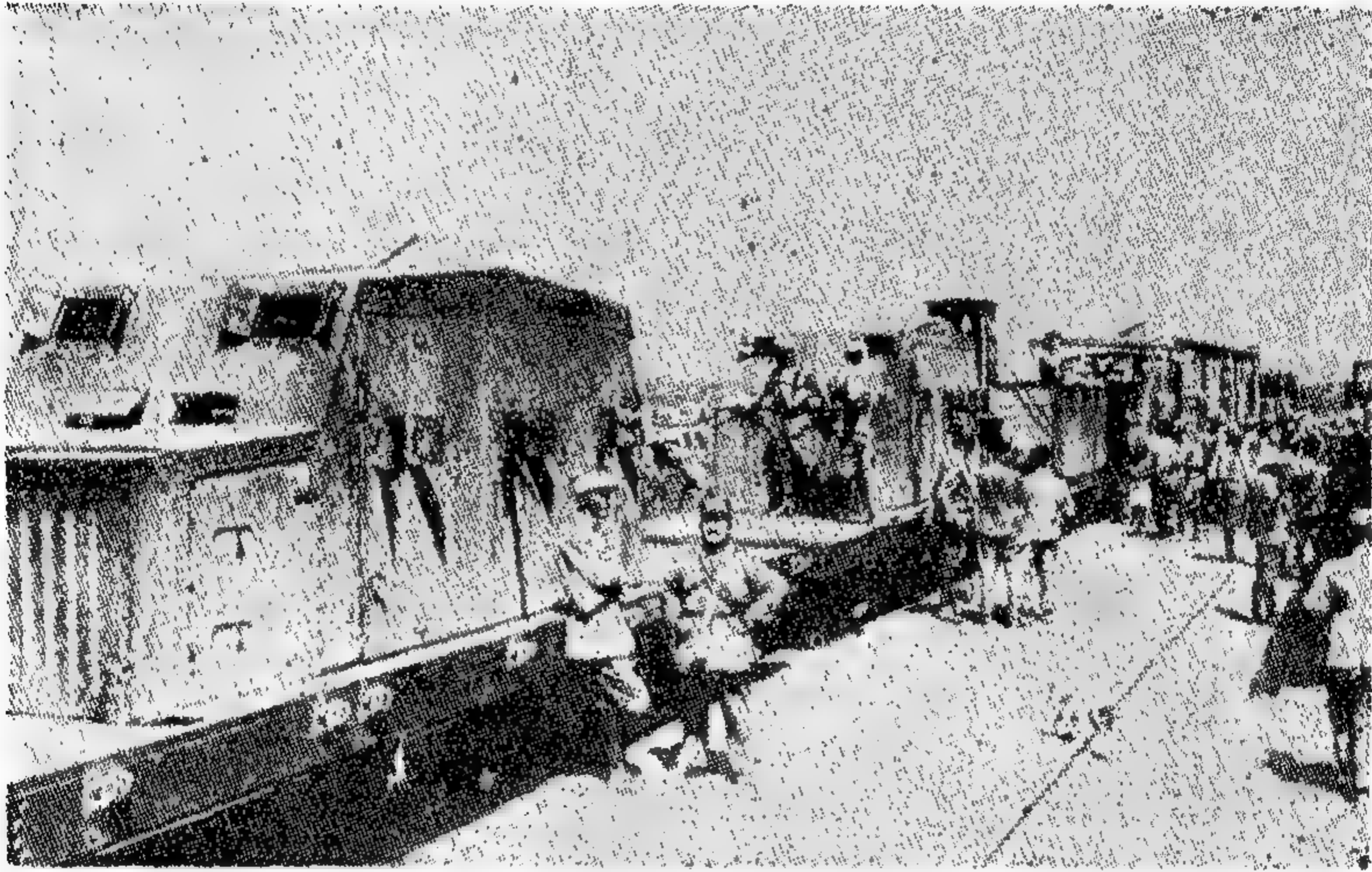
حتى أدركها القطار المسلح عائداً من محطة رأس بعلبك في الجنوب ، لحراسة الجسر والخط الحديدي ليلاً في سهل القصير ، فتراكض الثائرون مبتعدين عن الخط نحو معاقل تحصنوا وراءها ، وما كادت القاطرة تبلغ المكان المخرب ، تخريباً لا يظهر للعين في ظلمة الليل ، حتى خرجت عن الخط ، وخرجت وراءها مركبة مسلحة ، وتدهورتا وانقلبتا إلى جانب الخط ، وظلت مركبتان مسلحتان سليمتين اخذ ركبهما يطلق الرصاص من رشاشاته ، والقذائف من مدافعه ، خشية أن يستولي عليها الثائرون . وسمعنا اصوات الرصاص وتفجر القذائف ، فلم نعبأ بها لبعدها عن الجسر مكان عملنا . وقد لبثنا أكثر ساعات الليل ، وهو ليل قارس البرد ذو أنفوية وريح صرصر ، نعمل في هدم الحجارة ، فلم نستطع قلب الجسر الحديدي عن ركائزه إلى النهر ، ولكننا املنا إلى الغرب ميلاً ظاهراً ، لم يعد بعده صالحاً لمرور القطار عليه . وما انبثق الفجر حتى عدنا إلى مغائرنا وكهوفنا نلوذ بها ، وظل محمد محسن ورجاله ينساوشون القطار المصفح الليل بطوله . ولما تنفس الصبح ابتعدوا عنه ، وانتقلوا إلى موقع آخر صالح للمناوشة في النهار . وفي الضحى أطل علينا من محطة القصير قطار شحن طويل كثير المركبات قادم من حمص ، ظل يتقدم نحو قرية الزراعة حتى حجبته منازلها عن عيوننا ؛ فحسبنا أن القطار يحمل جنداً ، وتأهبنا لخوض المعركة معهم . وكان أكثر اهالي القرية هجروا منازلهم وقريتهم خشية أن يقعوا بين النارين . ولما طال وقوف القطار ؛ وانقضى نحو نصف ساعة لم يترجل الجنود منه ، تقدمت مع رفيقي الضابط ابراهيم صديقي وبضعة من الثائرين كطليعة نحو القرية ، نكشف من وراء جدرانها وأزقتها سر القطار الواقف . ولما توسطنا المسافة بين مواقع قوتنا والقرية ، وكشفنا عدة شاحنات من القطار أطلقنا نار بنادقنا عليها ، لعلنا نجر من فيها إلى المعركة .

ولكن سرعان ما رأينا القطار يتراجع فارباً نحو محطة القصير ، ثم يغادرها نحو حمص ، فتتبعناه بنار بنادقنا حتى غاب عن عيوننا ، وقد رنا بعدئذ أن

القطار كان يحمل عمالاً وحرساً قليلاً من الجند لإصلاح ما خرب من الخط الحديدي والجسر ، ولكنهم فروا لما عرفوا ان الثائرين ما زالوا على مقربة من القرية . ويظهر ان الفرنسيين في حمص قدروا أن الثائرين عملوا عملهم التخريبي في الليل ، وانتقلوا الى الجبال ، ولم يخطر ببالهم ان تبقى عصابة مسلحة بالبنادق فقط نهراً ثانياً في وسط سهل فسيح يمكن ان يصبح عرضة للغارات الجوية ، وعلى مقربة من الخط الحديدي الذي ينقل الحملات واسلحتهم من أي نوع كانت ، وبأسرع ما يمكن الى ارض المعركة ، ويوجه القطارات المسلحة التي تقوم لوحدها مقام المدرعات والدبابات والجنود .

بعد انسحاب قطار حمص وصل من الرياق قطار مصفح ثان انقذ المركبتين السليمتين من القطار المسلح الذي تدهورت قاطرته ومركبته الاولى ، وعاد بهما باتجاه « رأس بعلبك » ، بعد ان اطلق نيراناً حامية من اسلخته وخنوده على موقع فصيلنا الذي كان يناوش جنود القطار المتدهور . وقد توقعنا ، بعد فرار قطار العمال الى حمص ، ان تغير علينا الطائرات ، وتقصف مواقعنا في المغاور والكهوف ، وانتظرنا الى عصر ذلك اليوم ، ولكن السماء كانت متلبدة بالغيوم ، فصممنا على إتمام عملنا في الجسر على ضوء النهار ، في الساعات القليلة الباقية منه ، وتوجه من قوتنا نحو مئة مسلح الى قرية الزراعة والجسر الحديدي يعملون في اقتلاع الحجارة من الركيزة ، وبقي في المغاور والكهوف جمعة سوسق ، وخالد النفوري وسائر الثائرين . وقد اشرفت مع العقيد العاص على سير العمل ، ثم توجهت معه الى قرية الزراعة ، وجلسنا في بيت المختار ننتظر انتهاء العمل على الجسر ، ولكننا سمعنا فجأة دوي محرك طائرة قادمة من جهة حمص ، تخلق على ارتفاع منخفض ، وتتبع الخط الحديدي ، فخرجنا من بيت المختار الى ارض خالية بجانبه ، توسدناها ، واصلينا الطائرة التي مرت فوقنا ، بنار بنادقنا ، حتى كنا نسمع وقع رصاصنا على جسمها المعدني واجتاحتها ، فأخذت فوراً بالارتفاع ، وانقضت علينا بقنابلها ورشاشها ، ثم انصرف باتجاه حمص . وعاد

الشائرون الى عملهم في الجسر ، ولكن الطائرة عادت هذه المرة تنقض من عل دون هدير محركاتها على القرية ، وباغتتنا ، قبل ان نبلغ الارض المجاورة لبيت المختار ، وعاجلتنا من ارتفاع عشرات الامتار بقنبلتين سقطتا في ساحة القرية ، أصابت شظاياهما فلاحاً من أهل القرية قتلته ، فاضطررنا لأن نتوسد الارض في أزقة القرية ، وفي الأماكن التي بلغناها . وكانت جرأة من الطيار وعملاً بارعاً ، لم يمكننا ، بسبب المفاجأة ، حتى من تسديد رصاصنا الى طائرته ،



قطار مصفح يقاتل ويحرس الخط الحديدي

ثم اخذ يرتفع بطائرته ، ويفرغ الاربع عشرة قنبلة الاخرى حمولتها على القرية وما حولها ، ويعود أدراجه باتجاه حمص . وقيل لنا بعدئذ ان الطيارين في الطائرة الاولى جرحا ، وان الطائرة عادت الى قاعدتها مصابة برصاص بنادقنا .

عالج الشائرون امر الجسر على ضوء النهار ، وقبل الغروب بساعة ونصف الساعة وصل من حمص قطار مسلح تجاوز محطة القصير ، وتقدم نحو قرية

الزراعة ، وراءه قطار ثان مؤلف من قاطرة ومركبتين ، قدرنا انه ايضاً مسلح ،
رابط في محطة القصير ، ثم تجاوزها ، وتقدم مئات الامتار نحو قرية الزراعة ،
ورابط يحمي مؤخرة القطار المسلح الاول ، وابعدها قطار ثالث كثير المركبات
رابط في المحطة ايضاً ، فانسحب الثائرون عن الجسر ، وتسلسل اكثرهم الى
المغاور والكهوف لاحقين باخوانهم المرابطين فيها . وغادرت مع العقيد العاص ،
وخير الدين اللبابيدي ، وابراهيم صدقي ، وفؤاد رسلان ، دار المختار الى موقع
وراء جدران القرية ، يبعد عشرات الامتار عن الخط الحديدي ، ولحق بنا
المجاهد عبدالرحمن المط من منظمي ثورة حماة الذي سمع بقربنا من مدينة حمص ،
فتسلسل من مخبئه في مدينة حماة ، والتحق بنا في موقعنا من سهل القصير . وكنا
ارسلنا جيادنا الى الكهوف لثلاث تصاب في المعركة ، ثم أخذنا نوبخ المنهزمين الى
الكهوف من رفاقنا في السلاح ، ونشجعهم على الثبات معنا ، فانضم الينا نحو
عشرة مسلحين من قلمون . ولما دنا القطار المسلح الاول رويداً رويداً من القرية
اطلقنا على جنوده المتحصنين وراء أكياس الرمل نيران بنادقنا ، فرد علينا
بنار من رشاشاته ومدافعه لا تبقي ولا تذر ، ولكننا في موقعنا القريب من
القطار ، ووراء المانع من الارض ، كنا في حرز حريز من قذائف مدافعه التي
كانت ، لارتفاع المدافع عن الارض في المركبات ، تسقط وراءنا ، بعيداً عنا مئات
الامتار . وقد حلفت في نفس الوقت ثلاث طائرات فوق رؤوسنا ، اخذت
تلقي قنابلها فتسقط بعيداً عنا ، لقرب المسافة بيننا وبين القطار المسلح الذي
أخذ يتقدم نحو القرية حتى اختفى وراء جدران منازلها عن عيوننا ، وأخذ
القطار المسلح الثاني يتقدم ، حتى وقف في منتصف المسافة بين الزراعة ومحطة
القصير ، وأخذ يطلق نيران رشاشاته ومدافعه على موقعنا ، فأوعزنا الى
بضعة افراد من رفاقنا ان يدخلوا القرية ، ويتحصنوا في أزقتها ، ويناوشوا
القطار الاول ، خشية ان ينزل الجنود منه ، ويلتفوا ، او يحيطوا بموقعنا القريب
منهم . أما القطار الثالث ، فقد كان يحمل ، على ما يظهر ، عمالاً كثيرين ومعدات
لإصلاح الجسر والخط الحديدي ، لأنه ، خلال المعركة ، ظل مرابطاً في محطة القصير
لا يصله رصاصنا لبعده عنا ، ينتظر نتيجة المعركة التي استمرت إلى ما بعد

غروب الشمس ، يشهدنا اخواننا من مكنهم في المغاور والكهوف ، ولا يحركون ساكناً ، لأن المسافة بيننا وبينهم لا تساعد على خوض المعركة ، وكل من يتقدم منهم لنجدتنا يتعرض لنيران القطارين المسلحين . وقد استشهد ثائر واحد من النبكيين معنا في هذه المعركة ، وانسحب عندما بدأ الليل يخيم على المكان القطاران المسلحان عائدین الى محطة القصير ، وغادر قطار العمال المحطة باتجاه حمص يحرسه قطار مسلح ، ورابط القطار المسلح الاول في محطة القصير .

لقد بلغنا بالتواتر ان خسائر ركب القطار المسلح ثمانية قتلى ، وعامل قتل من اهالي قرية قطينة المسيحية القريبة من حمص ، وربما كان العمال في القطار الطويل كلهم منها .

بعد انسحاب القطارين المسلحين عدنا الى القرية ، وبحشنا فيها عن جبال ونحول حديدية - جمع نخل ، وهو عصا غليظة من الصلب رأسها دقيق منبسط يدخل تحت الصخرة أو الجسم الثقيل لزعزحته - فلم نجدها في القرية التي خلت من السكان . وكنا فكرنا بشد الجسر الحديدي بالجبال وزعزحته بالنحول عن ركائزه لاسقاطه في النهر ، لذلك اوقفنا العمل على الجسر ، ولجأ الثائرون الى المغائر والكهوف في تلك الليلة الباردة اتقاء الزمهرير ، والمطر الذي كان يتساقط رذاذاً متجمداً كحبات البرغل . ولما عدت من القرية مع عبد الحميد المرداوي متأخراً قليلاً ، وجدنا المغاور والكهوف كلها مزدحمة بالثائرين النيام ، وليس هناك غير مغارة واحدة خالية ذات بابين متقابلين ، منحدره الارض ، يجري من وسطها ما يتجمع ويسيل من ماء المطر ، اي ان الماء يدخل من باب ويخرج من باب ، ونسمة الريح الباردة ، اي الزمهرير ، تعصف في ارجائها ، وليس معي غطاء يقيني البرد غير معطفي العسكري ، وليس مع رفيقي المرداوي ، وهو جندي فلسطيني فر من الجيش الفرنسي والتحق بالثورة ، غير كيسين فارغين من القنب ، جعل احدهما غطاء والثاني فراشاً ، واضطجع كل منا في جانب من المغارة يجري

الماء بيننا ، ولكن يعد غفوة لا اعرف مداها ، أفقت من النوم متجمداً كأنني
جسم صلب دون مفاصل . ولما استطعت بعد حين تحريك يدي ، لمست نهماً
شعري ، واذا به واقف كالمسلات ، أو كشوك القنفذ من شدة البرد ، فعلقت
بندقيتي في عنقي ، والقيتها وراء ظهري ، ورحت أدباً على اربع ، حتى خرجت
من باب المغارة ، ورذاذ المطر يخالطه الجليد يتساقط ، والسماء مكفهرة بخيفة ،
وفرسي المربوطة امام باب المغارة بالعراء ترتجف كالسعفة من شدة البرد . وكنت
أشعر بخطر التجمد من البرد ، فواليت سيري أدباً على الاربع ، حتى بلغت
باب مغارة صغيرة ذات باب واحد ، مددت يدي منه فوقعت على اجسام
متلاصقة دافئة ، ودون أن اعرف من هم هؤلاء النيام ، تدحرجت بحسبي فوقهم ،
وعلا الصياح ، وتتالت الشتائم من اللفظ الذي يدخل مغارة صغيرة ، في آخر
الليل ، ليس فيها موضع قدم له ، وقلت للشاتين مبرراً عملي بأنني تجمدت من
البرد في مغارة ذات بابين ، النوم في العراء أفضل من النوم فيها ، وعلا صوت
العقيد سعيد العاص من بين الموجودين في المغارة ، يقول : « هذا فلان ! افسحوا
له مكاناً بينكم .. انظروا انه كقطعة جليد يكاد يقتله البرد ! .. » ، ونزلت
بحسبي بين اثنين منهم بالقوة ، وارتاح للدفع ، وسرى الدم في مفاصلي ، ونجوت
من الموت متجمداً . وكما كنت عجبي شديداً ، لما أفقت في الصباح ، ووجدت
صاحبي المرداوي ما زال نائماً في تلك المغارة المفتوحة من الجانبين ، تجري في
وسطها ساقية من الماء المثلج ، وتعصف من بابيها الريح الصرصر الباردة ، مع ان
ملابسه شعبية صيفية ، وليس لديه معطف يقيه البرد . كان الله بعونه على ما قاسى
من البرد في تلك الليلة .

كانت السماء في صباح العشرين من كانون الثاني عام ١٩٢٦ متلبدة بالغيوم ،
متجهممة مع ضباب قليل منخفض ، والمطر ما زال يتساقط رذاذاً ، فاطمأنت
نفوسنا إلى اننا سنكون بمنجاة ، في هذا النهار ، من الغارات الجوية وشر
الطائرات التي أصبحت تعرف مقرنا ، وتهتدي اليه بسهولة . وكان من حقنا ان
نحسب الحساب للطائرات ، فهذا هو يومنا الثالث نرابط في وسط سهل فسيح ،
قريباً من الخط الحديدي الذي قد ينقل الينا بغتة الجيوش ، ونقيم في مكان

واحد، لا بد ان الفرنسيين حددوا موقعه بالضبط من جواسيسهم، ومن قطاراتهم المسلحة، ومن طائراتهم التي كانت تجي، وتغدو، وتحلق فوقه. وقمنا نسعى لتتدارك الحبال والعصي الحديدية «المخول»، نرحل بها الجسر الحديدي عن ركائزه، وتوجه اكثر الثائرين الى موقع الجسر، وربطوه بالحبال يشدونها من جانبه المائل، والمخول الحديدية تعمل بين الجسر والركائز بحركاتها الاستنادية «مانيوه ل»، لتزحزحه وتخرجه من قواعده، فما هي إلا لحظات حتى مال الجسر وسقط في مجرى النهر، وظل جانب من جوانبه مرتكزاً على جدران الركيزتين من ركائزه الاربع. وما كدنا نهلل لنجاحنا في تخريب الجسر، بعد عمل استمر ثلاثة ايام، حتى شاهدنا القطار المصفح يتقدم نحونا من محطة القصير يتبعه القطار المسلح الثاني، ويرابط القطار الطويل بالعمال في المحطة، على نسق مساء أمس. وكانت المعركة التي خضناها أفراداً قلائل أمس، شجعت بقية الثائرين على خوض معركة اليوم مع القطارين المسلحين، فكمن فريق في مجرى النهر قرب الجسر، وكمن فريق في أزقة القرية وحولها، وأخذنا مواقعنا فننظر وصول القطار المسلح الاول الذي ظل يتقدم بحذر، حتى بلغ الجانب المعطل من الخط الحديدي، تحجبه منازل القرية، وهبط منه ضابط فرنسي في فمه غليون يدخنه، وألقى نظرة على الجسر ويداه في جيبه، حاسباً ان الثائرين غادروا المكان، بعد ان ألقوا بالجسر الحديدي في مجرى النهر، واطمأن، وتقدم نحو الجسر ليشاهد مدى التخريب فيه، وتبعه عدد من ركب القطار، هبطوا منه مطمئنين اطمئنان قائدهم. وما كاد الضابط يدنو من الجسر حتى سقط صريعاً برصاص الثوار المتحصنين بضفة النهر، وسقط بعده عدد من جنوده ورجاله، واحتدمت المعركة بين الثائرين وبين القطار المسلح، وعمل ركب القطار بحماية رشاشاتهم ومدافعهم حتى رفعوا جثث قتلاهم، وحملوا جرحاهم من ارض المعركة، وانسحبوا بقطارهم نحو محطة القصير، يسبقهم قطار العمال، والقطار المسلح الثاني نحو خمص. وقد تأكدنا من ان الضابط القتل برتبة «كابتين» نقيب، وان عدد القتلى والجرحى كان حوالي اثني

عشر جندياً . وقد استشهد في هذه المعركة من الثائرين عبده آغا سويدان ثجل
عبد المجيد سويدان صديق الفرنسيين في حسية ، إذ ان نجله الشاب صادف في
حسية عبد الرحمن المط من منظمي ثورة حماة يسأل عن قوة المجاهدين التي سمع
انها وصلت الى حسية ، فذهب إلى بيته ، وحمل بندقية ، وركب فرساً ، ورافق
السيد المط إلى مقرنا على جسر الحارون ، عارضاً رغبته في ان يلتحق بالثورة ،
مندداً بموقف والده وأعمامه منها ، وبصلتهم بالفرنسيين . ولما نشبت المعركة في
الصباح بين المجاهدين ، وبين القطار المسلح كان في عدادهم ، وكشف القطار
مكانه ، حيث قفز احد المجاهدين ينبغي تبديل مكانه بمكان افضل ، واراد الشاب
سويدان ان يلحق بزميله ، وهو غير مدرب على القتال ، لم ينتبه الى الرشاش
الذي سلط على المكان بسبب قفزة رفيقه ، ولما تحرك محاولاً القفز صرعه الرشاش
الذي كان لحركته بالمرصاد . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد ضرب المثل الحي
على ان الوطنية الحق لا تعذب في نفوس أبناء الوجهاء والاغنياء ، وانهم عند
سنوح الفرصة يخرجون على إرادة ذويهم الذين تقودهم مصالحهم الشخصية إلى
عار مما لآلة المستعمرين . لقد ضحى عبده سويدان ، وهو في ريعان الصبا ،
بحياته في سبيل وطنه ، وكان فقده اكبر مصاب نزل بوالديه واهله ، كذلك
جرح من الثائرين مجاهد شاب من اهالي قرية « عسال الورد » في قلمون ، حملة
ابناء قريته الى بلده ، وجرح شاب آخر من اهالي النبك جرحاً بسيطاً . وحوالي
الظهر وصل قطار مصفح من جهة « الرياق » في الجنوب الى مكان القاطرة
المتدهورة مع المركبة ، لإصلاح العطل ، ورفع القاطرة والمركبة ، ولكن محمد
محسن وشباب الجبهة المرابطين في جوسية الحراب ، تصدوا له ، وناوشوه
حوالي ثلاث ساعات ، حتى كادت تفرغ ذخيرته ، فاضطر الى الانسحاب
والفرار باتجاه رأس بعلبك .

قلب النهابوت نصرنا إلى هزيمة !

- ٥٩ -

أصبحت مهمتنا على جسر الحارون منتهية ، بعد تخريب الجسر الحديدي واسقاطه في النهر ، فقد أقمنا ، على قلة عددنا ، ثلاثة ايام متوالية في منتصف سهل القصير ، ضد كل المحاولات من الجيش الفرنسي لزعزعتنا عنه ، وأدبنا المهمة على أكمل وجه ، وأصبح الانتقال من هذا المكان اول عمل يجب ان نبادر اليه ، لأن فرنسا كدولة قوية لا يعجزها ان تسوق اليه حملة كبيرة تطوقنا ، وتقضي علينا بأسلحتها الحديثة الفتاكة ، فليها المدفعية والدبابات والطائرات التي تعمل عملها في السهل ، لذلك بادر سعيد العاص يطلب من خالد النفوري وجمعة سوسق ان تنهيا العصابة للسير مساء ، حسب الخطة المرسومة ، وبعد انقضاء الموعد المضروب لزين مرعي جعفر دون ان يوافينا مع رجاله الى موقع جسر الحارون ، فطلب النفوري وسوسق من سعيد العاص امهالهما ، والبقاء يوماً آخر ، في نفس المكان . ولما بلغنا النبأ ، توجهنا نحن غير القامونيين جماعة سعيد العاص مجتمعين الى جمعة سوسق وخالد النفوري ، وأنذرناهما بسوء العاقبة ، فيما اذا تلاكأوا الليلة في الرحيل من هذا المكان ، الى وعرة حمص ، حسب الخطة المرسومة ، وأوضحنا لهما من الوجهة العسكرية الأخطار التي ياتت تتهددنا ، بعد المعارك التي خضناها ثلاثة ايام متوالية ، مع القطر المسلحة ، وبعد قطع طريق رياق - حلب كل هذه المدة . والخط الحديدي بين دمشق - بيروت - حلب ، يعتبر بمثابة الشريان الوحيد لفرنسة ، ما دام طريق السيارات بين دمشق - حلب معطلاً منذ احتدام المعارك في الغوطة ، واستيلاء المجاهدين على قلمون ، فزعما انهما مضطران للبقاء مع القوة في هذا المكان انتظاراً للجعافرة ، فقلنا لهما ان موعدنا مع الجعافرة فات ، وبإمكانهم ان يلحقوا بنا في وعرة حمص ، فهي

أقرب إلى جبالهم من هذا المكان ، ولا يحتاجون عندئذ لاجتياز سهل القصير ،
والخط الحديدي للحاق بنا في مكاننا هذا . ولما تهللت حجبتهم تعللوا بأنهما
ينتظران مؤناً وأشياء ضرورية للحملة ذهب من يأتي بها من النبك ، فقلنا لهما
اننا لم نخض معركة ذات بال ، وذخيرتنا التي معنا تكفينا لعدة معارك أخرى ،
وبإمكان الذين ذهبوا الى النبك ان نرسل إليهم الآن من يطلب إليهم اللحاق
بنا الى غربي حمص ، ونحدد لهم المكان الذي يجب أن يوافقونا إليه ! . . وأخيراً
طلبنا منا امهالهما الى منتصف الليل ، فقلنا لهما اننا لا يمكن ان نبقي ساعة أخرى
في هذا المكان ، وسنتقدم كطليعة للقوة الى القرى الأمامية ، بانتظار مسير
العصابة كلها في الليل ، فأكدنا لنا ان العصابة ستسير حتماً بعد منتصف الليل ،
وعندئذ ركب العقيد العاص ، وابراهيم صديقي ، وفؤاد رسلان ، وخير الدين
اللبابيدي ، والاخوان المعصرانيان ، واربعة من أبناء حماة ، كانوا اشتركوا بثورتها
وصدرت عليهم أحكام بالموت من المحكمة الاستثنائية في حماة ، ومنير الرئيس ،
ورافقنا شاب مسيحي من يبرود اسمه « عزة النبكي » شقيق داود النبكي وابن
عم خليل النبكي ، كما رافقنا عبد الرحمن المط ، وتوجه الركب الى قرية
« الديابية » التي تقع على مقربة من موقعنا في « سيل الضبع » باتجاه الشمال ،
فوجدنا فيها حسن رعد واولاده السبعة الشبان من القصير ، يقيمون بعيداً عن
ارض المعركة ، بانتظار وعد قطعه لهم سرّاً خالد النفوري وجمعة سوسق باحتلال
بلدة القصير ، والبطش بخصومهم من المسيحيين والمسلمين الذين يمالئون الفرنسيين ،
ولم ينفذاه ، لأننا اشترطنا على الثائرين جميعاً ، قبل مسيرنا من النبك ، اننا
ذاهبون لقتال العدو المشترك فرانسة ، واننا نتجنب كل بلد او قرية تخشى
دخول الثائرين ، واننا لن نحاسب احداً على موقفه فيما مضى ، ما لم تبدر منه
بادرة جديدة فيها عدااء للثورة وجيشها ، وفيها انحياز الى الفرنسيين .

قضينا الليل ونهار الواحد والعشرين من كانون الثاني في قرية الديابية دون
أن يوافقنا اليها أحد من الثائرين ، فقد رنا ان النفوري وسوسق ينتظران الليل
لتسير العصابة كلها اليها ، وليكون لديها متسع من الوقت لاجتياز سهل القصير

الى غربي حمص في الليل دون أن تكشفها الطائرات . وبناء على هذا التقدير قررنا ان نسبق القوة الشائرة الى قرية « الضبعة » في السهل لتخريب الخط الحديدي ، ريثما يوافونا اليها ، فالقرية في الطريق التي سنسلكها الى وعرة حمص ، لا سيما وقد علمنا ان قطراً مصفحة وقطار عمال وصلت في النهار من الرياق الى المكان الذي تدهورت فيه القاطرة ومن ورائها المركبة المسلحة ، وعمل من في القطر على رفع القاطرة والمركبة ، واصلاح المكان المخرب من الخط الحديدي ، كما ان القطار المسلح المرابط في محطة القصير تقدم في المساء نحو قرية الزراعة ، وأنزل الجنود منه مدفعاً كبيراً قصفوا به المغاور والكهوف ، وأطلقوا ثلاث قذائف لتحديد المسافة بينه وبين مكن العصابة ، كما بلغنا أن الفرنسيين وجهوا من حمص إلى قرية حسية حملة عسكرية تقدر بخمسمئة جندي أكثرهم من الفرسان الصباحيين ، يرافقهم رتل من المدرعات ، فأرسل سعيد العاص كتاباً من قرية الديابية الى خالد النفوري في « سيل الضبع » ، يعلمه ألا يهتم بهذه القوة ، لأن الفرنسيين لا يزحفون بمثلها لاحتلال النبك ، وأكد عليه أن يتقدم بمن معه من قوة الى قرية « الضبعة » حيث ننتظرهم فيها لنجتاز معهم السهل الى غربي حمص ، ونرغم الفرنسيين على سحب قوتهم من حسية ، فهم سيضطرون الى سحبها دفاعاً عن مدينة حمص التي ستصبح تحت رحمة الثائرين . وسرنا نحن جميعاً ، ومعنا حسن رعد وأولاده ، من الديابية ، بعد ان جندنا رجالها وشبابها معنا لتخريب الخط الحديدي قرب قرية « الضبعة » ، وفعلنا في طريقنا ، نفس العمل بقري « دحيرج » و « كوكران » ، و « الضبعة » ، فجندنا الفلاحين لمساعدتنا في عملية تخريب الخط الحديدي ، في موقع يسمى « تل مسعود » بين محطتي القصير وقطينة ، وخلصنا بمساعدتهم نحو مئة متر من الخط ، وقلبناه الى جانب الطريق ، وانتظرنا الليل بطوله كي تصل قوة الثائرين الى القرية ، ولكن انتظارنا ذهب سدى ، وطلع النهار ، وقبل وضوحه سمعنا دوي الطائرات ، فأدركنا خطر موقفنا ، واننا في منتصف سهل القصير على مقربة من حمص ، يجانب الخط الحديدي ، وعددنا لا يزيد على عشرين مسلحاً ، منهم حسن رعد وأولاده ، لم يرافقونا من اجل القتال ، وانما انتظاراً

لفرصة تواتيهم لنهب مسيحيي القصير وتقتيلهم .

وقد حدث لنا معهم في الليلة الماضية حادث يدل على البون في التفكير بين امثال هذه الفئة التي اندست على الثورة ، وبين المخلصين الذين نذروا انفسهم لحرية وطنهم ، وحرصوا على أهداف الثورة . والحادث هو اننا ، لما دخلنا في اول الليل قرية الضبعة ، وحللنا في منزل المختار للعشاء ، ريثما تصل جموع الفلاحين من القرى لمساعدتنا في تخريب الخط الحديدي ، إذ كنا وجهنا حسن وطفة من ثائري النبك ، ومعه الاربعة الفرسان من الحمويين ، واحد ابناء حسن رعد ، واثنين من رجاله - كنا وجهناهم من قرية الديابية إلى القرى المجاورة لاستنفار اهلها مع الفؤوس والمطارق وكل ما يساعد على التخريب ، وليوافونا الى قرية الضبعة . ولما وصلنا الى القرية لم نجد أثراً لوفدنا ، فتوجهنا الى بيت المختار كما اشرت من قبل ، وسأل حسن رعد المختار ، ونحن في انتظار العشاء ، عن رجل مسيحي من اهل القصير ، يسكن قرية «الضبعة» ، ويعمل «سمكريا» فيها ، أي انه يصنع بعض الاواني والاباريق من الصفيح «التنك» ، فخاف المختار على المسيحي من حقد «حسونة» ، كما كان الجوار واهل القصير يطلقون على حسن رعد ، فزعم له ان الرجل ترك القرية منذ اضطرب جبل الامن في هذه المنطقة ، وعاد الى القصير ، بلده ، خشية ان يصيبه سوء في «الضبعة» ، فطمأنه حسونة بأنه لا يريد بالرجل شراً ، وان خسارته بهاله تبلغ المليون ليرة ، فهل يعقل ان ينتقم من هذا العامل الفقير وكل ما ينبغي السؤال منه عن حوادث القصير واحوالها ، بعد جلائه واولاده عنها . وصدقه المختار ، وارسل في طلب السمكري المسيحي ، ولما جاء خلا به حسن رعد وثلاثة من اولاده ، وطلبوا من هذا الصناعي المسكين خمسين ليرة ذهبية ، قال لهم انه لا يملك إلا عشرها ، وقدم لهم خمس ليرات ، اخذوها منه ، وهددوه بالذبح إذا لم يدفع لهم بقية المبلغ ، وقام حسن رعد ، وتكأه الى عتبة الغرفة ، وبيده خنجر حاد يطلب منه الدفع ، واستغاث الرجل ، وسمعنا استغاثته ، وتقدمنا لإنقاذه من يد حسن رعد ، واحترم سعيد العاص سن حسونة ، وقال له : «دع الرجل الفقير

يذهب في حال سبيله ، واعلم ان عملك سيء الى سمعة الثورة وينافي اهدافها ، وهو عمل من اعمال النهب والسلب ! » ، فبدت من حسن رعد كلمات نابية ، وان ليس في الدنيا قوة تحول بينه وبين هذا الرجل الذي هو من أعدائه الذين نهبوا ثروته وعقاراته في القصير ، وتعصب الاولاد لوالدهم ، وتقدمنا ننصر العقيد العاص ، حتى ادى الامر الى شهر السلاح ، واستخدام القوة ، وإنقاذ المسيحي من ايديهم . وقد اخذنا الرجل معنا الى « تل مسعود » ، واقمنا عزة النبيكي الثائر المسيحي على حراسته حتى انتهينا من تخريب الخط . وتخلف حسن رعد واولاده في القرية ، ولم يشاركونا ليلاً في عملية التخريب ، حتى تنفس الصبح ، وانتقلنا الى قرية « دحيرج » ، لا ندري سبب تخلف قوة الثائرين القاهونيين عن الزحف . ويظهر ان لإبطاء حسن وطفة والخيالة الذين ارسلناهم معه لتجميع الفلاحين ، وتوجيههم الى قرية الضبعة قصة اخرى ، فقد سألناهم عند عودتهم في الليل عن سبب تأخرهم ، فقالوا لنا انهم قصدوا في رحلتهم قرية « الدمينية » المسيحية التي نهبها السلايون في المرة الاولى ، وطمأنوا اهلها ، ولم يطلبوا منهم غير إرسال مؤونة في الصباح الى قيادة الثائرين . ولكننا لما غادرنا الضبعة في الصباح الباكر نحو الشرق ، وهدير الطائرات يملأ السماء ، قصدنا قرية « دحيرج » باعتبارها اقرب قرية الى الضبعة من جهة الشرق ، يمكن ان نتوارى فيها من شر الطائرات ، لاحظنا ان حسن وطفة ورفاقه الحمويين يريدون ان يعدلوا بنا عن اللجوء الى هذه القرية ، متذرعين بقربها من السهل والخط الحديدي ، مقترحين ان نقصد قرية غيرها ، مما اثار الشبهة في نفوسنا ، فصممنا على الذهاب الى « دحيرج » ، وافترق عنا وطفة والحمويون الاربعة ، ولكنهم بعد هنيئة لحقوا بنا الى القرية ، زاعمين انهم لم يريدوا ان يفترقوا عنا . ولم ينقض على وصولنا الى القرية ساعتان ، حتى وصل مختار قرية الدمينية ، وفلاحون معه يسوقون امامهم أحمال القمح والشعير والبرغل والدقيق مع ثمانية رؤوس من الماعز ، وساموها الى حسن وطفة ، ثم تقدم المختار إلى سعيد العاص ، بحال من الذل ، يعتذر عن عدم تمكنه من جمع المئة دينار ذهباً التي امر بجمعها من قرية الدمينية ، وطلب امهاله

الى الغد لجمعها وتقديمها ، فاستغرب سعيد العاص الامر ، وحقق مع المختار ، فعلم ان ثمانية فرسان وصلوا ليلاً الى قريته باسم جيش سعيد العاص ، وأخذوا اثنتي عشرة بندقية كانت لدى الاهلين ، وفرضوا على القرية مئة ليرة ذهبية ، عليها طرة آل عثمان ، وكمية من المؤن ، فغضب سعيد العاص ، وتبرأ من حسن وطفة ورفاقه ، وأعلم المختار ان كل طلب بدون كتاب خطي موقع باسمه ، وممهور بخاتم الثورة الرسمي ، فهو طلب مزور ، وأمره بعدم جمع أي مبلغ من الاهلين ،



قرويون مسالمون اعتقلوا بعد تدمير قراهم.

والاكتفاء بالسلاح والمؤونة ، لأن الثائرين بحاجة اليها ، فدعا له المختار ، وعاد مع فلاحيه إلى قريته . أما سعيد العاص فقد طلب من حسن وطفة الاحتفاظ بالبنادق والمؤونة ، ريثما يصل النفوري وسوسق وجماعتهما من الثائرين ، وينظر القادة في أمر توزيعها على المستحقين. ولكن حسن وطفة قال انه سيحملها الآن الى العصابة في مكنها ، وغادروا مع رفاقه النبكيين بالمؤونة والبنادق ، ونهبوا

في الطريق قطعاً من مواشي قرية الديابية ، وتابعوا سيرهم بطريق الجبال الى النبك ، ليدخلوا في قاعة النهاين السلايين . ولم ينس سعيد العاص جريمة وطفة هذا ، فلما عدنا الى النبك طلب سعيد العاص محاكمته ، ومعاقبته على جريمته ، ورد منهوبات الديابية الى اهلها ، فعارض جمعة سوسق ، وقال في تبرير عمله : « ان الرجل كريم في بيته ، وهو ثائر لا يعمل عملاً يرتزق منه ، ولا بد له من رزق يعيش منه ! » ، فأدركنا ان الاثنين في الهوى سواء ! .

لم تكد ترتفع شمس اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني حتى سمعنا أصوات قصف المدفعية الثقيلة آتية من جهة الزراعة . وكان القصف شديداً ، لا تقل بطاريات مدافعه عن ثلاث ، اي اثني عشر مدفعاً ، فاوفد العاص ، على الفور ، رسولا منا يكشف لنا الخبر ، وكنا نود المسير الى تلك الجهة لولا كثرة الطائرات التي كانت تروح وتغدو فوق النسل والخط الحديدي ، وتقصف القرى هنا وهناك ، ولا سيما منها القريب من قرية الزراعة ، وانتظرنا الى ما بعد الظهر ، فلم يعد الينا الرسول ، واوفدنا فارساً آخر ، وانتظرناه الى منتصف الليل ، فلم يعد الينا الرسول الثاني ايضاً ، فساورنا القلق ، ولا سيما واهل المدينة يعرفون مقرنا ، وقد يبلغون امرنا للفرنسيين ، فنباغت في القرية الصغيرة القريبة من حمص بما لا طاقة لنا به ، ولذلك قررنا المسير الى الديابية نستطلع الامر بأنفسنا ، فلما بلغناها عرفنا منها ان قوة بقيادة الجنرال «مارتي» ، تعد بضعة آلاف جندي ، نقلتها القطر ليلاً الى منطقة القصير ، ومعها الدبابات والمدفعية الثقيلة ، وتحميها الطائرات ، تعرضت في الصباح ، واحتلت قرية الزراعة ، بعد قصفها الشديد بالمدفعية ، فادرك الثائرون في المغاور والكهوف الخطر الذي يتهددهم ، وخرجوا منها منهزمين الى الجبال الشرقية المعروفة بجبال حسية متجهين الى قلمون ، متجنبيين الوصول الى قرية حسية من المضيق الذي مروا به في مجيئهم ، حتى لا يقعوا بين ناري الحملة التي تنتظرهم في حسية . وقد جهز الفرنسيون هذه القوة من دمشق والرياق وحمص ، وفيها قناصة من لبنان ، وكتائب من الحرس السيار ،

ومتطوعون من الطوائف المختلفة ، وبينهم مسلحون من راس بعلبك المسيحية .
وكانوا اصلحوا ما خرب من الخط عند « تل مسعود » و « جوسية الخراب » ،
واتوا بقواتهم من الشمال ومن الجنوب ، وطوقوا قرية الزراعة ، واحتلوها ،
واحرقوا منازلها ، وشغلهم احتلالها عن كشف مكن الثائرين في المغاور والكهوف ،
ولكنهم فطنوا اخيراً للامر ، عندما رأوا الجموع تخرج منه منهزمة باتجاه الجبال
الشرقية ، فسلطوا مدافعهم عليهم ، وعلى المغاور والكهوف ، ولم يكن فيها
الكثير من الثائرين ، فقد كان خرج منها جمعة سوسق يجمع الجرد الى جبال
حسية ، خشية المباغته ، وظل فيها خالد النفوري مع مسلحي النبك ، ينتظر ،
حتى فاجأتهم الحملة الفرنسية ، فخرجوا مهزومين تاركين كل ثقلهم من مركبات
ومؤن وذخائر وبعض الجياد ، حتى العلم العربي الذي تركناه ليتقدم حملة الثائرين ،
تخلوا عنه ، وتركوه في إحدى المغاور ، فاستولى عليه الفرنسيون مع الثقل ،
واربعة جياد ، وكثير من العباءات والاحذية والمؤونة التي لم يتمكن اهلها من
نقلها ، وتركوها لينجوا بانفسهم . وقتل ستة من الثائرين بقذائف المدفعية ،
وفرح الفرنسيون بالعلم العربي الذي كتب عليه جيش خالد بن الوليد ، واحتفلوا
بعرضه في حمص ، وظل الثائرون في هزيمتهم حتى بلغوا موقع « عيون العلق » ،
على بعد ستة كيلومترات شمالي قرية قارة ، حيث وجدوا عدداً من مسلحي
النبك ويبرود وقرى الجرد هرعوا إلى هذا المكان ، بعد ان سمعوا بوصول حملة
افرنسية الى حسية ، وما دروا انها كمين اعد للطباق على الثائرين في حال هزيمتهم
من سهل القصير في اتجاه حسية .

الطمع بالنهب سبب الهزيمة

- ٦٠ -

علمنا تفاصيل المعركة من فلاحى الديابية ، وان الفرنسيين يرابطون في المغاور

والكهوف ، وظلوا فيها الليل بطوله ، وانهم يحتلون قرية الزراعة ، فسرنا تحت جناح الليل نتسلق الجبال الشرقية ، وتجنب الدنو من الكهوف والمغاور في « سيل الضبع » ، حتى أصبحنا في الجبال بعيدين عن الخطر ، واضطررنا لان ننام فوق الثلوج طلباً للراحة ، وان نتابع السير في نهار الثالث والعشرين من كانون الثاني في الجبال ، نتجنب حسية ، حتى بلغنا مراحاً للماعز في الجبال ، قضينا الليل عند سكانه من اهالي القرى الذين يقضون الشتاء في طلب المرعى في تلك الجبال .

تابعنا سيرنا في صباح الرابع والعشرين من كانون الثاني الى موقع « عيون العلق » ، حيث التقينا بجمعة سوسق وخالد النفوري وجموع من الثائرين كانوا يربطون هناك خشية زحف الحملة الفرنسية من حسية الى النبك ، وسنحت لنا الفرصة في هذا اللقاء لأن نعرف السر الذي كان السبب في تخلف جمعة سوسق وخالد النفوري وقوة الثائرين معها في مغاور وكهوف « سيل الضبع » ليلتين اخريين ، بعد مغادرتنا المكان الى قرية « الديابية » حتى وقعت الكارثة ، وتشئت شمل القوة الثائرة ، وفشلت الخطة التي وضعناها ، وكنا نرمي من وراءنا ان نبلغ بثورتنا حص وحماة وحلب وجبال الزاوية واللاذقية حتى حدود تركية في الشمال . وقد بلغنا ، عند عودتنا الى عيون العلق في قلمون ، نبأ استشهاد حسن الخراط في بستان الحلاق قرب حي الشاغور من دمشق ، في يوم من ايام شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ رحمه الله .

أما السر الذي أشرنا إليه فيتلخص بأن أهالي قرية « جوسية الخراب » سمعوا بوصول قوة الثائرين إلى سهل القصير ، ورأوا بعيونهم محمد محسن شيخ قرية الجبة وعصابته الصغيرة ينازلون بجوار قريتهم القطار المصفح الآتي من محطة « رأس بعلبك » ، ويدهورون قاطرته واحدى مركباته ، فتعجز فرانسة أياماً عن اصلاح الخط ، ورفع القاطرة والمركبة ، وابعاد جيش الثورة عن قرية

الزراعة وجسر الحارون ، وفي قريرتهم مستودع لمالك القرية من اهل حمص ، فيه الحصة العشرية من الحبوب ، أي ضريبة الدولة عن انتاج القرية في ذلك العام ، جباها مالـك القرية عيناً من الفلاحين ، ولم يبيعها ، ولم يؤد الضريبة ، فقد اعتاد أكثر مالكي القرى أن يتلكأوا في تسديد الضرائب والرسوم عن أملاكهم وعقاراتهم إلى خزانة الدولة ، لتغدو بقايا غير قابلة للتحويل ، وتسقط عن كاهلهم ، فتدخل جيوبهم ، فأرسل الفلاحون في القرية سرأ إلى خالد النفوري وجمعة سوسق يطلبون منها أن يرسل من قوتها من يصادر هذه الحبوب من قريرتهم ، ويأخذها لأعاشة الثائرين ، فهم أحق بها من المالك من آل الحسيني في حمص ، ومن فرانسة التي تقيم الحكومات العميلة في سورية ، وقالوا لهما إن كمية الحبوب في المستودع تساوي مئات من الليرات الذهبية ، فسأل المبلغ لعاب سوسق والنفوري . ولما كان الاستيلاء على الحبوب ونقلها لمصلحة جيش الثورة لا يفيد منه سوسق والنفوري ، لذلك أرسلوا من قبلها رسولاً في السر والخفاء يقول لزعماء القرية : « اعطونا ثمن الحبوب ، أو ما يعادله تقريباً ، وخذوا انتم الحبوب من المستودع ، تصرفوا بها كما شئتم ، وقولوا لمالك القرية ان الثائرين استولوا عليها !.. » ، فرد عليهما زعماء القرية بأن للمالك عيوناً في القرية من الفلاحين أنفسهم ، بل ان له وكيلاً في القرية سيطلعه على ان الثائرين لم يستولوا على الحبوب ، وانما استولى عليها الفلاحون ، فيستردها منا ، او يستردها ثمنها أغلى مما تساوي في السوق ، ونحن نحب ان تنتفع الثورة بهذه الحبوب التي هي في الواقع مال الدولة التي تحاربونها لا مال المالك ! .. وأبت نفسا النفوري وسوسق الدنيئتان ان تفوتهما الغنيمة ، وليس لـديهما وسيلة لنقل الحبوب بكميتها الكبيرة ، سرأ إلى بيتيها في النبك ورنكوس ، واذا نقلت علناً عرف ذلك سعيد العاص واخوانه والشرفاء من الثائرين ، وعندئذ ستكون الحبوب للثورة لا لجيبيهما وحدهما ، لذلك ظلا في مفاوضات سرية مع فلاحـي جوسيه على قبض ثمن الحبوب دون ان يعود مالـك القرية به على الفلاحين . ولما طالـت المفاوضات ، وانتهت مهمة الثائرين على جسر الحارون ، ولم تنته المفاوضات ، افتحل سوسق والنفوري

الأعداء الواهية للبقاء ، وأصر زعماء الفلاحين على موقفهم ، حتى فاجأت القوات الفرنسية الثائرين في مكنهم ، ولولا جهل القيادة الفرنسية بمغاور وكهوف «سيل الضبع» ، وظنهم ان الثائرين يقيمون في قرية الزراعة ، لقضي على الثائرين ، وكانت خسائرهم كبيرة . لقد شغل الفرنسيون بتدمير قرية الزراعة وتطويقها في الصباح الباكر ، ثم احتلالها عن موقع « سهل الضبع » ، فسنحت الفرصة لمن فيه من الثائرين بالخروج من المغاور والكهوف والافتشار في اتجاه سلسلة جبال حسية ، والفرار إليها ، تاركين وراءهم من الغنائم ما كان سبيلاً لتندر الفرنسيين عليهم في البلاغات الرسمية ، والقول انهم تركوا احذيتهم ، وفروا إلى الجبال . أما دم الشهداء الذين سقطوا على جسر الحارون وقرية الزراعة ، ثم بمدفعية الفرنسيين يوم الهزيمة المشؤوم ، فهو في عنقي سوسق والنفوري اللذين استغلا الثورات مرات في سبيل النهب والسلب وتحقيق مطامعها . وحسبنا اننا نلظنا فيها حوافز الخير والوطنية ، يوم فاوضناهما ، واعتمدنا عليهما ، وعلى ما اقسامنا ايمان بأن يعملان لاهداف الثورة مجردين عن المطامع ، وتعاوننا معهما في حركتنا الاخيرة ، واذا بها حوافز كاذبة خادعة طغت عليها حوافز الطمع والشره الأصلية في نفسيهما .

تداعينا ، بعد اطلاقنا على سر فشل حملتنا ، إلى اجتماع عقدناه في « عيون العلق » ، اتفقنا فيه على ان نعرض على المتزعمين من جديد اصلاح ما جنته ايديهما على الثورة والثائرين ، وان نزحف من جديد ، بمن معهما في « عيون العلق » من الثائرين ، لتنفيذ الخطة التي رسمناها ، فانتحل جمعة سوسق لنفسه عذراً ، وغادر المكان الى قريته ، بعد ان وعدنا بأن يعود بعد اربعة ايام الى موقع « عيون العلق » للسير من جديد الى الشمال . وشاع سر فشل الحملة فأخذ الثائرون يتسللون الى قراهم ، حتى لم يبق في « عيون العلق » غير مسلحي النبك ، ومسلحي يبرود من أنصار الثورة ، وهم قلة بالنسبة لسائر سكان هذه البلدة ، وأدركنا ان جمعة سوسق لن يعود ، وان الدافع لمسلحي النبك في البقاء هو خوفهم على بلدهم من ان يداهمها الفرنسيون بحملتهم العسكرية في قرية « حسية » ، مع علمنا

ان تلك الحملة الصغيرة لم توجه الى حسية الا لقطع خط الرجعة على الثائرين ،
عندما خطط الفرنسيون للهجوم على قرية الزراعة ، وسحق الثوار المرابطين
فيها ، حسب تقديرهم ! .

النفوري ينهب مواشي دير عطية

عدنا مساء اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني الى بلدة «قارة» ، واتففت مع
رفيقي في السلاح الضابط ابراهيم صدقي ان نصارح سعيد العاص القائد بان كل جهد
نبذله في هذه المنطقة لخدمة الثورة سيمنى بالفشل ، ما لم يكن لقيادة الثورة في
المنطقة قوة رادعة يخشاها الاشرار ويرضى عنها الاخيار ، وهم الكثرة الكثيرة
في سواد الشعب . الكثرة في الفلاحين البسطاء الذين يبيعون مؤونتهم ولقمة
عيشهم ، ويشترون بها البنادق والعتاد ليجاهدوا بها في سبيل الله والوطن ،
ويموتوا شهداء ابراراً ، ويقدموا عن طيبة خاطر أرزاقهم ومؤنهم لضيافة
الثائرين الذين يؤمون قراهم ، واطعامهم . الكثرة في العمال وصغار أرباب
العمل والشبان المثقفين والجنود والضباط المؤمنين بحق وطنهم في الحياة
الكريمة ، ينفق الواحد منهم آخر درهم في جيبه ، ويشترى به البندقية قبل
الراحلة ، ويترك زوجه واولاده وأمه واباه واهله ، ويخرج لقتال العدو القوي ،
فيموت شهيداً ، ويغمض عينيه وهو يهتف باسم وطنه ، وحرية أمته العربية
ووحدها .

اجتمعت ورفيقي ابراهيم صدقي بالعقيد سعيد العاص ، وطلبنا منه ان يرافقنا الى
جبل الدروز لنطلع سلطان الاطرش والزعماء النافذين في الثورة على وضع منطقتي
الغوطة وقلمون في ضوء تجاربنا خلال الاشهر الثلاثة التي قضيناها فيهما ، وإلا
فإننا مسافران غداً لوحدنا الى جبل الدروز ، فأصر هو على البقاء والانتظار
اياماً ، في قلمون ، لعل جمعة سوسق يعود حسب وعده ، ويستطيع أن يعاود
معه ، ومع خالد النفوري وزعماء قلمون محاولة تجميع قوة من جديد ، والزحف

بها الى اطراف حمص ، فقلنا له انك ستنتظر عبثاً عودة هذا النهاب ، وان عاد فلن يعاونك على جمع القوة ، وان جمعت فإن مصير كل حركة فيها سوسق والنفوري واضراهما سيكون نفس المصير الذي آلت اليه حملة جسر الحارون ، أي الفشل الذريع . ولما رأى العاص اصرارنا ، وما آلت اليه حالنا من الحفى والعري ونفاد العتاد ، وليس في جيبينا بارة واحدة ، وافق على ان نسبقه الى جبل الدروز في الغد ، ووعد بأن يلحق بنا ، اذا لم يعد جمعة سوسق في الموعد الذي حدد له . ودعت ورفيقي ابراهيم صدقي الرفاق الذين تخلفوا مع سعيد العاص في قارة ، وسرنا في صباح الخامس والعشرين من كانون الثاني إلى النبك ، بعد أن زودنا سعيد العاص بكتاب منه إلى سلطان الاطرش شرح له فيه الوضع في الغوطة وقلمون . ورافقنا في رحلتنا عبد الرحمن المط التاجر في حماة ، ومن منظمي ثورتها ، وعلاء الدين المسنوي من دمشق الذي عرفنا انه يحب قرى قلمون بعيداً عن الغوطة ومعاركها ، فأصبحنا اربعة ، بجوادين نتناوب ركوبهما . ولما بلغنا قرية القسطل على بعد عشرة كيلومترات جنوبي النبك ، علمنا ان خالد النفوري عاد من قارة بمن معه من مسلحي النبك الى بلده ، بعد ان اطمأن الى ان الحملة الفرنسية في حسية رجعت الى حمص ، واغار في طريق عودته على مواشي دير عطية من الماعز ونهبها ، بعد صدام وقع بينه وبين اهلها المسلحين ، فعوض بذلك على ما فاتته من غنيمة مستودع الحبوب في جوسية .

لقد بادل زفريقي ابراهيم صدقي في بلدة النبك على بندقيته الالمانية القصيرة المعروفة « بأوتوموبيل » ، إشارة الى انها سلاح جنود السيارات والفرسان ، ببندقية عثمانية قديمة ذات خزان حديدي للطلقات الخمس ، معروفة باسم « قاصه لي » ، وقبض ليرتين ذهبيتين الفرق ، فاشترينا منهما حذاءين وخيصين لي وله ، وانفقنا ما تبقى منهما على انفسنا وعلى الفرس خلال رحلتنا الى جبل الدروز .

قيادة الثورة ليست على مستوى الاحداث

بلغنا السويداء في اليوم الرابع من شهر شباط عام ١٩٢٦ ، بعد مشاق تحملناها في الطريق من رداءة الجو ، ورداءة الطريق ، حتى ان فرسي عقرت بثلاثة جروح في ظهرها ، وهزلت من الجوع والتعب . وصادف يوم وصولنا الى السويداء سفر فوزي القاوقجي منها الى الغوطة للاشتراك في معاركها . وقيل لنا انه بذل مع نسيب البكري جهوداً من اجل اقناع سلطان الاطرش والامير عادل ارسلان الذي كان وصل الى الجبل ، واصبح له كلمة نافذة على الدروز ، من اجل تجهيز قوة من الجبل بقيادة صالحة تسير الى قلمون ، وتجنّد مسلحيه وتسيرهم لتنفيذ أهداف الثورة ، وتضرب على يد كل من يعتدي على القرى ، ويعمل للسلب والنهب ، حتى قيل لنا انها تعهدا للقيادة بدفع رواتب لأفراد هذه القوة وقادتها من الضرائب التي تجبى من الاهلين عن طيب خاطر ، ولكن قيادة الثورة في ذلك الحين ، كانت تعد العدة للاستيلاء على وعرة اللجاة البركانية ، وتأديب القبائل البدوية التي تكرّر عدوانها على مواشي الجبل ، لذلك جادلت تعنتاً كي لا تظهر بمظهر المقصر ، وهزلت بالفكرة ، وتساءلت كيف تستطيع قوة درزية من بضع مئات إخضاع ألوف الثائرين المسلحين في قلمون والغوطة ، وتنظيمهم ، وتمنع السلب والنهب في منطقتهم ؟ وشجبت القيادة مبدأ الراتب لأفراد تلك القوة ، لأنه يثير الطمع في نفوس الدروز ، فلا يذهب بعدها أحد منهم الى القتال دون اجر ، وتعللت بأن المنطقة المسلحة كقلمون يجب ان تنظم نفسها بنفسها ، كما نظم الجبل نفسه بنفسه ، وتجاهلت ان وضع قلمون لا ينطبق على وضع الجبل الذي كان يدار عشائرياً في ظل الحكومات المتعاقبة كلها ، فقد ظل اهله ، في عهد الدولة العثمانية يحلون مشاكلهم بينهم بالاسلوب والتقاليد العشائرية ، وفي عهد فرنسة ظل متعب الاطرش غارفة المقرن الجنوبي ، ودار عري دار الامارة والحكم ، وسلطان الاطرش

الرئيس الحربي ، ومن قبله كان والده مثله . وهذه وأمثالها تقاليد عشائرية لا تتأثر كثيراً بتقلص حكم الدولة عن الجبل . أما الغوطة وقلمون ، وادي منطقة أخرى فيها مدن وصناعات ومهن وحرف وأعمال مختلفة ، وقرى زراعية ، فانها بحاجة الى دولة والى حكومة ترعاها ، والا اضطرب فيها جبل الامن ، وسادت الفوضى ، واعتدى القوي على الضعيف ، دون ان يكون هناك توازن عشائري يحول دون ذلك . لقد كانت قيادة الثورة في الجبل دون مستوى الثورة الوطنية الشاملة ، فهي قد تصلح للثورة في الجبل ، ولكنها لا تستطيع أن تصبح قيادة تنظم ثورة تعم سورية من اقصاها الى اقصاها ، فسلطان الاطرش على شجاعته ، وما قام به من عظيم الاعمال في إثارة الجبل على فرنسا ، غير مثقف لا يدرك اثر التنظيم في الثورات الوطنية ، ولا يعرف ما هي الخطط الحربية التي يجب ان تنفذ بالنسبة لأهميتها ، وتقدم على غيرها ، فغزو اللجاة في نظره أهم من تنظيم ثورة الغوطة وقلمون ، لانه يمنع عدوان أفراد من البدو على مواشي الدروز . . ان الاستيلاء على اللجاة لا قيمة حربية له ، لأن الدروز لا يستطيعون البقاء والعيش فيه طويلاً لخلوه من وسائل العيش والبلدان والقرى ، فضلاً عن انهم ليسوا بحاجة إلى ملجأ يتخذونه ضد زحف الحملات عليهم ، وفي حال الاحتفاظ به فإنهم بحاجة إلى قوة كبيرة منهم تسيطر عليه ، وتحول دون عدوان عشائره التي نزحت عنه عليهم ، فهذه العشائر تعرف مجاهله ومداخله ، وتستطيع ان تهاجم الدروز المحتلين ، وتقوم بغارات مفاجئة عليهم ، وتنسحب فيما إذا عجزت عن إنزال ضربة قاضية بهم . والدروز ليسوا بحاجة إلى وعرة اللجاة للانطلاق منها إلى حوران أو دمشق ، فجليلهم من الوعورة والجفاف والموقع المانع ما أعجز الجيوش الكبرى في جميع الثورات التي قاموا بها ، وحوران على حدود جبلهم ، لا يفكرون بغزوها قبل موافقة أهلها ، واشتراكهم في الثورة ، فهم عشائر وعائلات وحمولات كالدروز ، ولا تخلو أيديهم من السلاح ، وعددهم يفوق عدد الدروز ، ودمشق يهددها الثائرون من الغوطة ، ويحيطون بمعظم أحيائها ، بل يحتلون عملياً أحياء كبيرة منها . إذ ان

الفرنسيين ، لما اعجزتهم هجمات الثائرين في الغوطة على مراكزهم في دمشق ، قسموا المدينة إلى قسمين : قسم مستدير هو قلب المدينة ، يمر محيط دائرته بالجسر الأبيض في جادة الصالحية وبباب المصلى في حي الميدان ، ويشمل القصاع وشارع بغداد ، احتفظت به فرنسة ، ودافعت عنه ، واقامت حوله الحصون (البراجات) ، وأحاطته بالاسلاك الشائكة ، وتركت له منافذ معدودة تفتح وتغلق بالاسلاك الشائكة ، وشقت شارع بغداد من اجل ان تشمل الدائرة حي القصاع وباب توما ، وقطعت الاشجار في تلك المنطقة على طول الطريق كي تجعل فاصلاً بين حصون جنودها «براجات» ، وبين البساتين التي تتصل بالغوطة المشجرة والعصابات التي تقيم فيها . وقسم يقع خارج تلك الدائرة ويتألف من أحياء المهاجرين والصالحية الى الجسر الأبيض ، وحي الاكراد ، وحي الميدان من باب المصلى الى آخر الميدان الفوقاني ، وعدد آخر من الأحياء القديمة الأخرى . تخلت فرنسة عنها للثائرين وابتقت فيها مخافر للشرطة ، أفراد مرتب كل مخفر منها ، بأكثرية ، من أهل الحي نفسه ، حتى يحرص أهل الحي على المخفر ، ويكف الثائرون عن مهاجمته . وفرنسة تعرف ان هذه المخافر لا تستطيع مقاومة أي هجوم يقع عليها ، ولكن بقاءها يرمز إلى بقاء نفوذ الحكومة على تلك الأحياء . لذلك كان لا بد من مبالاة بشرطتها للثائرين ، على أن يبقوا عليهم . وقد ظلت دمشق ، بعد هذا الحصار ، تعيش أحيائها هذه تحت نفوذ العصابات ، تدخل مثلاً عصابة حي الاكراد الحي نهاراً بأسلحتها وجيادها ، فيغض أفراد مرتب المخفر في الحي عيونهم عنها ، ويدخل أي فرد من أفرادها الحي بسلاحه فلا يعترض سبيله الشرطة ، ويذهب الثائر من أهل الحي ليلاً الى بيته ينام فيه ، ويخطر نهاراً ببندقيته في السوق لا يخشى عدوان الشرطة عليه ، ولا يحسب حساباً إلا للحملة الفرنسية حين تزحف إلى الحي للبحث عن الثائرين ، أو في طريقها إلى الغوطة . ولذلك يتضح لنا ان احتلال اللجاة ليس له هدف غير تأديب أعراب اللجاة ، والخلاص من سرقاتهم ونهبهم بعض مواشي الدروز ، ويمكن تأجيله ، وتقديم تنظيم الغوطة ، وتنظيم قلمون عليه ، لأن في تنظيمهما بقاء للثورة ، ونصراً لها ، إذ يتفرغ ألوف المسلحين للزحف إلى المناطق غير الثائرة في سورية ، واستغلال إمكاناتها ، وحملها على الثورة والتمرد على فرنسة ، فلا تبقى الثورة

محصورة في جبل الدروز والغوطة حول دمشق ، او تعيش بضعة اسابيع في اقليم البلان ووادي التيم وتنتهي ، لا سيما ونحن نعرف ان الفرنسيين لا يربكهم شيء ، كتوسيع الثورة ، وفتح جبهات جديدة عليهم ، خاصة في المناطق الصالحة لحرب العصابات كجبال لبنان ، وجبال اللادقية ، والجبل الوسطاني وجبال الزاوية وغيرها في الشمال ، وهي جبال عاشت فيها الثورة من قبل ، وكبدت بقيادة الزعيم ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي ، الفرنسيين ألوف القتلى والجرحى وملايين الليرات . كان المفروض أن تدرك ذلك قيادة الثورة في الجبل ، بعد أن انتهت الثورة في وادي التيم وإقليم البلان ، ومرت فترة تخلق فيها الشائرون عن الغوطة ، وغادرها أكثرهم إلى الجبل ، وغادرها عدد من السوريين الغرباء عن الجبل إلى شرقي الأردن ، وبعد أن عرفت قيادة الثورة أن قلمون بما ارتكب متزعموه من جرائم حفروا قبر ثورته بأيديهم ، ولم يبق أمام فرنسة إلا الجبل تنتظر الفرصة السانحة المؤاتية لإخضاعه ، ولولا عشرة من الثائرين المؤمنين بوطنهم وعزوبتهم قاموا بمحاولة يائسة في قلمون شغلت القيادة الفرنسية ، وسحبت قواتها إلى حمص وحماة ، لسنحت الفرصة من جديد لأن تغزو فرنسة الجبل بحافلها ، وتقضي على ثورته . والدروز جميعهم يعلمون الا طاقة لهم وحدهم بقوات فرنسة . وقد جربوا معها في غزو السويداء وإنقاذ حاميتها من الحصار ، وجربوا معها في احتلال خربا وعري ورساس . ولولا ثورة حماة لما عاشت ثورتهم أكثر من ايام معدودات .

لقد تأثر قادة الثورة من الدروز بمصلحة جبلهم فأثروا بجميع مقاتليهم لغزو اللجاة ، بدلاً من تجميع بعضهم لتنظيم الثورة في المنطقة التي أصبح أهلها ثائرين ، واستخدام طاقاتهم وإمكاناتهم في منازلة الجيش الفرنسي ، وتوسيع رقعة الثورة عليه ، حتى لا يعرف من أين تأتيه الضربات .

لقد بلغنا يوم وصولنا إلى الجبل أن نسيب البكري غادره إلى شرقي الاردن ، فهو وان لم يكن محارباً ، إلا انه كصاحب مطامع سياسية ، كان يريد

ان تعم الثورة ، وان تنتصر ليحقق مطامعه ، فلما يئس من تنظيمها ادرك انها سائرة الى الفشل ، وان ليس له دور فيها ، فأثار الانسحاب منها ، وآثر غيره قبله وبعده الانسحاب ، وغادروا الجبل الى عمان .

وهناك قضية اخذت تلعب دورها ، وتؤثر الاحقاد والنقمة في نفوس بعض الثائرين على قيادة الثورة ، هي قضية الاعانات والتبرعات التي كانت معدومة ، في بدء الثورة ، ثم اخذت بعد ضرب الفرنسيين دمشق وحماة ، وبعد الفظائع التي طبقت اخبارها العالم ، ترد الى قيادة الثورة من البلدان العربية ، ثم من الجاليات العربية في المهجر ، فسعد زغلول الزعيم الوطني في مصر ، وجه بعد ضرب دمشق بالقنابل وتدميرها ، وحرق احياء فيها ، نداء الى الشعب المصري يدعوه الى التبرع ، ومسح جراح المنكوبين من اخوانه السوريين ، وصدرت نداءات كثيرة ، واخذت الجمعيات العربية في المهجر تقيم الحفلات ، وتدعو الى اجتماعات تتحدث فيها عن ثورة الشام ، ونكبة دمشق وحماة ، وعمما ينزل الفرنسيون بالمدن والقرى من تدمير وتخریب وحرائق وتقتيل ، فاخذ المغتربون العرب ، واكثرتهم الساحقة من السوريين واللبنانيين ، أي من الشام ، يتحسسون بما يعيشه وطنهم ، واخذت تبرعاتهم تصل الى قيادة الثورة ، يتصرف بها احياناً سلطان الاطرش بمفرده ، واحياناً يتصرف بها سلطان والدكتور الشهبندر الذي كانت بعض التبرعات تصل باسمه الى مصارف شرقي الاردن ، واحياناً يتصرف بها سلطان والشهبندر وعادل ارسلان دون ان يقدموا لاحد عنها حساباً . والمال دوماً سبب الخلاف في التعامل بين الناس ، فقد كان يصعب على رجل مثل الدكتور خالد الخطيب ، وهو من منظمي ثورة حماة ، قضى شبابه في الحركة الوطنية ، وقاد ، وهو طالب ، المظاهرات في دمشق ، انه يأتي الى الجبل فلا يجد من يطعمه ، أو يسأل عنه ، ويتلفت ليرى اخوانه وابناء بلده أمثال سعيد العاص ومنير الرئيس لا يجدون في جيوبهم مجتمعين ثمن حذاء ، فيما اذا اهتراً حذاء احدهم ، ويقال له ان سعيد العاص اهتراً « بنطلونه » في الغوطة

حتى ظهرت منه عورته ، فلم يجد من يشتري له ثوباً يستر جسمه ، وسمع ان الاعانات ترد الى الجبل ، وتوزع ، وتنفق على الانصار والمقربين ، يسكن مثلاً الامير عادل ارسلان بيتاً من اكبر البيوت في السويداء ، وحوله الاتباع والمرافقون ، يأكلون كل يوم اشهى الاطعمة ، ويطعمون من يريدون معهم ، وسعيد العاص وخالد الخطيب او اي ثائر من منظمي ثورة حماة ، او اي ثائر من غير الجبل ، لا يجد ، اذا اعوزه المحييء الى الجبل ، في مقر القيادة من يسأل عنه ، او يطعمه لقمة ، او يقدم لجواده حفنة عليق ، فيضطر لأن يبيع ساعته وخاتمه ليتسلح ، او يبيع مسدسه ليأكل ، او يبدل بندقيته الجيدة ببندقية قديمة ليشتري بفرق ثمنها طعاماً يمسك به رمقه ، او نعلًا يحتذيه من الحفى ، او عليقاً تقتات به راحلته . والدكتور خالد الخطيب لا تقتصه الجرأة ، فقد تكلم في هذا الموضوع في المجالس ، وتكلم فيه امام سلطان الاطرش ، فأغضب كلامه المحيطين بسلطان ، وأرادوا إهانته ، بل أهين ومنع من السفر ، لا لشيء ، إلا لانه طلب ان يكون للثورة مجلس أعلى تتمثل فيه المناطق الثائرة كلها ، ينظمها ، ويشترك في رسم خططها ، ويطلع على مواردها وطرق إنفاقها . واضطر الدكتور الخطيب أخيراً للهرب من الجبل ، وليس لديه مال يستأجر به راحلة تحمله الى شرقي الاردن ، فقطع طرق الجبل متكرراً ، واجتاز طريق الجبل الى عمان مشياً على قدميه ، فبلغها متورم القدمين ، يكاد يقتله التعب . وكان نتيجة طبيعية للتسلط أن يغدو الدروز والسوريون الغرباء في الجبل ، وفي مناطق الثورة الاخرى شيعاً واحزاباً ، هذا ينتمي لزعامة فلان ، وذاك ينتسب لزعامة غيره ، هذا يشتم حزب الاستقلال ، وذاك يمجده . يدعو بعضهم الى تأليف وزارة سورية من الآن ، ما دام مسيو دي جوفنيل المفوض السامي الفرنسي فاوض لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني على ايجاد حل للقضية السورية ، ويقول في تبرير دعوته ان فرنسة لا بد ان ترضخ يوماً لمطالب الشعب السوري ، فإذا انتقل البحث الى اسماء الوزراء اختلفوا عليها ، وكأن الثورة انتصرت ، ولم يبق غير اقتسام الغنائم ! ..

كذلك علمنا يوم وصولنا الى السويداء ان فوزي القاوقجي اتصل خلال

اقامته في الجبل بزعماء الدروز ، والنافذين في أسرهم الكبيرة ، واتفق مع بعضهم على السفر معه الى قلمون ، وبلغ عدد قوته نحو مئة مسلح من جماعاتهم ، وجد انها لا تكفي لتنظيم ثورة قلمون ، فبقي بها في الغوطة ، ولكن قوة الدروز ، كما نعرف ، لا تثبت على حال ، ومتى باع الدرزي المقاتل بندقيته بثمن جيد في الغوطة او في المرج ، أو أصاب كسباً ، ولى الغوطة ظهره ، وعاد الى قريته في الجبل يبحث عن شراء بندقية جديدة بثمن اقل .

لقد سبق وصولنا الى السويداء حوادث صغيرة وقعت لتدل على ما يجري في الجبل ، فقد قيل لنا ان زاهد الغزي أحد الشباب الدمشقيين الملتحقين بالثورة توجه الى بيت الامير عادل ارسلان يشكو الجوع ، ويسأل عن الاعانات والتبرعات التي ترسل للثورة كيف تنفق ، وكيف يتصرف بها الزعماء ، فأهين ، وحبس في الاسطبل بين الدواب بأمر من الامير عادل ارسلان . ولم يقف الامر عند عادل ارسلان وحده بالبذخ ، فالدكتور عبد الرحمن الشهبندر في السويداء ينعم بـكل الدجاج واللحوم وعلب المحفوظات « الكونسروه » ، والحليب المكثف ، والسمك السردين والبطون ، وكل ما تشتهي النفس ، بينما الثائرون أمثالنا لا يجدون في السويداء الخبز الجاف ، ولا يجدون المأوى ، ولا يتوفر لرواحلهم التبن في جبل الدروز ، ناهيك عن الشعير ..

لقد جئت الى السويداء مع رفيقي في السلاح ابراهيم صدقي ، بعد فشل خطتنا في غزو حمص ، وتوسيع شقة الثورة ، لنطلع القيادة في الجبل على سوء الوضع في الغوطة وقلمون ، وبعد غياب ثلاثة اشهر عن الجبل ، خضنا خلالها عشرات المعارك الدامية الضارية ، ونجوت ، في احداها ، بأعجوبة من الموت ، واهترأت ثيابنا ، وتقطعت أحذيتنا ، وخلصت محافظتنا « الجنادات » من الاعتدة ، كما خلت جيوبنا من الدراهم ، وجعنا ، وجاعت معنا الفرس العود ، وقرحت ظهورها القروح والجروح من طول الركب ، وسوء حال السرج ، واضطر ابراهيم صدقي لان يبادل على بندقيته لتحصل على دريهمات

نسبذ بما نشترى بها رمقنا ، ورمق الراحلة التي تحملنا . واملنا كله في القيادة ، في سلطان الاطرش ، في الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي لولا ثورة حماة التي كنت رسولها وموفدها إلى الجبل ، لانتهدت الثورة فيه ، ولكان الشهبندر هارباً مشرداً بين شرقي الاردن ، ومصر ، وقد كان اول الهاربين من الجبل يوم زحفت حملة الجنرال غاملان لإخضاع الثورة ، واحتلت عدة قرى من قراه ، وسيطرت على مياهه ، واستسلم اليها الامير حمد الاطرش وغيره .

لقد كانت بندقيتي التي أحملها منذ شهرين ، وأخوض بها أقسى المعارك في الغوطة وقلمون ، وسهل القصير ، نفس البندقية التي انفجرت سبطانيتها يوم « حمورية » اضطرت الى فقدان المال من جيبي ، لأن ابتر القسم المتصدع من فوهتها ، وأن أبقيا سلاحي الوحيد ، وأتمرن على التسديد بها ، وهي بعد اختلال توازنها بالبتر ، وقصر سبطانيتها أصبحت سلاحاً لا يصلح للقتال . ولكن ما العمل وليس عندي مال اشترى به بندقية جديدة ، وثن البندقية في الغوطة بضع ليرات ، بل عشر ليرات ثمن البندقية البيدة ، وليس في جيبي عشر الليرة اشترى به لفرسي حفنة شعير ، خاصة في الايام التي قضيناها في النيك وقلمون . نعمل لتوحيد كلمة الثائرين والسير بهم نحو حمص .

لقد كنت ورفيقي ابراهيم صدقي نتوقع ، وسلطان الاطرش يعرفنا ، ويعرف من الدروز الذين رافقونا في المعارك الكثيرة جاهدنا ، واستماتتنا في سبيل حرية وطننا ، بل هو يعرف من محمد عز الدين الحلبي الذي لم نتخل عن رفاقته كل ايام الغوطة ما هو جاهدنا في الثورة ، وبذلنا في المعارك التي خضناها معه - كنا نتوقع عند أول مقابلة أن نسمع منه كلمة : « اهلا وسهلا » ، او كلمة تقدير واحدة لجهدنا الذي بذلناه قدر طاقتنا ، بل وفوق طاقتنا . ولكن أول كلمة سمعناها منه ، يوم سعينا اليه في السويداء ، ودخلنا عليه تحية أمام جمع من زعماء الدروز ، كانت : « لماذا اتيتم ؟ » . أجل ، لماذا أتينا الى الجبل ؟ لماذا لم نبق بعيدين عنه حتى نموت جوعاً وبرداً وعرياً ، إذا لم نقتل بأيدي الفرنسيين ؟ »

أطرقت خجلاً من هذا الاستقبال ، ثم قلت لسلطان : « هناك اسباب قاهرة
الجأتنا إلى الحضور ! .. » ، وناولته كتاب العقيد سعيد العاص ، فأخذه ، وقال :
« سنتواجه ! » ، ثم غادرنا وخرج ، ولم يسألنا أين نقيم ، وكيف نعيش ،
وأي باب نطرق ، وكيف نتواجه وأين .. ؟

لقد وقفت يوم وصولي إلى السويداء مع رفيق دربي ابراهيم صديقي ، ساعة
واكثر من ساعة ، في الازقة نتداول : أين نذهب ؟ وأخيراً خطر لنا أن نذهب
إلى دار الأمير عادل ارسلان ، أو مقر الامارة الحقة ، نسأل عن عبد الكريم
المدفعي الضابط السوري صديق ابراهيم صديقي ، بعد ان سمعنا أنه يقيم في الدار ،
في عداد الحاشية والمرافقين ، مهمته استخدام الرشاش الثقيل الذي أقيم في فناء
الدار ضد الطائرات الفرنسية في حال غارتها على السويداء ، وكلنا أمل أن يقدمنا
الصديق للأمير لعله يهدينا إلى مكان نقيم فيه الايام القليلة التي انتوينا قضاءها في
الجبل . وصلنا إلى الدار ، ووجدنا المدفعي فيها ، ورحب كثيراً بنا ،
وادخلنا فناء الدار ، ولكنه لم يجرؤ أن يدخلنا غرفة من غرفه . وحانت لحظة ،
سببها الغارة الجوية على السويداء ، أطل فيها الأمير عادل على فناء الدار ،
وعلينا ، وعلى الرشاش المنصب فيه ، وعرف من عبد الكريم المدفعي أسماءنا
همساً ، ثم دخل الغرف دون ان يكلمنا ، أو يتنازل للسلام علينا ، وأطل علينا ،
بعده ، صديقه توفيق هولو حيدر من أهالي بعلبك ، وعلى الفناء ، وشعره الاسود
يلمع من الدهون الفرنجية مفروقاً الى جانب ، وشارباه معقوفان ، عالجهما
بالدبق الفرنسي ، واحسن تناسقهما ، ونادى عبد الكريم المدفعي ، وسأله همساً
عنا ، ولكنه لم يتنازل ايضاً أن يدنو منا ، أو يحينا ، أو يدعونا الى غرفة
الجلوس . وتجاهلنا كالأمير كل التجاهل ، وجلسنا في فناء الدار نتبادل مع
المدفعي ماضي حوادثنا ، وحن وقت الغداء ونودى على المدفعي من اجل الغداء ،
علناً أمامنا ، ونحن جياح لم يدخل الزاد جوفنا منذ مساء أمس ، فلم ندع الى
الطعام ، واعتذر المدفعي عن الطعام ليبقى معنا ، فحملناه على الذهاب ، ونودي

عليه كرة اخرى ، فاضطر إلى الانصياع ، وخرجنا من فناء الدار نجر راحلتنا الجائعة إلى السوق ، نبحت في جيب ابراهيم عن دربهات من بقايا الليرتين ، فرق صفقة المبادلة على البندقية ، نسد بها رمقنا ورمق الحيوان الذي ظلمه القدر معنا . وكان لا بد لنا من مأوى ، غير الازقة ، فخطر لي الدكتور محمد علي الشواف رفيق ثورتنا في حماة ، فتوجهنا إلى المستوصف حيث رحب الطبيب بنا كثيراً ، ولكنه لقاء وضعنا الصعب أفهمنا انه نزيل الدار السقي استأجرها الدكتور الشهبندر مقرأ له في السويداء ، وانه بالتبعية يقيم ويأكل في دار الزعيم ، لقاء عمله الدائم كطبيب في المستوصف . . وخرجنا ، وقد عزمنا على أمر ، بعد أن استنفدنا كل معرفتنا بالمقيمين من إخواننا في السويداء كان . في جيب ابراهيم صديقي ريالان فضيان وبضعة قروش ، هي كل ما تبقى معنا من فرق ثمن البندقية ، فرحنا نطوف المنازل الشعبية نسأل عن غرفة نقيم فيها بضعة أيام لقاء اجر ، فوجدناها لقاء ريال واحد في الاسبوع . وساعدنا في مسعانا الشيخ نديم شهاب الذي لقيناه مصادفة في الطريق ، وهو من المجاهدين الدماشقة الذين ألفوا اول عصاة للشائرين في موقع الزور من الغوطة . فلما جلسنا على حصيرتنا في الغرفة ، واستقر بنا المقام ، خطر لي ان ابيع شارة الماسونية والسلسلة الذهبية التي كانت الساعة معلقة بها ، قبل رهنها لقاء البندقية ، ولكن : من يفهم بالشارة الماسونية ؟ وخطر لي ان توفيق الاطرش مدير الداخلية في حكومة الجبل قبل الثورة ، وهو مقيم في السويداء ، تعرفت عليه مرة في محفل ماسوني في دمشق ، كنا معاً ضيفين على المحفل في تلك الليلة ، باعتبارنا من أبناء محفلين آخرين ، فأسرعت الى ورقة ضمنيتها كلمة رقيقة ، ذكرته فيها بلقائنا قبيل الثورة في محفل دمشق ، وأشارت الى ما نحن فيه من ازمة ورقة حال ، وقلت له انني بحكم اخوتي الماسونية اجد نفسي مضطراً لأن اطلب مساعدته المادية قبل غيره ، اذ لا اعرف في الجبل اخاً ماسونياً سواه . وفي ختام الرسالة قلت له انني أرسل إليه مع حامل رسالتي سلسلة ذهبية لساعة كنت رهنيتها ، علقت بها شارة ماسونية من الذهب عيار ١٨ ، أرسلها اليه هدية لتبقى

لديه كذكرى لتعارفنا وصادقتنا ، لانني لا احتاج الى هذه السلسلة والشارة ،
وانا ثائر لا اعرف مصيري اليوم قبل الغد . وحملت الشيخ نديم شهاب رسالتي
والهدية ، ورحلت مع ابراهيم صديقي ننتظر الغنيمة ، فقد قيل ، يوم لقنت
المبادئ الماسونية ، ان الاخوة بين أبناء هذه الجماعة او الجمعية تدعوك الى أن
تنصر اخاك ظالماً أو مظلوماً ، وان تمد له يد العون ما استطعت الى ذلك
سبيلاً ، لا سيما وتوفيق الاطرش وجيه في بلده ، يقيم في داره ، وكان إلى بضعة
أشهر مديراً للداخلية ذا راتب جيد ، فهو مكلف ان كان ماسونياً حقاً ان يمد لي
يد العون مادياً دون ارسال هديتي اليه ، عندما اطلعه على حالي ، فكيف وقد
ارسلت اليه سلسلة وشارة ذهبيتين يزيد ثمنها عن ليرتين ذهبيتين ، وهذا المبلغ
يكفي لاجتياز ايام اقامتنا القصيرة في الجبل . كنت احدث نفسي بأن اخي
الماسوني لو قدر الهدية ، وارسل قيمتها إلي فقط لانحلت عقدتنا ، وانفجرت
ازمتنا الى حين . وجلسنا ننتظر عودة رسولنا بفارغ صبر ، فلما عاد وجدته
يحمل الي جواب رسالتي وفيها شكر رقيق على الهدية اللطيفة ، واعتذار ارق
منه بالظروف الصعبة التي يمر بها الجبل واهله ، وانه موظف ذو راتب انقطع
دخله منذ بدء الثورة ، فهو ايضاً في ضائقة مالية خانقة ، ومع ذلك فهو يرسل
الي مع الرسول ثلاثة ريالات (اي ما يعادل ثلث ليرة ذهبية) ، معتذراً بأن
المبلغ ضئيل لا يرسل كمساعدة الى اخ ماسوني عزيز عليه ، ولكن عساه ينفع في
هذه الظروف القاسية !.. قرأت الرسالة بصوت مرتفع ، فرأيت الثورة مرتسمة
على وجه رفيقي ابراهيم صديقي من اخذ شيء يساوي ليرتين بأقل من ربع ثمنه ،
وقال لو ان توفيق الاطرش ارسل الريالات الثلاثة ، وأعاد الهدية التي يعرف
الباعث لارسالها معتذراً عن قبولها ، لكان له عذره ، واصر ابراهيم على ان
أعيد اليه المبلغ ، فضحكت ، وقلت له ان الريالات الثلاثة في موقفنا الصعب
خير من ثلاث ليرات ذهبية في ايام الرخاء ، ولا تنس انك بادلت على بندقيتك
الممتازة ببندقية عتيقة لتأكل من ثمنها ، وهي عدتك في الثورة ، فماذا تنفع
الشارة الماسونية والسلسلة الذهبية إذا لم أجد اليوم ما يقوم بأودي واود فرسي؟

ومددت يدي بريال الى الشيخ نديم ، ورجوته ان يبتاع لنا به ما نأكل . ولما عاد بالطعام والعلف رأيت اسارير ابراهيم صدقي تنبسط ، فقد فطن الى انه يوم عاد من شرقي الاردن الى الجبل ، كان في جيبه ليرتان ذهبيتان ، وقرب الجبل اعترض سبيله وسبيل رفيقه شرذمة من مسلحي الدروز ينتمون الى قرية . « أم الرمان » ، وسلبوا الليرتين من ابراهيم ، ولم يصغوا الى اقوالهما انها من المجاهدين السوريين قادمين للاشتراك بالثورة . ولما وصل ابراهيم الى القرية ببلدة سلطان الاطرش ، روى لعللي الاطرش شقيق سلطان قصة السلب هذه ، فأرسل هذا كتاباً الى أحد اقربائه في أم الرمان يطلب منه التحقيق في الحادث ، واسترداد الليرتين من الذين سلبوا ضيف الجبل نقوده ، وانه سمع ، وهو في الغوطة ، من أحد الدروز ان علي الاطرش استرد الليرتين من قطاع الطريق ، وقال لنا ابراهيم بعد ان روى لنا الحادث : « سأسافر معك غداً الى القرية ، أو بعد غد لتسلم الليرتين من علي الاطرش ، وبذلك تنفرج ازمتنا ! ونجد ما نأكل به مدة اقامتنا في السويداء . ولم نضع بعد هذا الحديث الوقت ، ففي اول الليل توجهت مع ابراهيم صدقي الى الدار التي يقيم فيها سلطان الاطرش ، لعلنا نجد الفرصة للتحديث اليه فيما نحن اتينا من اجله ، فوجدنا سلطاناً والامير عادل ارسلان فيها مع جمع غفير من وجهاء الدروز . وهكذا سنحت لنا الفرصة للتحديث عن وضع منطقة قلمون امام الجميع ، وعن كثرة مسلحيها ، والاطباء التي ارتكبت فيها ، وحوادث السلب والنهب ايضاً ، وما قمنا به اخيراً لجمع الكلمة ، وتوجيه حملة من الثائرين نحو حمص ، والشروط التي اعلناها ، وأدعناها على القرى ، وعلى اهل النبك ، واننا في النهاية اضطررنا لان نستعين بجمعة سوسق وخالد النفوري على ألا تتكرر الاخطاء ، وكيف تظاهرا أمامنا بالاعتناع ، وكيف حاولا من وراء ظهورنا نهب مستودع الحبوب في قرية جوسية ، مما ادى الى فشل حركتنا كلها . بعد معارك ضارية خضناها ، وارغمنا فرانسة على سحب قوات كبرى من دمشق ولبنان والشمال ، ثم ضربنا على وتيرة القوة الرادعة توجهها قيادة الثورة الى قلمون ، وضرورتها القصوى لاصلاح المنطقة ، والافادة من امكاناتها

في توسيع شقة الثورة ، وفتح جبهات جديدة على الفرنسيين ، ولكن سلطان والامير عادل أصرا على معارضة ارسال القوة من الجبل الى قلمون ، رغم انذارنا بأن المنطقة كلها مهددة بالوقوع بأيدي الفرنسيين ، وان حملة افرنسية قوية ستخضعها دون ان تلقى مقاومة تذكر ، بسبب تفرق الكلمة ، ونفرة الناس من أعمال السلب والنهب ، واعتبار الثورة مسؤولية عنها ، وأدركنا اننا نضرب في حديد بارد ، فخرجنا من الدار ، بعد ان قدمنا الى سلطان الاطرش كتاباً أوضحنا فيه حالتنا المادية ، والاشياء الضرورية لاستئنافنا العمل في الغوطة وقلمون .

وفي الصباح علمنا ان سلطان الاطرش والامير عادل ارسلان غادرا السويداء ليطوف كل منها عدداً من القرى ، يدعو الى تجميع القوى لغزو اللجاة ، وتأديب سكانها الاعراب السلايين ، وفي مقدمتهم قبيلة « السلوط » التي تعدد عدوانها على قرى الجبل ، وقتل من يمر باراضيها من الدروز .

وصل العقيد سعيد العاص الى السويداء بعد وصولنا اليها بيومين ، يرافقه الاخوان المعصرانيان ، وسعيد الترماني من منظمي ثورة حماة وضابط الاحتياط في الجيش العثماني سابقاً . وكان هو واخوه عثمان الترماني من أركان تلك الثورة والعاملين الفعالين فيها . فقد كانت اكثر الاجتماعات السرية تعقد في بيته من أجل التخطيط للثورة وتنفيذها . وقد لاحقه الفرنسيون بشدة بعد فشل الثورة في المدينة ، واعتقلوا اخاه عثمان المريض ، وتحزوا منزله ، وألحقوا به وبأثاثه الكثير من الازى . وقد استطاع سعيد ان يختفي فترة في المدينة ، وان يتسلل منها ، بعدئذ ، مع خاله صالح الداغستاني ، ويلحقا بقلمون ، في الوقت الذي كان سعيد العاص يتأهب للسفر الى الجبل ، بعد ان خاب أمله في عودة جمعة سوسق الى النبك . وصالح الداغستاني من وجهاء الداغستان في قرية « دير فول » من اعمال حمص . وقد استقبلت السويداء هذا الركب الصغير ، كما استقبلتنا من قبل ، فقد ظل سعيد العاص فيها يومين جائعاً هو وفرسه لأنه لا

يملك ثمن طعام وعلف . وما كان حال رفاقه أحسن من حاله ، فاضطرونا الى ان ندعوهم الى النزول في غرفتنا المتواضعة ، وان نشر كهم في سرائنا وضرائنا ، نقاسمهم اللقمة ، وهي جافة فقيرة ، فغادر الاخوان المعصرانيان الجبل بعد بضعة ايام الى شرقي الاردن ، واضطر سعيد الترمانيني وخاله للعودة الى الغوطة ، والحق بفوزي القاوقجي الذي كان سبقها اليها . وقد علمنا أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر موجود في عمان ، وانه سافر اليها قبل وصولنا الى السويداء لقبض مبلغ من تبرعات العرب ورد باسمه خوالة على أحمد مصارف شرقي الاردن فتجدد فينا الامل بأن الدكتور الشهبندر ، بما سيحمله معه من تبرعات ، سيزودنا بما نحتاج اليه من ملابس وعتاد . وكان طبيعياً ، وقد ازداد عددنا في الغرفة الفقيرة ، ان تنفذ رياتنا القليلة التي تدار كناها ، واقترح علي ابراهيم صدقي أن أرافقه فوراً الى بلدة القرية لإحضار الليرتين الذهبيتين اللتين سلبهما منه بعض مسلحي الدروز ، على حدود الجبل الجنوبية ، وسمع أن علي الاطرش شقيق سلطان استردهما منهم ، فقد تساعدان على سد نفقاتنا ريثما يصل الشهبندر الى السويداء . وكان ابراهيم سأل سلطان الاطرش ليلة اجتماعنا به في داره ، فأكد له أن أخاه استردهما من السلايين ، ووعداه الامير عادل بأن يأتيه بهما في عودته من رحلته ، ولكن اني يعرف الخلي حال الشجي !

امير السيف والقلم يعتقلنا !

- ٦١ -

استعار صديقي ابراهيم صدقي جواداً من الاخوين المعصرانيين ، وكان جواداً جائعاً خائراً كفرسي . وركبنا قبيل العصر من السويداء نبعي القرية

بلدة سلطان الاطرش ، وفيها اخوه علي . ولما دنا الغروب ، ولما نتجاوز قرية « رساس » بسبب رداءة الطريق وكثرة الوحول . قضينا ليلتنا في رساس ضيفين على متعب الاطرش الذي اصلح بعض غرف منزله المحترق ، وسكن فيه ، بعد جلاء جيش غاملان عن الجبل . وكان لابراهيم سابق معرفة به ، في غدوه ورواحه بين شرقي الاردن وجبل الدروز . وظلت راحلتنا على علف التبن ، لأن أغنى اغنياء الدروز ، في تلك السنة الماحلة ، كان يعتذر عن تقديم الشعير علفاً لرواحل ضيوفه .

وصباح العاشر من شهر شباط ١٩٢٦ تابعنا سيرنا بهوادة الى بلدة « القرية » ، لأن فرسينا كانا خائرين من الجوع والهزال ، فبلغناها عصرأ ، وقابلنا علي الاطرش واطلعناه على سبب زيارتنا ، فأعلمنا أن الليرتين الذهبيتين ما زالتا مع حسن حاطوم في قرية « ذيبين » ، فهو الذي استردهما من السلابين ، بناء على رسالة كان كتبها اليه ، فقررنا متابعة السفر في الصباح إلى ذيبين لنأتي بهما ، وقضينا ليلتنا ضيفين في منزل سلطان ، وعليق راحلتينا التبن . وفي الصباح توجهنا الى ذيبين ، وفي منتصف طريقها أقبلت علينا كوكبة فرسان يتقدمهم الامير عادل . وما كادت العين تقع على العين ، حتى توقف الركب ، وسألنا الامير عادل : « إلى اين ذاهبان ؟ » ، فقال له صاحبي : « الى ذيبين لجلب الليرتين ! » ، وشرح له ازمتنا المالية الحانقة ، وعدم إمكان الانتظار ، فانتفض غضباً ، وامرنا بالعودة معه ، وزعم انه سيبحث هو من يأتينا بهما . . . وقد ظن الامير عادل اننا نريد مغادرة الجبل الى عمان ، وان قصة الليرتين لدى حسن حاطوم ذريعة منا للوصول الى ذيبين أقصى قرية في جنوب الجبل ، لننطلق منها الى شرقي الاردن . أصدر الامير عادل امره وسار ، والمفروض ألا نخالف الامر ونتبعه ، على الرغم أننا أصبحنا من ذيبين ومن حسن حاطوم قاب قوسين أو أدنى ! . وعز علينا أن نرغم على العودة دون الليرتين ، وفي السويداء اخوان لنا ، لا يملكون مثلنا ثمن طعام وجبة يسدون بها رمقهم ، ينتظرون ، بفارغ صبر

عودتنا اليهم مما يفرج كربتهم . وغاب عنا ، في بادىء الامر ، ان الامير عادل ظن أننا نريد مغادرة الجبل ، وان عنجهيته هي التي أملت عليه فكرة ارغامنا على العودة معه . عندنا مع الراكب الأميري أدراجنا ، ولكن أنى لجوادينا أن يجاريا جواد ركب الأمير ، فقد كانت جياهم الاصيله الرائعة بالعلف والعناية تندفع بسرعة في سيرها ، بينما فرسانا ينقلان الخطى نقلاً وثيداً في طريق وعرة مليئة بالحفر والمياه والوحول . ووقف الأمير ووقف ركبته معه ، بعد حين ينتظر وصولنا ، ويطلب منا ان نحث جوادينا ونغذ السير ، فقلنا للأمير ان فرسينا خائران من الجوع والهزال ، ولكن سادة الراكب لم يصدقوا ، وظنوا اننا نتهمل الخطى عمداً لنخلص منهم ، ونعود الى ذيبين . وتكرر الوقوف ، وتكرر الطلب ، وتكرر الاعتذار ، وتكرر بعد المسافة بين ركبتنا وركبهم ، وسمعت مرة الأمير عادل يقول لحسيب ذبيان أحد مرافقيه : « ناد منير الرئيس ، وواكبه ، واشغله بالحديث ، يلحق به رفيقه مضطراً » ، فأيقنت عندئذ أن الأمير عادل لم يصدق ما قلناه له عن سبب سفرنا الى ذيبين ، وظن بنا غير ما نحن في سبيله ، ونقلت لصاحبي ابراهيم ما سمعت ، فاستفزه الغضب ، واعتبرها اهانة توجه اليها ، وتسليطاً من الأمير . وبلغنا أخيراً بلدة « القرية » ، ونزل الأمير في دار سلطان للراحة بعض الوقت ، وكان المفروض أن يعرف الأمير صدقنا من علي الاطرش الذي جئناه أمس نسأله الليرتين . ولو وجدناهما عنده لكننا اليوم في طريقنا الى السويداء ، لا إلى ذيبين ! .. دخلنا دار سلطان مرغمين مع ركب الأمير ، أو بعده بقليل . وطافت أكواب الشاي على الضيوف ، الا نحن فقد اعتذرنا عنها ، مع أن الزاد لم يدخل جوفنا ذلك اليوم . ولما نهض الأمير ليستأنف سيره الى قرية رساس حيث كان مقرراً غداؤه على مائدة متعب الاطرش ، دون أن يسأل علي الاطرش عن قصة الليرتين ، قال له صاحبي ابراهيم : « يا امير ! أنعود إلى السويداء بخفي حنين ، وجيوبنا ليس فيها ما يكفي لوجبة طعام ؟ هلا بحثت مع علي بك الاطرش امر الليرتين اللتين جئنا من اجلهما ! .. » ، فغضب الأمير ، وقال لصاحبي مهدداً : « هذا طريق ذيبين امامك ، فاسلكه ان كنت

رجلاً وشجاعاً ! » ، قال هذا أمام حشد كبير من اهل البلدة جاءوا للسلام عليه في دار سلطان ، فهو في عزف الدروز اميرهم . وخرج ، وتبعته حاشيته ، وتبعه القوم لوداعه ، وتخلفنا ليمر الجميع ، ووجد حسيب ذبيان ان الامر يحتاج إلى ايضاح ، فالتفت الى الدروز المجتمعين لوداع الامير عند باب الدار ، وقال : « يا دروز ! عليكم بعد اليوم ان تقبضوا على كل سوري ، شامي أو حمصي ، حموي أو حلي ، يمر بقريتم متجهاً الى الجنوب ؟ وتعيدوه محروساً الى السويداء .. وها نحن قبضنا اليوم على اثنين ! » ، وتلفت الى ورائه ، فوجدني مع القوم استمع الى اوامره ، فاحمر وجهه خجلاً ، وقطع حديثه ، وامتنطى جواده ، ولحق بركب الامير . لا يمكن الآن ان اصف الالم الذي حز في نفسي ، فقد وقعت كلمات ذبيان علي وقع الصاعقة ، وامتنطيت فرسي ، ولحق بي ابراهيم ليسمع مني ما قاله حسيب ذبيان ، وليعرف اننا معتقلان ، نساق بجراحة الامير الى السويداء لنحاكم على جريمة الفرار من الثورة . وابطأت راحلتنا كالعادة ، ووقف الامير اكثر من مرة ، واوقف فارساً من اتباعه ، غير ذبيان ، في هذه المرة ، يواكبنا ، ويحرسنا ، وانطلق الامير بركبه الى رساس ، عندئذ لم يعد صاحبي ابراهيم يتمالك كظم غيظه ، فقال : « اذهب وقل للأمير عادل أن يبدل ظنه ومعاملته معنا ، لأننا لسنا كما ظن نود الانسحاب من الثورة . ويوم التحقنا بالثورة لم نلتحق بدعوة منه ، ولم يعطنا راتباً على جهادنا حتى يتحكم بنا ، وحتى نتحمل منه هذه الاهانات المتتابة ! .. بل اذهب وقل له : اننا قضينا خمسة اشهر نخوض المعارك الضارية في الثورة ، بينما هو كان يقرع الكؤوس ، ويعيش حياة الترف والتبذل في فلسطين ! » ، وقبل ان يتم ابراهيم ما جاشت به نفسه ، بعد ثورته المكتومة ، اندفع الفارس الدرزي وراء الامير ، حتى لا يسمع شتائم اكثر ، ولينقل لأميده ما قاله صاحبي ، فلم نعد نرى ركب الامير يتوقف بانتظار وصولنا ، كلما بعدت بيننا وبينه الشقة ، بل قابلنا عابر سبيل فيهننا الى ان الامير ينتظرنا على ماء المطاحن ، ويطلب منا ان نحث فرسينا للحاق به ، فلم يبدل هذا من الوضع شيئاً ، فالراحلتان بلغتا منتهى الخور . ولما اقبلنا على الماء ،

وصاحبي ابراهيم يمشي ويسوق جواده أمامه ، بعد ان عجز عن السير به راكباً ، رأينا الامير عادل وركبه يغادرون الماء ، الا الفارس الذي كان خلفه لحراستنا ، فقد ظل واقفاً حتى وصلنا اليه ، وواكبنا حتى بلغنا رساس ، وحل الامير وبطانته في بيت متعب الاطرش . ولما رأنا صاحب البيت ، بعد حين ، مقبلين ، دعانا الى مضافته ، فاعتذرنا بجوادينا وعلفها ، وذهبنا الى السوق



نشترى بربع ريال ، هو آخر ما في جيبنا من نقود ، شعيراً قدمناه لجوادينا المنهوكه من الجوع ، وانتبذنا الى جانب منزل متعب الاطرش مكاناً خالياً من الدروز الذين تجمعوا للسلام على اميرهم ورؤيته . وهناك رأيت الدموع تترقرق في عيني صاحبي ، فتألمت لبكائه ، وانا اعرف انه وحيد والديه ، خلفها وراءه في دمشق ، لا يؤنس وحدتها غير شقيقة له صغيرة ، وترك الصف الاخير من كلية الحقوق التي تجعل منه بعد

الامير عادل ارسلان

بضعة اشهر قاضياً أو محامياً لامعاً لذكائه وذلاقة لسانه ،

والتحق بالثورة مشياً على الاقدام ليقاتل أقوى دولة برية في اوروبا ، بأضعف سلاح بيده ، ويعرض نفسه للموت ، كل يوم ، في سبيل حرية وطنه . تألمت لبكائه ، وكنت اراه يقطع المسافات الطويلة مشياً على قدميه من عمان الى جبل الدروز ، ويطوف في قراه قبل ان يتيسر له السلاح ، ثم يعود الى عمان مشياً على

قدميه يوم رأى زعماء بلده يتسللون من الجبل ، ثم يسمع ان الثورة ما زالت ناشبة ، وان جيش غاملان انسحب من جبل الدروز ، فيعود متنكباً بندقيته ، يقطع المسافات الشاسعة إلى الجبل ، ومنه إلى الغوطة ، ثم قلمون ، ويخوض المعارك الدامية ، فيشهد أبطال الدروز بشجاعته ، ويعيش عيش الكفاف ، وليس في جيبه مال ، ويتحمل أصناف البؤس والحرمان ، دون ان تبدر منه كلمة شكوى ، يملأ الجو مرحاً أينما وجد ، ليرفه عن اخوانه في السلاح ، ويخفف عنهم وطأة الحياة القاسية التي يعيشونها . بكى الضابط الشاب الذي قاد الكتائب في الجيش العثماني ، وتطوع لقتال الفرنسيين في عصابات وادي التيم أيام الحكم العربي في سورية . بكى لا خوفاً ولا وجلاً ولا ندماً ولا حنيناً لأهله ، ولكنه بكى لاهانة لحقت به ، وجهها إليه زعيم وطني كان يتوقع ان يسمع منه كلمة تقدير بدلاً منها ، فكفكت دموعه ، وقلت له : « اننا التحقنا بالثورة لاداء واجب وطني القوي على عاتقنا كشباب عرب ، ولم نلتحق بها من أجل الامير عادل ارسلان ، ولا لنضوي تحت قيادته أو زعامته ، وضميرنا مرتاح لما قمنا به الى اليوم ، لذلك لن يثنيانا عن اداء هذا الواجب اهانة توجه الينا من رجل مغرور بامارته ، أو بنفوذه على الدروز ! .. » وما كدنا ننتهي من هذا الحديث حتى وافانا رجل من قبل متعب الاطرش يقول ان الطعام جاهز ، وان متعب بك يدعونا اليه ، فاعتذرنا عن الطعام ، وزعمنا للرسول اننا تناولنا غداءنا في السوق ، ولبثنا ننتظر خارج الدار ، حتى انتهى القوم من غداهم ، وهبط الامير عادل السلم ليتابع السير الى السويداء ، ومر بنا ، والتفت الي مبتسماً ، وكأنه شعر بخطئه ، وقال : « لماذا لم تحضرا معنا الطعام ؟ .. » قلت « اننا غير جائعين ! .. » قال : « ولكنني لم الحظ انكما أكلتما اليوم ! .. » فلم أجبه على ملاحظته ، وتوجه الى جواده ، بينما تقدم حسيب ذبيان ليعتذر باسم الامير فقال : « انكما أخطأتما التفسير ، ولم يقصد الامير اهانتكما ! .. » ، فانفجر ابراهيم صديقي من الغضب ، وقال له : « اسأل اميرك أين كان يوم جئنا الى الثورة والتحقنا بها مختارين ! » ، وقلت له : « أنسيت خطابك في جمع الدروز في بيت سلطان

الاطرش في القرية ، يوم قلت لهم اننا معتقلان ؟.. » ، فتركنا وامتنطى جواده ، ولحق بزكب الامير ، وسرنا سيرنا المعتاد وئيداً حتى أدركنا الليل ، وبلغنا السويداء ، وذهبنا الى غرفة كنا عرفنا ان عبد الكريم المدفعي المقدم السابق في جيش الحجاز استأجرها مع رفيقه الضابط النقيب شوكة الدالاتي ليخلص المدفعي من الإقامة في دار الامير ، ومن مراسمها . ولما سمع المدفعي قصتنا مع الامير عادل ارسلان ذهب الى دار الامير ، وعاد منها ليلبغنا دعوة الامير ايانا الى منزله ، فاعتذرنا ، وشكرنا له هذه الالتفاتة التي جاءت متأخرة ..

فاجأتنا في صباح الثاني عشر من شباط احدى وعشرون طائرة أخذت تقصف السويداء ، وكنا مع اخواننا في غرفتنا . ولما رأينا شدة الغارة تسللنا منها الى خارج السويداء ، فقد انشق جدار الغرفة ، وكادت تنهار علينا . وقتل اثنان من الاهلين ، وقتل جوادان ، وجرح سبعة . والجوادان خاصة الاخوين سليمان وعبد الهادي المعصراني ، قتلا على مقربة منا . وكانت الطائرات الفرنسية اعتادت أن تغير ثلاث منها في كل نهار على السويداء ، وفي موعد كاد ان يكون محدداً ، تصل ، وتلقي فيه قنابلها . وكنا نخرج ، على الاكثر ، قبل الموعد الى خارج البلدة ، لنتقي انهيار السقوف والجدران علينا من القنابل . وفي مساء يوم بينما كنت وصاحبي ابراهيم صديقي عائدین الى البلدة ، قابلنا في السوق الامير عادل ارسلان يتمشى مع صديق له ، فلما وقعت عيناه علينا حيانا ، فلم نرد عليه التحية ، وتجاوزنا قليلاً ، ثم التفت ، وناداني باسمي ، فخبجت ألا أجيب نداءه ، والتفت ، وتقدمت نحوه ، ومد يده مصافحاً وقال : « انني اعتذر عما بدر مني نحوكم ، واعترف الآن بأبني اخطأت ، فقد اعتقدت انكما ذاهبان الى عمان ، وكنت تلقيت رسائل من اخواننا هناك ، يطلبون مني ان تمنع تدفق السوريين من الجبل الى شرقي الاردن ، وانسحابهم من ميادين الثورة ، مبررين هزيمتهم بالزعم ان الثورة فشلت وانتهت بما أساء الى سمعتها في العالم . أما الليرتان خاصة صديقك ابراهيم فقد سلمتها الى عبد الكريم المدفعي صديقك ليعطيكما ايأهما ، وانا سأستردهما من حسن حاطوم . » فقبلت اعتذاره ، وشكرته ، وتسلم ابراهيم صديقي ليرتيه السليبتين !

حذاء الزعيم زعيم الاحذية !

- ٦٢ -

يوم الغارة الجوية الكبيرة على السويداء ، وصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عائداً من عمان ، فتوجهنا مع سعيد العاص ليلاً إلى داره ، وهناك بسلامة الوصول والعودة ، وحدثه العقيد العاص حديثنا ، والغاية التي جئنا من أجلها إلى السويداء ، والعري والجوع والحرمان الذي نعانيه ، وانا قطعنا الأمل باصلاح الثورة في الغوطة وقلمون . فلا اقل ان نجهز لاستئناف العمل فيها أو في ميادين أخرى ، وظللنا ثلاثة ايام نتردد عليه في السويداء ، وهو يشبعنا كلاماً ويمدنا بأنه سيقوم بواجب تجهيزنا ، واخيراً دعانا إلى منزله ، واعطاني ليرتين ذهبيتين ، ترددت هل ادفعهما لسد الدين ، واسترداد ساعتى وخاتمي ، أم أبقيهما لنفقتي ، ورجحت الثانية ، وعفت الساعة والخاتم ، ثم وهبني الدكتور الشهبندر حذاءه العتيق ، بدلاً من ان يشتري لي بريال أو ريالين حذاء عسكرياً من الغنائم . ولما وافق قياسه قدمي ، تميزه ، وظهر السرور على وجهه ، وقال : « لا تحسب انه هين علي ! ان له ذكرى في نفسي ! .. فقد كنت احتذيه في جرد الزبداني وبلودان .. والسلطة الفرنسية تلاحقني للقبض علي ، وانا احاول الهرب إلى جبل الدروز .. للالتحاق بالثورة ! .. » ، فشكرته ، وقلت في نفسي : « لماذا لا اقدر العطاء حق قدره ! .. ان حذاء الزعيم زعيم الاحذية ، ولو كان بالياً لا لون له من كثرة الاستعمال ! » ولم يكتف بهذا ، بل سلم أمر سعيد العاص ومن معه من ضباط ومثقفين إلى ابي عبده ديب الشيخ رئيس عصاة العمارة الذي يكتب اسمه بصعوبة ، ويعتبر من عامة الشعب ، واعتبره المعتمد ، وسلمه مبلغاً لا بأس به من المال ، لم يصرح لنا بمقداره ، وعهد اليه بشراء لوازم السفر إلى الغوطة ، فنالني منها مئة بندقة او طلقة فرنسية لبندقيتي ثمنها في السويداء

ريالان فضيان ، ثم اخذ الشهبندر يلح علينا بالسفر الى الغوطة ، ويتحدث عن ضرورة وجودنا فيها ، كأنه يعبر عما يحول في خاطره ، وهو : « ابعدوا عني ! ولا تروني وجهكم مرة ثانية ! .. » ، وهكذا توجهنا في اليوم السادس عشر من شهر شباط ١٩٢٦ الى الغوطة بقيادة ديب الشيخ ، او سيطرته المالية علينا ، فبلغناها في التاسع عشر من الشهر ، ولم نجد وسيلة للعمل المجدي الا بانضمامنا الى فوزي القاوقجي ، والتعاون معه على جمع قوة من الثوار نتوجه بها الى قلمون لإصلاح وضع المنطقة ، والسعي لتوسيع رقعة الثورة الى الشمال ، الهدف الذي عملنا له من قبل ، وفشلنا فيه لتعاوننا مع المتزعمين النهابين . وساءت حركتنا ديب الشيخ ، فأخذ يتحدث عنا في مجالسه ، ويقول انه احضر معه سعيد العاص ، و ابراهيم صدقي ومنير الرئيس وأخوانهم من الجبل الى الغوطة ، وأنفق من جيبه ثمن اطعامهم وعلف دوابهم ثلاثة ايام ، ولما وصلوا الى الغوطة ، افترقوا عنه ، ولم يبقوا بإمرته ، ونسي ديب الشيخ أن المال الزهيد الذي انفقته على اطعامنا ثلاثة ايام هو مال الثورة ، واننا لسنا من القوم الذين يأتمرون بأمر رئيس عصابة لا يعرف عن الثورة الا انها ضرب من ضروب الربح والبهورة والافتخاخ ، واننا وفرنا عليه ، بافتراقنا عنه ، المال الذي قبضه من الشهبندر باسمنا ، والذي بقي مقداره سرّاً بينه وبين الزعيم الذي بدأ يشتري بهال الاعانات رؤساء العصابات الذين يعترفون بزعامته دون غيره من المتزعمين !

الفصل العاشر

النشاط يعود الى الغوطة

- ٦٣ -

كنا يوم غادرنا الغوطة إلى قلمون ، نشعر بسيطرة فرنسة عليها ، بما اقامته حولها من مخافر ، وبما وجهته اليها من حملات ، كانت تزحف اليها تباعاً من مختلف الطرق ، لتقضي على فلول العصابات . الا ان الفرنسيين شغلوا بعدها بتطهير وادي بردى من العصابات التي انتقلت اليه من الغوطة ، وبمقاومة زحف الثورة التي اخذت تهدد مدينة حمص في الشمال ، وقطعت اياماً كل اتصال بين شمال سورية ، وبين جنوبها ، يوم هدمت جسر الحارون ، وشغلوا مبددة بتجدد نشاط الثورة في اقليم البلان ، بعد وصول قوة متعب الاطرش وعلي الاطرش ، وهو غير شقيق سلطان الاطرش ، ومن ابناء عمه ، فانقطعت حملاتهم فترة عن الغوطة وتسنى للثائرين العودة اليها ، والقيام ببعض الحركات ، كمهاجمة بعض أخياء دمشق ، وتخريب الخط الحديدي بين دمشق وحووران . ولم يقع ، في بادىء الامر ، غير اصطدامين بين الفرنسيين والعصابات ، الاول على طريق قرية شبعاء ، وفي القرية مخفر للفرنسيين ، حيث رابط عبد القادر سكر وعصابة الميدان ،

وعدد من الثائرين القرويين بالقرب من قرية «جرمانا» ، وتصدوا للحملة التي خرجت من دمشق لتموين المخفر . وبعد صدام قصير اضطر الثائرون إلى الانسحاب . والثاني وقع على طريق دوما ، يوم خرجت حملة أيضاً من دمشق لتموين مخفرها ، والغاء مخفر «حوش خرابو» ، وفي عودتها كمنت عصابة عبد القادر سكر ، وعدد من الثائرين القرويين ، قرب طاحون «عربين» ، المكان



الفلاحون القرويون
كانوا عماد الثورة
ومادتها الاولى

الذي كانت جرت فيه معارك ضارية ، فتقدمت كوكبة من الفرسان الصباحيين تكشف المكان ، ولم تستطع كشف كمين الثائرين ، وعادت تعلم القائد ، فتقدم بحملته باطمئنان ، والجنود يتنكبون البنادق ، يتحدثون ، ويدخنون ، حتى توسطوا الكمين ، عندئذ فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم ، ويصرع منهم ، مما أدى إلى اضطراب صفوفهم ، ولكن الدبابات تقدمت نحو الكمين ، فانسحب رجاله ، ولم يدم الصدام أكثر من بضع عشرة دقيقة ، لأن عدد الثائرين كان قليلاً ،

واكثرهم من الجدد الذين لم يتمرسوا على منازلة الحملات . وقد جرح في الصدام الاول عبد القادر القواص الذي كان مستخدماً في حزب الشعب ، وبطل

قصة الاستيلاء على أموال الحزب ، وعلى المبلغ المرسل معه أمانة إلى المرحوم سعد الدين المؤيد العظم من أسرته في دمشق . وبعد هذين الصدامين أخذ عدد الثائرين يتزايد في الغوطة ، وأيقن أهل القرى أن فرنسة لا تفرق بين القرية الثائرة وبين القرية الخالدة للسكينة ، فهي تدمر كل قرية بمدافعها ، وتنهب كل

قرية تدخلها حملاتها ، وتقتل كل من تصادفه في طريقها ، لذلك أخلوا قراهم من النساء والاطفال والشيخوخ العجز ، وخاصة منها القرى القريبة من دمشق ، وتحت قصف مدفعيتها ، حتى ازدحمت دمشق ودوما بالنازحين ، وأقبل الشبان على تنكب السلاح ، فنظمت دوما عصابة أخذ يتزايد عدد أفرادها حتى أصبحوا يعدون بالمئات ، وازداد عدد تائري حي الميدان حتى أصبحوا من اكبرالعصابات ، وأحسنهم تنظيماً ، يتزعمهم رجال مخلصون منهم الشيخ الجليل شفيق عمر باشا ، وأبو سليمان المهايبي ، وأبو قاسم المهايبي ، وأبو قاسم الدرخباني ، استطاعوا ان ينظموا شؤون عصاباتهم ، وإعاشتها ، واتخذوا لها القرى الجنوبية ، كـلدا وببيلا وقبر الست مقراً ، وأقاموا المستودعات لإعاشتها ، حتى انهم بنوا فرنًا للخبز . وكان حي الميدان المعروف بوطنية أبنائه ورجولتهم يدهم بالمال والمؤن ، وأقاموا من بين أفراد عصاباتهم الطهارة والخبازين يعملون بأجر ، فأصبح تنظيمهم مثلاً حياً للعصابات الأخرى ، وجنبوا انفسهم أعمال زعماء العصابات الأخرى الذين يفرضون الاتاوات ، ويتصرفون بالمال كما يشاءون ، دون ان يحاسبهم عليه احد . ولما وصل فوزي القاوقجي الى الغوطة بعصابته الصغيرة من المسلحين الدروز ، أخذ يطوف أرجاءها للتعرف الى زعماء العصابات ، فأكرمت عصابة الميدان وفادته ، وأشركته حيناً بإعاشتها وتموينها ، فدرس أحوال المنطقة ، وعرف ما يلزمها للاستمرار في الكفاح ، وبدأ نشاطه بالدعوة الى توحيد كلمة الثائرين ، واخضاع حركاتهم الحربية في الغوطة الى قيادة رجل واحد ، او لمجلس تتمثل فيه العصابات كلها ، يتولى التخطيط الحربي ، ويكون مسؤولاً عن الأمن والتموين ، ولكن دعوته هذه اصطدمت بأنافة بعض الزعماء الذين لا يروق لهم التنظيم ، ويريدون الثورة فوضى ، يحققون فيها أطماعهم الشخصية ، عدا شهوة السيطرة وحب الظهور .

وصلنا الى الغوطة فوجدنا قراها خالية من السكان ، الا القليل منها كعربين وكفر بطنا ، وسقبا ، وزبدین ، وفي كل قرية شبان يحملون السلاح من أهلها ،

حتى القرى القريبة إلى دمشق ودوما كان النسوة والاطفال والشيخوخ يعودون إليها كل يوم في الضحى ، بعد أن يتأكدوا من عدم وقوع معارك فيها ، يقومون بأعمالهم ، وفي المساء يسيرون إلى ملاجئهم في المدينتين ، حتى لا تباغتهم الحملات مع الفجر في قراهم ، ويتعرضوا للأذى والفظائع والقتل . وبازدياد عدد الشائرين من دمشق ، كثر عدد العصابات في الغوطة ، وازداد عدد المتزعمين عليها ، حتى ان هناك عصابات لا يتجاوز عدد أفرادها العشرة ، كانت تعتبر نفسها عصابات مستقلة . وتألقت عصابات في قرى داريا وكفر سوسة وغيرها من القرى القريبة من دمشق ، وتألقت عصابة كبيرة من حي الاكراد ، وبذلك أصبح لأكثر احياء دمشق عصابات في الغوطة تحمل اسماء احيائها ، وتتخذ كل عصابة في القرى القريبة من الحي مقراً لها ، وبذلك أصبحت دمشق محاطة من جميع أطرافها بعصابات ، دون ان يكون هناك تنظيم او تخطيط لذلك ، فهناك عصابة الميدان الكبرى ، وعصابة للحي صغيرة بزعامة عبد القادر سكر ليس لها مقر معين ، تتجول في انحاء الغوطة والمرج ومنطقة الجورة ، وعصابة ابي دياب البرازي ، وهي صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها العشرين ، جلهم من أبناء حي الاكراد ، تقيم في قرى الافتريس ، وجسرين ، وزبدین ، وعصابة الشاغور بقيادة حسن الزيتق مقرها في قرية عقربا ، وهي بقايا عصابة حسن الخراط ، وعصابة ابي عبده ديب الشيخ باسم حي العمارة مقرها قرى عربين وكفر بطنا وسقبا وحمورية ، ازداد عددها اخيراً بمن انضم إليها من مسلحي قرى الغوطة ، وأشرف على تنظيمها الضابط شوكة العائدي الذي رافقنا ، في المرة الأخيرة ، من الجبل الى الغوطة . وعصابة دوما وهي ، كما قلنا ، من اكبر العصابات في الغوطة ، مقرها قرىتا مسرابا ومديرة ، النافذون فيها يونس الخنشور ومحمود خيتي ، وتتعاون مع ابي عمر ديبو الكردي المقيم في قرية حرستا ، وعصابته تتألف من مسلحي حرستا وبعض قرى المرج وقضاء جبرود . وعصابة جوبر وتضم مسلحي هذه القرية الكبيرة الرابضة على باب دمشق ، وعصابة القابون وبرزة وتضم مسلحي هاتين القريتين ، ويتزعمها ابو محي الدين شعبان من برزة ، وافرادها قليلو العدد .

وعصابة أبناء عكاش ، وتنتقل بين قرى التل ومنين وبرزة ودمر وقرى وادي بردى ، أفرادها قليلون ، ويرأسها سعيد عكاش وأخواه ، ويزداد أحيانا عددها بمن ينضم اليها من مسلحي القرى التي تنتقل فيها . وعصابة داريا ، وكفرسوسة والقدم يتزعمها خليل بصله من داريا ، والشيخ محمد حجاز من دمشق ، وديب القديمي من قرية القدم ، انضم اليها فريق من أفراد عصابة الخراط بعد استشهادها ، وتقيم في القرى التي تنتمي اليها . وعصابة الاكراد بقيادة احمد الملا رافقها



عصابة قبر عاتكة وباب السريحة
من أحياء دمشق

صادق الداغستاني من ضباط الدرك السابقين ، وتقيم ، على الأكثر ، في قرية القابون ، وتنتقل بين القرى . وهناك فئة مثقفة من الثائرين تعمل في الدعاية والمخابرات والتنظيم ، ما وسعها العمل ، وتضم فائق العسلي ، ونسيب شهاب ، ونزيه

المؤيد العظم ، وصبري العسلي ، وأديب العسلي ، وحكة العسلي ، وممدوح العظم ، وغيرهم . وكان اهم قضية ، تشغل العصابات ، في هذه الفترة ، هي قضية الاعاشة والتموين ، فقد خلت القرى من سكانها ، ومنع الفرنسيون خروج المؤن والاطعمة من دمشق ، حتى لا يفيد منها الثائرون في الغوطة ، واضطر هؤلاء إلى جلب مؤنهم بطريق حي الميدان الذي لا يسيطر عليه الفرنسيون ، لأنه خارج الحصار الذي ضربوه على وسط المدينة وبعض أحيائها ، وفيه مستودعات الحبوب التي تسمى « بوايك » (جمع بايكة) ، فنقلت عصابة الميدان الكثير من هذه الحبوب الى الغوطة للتموين . وهناك طريق ثانية للتموين هي طريق حي الاكراد ، فهو ايضا خارج منطقة الحصار الفرنسية . وثالث طريق للتموين كانت بلدة دوما ، فقد كان يسمح لاهلها الذين يعدون بالالوف ، عدا الوف النازحين اليها من القرى ، بأن يشتروا الدقيق وغيره من دمشق ،

فيذهب بعضه الى الثائرين . وهناك قرى المرج التي ظلت آهلة بسكانها ، كانت العصابات تفرض عليها بعض المؤن ، لانها لم تصب بما أصيبت به قرى الغوطة ، ولم تغد ساحة للقتال لانها خارج المنطقة المشجرة حول دمشق .

أما المال فقد كان يذهب الى جيوب رؤساء العصابات ، اكثرهم ، ان لم نقل كلهم ، ومصادره الاعانات التي كان يجمعها سرّاً الوطنيون من أبناء الشعب في دمشق ، والاتاوات التي كانت تفرض على الاغنياء ، ومن يتلكأ بالدفع لا يسلم من الوقوع بأيدي عصابة الحي التي يتسلل أفرادها دوماً الى الحي ، وخاصة في الليل ، لا تحول دونهم (البراجات) والاسلاك الشائكة ، فقد كان الثائرون يتغلبون على الاسلاك الشائكة ، ويتجاوزونها من نقطة بين حصنين من الحصون التي اقامها الفرنسيون من اكياس الرمل ، وجهازها بوسائل الدفاع . أما الاغنياء الذين لهم مزارع في الغوطة ، فهم ايسر بالدفع لقاء صون مزارعهم وقصورهم وبيوتهم وأبقارهم وأدوات زراعتهم وانتاجهم . أما السلاح فقد كان من السلاح في العهدين العثماني والعربي الذي سلم من الفرنسيين في جبل الدروز ، وفي العشائر ، وما كان مخبئاً منه في المنازل والقرى ، وما يأتي منه بطريق شرقي الاردن ، يحمله التجار الى جبل الدروز ، وهو ألماني وعثماني وانكليزي ، الى جانب السلاح الفرنسي الذي غنم الدروز أكثره من حملة الجنرال ميشو ، أو غنمه الثائرون في معاركهم العديدة مع الحملات الفرنسية .

النهابون أعداء التنظيم

عدنا الى الغوطة ، وحضر سعيد العاص باسمنا اجتماعاً تم في قرية «عقربا» ، دعا اليه فوزي القاوقجي ، بكتب وجهها الى رؤساء العصابات في الغوطة ، أثير فيه أمر التنظيم ، وربط الشؤون الحربية بقيادة واحدة ، يتولاها قائد كفوء ، او لجنة تمثل جميع العصابات ، وان يكون للقيادة لجنة اخرى تساعد على مسؤولية عن الاعاشة والتموين ، تتسلم جميع موارد الثورة ، وقوة لحفظ الامن

يتولى قيادتها أحد الضباط ، وتكون بأمر القيادة الحربية ، فعارض أكثر رؤساء العصابات هذا التنظيم ، حتى أن الشيخ محمد حجاز ، وهو من أصحاب البطون التي لا تشبع ، اتهم سعيد العاص والداعين لهذا الاجتماع بالعمل لمصالحهم الشخصية ، وسعيهم إلى الوظائف للاستئثار بالسلطة والمنفعة ، حتى أنه قال للعقيد سعيد العاص : « نحن نعرف أن كل قصدك من هذا أن تصبح ضابطاً برتبة يوزباشي ! .. نحن ليس عندنا وظائف ومناصب ، ومن يريد أن يتولاها فليذهب إلى فرنسا الدولة .. أما نحن هنا فثوار ! .. » ، وفات هذا الجاهل أن سعيد العاص بلغ رتبة عقيد في الجندية ، وتجاوز رتبة النقيب « يوزباشي » بعدة رتب ، وسجن في عاليه ، وحكم عليه بالموت في عهد أحمد جمال السفاح ، وقضى حياته في الثورات ! ومشرداً عن الوطن ، ولكن ما فاه به محمد حجاز يعبر عن إرادة أكثر رؤساء العصابات الذين يريدون أن تظل أمور الثورة فوضى ، ليمثلوا من أموالها جيوبهم . واقدمهم في ابتزاز المال محمد حجاز يوم كان مع حسن الخراط يوجهان الانذار للأغنياء وأصحاب المزارع والخوانيت ، ويفرضان عليهم الاتاوات ، فيوقع الخراط الانذار باسمه مقروناً بلقب « باشا » ، ويوقع محمد حجاز باسمه مقروناً بلقب « شيخ الاسلام » ، والاسلام بريء من أمثال هؤلاء النهابين المستغلين . ولما رأى القاوقجي والعاص ومن حضر معها الاجتماع من الضباط والمثقفين أن أكثرية رؤساء العصابات ضد التنظيم ، اكتفوا بأن حرروا عهداً وقعه الجميع يقضي بأن ينجد الجميع العصابة التي تخوض معركة مع العدو ، مهما كانت الشقة بعيدة بين العصابات وساحة المعركة ، وقسموا الغوطة مناطق بين العصابات ، بصورة لا تختلف عما أشير إليه فيما سلف عن توزيع العصابات في الغوطة ، حتى لا تصطدم العصابات ببعضها بسبب ما قد ينشأ من خلاف بينها على المناطق .



من اليمين : سليم الاظن ، ابو حامد ابراهيم الفحل ، جميل دلول ،
محمد ابو عبده قدور ، من مجاهدي دمشق .

عدوان الفرنسيين على حي الميدان

هاجمت عصابة حي الميدان الحي ، واحتلت في العشر الثاني من شهر شباط عام ١٩٢٦ الحياء ، الى حدود الحصون التي أقامها الفرنسيون في موقع « باب المصلى » ، واخذت تتجول في الحي ليل نهار ، وتهاجم حصون الفرنسيين ، وثكنتهم في القدم ، فجهز الفرنسيون حملة اكثرها من كوكبات الشر كس ، والحرس السيار اللذين تتألف كتائبهم من متطوعة الاسماعيليين والارمن والعلويين وغيرهم ، تتقدمها الدبابات والمدرعات ، فاشتبكت الحملة مع عصابة الميدان في معارك استمرت ثلاثة ايام متتالية في شوارع وازقة الحي ، تتوقف في الليل ، وتتجدد في النهار . وقد تكبد الفرنسيون في هذه المعارك خسائر فادحة بالنفوس ، لأن الشائرين ادرى بدخائل حيهم ومناقذه وموانعه ، من الجنود ، فقد كانوا يتحصنون بالمنازل والاسطحة ، ويجرون الجنود الى الازقة الضيقة ، ويجهزون عليهم ، مما حمل الفرنسيين اخيراً الى قصف الحي بالمدفعية ، وتهديم المنازل على رؤوس سكانها ، واشعال النار بما سلم منها ، فاضطر المجاهدون إلى الانسحابات من الحي ، انقاذاً له من القصف والحرق ، وعندئذ أباح الفرنسيون الحي لجنودهم ، فارتكبوا من الجرائم ما تقشعر له الابدان ، فقد قتل المتطوعة من كتائب الشر كس والحرس السيار الاهلين ، حتى النساء ، وقطعوا ايديهم واصابعهن للاستيلاء على الحلي والجواهر ، ولم يبقوا في المنازل اثاثاً ثميناً إلا ونهبوه . وكانت احياء دمشق الاخرى ترى هذا المشهد الفظيع ، وترى الجنود عائدين من حي الميدان يحملون السجاجيد والفرش والملابس والحلي وكل ما في المنازل من تحف في هذا الحي الكبير ، يبيعونها لمن يدفع الثمن ، فكتبت فرانسة بضرب الحي وحرقة وتهديمه واباحته للسلب والنهب افطع صفحة في تاريخ استعمارها . وقد نزع اكثر سكان الحي ، بعد هذه الكارثة ، عن حيهم ، وسكنوا الأحياء الاخرى من المدينة ،

بعد أن أصبحوا دون مأوى، وبعد أن أصبح حيهم عرضة في كل مناسبة للتنكيل. وقد حضر فوزي القاوقجي ومن معه من الدروز هذه المعارك، واستبسلوا فيها، ولم نحضرها نحن، لأننا كنا في طريقنا من جبل الدروز الى الغوطة.

تخريب الخط الحديدي بين دمشق وحران

قام فوزي القاوقجي يوم الاثنين في ١٥ شباط عام ١٩٢٦ بمن معه من المسلحين الدروز باقتلاع الخط الحديدي في الكيلو متر الثاني عشر جنوبي دمشق على طريق حوران. ولما اقبل قطار درعا على مكان التخريب أحس السائق به، واراد تفادي التدهور، ولكن حركته المفاجئة لوقف القطار سببت تداخل الشاحنات ببعضها بعضاً، واحترق ثلاث منها بفعل زيت المصابيح المحطمة، وقتل عدد من الجنود والركاب، فانزل الجنود رشاشاتهم ومدافعهم الخفيفة من القطار تجنباً للنار، واستعدوا للدفاع عن انفسهم، واخذ الجنود يطلقون النار على من حولهم دون هدى. وكان فوزي القاوقجي يعرف ان الفرنسيين يرفقون كل قطار للركاب بعدة مركبات مسلحة، لذلك رابط بعد تخريب الخط، مع عصابته بعيداً عنه، ينتظر ان يخرج الجنود من المركبات المسلحة، ويتوجهوا الى دمشق، واذا بركاب القطار يمرون، ومعهم بضعة جنود من الدرك السوري، فأخذت عصابة القاوقجي بنادقهم، واخذت سبيلهم، وبعد حين خرج قطار مسلح من دمشق لنقل الجنود، فابتعدت العصابة عن المكان حتى لا يكشفها القطار في السهل الفسيح، ويسلط عليها نيران اسلحته.

وقد كررنا، بعد وصولنا الى الغوطة، العملية، إذ توجهنا في ليل الثالث والعشرين من شهر شباط، مع فوزي القاوقجي وعصابته، وعدد من مجاهدي حي الميدان الى المكان نفسه، واقتلعنا الخط الحديدي بطول الف متر، وقلبناه

الى جانب الطريق . وقد استشهد معنا شاب من الدروز ، انقلبت عليه
القضبان الحديدية فجأة ، وظل تحتها . ولولا اسراعي بالابتعاد عن الخط في
نفس اللحظة للاقيت نفس المصير .

تنظيم الثورة يرهب الفرنسيين

- ٦٤ -

دعا فوزي القاوقجي وسعيد العاص رؤساء العصابات في الغوطة الى مؤتمر
عقد يوم الرابع والعشرين من شهر شباط في قرية عربين ، حضره عدا الرؤساء ،



القائد فوزي القاوقجي على رأس كوكبة من المجاهدين الفرسان

يتقدمه حامل العلم العربي

- ٤٦٧ -

الضباط والمثقفون من الثائرين ، بحثوا فيه ما ترامى اليهم من أن الفرنسيين وافقوا على سفر وفد من الاهلين من دمشق الى الغوطة لمفاوضة قادة الثورة فيها في شؤون حي الميدان . وفي نهاية الاجتماع اقترح فوزي القاوقجي ان تقوم العصابات كلها في ليل الخامس والعشرين من شباط ، بحركة موحدة تشعر الفرنسيين بارتباط عصابات الغوطة بنظام واحد ، وهي ان تدخل كل عصابة الحي الذي تنتمي اليه في دمشق ، إذا امكن دخوله ، وان تتولى مناوشة الحصون القائمة فيه ، دفعة واحدة ، وفي وقت واحد . وحدد القاوقجي الساعة التي تبدأ فيها الحركة ، والساعة التي تنتهي فيها ، ووزع أحياء دمشق على العصابات ، فتولت عصابة الميدان وعصابة القاوقجي مناوشة الحصون الفرنسية في حي الميدان ، وعصابة الشاغور حصون حي الشاغور والباب الشرقي ، وعصابة العمارة حصون العمارة ومسجد الاقصاب ، وعصابة أبناء عكاش حي المهاجرين ، وعصابة الاكراد حصون الصالحية ، وعصابة داريا ثكنة الحميدية (الجامعة السورية حالياً) وحصون حي القنوات وقبر عاتكة ، وتوجه سعيد العاص إلى داريا لتنظيم عصابتها وتوزيعها على المواقع . وكنت مع فوزي القاوقجي وعصابة حي الميدان . وفي الساعة الخامسة بعد الغروب ، وهي الساعة الغروبية المحددة للحركة ، كانت دمشق كلها تستيقظ على أزيز الرصاص ، وتفجر الرمات اليدوية ، وقذائف مدافع الهاون من جميع الحصون التي اقامها الفرنسيون في دمشق وحولها . وظن الفرنسيون ان هناك خطة لاحتلال دمشق ، فهبوا مذعورين يدافعون بضراوة عن مواقعهم ، واشتركت المدفعية الفرنسية في بعض المواقع بالقصف . وبعد ساعة كاملة توقف الثائرون دفعة واحدة عن مناوشة الحصون ، وانسحبوا الى قواعدهم في الغوطة . وقد استشهد بيننا ثائر من عصابة حي الميدان ، بقذيفة من مدفع الهاون ، اطلقت عليه من حصن « باب المصلى » الذي استطاع القاوقجي ان يقذفه برمات اطلقها من بندقية فرنسية ، اصابت الهدف ، وسقطت على اكياس الرمل ، ووقعت خسائر بالجنود .



المجاهدون يتدربون على الرمي

وقد شغلت الحركة الموحدة القيادة الفرنسية في دمشق ، واصلتها . وكانت على علم بوصول فوزي القاوقجي الى الغوطة ، وعلى علم ، من شبكات تجسسها ، بمساعيه لتوحيد قيادة الثورة في الغوطة ، فقررت القيام بحركة استطلاعية لكشف قوة الثائرين ، ومبالغ تنظيمهم الجديد في الغوطة ، لذلك زحفت يوم السبت في السابع والعشرين من شهر شباط بحملة اكثرها من المتطوعة في كوكبات الشر كس والحرس السيار . وكنت ساعتئذ مع فوزي القاوقجي و ابراهيم صديقي وبعض خيالة الدروز في بساتين قرية ببيلا ، نرعى جبادنا ، وسائر رفاقنا من الثائرين في القرية ،

وإذا بالرصاص يتر من فوق رؤوسنا ، فأسرعنا الى جبادنا نبعدها الى قرية «قبرالست» ، وتقدمنا الى البساتين التي ينطلق منها الرصاص ، ولحق بنا من كان في القرية من الثائرين الميدانيين ، فوجدنا الجنود متحصنين وراء جدران البساتين (الدكوك) وفي معاقلها ، فصدمناهم صدمة شديدة ، وهاجمناهم في مواقعهم ، ودامت المعركة اكثر من ساعة ، اخذ الجنود ، بعدها ، يتقهقرون نحو دمشق ، وحي الميدان منها ، تذود عنهم الدبابات ، بينما أخذت النجديات تصل الى أرض المعركة من العصابات القريبة ، فالبعيدة ، حسب العهد الذي قطعه رؤساء العصابات على

انفسهم . ولما بلغنا بستان « البنجكية » القريبة من المدينة ، اخذت مدفعية قلاع المزة ، و « بريه العظام » ، و « الباب الشرقي » تقصفنا بشدة ، فلم يثن ذلك من عزيمه المجاهدين ، واقتحمنا مواقع العدو تحت وابل من قذائف المدفعية ، حتى اصبحتنا على مسافة امتار ، لا يفصلنا عن العدو غير فسحة بستان ، او عرض طريق بين البساتين ، بينما تقدم عدد من عصابة الميدان ، ودخلوا الحي — حي الميدان — قبل ان يصل اليه الجنود في تراجعهم المنظم ، وتحصن المجاهدون في الازقة وخرائب الحي ، وفوق الاسطحة ، فاصبح العدو بين نارين ، وحمي وطيس المعركة في شوارع حي الميدان وازقتها ، واستمرت الى بعد العصر ، ولولا الدبابات التي كانت تحمي الجنود من هجمات المجاهدين ، وقد تزايد عدد هؤلاء من النجيدات التي وصلت اليهم ، لما نجا الجنود ، ولانقلبت المعركة الى مذبحه . ولما بلغ الجند حصونهم الثابتة اخذت تصد عنهم جموع الثائرين الذين ظلوا يلاحقونهم الى قرب الغروب . وقد بات مجاهدو الميدان في منازلهم تلك الليلة ، وعدنا نحن الى قرية بديلا . ولم تتجاوز خسائر المجاهدين في هذه المعركة شهيدين وبضعة جرحى . أما خسائر العدو فلا تقل عن خمسين قتيلاً عدا الجرحى .

فرنسا تفاوض الثائرين بصورة غير مباشرة

- ٦٥ -

دعي زعماء العصابات الى اجتماع عام في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط ، يعقد في موقع الزور ، على مقربة من جسر الغيضة ، فتوافدوا الى المكان مستصحبين معهم معظم رجال عصاباتهم . وقيل في اسباب الدعوة ان وفداً من حي الميدان في دمشق استأذن السلطة الفرنسية في مفاوضة قادة الثورة في الغوطة ، ومطالبتهم بالكف عن دخول الحي ، تجنيباً لأهله من المآسي والفظائع التي ترتكب بسبب

القتال في شوارعه وأزقته . وقبل الظهر وصل الوفد في سيارتين ، مؤلف من اربعة وجهاء من حي الميدان ، يرافقهم انور البكري ، يحملون معهم كمية من الحلويات هدية للمجاهدين الذين استقبلوا الوفد بالاهازيج والحماسة وإطلاق الرصاص في الفضاء . وكان عددهم يزيد على الألفين . وبعد الاستقبال خلا الوفد برؤساء العصابات والضباط ، وبحث معهم أمر اعتبار حي الميدان منطقة حياد لا يدخلها الثوار ، فتقوم الحكومة بتأسيس مخافر للشرطة ، وتسير شركة الجر والتنوير حافلاتها الكهربائية فيه ، وبذلك يعود السكان النازحون الى منازلهم وحيهم ، ولكن الثائرين رفضوا ان يعاد فتح مخافر للشرطة في حي الميدان ، وتسير الحافلات في شارع العام ، وقبلوا بأن يبقى الحي منطقة محايدة لا يدخلها الثائرون ولا الفرنسيون ، إلا في حال قيام احد الجانبين بالزحف على مواقع الجانب الثاني . أي ان المجاهدين قبلوا بعدم دخول الحي ، على ان يتمتع الفرنسيون عن احتلاله ، واقامة تحكيمات وحصون لجيشهم فيه . وقد سأل بعض أعضاء الوفد عن الأسس التي يمكن التفاهم عليها لعقد صلح بين الفريقين ، فأجيبوا بأن الثائرين في الغوطة لا يقبلون أي مفاوضة مع فرنسا حول هذا الموضوع ، لأنه من اختصاص القيادة العليا للثورة ، ومقرها جبل الدروز . وهذه القيادة كانت اعلنت اكثر من مرة مطالبها على صفحات الجرائد ، كما ان الوفد الذي ارسلته فرنسا في شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ الى الجبل اطلع على مطالب الشعب السوري ، ويمكن للسلطة الفرنسية ، فيما اذا كانت تود السلام ان تفاوض القيادة العليا للثورة في الجبل ، دون سواها ، ثم غادرنا الوفد عائداً الى دمشق .

حملة ماسيت تباغت ثم تستنجد !

زحفت مع فجر الثالث من شهر آذار عام ١٩٢٦ حملة افرنسية من دمشق إلى الغوطة بطريق دوما ، يقدر عددها ببضعة آلاف من الجنود ، بينهم كوكبات المتطوعة بانواعها ، يحميها اكثر من عشرين دبابة ، ومدفعية ثقيلة بقيادة الكولونيل

« ماسيت » ، وبلغت مشارف قرية عربين دون ان يعترض سبيلها معترض ،
الا ان نبأ زحفها بلغ بعض الثائرين فالتحموا معها في معركة قرب عربين ،
واخذت اصوات النار تجر جموع الثائرين القريبة الى ساحة القتال ، ولكن
البعيدون لم يدركوها ، إلا ان عصابة دوما وحريستا وعصابة العمارة استبسلتا في



قادة الاحتلال يراقبون حركات المجاهدين في احد الميادين

قتال الحملة حتى بلغت دوما وتحصنت في بساطينها . وقد ادر كنا آخر المعركة في
أطراف قرية « مذيرة » ، ورابطنا على طريق دوما حذر عودة الحملة في نفس
اليوم الى دمشق . وكانت خسائر المجاهدين في هذه المعركة كبيرة ، إذ استشهد
سبعة منهم ، وجرح حوالي الخمسين ، مما لم يسبق له مثيل في معارك الغوطة .
ويعزى السبب الى كثرة الدبابات التي ترافق الحملة ، والى عامل المباغتة ، فقد
كان المجاهدون يخبرون بزحف الحملة ، في اكثر الاحيان ، قبل حركتها ، او
يعترض سبيلها عند الزحف مجاهدو القرى القريبة من دمشق كجوبر والقابون ،
فيعرف سائر الثائرين طريقها ووجهتها ، ويستعدون لها ، ويكنون ، ويتحصنون

وراء المواقع ، وينازلونها . على ان خسائر الحملة كانت كثيرة لا تقل عن مئة قتيل وجريح . وصلت الحملة الى دوما ، ولكن جموع الثائرين توافدت ، على أصوات الرصاص والمدافع ، من جميع انحاء الغوطة . واكثرها لم يكتب له نصيب الاشتراك في المعركة . لذلك قضى الثائرون ليلتهم في القرى القريبة من طريق دوما - دمشق ، يترقبون عودة الحملة ، ولكنها لم ترجع في اليوم الثاني ، وبلغنا أنها ألغت مخفر « اوتايا » ، ومونت مخفر دوما . ولما علم قائدها بكثرة عدد المجاهدين المتربصين والمرابطين على طريق حملته ، طلب من القيادة في دمشق ان تنجده بحملة ثانية تزحف من دمشق ، وتستقبل حملته ، وتساعد لها ، وتشق لها الطريق الى دمشق ، فأوفدنا جماعة من عصابة ديب الشيخ (العماره) الى جوبر للتعاون مع مجاهديها على صد الحملة الثانية في حال زحفها من دمشق . وفي الليل طلب الكولونيل « ماسيت » وجهاء دوما ، وابلغهم ان يتهيأ اهل دوما كلهم للسير غداً مع الحملة الى دمشق . وكان غرضه ان يشل هجمات المجاهدين بارغام الاهلين على السير مع الحملة ، وتعريضهم لرصاص المجاهدين . ولما سمع الاهلون من وجهائهم طلب قائد الحملة ، فر اكثر رجالهم تحت جنح الليل الى القرى المجاورة .

كان الثائرون في فجر الخامس من آذار يرابطون شرقي طريق دوما - دمشق ، ويهددون جناح الحملة الأيسر من قرية مسرابا حتى ابواب دمشق . ورابطت عصابة ابناء عكاش مع مسلحي قريتي القابون وبرزة غربي الطريق يهددون جناح الحملة الايمن من قرية « حرستا » الى ابواب دمشق . وكان على رأس الجناح الأيمن لخط المجاهدين شرقي الطريق عصابة دوما وحرستا ، تحصنتا في قناة ماء تمتد من قرية « مسرابا » حتى جنوبي قرية « مديرة » . وكنا مع فوزي القاوقجي وعصابته بجانب عصابة دوما وحرستا نتحصن في القناة نفسها الى عربين ، والى يسارنا عصابة الميزان فعصابة العماره فمسلحو الغوطة من مختلف القرى ، ومعهم حوالي مئة مسلح من قرية الرحيبة في قضاء جبرود

جاءوا لأول مرة نجدة لمجاهدي الغوطة ، وامتد خطهم حتى بساتين جوبر ، والى يسارهم عصابة جوبر ، ومعهم سعيد العاص وخير الدين اللبابيدي وعصابة الشاغور وغيرهم من المجاهدين المتمركزين حتى ابواب دمشق . ولما بدأ زحف الحملة من دوما ، واخذت تتقدم على الطريق ، لم نطلق عليها الرصاص حتى توسطت القناة التي نكمن فيها على رأس الجناح الايمن من الخط ، وفجأة بدأت المعركة ، وأغار الفرسان الصباحيون على خطنا غارة مريعة ليحملونا على الانسحاب ، ولكننا هزمناهم برصاصنا ، وأقبلت الدبابات تمطرنا بنار مدافعها ورشاشاتها ، وتتقدم نحو القناة لترغمنا على الخروج من معقلنا ، وضعضت ، في اول الامر ، الايسر من جناح الدروز الذين معنا ، وقتلت اثنين ، وجرحت ثلاثة ، ولكننا استطعنا برصاصنا ان نوقف تقدم الجنود وراء الدبابات ، وصد الخيالة الصباحيين مرة ثانية ، وثبتت اقدام إخواننا الدروز . وتبادلنا مع جنود الحملة الرمانات التي تقذفها البنادق ، ولم نزعزع من معقلنا حتى مرت الحملة تحت وابل من رصاص بنادقنا ، وتجاوزت مواقعنا ، واحتدمت المعركة عند طاحون « عربين » ، وحاولنا ان نقتفي اثر الحملة ، وننازل مؤخرتها ، ولكن صفاً من الدبابات كان يحميها ، الى جانب قصف شديد من المدفعية ، وسبع طائرات كانت تمطر المجاهدين بقنابلها ، وتطلق شاراتها لتهدي المدفعية الى مواقعهم ، وتساقط عدد من قذائف المدفعية على حافة القناة التي تحصننا فيها ، وتساقطت قذائف المدفعية ايضاً امام مقدمة الحملة التي تشق لها الطريق . ولما حمي وطيس المعركة زحفت الحملة الثانية من دمشق لانقاذ حملة « ماسيت » ، واستقبلها مجاهدو جوبر والعمارة ومن معهم ، واستمرت المعركة حتى التقت الحملتان في منتصف المسافة بين دمشق وحريستا ، وكان يوماً مشهوداً من ايام الغوطة ، لم يتوقف فيه قصف المدفعية النهار كله ، ولم تبلغ الحملتان دمشق إلا قرب العصر ، مع ان المسافة بين دمشق ودوما اربعة عشر كيلومتراً يجتازها المرء على الاقدام بساعتين ، او ثلاث اذا تمهل في السير ، فقد اجتازتها حملة « ماسيت » في اثنتي عشرة ساعة قضتها في عراك ضار مستمر ، تسير تحت رصاص المجاهدين المتمكنين

في معاقبتهم ، يتصيدون جنودها ، ويجندلونهم ، فترفع الدبابات الجثث القريبة من خط المجاهدين . وقد استشهد من المجاهدين في هذه المعركة عشرة ، وجرح بضعة عشر . أما خسائر الحملة الفرنسية فتقدر بأربعمئة قتيل وجريح ، عدا الخيل التي كانت جثثها مبعثرة على طول الطريق . وقد عرفنا ان الغرض من توجيه هذه الحملة هو الغاء مخفر « اوتايا » ، بعد مخفر « حوش خرابو » ، وبذلك لم يبق للفرنسيين في الغوطة غير مخفري دوما ، وشبعا ، وتوقعنا الغاءهما في المستقبل ، فقد ارغمت كثرة المجاهدين واستقرارهم في الغوطة القيادة الفرنسية على الالغاء بالتدريج ، لأن بقاءها يحتاج الى تموين مستمر ، وكل عملية تموين لاحد المخافر ، كانت تكلف القيادة الفرنسية حملة تزحف من دمشق ، وتعود اليها تحت نيران المجاهدين الذين اصبحوا كثرة ، بعد ان كانوا يعدون بالعشرات والمئات ، اكثرهم من الدروز الذين يتنقلون بين قراهم والغوطة ، ولا يثبتون طويلاً ، حتى يحنوا الى العودة الى اهلهم ومنازلهم .

الفرنسيون يعترفون بحصار دمشق

- ٦٦ -

وصل الى الغوطة يوم زحف حملة « ماسيت » من دمشق ، خالد النفوري قادماً اليها من النبك ، واخبر فوزي القاوقجي وسعيد العاص بأن حال منطقة قلمون ساءت جداً ، حتى بلغت درجة الانحلال ، وان جميع الاهلين ينتظرون وصول قوة خارجية من الثائرين تصلح الوضع ، وتنقذ المنطقة من ان تقع لقمة سائغة بيد الفرنسيين . ومع معرفتنا ان النفوري كان من أكبر أسباب انهيار الوضع في قلمون ، عقدنا ، بعد انتهاء معركة دوما ، اجتماعاً قررنا فيه ان يتوجه فوزي القاوقجي بالقئة القليلة التي معه من الدروز ، وسعيد العاص ومن رافقه من الشباب والضباط الى قلمون في محاولة جديدة لإصلاح الوضع . وقد جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق نبذة عن الغوطة نرى ان ثبتها هنا بمناسبة

المساعي التي بذلناها من أجل التنظيم ، فيما يلي :

« الغوطة منذ تشرين الثاني ١٩٢٥ معتصم للثوار . ودمشق في شبه حصار . وهي بقعة مستطيلة يبلغ طولها عشرين ميلاً ، وعرضها خمسة عشر ميلاً ، كانت في ربيع ١٩٢٦ فيها ألف من الثوار مرتبطين بقيادة ماهرة ، ويسودهم نظام جدير بالاعجاب . ويشد سكان القرى آزرهم ، ويجعلون منهم خمسة آلاف محارب في الواقع ، وهم منوطون بحكومة ثورية تتقاضى الضرائب ، وتفرض الغرامات ، وتتولى القضاء ، ولهم محكمة ذات قضاء سريع على من خان أو عصى . وقد انتظموا عسكرياً مقابل دمشق على وجه أتم ، فقطعوا السبل والطرق الهامة ، وجعلوها في حال يتعذر معها مرور الآليات ، وخبروا الجسور ، وظمروا الألغام المضادة للدبابات في مهاوي الأرض ومنعرجاتها ، وأقاموا عند تخوم القرى جدراناً ذات فوهات ومنافذ . وكان لديهم شبكة تلفونية مستوفاة الشروط . هذا عدا ان فلسطين كانت تنفحهم بالامداد من ذهب وسلاح وذخيرة . أما أسباب المعيشة فكانت موفورة في اماكنها . ويظهر من هذه الفقرة ما ألقت الغوطة في روع الفرنسيين من قوة ثورتها ، بسبب الممارك الضارية التي خاضها المجاهدون ضد حملاتهم . مع ان الواقع غير ما قدره الفرنسيون ، فليس للعصابات الشائنة في الغوطة قيادة حتى تكون ماهرة ، ولا حكومة ثورية تتقاضى الضرائب ، وتفرض الغرامات ، بل كل ما فرض من غرامات ، وجبي من أموال كان عملاً فردياً ذهب الى جيوب رؤساء العصابات ، وليس للثورة محكمة ، إلا للفترة التي التحق فيها عدد من الشبان المثقفين بثورة الغوطة ، فأقاموا محكمة أصدرت بعض الاحكام السريعة على الجواسيس والخنونة الذين قبض عليهم متلبسين بجرائمهم . ولم يعرف المجاهدون صنع الألغام ضد الدبابات ، ولم يكن لديهم شبكة تلفونية ، ولم تكن فلسطين (بريطانية) تنفحهم بأي امداد من ذهب وسلاح وذخيرة ،

بل كانت على العكس تقبض على زعمائهم ، وتسلمهم للسلطة الفرنسية
تتكلم بهم ، كما فعلت بجميل مردم ، وحاولت ان تفعله بالذكور
الشهبندر ، وتصادر منهم السلاح ، حتى انها صادرت في مخفر المفرق ،
على طريق عمان - جبل الدروز ، من يوسف العيسمي رسول سلطان
الاطرش ربطة من الفتيل يستخدم في التفجير ، استطاع ان يحصل عليها ،
ويشتريها من متعهدي قطع الحجارة في عمان ، ولم تسمح السلطة البريطانية
بوصولها الى جبل الدروز حتى لا تستخدم ضد حليفتها فرنسا . ولولا
الاسلحة التي غنمها المجاهدون من الفرنسيين أنفسهم ، لما كان في الثورة
غير الاسلحة القديمة من بنادق تركية والمانيّة وانكليزية هي من مخلفات
الحرب العالمية الاولى ، معظمها ، عسكرياً ، غير صالح للاستعمال .
ولكن ما غنمه الثائرون من الجيش الفرنسي ، وخاصة منه في مذبحه
جيش الجنرال ميشو ، غذى الثورة بأسلحة وعتاد لا تَنْضِب . ولو كان
الدروز الذين غنموا في معركة ميشو تلك الاسلحة متقدمين في العلم
والثقافة ، لكان لديهم اسلحة فتاكة يستطيعون استخدامها في حربهم
مع فرنسا ، كالمدافع والمدرعات والرشاشات التي غنموها ولم ينتفعوا بها ،
بل عطلوا ، المدافع وحطموا آلاتها ، وفككوا قذائفها ، وباعوها نحاساً ،
واحرقوا بارودها وقوداً ، وجعلوا من الرشاشات منساند لابواب الزرائب
والاصطبلات في دورهم ، ولم يفيدوا من كل الاسلحة إلا من البنادق ،
وعتادها ، فقد ظل سعر الخمسين بندقية من النوع الفرنسي بريال واحد
كل مدة الثورة ، بينما الريال لا يشتري أكثر من عشر بندقيات تركية
أو المانيّة أو انكليزية ، وسعر هذه الانواع كان دوماً بارتفاع مطرد .

الفصل الحادي عشر

التآمر على خطتنا في قلمون

- ٦٧ -

أدركنا عقم الانتظار من القيادة ان تصلح منطقة قلمون ، كما أدركنا عقم الانتظار لتجميع الدروز في الغوطة والسير بهم الى قلمون كقوة يعتمد عليها في تنظيم تلك المنطقة ، ولم يبق أمامنا إلا ان نعتد على أنفسنا ، مرة ثانية ، ونبادر لنجدة قلمون ، فالغوطة بعد ان أصبحت بيد الثائرين من أهلها ، لم يبق للدروز فيها مجال ، وجاءنا من قلمون نذير يندرنا بما آلت اليه الحال من سوء هناك . كما جاءتنا الانباء من الجبل ان سلطان الاطرش سار في العشر الاخير من شهر شباط ١٩٢٦ الى اللجاة بمجموع الدروز ، واحتلها بعد مقاومة بسيطة خسر الدروز فيها خمسة شهداء ، وبضعة جرحى ، وساعدهم على احتلالها استخدام مدفعين أصلحهما صديقنا عبد الكريم المدفعي ، واربعة رشاشات ثقيلة استخدمها الضابط سعيد اليماني ورفقاؤه من الضباط السوريين ضد البدو سكان اللجاة ، وبذلك اطمأن الدروز على أنفسهم ومواشيهم ، وهدأ بالهم ، ونامت القيادة العامة على الظفر ، فلم تفكر في ايفاد قوة رادعة لإصلاح الغوطة وقلمون . ولم نجد أمامنا غير وسيلة

واحدة، هي ان نفيد من وجود قوة درزية مسلحة لا يتجاوز عدد افرادها المئة على رأسها اكثر من عشرة زعماء، كانوا رضوا ان يصاحبوا فوزي القاوقجي الى الغوطة، يمكن ان تصبح نواة لقوة تنظم المنطقة، فأخذنا مع القاوقجي نقنع هؤلاء الزعماء بالسير معنا الى النبك، حتى لان جانبهم، ورضوا بأن يبتعدوا ثمانين كيلومتراً آخر عن جبلهم، ثم رسمنا خطة لانفسنا، بأن نستعين بقوة الدروز هذه لمحل كل قرية نمر بها في قضاء جيرود على ان ترسل معنا مسلحيها إلى قلمون، وان نفيد من مسلحي الجورة التي عطل عمل الثورة فيها مترع اسمها سليم آغا الجيرودي، مماليء للإفرنسيين، وله مصالح وعقارات في المنطقة.



ضابط في الثورة السورية
يقرأ تقريراً وصل اليه

غادرنا الغوطة في اليوم السادس من شهر آذار عام ١٩٢٦ الى قرية « حوش الريحان »، وقضينا ليلتنا ضيوفاً على ابي علي كركوش الكردي الشهير بوجاهته وكرمه بين قومه. وفي الليل زار ابو عمر ديبو الكردي رئيس عصابة حرستا أبا علي هذا في منزله، فوجدنا الفرصة سانحة لاقتناع ابي عمر بالسير مع عصابته معنا إلى قلمون، ولكنه اعتذر بأن افراد عصابته من حرستا ودوما لم يألفوا الابتعاد عن منازلهم وعائلاتهم، فهم ثائرون في ارضهم التي خبروها، يصعب عليهم الابتعاد عنها، ثم الحرب في أراض مكشوفة غير مشجرة، ولكن خالد النفوري الذي انتظر في الغوطة حتى رافقنا، اختلى بأبي عمر ديبو هنية بحثاً فيها، على ما يظهر، النفع الذي يصيب أبا عمر ديبو من السير بعصابته

الى قلمون ، وحدثه النفوري حديث البلدين المستعصين على الثورة في المنطقة :
دير عطية ويبرود ، بل حدثه حديث غنائها ، ومناه بما يمكن ان يفرض عليها
من غرامة لتمردهما على الثورة ، وما يمكن ان يصيبه من تلك الغنيمة ، على ان
يبقى ذلك سراً بينهما . وخرجنا من الخلوة ليعلنا لئلا قبول ابي عمر ديبو
بمرافقتنا مع عصابته الى النبك ، واتفق على ان يتوجه هو بطريق قرية « ضمير » ،
ونسير نحن بطريق قرية القطيفة ، وملتقي بقرية « الرحبة » أو جيروود في
طريقنا الى النبك . وقد سررنا بالاتفاق ، وحمدنا الظروف التي جمعتنا بأبي عمر
ديبو ، ولم ندر أن فشل حركتنا تقرر بين الاثنين في تلك الليلة ، وفي ذاك
اللقاء !..

سرنا في صباح اليوم السابع من آذار إلى قرية « عدرا » ، وبعد الغداء تابعنا
طريقنا الى القطيفة ، والتقينا في الطريق بمسلحي الرحبة عائدین الى قريتهم ،
بعد أن اشتراكوا في معركة دوما الأخيرة ، فاتفقنا مع رئيسهم على أن يسبقنا
إلى الرحبة ليجهز كل مسلحيها ويهيئهم لمرافقتنا الى النبك ، والتقينا أيضاً
بسيارة قادمة من النبك فيها زميلنا الشاثر فؤاد رسلان ، وعادل الحامدي من أنسباء
فوزي القاوقجي في طرابلس ، قدم الأخير النبك ليطمئن على سلامة بن خالته
فوزي . ولما استبطأ وصوله الى النبك ، وقيل له أنه في القطيفة استأجر مع
فؤاد رسلان سيارة ، وتجاوز القطيفة ، حتى تلاقينا في الطريق . وقد عرفنا منها أن
منطقة قلمون فوضى ، استفحل الشقاق والخلاف بين زعمائها ، مما حمل أكثرهم
على الاتصال بالفرنسيين ، وتقديم ولائهم لهم ، وان هؤلاء الزعماء على اتصال
دائم بالفرنسيين في حمص ، يشيرون بين الأهلين قرب زحف الفرنسيين بحملة كبيرة
الى النبك لإعادة نفوذ الدولة الى المنطقة . ولما كنا مصممين على العودة الى النبك
أرفقنا معهما زميلنا ابراهيم صديقي ، انقاداً له من مشاق السير على قدميه معنا الى
النبك ، وليزفوا للأهلين بشري قدوم حملة وطنية كبرى بقيادة القاوقجي
والعاص ، وان يكتبوا جميع قرى قلمون لتوفد مسلحيها الى النبك مركز تحشيد

قوى الثورة للزحف الى الشمال . ولما بلغنا بلدة القطيفة دخلناها بين أهازيج اخواننا الدروز الحماسية ، ولعلعة الرصاص في الهواء ، لنشد من عزائم أهلها المناوئين للثورة ، فقد كنا في رحلتنا الاولى الى قلمون ، خبرناهم ، وعرفنا دخيلة نفوس زعمائهم . قضينا الليل ، ونهار الثامن من آذار في اقناع وجهاء القطيفة وشيوخها بارسال مسلحي بلدتهم معنا الى قلمون ، ولكنهم تعللوا بشق الأعدار ، وبخوفهم من أن يهاجم خلف النعير قريتهم ، وينهب مواشيهم وأثاث منازلهم ، فيما إذا أخلوا القرية من المسلحين . وكنا نظهر لهم اللين تارة ، والشدة تارة أخرى ، وهم يراوغون كالثعالب ، ويخشون نقض العهد بينهم وبين قرى الجورة (قضاء جيروود) ، ومنه الانصياع لأمر سليم الجيروودي ، والعمل بمشورته في كل ما يتعلق بأمر الثورة . وأخيراً اضطروا الى ايفاد ثلاثين مسلحاً منهم ، معنا الى قلمون ، واعفاء الباقين للحفاظ على القرية . وبعد انفراج الازمة انتقلنا في المساء الى قرية المعصمية ، وشيخها اسماعيل ابو الريش معروف بدهائه ، واتصاله سرّاً بالافرنسيين ، وجرى لنا معه مثلما جرى مع وجهاء القطيفة ، فانضم الينا بضعة عشر مسلحاً من أهلها ، باعتبارها قرية أصغر من القطيفة . ولم نر ضرورة للانتقال الى الرحيبة ، فقد بلغنا وصول أبي عمر ديبو بعصابته الى ضمير ، فتركنا له أمر الرحيبة ، وانتقلنا في اليوم التاسع من آذار الى بلدة « جيروود » ، لأننا نعرف انها عقدة العقد بالنسبة لمشروع تجنيد قرى الجورة في حملة قلمون الوطنية ، فقد استطاع وجيهاها سليم الجيروودي أن يحول دون اشتراك قرى المنطقة كلها بالثورة ، وان تتظاهر بالحياد تارة ، وبالتمرّد تارة ، حسب الظروف ، متذرعة بحوادث النهب التي ارتكبها خلف النعير في المنطقة . وسليم الجيروودي شيخ ثري تجاوز السبعين ، أنهكت جسمه الخمر التي يعاقرها ليل نهار ، والدعارة التي لم يتخل عنها حتى في شيخوخته ، بنى لنفسه منزلاً خلويّاً منعزلاً عن البلدة اسمه « الصخرة » ، كي يعيش فيه حياته الخاصة بعيداً عن العيون . ولما وصلنا إلى جيروود بدأنا نستثير وطنية ابن عمه صفوت الجيروودي ، ووطنية الشبان المسلحين الذين هم في قرارة نفوسهم مع الثورة ، ولكنهم حسب تقاليد الريف لا يخرجون

على ارادة شيوخهم .

وصل أبو عمر ديبو وعصابته ومن استطاع حمله على السير معه من مسلحي القرى ، إلى جيروود في العاشر من شهر آذار ، فبلغ عدد حملته أكثر من خمسمئة مسلح ينتسبون الى دوما وحريستا وحي الأكراد في دمشق ومسلحي قرى المرج وضمير والرحيبة ، فابتهجنا باجتماع هذه القوة الكبرى بسهولة ما كنا لتصورها ، وأيقنا اننا سنوفق لجمع قوة من المسلحين تعد بالالوف في هذه المرة ، نستطيع بها أن ننفذ خططنا في الزحف الى الشمال ، وتهديد مواقع الفرنسيين ، وتوسيع شقة الثورة . وما علمنا أن حرص أبي عمر ديبو على تجميع القوى حوله ، لتكون له الكلمة العليا في قلمون ، عند اقتسام الغنائم بينه وبين خالد النفوري . وكنا ارسلنا الى جمعة سوسق واحمد سوسق كتاباً من القطيفة أعلمناهما فيه باتجاهنا ، وطلبنا منها موافقاتنا برجالهما في رنكوس وما جاورها من القرى الى النبك ، محاولين ان نفيد من كل القوى والامكانات في المنطقة لتنفيذ خططنا ، وهي الزحف الى الشمال .

كان صفوت الجيروودي صاحب كلمة في جيروود ، بعد سليم الجيروودي عميد العائلة ، وكان يتردد في امر السفر معنا لسببين ، الاول هو ألا يخرج على ارادة سليم الجيروودي ، والثاني ألا يخالف ارادة والده عطا الجيروودي الذي كان يضمن بولده ، ويخشى عليه أن يصاب في المعارك ، خاصة وهو ليس برجل حرب ، فتعهدنا لوالده بأن نكتفي بوصول ولده مع مسلحي جيروود الى النبك ، وان يبقى فيها ، كمقر خلفي للحملة ، عند زحفها للقتال في شمال سوريا ، واننا حريصون على ان نمحو عن جيروود وصمة تخلفها عن الثورة ، وانها هي السبب ايضاً في تخلف كل قرى المنطقة ، باعتبارها مركز قضاء جيروود .

واخيراً قطع صفوت الجيروودي العهد على نفسه بأن يوافينا برجاله في اليوم الثاني من وصولنا الى النبك ، ولم يبق لنا ما نعمله في جيروود ، لولا الامطار

الغزيرة التي كانت تهطل باستمرار ، ورداءة الطريق المختصر بين جيروود والنبك . وبينما كنا في حيرة عصر ذلك اليوم ، نتردد بين المسير والمبيت ، جاءنا رسول النبك يحمل اليانا نبأ تحشيد الفرنسيين حملة كبيرة في قرية « حسية » للزحف بها الى النبك ، فتوجهنا تحت وابل مدرار ، تغوص حوافر جيادنا بالوحول ،

والأقدام تغوص وتنزلق في الوحول والمياه التي كانت تغطي وجه الطريق فلا تبين معالمه . ولكننا عندما دنونا من الصخرة حيث منزل سليم الجيروودي ، غاصت قوائم فرس سعيد العاص في وحول الارض السبخة الهشة ، حتى البطن ، وتعبنا في انهاضها من حفرة الوحل ، واضطررنا ، ونحن بضعة فرسان ، لأن نلجأ الى بيت سليم الجيروودي لتنظيف سعيد العاص وفرسه من الوحل ، بينما تابعت جموعنا ، ومعها خالد النفوري وسائر إخواننا ، سيرها تحت المطر الى النبك ، بطريق قرية العطنة ، مجتازين بعدها عقبة في الجبال .

اما نحن فقد قررنا المبيت في ضيافة سليم الجيروودي ، لاستمرار هطول الامطار بغزارة ، ولضعف راحلة سعيد العاص ، وعجزها عن السير في الطريق الرديء ، على ان نلحق بإخواننا في الصباح الباكر . ولما اخذ الليل يرخي سدوله ، أقبل علينا سليم الجيرووي ، ورحب بفوزي القاوقجي وسعيد العاص وإخوانهما في منزله ، وسألنا : « وهل نشعل اللوكس؟ واللوكس في عرفنا مصباح يضاء بالبتروول والنفخ وضوؤه شديد ، فوافقنا ، ولكننا بعد سويعة دعينا الى غرفة المائدة ، وقد اعدت للشرب ، وعلى المائدة من مشهيات الشراب ما كدنا ننساه في حياة الثورة . قضينا ليلة ممتعة نسمع احاديث سليم الجيروودي عن مبادئه ، وقصص لياليه الحمراء مع البغايا ، اذ ليس ما يتحدث به هذا الشيخ السكير غير هذه القصص . تابعنا طريقنا في فجر الحادي عشر من آذار بمن تخلف معنا من خيالة الدروز ، والتقينا في الطريق بمتخلفين كثيرين ، فوصلنا الى النبك قبيل الظهر ، وفرح النبكيون بوصول هذا العدد الكبير من المسلحين الى بلدتهم ،

وقاموا بواجب الضيافة والاستقبال على أتم وجه . واطمأنوا الى ان في بلدتهم من
الثائرين ما يكفي للوقوف في وجه الحملة الفرنسية التي تحتشد في « حسية » ،
وصدها مهما كانت كبيرة .

بعد الظهر تلقينا من حسن أغا سويدان الوجيه في قرية « قارة » رسالة ينبئنا
فيها بأنه علم من مصدر ثقة ان الحملة الفرنسية ستزحف غداً الى قارة ، ويطلب
حضور الحملة الوطنية للدفاع عنها . وحسن سويدان ، كما نعلم ، على صلة بأبناء
عمه عبد المجيد وسعيد سويدان في حسية ، اخباره صادقة ، يريد من وراءها
إظهار ولائه للثورة ، وولاء أبناء عمومته سرّاً لها ، لذلك عقدنا بعد العشاء
اجتماعاً في منزل خالد النفوري حضره ، عدا صاحب الدار ، فوزي القاوقجي ،
وسعيد العاص ، وابو عمر ديبو ، وصفوت الجيرودي ، واحمد الملا ، وصادق
الداغستاني ، وبقية رفاقنا الضباط والمثقفين ، لوضع خطة للقاء الحملة وصدها
عن قارة ، وتوجيه قوتنا الى مواقع القتال في الليل . وكان يحز في نفوسنا ألا
يحضر جمعة سوسق واحمد سوسق ، ولا أحد من مسلحي القرى في منطقة قلمون
وجردها ، وعددهم ، حسب خبرتنا السابقة ، أكثر من ألف مسلح ، رغماً عن
أرسالنا الكتب والرسائل الى رفكوس ، وانقضاء خمسة ايام على ارسالها . وقد
علل خالد النفوري تأخرهم بكثرة تهطال الأمطار والثلوج في الجرد . وكان
لا بد لنا ان نبحث امر مقابلة الحملة بقوتنا الحاضرة .

نخطط للقتال ، والنفوري يخطط للنهب !

كان موقع الدفاع الطبيعي عن قارة في نظرنا الهضاب التي تتسلسل في موقع
« عيون العلق » على مسافة ستة كيلومترات شمالي « قارة » ، فاقترحنا ان
ننتقل بقواتنا هذه الليلة الى قارة ، وان نزحف في الصباح الباكر لنتخذ مواقعنا
على التلّول في موقع « عيون العلق » ، وزاد فوزي القاوقجي على خطتنا ، بان
يعهد إليه بقيادة الفرسان من قوتنا ، وعددهم حوالي ستمئة ، يسري بهم في الليل

متجاوزاً « عيون العلق » ، الى كمين يختاره في سلسلة الجبال الغربية ، فإذا ما اشتبك المشاة بما فيهم مسلحو النبك ، ويبلغ عدد المشاة نحو ألف مسلح - فإذا ما اشتبك المشاة مع الحملة الفرنسية في موقع عيون العلق ، وحمي وطيس المعركة ، خرج القاوقجي من مكمنه ، واغار بالفرسان على مؤخرة الحملة وثقلها ، وساعد على ان يصبح العدو بين نارين لسحقه وهزيمته ، ولكن خالد النفوري عارض خطتنا منذ البدء ، مقترحاً السير الى « دير عطية » البلدة المتمردة على زعامته ، كي لا تهدد بمسلحيها قوتنا من الحلف ، ثم السير من دير عطية الى عيون العلق ، ومقاومة الحملة الفرنسية في هضابها ، فرفضنا اقتراحه لأنه يشغل الثائرين باحتلال قرية محاصرة ، تخشى هجوم الثائرين عليها ، قبل ان تفكر هي بالخروج والاعتداء عليهم ، وسيجر احتلال القرية المتمردة الى النهب الذي بعثر من قبل عدة حملات وطنية ، اذ يترك المسلحون القتال ، ويعودون بالاسلاب الى قراهم ، فتفشل حركتهم ، وتذهب ريحهم ، وقلنا ان الحملة قد تزحف في الصباح الباكر ، وتصل الى هضاب عيون العلق وتحتلها ونحن مشغولون عنها بالهجوم على قرية « دير عطية » ، وليس ما يدعونا الى التعرش بدير عطية ، ما دامت ليست على طريقنا ، فطريق السيارات ، وهي طريق حلب - دمشق تمر بقارة الى النبك مباشرة ، بعيداً عن قرية « دير عطية » . وطال بيننا الجدل ، وتظاهر النفوري اخيراً بأنه صرف النظر في خطته عن احتلال « دير عطية » ، ولكنه زعم ان نبأ صار إليه من مصدر ثقة هو أن الفرنسيين عزموا على الزحف الى النبك بطريقين ، احدهما طريق صدد - دير عطية ، والثانية طريق عيون العلق - قارة ، واقترح ان ترابط نصف قوتنا في مواقع قريبة من دير عطية ، وبالأصح ، شمالها ، فقلنا له ان هذا غير منطقي ، وما دام للحملة آليات ومدفعية وثقل ، فإن من العسير عليها ، في الشتاء ، وفي فصل الأمطار ، أن تسلك طريقاً غير معبدة كطريق صدد - دير عطية - النبك ، كذلك لا يعقل ان يقسم الفرنسيون حملتهم الى شطرين ، لأن ذلك يضعفها ، في زحفها لاحتلال منطقة ثائرة عليها ، وأصر على رأيه ، واخيراً ، اقترح حلاً للمشكلة التي كادت تعطل عمل الحملة

الوطنية ، ان تنقسم قوتنا الى قسمين ، الأول المشاة ، وهؤلاء يتوجهون في منتصف الليل الى قارة فعيون العلق بقيادة القاوقجي والعاص ، والفرسان ، وهؤلاء يتوجهون بقيادته وقيادة ابي عمر ديبو ، وخبرة صادق الداغستاني العسكرية - وهو ضابط درك سابق - بطريق دير عطية ، ويتجاوزونها الى الشمال دون ان يتعرضوا للقرية ، ليرابطوا في التلوى الصالحة للقتال هناك ، فإن جاء جزء من الحملة الفرنسية بطريق صدد دير عطية قاتلوه ، وان زحفت الحملة كلها الى « عيون العلق » ، انتقلوا بجيادهم سريعاً الى نجدتنا . وقد تبين لنا اخيراً ان اصرار النفوري على سير الحملة الوطنية الى دير عطية ، هو لاكتساحها ، قبل كل شيء ، شفاء لا حقاذه على زعيمها مصطفى دعبول ، وبراً بالعهد الذي كان قطعه سراً في الغوطة لابي عمر ديبو ، من ان يمكنه من احتلال بلدي دير عطية ويبرود المتمردين ، ويقاسمه الغنائم مما سيفرض على اهلها من غرامة المال والسلاح جزاء ترمدهما عليه .

و كأنه يحشمه وقصر نظره كان يظن ان الفرنسيين لا يزحفون الى قلمون بعد ما وصلت اليهم انباء حشود الثائرين الكبيرة في النبك ، فقبلنا اخيراً هذا الاقتراح ، وطلبنا من زعماء المسلحين ان يبلغوا جماعتهم القرار ليكون المشاة متأهبين للسير في منتصف الليل ، وحذرنا خالد النفوري من عواقب التعرض لبلدة دير عطية قبل الخلاص من الحملة الفرنسية ، فوعدنا واكد وعده ، وكفله ابو عمر ديبو الذي كنا نقدر انه مثلنا ليس له مصلحة في غير قتال العدو ، وانه تكبد مشقة السفر من الغوطة الى قلمون مع مسلحيه من أجل هذا الهدف . لقد كنا نخطط لقتال العدو الاجنبي أما القرى المتمردة على الثورة ، فيمكن حل مشاكلها ، متى احرزنا نصراً مؤزراً على العدو ، ان لا تستطيع عندئذ أي قرية أو بلدة ، معها كانت قوية ، ان تتمرّد علينا ، ويمكن عندئذ معاملة اهلها باللين ، والاقناع أولاً ، فان لم يجد ذلك معها ، وشعرنا بخطرها على الثورة ، استخدمنا الشدة مع زعمائها الذين نعرف أنهم على صلة بفرنسة . وكنا دوماً ضد استخدام

القوة مباشرة ضد القرى المتمردة على الثورة ، لاننا كنا على علم بالاعمال السيئة ، بل بالجرائم التي ارتكبها المتزعمون ضد بعض القرى ، مما أدى الى فقرة أكثر القرويين في منطقتي الجورة وقلمون ، من الثورة ، واستغل ذلك عملاء ، فرنسة فاوصلوا قراهم الى التمرد والحصار ومقاومة وصول الثائرين اليها ، تحت ستار الدفاع عن حياتهم واموالهم .

توجهنا في الدقائق الاولى من اليوم الثاني عشر من شهر اذار الى ساحه الغفري في بلدة النبك ننتظر تجمع المشاة من قوتنا فيها حسب القرار المتخذ ، ومرت الساعات الباقية من الليل تباعاً ، ولم يصل الى الساحة ثلث المشاة المسلحين ، لأنهم نيام في المنازل التي توزعوا فيها بحكم الضيافة ، أذ من الصعب على الثائين ان يهبوا في منتصف الليل للسير الى قتال لم يتأكدوا من حتمية وقوعه ، فوصلت الى الساحة تباعاً القلة ، وتحلفت الاكثرية ، فاضطررنا لضيق الوقت ان نسير بهم ، وعددهم لا يتجاوز ثلاثمئة مسلح ، وبذلك افسحنا المجال لخالد النفوري وابي عمر ديبوان يسيرا بالفرسان وبمن تخلف من المشاة ، وفيهم زعماء الدروز ، وصفوت الجيرودي ، واحمد المنلا ، وسائر زعماء مسلحي القرى ، باعتبارهم فرساناً لحق بهم المشاة المتخلفون ، ولما أصبح يوم الثاني عشر من آذار عام ١٩٢٦ ، أحاطت الجموع التي أربى عددها على الف وثلاثمئة مسلح بقرية « دير عطية » ، وأنذر زعماءها القرية المحاصرة بالاستسلام ، وإلا هاجموا ، وأحرقوها ، وقتلوا كل من قاوم من أهلها ، فاستسلمت « دير عطية » ، بعد تأمينها على أرواح أهلها واموالهم ، ودخل الثائرون القرية الكبيرة التي لم تمتد إليها يد من قبل ، وقدمت لهم فيها المآكل الشهية ، وفتحت لهم حماماتها العامة ، ونام الظافرون على قرش وثيرة ، ينتظرون جمع الغرامة المفروضة عليها من سلاح ومال ، متناسين أنهم في حرب مع فرنسة ، وأن حملة العدو تحتشد على ابواب قلمون ، وان مصطفى دعبول صديق فرنسة على علم بموعد زحف الحملة الفرنسية ، لذلك استمهل زعماء الثائرين في جمع الغرامة إلى ما بعد الموعد المحدد لوصول الحملة الفرنسية الى قلمون .

نحن لا نقاتل إلا مع زعمائنا !

وصلنا في ضحى اليوم الثاني عشر من آذار الى موقع عيون العلق مع فوزي القاوقجي وسعيد العاص ، و ابراهيم صدقي ، وجميل العلواني ، وفؤاد رسلان ، وصالح الداغستاني ، وسعيد الترماني ، ونظير النشواتي من أبناء حمص ، وبقية الرفاق ، ورتبنا المشاة القلائل معنا على التل ، استعداداً للقاء الحملة ، منتظرين أن يلحق بنا سائر المشاة في النهار ، ولم نكن نعلم أنهم ساروا مع الفرسان خلفاً للقرار المتخذ ، والخططة المرسومة . ولما دنا الغروب ولم تصل الحملة الفرنسية ، عدنا الى « قارة » لنسمع من أهلها احاديث دخول الثائرين قرية « دير عطية » ، وما فرضوا عليها من غرامة السلاح والمال ، وما ينعم به المحتلون من طيب المقام ، وهناءة الضيافة ، والنوم على الفرش الوثيرة ، وأكل شهي الاطعمة ، فلم يلبث المشاة الذين كانوا معنا ان سلكوا طريق « دير عطية » ، فالجياة فيها خير من المراقبة في الهضاب دون طعام ، ثم خوض معركة ضارية مع جيش مجهز باحدث الاسلحة ! وكنا كلما رجونا احداً منهم ان يبقى معنا ، لأن الحملة الفرنسية قد تزحف غداً الى قارة ، قال : « ولماذا أبقي ؟ هل الحرب علينا والغنم لهم ؟ .. » ثم أدار ظهره ، وسلك الطريق الى دير عطية ، وربما قال بعضهم : نحن لا نقاتل ما لم يكن زعمائنا على رأسنا ! وزعمائنا في دير عطية ، ونحن ذاهبون إليهم ! . كان نصيبي مع ابراهيم صدقي أن نحل ضيفين على عائلة رقيقة الحال كثيرة العيال في قارة . وبعد العشاء ذهبنا معاً الى دار حسن سويدان حيث يحل القاوقجي والعاص ، وابلغناهما ان لم يبق في قارة غيرنا نحن الضباط والشبان المثقفين من دماشقة وحمصيين وحمويين ، مع شردمة من مسلحي قرية الرحيبة ، وعددنا كلنا لا يتجاوز الثلاثين مسلحاً ، وطلبنا منها ان يتوجهنا بنفسها الى « دير عطية » لاقتناع زعماء الثائرين فيها بالزحف ليلاً الى قارة ، فقد تواترت الاخبار من الشمال تؤكد ان الحملة الفرنسية ، وهي كبيرة ، ستزحف غداً الى قارة ، وحدة كاملة لا تنشطر ولا تتجزأ ، ومعها ست مدرعات ، ومدفعية

ثقيلة ، فاضطر العاص والقاقجي لان يتوجها ليلاً الى دير عطية ، لاطلاع زعماء
المسلحين على ان قارة خلت من المدافعين ، وان المشاة اصبحوا كلهم في دير عطية ،
وينذرا خالد النفوري و ابا عمر ديبو ومن معها بسوء العاقبة ، اذا لم يسرعوا
بقواتهم الى قارة قبل ان يحتلها الفرنسيون ، ويحتلوا معها الموقع الاستراتيجي
للدفاع عن النبك ، بل عن قلمون كله . وصل القائدان العسكريان ليلاً الى
دير عطية ، وقاما بالواجب ، ولكن الأذان كانت صماء عن سماع النذير ،
لأن المهلة لجمع السلاح والمال تنتهي في الغد ، ولا بد اذن من الانتظار حتى
تتملىء الجيوب بالدنانير التي دغدغت احلام النفوري و ابي عمر ديبو ومن لف
لنفها ، وتحمل كواهل جماعتها السلاح الذي يباع بألوف الدنانير الذهبية .

وقد علمنا ان شجاراً نشب بين سعيد العاص وخالد النفوري ، انسحب على
اثره سعيد العاص ، وعاد ليلاً الى قارة ، وظل فوزي القاقجي يحاول بمرونته
وبالمنطق إقناع هؤلاء الزعماء ، دون جدوى ، حتى إذا أصبح الصباح ،
ولم يجد منهم أي بادرة للحركة ، بادر الى جواده يسمى الى قارة . وكنا
تجمعنا باكرأ في ساحة القرية ننتظر عودته ، فلما أقبل أشار إلينا ، بالمسير فوراً
الى «عيون العلق» ، بعد ان طمأننا ، وأكد لنا ان أخواننا كلهم قادمون لنجدتنا ،
حتى يشد من عزائنا ، فقد حدثنا ، بعد المعركة أن أكثر هؤلاء المتزعمين كان
يكذب نبأ زحف الحملة في الغد الى قارة ، بل كان بعضهم يكذب نبأ حشد
الحملة في حسية من أساسه .

للوطن رجال نذروا انفسهم !

- ٦٨ -

سرتنا من قارة في صباح الثالث عشر من شهر آذار ١٩٢٦ ، مسرعين الى

- ٤٨٩ -

موقع « عيون العلق » ، ورافقنا إليها عدد من مسلحي قنطرة المكلفين قبل كل أحد بالدفاع عن قريتهم ، فلم يبلغ عددنا المئة مسلح . ولما شارفنا على التل فاجأتنا طائرة فرنسية تحلق منخفضة بقنابلها ، فتفرقنا ، وتوسدنا الأرض ، واطلقنا عليها نار بنادقنا ، حتى اخذت ترتفع ، وعادت من حيث أتت . وعندئذ وجهنا نحو خمسين مسلحاً الى أعلى تل يشرف على سهل « البرج » وطريق حمص ، يعرف بجبل الصوان ، وتحصن فوزي القاوقجي ، وسعيد العاص ، وفؤاد رسلان ، ونظير النشواتي ، ورفيقه حسين جراد من حمص ، وعشرة مسلحين عن اهل الرحيبة في تل شرقي طريق السيارات ، وتحصن بعض مسلحي قنطرة في تل وراءهم ، وتحصنت مع جميل العلواتي وثلاثة مسلحين آخرين في تل صغير غربي طريق السيارات ولكنّه قريب جداً منها ، أي أننا نحن الخمسة وقفنا في وجه قلب الحملة مباشرة ، وفي وجه آلياتها المدرعة ، على عكس التلين شرقي الطريق ، فإن مسافة لا بأس بها كانت تفصلهما عن الطريق العامة . وتحصن نحو عشرة مسلحين وراء جدار بستان صغير الى يسار التل الذي تحصننا فيه نحن الخمسة .

وكان الضابط ابراهيم صديقي اخبرنا ان بندقيته تعطلت اثناء التصويب الى الطائرة ، فعالجناها معاً ، وتبين لنا ان هناك كسراً في ابرتها ، لا بد له من اخصائي يصلحه ، وقررنا ان يذهب بها الى قرية « قنطرة » حيث يوجد من يصلحها ، ويستعين بفرسي التي قررت ابعادها الى قنطرة مع جوادي القاوقجي والعاص حتى لا تصيبها مدفعية العدو وطائراته ورشاشاته اثناء المعركة . فلما ادرك ابراهيم صديقي ألا مفر له من الذهاب الى قنطرة ، والابتعاد عنا ستة كيلو مترات ، ونحن قلة على أبواب معركة ضارية ، قال : « يعز علي فراقكم في مثل هذه الساعة العصيبة !.. » ، وترقرق الدمع في عينيه ، فكانت آخر كلمات سمعتها من هذا الصديق الشاب الوفي الذي انزلته من نفسي منزلة لم انزلها احداً غيره من رفاق السلاح ، لشهامته واخلاصه لوطنه ، وسعة علمه ، ووفائه لإخوانه ، وذكائه . وخفة روحه ، ولا أبالغ اذا قلت انه كان مثلاً حياً للشباب العربي ، وكأنه وهو يودعنا كان يخشى ان يفجع بأحد منا ، نحن أخوانه ورفاقه في

السلاح ، وهو يشعر بأننا على ابواب معركة غير متكافئة ، قلة تواجه جيشاً
افرنسياً يزحف بألوف جنوده لاحتلال منطقة قلمون . بينما هو ذاهب الى القرية ،
وراء خط القتال ، لاصلاح بندقيته ، وما درينا ان كلمته تلك ، كانت حساقبل
الوقوع ، ، اذ فجئنا ، نحن في ذلك اليوم بمصرعه ، في موقف بطولي ، لم يقفه
قبله أحد ، رحمه الله ، واحسن الى والديه اللذين نشأه أحسن تنشئة ، فقد كان
وحيدهما من الذكور . تسلم ابراهيم صديقي فرسي ، ورجوته ان يبقيا في قارة
بعيداً عن أرض المعركة ، إن عاد هو إلينا ، ورحنا نرقب الطريق الى حصص ،
واذا بالطائرة تعود ، تقصفنا بقنابلها ، وتنقض على مواقعنا برشاشاتها ، فتأكدنا
من ان الحملة الفرنسية في طريقها إلينا ، ولم يكذب حدسنا ، فقد رأينا بعد
حين ، مسلحين يفرون منحدرين بسرعة من جبل الصوان ، وهو ، أسمى مرتفع
يطل على طريق حصص ، لا يلوون على شيء وراءهم ، وغادروا أرض المعركة
دون ان يطلقوا رصاصة ، من بنادقهم ، فقد رنا ان الحملة الفرنسية في طريقها الى
احتلال هذا المرتفع المشرف ايضاً على مواقعنا ، وعجبنا كيف يفر هذا العدد
من المسلحين دون أي مقاومة ، ضارباً في السهل ، منحرفاً الى الشرق حتى
غاب عن انظارنا ، وظهرت طلائع الحملة على ذرى جبل الصوان ، ثم انحدرت
نحو مواقعنا ، وظل القائد الجنرال « ماري » واركان حربه في ذروة المرتفع
يواجهون المعركة ، واطل الفرسان الصباحيون يؤلفون الجناح الايمن من الحملة ،
منتشرين على نسق الحرب الى قرب سلسلة جبال قلمون الغربية ، وعددهم الوف ،
وأطل المشاة يؤلفون الجناح الأيسر منتشرين الى بعد أميال في السهل شرقي
جبل الصوان ، واطلت المدرعات الست من منحرج الطريق ، واصبحت على
بعد عشرات الامتار منا ، تفصل بين تلنا والتل الذي يتحصن فوقه القاوقجي
والعاص واخوانهما ، ووراءها زحف الجنود يتقدمون منتشرين
نحونا ، فاطلقنا عليهم نار بنادقنا ، وأوقفنا زحفهم ، ولكن المدرعات أمطرتنا
بوابل من مدافعها ورشاشاتها ، ثم اخذت المدفعية الثقيلة تقصف مواقعنا بشدة ،
ففر المسلحون من اهالي قارة والرحيبة ، وتخلوا عن الجدار الذي كانوا متحصنين

وراءه في البستان ، منسحبين من المعركة ، وفر معهم المسلحون المتحصنون في التل الشرقي وراء التل الذي يتحصن فيه القواقجي وإخوانه ، ورأينا رفيقنا سعيد الترماني وصالح الداغستاني يتدحرجان من جبل « المنطار » ، وراءنا تحت قصف المدفعية الشديد ، وقد استشهد معها ثائر وجرح آخر ، ولم يبق في جبهتنا صامداً غير تلنا الصغير ، ونحن فيه خمسة ، وغير التل الشرقي يدافع عنه القواقجي وإخوانه ، واخذ الفرسان الصباحيون يلتفون على جناحنا اليسر ، أي على تلنا الصغير ، واخذ المشاة يلتفون على جناحنا اليمين ، أي على التل الذي يتحصن فيه القواقجي والعاص وإخوانها ، والمدركات تضلي موقعنا بنيران حامية من مدافعها ورشاشاتها ، حتى أصبح من الصعب علينا تسديد نارنا إلى العدو في تل صغير مكشوف أصبح هدفاً لنار المدركات ونار جنود الحملة ، لم نستطع أن نحفر فيه ما يقينا النار المسلطة علينا . ولكن لا خيار لنا في الأمر ، فقد كان الانسحاب من التل مستحيلاً علينا تحت نار المدركات والجنود ، تحصد كل من تحدثه نفسه بالانسحاب ، ولا سيما وتلنا قرب طريق السيارات تصطف أمامه ست مدركات ، وتسلط عليه نار مدافعها ورشاشاتها .

استمر القتال ساعة ونصف الساعة ، وحمي وطيسه ، واستخدم القواقجي مسدسه في تهديد من يفكر بالانسحاب من التل الشرقي ، وأصبحنا نشعر برأسي الكهاشة يقتربان لينطبقا على التلين المدافعين . وكنا من تلنا الصغير نرى ونشهد دفاع القواقجي والعاص وإخوانها دفاع المستميت ، فهم كانوا اقصد منا على الحركة ، في تلهم الكبير البعيد مئات الأمتار عن الطريق ، وعن المدركات التي قذفها القواقجي من بندقيته بالرمانات ، فلم تصلها ، بل تقدمت رويداً رويداً نحو تلنا حتى أصبحت على بعد بضعة عشر متراً منه ، لا يثنى عنها عن اقتحام التل إلا توقف جنود قلب الحملة خوفاً من نيران بنادقنا في التلين . وفجأة ، وبدون توقع منا ، هبطت الغيوم التي كانت ، قبيل المعركة ، متقطعة بيضاء في السماء ، ثم التحمت ، حتى غطت السماء كله ، اثناء المعركة ، ثم هبطت ، وخلفت ضباباً

كثيفاً لا يستطيع المرء ان يرى ما امامه على بعد بضعة امتار منه ، و ساد سكون ..
إذ سكنت المدفعية ، وسكنت المدرعات ، وسكن إطلاق الرصاص ، وسنحت
الفرصة السماوية لمغادرة التل ، فاعزت لرفاقي بالانسحاب ، وركضنا بكل ما
فيينا من قوة نبتعد عن المكان .. نبتعد عن طريق السيارات منحرفين عنها نحو
الغرب ، حتى لا تلحق بنا المدرعات ، عندما ينقشع الضباب ، وتبيدنا برشاشاتها
ومدفعيتها في السهل الفسيح ، لا نفرق بالانحراف الى الغرب كثيراً حتى لا نقع
تحت زحمة الفرسان الصباحيين الذين تجاوز رأس جناحهم الأيمن ، موقعنا على
التل ، حوالي كيلو مترين ، الى الجنوب ، واخذ يلتف حول التل ، بل حول موقع
عيون العلق بأسره . ويظهر ان فوزي القاوقجي اوعز بنفس اللحظة الى اخوانه
بالانسحاب من التل الشرقي ، فوثبوا منه ، واندفعوا في السهل يركضون مبتعدين
ايضاً عن الطريق منحرفين الى الشرق ، لا يغرقون في الانحراف حتى لا يصبحوا
تحت رحمة الجنود المشاة الذين اخذوا بدورهم يطوقون تلول عيون العلق ،
وتجاوزوها رأس الجناح الأيمن للحملة ، واصبحوا حولها بشكل قوس منحني .
هكذا شاء الله بمعجزته ان ينجي هذه الفئة المختارة المثقفة المؤمنة من الثائرين ،
فلم ينقشع الضباب الكثيف عن الأرض إلا بعد ربع أو ثلث ساعة ، وببطء
متناه ، مكننا من الإفلات ، والنجاة من التطويق ، وأمدنا الله مع الضباب بغيث
ألان الأرض الرملية الهشة ، فاصبحت حوافر الخيل تغوص بها ، فلم يستطع
الفرسان الصباحيون أن يلاحقونا في السهل الفسيح الذي يمتد ستة كيلومترات
بين عيون العلق وقرية «قارة» ، ولما انقشع الضباب ، وأدرك الفرنسيون انسحابنا ،
تقدمت مدرعاتهم نحو قارة ، تلاحقنا بنيرانها ، ونحن بضعة وعشرون ثائراً
منتشرين على جانبي الطريق ، بعيداً عنها ما أمكن البعد ، بعيداً عن فكي
الكماشة التي تسللنا منها ما أمكن البعد . وتقدمت الحملة ، واستولت على التلال
في موقع عيون العلق ، وأخذت منها تلاحقنا برشاشاتها ، وتتقدم كتائب في
السهل نحو قارة تحميها المدرعات . وبينما كنا نقارب من قرية قارة شاهدنا جموع
الثائرين تحتشد في مداخل القرية الشمالية ، فعرفنا أن المسلحين الذين فتحوا

دير عطية، وحسبوا أنهم استولوا على حصون « لسيج » و « انفرس » ، راعهم دوي المدافع ، وتفجر القنابل ، وأزير الرصاص ، وايقنوا ان الحملة الفرنسية وصلت الى قلمون ، وأن حشدها في « حسية » ليس اكدوبة ، وانها لم تهب جموعهم التي احتلت « دير عطية » ، ولم ترجع خوفاً منهم إلى حمص. لذلك تحرکوا من دير عطية دون أن يعرفوا ما فعل الله بالغرامة المفروضة على البلدة ، وكم دخل منها الى جيوب زعمائهم . فقد حدثنا خالد النفوري وابو عمر ديبو فيما بعد ، أنها اضطرا لمغادرة البلدة بجموع المسلحين ، قبل ان تنتهي المهلة المتفق عليها لجمع المال والسلاح . وقبل ان يقبضا الغرامتين . ولكننا نعتقد انها قبضا غرامة المال أو أكثرها ، وتخليا عن غرامة السلاح ، لان مسلحي دير عطية لا يمكن ان يسلّموا أسلحتهم لخصومهم ، وهم يسمعون أصوات مدافع أصدقائهم الفرنسيين تدوي وتتفجر قذائفها قرب قارة التي لا تبعد بضعة كيلومترات عن بلدتهم ، وتتجاوزها الى ما وراء قارة بامبال .

كان جميل العلواني على مقربة مني يوم انقشع الضباب ، وبدأت طلّات الشارين القادمين من دير عطية في مداخل قارة ، فأخذنا نمشي الهويننا من التعب ، ومن رخاوة الارض التي بللها المطر ، فأخذت تنغرز فيها اقدامنا ، وفجأة اندفع نحونا بضعة فرسان من عصابة دوما يطلبون منا الا نانسحب حتى لا نشبط من عزائم اخواننا القادمين لنجدتنا من دير عطية ، فتوقفنا معهم ، بل عدنا نحو العدو ، ننازل صفوفه الزاحفة ، وترجل الفرسان ، واطلق بعضهم الرصاص على العدو ، ولكن رشة مفاجئة سريعة من أحد الرشاشات ، فرقت صفهم ، وألقت الرعب في قلوبهم على رواحلهم ، فأسرعوا الى اعتلاء متنها ، وأكثرها من دواب معاصر الدبس في دوما ، واطلقوا لها الاعنة منهزمين نحو قارة ، وتخلف واحد منهم ، انهارت اعصابه ، فلا يستطيع اعتلاء ظهر دابته ، وانا واقف الى جانبه اتفرج عليه ، شامتا بالذين اتهمونا بتشيط عزائم اخواننا القادمين من الفتح ، أراهم ينهزمون تاركين احد اخوانهم عرضة لرضاص الرشاشات المصوبة الينا ،

واخيراً هتف الدوماني يستنجد بي أن اساعده على الركوب ، فرجعت ، بعد ان تجاوزته ، وساعدته على اعتلاء ظهر الكديش ، فطن ولم يفطن لأن اكون رديفه في هذا المأزق ، وانطلق ينجو بروحه ، منهزماً الى قارة التي خلفها مع اخوانه ، لما رأوا تقدم المدرعات نحوها ، وزحف الحملة المستمر لاحتلالها . عدت للسير نحو قارة ، وكان جميل العلواني تجاوزني قليلاً ، فوجدته مستلقياً على ظهره في الارض ، وظننت انه اصيب بطلق ناري ، ولكنه طلب مني الا اتوقف عن السير تحت وابل الرصاص ، واعلمني أن ذكة سرواله (سروال) انقطعت ، وانزلق الشروال عن السروال ، فضحكنا ، وانتظرتة حتى شد حزامه الجلدي على الشروال ، وغدنا ننسحب ، وقد رأينا المدرعات تدخل قبلنا قرية قارة ، فاتجه جميل العلواني الى الغرب ، مبتعداً عن قارة ، واقتحمت انا القرية من ازقتها الغربية ، واجتزتها دون ان تكشفني المدرعات التي رابطت في شارعها الرئيسي وساحتها ، ثم اخذت اتسلق جدران البساتين التي تلي القرية الى الجنوب ، واقفز منها مجتازاً البساتين ، حتى أصبحت على بعد مئات الامتار من القرية ، وهناك رأيت جموع القادمين من دير عطية تعود الى النبك فوضى منهزمة ، وتضطرب عند سقوط قذائف المدفعية الفرنسية على اليمين واليسار من طريق السيارات ، ثم رأيت صادق الداغستاني يروح ويحيى بينهم بجواده محملاً ، يدعوهم للثبات ، فلا يصغي اليه احد ، حتى اذا كثرت سقوط القذائف شمالي قارة اندفع بجواده مبتعداً عن الخطر باتجاه النبك . انطلقت بضلع رصاصات متقطعة من نافذة في منزل مرتفع في قارة ، مصوبة الى جموع الشائرين ، فقدر بعضهم انها من بيت احد المسيحيين في القرية ، وقدرت انها من بيت عميل أو جاسوس دون النظر الى دينه . وفي الطريق الى النبك صادفت شاباً درزياً كان يعنى بجواد فوزي القاوقجي ، اسمه فارس ، يبكي ، كنت اعرف انه كان مع القائد في التل الشرقي ، وسألته عن فوزي القاوقجي فلم يجب ، واسترسل في البكاء ، وسألته عن سعيد العاص ، فامعن ايضاً في النحيب ، فانقطعت عن سؤاله ، وقدرت ان القائدين البطلين استشهدا في المعركة . وكان ثائر آخر حمل الي

نبأ استشهاد العقيد سعيد العاص، قبل ان التقي بفارس مساعد القاوقجي، فزاد حزني، وتابعت مسيري الى النبك، تحت تهطال الثلج، حيث التقيت بالقاوقجي والعاص سالمين، وتفقدنا اخواننا فعلما ان فؤاد رسلان جرح في فخذه، وجعل الى قارة حيث ترك في منزل حسن سويدان، دون ان يعلم اخوانه الاقربون به، ولم نعثر على اثر لابراهيم صدقي، ثم علمنا، بعد ايام، عن مصرع الشهيدين البارين، فقد دخلت الحملة الفرنسية بلدة قارة، وتوجه الجنرال مارتى وأركان حربيه ومرافقوه الى بيت حسن سويدان حيث وجدوا فؤاد رسلان جريحاً ملقى في أرضه وهو خال من السكان، يتنزف جرحه. وكان ضابط استخبارات حمص، وعبد المجيد آغا سويدان وجيه حسية يرافقان الحملة، وقد حلا مع هيئة القيادة في منزل حسن سويدان. والمستشار يعرف فؤاد رسلان في حمص معرفة تامة، يعرفه من اشد الشباب الوطنيين مناوأة لسلطة الانتداب، فتقدم منه شامتاً، وسأله: « هل تحب فرنسة يا فؤاد رسلان؟ »، فكان جواب الجريح: « انني احب وطني! »، وافرغ المستشار رصاص مسدسه في رأس الجريح، فصعدت روحه الطاهرة الى بارئها تسجل حق سورية في الحرية والاستقلال. وتقدم عبد المجيد سويدان يرفس جثة الشهيد بقدمه، ويقول امام الفرنسيين: « هذه نهايتك يا خائن! »، وسجل التاريخ في تلك اللحظة دور كل منها في صفحاته، وميز بين الخائن والشهيد! اما الضابط ابراهيم صدقي، فقد كان وصل، قبل المعركة الى قارة، وربط فرسي في احد خاناتها، وذهب الى رجل في القرية مختص باصلاح السلاح، يصلح بندقيته، وهو يستعجله، لما سمع قصف قنابل الطائرة في موقع عيون العلق، ثم سمع بعدها ازيز الرصاص، وتفجر القذائف من المدافع، فلما انتهى الرجل من اصلاح ابرة البندقية بتمديدتها، تلقفها، وخرج من قارة وحده باتجاه « عيون العلق »، وهناك رأى التلؤلؤ التي ترك اخوانه فوقها يغطيها الدخان الكثيف من قذائف المدفعية، ورأى كوكبات الصباحيين ريشة طويلة في جناح الحملة الايمن تتقدم خبياً، وبنظام نحو قارة، وتلصف

لتطويق موقع عيون العلق ، فأدرك خطة التطويق ، وخطرها على إخوانه ، واندفع نحو تل غربي طريق السيارات ، وارتقاه ، واستلقى فوقه ، وراح يطلق رصاص بندقيته على الفرسان الصباحيين ، وخاصة من كان في رأس الجناح الايمن ليوقف خطة تطويق إخوانه ، ويعيق تقدمهم ، وظل يصليهم من نار بندقيته حتى داسته سنابك خيلهم ، وصرعه رصاصهم ، فهو واحد إزاء ألوف الفرسان . وكان رحمه الله اشقر الشعر ابيض الوجه ، يلبس بزة عسكرية ، فلما وصل الجنرال مارتي الى قارة ، واستقبله فيها بعض المسيحيين والعملاء من اهلها ، قال لهم مزهواً : « اذهبوا الى التل الغربي القريب من قريبتكم ، تجدوا على سفحه



الضابط الثائر صادق
الداغستاني

جثة فوزي القاوقجي قائد العصاة ! » . وفي اليوم الثاني ، أي بعد رحيل الحملة عن قارة ، ذهب بعض الفلاحين من قارة الى المكان ، حيث وجدوا جثة الشهيد ملقاة في سفح التل ، وعرفوه ، ودفنوا جثته في جانب مضجعه . ولما عدت بعد الثورة الى الوطن ، قصدت قاره خصيصة ، وزرت مع بعض احرارها التل الذي استشهد فيه اخي ابراهيم فوجدنا السيل قد جرف القبر ، وذهب بماله ، لذلك سميت مع النادي العربي الذي

كنت احد مؤسسيه في دمشق ، حتى اقمنا في عام ١٩٣٨ نصباً على طريق السيارات الجديدة ، الذي يبعد قليلاً عن الطريق القديمة ،

لتمر ببلدة دير عطية دون قارة ، كما شاء لها الافرنسيون ، بعد الثورة ، وخلدنا بهذا النصب شهادة ابراهيم صديقي وفؤاد رسلان ، وبطولتها ، واشرنا الى المعركة التي استبسلت فيها فئة قليلة مؤمنة نذرت نفسها لله والوطن ، فكانت

رمزاً للثورة بأهدافها السامية ، بعيداً عن المطامع والاهواء الشخصية ، ولكن الفرنسيين حطموا لوحة النصب التذكارية ، قبل جلائهم عن سورية ، فأصلحها النادي العربي ، بعد الجلاء ، وما يزال النصب قائماً إلى اليوم عند الكيلو متر (٩٩) من دمشق ، على طريق حمص . وقد زرت ايضاً قبر الشهيد فؤاد رسلان في مقبرة قارة ، وقد قام اهله ببنائه بالحجارة ، رحم الله الشهيدين ، فقد كان وقع استشهادهما أليماً على نفوسنا ، وستبقى ذكراهما حية في نفوس إخوانهما في المعركة ، حتى يلحق الجميع بهما الى الرفيق الاعلى . أما اهالي دير عطية ، فقد انتقموا من الثائرين مساء المعركة ، وقتلوا عدداً منهم مروا باراضي القرية أثناء الهزيمة ، وسلبوا الكثير من البنادق ، وانجالت المعركة عن استشهاد ستة عشر ثائراً ، وجرح اكثر من هذا العدد .

كانت جريمة نهايي دير عطية تنطق بهولها ، وتلبس مرتكبها العار والشنار ، وتتحمل وزرها في الدرجة الاولى قيادة الثورة العامة التي تركت هذه المنطقة دون قوة رادعة تسهر على تنظيمها ، وتوجه إمكانياتها لأهداف الثورة ، وارغمتنا ، في كل مرة ، على ان نحاول بانفسنا إصلاح الحال ، فنعتمد على متزعمين يتكشفون لنا عن طماعين ، نهايين ، لا يهمهم فشل الثورة كلها في سبيل تحقيق اطماعهم ، وإملاء جيوبهم بالمال .

أما الضباط والمثقفون فلم يكن بيدهم قوة تردع المتزعمين ، ولا سلطان لهم على المسلحين الذين ينتقادون للزعامات المحلية ، ولم يكن لديهم وسيلة إلا اسداء النصيحة ، فيتظاهر المتزعمون بأنهم وعوها ، وانهم بها عاملون ، حتى اذا لاحت لهم الفرصة تآمروا على قضية الوطن في سبيل إشباع نهمهم . لقد رحل ليلاً ، بعد احتلال الفرنسيين قارة ، المئات من المسلحين عائدين الى قراهم . واكثرهم كنا ارغمناهم على المسير معنا ، فلما سنحت لهم الفرصة كانوا اول المنفضين عن الثورة ، ولم يبق في النبك سوى فئة من الدروز ، وفريق من عصاية دوما وحريستا وحي الاكراد وثوار بلدة النبك الذين لا يستطيعون التخلي عن بلدتهم . وصباح الرابع

عشر من آذار فر ابو عمر ديبو وعصابته ، ومن جمعهم من قرى المرج ، مستصحباً معه صفوت الجيرودي ومسلحي جيروود ، بعد أن أيقن أن النبك ستسقط لا محالة بيد العدو .

الاستبسال في الدفاع عن النبك .

- ٦٩ -

اما نحن ، فقد اجتمع القاوقجي والعاص بمن تبقى من النافذين على مسلحي النبك ، وقرروا في هذا الاجتماع الدفاع عن البلدة ، وانتدبوا سعيد العاص ، ونزيه المؤيد ، وخير الدين اللبابيدي ، والاخيران وصلا الى قلمون بعد معركة عيون العلق ، وصادق الداغستاني ، واحمد الملا ، وعدداً من رفاقنا الفرسان ، ليتوجهوا في صباح ذلك اليوم بالخيالة من الثائرين إلى التلوة الغربية الممتدة على طول سهل النبك الشمالي ، والمشرقة على طريق السيارات ليتحصنوا فيها ، ويدافعوا عنها كي لا يحتلها العدو ، ويصل منها الى المستشفى الدائم اركي القريب من بلدة النبك . وكلف فوزي القاوقجي مع المشاة من الثائرين ومسلحي النبك بالدفاع عن بلدة النبك ، فاختر البساتين التي تقع شمالي البلدة ، وتشرف من الشرق على طريق السيارات ، وتمتد اكثر من كيلو متر ، وتصل الى مدخل البلدة . وقد حفر النبكيون وثائروهم خنادق في البساتين ليتخذوها في الدفاع عن بلدتهم ، وخندقاً عند مدخل المدينة من الشمال لمنع المدرعات من الدخول الى ساحة الغفري ، واحتلال البلدة .

انبتق فجر الرابع عشر من آذار عام ١٩٢٦ ، فتوجهت مع فوزي القاوقجي إلى البساتين ، باعتباري من المشاة ، بعد ضياع فرسي مني في حادث استشهاد ابراهيم

صدقي ، ونظمتنا مسلحي النبك من مدخل البلدة الشمالي إلى منتصف خط البساتين ، وإلى جانبهم اخلاط الثائرين الباقين من مسلحي القرى ، حتى اكتمل خط الدفاع ، واختارنا بعدهم الزاوية لأنفسنا ، في مكان ينحرف فيه خط البساتين من الشمال إلى الشرق . والمكان ثغرة خطيرة ستعرض قبل كل مكان في البساتين إلى زحف الحملة الفرنسية ومدروعاتها التي تصل إلى بعد عشرات الامتار عنها سالكة طريق السيارات ، فإن دخل منها جنود العدو انهار خط الدفاع الذي أقمناه كله ، واصبح كل من في البساتين من المدافعين معرضة ظهورهم لنار الجند . وأقمنا على يميننا مشاة الدروز ، وعلى يمينهم أقمنا نفراً من المحصين والثائرين الغرباء عن قلمون ، وعدداً من مسلحي النبك معهم . وهكذا أقمنا خطاً للدفاع على شكل زاوية منفرجة في أطراف البساتين لمواجهة الحملة وصد جناحها الايسر ، وجلسنا نترقب وصولها إلى ما بعد الظهر ، إذ ظهرت طلائعها تتقدم بطريق السيارات قادمة من « قارة » ، وفي مقدمتها المدرعات الست ، والخيالة الصباحيون يؤلفون كأمنس الجناح الايمن من الحملة ، وفي القلب والجناح الايسر المشاة ، ومن ورائهم المدفعية . ولما دنا الفرسان الصباحيون من التلول الغربية ، تقدم ثلاثة منهم طليعة ، ورائهم كوكبة لا تزيد عن ثمانية فرسان ، فما كادت الطليعة الاولى تصعد في التلول حتى قابلها فرساننا بقيادة سعيد العاص ، بنيران بنادقهم ، فسقط اثنان من الطليعة ، وفر الثالث ، وسقط ثالث من الكوكبة ، وتراجع سائر افرادها نحو خط الصباحيين الذين انتشروا وقاموا بغازة على التلول ، يحميهم قصف من مدفيعتهم ، يهد لهم التقدم ، وسارعت المدرعات حتى وازت التلول ، وساعدت بمدافعها ورشاشاتها هجوم الصباحيين عليها . وما هي إلا دقائق سقطت خلالها بعض القذائف على التلول حتى رأينا خيالتنا يمتطون جيادهم ، ويركنون للفرار . ويظهر انهم كانوا عازمين على هذا ، فقد أبقوا خيولهم إلى جانبهم ووراءهم في المنخفضات ، فلما بدأ القصف عليهم وعلى خيولهم من المدفعية ، سارعوا إلى جيادهم يمتطونها ، وينجون بانفسهم ، وكان خالد النفوري في مقدمة المنهزمين . حتى ان احدهم ركب فرس سعيد العاص ، وهو الشيخ الذي لا يستطيع السير طويلاً ، وهرب بها ، وتركه امام الفرسان الصباحيين ، وتحت قصف المدافع ، حتى أن قذيفة سقطت على

حافة المكان المتحصن فيه العاص ، أصابت شظية منها ثائراً من المغاربة العرب
 الفارين من الجيش الفرنسي اسمه « رابح » ، كان بجانب العاص يستخدم رشاشاً
 خفيفاً ، فجرحته ، واسكتت رشاشه . ولما دنا الفرسان الصباحيون من موقع
 سعيد العاص ، خرج من مكمنه يطلب النجاة لنفسه ، بعد ان تخلى عنه سائر
 الحيلة من الثائرين ، ولكنه لم يجد فرسه في الموضع الذي تركها فيه ، وكاد يقع
 بيد الصباحيين ، لولا ان سخر الله له الضابط خير الدين اللبابيدي الذي أردفه
 ورائه ، على جواده ، وانطلقا تحت وابل من الرصاص ، حتى وصلا الى تل



خير الدين اللبابيدي
 الضابط الطيار

وراء المستشفى الدانيمركي ، فتحصنا فيه مع
 بضعة عشر فارساً من الدروز ، ودافعوا ما
 استطاعوا ، ولكن الفرسان الصباحيين ،
 استطاعت كتيبة منهم أن تدخل المستشفى ،
 وتحتله ، وتتحصن فيه وراء جدران سوره ،
 فاضطر سعيد العاص ورفاقه للانسحاب
 باتجاه يبرود . وكان مشاة الحملة الفرنسية
 يتقدمون نحو النبك ، منتشرين في السهل ،
 وعلى عرضه بين التلول والبساتين ، بينما كانت
 المعركة دائرة بين الفرسان ، ولما اصبح

المشاة على بعد مئتي متر من موقع القاوقجي
 في البساتين ، أوعز القائد الثائر بإطلاق النار
 دفعة واحدة ، مما أرغم المشاة على ان

يتوسدوا الارض ، ويوقفوا زحفهم . وكنت مع جميل العلواني وعادل الحامدي
 إلى جانب القاوقجي ، فلما توقف زحف المشاة تقدمت المدرعات الى مسافة
 خمسين متراً من موقعنا ، واخذت توجه اليه نيران مدافعها ورشاشاتها ، وساعدتها
 المدفعية الثقيلة ، اذ اخذت تقصف البساتين بقذائفها ، ولكن أكثرها كان

يتفجر وراءنا ، على بعد من خط الدفاع . وقد حاولت المدفعية والمدرعات وهجمات المشاة ان تضعض خطنا ، ولكننا ثبتنا ، وارغمنا المشاة على الفرار نحو التلّول التي كان احتلها الصباحيون ، منذ بدء المعركة ، واصبحت كلها بيدهم الى المستشفى الدانماركي ، فترجل الصباحيون عن جيادهم في التلّول ، وانضموا الى المشاة ، وتقدموا نحونا ، يلاّون السهل ، ثم قاموا بهجوم مركز على مواقعنا ، تلمع الحراب والسيوف بأيديهم ، ولكن الثائرين في خط الدفاع صدوا هجومهم العنيف ، كما كنا في نفس الوقت ، نقوم من جانبنا بصد هجوم الجناح الايسر من المشاة ، ونوقف بالرمات التي كان يقذفها القواقجي من بندقيته تقدم المدرعات ، فتتساقط قريباً منها ، حتى عطلت إحداها مدرعة ، حاول ركب المدرعة التي وراءها أن يشدها بسلسلة إلى مدرعته ، ولكننا أرغمنا أفراد الزكب على الفرار الى مدرعتهم ، وأصبنا بعضهم بجراح . واخيراً لجأ العدو إلى تثبيت رشاشاته الثقيلة على طول خط دفاعنا وفي مواجهته ، ثم قام ألوف الجند بهجوم جديد مركز على خطنا في ظل نار حامية من الرشاشات ، وقصف شديد من المدفعية ، ولكننا استطعنا ايضاً صد الهجوم الثاني ، وحلنا دون تقدم المدرعات إلى الأمام بتعطيل مدرعة ثانية بالرمات ، فتراجعت المدرعات إلى الوراء ، تجر المدرعتين المعطلتين ، ثم عادت الأربع السالمات إلى مواقعها ، تتقدم رويداً رويداً إلى الامام ، وكلما تقدمت ، غدا موقعنا في الزاوية عند تلاقي الخطين في خطر ، إذ انها تكشف فيما إذا استمر تقدمها يسارنا ، ثم تكشف ظهورنا . استمرت المعركة ، وكلما دنا الغروب زادت ضراوة ، مما يشعرنا بان الفرنسيين كانوا حريصين على ان يحتلوا النبك في النهار ليبسيتوا فيها ، على ان يبقوا في العراء ويسجلوا نصراً جديداً على الثائرين ، كما سجلوه في معركة عيون العلق أمس ، حتى صمت آذاننا من كثرة أصوات الرصاص ، وبلغنا الحال التي توصف في الحروب الضارية بخرس الرصاص ، فقد تعطلت أجهزة سمعنا عن تمييز الاصوات لكثرتها . وقصفت المدفعية الثقيلة بلدة النبك ، قبل الغروب ، بعدة قذائف ، فرفع بعض المسيحيين الاعلام الفرنسية على منازلهم لتميزها المدفعية عن بيوت

المسلمين، ورفع مدير المستشفى الدانياركي من الصباح علم دولته على المستشفى، ودام جيش العدو في كروفر حتى أفلت شمس ذلك النهار العظيم، وابتهلنا الى الله، وشكرناه على نعمائه، لان عتادنا نفذ اكثره، واخذنا قبيل الغروب نقصد في إطلاق رصاصاتنا الاخيرة حتى حل الغروب، ما عدا فوزي القاوقجي فقد استنفذ قبل ساعتين من الغروب عتاده، وراح يتمدد تحت شجرة، ويعلن ان مهمته في القتال انتهت، وان العباء أصبح على عاتق اخوانه الآخرين، فألقيت بمنديل مليء بالعتاد الفرنسي، كنت احتفظ به كاحتياط لبندقيتي، وقلت له: «عد الى مكانك، فواجبك ان تبقى الى جانبنا حتى انتهاء المعركة!»، وتلقف المنديل، وعاد ضاحكاً الى خط النار، وحاول ان يصيب علماً فرنسياً رفع على بيت مرتفع في البلدة، ولكن اصابته كانت صعبة لبعده المسافة، لذلك ضمن بعتاده ان يذهب الى غير صدور اعداء وطنه ونحورهم فكف عن التسديد اليه. وتقدمت في آخر لحظة المدرعات، وبلغت نقطة الخطر التي كنا نخشاها، وايقنا نحن الاربعة حراس الثغرة الخطيرة بالهلاك، لان يسارنا وظهورنا اصبحت مكشوفة لها، وشاء الله في تلك اللحظات الاخيرة ان توجه المدرعات نيرانها الى الامام، وان يشغلها عن موقعنا الثائرون النبكيون وغيرهم المتحصنون في الخنادق، ووراء جدران البساتين، حتى اذن الله، وحل الليل، وساد الظلام ارض المعركة، ورأينا الفرنسيين يلممون جنودهم من السهل، ويتراجعون بهم الى التلوى الغربية، ويحفرون فيها خنادق للدفاع، ورأينا المدرعات تتراجع في اتجاه قارة حتى غابت عن الانظار. وعندما اشتد الظلام، وتوقفت المعركة، خرج الثائرون من معاقلهم، واكثرهم ليس في بندقيته غير آخر طلقة، أو حشو بندقية احتفظ به ليصرع من يريد أن يصرعه من الجنود، عندما يلتحم الطرفان، ويختلط الجمعان. ولو علم الفرنسيون بنفاد العتاد من اكثر الثائرين المدافعين عن بلدة النبك، لتقدموا دون وجل الى مواقعهم، واحتلوها، ثم احتلوا البلدة، وانتصروا في المعركة كما كانوا يشتهون!

عدنا الى بلدة النبك ، فطلب فوزي القاوقجي مني ومن بضعة من الثائرين
يملكون حشو بنادقهم طلقات أن نرافقه الى المستشفى الدانيمركي لمناوشة
الحامية التي أقامها الفرنسيون فيه ، وكلهم من الخيالة الصباحيين ، فتقدمنا في
ظلمة الليل ، حتى دنونا من المستشفى ، وأحست بنا الحامية ، واطلقت علينا
نار رشاشاتها ، وقذفتنا بالرمانات من معقلها في المستشفى ، فأخذنا نرحف
الى بعد امتار من سور المستشفى وصاح فوزي القاوقجي بالجنود ، وكلهم
بلهجتهم المغربية ، وقال لهم انه فوزي القاوقجي ، ودعاهم الى الاستسلام اليه ،
فكان جوابهم الشتائم والرصاص وقذف الرمانات على موقعنا ، فجرح أحدنا
بقدمه ، واضطررنا للتراجع زحفاً حتى ابتعدنا عن المستشفى ، وظلت حاميته
تطلق نيران رشاشاتها اكثر ساعات الليل ، بسبب الرعب الذي دب في قلوب
أفرادها . كانت خسائرنا في معركة اليوم ، على ضراوتها ، لا تذكر ، لأنها لم
تتجاوز شهيداً واحداً وجريحين ، عدا شهيدين من فرساننا في التلوي . أما
خسائر العدو فتقدر بالمئات بين قتلى وجرحى ، بينهم عدد من الضباط
الفرنسيين الذين كانوا يقودون الهجمات على مواقعنا .

لقد تمكن الفرنسيون من احتلال التلال الغربية والمستشفى الدانيمركي ،
منذ بدء المعركة ، بسبب هزيمة خيالتنا ، والمستشفى قاب قوسين أو أدنى من
بلدة النبك ، إلا انهم إزاء دفاع المشاة البواسل ، عجزوا كل ساعات النهار عن
الوصول الى البلدة ، او الى بساطينها المجاورة لها ، ووجدوا انفسهم أمام مقاومة
لم يلموا بها ، خاصة بعد السهولة في دحر الثائرين أمس في عيون العلق ، واحتلال
قارة . لذلك كان يوم النبك نصراً لبضع مئات من الثائرين ، ببنادقهم الخفيفة
على الالوف المؤلفة من الجنود المجهزين بكل انواع الاسلحة وأحدثها ، بل كان
هذا النصر يبشر بنصر اكبر لو أن لدى المجاهدين عتاداً يواصلون به المعركة في
الغد ، لان خسائرهم اليوم لا تذكر بجانب خسائر الفرنسيين الكبيرة . ومعركة
ثانية على نط معركة اليوم ترغم الفرنسيين على التراجع ، والعدول عن احتلال

النبك ، ولكن من أين تأتي بالعتاد لمعركة أضرى وأطول من معركة اليوم ، قد تستمر كل ساعات النهار في الغد . تلك كانت العقدة التي وقفنا عندها لما انتهت المعركة ، وهذه العقدة نفسها حملت بقية الثائرين الغرباء على الانسحاب من النبك ، تحت جناح الليل ، عائدين الى قراهم ، وحملت معهم مسلحي النبك أنفسهم الى النزوح بعائلاتهم عن البلدة الى القرى البعيدة ، وإلى الجبال الشرقية التي توصلهم الى قرى الجورة في قضاء جيروود . وهكذا لم يبق في البلدة سوى فوزي القاوقجي وإخوانه الضباط والمثقفين وشرذمة من مشاة الدروز . أما فرسان الدروز القلائل ، فقد لجأوا ، بعد انسحابهم من التلال الغربية ، إلى بلدة « يبرود » ، وقرية « جريجير » وغيرها من القرى في الجبال الغربية ، وفريق منهم انسحب من المعركة ، وتوجه لتوجه الى الغوطة ، وبلغ بنا الوضع حد التفكير بالانسحاب ، ولكن فوزي القاوقجي أراد ان يفيد من ثائري النبك وخدمهم في الدفاع عن بلدتهم ، بعد ان رأى استبسالهم اليوم في المعركة ، فدعا وجهاء البلدة واغنياءها الى اجتماع عاجل ، وشرح لهم الوضع ، وبشرهم بالنصر غداً ، فيما إذا تداركوا ، تحت جناح الليل ، عتاداً للمجاهدين ، يكفيهم لمعركة الغد ، المفروض انها قد تستمر كل ساعات النهار ، وقال لهم ان الفرنسيين سيحرقون غداً أكثر منازل بلدتهم ، إذا ما احتلوها ، وخاصة منها منازل الوجهاء والاغنياء ، وثمان منزل واحد من هذه المنازل يساوي أكثر من ثمن الذخائر التي ستبتاعونها الليلة لإنقاذ بلدتكم ، وأكد لهم ان دفاعنا عن البلدة سيرغم الفرنسيين حتماً على التراجع والانسحاب ، إذ لا طاقة لهم باحتيال خسائر جسيمة كالتى تحملوها اليوم ، وذكرهم القاوقجي بما سيرتكبه الفرنسيون في البلدة من فظائع لا حد لها ، كالقتل ، والنهب ، والحرق ، والاعتداء على النساء ، وأكد لهم انه بمن معه من إخوانه ، وبثائري النبك معهم مستعدون للدفاع عن بلدتهم ، وإنقاذهم من كارثة وقوعها بيد الفرنسيين الحاقدين ، فيما إذا بذلوا الآن القليل من جيوبهم ، وارسلوا الرسل في الليل الى يبرود والقرى القريبة المجاورة ، يشترون منها العتاد الكافي لمعركة الغد ، ويأتون به الى النبك قبل فجر الغد . وقال لهم انه

يأمل أن يصل جمعة سوسق غداً بجموع قرى الجرد لنجدتهم ، وأن يرسل الله
لنا نجات أخرى من حيث لا ندري ، وان ذلك ليس على الله بعزيز . ولما خرج
زعماء النبك ليباشروا عمل جمع الهال ، وإيفاد الرسل ، كتب القاوقجي رسائل
إلى سعيد العاص وخالد النفوري وزعماء الدروز ، طلب ان يحملها الموفدون
لشراء الاعتدة إلى يبرود والقرى الغربية كالسحل وجريجير يدعواهم فيها إلى
جمع شمل الثائرين الفرسان ، والمحيي بهم ليلاً إلى النبك ، وبشرهم بان العدو لم
يتمكن من احتلال النبك ، وانه تكبد خسائر كبيرة ، فككت أوصاله ،
فانهارت عزائمه ، وانه لن يقوى غداً على الصمود طويلاً أمام دفاع كالذي قام
به المجاهدون المشاة اليوم في النبك ، وانتقل بنا القاوقجي بعدها إلى منزل خالد
النفوري ، وفيه سطر رسالة إلى الطبيب الدانيمركي رئيس المستشفى حملها
رسول من اهل النبك إليه ، وبيده مصباح ، انذره فيه بأن قيادة الثورة راعت
القوانين الدولية بتجنيب المستشفيات ، وخاصة الاجنبية منها ، حرمة لدولها ،
كل كوارث الحرب ، لذلك تعتبر نفسها غير مسؤولة عما سيصيب المستشفى
الدانيمركي من حرق وتدمير إذا لم تجل القوات الفرنسية عنه هذه الليلة ، وإلا
كان سهلاً على قيادة الثورة أن تقيم في المستشفى الدانيمركي حامية تفيد من
موقعه الاستراتيجي ، وتصعد عنه قوات الفرنسيين ، وتحول دون وصولها إليه ،
ولو انها فعلت لما تمكن الفرنسيون من دخوله ، كما عجزوا عن احتلال النبك ،
أما الفرنسيون فلم يراعوا حرمة الدولة الدانيمركية ، ولا احكام القوانين الدولية ،
واحتلوا المستشفى ، وجعلوا منه حصناً حريباً يرد عنهم هجمات الثائرين الذين
قرروا ان يقابلوهم بالمثل ، ويخرجوهم من المستشفى ، لأن بقاءهم فيه يهدد بلدة
النبك ، لقربه منها . وطلب من رئيس المستشفى باسم قيادة الثورة ان يحمل
الفرنسيين على الجلاء فوراً من مستشفاه ، وإلا فنحن ، بعد ساعة واحدة من
وصول الانذار إليه ، لا نتحمل أي مسؤولية أدبية أو مادية ، عما سيصيب
المستشفى من أضرار . ولم تنقض نصف ساعة على إرسال الانذار ، حتى رأينا
الطبيب الاجنبي رئيس المستشفى الدانيمركي يحضر بنفسه ، ويطلب مقابلة

فوزي القاوقجي ، وبعد التحية أبلغه ان الفرنسيين في المستشفى رفضوا الجلاء عنه رغم إنذاره ، وليس له كطبيب مدني أجني أن يرغمهم على الجلاء عنه ، ويرجو منه الا يعرض المستشفى إلى الأذى والضرر ، فإدارته غير مسؤولة عن مخالفة الفرنسيين الاجلاف قواعد الحرب ، وأحكام القوانين الدولية التي تحترم المستشفيات ، فأصر القاوقجي على أن قيادة الثورة في النبك لا تستطيع إبقاء الفرنسيين اكثر مما بقوا في مستشفاه ، وانها تعتبر نفسها غير مسؤولة عما يقع ، وخرج الطبيب عائداً الى المستشفى ليلبلغ الفرنسيين حديث القاوقجي ، ويزيد في وهمهم من قوة الثائرين .

ينام المرء منتصباً وماشياً على قدميه !

وانتقلنا بعد هذه المقابلة ، وكنا ثلاثة : القاوقجي ، وعادل الحامدي ، وانا ، الى دار في اقصى منازل البلدة المطلة على المستشفى الدانيمركي ، خالية من سكانها ، لنحرس البلدة التي كنا نشاهد اهلها مشغولين بنقل اسرهم ، وما يحرصون عليه من أثاث منازلهم إلى الجبال الشرقية القريبة من البلدة . ان بلدة النبك تقع في سهل مرتفع أو هضبة بين سلسلتي جبال : شرقية وغربية ، والشرقية أقرب الى البلدة ، بل ان قسماً من بلدة النبك يضطجع على سفح جبل من السلسلة الشرقية . وقد شغل ثائروهم بأسرهم عن إقامة نقاط للحراسة ، خاصة مقابل المستشفى الدانيمركي المحتل الذي لا يفصله عن البلدة الا أرض سهلة لا يتجاوز طولها بضع مئات من الامتار . وقد خطرت الحراسة للقاوقجي بعد الانذار الذي وجهه للقيادة الفرنسية باخلاء المستشفى ، إذ قد تقوم بحركة مفاجئة في الليل لاحتلال النبك ، قبل ان يبادرهم الثائرون بهجوم على المستشفى . ولما كان الليل بارداً في النبك ، والقاوقجي تعباً من معركة النهار ، التف بفروته ، ونام في الغرفة القريبة من باب الدار المفتوح على مصراعيه ، فطلبت من ابن خالته الحامدي الا يجلس كي لا يأخذنا النوم ، ونحن منهكون ايضاً ، يغالبنا النعاس ، وان نبقي قياماً نسهر على فوزي القاوقجي ،

وثرأقب المستشفى المقابل للدار ، والا تسلط علينا سلطان النوم ،
فلا نشعر في الصباح ، إلا والفرنسيون يدخلون علينا ، وفي ذلك
هلاكننا نحن الثلاثة ؛ فبدأنا حراستنا ، ولما ينقض من الليل شطره
الاول ، نذهب ونجىء في الغرفة ، ثم الفناء الخارجى الى باب الدار نطل
منه على المستشفى ، ونصغى لكل همسة . وليل آذار طويل ، والانتظار ، كما
يقول المثل ، أشد من النار ، وأطبق علينا النوم بسلطانه القاهر من التعب
في معركتين ضاريتين ، شغلتنا يومين كاملين . وأذكر اليوم ، وأنا ما أزال معجباً ،
كيف أن النوم القاهر إذا تسلط على المرء يرغمه ، فيغفو وهو واقف منتصب على
قدميه ، ويغفو أيضاً ، وهو ماش على قدميه . لقد جربت قبل أن افقد فرسي
في معركة « عيون العلق » في حادث استشهاد أخى ابراهيم صدقي - جربت أكثر
من مرة النوم راكباً ، ولكنني لم أجرب النوم واقفاً على قدمى منتصباً ، أو
ماشياً ، حتى كانت ليلة النبك هذه ، وأنا مكلف بحراسة قائدى وحراسة مئات
من المجاهدين ناموا مطمئنين تلك الليلة دون ان يحسبوا حساباً لمباغطة العدو ،
فقد كنت في ذهابي وبحيى في الغرفة أتسكى أحياناً على رفراف الموقد الناقى في
جدار الغرفة ، فأغفوا ثوانى أو دقائق ثم يخل توازنى فاستيقظ وأسير ذهاباً
واياباً مرات ، ثم أعاود الكرة كلما اشتد سلطان النوم . وبلغ بي الأمر اننى
كنت أغفو وأنا أمشى بخطواتى الرقيقة كلما اطمأنت الى الهدوء السائد ، يوقظنى
من غفوتى اصطدامى بجدار الغرفة . هكذا كانت حالى وحال زميلى الحامدى
تلك الليلة حتى انبثق الفجر يوم الاثنين في الخامس عشر من شهر آذار عام ١٩٢٦
فسارعنا نوقظ القائد القاوقجى ونبلغه أن الفجر بزغ ، ولم يأت أحد من أهالى
النبك يخبرنا بخبر عن العتاد ومراثى ، وان ملاحظناه في سهرنا ان البلدة
تكاد تكون خالية من السكان ، فنهض القاوقجى ، وألقى نظرة أخيرة على
المستشفى . ثم توجهنا إلى ساحة الغفري نسأل من نصادفه من الاهلين والناشرين
عن العتاد ، فقالوا لنا أن أغنياء النبك اختلفوا فيما بينهم على جمع المال ، وذهب

كل منهم في سبيله ، فقال لهم القاوقجي : « انني أصبحت في حل من عهدي لزعماء النبك بأن أدافع عن بلدتهم ، ولم أعد مسؤولاً امام ضميري عما سيصيب البلدة من كوارث ، وأراني ، بعد ان نفذ عتادنا ، مضطراً للانسحاب مع رفاقي من بلدتك ، فجيوش العدو لا تقاوم بالعصي !.. » وتوجهنا بمن تبقى معنا من الثائرين ، وعددهم لا يتجاوز الخمسين مسلحاً ، نخترق أزقة البلدة ، ونصعد نحو حي مرتفع في الجنوب الشرقي منها ، حتى بلغنا مرتفعاً إلى جانب المنازل ، وقفت فوقه شردمتنا ، وأخذت جيوش النهار تطرد جيوش الليل ، وأخذ الظلام ينبجلي رويداً رويداً ، وبانت لانظارنا أماكن الجند في رؤوس التلال ، بقعاً سوداء ، أخذت تتحرك في مواقعها . وتجلى المستشفى الدانمركي بجلته البيضاء ، ثم رأينا الفرسان الصباحيين يمتطون جيادهم ، ويسرون صفاً طويلاً أخذ يطوق أطراف البلدة ، فتحولنا من مكاننا ، وانحدرنا من المرتفع إلى السهل ، بعد أن القينا نظرة اخيرة على البلدة الهادئة ، يدخلها جيش العدو ، كما فعل آخر ملوك بني الاحمر في الاندلس يوم القى نظرة أخيرة على ملك أضاعه ، وهو يرحل عنه رحيلاً لا عودة بعده !.. لقد رأينا كيف انحدرت كتائب الفرنسيين من التلال ، وكيف تجمعت ، وتراجعت الى الراء ، ثم انتشرت ، حتى وصلت المدرعات من قارة ، وأخذت الكتائب من فرسان ومشاة تطوق بلدة النبك من جهاتها الثلاث ، عدا الشرق ، ولما لم تجد اي مقاومة في البساتين ، وفي البلدة أطلقت بعض القذائف من مدافعها على البلدة ، ثم دخل فرسانها البلدة من الجنوب بطريق السيارات ، ومشاتها من الشمال . وتلاقى الجمعان في ساحة الغفري التي كانت سبقتهما اليها المدرعات . وفي تلك اللحظة أقبل تسعة من اهالي النبك الطاعنين في السن لاستقبال قائد الحملة طامعين بحلم فرانسة ، فرموا بالرصاص ، وقتلوا كلهم ، مع انهم ليسوا من الثائرين الذين حملوا السلاح ، ونازلوا حملتهم ، وكانوا يحسبون انهم لا يؤخذون بجزيرة غيرهم ، ولكن ضابط المصالح الخاصة في حمص ، الذي كان يرافق الحملة ، استقبلهم ، ورماهم من مسدسه بالرصاص ، واكرم وفادتهم .. وكان قبل يومين اجهز بنفس المسدس على الجريح فسؤاد

رسلان في قارة ، ثم انطلق الجند الى المنازل ينهبونها ، ويعملون فيها حرقاً ،
فقد اشعلوا النار في منزل خالد النفوري ، ومنزل حسن وطفة ، ومنازل
الكثيرين الذين أبلغهم جواسيسهم وعملاؤهم انهم ثائرون . وباحتلال النبك
خضعت منطقة قلمون ، ومنطقة الجورة ، أي قضاء قلمون وقضاء جيرود إلى
السلطة الفرنسية ، وخبث في هاتين المنطقتين روح الثورة التي لو نظمت لكانت
فرنسا على ابواب الرحيل عن سوريا !..

التقينا في قرية القسطل ، على بعد عشرة كيلومترات جنوبي النبك ، بالعقيد
سعيد العاص ، وخير الدين البايدي ، وبعض الرفاق الذين كانوا في صف الفرسان
عند بدء معركة التلال الغربية . وقد اصبح سعيد العاص مثلي من المشاة ، إذ
ركب فرسه اثنان من عصابة الاكراد في اثناء فرارها . والفرس في حد ذاتها
خائرة القوى من التعب والجوع وجرح قديم أصابها في جبل الدروز ، فلم تقو على
حمل الجلفين طويلاً ، وسقطت تحتها نافقة ، واصبح صاحبها الطاعن بالسن ،
المرهق الجسم في سجنون الاتراك ومنافيتهم ، مضطراً لان يسير الساعات على
قدميه . وقد انتقلنا بعد الظهر من قرية القسطل الى قرية قلدون ، فاستقبلنا
اهلها التركمان بالرصاص ، يصدوننا عن قريتهم ، فافهمناهم بالحسنى الا غاية لنا
سوى المبيت تلك الليلة في قريتهم ، ومتابعة الطريق ، فكفوا عن اطلاق
الرصاص ، وسمحوا لنا بالمبيت .

القرى التي كانت تخشانا انقلبت علينا !

- ٧٠ -

وفي صباح السادس عشر من آذار تابعنا سيرنا الى جيرود ، وحللنا ضيوفاً في
منزل صفوت الجيرودي حيث بحث معه فوزي القاوقجي وضع منطقة جيرود على

- ٥١٠ -

ضوء عودة الفرنسيين الى قلمون ، وافهمه انه لا بد لهم من الزحف الى جيروود
بعد قلمون ، وان الأذى سيصيبها منهم ، مهما كان موقف سليم الجيروودي مما لاشأ
لهم ، وحشه على التعاون معنا للدفاع عن جيروود حتى لا يصبها ما اصاب النبك ،
وشرح له الخطة بأن يقوم هو يجمع تبرعات من الأهلىن لشراء كميات كافية من
العتاد للدفاع عن جيروود ، نزود بها سرية الدروز ومن معنا من المجاهدين ، ثم
نرابط في مضيق « ثنية العقاب » المعروف اليوم بالثنايا ، ونمنع تقدم الحملة ،
ووصولها الى منطقة الجورة كلها ، فلم يعترض صفوت الجيروودي على الاقتراح ،
وابدى رغبة من جانبه لتنفيذه ، إلا انه في صباح السابع عشر من آذار نقل
الينا قرار وجهاء جيروود ، وعلى رأسهم سليم الجيروودي ، بعدم مقاومة الفرنسيين ،
وفتح بلدهم لهم ، والطلب ان تغادر بلدهم فوراً ، فانتقلنا الى المعضية حيث
وجدنا شيخها اسماعيل ابا الريش بادي الفرح لما آلت اليه قلمون ، ومستبشراً
بقرب وصول أسياده ! ومع ذلك فافوضه القاوقجي في أمر الدفاع عن المنطقة ،
والاستعانة بمساحي القرى المجاورة كالرحيبة والقطيبة ، بعد توحيد كلمة اهلها ،
والتحصن في « الثنايا » لصد أي حملة تزحف الى منطقة الجورة ، ولكن أبا
الريش رفض البحث في الموضوع ، وقال : « ليس لنا طاقة بمقاومة دولة عظمى
كفرنسا !.. » ، وعلى الأثر تابعنا سيرنا الى قرية الرحيبة ، فقاوم اهلها دخولنا
القرية ، وبينهم من كان معنا بالأمس يقاتل الى جانبنا كتفاً لكتف . وقد اقبل
الليل ، واصبح صعباً علينا ان ننقل الى قرية اخرى ، فقرى الجورة كلها تتنكر
للثورة ، في حال ضعفها . وزعم اهل الرحيبة ان الفرنسيين اذا ما علموا بدخولنا
قريتهم قصفوها بالقنابل من الجو ، فتوجهنا الى قرية ضمير حيث بلغناها بعد
انقضاء الشطر الأول من الليل ، وقد انهكنا التعب ، فوجدنا نسيب البكري
ضيفاً فيها مع اربعين فارساً من الدروز بقيادة زيد ابي خمري عامر جاءوا
للاتحاق بفوزي القاوقجي ، ولكنهم تريثوا لما سمعوا أنباء هزيمة الثائرين في
قلمون . وقد قام القاوقجي والعاص والبكري يجمع وجهاء القرية ، وحاولوا أن

يحملوهم على جمع تبرعات من القرية يشترون بالمال عتاداً لتجهيز الذين نفذ عتادهم في معارك قلمون من جماعة القاوقجي ، ولكن مساعيهم ذهبت ادراج الرياح .

توجهنا في الثامن عشر من آذار الى قرية العبادية في المرج ، فبلغنا أن حملة فرنسية قوية زحفت من دمشق بدباباتها ومدافعها ، وبعد صدام عنيف بينها وبين عصابات الغوطة على طريق دوما بلغت قرية « عدرا » ، ففر اهلها من منازلهم ، ودخلها الجنود ونهبوها . وتبين انها حملة متممة لحملة قلمون ، تزحف الى القطيفة ، لتتلاقى مع حملة الجنرال مارتي ، وتم إخضاع منطقتي قلمون والجورة ، مما زاد في رعب أهالي القرى كلها ، حتى قرى المرج ، واصبحنا لا ندخل قرية فيه حتى يتوسل اهلها اليها ألا ندخل قريتهم حتى لا يتعرضوا لبطش الفرنسيين .

أقام الفرنسيون حامية في النبك على هضبة تشرف على مدخل البلدة الجنوبي وساحة الغفري وعلى الأحياء القريبة منها ، وتابعت حملتهم زحفها الى جبرود حيث وافتهم إليها قوة البادية من تدمر ، وتعد حوالي خمسمئة هجان ، فاحتل الفرنسيون البلدة دون أي مقاومة ، واحرقوا منزل سليم الجيرودي في الصخرة ، ومنزل صفوت الجيرودي في البلدة ، بعد ان نهبوها ، ففر سليم و صفوت الجيرودي الى القرى المجاورة ، وفرض الفرنسيون غرامة على البلدة من مال وسلاح أسوة بالنبك وجبرود . ثم زحفوا في التاسع عشر من آذار الى قرية المعضية ، فلاطفوا أهلها ، وشكروا شيخها أبا الريش على مواقفه معهم ، وتابعوا زحفهم الى القطيفة حيث التقوا بالحملة القادمة من دمشق . ويوم العشرين من آذار توجهوا بجميع قواتهم إلى قرية « عين التينة » ، فمعلولا ، فقرى الجرد حتى بلغوا « رنكوس » ودخلوها دون مقاومة . وفر جمعة سوسق واخوه احمد سوسق منها ، فاحرقوا منازلها ، بعد ان نهبوها ، وأكملوا زحفهم الى القرى الأخرى ينهبونها ، ويفرضون عليها الغرامات ، ويجمعون منها السلاح . وفي اليوم السادس والعشرين من آذار عادت حملتهم المزدوجة إلى دمشق ، بطريق

صيدنايا - التل - منين - برزة - القابون . وقد صادمهم في مضيق الوادي عند قرية « منين » فوزي القاوقجي وسعيد العاص وشراد من عصابت الغوطة ، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير على الحملة لكثرتها ، وقوة اسلحتها ، فقد ملأت بجنودها الهضاب والجبال والوديان ، وزحف رتل للدبابات من دمشق لشق الطريق إليها عند وصولها المنطقة المشجرة على أبواب دمشق ، فاضطر الثائرون للانسحاب امام هذه القوات الكبيرة ، لا سيما وجماعة القاوقجي والعاص كانوا خاليي الوفاض من العتاد والمال الذي يشتري العتاد .



الفصل الثاني عشر

أثر إخماد ثورة الرّيف

- ٧١ -

أقبل فصل الربيع ، وبحلوله بدأ الفرنسيون تنفيذ خططهم للقضاء على الثورة في منطقة بعد منطقة ، وساعدهم على التنفيذ نقلهم قوات كبيرة من المغرب ، بعد إخماد ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي ، واستسلامه ، وإبعاده ، ونقلهم قوات أخرى من مستعمراتهم فيما وراء البحار ، حتى أربت النجيدات على المئة ألف جندي ، عدا ما كان لديهم في الشام من قوات . وتطوع في كتائبهم الالف الشراكسة والاسماعيليين والنصيرية والأرمن والنور وكل مرتزق من بلاد الشام ، وبذلك تسنى لهم توجيه حملاتهم الى منطقتي قامون والجورة ، واخضعوهما ، ثم سيروا حملاتهم إلى إقليم البلان وقرى جبل الشيخ ، ودخلوا قرية « مجدل شمس » ، مقر ثورة الاقليم ، بعد معركة عنيفة ، قيل ان الفرنسيين خسروا فيها حوالي الف قتيل وجريح ، ثم احتلوا قلعة جندل وسائر قرى الإقليم ، وفعلوا بها مثملاً فعلوا بقرى قامون من نهب وسلب وتقتيل وفرض غرامات مالية وجمع الاسلحة مع العتاد ، فهاجر أكثر السكان من الدروز إلى جبل حوران فراراً من البطش

والتنكيل بهم ، يعيشون الى جانب إخوانهم الذين ما يزال جبلهم حصناً يخيف الفرنسيين . وأقام بعضهم في اللجاة ، وما علموا ان الفرنسيين خططوا ايضاً لضرب الجبل مقر قيادة الثورة ومقرها ، لانهم يدركون ان الجبل ما دام ثائراً سيظل قاعدة لانطلاق كتائب الثائرين منه الى المناطق الأخرى ، يشيرونها من جديد ، ويخلقون لفرانسا المتاعب . وهم يوم يخضعون الجبل لايصعب عليهم إخضاع الغوطة ، فكم مرة شتتوا فيها العصابات ، وطاردوا فلولها ، ولكن المشتتين كانوا يلجأون الى الجبل ، والى المناطق الأخرى الثائرة ، يستجمعون فيها ، أو يعملون ، ثم يعودون الى الغوطة ، ويزداد تدفقهم اليها يوم تشغل الفرنسيين احدى المناطق الثائرة ، وتلهيهم عن الغوطة ، وتهدد مراكزهم الحساسة في مناطق جديدة غير ثائرة . والفرنسيون لم يخفوا نيتهم هذه ، فقد أعلنوا عنها في تصريحات للمسؤولين منهم نشرتها الصحف عن دنو اليوم الذي يحمسون فيه الثورة السورية بالعنف والقوة ، والى جانب وعود كانوا يقطعونها عن عزمهم على تأليف حكومة وطنية ، يكون لها جيش وطني الى غير ذلك من المطالب المشابهة لمطالب الثورة ، حتى إنهم وعدوا بتوحيد الدويلات السورية ، وباجراء انتخابات نيابية حرة . كل ذلك لتخدير الشعب وإلهائه بالمعسول من الكلام عن أمانيه الحققة في الحرية والاستقلال .

مصرع الكولونيل « فرن » !

لما عدنا إلى الغوطة من معاركنا في قلمون ، علمنا من إخواننا فيها ان الفرنسيين زحفوا يوم الثامن من آذار عام ١٩٢٦ بحملة من دمشق على رأسها الكولونيل « فرن » ، مهمتها الغاء مخفر « شبع » ، وهو آخر مخفر لهم في محيط الغوطة ، فنازلتها العصابات على طول الطريق ، وحالت دون وصولها الى « شبع » ، وأرغمتها على اللجوء الى قرية « قبر الست » ، بعد أن قتل قائدها « فرن » برصاصة اخترقت صدره ، ومات بين يدي ضباطه ، وهو يقول :

« لا تحزنوا يا رفاقي ! فهذا مصير كل جندي ! » .

وفي صباح التاسع من آذار تمكنت الحملة من العودة الى دمشق ، دون أن تستطيع الغاء الخفر ، فاضطرت حاميته أن تنسحب تحت ستار الليل الى « الكسوة » ، على بعد عشرين كيلومتراً جنوبي دمشق على طريق حوران ، دون أن تشعر العصابات بتسللها وانسحابها من « شبعاء » ، إلا في نهار اليوم الثاني . وقد حزن الفرنسيون لمصرع الكولونيل « فرن » ، فهو أحد قائدين كانا يتناوبان قيادة أكثر الحملات الزاحفة الى الغوطة لتموين المخافر أو مطاردة العصابات . ولم يبق الآن من الاثنين حياً إلا الكولونيل « ماسيت » الذي حاصره الثائرون مرة في دوما وأراد أن يحتمي بأهلها ، ويقودهم مع جنوده لعل الثائرين يكفون عن منازلة حملته ، واطلاق الرصاص عليها . ونقدر أن خسائر الفرنسيين في حملة « فرن » كانت جسيمة ، فقد قتل القائد ، وعجزت الحملة عن الوصول الى « شبعاء » ، وعادت الى دمشق ، دون أن تقوم بمهمتها . وقد ظلت العصابات ، بعد هذه المعركة ، تهاجم ، كعادتها ، حصون الفرنسيين حول النطاق الذي أقاموه لحماية جانب من المدينة التاريخية دمشق .

بعد وصولنا الى الغوطة توجه فوزي القاوقجي ونسيب البكري الى قرية « الهيجانة » وأرسلوا منها تقريراً وافياً الى قيادة الثورة عن أحداث قلمون ومنطقة الجورة ، وخطة الفرنسيين المقبلة لتضييق نطاق الثورة ، وضرب جبل الدروز أخيراً ، وطلبوا إيفاد قوة من الدروز بقيادة أحد الزعماء المخلصين المجربين للتوجه بها الى منطقة قلمون ، وإعادة نفوذ الثورة اليها ؛ قبل أن يتمكن الفرنسيون من جمع كل سلاح الاهلين ؛ فيصعب عندها اشتراك بعضهم في الثورة ، وأوضحا لسلطان الاطرش ان اهمال إيفاد القوة الدرزية سيمكن الفرنسيين من ضرب الثورة منطقة بعد منطقة ، وتنفيذ خططهم التي أصبحت واضحة بالزحف على الجبل . ولكن هذا التقرير ذهب كغيره مع أصواتنا أدراج الرياح !..

غامرت ودخلت وحدي دمشق !

قصدت إثر وصولي إلى الغوطة قرية « القابون » . وكان لي فيها صديق شاب من الفلاحين ، اسمه عبد اللطيف ، وكنا يومئذ في شهر الصوم المبارك . وكنت نويت دخول المدينة دمشق ، ووضعت لهذه المغامرة خطة ، توصلني إلى أقارب لي فيها لعلني أستطيع أن أجد إلى منزل أقربهم إلي ، وأرسل إلى أهلي في حماة من يأتيني بمبلغ من المال أستطيع أن أشتري به بندقية صالحة وراحلة ، فقد أصبحت أيامي في الثورة ، بعد ضياع فرسي في قارة ، قطعة من العذاب ، أسير الليل والنهار على قدمي ، أحمل سلاحي وعتادي وبعض ملابس لي ولوازم لا بد منها ، فيرهقني الحمل ، ويضنني السير ، وأنا لست من ثائري القرى حتى أجد في كل فرصة إلى بيتي ، أصلح فيه من شأني وحالي ، فقد غادرت بيتي من شهر ايلول عام ١٩٢٥ ، ولم يبق معي ما أبيع أو أرهنه لأنفق على نفسي ، أو أشتري عتاداً لبندقيتي . حتى البندقية التي أقاتل بها ، لا تصلح للعتاد ، بعدما أصابها في معركة حمورية من عطب ، لو لم أكن تمرنت عليها تمريناً خاصاً ، وأنا لا اطمئن إلى تسديدها في حرب المسافات البعيدة ، بعد أن بترت قطعة من سبطانيتها ، وبديل موضع شعيرتها .

توجهت مساء يوم العشرين من آذار إلى القابون ، وقضيت ليلتي في بيت الصديق القابوني ، وبعث في القرية بندقيتي المبتورة بليرتين ذهبيتين ، وبعد السحور من صباح الواحد والعشرين من آذار ، بدلت ملابسني شبه العسكرية بمعطف أسود عتيق ، وبنطال مدني ، ولففت كفيتي البيضاء على رأسي وعنقي ، كما يفعل فلاحو الغوطة ، وانطلقت من القابون مع ناقلي الخضار ونساء القرية أبغي دمشق بطريق حي الاكراد ، فما طلع النهار واشرقت شمسها حتى كنت مع الألوف من الأهليين والفلاحين ننتظر أمام حصن الجسر الأبيض في جادة

الصالحية . وكنت استشرف من بين الرؤوس على حامية الحصن ، وموظفي
الخبرات والامن الواقفين بجانبه ، أترقب ان يفتحوا الاسلاك الشائكة لتمر هذه
الجماهير الى قلب المدينة ، وأرى كيف سيستطيعون تدقيق هويات هذه الالوف
المؤلفة من البشر ، فهويتي ترسل بي الى المشنقة ، ومفكرتي والاوراق التي أحملها
كبعض الوثائق الحريص على الاتضيق مني ، كانت معي في جيوبي ، وهي وحدها
كافية لان تدينني أمام أي محقق ، وتثبت انني التائر الواجب قتله أو اعدامه بقوانين
فرنسا . وكنت انتوي العودة ، لو كان التدقيق سيدخل الجميع ، ولكنني فجأة
رأيت السد من الخشب والاسلاك الشائكة يزال من الطريق ، وتتدفق الالوف
الى جادة الصالحية وقلب المدينة ، ومعها المركبات والطنابر والدواب التي تحمل
الخضار من قرى الغوطة ، فاندفعت مع التيار اجتاز الممر أمام الحصن ، دون
ان يفطن الي احد بين الالوف المؤلفة من البشر ، واجتازت جادة الصالحية الى
بوابتها فسوق صاروجه ، فالعصرونية ، الى حارة الدفاقة حيث تسكن خالتي
وزوجها ابو بشير راضي خلوف ، وكلاهما من حماة ، يسكنان مع اولادهما في
دمشق ، منذ سنوات ، والزوج يعمل كاتباً في محل تجاري في الدرويشية . وكنت
أتوقع ، حسب محبتهمالي ، ان يتحملا مسؤولية إخفائي في منزلها بضعة ايام ،
حتى يأتيني المال الذي سأطلبه من والدي واخوتي في حماة . وصلت الى الدار
باكراً ، ووقفت امام الباب أقرعه بهدوء ، ثم بشدة ، وانا اعرف ان المسلمين في
رمضان ينامون الى الضحى ، واكثر من الضحى ، ويسهرون ليلاليه الى ما بعد
السحور ، بل الى ما بعد صلاة الصبح . وبعد قرع شديد أزعج الجيران لطوله ،
سمعت صوت رجل يرد ، وفتح الباب ، واذا برجل لا اعرفه ، بلباس النوم
يسألني بغضب وحدة : « ماذا تريد ؟ » ، ويتميز هيئتي المزرية التي لا تختلف عن
متسول أو فلاح فقير معدم ، ولما سألته : « أليس هذا بيت فلان ؟ » نظر إلي
شذراً ، وكاد يضربني من شدة الغيظ ، وقال : « لقد تخلى ابو بشير عن هذا البيت
من ستة أشهر ! » ، وصفق الباب بشدة في وجهي ، فوقفت امام الباب حائراً ،
اتساءل في نفسي : « ماذا اعمل ؟ وهذا البيت كنت اعدده الملجأ الوحيد الذي

لا يغلق في وجهي ؟ » لقد كان لي في دمشق أقارب آخرون ، ولكن أحياءهم
وأوضاعهم لا تساعد على إيواء ثائر مثلي في منازلهم ، فضلاً عن أن صلة قرباهم بي
كانت بعيدة ، أو أنهم جبناء لا يجرؤون على ادخالي منازلهم . وخطر لي أن
أذهب إلى زوج خالتي في محل عمله ليهديني إلى منزله الجديد ، ومنزله بالأجرة .
ورحت اجتاز سوق الحميدية ، وكل حوانيته ومخازنه مغلقة في هذا الصباح
الباكر . ولما بلغت محل « الغريواتي » لبيع الأدوات الكهربائية في الدرويشية ،
وجدته كغيره من الدكاكين ، مغلقاً ، وسرت بخطوات وثيدة نحو شارع النصر ،
وعلى ناصيته دار المندوب ومقر حكومة الانتداب ، وكانت تعرف في عهد الدولة
العثمانية بالمشيرية ، وأصبح القصر العدلي اليوم في مكانها .

وأمام دار مندوب المفوض السامي هذه كدست اكياس الرمل ، ووراءها
الجنود يتقلدون بنادقهم ، ويقفون وراء الرشاشات . مررت بها واجتازتها قليلاً
في شارع النصر ، وجلست فوق مقعد خشبي أرقب الغادين والرائحين ، والجنود
من مختلف الجنسيات والقوميات يملأون الشارع يسربون متقلدين بنادقهم .
وانقضت نصف ساعة ، خشيت بعدها أن يشتبه أحد بأمري ، وأنا بهذا اللباس
المزري ، لباس فقراء فلاحي الغوطة ، وهؤلاء اليوم موضع شبهة لدى السلطة
الفرنسية ودوائر الأمن ، لا سيما وأنا أجلس في شارع عام على مقربة من دار
المندوب ، فقد يمر أحد من الجواسيس يعرفني ، وللفرنسيين جواسيس كثيرون في
الغوطة ، ومن الفلاحين أنفسهم ، فقامت أسير متمهلاً إلى مدخل سوق الحميدية ،
وتجاوزته ، وسرت على الرصيف المحاذي له نحو الدرويشية ، وهنا خطر لي أن
أتوارى في دكان لبائع الفول ، واتناول فيها فطوري ، وكنت أرى من مكاني
محل الغريواتي مازال مغلقاً . ودخلت دكان الفوال ، وتناولت فطوري بشهية ،
وتماهلت ، ما استطعت ، ثم دفعت الثمن ، وخرجت لالقي المحل مازال مغلقاً .
ولفت نظري حلاق إلى جانب المحل له ستارة من مواسير القصب والخرز الأزرق
مدلاة بخيوط على الباب ، فدخلت دكان الحلاق التي فتحت قبل لحظات ، أقص

شعري ، وأحلق ذقني إصلاحاً لهيئتي ، ومضيعة للوقت ، وتسـترأ عن عيون الناس ، ولكن الحلاق لم يكن في دكانه ، وقال لي الغلام الأجير : « هل تود أن أحلق ذقنك ريثما يأتي المعلم ، ويقص الشعر ؟ » ، قلت : « نعم ! » .

وبدأ الغلام يحرق موساه على ذقني ، وفي كل جرة كان يحدث جرحاً ، وأنا ساكت اتحمل مرغماً .. ، وما كاد ينتهي حتى أقبل معلمه ، وهو شاب ، واخذ يتم ما بدأ به الغلام بمهارة ، ثم أمسك المشط ليبدأ بقص الشعر ، ولكن مشطه لم يغرز في شعري المتلبد من الوسخ والغبار والعرق والشقاء ، فلاحظت انه يبتسم وهو يعالج شعري بمشطه ، ابتسامة عجب ! .. فتداركت الأمر فوراً ، وقلت له : « لا تعجب لتلبد شعري ، فأنا اشتغل بتجارة الأغنام ، وقد انقضى علي أكثر من شهرين في البادية ، ننام ، ونقوم ، ونسير مع قطعان الغنم .. من العراق الى دمشق ! » ، قال : « من أي بلد انت ؟ » ، قلت : « من حماة ! » ؛ فصدق ، وسكت عندما قلت له انني سأذهب من دكانه الى الحمام . واستطاع بعد جهد ان يفرق الشعر المتلبد ، وان يقصه ، وهو يسألني عن العراق والبادية ، والأمطار ، والربيع ، والأمن فيها ، وأسعار الغنم ، وأنا اجيبه بما اعرف ، وما لا اعرف ، وهو حلاق يجهل مثلي تجارة الاغنام . ولما انتهى رجوته ان يبعث بغلامه ليرى جاره الغريواتي فتح محله ، ام لا يزال مغلقاً ؟ فعاد الغلام يخبرني انه فتح المحل ، وسألني الحلاق عما اذا كنت سأشتري من المحل ادوات كهربائية ، قلت : « كلا » ، ولكن لي مع احد مستخدميه عمل أريد ان انجزه ، وتوجهت فوراً الى الدكان لأرى رجلاً غير زوج خالتي جالساً وراء مكتبه ، وانحنيت احبي ، واسأل همساً عن قريبي ، فقال لي الرجل : « ان ابا بشير ترك العمل هنا منذ توفيت المرحومة زوجه ، وسافر اثرها الى حماة ! » ، فكدت اصعق للخبر ، إذ كانت خالتي في مكتمل صباها وصحتها ، لذلك حزنت عليها حزناً شديداً ، واستدرت لأخرج ، واذا بمستخدم شاب في المحل يعرفني ايام كنت اتردد على زوج خالتي في المحل ، واجلس طويلاً الى جانبه ، فقد سمع حديث زميله عن ابي

بشير ، وتفرس في وجهي ، واتسعت عيناه استغراباً ، لان قريبي حدثه ولا بد
عن التحاق بالثورة ، فاسرعت بالخروج من الدكان ، وسلكت الطريق الى حي
« سوق صاروجه » ، فزقاق « داور آغا » حيث يسكن ابن عم لي ، عامل في
معمل القدم للخط الحديدي الحجازي . ولما بلغت داره ، وطرقت الباب ،
خرج لي أطفال صغار لم اعرف احداً منهم . ولما سألتهم عن غالب الرئيس ،
تراكضوا الى داخل الدار ، وارسلوا لي خاله لطفي البينباشي . وكان يعرفني ،
ويعرف من ابن عمي غالب انني التحقت بالثورة ، فاتسعت عيناه وكاد يصعق
لما رآني ، ثم تمالك نفسه ، واخذ بذراعي يبعدني عن الدار ، قائلاً لي : « ان في
الدار غرقاً أجرت منذ اشهر لأسر غريبة ، ولهم اطفال كثيرون ، ولا يجوز ان
ادخلك أمامهم ، وأثير الشبهة ، لا سيما وابن عمك في الزوية عند والديه ! » ،
وكان عمي مديراً للمال في فيق مركز قضاء الزوية ، فلما اشتدت الثورة ، وغدا
معمل القدم مسرحاً للمعارك بين الثائرين والفرنسيين ، سافر ابن عمي الى
والديه ، بعيداً عن خطر الثورة في دمشق ، وظل خال ابن عمي يقودني حتى
وقفنا على باب دار قريب من داره كان يجلس أمامه رجل متقدم في العمر ، وفي
حضنه طفل يداعبه ، عرفت انه عدیل عمي وصهر لطفي البينباشي ، وهو ضابط
عثماني متقاعد سكن حديثاً هذه الدار القريبة من أهل زوجته ، فلما وقعت عيناه
عليّ عرفني ، وكان على علم بحالي ، فدهش لمجيئي ، ولكنه وقف ، ودعانا
للدخول ، وجلسنا في غرفة الاستقبال يستفسر مني عن سبب قدومي الى دمشق ،
وتعريض نفسي للخطر ، ولما رويت له قصتي قال : « ان بيت عمك لا يصلح
لك ، فأهله ليسوا هنا ، ويسكنه غرباء .. فماذا أنت فاعل بعدها ؟ » ، قلت :
« لم يبق أمامي غير بنت خالتي ، وزوجها حموي يسكن في جادة الصالحية ،
لعله يؤويني في بيته بضعة أيام ! » ، قال : « ان هيتك هذه ، مربية ،
فحذاؤك ليس له لون ، لأنه لم ير الصبغ والمسح منذ أشهر ، ويدل على شقائك
في الثورة ، فامسحه عند أول ماسح أحذية في طريقك ! . وهذه الكفية على
رأسك لا أراها تتناسب مع لباسك .. فما رأيك في أن تلبس طربوشاً ؟ » ،

وذهب ، وعاد الي بطربوش قديم من طرابيشه ، وسر لأنه وافق قياسه رأسي ، فشكرته ، وشربت القهوة عنده ، وودعته مع ابن حميه ، وخرجت أضع الكفية تحت قبة المعطف ، وأسعى الى جادة الصالحية ، أمر ببعض معارفني في الطريق فلا يعرفني ، واحدهم عبد الوهاب عمر باشا ممن التحقوا مدة قصيرة بالثورة . وعجبت كيف يسير طليقاً في شوارع دمشق ، ولا يخشى أن يعرف الفرنسيون دخيلة أمره . ولما بلغت عرنوس ، عرجت على شارع « يوزبك » ، فشارع التكريتي .

وقفت أمام باب الدار أطرقه ، فيجيبني ، بعد انتظار ، وتكرار ، صوت سيدة من داخل الدار ، وقبل أن يفتح الباب سمعت صوت رجل من الرصيف المقابل في الشارع يسألني ماذا أريد ، وألثفت إلى مصدر الصوت ، وإذا بزوج ابنة خالتي جالساً بملايس النوم في الشمس على كرسي ، وفي حضنه غلام من أولاده ، فاتجهت اليه ، ولما دنوت منه ، وسلمت عليه ، لاحظت أن أعصابه انحلت ، وكاد يتلاشى على الكرسي ، وسألني بصوت خافت مخنوق : « ماذا جاء بك إلى هنا ؟ » ، وحدثته حديثي ، وكيف قصدت بيت خالتي التي هي خالة زوجه ، وعرفت أنها توفيت ، وسافر زوجها الى حماة ، كما حدثته حديث ابن عمي الغائب في الزوية ، وأنه لم يبق لي في دمشق قريب غيره ! فقال : « وكيف تجرؤ على القدوم الى هنا ، والشارع هذا في الحي الاوربي من دمشق ، مليء بالفرنسيين ، وخاصة بضباطهم ، وأولادي يعرفونك ، ويعرفون انك في الثورة . وكل يوم يلعبون أمام باب الدار في الشارع لعبة الحرب بين فرانساة والثائرين ، فكيف أضمن أنا وبنات خالتك ألا يذيعوا سر وجودك في بيتي ، فيقبض علي . وعليك ، وتشنق ، وربما أشنق أنا معك ، ويقضى على أسرتي كلها ؟ . لقد كان عليك أن تذهب الى حي شعبي كحي الشاغور تبحث لك فيه عن مأوى ، فهو بعيد عن سكنى الاجانب والغرباء ! . » قلت : « ومن لي في الشاغور ؟ » ليس لي فيه قريب ، ولا أعرف أحداً من أهله . ويوم دخلت دمشق ، كنت أحسب أن

خالتي على قيد الحياة ، وبيتها غير القبر الذي سكنته إلى الأبد ! » . قال :
« وماذا تنتظر الآن ؟ قم ، وانج بنفسك !... » . قلت : « مهلاً ، اني مغادرك
الآن ، فاقرأ ابنة خالتي سلامي ، ولتطمئن أهلي في حماة عني ، ان امكنها ،
ولتخبرهم انني ما زلت حياً أشقى في سبيل وطني .. » ومر في تلك اللحظة
سرب من نساء الحي محجبات متبرجات ، تفوح العطور من أكمامهن ، فقلت في
نفسي : « لقد كتب عليك ان يتنكر لك أقرب الناس اليك ، ويبتعدوا عنك ،
ابتعاد السليم عن الأجرب ، لا لجرمة ارتكبتها ، بل لانك تحب وطنك ، وتجاهد
الاجنبي الغاصب في سبيله .. وهم يعيشون في أحضان هؤلاء النسوة .. وأنت
تموت كل يوم أكثر من ميتة . أليس هذا الوطن وطنهم مثلاً هو وطنك ؟ » .
وانتفضت ، وحييت قريبي ، وابتعدت عنه الى زقاق القداح ، اجتازه الى جادة
الصالحية ، لأجد نفسي على مقربة من الجسر الأبيض ، والحصن مفتوح الشريط ،
يقف الى الرصيف الأيسر ، بجانب أكياس الرمل المقدسة ، الجنود الفرنسيون ،
وموظفون مدنيون ، يدققون في هويات المارة ، فاجتزت الجادة إلى الرصيف
الأيمن ، وتقدمت الى دكان بقال بجانب منزل آل المؤيد العظم ؛ لأشتري علبة
تبغ وألقي نظرة جانبية على الجسر أبحث عن وسيلة لإجتيازه فقد كانت
وثائق هلاكي في جيبي وليس لدي هوية ، وهويتي توصلني - كما قلت - الى المشنقة ،
فقد كان صدر علي من المجلس العدلي في دمشق حكم غيابي بالموت ونشر الحكم في
الصحف المحلية . لقد لاحظت وانا واقف امام الدكان ان حافلات الترام ينزل
منها ركابها قبل محطة واحدة ، وتسير خالية من الركاب ، تجتاز الجسر ونقطة التفتيش
وتدقيق الهويات لتبدل اتجاهها وتعود الى قلب المدينة فقد كان حدها في الثورة من
من ساحة الشهداء الى الجسر الأبيض ، لا تتجاوز الى المهاجرين ، ولا الى الصالحية
والشيخ محي الدين . وخطر لي ان اجازف ، فانتظرت حافلة خالية وهي تصعد
متمهلة الى الجسر ، ولما حاذتني سرت على الرصيف الى جانبها ، وهي تحجبني
عن عيون الموظفين والجنود الواقفين على الرصيف الايسر ، ووفقت بين سيرها
وسرعة خطواتي ، حتى تجاوزت الجسر ونقطة التفتيش ، واصبحت في اول

طريق الشيخ محي الدين ، دون ان ينتبه لتسللي احد . وسرت بعدئذ بخطوات هادئة الى حي الاكراد ، ومنه الى القابون حيث بدلت ملابسني ، وتابعت سيري الى قرية « زملكا » اسأل عن رفاقي الذين كنت اطلعتهم على عزمي فلم اجد احداً منهم . واخذت اطوف يومين في القرى حتى التقيت بفوزي القاوقجي وسعيد العاص واخوانهما في اليوم الثالث والعشرين من آذار ، في قرية « قبر الست » ، وحدثتهم بما تم لي ، واصبح شغلي الشاغل ان احصل على بندقية ، فأعارني نزيه المؤيد بندقية فرنسية حملتها بضعة ايام ، ثم اعدتها له شاكراً ، بعد ان تيسرت لي البندقية ، وانا مدين بها لفوزي القاوقجي الذي قام بتمشيلية ماهرة ، حتى مكنتني منها ، ولا بأس ان نروي قصة البندقية فهي طريفة تستحق الرواية .

كاد الفقر أن يكون كفراً !..

دعا نسيب البكري زعماء العصابات الى قرية « بالا » ، واقام لهم في حانوت شكري القوتلي مأدبة عشاء لا أعلم من أين أتى بتكاليفها ، وكان باع مسدسه في السويداء ليأكل ويطعم راحلته . ولكن أمثاله لا يعجزهم إيجاد المال ، والدكتور الشهبندر قد يؤثره على غيره ، ويخصه بمبلغ من الإعانات التي اخذت تصل تباعاً الى الجبل ، ويشترى ولاءه ، فالزعامة تحتاج الى موالين ومؤيدين وابواق !. ومنذ أخذت الإعانات ترد باسم سلطان الأطرش وباسم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر تحسنت احوال ابي عبده ديب الشيخ ، ونزيه المؤيد العظم ، ونسيب البكري ، واصبح حول الثلاثة رجال مسلحون في الغوطة يرافقونهم اينما حلوا واني رحلوا . أما منير الرئيس الذي تحطمت بندقيته في القتال ، فلا يستحق ثمن بندقية من أموال الإعانات ، ولم يستحق من قبل رyalين ثمن مداس « بسطار » يوم حفيت قدماه ، فمن عليه الزعيم الشهبندر بجذائه القديم ذي الذكريات المجيدة في نجرد الزبداني وبلودان !..

جاء زعماء العصابات ، ومع كل واحد منهم بضعة فرسان حرسهم الخاص ، وصعدنا مع الزعماء وخدمهم الى غرفة في الطابق العلوي من الحانوت ، نجتمع ، ونتداول شؤون الثورة ، وبقي المرافقون في فناء الحانوت ، واذا بفوزي القاوقجي ، يصعد ، ويقف في باب الغرفة ، ويشير بيده كي أوافيه ، ولما دنوت منه همس في أذني ، خارج الغرفة ، بان على باب الحانوت ، أي مصراع الباب المفتوح ، اسندت بندقية انكليزية صاحبها ليس بجانبها ، وطلب مني ان أهبط الى فناء الحانوت ، وان آخذها ، واخفيها في مكان من البساتين القريبة ، لأنني أفضل في نظر قيادة الثورة من حاملها ، وهو احد مرافقي رئيس من رؤساء العصابات ، يستطيع رئيسه ان يشتري له بندقية غيرها ، فرؤساء العصابات اكثرهم من النهابين ، ودفعني بيده لأهبط السلم سريعاً ، ففعلت ، ولما اقبلت على الباحة وجدت فيها عدداً من مرافقي رؤساء العصابات ، وهم من العامة ، يجتمعين حول حمار واثنان ، يمرحون بأن يروا الحمار ينزو على الأتان ، وهم في ضحك وضجيج مشغولون عن كل ما حولهم ، وليس اسهل من خطف البندقية المسندة على الباب ، بعيداً عنهم ، والخروج بها في ظلمة الليل ، واخفاؤها في بستان قريب ، ولكنني لم اقدم على اخذها ، لا جبناً ولا خوفاً ، ولكنني كنت أرى العملية ، في حد ذاتها ، سرقة ، مهما يكن شأن صاحب البندقية ، فهو ثائر مثلي ، لا يحق لي ان أسطو على بندقيته ، وربما كان خيراً مني في جهاده ضد العدو ، وعدت ادراجي الى مكان الاجتماع لأجد القاوقجي يسألني بغمزة عين عما فعلت ، فأشرت اليه برأسي سلباً ، وأدرك انني لم اقدم على اخذ البندقية ، فخرج بنفسه ، وهبط السلم ، وبحث عن احد مرافقيه او جماعته ، فقابله الحاج مصطفى الديب احد الثائرين الحمويين ، الذي رافق القاوقجي بعد ثورة حماة في البادية والى العراق ، وسرعان ما أوعز اليه بأن يخطف البندقية ، ولما فعل أمره ان يسلمها الى عبد الحميد المرداوي الجندي الفلسطيني الذي التحق بالثورة ، ورافقنا دون سلاح ، وكان يخدم فرسي ويعنى بها . فأخذ البندقية ، وحسب أمر القاوقجي اخفاها في احد البساتين القريبة ، وعاد ، وعدنا الى غرفة الاجتماع نبحث شؤون الثورة ،

واذا بالضجة تقزع آذاننا ، فقد انتهت عملية النزو ، وجاء الثائر الدمشقي يبحث عن بندقيته فلا يجدها ، ويعلو صياحه ، وتعلو ضجة رفاقه معه ، ويأتي بعضهم الى غرفة الاجتماع نادباً ضياح البندقية ، ويقول صاحبها انه اسندها الى باب الحانوت ، وبعد دقائق عاد ولم يجدها . وكثر القيل والقال حول البحث عن البندقية ، ولكن فوزي القاوقجي انهى الموضوع بأن اعلن ان الرجل ثائر من اخواننا ، وحضر مأدبتنا ، فسرقت بندقيته بسببنا ، ولا يجوز ان يبقى دون بندقية ، ونحن رؤوس الثورة والعصابات هنا ، فليتبرع كل منا بريالين لنعوض عليه ثمن بندقيته !

وأخرج من جيبه ريالين ، كان أول من وضعها في منديل ، ثم طاف على المجتمعين ، فتساقطت الريالات في المنديل ، وجاء دوري فتبرعت ايضاً بريالين من ثمن البندقية المبتورة ، وتسلم صاحب البندقية ثمن بندقيته أكثر مما تساوي ، بل ضعف ثمنها ، وخرج مسروراً . وبعد المأدبة حملنا البندقية ، وبعناها في قرية بعيدة قليلاً ، بثلاث ليرات ذهبية ، لأنها انكليزية ، وعتادها نادر وغالي الثمن . وأضفت ليرة من ثمن البندقية المبتورة على المبلغ ، واشترت بأربع ليرات ذهبية بندقية فرنسية قصيرة يتسع خزانها لثلاث رصاصات ، ظلت معي إلى نهاية الثورة . وكنا كلما تذكرنا تمثيلية فوزي لتسليح رفيق له بالسلاح عزيز عليه ، أكبرنا ذكاه ، فقد وصل الى غايته في تسليح الرفيق ، وعوّض على صاحب البندقية ضعف ثمنها .

ان الفقر كاد ان يكون كفراً ، كما يقولون في المثل ، ولولا تمثيلية فوزي لصعب شراء بندقية لي ، ولأصبحت عضواً أشل في الثورة ، لأن فوزي والعاص وأي واحد من الضباط والمثقفين الذين اشتركوا بالثورة ، وخاصة السابقين منهم ، كانت جيوبهم خالية من المال ، إلا من دراهمات قليلة ، كانوا حريصين عليها ، لشراء عتاد أو غذاء أو علف لجيادهم ، يوم لا يجدون من يضيفهم ويطعمهم .

لقد كثرت الاجتماعات في الغوطة ، بعد اجتماعات الواحد والثلاثين من آذار في قرية بالا ، بين رؤساء العصابات . وكانت الدعوة يوجهها اليهم فوزي القاوقجي ، مستعيناً بنسيب البكري ، وبمعرفته كدمشقي باكثر رؤساء العصابات ، وكان البحث يدور ، في هذه الاجتماعات ، حول تأليف مجلس يتولى شؤون الثورة في الغوطة ، والقبول بالنظام الذي اقترحه القاوقجي قبل سفره الى النيك . وفي كل مرة كان فوزي القاوقجي يتحدث ايضاً عن تأليف قوة من عصابات الغوطة تزحف الى قلمون لإعادة نفوذ الثورة اليه ، وإفساد خطة الفرنسيين في ضرب مناطق الثورة الواحدة بعد الأخرى .

ولكن رؤساء العصابات كانوا في منأى عن كل هذا ، لا يفكر واحد منهم ان يفارق الغوطة ، وله فيها مقر في قرية او قريتين ، يحتلها بعصابته كأنهم ملكه ، ويعتبر فلاحها رجاله ، فإذا جن الليل أرسل بعض افراد عصابته يتسللون إلى حيهم في دمشق ، ويبلغون انذارته الى الاغنياء في الحي بأن يتبرعوا لعصابته ، ويفرض عليهم المبلغ الذي يراه من المال ، كما يرسل إنذاراته إلى اصحاب الحوانيت الزراعية في منطقته مع



المجاهد الامير نسيب شهاب

عمالهم الزراعيين ، والمرابطين كما يسمونهم في الغوطة ، فتأتي إليه الأموال لا يحاسبه عليها احد . وهو نفسه يتسلل احياناً إلى الحي ، ويزور منزله ، ويبيت بين زوجه واولاده ، إن كان رب اسرة ، لأن الأحياء القديمة قل ان يطرقها الفرنسيون ، وخاصة في الليل ، فهم يتهيبون الخروج من ثكناتهم وحصونهم وجحورهم . أما منازلهم في الحي الاوربي ، كما يسمونه ، أي في جادة الصالحية ، من بوابتها الى الجسر الأبيض ، فهي محروسة

من داخلها يجنود السنغال ، وبدوريات تطوف فيها ، ويمنع التجول المفروض على المدينة في الليل. ان رؤساء العصابات في الغوطة لا يغادرون منطقتهم باختيارهم ، وهم مرابطون على ابواب مدينة دمشق ، تأتيهم الغنائم كما يشتهون ، من الأغنياء وأصحاب المزارع ، أما القتال فهو اختياري في أسلوبهم ، فإن شاءوا دخلوه لحظة ، ثم انسحبوا بحجة ألا طاقة لهم بمعدات الحملة الفرنسية ، وان شاءوا تجنبوه ، وأبتعدوا عن ساحته . وقد اعجبهم من اقتراحات فوزي القاوقجي شيء واحد ، هو اقتراح فرض الضرائب على سكان القرى وأفراد العشائر بدءاً بتعداد الأغنام ، ثم بضريبة العشر ، وضريبة الأراضي والمسقفات ، فكيف يتخلى أي منهم عن نصيبه من هذه الضرائب التي تقرر في احد الاجتماعات فرضها؟ إن تحذير القاوقجي والعاص ومن معها من ضباط ومثقفين بأن الفرنسيين في خطتهم المرسومة ، سيضربون ضربتهم في الغوطة ايضاً ، اذا ما اخمدوا الثورات في المناطق الأخرى ، امر ما يزال في عالم الغيب ، لذلك كانوا يصمون آذانهم كلما طلب منهم القاوقجي مئة مسلح من تائري الغوطة يتوجه بهم الى قلمون ، ثم الى الشمال ، ولا يهزم قولهم انه تلقى من وطنيي مدينته طرابلس الشام يدعونه فيها للحضور الى الجبال في شمال لبنان ، أي في منطقتهم ، ويؤكدون له استعداد سكان الضنية وعكار وشمال لبنان للثورة ، والقيام بواجبهم نحو وطنهم ، وإنزال الضربات بالفرنسيين في الاماكن الحساسة ، ويقولون إن هناك تبرعات طائلة جمعت سرّاً لمساعدة الثورة في حال نشوبها في منطقتهم .

مع الدبابات في قصف برزة

- ٧٢ -

نشبت في اليوم الثامن والعشرين من آذار بين الفرنسيين وعصابة الميدان معركة في حي الميدان نفسه تكبد فيها الفرنسيون حوالي خمسين قتيلًا ، واستشهد فيها أبو النور حباب من الوجوه المعروفة في عصابة الميدان والنافذين في الحي ، واستشهد معه ثلاثة آخرون .

توجهت صباح الثاني من شهر نيسان ١٩٢٦ مع فوزي الفاوقجي ، ونسيب البكري ، وزكي الدروبي ، وعادل الحامدي ، وسعيد الترماني ، والشيخ توفيق سوقية الى قرية القابون ، وتغدينا في حانوت آل البكري ، أي في البيت القائم وسط مزرعة آل البكري ، وتفرقنا ، بعد الغداء ، في الغرف نستجم ، مطمئنين الى ان موعد زحف الحملات الى الغوطة انقضى مع الفجر ، أو الصباح . ولكننا حوالي العصر ، فوجئنا ببعض الفلاحين يتراكمضون الى الحانوت منذرين بزحف رتل من الدبابات الى مفرق القابون على طريق دمشق - دوما ، فبادرنا الى اسلحتنا نتقلدها ، وسلم الفرسان منا جيادهم لمن يحفظها بعيداً عن المعركة .

انطلقنا من باب الحانوت بضعة مسلحين نتقدم نحو المكان الذي قيل لنا ان الدبابات وصلت اليه ، لنترصده الجنود أو الحملة التي لا بد انها ترافق الدبابات ، ولنعرف اتجاه العدو وهدفه . ولم نكد نبتعد حوالي خمسين متراً عن الحانوت ، واذا بنسيب البكري وزكي الدروبي يخرججان منه ، منطلقين منه بجواديهما الى الجهة المعاكسة لاتجاهنا ، فصاح بهما الفاوقجي يدعوهما ، وينبهما الى مكاننا بين الشجر ، ولكن نسيب البكري قال له انهما ذاهبان لإبلاغ الثائرين في القرى

الأخرى نبأ الدبابات ، ونبأ زحف الحملة وراءها .. فضحكنا ، لاننا نعرف ان
الرجلين لم يدخلوا معركة كل أيام وجودهما في مناطق الثورة ، ويتجنبان كل
معركة تنشب بالابتعاد عن ارضها وساحتها . واذا كان لنسيب البكري بعض
العذر ، فهو في نشأته وبيئته غير محارب ، إلا ان زكي الدروبي ، وهو من ضباط
الدرك ، ليس له أي عذر في تجنب المعارك ، والهرب منها بهذا الشكل المزري
أمام سائر الثائرين .

تقدمنا في بساتين القابون ، وتوغلنا نحو مفرق « القابون » ، واذا بفلاح على
ظهر دابته يسير خبياً نحو القرية ، فأندره الشيخ توفيق سوقية ، بصوت مدو ،
بان يقف ، وهدده بالبندقية ، مما أثار عجبنا ، وقلنا له : « مالك والرجل ؟ » ،
قال : « يجب ألا يركض حتى لا يشبط العزائم » ، فضحكنا ، وتركنا الرجل
يذهب الى حال سبيله ، بعد أن تأكدنا من وجود الدبابات التي قال انه رآها
ترابط عند موقف « الديليجانس » من مفرق القابون .. والديليجانس مركز
لنقل البريد بالمركبات في الماضي ، قبل عهد القطر والسيارات ، يقف عنده
السعاة ، وتبدل فيه جياد المركبات .

تابعنا سيرنا نحو المكان ، ولكن نائراً شاباً من القانون لحق بنا وأنبأنا بأن رتلًا
آخر من الدبابات يتجه الآن بطريق حي الاكراد الى القابون ، وانه دنا منها ، وان
مسلحي القابون تحصنوا في غابة الزيتون المشرفة على طريق دمشق — برزة ،
استعداداً لمقابلة الجند ، ان كان وراء الدبابات حملة ، فعدنا ادراجنا ، نحو
طريق برزة ، واذا بست دبابات في سهل القابون ، على الطريق ، تتجه رتلًا
متقطعاً نحو برزة ، فاسرعنا الى غابة الزيتون ، واخذنا أمكنتنا الى جانب
مسلحي القابون ، وهم بضعة وعشرون نائراً . وتوقفت الدبابات عن السير ، ثم
اخذت تتقدم ببطء حتى حاذتنا ، وليس هناك من أثر للجند وراءها . ورفع
فوزي القاوقجي بندقيته ، وصوبها الى دبابة من الرتل ، ولكن توفيق سوقية

أمسك بذراعيه راجياً ألا يطلق ، لأن طلقة واحدة تدل الدبابات الى مكاننا
فتلهبنا بنيرانها ، دون ان نستطيع تأثيراً بها ، فتظاهر القاوقجي بالقناعة ،
ولكنه عاد فجأة للتسديد ، وانقض الشيخ توفيق ، وأمسك بسبطانة البندقية ،
ورجا بتذلل ألا يطلق بندقيته ، حتى كاد يقبل يديه .. وضحك القاوقجي ،



الجلوس من اليمين المجاهدون : خير الدين اللبابيدي ،
صبري العسلي ، فائق العسلي .

الوقوف من اليسار : حكمت العسلي ، اديب العسلي ،
ممدوح العظم ، نسيب شهاب ، ابو فهد عزيزية

وقال للشيخ : « اين صوتك المدوي الذي أرعب الفلاح الاعزل ، وبندقيتك التي
سددها الى صدره ؟ ! هلا أريتنا رجولتك الآن ! .. » ، وتذلل الشيخ توفيق

بصوته الخافت ، وضحكنا ، وتقدمت الدبابات حتى تجاوزتنا اوائلها ، واخذت تقصف قرية « برزة » بمدافعها قصفاً شديداً ، وتطلق نيران رشاشاتها زهاء ساعة ، ثم عادت ادراجها بطريق حي الأكراد الى دمشق . وعندئذ ادركنا ان الغاية من زحف الدبابات هي قصف قرية « برزة » ، وان رتل الدبابات الذي رابط عند مفرق القابون على طريق دمشق - دوما كان لمنع العصابات من الوصول الى القابون خلال فترة القصف .

عاد نسيب البكري وزكي الدروبي في المساء الى القابون ، وقضينا ليلة في حانوت آل البكري تتمتع من شرفاته بمشاهدة حي الأكراد وحيي الصالحية والمهاجرين تتلأأ مصابيحها كالنجوم في الليل على سفح قاسيون . وقد تجدد حنيننا وشوقنا الى دمشق ومقاصفها الجميلة ، وتجددت ذكرياتنا فيها .

وفي صباح الثالث من شهر نيسان توجهنا من القابون الى قرية « زبدین » ، وهناك بلغنا في اليوم الثاني ان الدروز في اللجاة أحرقوا قطاراً ، يوم الرابع من نيسان ، على خط دمشق - درعا . وقد اصبح هذا الخط ، بعد احتلال اللجاة شبه معطل ، لان الثائرين في اللجاة كانوا يسرون في الليل من معاقلهم ، ويخربونه ، إلى جانب ما تقوم به عصابات الغوطة ، وخاصة منها عصابة الميدان ، من تخريب ، في أماكن قريبة من دمشق . وكثيراً ما كان يحدث التخريب في ليلة واحدة في الجبهتين ، فيصعب على الفرنسيين إصلاحه ، وهو خط مهم بالنسبة لمراكزهم وحامياتهم التي ترابط في حوران ، وفي أكثر المحطات ، فكانوا يضطرون الى استخدام السيارات في نقلياتهم .

إخلاء آخر مخفر فرنسي في الغوطة

بلغنا في اليوم الخامس من شهر نيسان ، عن مصدر ثقة ، ان حملة فرنسية ستزحف في الغد من دمشق لإلغاء مخفر دوما . والمصدر الثقة ، كما قلنا من قبل ،

هو الكابتن عطف القائد العربي في قوات الصباحيين في دمشق ، فأرسلنا الكتب الى جميع رؤساء العصابات نطلب منهم الاستعداد للقاء الحملة .

وفي صباح السادس من نيسان رابطنا مع عدد من العصابات في بساتين عربين الى قرية مديرة . وكانت الحملة قوية بآلياتها ، يرافقها اكثر من عشرين دبابة ، اشتبكنا معها في معركة حامية ، لما بلغت بساتين عربين وحرسنا الى مديرة . وعندما بلغت الحملة بساتين دوما انضم اليها جنود حامية دوما ، بعد ان أقاموا ، في مخفرهم نحو خمسين دركياً جاءوا من دمشق ، على رأسهم الضابط عبد الغني القضباني ، وعادت الحملة لتوها الى دمشق . وكانت أكثر العصابات تفرقت لظننها ان الحملة لا بد ان تقيم ليلة في دوما للراحة والاستعداد . لذلك كان عدد الثائرين الذين اشتبكوا معها هذه المرة قليلاً ، لاحقتهم الدبابات الكثيرة التي رافقت الحملة في معاقلمهم ، وأرغمتهم على الانسحاب منها . والدبابات في حروب الغوطة سلاح قاطع لا وسيلة لدى الثائرين لصدها .

وقد استمرت المعركة الى ما بعد الظهر ، واستشهد فيها الضابط المتقاعد ابو تركي سرحان الخالدي ، واربعة آخرون من المجاهدين . أما الفرنسيون فتقدر خسائرهم بحوالي مئة وخمسين قتيلًا وجريحاً . وبذلك خلت الغوطة من المخافر الفرنسية . وقد غنم المجاهدون في هذه المعركة صناديق عديدة من العتاد ألقاها الجنود المغاربة العرب في الحفر ، وفي المنخفضات ، ووراء سوق الأشجار ، حتى يفيد منها إخوانهم الثائرون في سوريا ، هذا عدا الأمشاط من الاعتدة فقد كان أبناء الفلاحين يجمعون منها اثر كل معركة ، من الارض المئات والالوف ، ويعطونها أو يبيعونها للمجاهدين .

هدنة بين الثائرين والدرك في دوما

أخذ الثائرون ، بعد جلاء الفرنسيين عن دوما يدخلونها في الليل والنهار ،

ويخرجون منها دون خوف أو وجل ، لان جنود الدرك القلائل في مخفرهم المنعزل عن الاحياء والبيوت ، كانوا لا يتدخلون في شؤون الثورة ، وكل همهم ألا يعادوها ، وألا يهاجمهم أحد ويسلبهم سلاحهم ، فهم مضطرون للتجول في أسواق دوما لشراء ما يلزمهم من مؤن وطعام . لذلك تم شبه اتفاق بين زعماء دوما وبين القضائي قائد سرية الدرك على الا يعترض المجاهدون والدرك سبيل بعضها بعضاً ، فكان جنود الدرك يذهبون الى أسواق دوما عزلاً من السلاح ، وإذا شاهدوا ثائراً ببندقيته غصوا النظر ، وتجاهلوه ، لذلك كان اهالي دوما يطلبون ، بالمقابل ، من المجاهدين الذين يؤمنون أسواق دوما ان يأتوها دون سلاح ، وان يتركوا اسلحتهم في المنازل ، ويتجولوا في انحاء البلدة كما يشاءون . وكان أهالي دوما ، أو قل عقلاؤها ، حريصين على بقاء قوة الدرك في بلدهم ، كي لا يعدها الفرنسيون من البلدان النائرة عليهم ، يغيرون عليها بطائراتهم ، تدمر منازلها على رؤوس سكانها ، لا سيما ودوما أصبحت في الثورة ملجأ لالوف العائلات النازحة من قرى الغوطة بسبب المعارك التي كانت تنشب بين الثائرين والحملات الفرنسية ، والفظائع التي كان يرتكبها الفرنسيون ضد السكان الآمنين . وكان الثائرون بدورهم حريصين ايضاً على الا يتعرض الدومانيون والنازحون الى بلدتهم لقصف الطائرات ، وان تبقى دوما بلدة هادئة تبتون عصاباتهم بالدقيق وبكل مواد الغذاء وما يفتقدونه في دكاكين القرى التي اقفرت واغلقت أبوابها في الشهور الاخيرة . وقد زرت دوما في اليوم الثاني من إلغاء مخفر الفرنسيين منها ، مع سعيد العاص ، وسعيد الترماني ، وابتعنا بدريهمات قليلة ما لا غنى لنا عنه من اللوازم في السوق . وكنا نمر بجنود الدرك العزل من السلاح ، فلا يلتفتون الينا ، ويتجاهلون اننا ثائرون .

نستطيع ان نسمي هذه الفترة من ايام الثورة في الغوطة فترة اجتماعات كانت تعقد بين رؤساء العصابات ، وليس هناك من علائم الثورة غير المدفعية الثقيلة ، من قلاع وثكنات دمشق ، تقصف القرى في الغوطة ، حيث يعرف الفرنسيون

انها غدت ملاجئ للعصابات . ويعزى هذا الهدوء النسبي إلى انشغال الفرنسيين بحشد قواتهم في مواقع الخط الحديدي في حوران استعداداً للزحف الى جبل الدروز ، فهم مشغولون اليوم بالاهم عن المهم ، لا سيما وقد حصنوا دمشق ، وطوقوا جزءاً كبيراً منها بخط دفاعي تسهر عليه الحاميات في الحصون « البراجات » ، وسلطوا مدفعيتهم على قرى الغوطة وبساتينها تقصفها ليل نهار . ولم تخف اسباب هذا الهدوء على العسكريين والمثقفين من المجاهدين في الغوطة ، بل اخذوا يفكرون بوضع خطة لمهاجمة دمشق ، ومحاولة احتلالها جدياً ، اثناء تعرض الفرنسيين بحملاتهم لجبل الدروز . وكان من الخطة ان توزع العصابات على احياء المدينة وقلاعها وحصونها ، فيعهد لكل عصابة بعمل تتولاه ، ولا تلتفت الى غيره ، ثم تقطع مياه الفيضة عن المزة وقلاعها وثكناتها ، في اثناء حصارها ، وتخریب الخطوط الحديدية ، ونسف الجسور عليها . وكانوا يتكتمون بالخطة حتى لا ينتشر أمرها بين الثائرين ، فتنتقل الى آذان الجواسيس في الغوطة ، وهم كثير ، فقد أعدمت العصابات اكثر من مئة جاسوس من الرجال والنساء ، حتى اضطر الفرنسيون لأن يستخدموا اخيراً الأولاد ، والبلهاء والمعتوهين ، فينكشف أمرهم سريعاً ، ويصرحوا بأسماء رفاقهم في شبكات الجاسوسية عند أقل ضغط عليهم من الثائرين . .

الشهبندر يحاول تنظيم الثورة في الغوطة

- ٧٣ -

وبينا كانت الاجتماعات تترى بين العسكريين ورؤساء العصابات في الغوطة ، وصل الطبيب عبدالرحمن الشهبندر ، قادماً من السويداء ، يرافقه المقدم الركن في الجيش العثماني مصطفى وصفي وهو دمشقي من آل السمان ، و خليل الحموي من

الشباب الوطنيين الذين التحقوا بالثورة ، ولم يبقوا طويلاً فسافروا الى الجبل ، ثم الى عمان . وصادف وصولهم يوم عيد الفطر ، وفق الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٢٦ . وقد دعا الشهبندر فور وصوله الى اجتماع عقد في اليوم الثاني في قرية « بالا » حضره جميع زعماء العصابات ، واعقبه باجتماع ثان عقد قبيل ظهر الخامس عشر من نيسان في قرية « عقربا » ، تقرر فيه تأليف مجلس وطني من زعماء



المجاهد صبري العسائي

العصابات والضباط والمجازين بالحقوق من الثائرين ، فلا يكون لهذا المجلس رئيس حتى لا يختلف اعضاؤه على الرئاسة ، وانتخب مصطفى وصفي قائداً عاماً للغوطة ، كما أراد الشهبندر ، وسجلت قرارات المجلس في ضبوط الجلسة ، ولأول مرة دخلت اجتماعات زعماء العصابات في طور الانتظام . واتفق في هذه الجلسة على عقد اجتماع ثالث في قرية عقربا ايضاً ، وما أزفت الساعة المحددة لموعده الاجتماع حتى امطرت المدفعية من قلاع دمشق القرية بوابل من قذائفها ، فلم يشأ احد من المجتمعين فض الاجتماع ، لكن الدكتور الشهبندر فضه ، وطلب من المجتمعين

الخروج الى بساتين القرية ، قائلاً : « ان قبيلة واحدة تصيب محل الاجتماع تنقذ الفرنسيين من كل زعماء الثورة في الغوطة ! » ، فانتقلنا بين تفجر القذائف ودخانها الذي غطى سماء القرية الى البساتين ، نستأنف الاجتماع ، وفي نفوسنا تساؤل : « من أين عرف الفرنسيون موعد الاجتماع اليوم ، ولم يقرر أمس الا بحضور رؤساء العصابات والضباط والشباب المثقف ، وهم عدد صغير من الثائرين ؟ » ،

ثم فكرنا ان ليس شرطاً ان يكون الجاسوس بيننا ، فكل من حضر الاجتماع من رؤساء العصابات تحدث الى افراد عصابته عما تم في الاجتماع ، وعن موعد الاجتماع في عقربا ، فسمعت اذن جاسوس ، ونقله الى الفرنسيين . بعد اكثر من ساعة توقف القصف ، فعدنا الى اجتماعنا في القرية . وتم في هذه الجلسة انتخاب لجنة تنفيذية للمجلس الوطني ، ولجنة اخرى لاعانة المنكوبين في الغوطة ، وتقرر احداث قوة اجرائية ترتبط بالقائد العام ، ضباطها وافرادها لهم رواتب حددت



فئة من الشباب المثقفين في الثورة السورية :
من اليسار صبري البديوي ، شوكة العائدي ، نزيه المؤيد ، زكي
الدروي ، القائد فوزي القاوقجي ، أبو علي رشيد الصحنائي
نسيب شهاب ، فائق العسلي ، اديب العسلي

في تلك الجلسة ، ثم عقد الشهبندر اجتماعين آخرين في الغوطة ، وغادرنا بعدهما عائداً الى الجبل . وقد سعيانا مع فوزي القاوقجي وسعيد العاص لدية كي يساعدنا على تنظيم قوة تسير الى الشمال ، مهمتها إعادة نفوذ الثورة الى منطقتي الجورة وقلمون ، ثم توسيع الثورة الى الشمال ، والى الغرب في جبال طرابلس ، فوعدنا بأن يسعى لدى سلطان الأطرش كي يجهز هذه القوة من الدروز ، فاستبعدنا

ان يقبل سلطان باقتراحنا الذي عارضه من قبل ، فكيف لا يكون اشد معارضة له اليوم ، وانباء حشد الفرنسيين على الجبل اصبحت مؤكدة لديه ؟ .. لقد كان بوسع الشهبندر ان يساعد على تأليف هذه القوة من الغوطة ، بعد ان اقنع الجميع بعدم مهاجمة دمشق واحتلالها ، ومقاتلة الفرنسيين في شوارعها صوناً لها من الحرق والتهديم ، والانتظار حتى تظهر نيات فرنسا نحو جبل الدروز ! .. والإقناع تم لأن عنق المال اصبحت بيده ، فقد وزع يوم وصوله مبالغ على مؤيدي زعامته ، وخص بالأكثر أبا عبده ديب الشيخ ، وأبا محي الدين شعبان ، ونزيه المؤيد العظم ابن حميه وغيرهم ، ولم ينلني من كل ما حمل معه من أموال التبرعات غير ليرة ذهبية واحدة ، اشتريت بها عتاداً لبندقيتي ، وابقيت بعضها لنفقاتي الضرورية . وبتقاعسه عن تأليف قوة تسير الى الشمال ، كأنه يقول : « انتظروا حتى يضرب الفرنسيون الجبل ضربتهم القاضية ، ويعودوا ليوجهوا اليكم مثلها ! » . لقد أمد الشهبندر بعض رؤساء العصابات في الغوطة بالمال والعتاد ، وفرض عليهم القائد الذي أراد ، وضمن علينا نحن ابناء الشمال الذين غامروا بأرواحهم مرات ، وذاقوا أنواع الأذى والحرمان ، وتحملوا المشاق في سبيل توسيع الثورة الى مناطقهم - ضمن علينا بقليل من المال أو العتاد . لقد أعطى الذين كانت جيوبهم عامرة بالمال ، يبتزونه من الأغنياء واصحاب المزارع في الغوطة ، وضمن به على المجاهدين الذين يحاربون الفوضى والسلب والنهب ، وليس لديهم مال يشترون به حتى عتادهم للمعارك التي يخوضونها بإخلاص وإيمان . لقد ضمن علي بثمانية دنانير اشترى بها راحلة أعوض بها فرسي التي سلبت في معركة قارة وعيون العلق ، واصبحت بعدها أتحمل المشاق الجسام في التنقل مشياً على قدمي ، ولمسافات لا تقطع بالسير على الاقدام .

الفصل الثالث عشر

إذا كانت النفوس كبارا

- ٧٤ -

بعد سفر الشهبندر يثسنا منه ومن سلطان الاطرش ، ومن رؤساء العصابات في الغوطة ، فاجتمع أكثرنا بسعيد العاص ، وقررنا معه أن نغامر ، ونسافر وحدنا إلى الشمال ، ولو كنا سنلاقي حتفنا في مغامرتنا . ولم يوافق فوزي القاوقجي على قرارنا ، اذ ما زال يعمل نفسه بوعده من بعض خيالة حي الاكراد ، انهم سيرافقونه الى الشمال . وقد وعدنا بأن يلحق بنا بعد يومين بمن معه من الفرسان . ولكن الاكراد أخلفوا بالوعد ، فتخلف في الغوطة ، ومعه سعيد الترماني وميشيل النحاس ضابط الصف في سرية يوم كان في الجيش الفرنسي ، ومن الذين اشتركوا معه في ثورة حماة . وعليه سارت فئتنا المؤلفة من سعيد العاص ، وجميل العلواني ، وعلاء الدين الكيلاني ، ومنير الريس ، ومصطفى الديب ؛ وكلهم من مدينة حماة ، ومحمد علي الدروبي ، وشاكر السباعي ، ومرعي التركاوي ، والثلاثة من مدينة حمص ، وفائق الكيالي ، ورشاد ملص من دمشق ، وأبو علي رشيد الصحنائي من دروز جبل حوران ، وعبد الله المغربي ، ومحمد المغربي ، وعبد الحميد المرداوي ، والثلاثة من الجنود الفارين من الجيش الفرنسي

الملتحقين بالثورة . وجميعنا مشاة عدا سعيد العاص فقد باع مسدسه « برابيللو » في الغوطة ، وضم ثمنه الى بعض النقود القليلة التي كانت معه ، وابتاع فرساً لا يمكن لمثله أن يركبها ، فهي كديشة هزيلة ، ولكن عجزه عن المشي أرغمه على الرضاء بها ، وعدا علاء الدين الكيلاني ، ومصطفى الديب ، فقد كان الثلاثة خيالة بيننا . ولحق بنا بضعة أشخاص من ثائري النبك نعرف الان نفع لنا من رفقتهم في رحلتنا إلى الشمال ، فهدفهم الوصول الى منطقة قلمون ، والدنو من النبك ليستسلموا الى الفرنسيين اسوة بغيرهم من ثائري بلادتهم الذين استسلموا قبلهم ، فهم لا يجرؤون على اجتياز الطريق وحدهم ، لأن منطقتي الجورة وقلمون خضعتا للفرنسيين ، وقد يعتقلون في احدى القرى المعادية للثورة ، ويسلمون للفرنسيين يرمونهم بالرصاص ، او يقتلون في صدام بينهم وبين احدى القرى الموالية للفرنسيين . ان قرى المنطقتين أصبحت كلها معادية للثورة ، إن لم تكن عن عقيدة ، فعن خوف من بطش الفرنسيين . وانضم اليها نحو عشرة أشخاص غير مسلحين ، وعدم سعيد العاص بأن يسلمهم في أول معركة نغهم فيها سلاحاً من الفرنسيين ، وأراد برفقتهم أن يزيدوا سواد فئته القليلة في نظر سكان القرى التي سنجتازها ، أو نحتك بها من أجل تأمين طعامنا ، وحاجاتنا الضرورية .

وصلنا مساء التاسع عشر من شهر نيسان إلى نزل للاعراب قرب قرية « عدرا » قضينا ليلتنا في ضيافتهم . وصباح العشرين من نيسان سرنا إلى قرية « ضمير » ، واجتمعنا بشيوخها ووجهائها ، وبذل سعيد العاص جهوداً لاقتناعهم بارسال مسلحي قريتهم ، أو عدداً منهم معنا ، في رحلتنا إلى الشمال ، ولكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح . وبما أن هذه القرية ، حسب موقعها ، كانت في برزخ بين قوة الثائرين في الغوطة ، ونفوذ فرانسة في منطقة الجورة وقلمون ، فقد قبل زعمائها ايوانا في قريتهم ، وماطلونا يومين في قضية مساعدتنا ببعض مسلحيهم ، وأخيراً وعدونا بأن يتبعونا بمسلحيهم ، فيما اذا استطعنا أن نقنع

أهل الرحيبة وقرى الجورة على تأييد الثورة ، فغادرنا قريتهم عصر الثاني والعشرين من شهر نيسان الى قرية الرحيبة ، فبلغناها مع الغروب ، وهب اهلها بالسلاح لمنعنا من دخول قريتهم ، وأوقفونا في مدخل القرية ، ونحن نصر على المبيت عندهم ، وهم يطلبون منا تجاوز قريتهم حتى لا يلحق بهم اذى ويبطش بهم الفرنسيون . وبعد ساعة من الجدل ، واثارة نخوة الشباب من اهل القرية ، تحمس فريق من الشباب ضد الشيوخ ، وقبلونا ضيوفاً في منازلهم الى الصباح . وقد حاول سعيد العاص ، بعد الاستقرار في احد المنازل ، أن يدعو زعماء القرية الى الاجتماع به ، فرفضوا ، وأرسلوا إليه الا يتعب نفسه عبثاً في دعوتهم إلى الثورة . ورغم ذلك قضى سعيد العاص أكثر ساعات الليل يتحدث عن فضل الجهاد في سبيل الله والوطن ، ويأتي بالآيات البينات عن فضائله . وبلغ قريتي المعصمية والقطيقة نبأ دخولنا منطقة الجورة ، فهب اهلها الى سلاحهم يحرسون مداخل القريتين حتى لا نقر بهما ، وارسل اسماعيل ابو الريش رسولاً من قبله إلى ضابط المصالح الخاصة في النبك يعلمه بوصول سعيد العاص مع شردمة من الثائرين إلى قضاء جيرود .

توجهنا صباح الثالث والعشرين من نيسان إلى بلدة جيرود ، ولبثنا خارج البلدة ، وأوفدنا رسولاً إلى صفوت الجيرودي نطلب منه ان يقابلنا في ظاهر البلدة ، فخرج إلينا ، وبحثنا معه امكان الاستعانة بأهل جيرود وقراها لمهاجمة النبك ، وإعادة نفوذ الثورة الى المنطقة ، فأكد لنا استحالة ذلك لقلة عددنا ، ولأن المنطقة انقلبت على الثورة بعد احتلال الفرنسيين ، وحتى اهل جيرود انقلبوا اعداء له على موقفه الاخير من الثورة ، وان الوسيلة الوحيدة لبلوغ أربنا ان توجه قيادة الثورة قوة كبرى تستطيع دحر الفرنسيين ، وطردهم من المنطقة ، دون اعتماد على اكثر سكان القرى ، لأن زعماءهم استسلموا للفرنسيين ، وقدموا لهم الغرامات من مال وسلاح ، فشكرناه ، وتابعنا سيرنا إلى قرية « العطنة » مجتازين أزقة جيرود ، فتخلف فيها بعض من رافقنا من النبكيين

عند عائلاتهم النازحة اليها . ولما وصلنا الى قرية « العطنة » ، عند الظهيرة ،
وقد أثر بنا الجوع ، بادر مسلحوها الى التحصن في قلعتها الصغيرة ، أو حصنها
القديم ، ولكننا لم نعبأ بهم ، ولم نغادر القرية إلا بعد ان تناولنا طعامنا فيها .
استرحنا فيها قليلاً ، وتابعنا سيرنا الى قرية « الناصرية » ، وهي قرية صغيرة
تقع في سهل فسيح قاحل ، أو قل في صحراء لا خضرة فيها ولا ماء .

ولما أشرفنا عليها بادرنا أهلها باطلاق الرصاص من وراء جدران القرية ، ومن
منازلها وأسطحتها ، وأمطرونا وابلاً من نيرانهم ، فأرسلنا اليهم مع أحد رفاقنا
العزل نقول لهم اننا جماعة سعيد العاص لا نريد بهم شراً ، واننا لن نبرح قريتهم
ما لم ندخلها ونأكل ونبيت فيها ، ونتابع طريقنا في الصباح ، وان استمروا على
مقاومتنا بالسلاح فاننا سنهاجمهم ، مهما فقدنا من رجالنا ، ونحتل القرية ، ونقتل
الرجال ، ونحرق المنازل ، فأرسلوا الينا شيخاً طاعناً بالسن يعتذر عن اطلاق
الرصاص ويرجونا ان نتجاوز قريتهم الى غيرها خشية ان ينتقم منها الفرنسيون ،
فأمسكنا به ، ووضعناه في مقدمتنا ، وانتظمنا وراءه صفاً واحداً كرتل ،
وتقدمنا إلى القرية . ولما أدرك المسلحون انهم سيقتلون صاحبهم ان سدوا الينا
رصاصهم ، راحوا يطلقون الرصاص عالياً من فوق رؤوسنا ، بعد ان كانوا
يسددونه الى شخوصنا . ولما ذنونا من القرية ، فر المسلحون ، واخفوا سلاحهم ،
واستقبلنا فريق من أهل القرية يعتذرون عن خطأ الشباب ، وان الدافع اليه هو
الخوف من بطش الفرنسيين ، فيما اذا علموا اننا دخلنا قريتهم ، فقبلنا اعتذارهم ،
وحللنا في بيت واحد ، وبتنا نقيم حراسة يقظة الى فجر الرابع والعشرين من
شهر نيسان ، اذ انطلقنا نجتاز السهل الغربي إلى جبال النبك المعروفة بالجبال
الشرقية .

ولما ارتفعت الشمس ، وقارب وقت الظهيرة شعرنا بعطش شديد . وكان
دليلنا من النبكيين يطمئننا بأننا مقبلون على ماء . واخيراً ، وبعد ان جفت

حاولنا من الظمأ وردنا ماءً راكداً أسناً، في منخفض صخري تعلوه جيوش
البرغش والبعوض ، لون الماء أصفر أخضر من كثرة ما اختلط به من بول المواشي
التي وردت اليه ، فلما أنفنا من شربه ، استلقى سعيد العاص ، والصحيح
انبطح ، ووضع كفتيه على فمه ، وشرب من الماء القذر ، واقتدى به بعض
الرفاق ، ولكنني مع الآخرين صممنا على احتمال العطش في الظهيرة ساعات
أخرى ، حتى بلغنا دير مار موسى الحبشي ، بني كحصن على رأس مضيق بين
الجبال ، يبعد عن بلدة النبك أكثر من ساعتين سيراً على الاقدام ، فوجدنا باب
الحديدي الصغير مغلقاً ، وليس في الدير بشر ، وكنا نأمل ان نجد فيه احواله
احداً من رعاة الماعز نرسله ليتدارك لنا الطعام من أقرب قرية الى الدير .
وعلمنا بعد رحيلنا عنه ان عبد اللطيف سارة رئيس الطائفة المسيحية في النبك
قد أغفله ، واحتفظ بمفتاحه كي لا يلجأ اليه الثائرون ، فكسرنا القفل بطلقات
من بنادقنا ، ودخلنا الدير لنستظل بجدرانها ، ومنتحنا من بثر بجانب الدير ماء
غير بارد ، كان لنا عوناً على تحمل الجوع ، لأن الظمأ كاد يقتلنا قبل أن نصل الى
الماء . وقد قرأت بعدئذ عن هذا الدير ما يلي : « ان دير مار موسى الحبشي
حصن شاهق فيه معبد اثري من القرن السادس للميلاد ، يوصل اليه طريق طوله
اربعة عشر كيلومتراً من النبك . وبعد انتهاء الطريق المعبدة ، يبدأ طريق جبلي
يستغرق عشرين دقيقة مشياً على الاقدام . ويعتبر من الأبنية الاثرية في سورية ،
ولذلك انتقلت ملكيته ، من بعد ، للدولة السورية ، إلا انه ما زال في رعاية
طائفة السريان الكاثوليك التي تحتفظ بالمفتاح . وصوره الرائعة على الجدران تعتبر
قطعاً أثرية نفيسة . وكما قلنا الدير حصن ذو ابراج ، يقوم على قاعدة صخرية
شاهقة في جبل « المدخن » من سلسلة جبال قلمون ، وهو من اقدم الاديرة في
سورية ، ويشرف على وادي القريتين ، وعلى طريق تدمر ، وفي داخل الدير
كنيسة رائعة على جدرانها صور ملونة بالفريسك لعدد من القديسين والمشاهد
الدينية ، ومعظمها محفوظ بحال جيدة . ويهتم بعض السياح بزيارة الدير ، الا ان
طائفة السريان الكاثوليك تخصص له يوم ٢٨ آب من كل عام كعيد لزيارته . ومار

موسى الحبشي غير معروف تماماً ، والابحاث عن اصله لم تصل الى حقائق موثوقة ، فهناك من يقول انه ولد من اولاد ملك الحبشة ، تزهد وتنسك ، وقضى أيام حياته في جبال قلمون في القرن الرابع من الميلاد ، بينما يقول غيرهم انه ليس حبشياً ، ولكن وجهه كان شديد السمرة بتأثير تلويح الشمس والعبادة والتقشف . والدير مبنى أثري ضخم . وهو في الاصل حصن شيد لغايات عسكرية ، اذ ان موقعه منتقى للاشراف على المنطقة الى ابعاد كبيرة ، ومراقبة التحركات المريبة في ذلك المحيط الذي تعرض لموجات الغزو والفتح .

سرنا عصرأ من الدير حتى اشرفنا مساء على النبك من جبلها الشرقي ، وصادفنا هناك حسن وطفة ، او وطفاء من ثائري النبك ، لاجئاً الى مغاور في الجبل ، وجدناه استحضر له ولرفاقه طعاماً بواسطة احد الرعاة ، تبلغنا به ، وعقدنا اجتماعاً مع النبكيين الذين كانوا معنا ومع حسن وطفة ، بحثنا فيه خطة مهاجمة بلدة النبك في الليل ، والاستيلاء على دار الحكومة ، لان فيها ثلاثين دركياً خيالا ، كما نقل اليها النبكي الذي نقل الطعام لحسن وطفه ، ثم السير جميعاً الى الشمال ، فرفض جميع النبكيين الاشتراك معنا في الخطة ، ما عدا حسن وطفه ، قائلين انهم لا يستطيعون مغادرة بلدهم ، ولا ان يقوموا بأي حركة فيها عدا للفرنسيين ، كي لا تفتك السلطة بعائلاتهم وذوي قرباهم في النبك ، فأدركنا ان الجماعة اتفقوا فيما بينهم على الاستسلام للسلطة ، وانهم ما جاءوا الى هذا المكان القريب من النبك إلا ليجدوا الوسيلة أو الشفيع للاستسلام . لذلك تركناهم وشأنهم ، ورافقنا حسن وطفة بمفرده الى النبك ، وتوجه مع اثنين من رفاقنا الى ساحة الغفري حيث اطلقوا عدة طلقات نارية على دار الحكومة ، وعلى الحامية الفرنسية في المرتفع الذي بنيت عليه المدرسة اليوم في مدخل البلدة الجنوبي ، وعادوا اليها . وعندئذ ودعنا حسن وطفة ، وتابعنا نجتاز السهل الغربي متجهين الى قرية « جريجير » ، حتى وصلنا اليها قبل الفجر ، وطرقنا باب مختارها الذي صعق لرؤيتنا . ولكننا دخلنا داره ، دون

دعوة ، للطعام والراحة ، وفي ضحى الخامس والعشرين من شهر نيسان قابعنا سيرنا الى سلسلة الجبال الممتدة غربي النبك . وهناك في سفح من الجبل وجدنا ثلاثة مضارب صغيرة لرعاة الماعز من اهل قرية «فليطة» ، قضينا قبلولتنا عندهم ، وقبل العصر انحدر نحونا فارس من الجبال تبيناه ، لما دنا من مضاربنا ، انه خالد النفوري نأثر النبك السلاب . وقد قص علينا حوادثه ، وانه بعد استيلاء الفرنسيين على النبك انسحب مع من انسحب الى قرى المرج ، واقام يتنقل فيها بعيداً عن نائري الغوطة ومعاركها وقذائف مدافع الفرنسيين عليها . وصادف بعدئذ وصول توفيق هولو حيدر قادماً من جبل الدروز يرافقه ثلاثة من رجاله معهم رشاشان ثقيلان ، ومدفع صغير من مدافع المدرعات ، عيار ٣٧ ميليمتر ، فرافقهم النفوري الى جبال النبك الشرقية حيث دفنوا المدفع في احدى المغاور ، وتابعوا سيرهم الى جبال بعلبك وجرودها حيث قام توفيق هولو بمسمى لدى عمه واقاربه وسكان القرى كي يساعدوه على القيام بثورة ضد الفرنسيين ، فلم يوفق ، إلا ان بضعة رجال من ابناء المنطقة التحقوا به ، فوجه الفرنسيون اليه قوة من القناصة اللبنانية في بعلبك نجا منها بعد ان قتل احد جنودها . ثم حدث خلاف بين توفيق هولو حيدر وبين خالد النفوري افترق على اثره النفوري عنه ، ومضى يتنقل لاجئاً الى خيام الرعاة ، ومن مراح الى مراح ، يرافقه ولده في تشرده . وكان اليوم من قبيل المصادفة في المضارب التي حللنا فيها ، قد حسب لما أقبلتنا عليها ، اننا من جنود فرنسا ، لذلك فرمى ابنه الى الجبال ، ولما تحقق من اننا نأثرون عاد الى مكانه ، وفهمنا من كلامه انه يسعى للاستسلام ، ولكنه يخاف غدر الفرنسيين به ، فقلنا له اننا سنقضي بضعة ايام في الجبال الغربية وجرد بعلبك ، ننتظر تحقيق الوعد الذي قطعه جمعة سوسق لبعض رؤساء العصابات في الغوطة بان يسعى لجمع قوة من الجرد يزحف بها الى النبك لإعادة نشاط الثورة الى المنطقة كلها ، والقيام بحرب عصابات مستمرة ضد الفرنسيين ، واننا سنراسل سوسق حول هذا الموضوع ، وان لم تنجح فسنتابع سيرنا الى اكروم في شمال لبنان لننضم الى عصابة زين مرعي جعفر الذي قرأنا في الصحف اللبنانية انها

خربت الخط الحديدي مرة في سهل بعلبك ، وهاجمت قطاراً في وادي خالد على خط حمص - طرابلس ، فوافق على ان يبقى معنا أياماً نقضيها في الجبال . وفي عصر اليوم نفسه انتقلنا الى قلب الجبال حيث قضينا ليلتنا في مضارب الرعاة من أهل « فليطة » أيضاً .

خطة جهنمية لسحقنا والقضاء علينا

٧٤

توجهنا في صباح السادس والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٢٦ الى واد يسمى « وادي العونيات » على حدود قضاء بعلبك ، وأوفدنا من هناك راعياً يبحث عن توفيق هولو حيدر ، لمقابلته والبحث معه في شؤون الثورة ، ودعمها في المنطقة ، ورسولاً آخر الى جمعة سوسق ينبئه بوصولنا . وكانت الثلوج تكسو قمم الجبال وبعض السفوح العالية ، والليالي باردة . وقد عاد الرسول الاول في صباح ٢٧ نيسان يعلمنا أنه لم يعثر على أي أثر لتوفيق هولو حيدر ، لذلك انتقلنا الى واد يشرف جبله على السهل الذي تقع فيه قرية « جريجير » ، يسمى « وادي البرد » ، وقضينا ليلتنا لدى الرعاة من أهالي جريجير . ويوم الثامن والعشرين من نيسان يئسنا من قدوم جمعة سوسق ، او وصول جواب منه ، وقررنا السير مساءً نحو الشمال ، الى جبال الجعافرة في منطقة « الهرمل » من شمال لبنان ، ولجئنا الطريق مباشرة من جبال بعلبك الى جبال الهرمل ، قررنا ان نسلك طريق جبال حسية الغربية الى سهل القصير لنجتازه الى « اكروم » في منطقته الهرمل ، ولكن في الوقت الذي كنا نرسم خطة سيرنا ، كان الفرنسيون بدورهم يعدون فخاً للقضاء علينا ، لا سيما وقد عرفوا ، ونحن في منطقة الجورة ، وصولنا إليها ، وعرفوا بعدها ليلة مرورنا بالنبك ، وعرفوا من مختار جريجير في أي ساعة

وصلنا الى بيته ، وفي أي ساعة رحلنا عنه ، وعرفوا اننا نتنقل في سلسلة الجبال الغربية ، فلهم فيها عيون ، كما لهم في كل بلد ، وقرية عيون ، لذلك وجهت قيادة الموقع الافرنسية في النبك ، في الثامن والعشرين من نيسان سرية من المتطوعة الفرسان لمطاردتنا ، فوصلت الى قرية ، جريجير » دون أن ندري بها ، وخرجت قوة اخرى من بعلبك الى وادي العونيات ، فلم تحظ بنا لاننا كنا غادرنا الوادي ، ووجهت قوة ثالثة من حمص رابطت لنا على طريق النبك - حمص ، وفر موظفو تعداد الاغنام برئاسة عبد المجيد سويدان من قارة الى حسية لما طرقت مسامعهم أنباء وصولنا الى منطقة قلمون . أما سرية المتطوعة الفرسان فتوقفت في جريجير ، ولم تجرؤ على التقدم لمطاردتنا في الجبال ، مع اننا كنا وراء أول هضبة من الجبل المقابل للقرية ، بل كنا ضيوفاً في واد عند رعاة للماعز من قرية « جريجير » ، قد يكون أحدهم نقل الى الجند خبر وجودنا عندهم ، او نقله الى القرية ، فتطوع من أوصل الخبر الى النبك حيث وجهت قوة من المتطوعة لمطاردتنا . ولما كانت الحرب خدعة ، وضعوا خطة جهنمية للقضاء علينا ، فأوفدوا الينا رجلاً كردياً يقطن قرية « جريجير » ، ويعمل فيها حواطاً ، أي خادماً عند المختار ، عرفناه ، وعرفنا من قبل في أثناء ترددنا على القرية أيام عملنا في منطقة قلمون ، يحمل كتاباً من مختار القرية الى سعيد العاص أملاه عليه قائد السرية ، يقول فيه ، بعد مقدمة طويلة من المديح والتعظيم والتبجيل : « انكم ياسعادة القائد ، لما جئتم بيت خادمتكم ، وشرفتموه بمحاولكم فيه ، صح في القرية من نقل الخبر ، في اليوم نفسه ، الى الفرنسيين ، فدعيت مع بعض وجهاء القرية الى النبك ، وقلت للمستشار ان الثوار جاءوا بيتي دون دعوة مني ، او علم مني بهم ، او دعوة من احد في القرية ، وهم جماعة مسلحون ، وانتم جردتمونا من السلاح ، فلا سبيل لنا الى منعهم ! » فقال « ولكنهم لم يستخدموا القوة يوم جاءوا قريبتكم ، بل انتم فتحتم لهم أبواب قريبتكم ومنازلكم ، ورجبتم بهم ! » ، وبصعوبة تخلصنا من السجن والتعذيب ، واليوم بلغنا ان الفرنسيين قرروا حرق بيتي ، وعدة بيوت أخر من القرية بتهمة ضيافة الثوار ، وتقديم العون لهم ، ولا انقاذ لنا من هذا

المصير الا اذا بادرتم انتم اليوم ياسيادة القائد العظيم ، بأن تأتوا مساء الى قريتنا ،
فإذا دنوتم منها ، فاطلقوا رصاصكم في الهواء ، وادخلوا القرية آمنين ، وانتم تطلقون
رصاصكم حتى يعلم الفرنسيون انكم تدخلون قريتنا رغماً عنا ، ويكون ذلك
تأييداً لحجتنا امامهم ، وبذلك تكسبون دعاء الاطفال والنساء والشيوخ ،
وابتهالاتهم الى الله أن ينصركم على اعدائكم لانكم انقذتمونا من عدوان فرانسيسة
ونهب المنازل واحراقها . والحراف ذبحت من اجل عشائكم لا يكون لكم
فكرة .. النجدة .. النجدة .. الغوث .. الغوث يا أهل المروءة والشرف ! . ،
فتأثر سعيد العاص بما في الرسالة من استنجاد نساء القرية واطفالها وشيوخها
العجز به ، واعتمداهم على مروءته ، وفوراً كتب الجواب الى المختار : « لبيك ! .
لبيك ! . سيأتيك إخوانك في الوقت المحدد منجدين اخوانهم أهل جريجير ! . ،
ووقع خالد النفوري مع سعيد العاص الجواب ، وحمله الحواط الذي كنت
أعرفه مَرِحاً لا يترك مناسبة الا ويعمل ما يضحك من حوله ، فإذا هو عبوس
كظيم ، فرأبني أمره وعبوسه ، وقلت لسعيد العاص ، بعد ذهابه : « وهل
صدقت ما جاء في كتاب المختار ؟ » ، قال : « ولماذا لا أصدقه ؟ ان اخواناً لنا
يستنجدون بنا ، ولا تكلفنا نجدتهم غير دخول القرية ، وتناول العشاء ، ثم السير
في طريقنا الى الشمال ؟ » ، قلت : « ولكن جريجير لا تبعد ساعة عن النبك ،
وهي في السهل ، وفيها مستشار وجيش فرنسي ، فلماذا لا تظن ان في الامر
خدعة ، واننا مدعوون لنقع في كمين نصب لنا ، ونكون نحن الذبائح لا الحراف ؟ . »
قال : « سنكون حذرين في طريقنا الى القرية ! . » ، قلت : « لن ينفع الحذر ،
فقوتنا نحن كعصابة صغيرة ، هذه الجبال والشعاب ، نقاتل فيها ، وننسلقها ،
ونتوغل فيها اذا نزلتنا قوة لا طاقة لنا بها . أما يوم نخرج الى السهل ، ونسير
ساعة واكثر من ساعة الى جريجير ، فان أي قوة تكمن لنا في القرية ، أو في
جدرانها وحوالكيرها تبيدنا عن آخرنا ! . » ، وناصرني جميل العلواني ، واصر
سعيد العاص ، على الذهاب الى القرية ، بحجة انه قطع وعداً للمختار بان ينجده ،
واخيراً رضي ان يستفتي اخوانه واحداً واحداً ، ويعمل برأي الاكثرية ،

فافتت الاكثرية بعدم الذهاب الى القرية ، والسير قدماً الى الشمال . ولما شارفت الشمس على المغيب خرجنا من الجبال ، بعد ان ودعنا خالد النفوري ، جاعلين سلسلتها الى يسارنا ، وكنا نهتدي في الظلام بالنجوم ، واضعين الشمال نصب

أعيننا ، لا نستعجل السير رحمةً بالاكثرية المشاة ، حتى سمعنا في الشطر الثاني من الليل نباح الكلاب عن بعد ، فادر كنا اننا على مقربة من حي لرعاة الماعز ، واوفدنا ثلاثة غير مسلحين منا الى المضارب ، نطلب من اهلها ان يزودونا ببعض الطعام والماء ، وجلسنا نترقب عودة إخواننا ، وطال انتظارنا اكثر من ساعتين ، واخيراً عاد الرفاق ومعهم امرأة عجوز من اهل الحي ، يحملون الخبز والجبن والماء ، وابلغونا ان العجوز أصرت على ان ترافقهم ، وان تقبل رأس سعيد العاص قائد المجاهدين ، فقلنا له : « اعطها قرعتك يا سيادة القائد ! » ، وانحنى لها ، وهي تزغرد ، وهجمت تقبل رأسه ، وقالت : « فداء لك يا سعيد بك ! لقد احرق الجنود هذا المساء ثلاثة منازل في قريتنا جريجير ، بعد ان نهبوها ! » ، فسألناها : « ومتى وصل الجند الى القرية ؟ .. » ، قالت وصلوا اليها ضحى ، وظلوا فيها الى أول الليل ، ورحلوا عنها بعد احراق المنازل ! . » ، والتفتنا الى سعيد العاص نهنئه بالنجاة من الكمين ، وقلنا له : « لولا عدولنا عن الذهاب الى القرية ، لكننا نحن الذبائح في مأدبة الفرنسيين اللئام هذا المساء ! » . وقد تأكد لنا بعد هذا النبأ من العجوز ، وهي من أهل جريجير نفسها ، جاءت الى الحي ليلاً ، ان الجنود ظلوا ينتظرون قدومنا الى القرية لنقع في كمينهم ، فلما قطعوا الأمل ، وربما رأونا لما خرجنا من « وادي البرد » قبل غروب الشمس ، نسير الى جانب الجبال نحو الشمال ، ظنوا ان اهالي جريجير ، او حامل رسالة المختار ، اخبرنا خبر الجند فعدوهم متواطئين معنا ، واحرقوا بيت المختار صاحب الرسالة ، واحرقوا منزلين آخرين لوجيهين في القرية ، وغادروها الى النبك .

سير في الجبال دون دليل

ظللنا في مسيرنا تلك الليلة ، عن يميننا سهل النبك ودير عطية وقارة وعيون العلق والبريج ، حتى اعترضت سبيلنا سلسلة جبال حسية المنحرفة قليلاً الى الشرق ، وظهر امامنا طريق واضح يخترق الجبال الى الشمال الغربي ، فسلكناه ، دون دليل ولا معرفة سابقة . وكنا نريد على كل حال ، ان نلجأ الى الجبال ، قبل ان يصبح الصباح ، لنأمن الطائرات ، ومطاردة الفرنسيين ، أو ما يدبرونه لاصطيادنا ، ونحن عصبة ليس معها غير اربع عشرة بندقية ، من السهل القضاء عليها في أي معركة مع قوة اكبر منها تنازلها في أرض منبسطة ليس فيها موانع ومعازل طبيعية . وبعد سير عشر ساعات من قرب قرية جريجير بلغنا مضارب لرعاة من أهالي قرية السحل في قلمون ، أقيمت في أحد الوديان ، فاسترحنا لديهم حتى انبثق فجر يوم التاسع والعشرين من شهر نيسان ، وعرفنا منهم الا طريق أمامنا توصلنا الى سهل القصير ، لذلك قررنا أن نجتاز الجبال عرضاً باتجاه الغرب دون أن نسلك طريقاً ، فقضينا نهاراً من أتعس أيام الثورة ، نتسلق جبلاً شامخاً لنحدر منه الى واد سحيق نجتازه لنصعد جبلاً آخر لأماء معنا ولا زاد ، حتى وهن العزم منا ، وأشرفنا على الهلاك من التعب والعطش ، واهترأت أحذيتنا ، وظهر الى يميننا جبل شامخ الذرى ، فتسلقناه لعلنا نكتشف وراءه طريقاً نسلكها ، فلما بلغنا ذروته شاهدنا قرية حسية الى يميننا وسهل قصير حمص الى يسارنا ، فاستبشرنا خيراً ، وانحدرونا الى واديه السحيق حيث صادفنا طريقاً تتجه الى الشمال الغربي ، سلكناه دون أن نعلم الى أين ستوصلنا ، وأشرفنا ، قبل الغروب ، على مضيق بين الجبال يفضي الى سهل القصير ، فاسترحنا فيه حتى توارت الشمس ، عندئذ خرجنا من الجبال لتتجه ، تحت جناح الليل ، الى الشمال ، فقادتنا خطانا الى قرية «الديابية» ، وكانت الساعة العاشرة من ليل التاسع والعشرين من نيسان ، وكل منا بلغ الأعياء منه مبلغه . ولما شاهدنا اهل القرية حدثت ضجة بينهم ، وفر النسوة منا في الطريق ، فطمأناهم ،

وأفهمناهم أننا لا نريد بقريتهم شراً ، واننا عابرو سبيل ، فدلونا الى بيت المختار حيث قدم لنا الماء ، وما تيسر من الطعام ، واسترحنا زهاء ساعتين ، عرفنا خلالها أن زين مرعي جعفر نائر على الفرنسيين في جبل اكروم ، وأن نظير النشواتي الحمصي ، وعدداً من رفاقه وابناء بلدة الثاثرين انضموا الى عصابة زين مرعي ، ومقر الجميع اليوم قرية « اكروم » في الجبل الغربي ، وان الفرنسيين وجهوا حوالى مئتي فارس من جندهم الى بلدة القصير لحمايتها ، ولقطع كل اتصال بين زين مرعي وعصابات المشرق ، وان الشائعات كثيرة عن زحف الفرنسيين بحملة الى جبال اكروم لمطاردة عصابتها ، وإخماد الثورة قبل ان تستفحل ، فطلبنا دليلاً من أهل القرية ، وبرزنا عند منتصف الليل نجتاز السهل من جانب محطة القصير التي ترابط بها الحامية الفرنسية الى جسر خشبي على نهر العاصي ، انحدرنا من جانبه نحىي نهر مدينتنا حماة ، ونشرب من مائه العذب ، ثم تابعنا سيرنا حتى بلغنا قرية « المعصرة » ، ومنها سرنا الى قرية « زيتا » ، وأهلها من المتأولة (الشيعة) ، ظهر عليهم الخوف ، لما رأونا ندخل قريتهم ، وطلبوا منا الرحيل فوراً ، ولكننا كنا بحال لا يمكن معها الاستمرار على السير ، فمكثنا فيها ساعتين ، على الرغم من أهلها ، وغفونا قليلاً بعد سهر ليلتين متواليتين ، وسير متواصل طوالهما مع النهار كله .

غادرنا صباح الثلاثين من نيسان قرية « زيتا » ، والأهلون لا يصدقون رحيلنا عنهم ، وسرنا نجتاز ازقتها ، وقد تمزقت أحذيتنا ، وتورمت أقدامنا من الحفى والشوك ، وادمتها الحجارة . وإن انس لا أنس رفيقي جميل العلواني ساعة حاول أن يقف على قدميه ، ويخطو بها للخروج من القرية ، فجلس على الارض ، وبكى ، وقال : « لا طاقة لي بالسير ، فاقدامي لا تحملني من الألم ، دعوني هنا ، واذهبوا في سبيلكم دوني ! » ، ورحت أسعى وراء سعيد البعاص ، انقل اليه حال المجاهد العلواني ، فعاد واركبه فرسه الهزيل ، ومشى بيتنا ، مع ان قرسه بلغت من الإعياء حداً تحتاج هي الى من يحملها .

كنا ما زلنا في وسط السهل لا نبعد كثيراً عن « القصير » ، وكان الحذر من ان يلاحقنا خيالة الفرنسيين في القصير يدعونا للسير والسرعة . وظل السير وئيداً من الإعياء حتى بلغنا قرية « الحويك » في سفح الجبل ، واصبحت جبال أكروم أمامنا ، فعزمنا على ان نستجم فيها ، ولكن فارساً شاكي السلاح قادماً من قرية « بلوزة » ادركنا ، علمنا انه من آل « زعيتر » المتأولة ، وعلى ذراعه شارة ترمز الى علم فرنسي كتب عليها « الحرس الوطني » ، وطلب منا الا ندخل القرية ، واذا كان لا بد لنا من الراحة ، فلنبعد عنها . ولما سألناه عن وظيفته قال انه متطوع عند دولة فرنسة المعظمة ! . قالها دون خجل ولا وجل ! .. وكان الجواب يقتضي ان نسدد رصاصة الى صدر المتطوع لدى فرنسة .. ولكننا أصبحنا بين قرى المتأولة ، وهم عشائر ، ووجهتنا زين جعفر وهو منهم ايضاً .. واقل حركة عداً تبدر منا قد تجر إلى صدام مع جماعة اكثر منا عدداً ، سلحتهم فرنسة ، ودعت زعماءهم ، لمقاومة الثورة . لذلك رأينا ان نقابل التحدي بالتروي ، فطلبنا طعاماً قدمه لنا أهل القرية ، وبعد استراحة قصيرة تابعنا سيرنا الى « اكروم » ، فلحق بنا رجل حمصي عرفنا انه صاحب طاحون ، أو مستأجر طاحون قريبة من المكان ، فرجونه ان يسبقنا الى أكروم ، وهو غير مرهق ، ليعلم زين مرعي وسائر الرفاق الحمصيين بمقدمنا . ولما اقبلنا نحو القرية سمعنا ازين الرصاص ابتهاجاً بقدمونا ، ورأينا الرجال ينحدرون مشاة وفرساناً من الجبل لاستقبالنا .

لقاء أنسانا مشاق الطريق وأهوالها !

- ٧٥ -

وكان لقاء أحيا منا النفوس ، بل كان استقبالاً منقطع النظير نسينا به كل

متاعبنا وما قامينا من مشاق الطريق ، وحملت الجياد القوية المتعبين جداً من جماعتنا ، وصعدت بهم الجبل الى القمة ، وبلغ سيرنا من قرب قرية جريجير الى جبل أكروم اثنتين واربعين ساعة متواصلة ، تخللتها ساعات قليلة للراحة وخلفنا قرية « اكروم » في الوادي ، وكانت أصوات الرصاص بلغت مسامع جميع سكان القرى المجاورة ، وبينها قرى مسيحية ، وبين القرى المسيحية قرى مارونية ، هي أشد عداوة للثورة ، لأنها أكثر تعلقاً بفرنسة من حيث الدين والمذهب . ونقلت القرى الى ضابط المصالح الخاصة في « تل كلخ » ، والى زميله في « قلعة الحصن » أنباء وصول سعيد العاص وعصابته إلى اكروم - نقلتها بحسمة إذ هتف المستشار الى رئيسه في طرابلس يعلمه عن وصول سعيد العاص ، ومعه مئة وستون من ثائري الغوطة ، الى مقر النائب زين مرعي جعفر في اكروم ، واستقروا في جبال شمالي لبنان ، وانتقلت الثورة مرة اخرى الى أرض لبنان الكبير ، البلد العربي الذي تعده فرنسة حصنها الحصين ، لا تجد من بعض طوائفه معارضة لاستعمارها ، بل تجد منها تقبلاً لكل ما تخطط لحكم لبنان ، ولكن الثورة ، في هذه المرة ، انتقلت الى الشمال من لبنان ، بدلاً من حاصبيا وراشيا وجديدة مرجعيون في الجنوب !

وجبال اكروم تقع في اقصى حدود لبنان الشمالية ، وهي في الواقع جزء من جبال الهرمل ، بينها جبال شاذة الذرا ، وعرة المسالك ، تغطيها الاحراج والغابات ، وهي من أصلح الجبال للثورات وحرب العصابات والانصار ، لان طرق السيارات فيها معدومة ، والطرق العامة تمر بعيدة عنها في المناطق المجاورة لها ، فطريق السيارات بين حمص - طرابلس تمر بوديان تسيطر عليها تلك الجبال ، وكذلك الخط الحديدي بين هذين البلدين يمر بنفس تلك الوديان . أما الخط الحديدي بين حمص - بعلبك - رياق فيمر في سهل القصير وبعلبك التي تسيطر عليه ايضاً تلك الجبال ، لو ان الثورة عمت ربوعها . وهذه الجبال لا عمل فيها لسلاح المدرعات والدبابات ، وحتى المدفعية ، لأن الثقل منها يحتاج الى طرق

معبدة ، ودواب وسيارات تجرها عليها . ويحد منطقة اكروم التي حللنا فيها وعرة حمص ، ووادي خالد الذي يمر فيه الخط الحديدي بين حمص وطرابلس . وسكان وعرة حمص من النصيرية الذين اطلق عليهم الفرنسيون اسم العلويين .

والعلويون هؤلاء ، كما نعلم عشائر عربية ، تقطن ، على الأكثر في سورية ، سلسلة الجبال الغربية ابتداء من وادي خالد ، وتمتد الى الشمال حتى كيليكية ، وبذلك يؤلفون كتلة جعلت فرنسا منهم في سورية دولة او حكومة ، زعمت فرنسا انها مستقلة ، غاصمتها اللاذقية ، اسمها دولة العلويين . ويحد منطقة أكروم من الشرق سهل القصير والهرمل ، وفيهما مجرى نهر العاصي ، بل ان نبع نهر العاصي بالقرب من بلدة الهرمل التي لا تبعد اكثر من نصف ساعة مشياً على الاقدام من سلسلة الجبال . ويتصل جبل اكروم بسلسلة جبال لبنان الشمالية ، بل هو جزء منها ، وترتبط قرية « اكروم » ادارياً بالهرمل ، وهذه بقضاء بعلبك ومتصرفية البقاع . وتسكن منطقة الهرمل وجبالها عشائر المتاولة من الشيعة ، وتعرف بالحمادية نسبة الى آل حمادة زعمائها ، واشهرها الجعافرة عشيرة زين مرعي جعفر . وآل علاو — بتشديد اللام — ، وآل شمس ، وآل دندش ، وآل زعيتر . ولكل عشيرة زعمائها ينقادون الى آل حمادة القاطنين في بلدة الهرمل ، وأبرزهم في عهد الثورة صبري حمادة وسعد الله حمادة . وتتصل منطقة اكروم والهرمل من الغرب بجبال عكار والضنية في متصرفية طرابلس .

ان سكان هذه الجبال من السنة والمسيحيين ، واقرب القرى المسيحية الى اكروم قرية عندقت ، وقرية القبيات ، وأهلها من الموارنة ، والعداوة قديمة بين هؤلاء وبين جيرانهم المتاولة ، غدتها فرنسا ، حتى اصبح لا يخلو وقت من منازعات وسفك دماء بين الطائفتين . وليس في منطقة اكروم قرى كبيرة أهلة بالسكان ، وقراها صغيرة ، هي في الواقع مساكن شتوية لسكان المنطقة وماشيتهم من الماعز التي هي مورد رزقهم ووسيلة عيشتهم ، فقليل منهم يشتغل بالزراعة ، لأن اراضيهم وعرة لا تصلح لزراعة الحبوب ، إلا في بقع من الأرض

صغيرة ، تقع عادة في قاع الوديان ، وإذا أقبل الربيع هجر السكان القرى ، وانتقلوا الى الجبال بمواشيهم ، يسكنون مضارب من الشعر واكوخاً يبنونها من أغصان الشجر ، وكلما اشتد الحر ، صعدوا الى ذرا الجبال يبتغون مراعيها ، وبعضهم يشرب الماء من الثلج في الجرد ، ويذيه على النار لاستخدامه في الغسل والعجن والطبخ ، على ان الجرود التي يرتادونها في الصيف لا تخلو من الثلج أو الماء ، كثيرة الكلاً ، ولكنها باردة ، يرتعد المرء في لياليها من أشهر الصيف الحارة ، يغشاها الضباب كثيراً ، وذروة جبل الثلج ، كما يسمونه هناك ، ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثة آلاف متر ، وتشرف على مدينة طرابلس وجبال عكار والبحر الأبيض المتوسط .

ان تربة منطقة اكروم غنية ، رغم وعورتها ، كثيرة الكلاً ، غاباتها كثيفة الاشجار عظيماتها . ومن المؤكد ان تلك الجبال كانت كلها غابات ، ولكن يد الانسان امتدت الى الشجر ، فحرمت مساحات كبرى من الجبال غاباتها الكثيفة ، واصبح بدل الاشجار السامقة شجيرات انبثقت من الجذور التي خلفها الفأس في الارض بعد قطع الاشجار . وأهم أنواع الشجر في تلك المنطقة السنديان ، والصنوبر البري ، والقطلب ، والبطم ، والحوخ البري . وأهم قرى المنطقة : اكروم ، واكوم ، وكفرتون ، والحيرة في الجبال ، والحويك ، وبلوزة ، ووادي حنا في السفح وعلى طرف السهل . وهناك قرية «القصر» في السهل تبعد عن سلسلة الجبال حوالي نصف ساعة مشياً على الأقدام ، وتعد من قرى السهل . سكان هذه القرى من المتاولة ، عدا أكروم ، واكوم ، وكفرتون ، فان سكانها سنيون ضعفاء لقلة عددهم ، ولوجودهم في منطقة اكثر سكانها يختلفون عنهم في المذهب ، ان لم يختلفوا عنهم في الدين ، فهم محاطون من جهاتهم الأربع بعشائر المتاولة ، وعشائر النصيرية ، والنصارى . وأنسى ينتقل المرء في جبال اكروم يجد منازل صغيرة متفرقة ، او مجتمعة ، مؤلفة من منزلين ، وثلاثة ، او اكثر ، وتسمى « المراح » ، يسكنها رعاة الماشية ، والى جانبها يقيمون الحظائر لماشيته

من الماعز على نمط المراح والحظيرة في جبال حسية وقلمون . والكهوف في هذه الجبال كثيرة يستخدمونها ايضاً للسكنى ، وكحظائر للماشية .

والمتاولة الجبليون أشداء ، ذوو أجسام قوية ، ونساؤهم لا ينقصن عن الرجال بأساً وقوة ، كما لا ينقصهن الجمال لنقاوة الهواء ، وعذوبة الماء ، ولطف المناخ في الجبال . وزين مرعي جعفر من عشيرة الجعافرة ، أو بيت جعفر المتتاولة الذين يقطنون القرى القريبة من بعلبك ، هجر قريته مع أربعة من إخوته وبضعة رجال من عشيرته ، والأصح من أبناء عمه ، وكلهم من أرباب السوابق في الشقاوة والتمرد على الدولة العثمانية ، وسكنوا جبال كروم ، وطاب لهم فيها المقام ، وخشي شرم سكان اكروم ، واكم ، وكفرتون السنيون ، وخشيهم النصاري جيرانهم ، وبينهم من سبى النساء من قرى النصارى ، وتزوجهن رغماً عن أهلهن ، وتزوج زين مرعي جعفر فتاة سنية من أهالي قرية « اكروم » ، ثم تزوج اختها ، وجمع في عصمته بين اختين خلافاً للشرع الاسلامي ، على جميع المذاهب . ولما تواترت انباء الثورة في جميع مناطق الجنوب السوري ، وعمت حتى هددت مدينة حمص ، وكل هذه المناطق تسمى « سهلاً » في نظر زين مرعي وجماعته سكان الجبال ، قال لاختوته وابناء عمه : تعالوا نري ما هي ثورة اهل السهل هذه ؟ . وقام هو وثلاثة منهم الى جيادهم يمتطونها في الشتاء ، ويولون وجوههم شطر النبك وقلمون ليروا جموعاً مسلحة تنتظم السير الى حسية وسهل القصير على مقربة من منازلهم في الجبال الشاخنة ، فشجعه ذلك على ان يشور ضد فرنسا ، فجبالة اكثر صلاحاً للثورة من النبك في وسط السهل ، ومن قلمون في سلسلة جبالها ، لذلك تعهد لسعيد العاص في النبك ، ويوم ودعه في « سيل الضبع » بالقرب من قرية الزراعة وبلدة القصير ، ان يعتبره ثائراً ، ووعد بان يوافيه مع عدد من رجاله الى قرية الزراعة للاشتراك مع الثائرين القلمونيين في حركاتهم وخطتهم ، ولكنه لم يستطع ان يفي بوعدده لأن احداً من عشائر المتتاولة لم يوافق على الثورة ، وكان صعباً على زين مرعي ، واخوته وابناء عمه قلة ، ان ينفردوا بحمل العبء وحدهم

وهم في الأصل ، كما قلنا ، دخلاء على المنطقة ، محاطون باعداء : بالجيران السنيين ،
والنصارى ، والنصيرية ، والأولون يرهبونهم ولا يحبونهم ، والآخرون ، بفضل
زعمائهم ، اعداء للثورة ، إن لم يكونوا اعداء لهم . ومع ذلك ظل زين عازماً
على الثورة ، يتحين الفرصة لها ، فالسنيون في نظره أقلية ضعيفة لا يخشاهم في
منطقته ، والنصارى اعداء مزمنون يناصرونه العداً ثائراً كان أو غير ثائر ،
والنصيرية على كثرتهم ، سكان وعرة حمص المجاورة له لا سلطان لهم على معاقله
في الجبال ، وفي يوم من الأيام سمع ان جنديين من الدرك اللبناني قدما اكرام
لابلاغ أهلها بعض الاوراق الرسمية الواردة الى الخفر ، فأنحدر الى القرية
ببندقيته ، وقتل واحداً منها ، وسلبها جواذيهما وبندقيتيهما ، وعاد الى معقله في
الجبل . وكان قبل ذلك سعى ليتفق مع حسن طعان دندش زعيم بيت دندش
المتأولة الشهيرين في الشقاوة والتمرد على الدولة العثمانية ، فوافق في بادئ
الأمر ، وجمعا رجاءهما ، وهدما جسراً للخط الحديدي بين محطتي اللبوة ورأس
بعلبك ، عطل سير القطر اياماً بين شمال سورية وجنوبها ، واحست فرانسة بالخطر ،
وخشيت ثورة المتأولة ، وكان لها ضابط للمصالح الخاصة قدير هو الكاتبين
« مامي » يعمل في قضاءي زحلة وبعلبك ، بادر فوراً للاتصال برؤسائه ثم
بحسن طعان دندش ، واتفق معه ، وعهد إليه بحراسة الخط الحديدي في منطقته ،
او بالاحرى بين محطة القصير وبين محطة بعلبك براتب شهري ، قيل انه ألف
ومثلاً ليرة سورية ، فقبل واصبح صديق المستشار الذي لم يفطن ، على ما يظهر ،
لأهمية زين مرعي جعفر ، فهو ليس رئيس عشيرة كحسن طعان دندش ، وما
هو الا راع من الرعاة ، جماعته مثله فقراء ورعاة ماعز ، يعيشون بعيداً عن
الجعافرة عشيرتهم ، لذلك لم يتصل بهم ، ولا فاضهم ، في ذلك الحين ، على
حراسة الخط الحديدي بين حمص وطرابلس ، كما فاض حسن طعان دندش ،
وكما فاض زميلاً له من آل الشماط في قرية سرغايا لحماية الخط الحديدي من
حدود لبنان الى الزبداني .

لذلك بدأ زين مرعي ثورته بالاستيلاء على سلاح الدركيين وراحلتيهما في قرية « اكروم » ، ثم قام مع عدد من أقربائه بمحاولة لتخريب الخط الحديدي في وادي خالد ، فاصطدم بالجنود الذين اقامتهم فرنسا لحراسة المحطة والجسر الذي بجانبها على طريق حمص - طرابلس ، ولكن هذا الحادث دل على تماديه في الثورة ، وأخذ يعمل علناً ، ويفرض الاتاوات على القرى المجاورة ، فمن أطاع سلم ، ومن عصى قام زين مرعي وجماعته الذين لا يزيد عددهم على ثلاثين مسلحاً بنهب مواشيه حتى يدفع الاتاوة لهم . وهناك أقارب لزين مرعي جعفر يسكنون قرية « الحميرة » ، وزعيمهم عبد علي السعدون ، جعافرة شماليون ، غير جعافرة الجنوب قرب بعلبك ، لم يشتركوا في الثورة ، وكانوا على اتصال وتفاهم مع الحكومة الفرنسية ، ولكنهم في العصبية القبلية ينحازون الى ابن عمهم زين مرعي ، فيما اذا تجاوز عليه نصارى قرية « القبيات » ، وينحاز هو اليهم فيما اذا تجاوز اهل القبيات عليهم . وكان لا بد لفرنسا ، في محنة الثورة عليها ، من ان تستغل عداة اهل القبيات الموارد للامانة ، فأوفدت ضباطاً لبنانيين موارد يدربون شبان القبيات على السلاح والقتال ، ووزعت عليهم الاسلحة ، وربما جعلت لهم رواتب لمناوأة زين مرعي جعفر التائر عليها . ولما احتل الفرنسيون النبك ، وسيطروا على قلمون والجورة غادر نظير النشواتي واربعة من رفاقه المحصين الغوطة الى حمص ، واختفوا في حبيهم من المدينة اياماً ، بلغهم بعدها أنباء ثورة زين مرعي ، فتسللوا ليلاً من حمص ، ولحقوا بزين مرعي الذي أكرم وفادتهم ، وهم بدورهم قاموا باتصالات بمدينتهم حمص ، فأخذ يزداد عددهم بمن انضم اليهم حتى أصبحوا عشرة ، اشتركوا في استقبالنا مع زين مرعي جعفر يوم وصولنا الى « اكروم » .

غزو مدينة حمص

- ٧٦ -

بعد وصولنا الى جبال أكروم درسنا مع الثائرين المحصيين الذين سبقونا الى الجبال وضعنا ككتلة ثائرين غرباء عن المنطقة ، فتبين لنا انه لا بد ، لبقائنا ونجاحنا في المنطقة من ان نتدارك بأنفسنا وسائل عيشنا وتمويننا وسلاحنا وذخيرتنا ، فلا نحمل زين مرعي جعفر وجماعته عبثنا ، فهم كلهم رعاة فقراء ، قد يكون الفقر من الدوافع لثورتهم على فرنسا . وكان لا بد ، لتدارك لوازمننا ونجاح ثورتنا ، وتسليح العزل الذين رافقونا في رحلتنا من الاتصال بالوطنيين في مدن حمص وحماة وطرابلس ، ثم توزيع نشرات ثورية فيها وفي القرى ، ندعو فيها الشعب الى الثورة وحمل السلاح ، وتحرير الوطن من ربة المستعمر الغاصب . وشجع نظير النشواتي البارز بين الثائرين المحصيين العشرة العقيد سعيد العاص على ارسال كتب خاصة بتوقيعه الى بعض اغنياء حمص يحثهم فيها على التبرع بمبالغ من المال للثورة ، فقد كنا في جبال أكروم بحاجة الى سلاح لرفاقنا العزل ، والى عتاد وذخائر لاسلحتنا واسلحتهم ، والى خيام ننصبها لاقامتنا في الجبال ، والى مؤن لطعامنا ، والى تبغ للمدخين منا ، والى ملابس وأحذية لنا جميعاً . وتعهد النشواتي بإيصال الكتب لأصحابها واستيفاء المال ، وشراء اللوازم ، فقد عزم كعادته على السفر الى حمص مع بعض إخوانه ، اذ كانوا في كل شهر مرة ، يسلكون الطريق اليها ليلاً ، ويتسللون الى منازلهم ، يختفون فيها أياماً ، ثم يعودون الى « أكروم » ، فأخذ سعيد العاص يعد الرسائل ، ويكتب نص النشرات التي يجب ان يتولى الشباب الوطنيون في المدن الثلاث طبعها وتوزيعها

سراً . واستعد النشواتي للسفر ، وكنا نأمل ، اذا ما تم لنا هذا ، ان ندعو ، بعده ، زعماء المتأولة الى اجتماع نوضح لهم فيه أوضاع البلاد ، والثورة واهدافها ، ونحثهم على القيام بواجبهم نحو وطنهم ، ثم نقوم بحركات ثورية تؤثر على الفرنسيين ، وتشجذ من عزائم الأهلين ، كتعطيل سير القطارات ، ومهاجمة مخافر الجند . ولما عرف رفاقنا عزم النشواتي على السفر الى حمص طلب ستة منهم مرافقته الى جانب ثمانية من رفاقه ، فتوجهوا جميعاً عصر اليوم الاول من شهر ايار عام ١٩٢٦ الى حمص ، بطريق قرية « تل النبي مند » وجسرها على العاصي . واذ حل بهم التعب من السير ، واكثرهم مشاة ، لجأوا الى طاحون على الضفة الشمالية لبحيرة حمص اسمها « طاحون السد » واتموا ليلتهم ، وقضوا نهارهم مختبئين فيها ، يساعدهم مستأجروها من الحمصيين . ومساء اليوم الثاني من ايار تابعوا سيرهم الى حمص ، ودخلوها ليلاً ، واختفوا في منزل احد الوطنيين في حي « باب دريب » ، حي نظير النشواتي وعدد من رفاقه . وفي اليوم الثالث من شهر ايار ارسل نظير النشواتي الكتب الى اصحابها مع رسل من أهل حيه الذين يطمئن اليهم ، ويتصل بهم . وما كاد يأتيه اول مبلغ من التبرعات حتى ارسل يشتري السمن والارز والتبغ والملابس والاحذية ، والدخائر بأنواعها .

وتسلل في الليل خمسة من افراد العصابة بقيادة حسين جراد من رفاق النشواتي لغزو الماخور في جانب قلعة حمص ، دون ان يعلموا نظير النشواتي بحركتهم ، وصادفوا في طريقهم اربعة من الجنود المغاربة العزل خارجين من زيارة الماخور ، قبضوا عليهم ، واستولوا منهم على مسدس ونقود وساعات كانت معهم ، واقترح البعض قتلهم ، ولكن عبد الله المغربي الثائر تعرف اليهم ، وقال انهم ابناء وطنه ، وطلب من رفاقه الثائرين ان لا يساء اليهم ، واطهر الجنود العرب عاطفتهم الصادقة نحو الثورة السورية ، واستعداداهم لتزويدها سرّاً بالسلح والعتاد ، فيما اذا اعتمدت من قبلها من يتصل بهم من الاهلين الوطنيين ، فاعاد الثائرون للجنود المغاربة كل ما سلبوه منهم ، ولقاء هذا الجميل ، دل الجنود

التأثرين الى منزل في الماخور ، كانوا رأوا فيه ضابطاً فرنسياً طياراً يجالس بغياء فيه ، ومعه مرافق جندي يحرسه ، ثم انطلقوا الى ثكنتهم في المدينة ، يكتمون ما رأوا وما فعلوا ، وتقدمت العصابة الى المنزل الذي فيه الضابط ، فوجدوا بابه مغلقاً ، عندئذ طرقتوا الباب حتى فتح لهم ، ودخل ثلاثة منهم البيت ، ومكث اثنان على الباب يحرسانه . وحدث دخول الثلاثة مسلحين لغطاً وذعراً في المنزل المليء بالبغايا والقوادات والخدم والزبائن ، وزعقت واعولت بعض البغايا ، واطلق احد الخدم مسدسه فاصاب ثائراً اسمه عمر بكتفه ، مما اضطر رفيقه لنقله الى خارج المنزل ، وعندئذ اقتحم عبد الحميد المرداوي وحسين جراد الدار يبحثان في غرفها عن مطلق الرصاص الذي جرح زميلهم ، وكان فرحينه ، واختفى عن الانظار ، واندفع الجندي مرافق الضابط يطلق من مسدسه ايضاً الرصاص ، ويتحصن بالنافذة من غرفة أمره الضابط ، فقابلوه بالرصاص ، وهجموا عليه ، فالقى بنفسه من احدى النوافذ الى الشارع ، ونجا بنفسه ، ولكن الضابط الطيار كان نخموراً لم يستطع الفرار ، فقتله الثائرون ، وخرجوا من الدار ، بعد ان اصابوا بعض الغنائم من الزبائن ، ولم يبتعدوا كثيراً عن الماخور حتى وصلت دوريات الشرطة والجيش اليه ، واخذت في اطلاق الرصاص ، ولكن افراد العصابة وصلوا الى مكنهم في حي « باب دريب » سالمين .

اضطرب الفرنسيون في حمص لمصرع ضابطهم الطيار ، وامتأل جو المدينة في الصباح بالاشاعات عن وصول سعيد العاص وجيشه من التأثيرين الى بساتين حمص ، فوجه الفرنسيون قوة من جيشهم الى البساتين ، تحلق فوقها الطائرات ، بحثاً عن التأثيرين الذين قتلوا ضابطهم الطيار ، وانتشر جواسيسهم وعيونهم في المدينة ، يتلقون الاخبار عن العصابة التي قتلت الضابط في قلب مدينة حمص ، واحتفل الفرنسيون بجزاة القتييل ، وسار كل ضابطهم وراءها ، ورأى نظير النشواتي ان عملية اخوانه كهربت جو المدينة على عصابته ، فاسرع يتم يوم الثلاثاء في الرابع من شهر مايس اعماله ، واستأجر جمالاً لحمل المؤن والعتاد ، اوعز اليه ان يغادر

المدينة قبل الغروب ، ويسلك من حصص طريق قرية « تل النبي مند » ، حتى لا يمنع في الليل من الخروج ، بسبب منع التجول الذي فرض على المدينة ، على ان ينتظر العصابة في مكان حدده له في الطريق . ولما انطلق النشواتي بعصابته من مكنه في اول الليل ، سار بهم الى مخفر الشرطة في حي « باب السباع » ، ولما دنوا من المخفر راحوا يغنون ، ويترنحون كالسكارى حتى لا ينتبه رجال الشرطة الى انهم ثائرون ، وعندما اصبحوا امام المخفر باغتوا رجاله ، وكانوا اربعة فقط ، واستولوا على اسلحتهم ، وارغموهم على مرافقتهم ، وصادفوا في الطريق دورية مؤلفة من اربعة شرطيين هم بقية مرتب المخفر ، قبضوا عليهم ، واخذوا اسلحتهم ايضاً ، وساقوا الجميع معهم الى خارج المدينة حيث توسل هؤلاء الشرطة الى نظير النشواتي فاطلق سراحهم ، واعادهم الى المدينة ، ولكنه اضاع من الليل حوالي اربع ساعات في حركته هذه ، اخذ بعدها يفد مع اخوانه السير الى اكروم بطريق تمر شرقي بحيرة حمص ، والمسافة الى اكروم اكثر من اربعين كيلومتراً ، اكثرها في السهل ، يحتاج اجتيازها ، بسير الجمل الذي يحمل المؤن والسلاح الى اكثر من ثماني ساعات . ولما اشرقت شمس الخامس من شهر مارس عليهم ، كانوا يسرون في الطريق شرقي البحيرة ، في وسط السهل ، وبينهم وبين الجبال مسافة بعيدة ، وصادفوا نزلاً للأعراب ، وقد اضناهم العمل والسير ساعات الليل كلها ، فلجأوا اليه للراحة ، وهناك اختلفوا ، فمنهم من اقترح البقاء عند الأعراب ساعات النهار كلها ، تجنباً للطائرات الفرنسية ، فعارض آخرون بان هذا لا ينجيهم من مطاردة القوات الفرنسية بالسيارات ، خاصة بعد ان عرف الفرنسيون عددهم ، ووجهة سيرهم من رجال الشرطة الذين اطلق نظير النشواتي سراحهم . واقترح البعض الاستمرار بالسير فحذرهم رفاقهم من الطائرات التي قد تلحق بهم ، وتكشفهم في الطريق ، وتلحق بهم القوات الفرنسية ، وتقصفهم الطائرات في السهل . واخيراً اقترح الثائر عقل الدندشي من شبان تلكلخ ان تسلك العصابة طريقاً غربي البحيرة ، في وعرة حمص ، لا تستطيع السيارات ان تسلكها ، وان يتجنبوا فيها دخول القرى ، والمرور بها ، لأن اهلها من النصيرية المعادين

لثورة ، بسبب اعمال كان ارتكبها النفوري وسوسق ضد قرية علوية في اطراف حمص ، استغلها الفرنسيون وزعماؤهم في حينها ، وقدر افراد العصاة هذه الطريق أضمن لوصولهم الى اكروم ، فقبلوا الاقتراح ، وعادوا ادراجهم الى سد البحيرة على مقربة من حمص ، اجتازوه الى الغرب ، وبدأوا طريقهم الجديدة غربي البحيرة ، ، وهي طريق وعرة ، حتى أصبحوا على مقربة من قرية « خربة غازي » ، وهي قرية نصيرية ملك لآل أدريس في حمص ، اعترض سبيلهم مستنقع ، لا بد لهم من اجتيازه ، تنفيذاً لخطتهم بعدم المرور بالقرى ، واهلها علويون مسلحون ، زعماؤهم كما قلنا ، موالون للفرنسيين .

التحرش والغدر بالعصاة

- ١٣ -

او عز نظير النشواتي للجمال بأن يتابع سيره بطريق القرية ، ورافقه بأثنين من المسلحين لحراسة الجمل وما يحمل من سلاح ومؤن ، لأن خف البعير ينزلق في وحول المستنقع ، ويخشى وقوعه وكسر ذراعيه أو ساقه ، وشمر المشاة ، وخاضوا المستنقع حتى اجتازوه مع الخيالة منهم . وكان مجموع افراد العصاة ستة عشر مسلحاً ، خمسة منهم فرسان ، لاحظوا بعد اجتياز المستنقع تجمهر أهل القرية حول الجمل والجمال ورفيقهم ، عندما وصلوا الى جدران القرية ، وسمعوا ضجة وصراخاً ، فأدركوا ان بنادق الشرطه على الجمل ، وما عليه من مؤن اغرت مسلحي القرية ، فاعترضوا سبيل اخوانهم . وكان لا بد من عمل شيء لانقاذ الموقف ، فأخذ نظير النشواتي يطلق من مكانه الرصاص عالياً فوق رؤوس المتجمهرين ، لعلهم يكفون عن تجمعهم حول رفاقه ، وابتدأت المعركة بين العصاة وبين الفلاحين المسلحين ، وكانت قرى العلويين منتشرة على مدى

وعرة حمص وسلسلة الجبال غربيها، وكلها مسلحة بإيعاز من الفرنسيين وتشجيع زعمائها، للوقوف في وجه الثورة، منذ ارتكب زعماء قلمون الشائنة جريمة العدوان على إحدى قرى العلويين قريباً من حمص، في إحدى غزواتهم من أجل السلب والنهب.

كان المتفق عليه بينهم أن يهبوا لنجدة بعضهم بعضاً إذا ما سمعوا أكثر من خمس طلقات رصاص صادرة من أي مكان في منطقتهم، فسارع مسلحو القرى القريبة، ثم الأبعد إلى نجدة قرية «خربة غازي»، بعد أن تأكد لهم نشوب معركة في أراضيها، وكثر صوت الرصاص الصادر من جهتها، وادرك نظير النشواتي أن موقف عصابته أصبح خطيراً، فهو ابن حمص، ويعرف كثرة القرى العلوية، ويعرف أنها سلحت لمقاومة الثورة، فأعطى فرسه إلى أحد أفراد العصابة، واسمه «عبد» وأخذ منه بندقيته حتى لا يعرف أنه ثائر، وطلب منه أن يعود أدراجه من الطريق التي سلكوها إلى سد البحيرة، ثم ينتقل منه إلى الطريق شرقي البحيرة، ويطلق للفرس العنان حتى يبلغ أكروم، ويعلم زين مرعي وإخوانه الثائرين بالأمر ليهبوا إلى نجدة، وقال له: «إن معنا من العتاد ما نقاتل به من مواقعنا النهار كله، فلا يثنى مرور الوقت، أو بعد المسافة إخواننا عن نجدتنا، فسنباتل هنا حتى نموت، إذا لم يدر كونا...» وقفز عبده إلى صهوة «الخرساء»، وهي فرس كريم معروفة في ديار حمص بأصلها العربي، واندفع بها في المستنقع يجتازه، وركض عدد من الفلاحين في القرية نحو الحؤول دون مروره، وهاجمه النسوة بالعصي والأعمدة، يحاولن منعه، ورميه عن صهوة فرسه، واطلق عليه المسلحون الرصاص، ولكنه نجا منهم، وغاب عن العيون والأنظار، وتخلص من المنطقة الوعرة التي كان يصعب عليه سلوك طريقها إلى أكروم، لوعورتها، ولكثرة العلويين المسلحين المبادرين لنجدة إخوانهم من القرى الأخرى.

احتدمت المعركة بين عصابة النشواتي وبين المسلحين العلويين الذين اخذوا يحيطون بها من جميع اطرافها ، ولكنها صمدت في معاقبتها ، ونازلت قوات تفوقها عشرات الاضعاف ، وادرك المنحرفون عن طريق حب وطنهم انهم لا يستطيعون القضاء على عصابة المجاهدين ، دون ان تصرع منهم العشرات ، وربما المئات ، فلجأوا الى الخديعة والمكر والغدر ، ووجهوا وقداً من النسوة والشيوخ الطاعنين بالسن ، يلوحون بالمناديل البيضاء ، حتى اذا دنوا من نظير النشواتي ، تضرعوا وبكوا ، وقالوا ان الحادث نجم عن سوء التفاهم ، واعتذروا عما بدر من الجهلة شبان قريتهم الذين تورطوا وجهلوا ان الجمل وما يحمل ومن معه لنظير النشواتي ، وسألوه : « هل اصيب احد منكم في المعركة ؟ » ، ولما قيل لهم « لا ! » ، تظاهروا بالفرح ، وقالوا : « لم يصب والحمد لله احد منا ايضاً ! » فلنكفر عن غلطتنا اذن !.. فنحن اهل ، ونحن اخوان ، ونظير النشواتي المجاهد مفخرتنا ، فتفضلوا الى القرية ، فهي قريتم وبيوتها منازلكم ! واهلها اهلكم !.. » ، فقال لهم نظير : « لا نريد قريتم ، ولا منازلكم ، ولا ضيافتكم !.. وما دام لم يصب احد منا ولا منكم فارسلوا لنا جماعتنا ، كي نسير في طريقنا ، وننسى كل ما حدث !.. » ، واصر الفلاحون على دعوة العصابة الى القرية ، واعتذروا بان الجهلة من شبان القرية قتلوا الجمل منذ بدء المعركة ، ولا بد من وقت لتدارك جمل أو دابة غيره تحمل الجمل ، فاصر النشواتي على عدم دخول القرية ، وطلب تدارك الدابة وارسال الجمل اليه مع الرفيقين المسلحين والجمال ، وانه ينتظر في مكانه حتى يتم ذلك كله ، وهو يشكر الفلاحين على دعوتهم واريحيتهم !.. وعاد الفلاحون الى الرجاء ، والقول ان الاخوة تقضي بان يكون بين الجانبين خبز وملح ، واصروا على الدعوة ، وانه لا يزيل اثر ما حدث إلا زيارة نظير واخوانه قريتهم . وازاء اصرار النشواتي على الرفض تدخل حسين جراد من البارزين في العصابة ، وقال لنظير : « ان القوم عاهدوا بالله ومحمد وعلي ، وقالوا انهم مسلمون لا يمكن ان يكونوا عوناً للكافرين علينا ، وانهم اخواننا في الوطن ، وانا أعرف هؤلاء الفلاحين ، وعشت بينهم يوم كنت وكيلاً

لما لكي القرية من آل ادريس ، وهم فلاحون طيبون ، فتفضل يا نظير ! واقبل ضيافتهم ودعوتهم ، وهم اخواننا وجيراننا ، ومواطنون قبل كل شيء ! » ، فنجعل نظير النشواتي امام كلمات رفيقه في السلاح ، وضراعة الفلاحين ، وخذع وقبل الدعوة ، وسار مع عصابته الى القرية ، واستقبله الفلاحون احسن استقبال ، الا ثلاثة من افراد عصابته لم يطمئنوا الى كل ما قاله الفلاحون العلويون ، ولبثوا في معاقلمهم ، حتى اذا ابتعد اخوانهم مع الفلاحين ، انتقلوا منها زحفاً الى زروع القمح القريبة منهم ، حيث اختفوا عن العيون الى الليل ، ثم تسللوا في ظلمته عائدين الى حمص ، واختفوا في منازلهم ، او منازل اصدقائهم حتى سنحت لهم الفرصة ، وقبضت لهم وسيلة الالتحاق بنا في اكروم . اما نظير وسائر رفاقه ، فكانوا كلما تقدموا خرج لهم مسلحون علويون من بين الصخور ، وانضموا الى الموكب . ولما دخلوا القرية اصبح حولهم حشد من المسلحين طوقوهم ، وامسكوا ببنادقهم ، وقبضوا عليهم ، وانتزعوا منهم اسلحتهم بين زغاريد نساء القرية ، وزجوا في غرفة تحت الحراسة المسلحة ، وارسل زعماء القرية رسلاً من قبلهم الى محطة « خربة التين » القريبة ، يعلمون السلطة في حمص ان عصابة نظير النشواتي مع رئيسها في قبضة يدهم ، ف لترسل قوة من الجند تتسلمهم كلهم .

وأسرعت السلطة الفرنسية ، فوجهت اولاً اسماعيل محمود قائد درك حمص مع قوة من جنوده بالسيارات الى « خربة غازي » ووجهت وراءهم سرية من الفريسان الصباحيين ، ومعهم القومندان « مترو » ضابط المصالح الخاصة في حمص ، والذي سبق له الاجهاز على الجريح فؤاد رسلان في قارة ، فوصل قائد الدرك ، وتسلم ضحايا الخيانة من فلاحي خربة غازي ، وهم : « نظير النشواتي ، وحسين جراد ، وسعيد الشهلا ، وعبد الكريم عاص ، ومحمد علي الدروبي ، ومحمد الاخرس ، ومرعي التركاوي جميعهم من حمص ، وعلاء الدين الكيلاني من حماة ، وعقل الدندشي من تلكلخ ، وعبد الحميد المرداوي من قرية بيت مرين في قضاء نابلس

(فلسطين) ، وحسين النابلسي من نابلس ، والحاج عبدالله المغربي من الجزائر ، وكان هو والمرداوي فرا من الجيش الفرنسي والتحقا بالثورة السورية . اما الجمال فقد اخفاه الفلاحون في القرية لقاء دراهم كانت معه دفعها لهم ، وكيلا تعرف السلطة بالغنيمة التي غنموها من جراء قتل جملة . وقد امر اسماعيل محمود قائد الدرك بوضع الاغلال بيد المجاهدين ، فصاح به نظير النشواتي : « لو كنت انت وجنودك قبضتم علينا لجاز لكم ان تغلوا ايدينا كما تشاؤون ، ولكنكم لم تقبضوا علينا بشجاعتكم ، ولا هؤلاء الخونة الانذال ! وانما خدعونا .. ودعونا الى قريتهم للطعام ، ثم غدروا بنا ، واخذوا سلاحنا ! . والآن سلمنا بنادقنا ، وتعال انت وجنوك وكل مسلحي هذه القرى معكم ، فإن استطعت ان تقبض علينا حق لك ان تفعل بنا ما تشاء ! » ، عندئذ سمح قائد درك حمص لنظير النشواتي وحده بان يسير بلا أغلال بين الجنود حتى اقبلوا على طريق السيارات حيث يربط الجنود الصباحيون ، وقبل ان يضعوا القيد في يديه اخرج النشواتي محفظة نقوده من جيبه ، وقال للدرك : من منكم يوصل هذه الامانة الى اهلي ؟ .. انها محفظة فيها مئة وكذا ليرة ذهبية ! .. فتناولها قائد الدرك من يده وقال له : « اعتمد علي فساوصلها لاهلك ! » ، ولكنه لم يوصلها الا بعد بضع عشرة سنة ، وبعد ان عاد نظير النشواتي من التشريد ، وكان العهد وطنياً في الحكم ، وكان اسماعيل محمود احيل الى التقاعد ، فارسل نظير النشواتي يطالبه بالمبلغ ، والا قاضاه امام المراجع المختصة ، فرد اليه المبلغ الذي اختلسه منه ، تحت ستار تسليمه لاسرته ! ..

الميت الحي

- ٧٨ -

سار الفرنسيون ، بالعصابة الى محطة « خربة التين » ، وبعد مكالمة بالهاتف بين فوزي الملكي ومتصرف حمص ، وبين القومندان « مترو » المستشار الفرنسي ، قرأ له هذا خلافا لاسماء افراد العصابة ، عرف منهم المتصرف اربعة من حمص ، واقترح المستشار قتلهم فوراً ، وعدم نقلهم الى حمص ، والادعاء انهم قتلوا في معركة نشبت بين العصابة والجيش الفرنسي ، لان لهم شعبية كبيرة في المدينة ، ومنذ شاع نبأ اعتقالهم ، تجمهر الالوف من ابناء الشعب في جهة المحطة وعلى طريق السيارات الى طرابلس ليروا باعينهم نقلهم الى المدينة ، ويخشى ان تهاجم الجماهير القوة التي تنقلهم ، وان ينقلب الوضع في المدينة الى ثورة محلية لانقاذهم من ايدي الجنود . اما البقية فيمكن ارجاء اعدامهم حتى تعرف هوياتهم ، وتقوم السلطة باجراء التحقيق معهم ، شريطة ان ينقلوا الى حمص في الليل ، وبعد التأكد من انفضاض الجماهير ، وعودتها الى منازلها . اثر هذه المكالمة اصطف الجنود على طريق السيارات الى طرابلس ، بعد ان اوقفوا السير من جهتي حمص - طرابلس ، وجيء بالمعتقلين ، مغلولي الايدي الى ظهورهم ، وتقدم القومندان مترو ، وبيده ورقة وقرأ فيها اسماء نظير النشواتي ، وحسين جراد ، وسعيد الشهلا ، وعقل الدندشي ، وامرهم ان يتقدموا بضع خطوات عن اخوانهم ، وان يصطفوا على قارعة الطريق ، وجاء من ورائهم ، وركل بقدمه نظير النشواتي من قفاه ، فاندفع الى الامام ، وصوب المسدس الى نقرته ، واطلق عليه رصاصتين سقط بعدها مخرجاً بدمه . وفعل بالثلاثة

الآخرين مثلما فعل بالنشواتي ، ثم اعاد الكرة فأطلق رصاصة واحدة في رأس كل واحد منهم ، وهى ما تسمى « طلقة الرحمة ! » . للاجهاز على المحتضرين منهم ، ثم أمر الجنود بأن يبعدوا جثث القتلى عن طريق السيارات ، فجروهم من ارجلهم ، ورموهم على كتيب من الحجارة الى جانب الطريق ، وكان الليل بدأ يرخي سدوله على المكان الكئيب ، ونقل سائر المعتقلين الى المحطة ، وراح ينتظر الوقت المناسب ، والاشارة من المتصرف لنقلهم الى حمص . ولما ابلغ المستشار المتصرف نبأ قتل المجاهدين الاربعة ، سار دلالون يعلنون في المدينة ان بلاغاً رسمياً صدر عن قيادة الجيش يقول ان معركة نشبت بين الجيش الفرنسي وبين عصابة نظير النشواتي قرب محطة خربة التين اسفرت عن مصرع النشواتي ، وحسين جراد ، وسعيد الشهلا ، وعقل الدندشى من المتمردين ، فعلى أهل القتلى ان يراجعوا قيادة الجيش في محطة خربة التين لتسلم جثث ابنائهم .» ، وعلق البلاغ الرسمي على الجدران ، فانكفاً اهل حمص الى منازلهم ، وكأن على رؤوسهم الطير من هول الخبر ، وارسل اهل الشهداء سيارة في الليل لنقل الجثث الى حمص .

الحي ليس له قاتل !

ومن غريب الأحداث ان نظير النشواتي لما حاول القومندان مترو قتله من الخلف ، دون ان يدري هو بمصييره ، سمع رفيقه حسين جراد يقول للمستشار : « شلت يدك .. اقتلني قبله ! .. » فادرك انه مقتول لا محالة والتفت بحكم الغريزة الى الخلف ، فجاءت طلقة المسدس الأول في صدغه قرب اذنه اليمنى ، ونفذت من وراء اذنه دون ان تمس الدماغ ، واصابت الثانية قبة رداءه ، ولم تصب جسمه ، فسقط بفعل الرصاصة الاولى منكفئاً على وجهه . ولما عاد المستشار يطلق رصاصات الرحمة للأربعة ، وهو يحسب انه أصاب رأس النشواتي برصاصتين ، اطلق رصاصة الرحمة ، والله اراد لها ان لا تصيب مقتلاً من نظير ، فتحركت انملته ، وهى تضغط على زناد المسدس ، وانطلقت الرصاصة منخفضة قليلاً عن

النقرة ، فأصابته عنقه من الخلف ، وثفدت من جانب عظم الترقوة اليمنى ، فغاب صواب النشواتي هذه المرة ، ولم يصح من اغمائه الا ووجهه يحرق على زمل الطريق ، وألم شديد يحزبه ، فأغمض عينيه ، وتظاهر بالموت ، حتى سمع حوافر الجياد تبتعد عن المكان باتجاه المحطة ، ففتح عينيه ، وكان ملقى على ظهره فوق كومة الحجارة ، فوقعت عيناه ، في غبشة الغروب ، على عيني خيال مغربي من الصباحيين ، كان يتأمل الشهداء وهم يلفظون آخر أنفاسهم ، فلكرز المغربي حصانه ، ولحق بالسرية في المحطة ، وقد روّعته رهبة الموت ، ونظرة المحتضر اليه . . عندئذ خطر لنظير ، وقد خلا المكان من الجند ، ان يحرب بنفسه النهوض ، فجلس ، ونظر الى رفاقه الثلاثة ، وبعضهم ، في لحظاته الأخيرة ، يصدر عنه شخير ، وناداهم بأسمائهم واحداً واحداً ، ولما لم يجبه أحد منهم ، عرف انهم انتقلوا الى عالم الغيب والشهادة ، فنهض على قدميه وراح يركض في ظلام الليل ، مبتعداً عن طريق السيارات ، يحمل جراحه ووثاق يديه ، متجهاً نحو حمص ، حتى بلغ قرية في الطريق يعرفها ، ويطمئن الى اهلها ، فطرق بقدمه اول باب صادفه ، وطلب من صاحب البيت ان يقطع له وثاقه ، ففعل ، وسقاه ماء ، ثم تابع نظير النشواتي سيره الى حمص ، وتوجه توأ الى منزل حلاق مسيحي في المدينة يعرفه من قبل ، ويعرف انه يتعاطى التطبيب ، ويطمئن الى وفائه ، فبادر هذا فوراً الى غسل جراحه وتضميدها ، وآواه في منزله .

وصلت الى محطة خربة التين سيارة من حمص تحمل بعض آل الشهداء لتسلم الجثث الاربع ، فرافقها بعض الجنود الى المكان الذي ألقيت فيه الجثث ، وهناك وجدوها ثلاثاً ، سلمت الى من في السيارة الذين تميزوا الوجوه ، فلم يجدوا جثة نظير النشواتي بين الجثث ، وعاد الجنود مع أهل الشهداء إلى المحطة يقولون للقومندان « مترو » ان جثة نظير النشواتي مفقودة ، فخرج بنفسه الى المكان ، ولما لم يجد الجثة عاد ليقول لمن في السيارة ، وهو يضع السوط الذي بيده على المنصة : « اذا نهض هذا السوط بمفرده ، ومن نفسه ، وسار على المنصة يمكن

أن ينهض نظير النشواتي ويسير على الأرض ! » ، ثم أضاف : « قد يكون مر قبلكم أحد الفلاحين الذين يسمعون باسم نظير ، أو يعرفونه ، وحمل الجثة على حماره ، وذهب بها الى اهل نظير في حمص باعتباره رئيس العصابة ، لذلك اطمئنوا .. وعودوا الى حمص ، ستجدون الجثة سبقتكم ، أو انها في الطريق الى بيت نظير ! .. » ، وصدق الله العظيم في قوله : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ! » ، وشاء أن يشفى نظير من جراحه ، وشاء ان يعيش بعد هذا الحادث بضع عشرة سنة أخرى ، وان يكون حادث رميه بالرصاص ونجاته من الموت أعجوبة يتحدث بها الناس ، وتثبت أن الحي ليس له قاتل ، وان ارادة الله فوق كل ارادة .

وصلت الجثث الثلاث الى حمص ، وتسلمها اهلها ، وأقام آل النشواتي مأتماً ابنهم ، دون ان يجدوا الجثة ، فقد اسماه البلاغ الحربي الرسمي باسمه ، ودل على انه رئيس العصابة ، واكد القومندان مترو موته ، وان جثته كانت بين الجثث ، ولكن في ساعة متأخرة من الليل ، وبعد ان انفض المعزون ، جاءهم رسول يهمس في اذن اخيه ، ويؤكد له ان نظير حي ، وانه وصل الى حمص ، وانه في حرز حريز ، وان جراحه غير خطيرة ، ولكن عليهم ان يتظاهروا بالحزن ، ويستمرروا بمراسم المأتم ، وان يتباكوا عليه حتى لا يعرف الفرنسيون أمره ، ويسعوا للقضاء عليه . وقد امتلأ جو حمص بالاشاعات ، اثر اختفاء جثة نظير النشواتي رئيس العصابة من بين الجثث الأربع التي أتى البلاغ الرسمي على ذكر أسماء أصحابها ومصرعهم ، ولم يصدق أحد تأويل المستشار لاختفاء الجثة ، بل قالوا ان الفرنسيين نقلوها الى باريس ، دون غيرها ، باعتباره رئيس العصابة ، بعد ان حنطوها ليعرضوها على شعبهم كنصر على الثورة السورية ! .. وقيل أيضاً أنه يحمل حجاباً مكتوباً ضد الرصاص ، فلم يؤثر رصاص الفرنسيين في جسمه وانزلق عليه ، وطاش ، وبعد ان حسبوا انه مات ، قام يمشي على قدميه لينضم الى جماعته في جنال اكروم !

أما الثانية بقية المجاهدين المعتقلين ، فقد نقلهم الفرنسيون احياء بالسيارات الى حمص ، في هدأة الليل ، وبعد ان انكفأ الاهلون الى منازلهم . وشاع خبر قتلهم ايضاً ، دون ان يعرف أحد اسماءهم ، وسجنوا في ثكنة عسكرية خاصة بالجنود العرب المغاربة ، ليعتبروا بمصيرهم ، فلا يفكر أحد منهم بالفرار من الجيش الفرنسي ، والالتحاق بالثورة السورية ، بعد ان كثر فرار بعضهم من الجيش ، واثقوهم بالاضافة الى ايديهم الموثقة الى الخلف ، وثاقاً جديداً ، إذ حزموا كل اثنين وجهاً لوجه بحبال شدت أرجلهم ، وأجسادهم إلى بعضها بعضاً ، بعد أن أوهنوهم بالضرب والتعذيب بالعصي والسياط والرفس بالارجل ، واللكم بالايدي . وجاء الضباط الفرنسيون بنسائهم وصويحباتهم من العاهرات إلى الثكنة ، يعرضون عليهن نماذج من الشائرين المتوحشين ! « بدوان » ، فكان يتضحكن مسرورات من مشهدهم الذي يفتت القلوب التي قدت من صخر . وعبث الضباط بأطراف عصيهم بعورات المعتقلين أمامهن ، وتركوهم بلا طعام ولا ماء ، إذا صاح أحدهم يشكو الظماً .. أرسلوا احد الجنود ليبول في فمه ووجهه .

في اليوم السادس من شهر ايار عام ١٩٢٦ ، أي في يوم الذكرى العاشرة لشهداء السادس من ايار عام ١٩١٦ ، نقل هؤلاء الابطال واحداً واحداً إلى غرفة التعذيب والتحقيق في الثكنة ، وسجلت هوياتهم ، وحقق معهم عن التحاقهم بالثورة ، وأدوارهم واعمالهم فيها ، واسماء من عمل معهم من الشائرين ، وعن سعيد العاص وقوته في اكروم ، عددهم وسلاحهم واسمائهم ، ولماذا جاءوا الى اكروم ، وما هي خططهم ، وأين يقيمون بالضبط من الجبال ، ومن هم عصابة زين مرعي جعفر . وكان أثبتهم جناناً علاء الدين الكيلاني ، وهو من آل فضل الله الكيلاني في حماة ، مثقف ، ومن خريجي دار المعلمين في دمشق ، فقد جابههم برباطة جأش نادرة عن اشتراكه بالثورة ، وعن أهداف الثورة السورية ، وانها ترمي الى تحرير الوطن السوري من استعمارهم البشع ، وبالغ في التحدث عن تنظيماتها ، وعدد رجالها وقادتها واسلحتها وبطولات المجاهدين ، وقال لهم :

« اننا نعرف ان مصيرنا القتل بأيديكم ، بعد أن غدر بنا أبناء وطننا الذين لولاهم لكلفكم قتلنا العشرات ، وربما المئات من جنودكم وضباطكم ، تزجونهم الى قتالنا .. ان بين ايديكم الآن من هم كانوا في عداد العشرين بطلا الذين أوقفوا حملتكم ساعات في موقع « عيون العلق » ، وهي تعد بالالوف ، وتضج بالاسلحة ، وكبدوها ما كبدوها من الخسائر التي أنتم أدرى مني بها ! .. » ، فكان جوابهم الانهيار عليه بالضرب ، وامر جنودهم بضربه بالسياط وبكعاب البنادق ، واحزمة الجلد ، حتى تمزق لحمه ، وسالت الدماء من جراح رأسه وغطت وجهه . واعيد المعتقلون ، بعد التحقيق والتعذيب إلى سجنهم ، يعذبون فيه ألوان العذاب ، وعند الاصيل اخرج الحاج عبد الله المغربي وعبد الحميد المرادوي (النابلسي) الى باحة الشكنة ، واعلن للجنود حامية الشكنة ، وهم صفوف منتظمة ، ان الثائرين هما من الجيش الفرنسي ، كانا فيه جنديين ، خانا واجبهما ، والتحقا بالعصاة المتوحشين ، وتلي القرار بإعدامهما رمياً بالرصاص ، ثم أُعيدا الى سجنهما .

اقتلني إن كنت صديقي !

- ٧٩ -

لقد بلغ التعذيب من الوحشية حداً ان محمد علي الدروبي الذي قرن مع مرعي التركاوي بوثق واحد ، ان قال لصاحبه : « اتجنبي يا مرعي ؟ وهل انت حقاً اخي في السلاح ؟ » فأجابه مرعي : « أفديك ، ان استطعت ، بروحي ! فكيف تشك بصدق ودي ومحبي ؟ » قال الدروبي : « اذا كنت تجنبي حقاً كأخ ورفيق في الجهاد ، فانقذني مما انا فيه ! من هذا العذاب الذي لا يطاق ولا يحتمل .. انقذني بالتعجيل بموتي ! » قال التركاوي : « وكيف استطيع

- ٥٧٣ -

ذلك ، وانا موثق اليدين والرجلين والجسم مثلك ؟ » ، قال : « ان وجهك يقابل وجهي ، وباستطاعتك أن تعض بأسنانك على حنجرتي ، عضه شديدة ، تقتلني ، وتنقذني من هذا العذاب !... » ، ورأى التركاوي ما ارتسم على وجه صديقه من صور العذاب الشديد ، وهو يشاطره إياه ، ورأى صدق لهجته في تمني الموت وطلبه ، وكان صديقاً عزيزاً على قلبه ، فأراد فعلاً ان ينقذه من العذاب ، وحاول عض حنجرة صديقه ، ولكنه لم يقو على قتله ، ولم تطاوعه نفسه ، فبكى .. واعتذر .. وقال له : « لنمت على الايمان .. فساعاتنا معدودة ! » ، وتحمل الابطال التعذيب إلى الليل ، إذ دخل عليهم عدد من الجنود ، يحملون أرغفة من الخبز جافة ، أخذوا يقسمونها ويقطعونها لقيمات كبيرة ، ويحشونها في أفواه المعتقلين الذين كانت حلوقهم جافة من العطش ، لا يسيل لها اللعاب ، فلم يستطيعوا ابتلاع لقمة من الخبز ، وأخذ الجنود يرغمونهم بإدخال العصي بأفواههم ، والضغط على الخبز بأيديهم ، لابتلاع اللقيمات ، لان اسيادهم قرروا إعدام المعتقلين ، وقانونهم ، يقول بعدم إعدام السجين جائعاً ، فكانت تمثيلية حشو الافواه بالخبز الجاف ، وكانت عذاباً لا يضارعه العذاب الذي نزل بهم من قبل .. ثم حلوا الوثاق الذي يقرب المعتقل برفيقه ، وربطوا ساقيهما بوثاق ، وجروهم اثنين اثنين الى السيارات في باحة الثكنة حيث ركب جنديان بسلحهما مع كل اثنين من المعتقلين في سيارة عسكرية صغيرة ، وانطلقت السيارات الاربع تتقدمها سيارة الضابط المكلف بتنفيذ عملية القتل ، دون محاكمة ، تسير رتلا الى طريق دمشق ، وأحكام منع التجول ما زالت سارية في المدينة ..

جندي عربي يفدي ثائرين بروحه !

وكان الحاج عبدالله المغربي وعبد الحميد المرادوي كجنديين فارين من الجيش بمقرونين بوثاق واحد من ساقيهما ، فشحرا في الظلام ، والسيارة تنطلق بهما ،

ان يد حارس من حارسيهما تقطع وثاقهما بخفة ، وتحرر ساقيهما منه ، وتزيل
الكم من فمهما ، وصوتا يهمس في أذنيهما ، ويؤكد لهما انهما مسوقان مع رفاقهما
إلى القتل ، وان يهربا عند توقف السيارة في أي مكان . ولم يطل انطلاق
السيارات إلى خارج المدينة حيث توقفت في جنوبها على طريق دمشق ، ونزل
الجنود يحرون المعتقلين من السيارات ، لقتلهم ، وقفز عبدالله المغربي من الباب
الايسر ، وقفز المرداوي من الباب الايمن ، وانطلق كل واحد منهما مندفعاً في
وجهته ، مبتعداً عن بؤرة الموت ، يركض ، ما استطاع بوثق يديه ، الركض ،
وجهة الاول الشرق ، ووجهة الثاني الغرب ، وشعر الجنود ، بعد حين ، ان
سته فقط بين ايديهم ، وان اثنين منهم يركضان في الظلام مبتعدين عنهم ،
فصوبوا نحوهما بنادقهم ، ورموها بوابل من الرصاص ، دون ان يجرؤ احد على
اللاحاق بهما ، مما يدل على مبلغ الخوف الذي كان يساورهم ، ثم انقلبوا الى
المعتقلين الستة بين ايديهم ، يردونهم بالرصاص ، ويلقون بحشمتهم الى جانب
الطريق ، وركبوا سياراتهم ، وعادوا بها مسرعين إلى ثكنتهم في حمص ،
ينقصهم الجندي العربي من المغرب الذي قطع وثاق المرداوي وصاحبه ، فقد
فر من حضيرته ضارباً في الخلاء ، منذ اللحظة التي هبط فيها من السيارة ،
ورأى قفز اسيريه من اليمين والشمال ، مقدراً انه سيقبض عليه ، ويعدم لتسهيله
فرار الثائرين . ولما وصل إلى المدينة من احد مداخلها الاخرى ، متجنباً طريق
السيارات ، ومعه بندقيته ، راح يضرب في شوارعها الخالية من المارة ، على
غير هدى ، يريد أن يصادف إنساناً ، من غير الجيش ، ليلجأ اليه ، لعله يسهل
أمر اخفائه ، والتحاqqه بالثورة ، وهو يعرف ان الثائرين غير بعيدين عن
حمص ! . وقصة هذا الجندي العربي البطل ، تلزمنا بأن نرجع إلى حادث مهاجمة
خمسة من الثائرين الماخور في حمص لقتل من يجدون فيه من الضباط الفرنسيين ،
فقد كان هو احد الجنود الاربعة المغاربة الذين كانوا خارجين من الماخور ، وقبض
عليهم الثائرون على مقربة منه ، وسلبوا منهم اشيائهم ، ثم ردوها اليهم ، بعد
ان شفّع لهم الحاج عبدالله المغربي ، وقال انهم من الجزائري وطني ، وهم عرب

مسلمون ، وقلوبهم مع الثورة ، ورجا ألا يلحق احد بهم أذى ، واخلي سبيلهم .
ولما قبض على عصاة النشواتي ، وجيء بمعظم أفرادها الى الثكنة التي يقيم فيها
هذا الجندي ، وسمع حكم الموت الصادر على مواطنه الذي أنقذه من أيدي
الثائرين ، قرر أن يعمل بسرعة ، لإنقاذه من الموت ، مهما كلفه ذلك ، وسعى
لدى العريف المغربي ، أي ضابط الصف الذي طلب منه الضابط الفرنسي تأليف
الحضيرة ، لنقل المعتقلين وقتلهم في العراء ، ورجاه ان يكون في عداد الحضيرة
ليشفي غليله من العصاة الذين قبضوا عليه قرب الماخور ، وسلبوا ما معه ،
وحاولوا قتله ، وقتل رفاقه ، فصدق العريف ، وأدخله في عداد جنود الحضيرة
المكلفة بمهمة قتل المعتقلين . استطاع هذا الجندي أن يكون مع زميل آخر
في السيارة التي تقل عبد الله المغربي ورفيقه المرداوي ، حيث اعمل في الظلام
سكينه حتى قطع وطاق الساقين ، دون ان يشعر زميله ، وأدى المهمة على
أحسن وجه ، ومكن الثائرين من الهرب ، واطلق ساقيه ، في اتجاه المدينة ،
للريح ، متستراً بالظلام ، ثم راح يسير في الازقة على غير هدى لعله يجد من يدلّه
إلى أرض الثورة ، ومواقع الثائرين . ولكن سوء طالعاه أوصله الى حارس
ليلي ، لم يصادف غيره في الازقة الخالية ، فدنا منه ، واخذ يحدثه بلهجته
الجزائرية التي لم يفهم الحارس اكثرها ، عن الثورة والثائرين ، وانه يود ان
يعرف من يهديه اليهم ، ويوصله ليقا تل معهم أعداء وطنه الفرنسيين ، فحسب
الحارس الليلي ان الجندي ثمل أضاع الطريق إلى ثكنته في الليل ، واخذ
يتفغل في الازقة ، فقاده الى مخفر الشرطة ، الذي سرعان ما اتصل رئيسه
بالدرك الفرنسي ، وابلغهم خبر الجندي ، فحضر من تسلمه من المخفر ، وقاده
إلى ثكنته حيث حكم عليه بالموت ، ونفذ فيه حكم الاعدام ، وبذلك قدم هذا
الجندي المجهول ، روحه فداء لمواطنين ثائرين ، بل فداء للوطن العربي الذي
يناضل ابناؤه ، كل منهم في منطقته ، من اجل تحريره ، ويشعر هذا الجندي
المسوق قسراً لقتال بني قومه العرب في سورية ، ان هناك رابطة قومية سامية
تربطه بالثائرين ، بل يشعر كل الجنود العرب في الجيش الفرنسي في سورية ،

هذا الشعور ، فيعمل كل منهم جهده لم يد العون لهم ، فريق يفرض من الجيش ليلتحق بالثورة العربية ، ويقدم حياته في سبيل انتصارها ، وفريق ينقل اخطر اسرار الفرنسيين الحربية الى الثائرين ، ليستعدوا للقائهم ، وينتصروا عليهم ، وان كان مكتوباً على هذا الفريق ان يكون في عداد افراد الحملة الموجهة لقتال الثائرين ، فهو يطلق رصاص بندقيته أو رشاشه عالياً حتى لا يصيب أخاه في القومية الثائر ، وان كان هو معرضاً لرصاص بني قومه الثائرين الذين لا يفرقون في القتال بين جندي مغربي وبين جندي فرنسي ، فكلهم يرتدون الزي العسكري ، وكلهم اعداؤه ، زاحفون لقتاله . وفريق يفكر بالثائرين اخوانه ، يلقي اليهم بصناديق العتاد ، وأمشاطه ، كلما سنحت له الفرصة ، يتركها في أرض المعركة ليجدها اخوانه ، ويستعينوا بها على قتال اعدائهم ، وقد يقتل هو باحدى الرصاصات التي وفرها لأخيه الثائر ، ولكن لهذا عذره ، أما هو فليكفر بدمه عن خدمة الاستعمار . انطلق الحاج عبدالله الى الشرق ، يبتعد ، تحت وابل رصاص الجند عن طريق السيارات ، وهو جندي ، في الأصل يعرف كيف يتقي الرصاص ، في مثل هذه المواقف ، وظل في سيره الى الشرق مبتعداً عن المدينة التي لقي فيها الأهوال ، حتى وجد من قطع له وثاقه ، وأمعن في البادية ، وأطلق لحيته ، وتزياً بزي درويش مغربي ، يتسلل بين القرى واحياء البدو ، ثم اتجه نحو الشمال حتى تجاوز الحدود السورية إلى تركيا . ويظهر انه خشي ، بعد انتهاء الثورة ، ان يكشف الاتراك امره ، ويسلموه الى الفرنسيين ، كجندي فار من الجيش ، لذلك عاد بزي درويش مغربي عبر البادية ، يتنقل من حي الى حي بين الاعراب ، حتى وصل الى عمان في شرقي الاردن ، وعمل فيها ماسح احذية ، وانقطعت ، بعدها ، اخباره عني .

أما عبد الحميد المرداوي ، فقد كان انطلاقه في الهرب الى الغرب . ولما شعر بكثرة الرصاص الذي يطلقه عليه الجنود ، دون ان يلحقوا به ، استلقى ، على بعد قليل من السيارات والجنود ، واخذ يزحف مبتعداً أكثر ، حتى اذا ما رأى

السيارات تعود ادراجها الى حمص ، قام يركض حتى بلغ البساتين ، وقد ثقب الرصاص سرواله عدة ثقوب ، ولكنه لم يصب منه بأذى في جسمه . وكان التعب والتعذيب انهماك ذلك الجسم ، فاستلقى في ساقية جافة من الماء ، يسترها الشجر ، واغفى رغم وثاقه الذي كان يؤلم يديه ، ويشدها الى ظهره . وفي الصباح ، شعر بحرارة الشمس توقظه من نومه ، وكان بأسماله الممزقة ، ووجهه المليء بالرضوض والجروح والكدمات من الضرب والتعذيب ، وبشعره المشعث ، كالوحش الضاري



عدد من خريجي الجامعات والمثقفين في الثورة السورية بينهم خليل الحموي ، وصبري العسلي ، واديب العسلي ، وخير الدين اللبابيدي ، ونزيه المؤيد

يخيف كل من سيراه من بني الانسان . وتطلع في البستان الذي ساقه القدر اليه ، فوجد البستاني يعمل في مسكبة منه ، مديراً ظهره اليه . وعزم على امر ، وتوكل ، وتقدم بخطوات لا يسمع لها وقع من وراء البستاني حتى ذانه ، وقفز أمامه بشكله الخفيف ، سائلاً : « أمسلم انت أم نصراني ؟ » ، فقد اصبح لكثرة ما سمع

من رفاقه عن موقف المسيحيين من الثورة يحسب ان كل مسيحي عدو طبيعي لها. وذعر البستاني لهذه المفاجأة ، ثم استرد هدوءه ، فقد كان سمع في الصباح ان الفرنسيين اعدوا الثانية رفاق نظير النشواتي على قارعة طريق دمشق عند مدخل مدينة حمص الجنوبي ، ولكن الاهلين وجدوا جثثهم ستاً ، مما يدل على ان اثنين منهم استطاعا الفرار من الموت !.. لذلك كان جواب البستاني للثائر : الحمد لله على سلامتك يا بني اهل انت من رفاق نظير؟ ، ثم هب يقطع وثاقه بمديته ، وقاده الى منزله في البستان يبدل ثيابه ، ويغسل جراحه ، ويضمدها ، ويخفف من آلامه ، حتى اذا جن الليل نقله بلباس البساتنة الى داره في حمص ، واخفاه فيها بين اسرته واولاده . وفي يوم اشتدت فيه الشائعات بين المواطنين في حمص تؤكّد ان نظير النشواتي حي يرزق ، حتى بلغت مسامع البستاني ، فاوفده المرداوي الى أحد اخوة نظير ، يعلمه ان المرداوي في داره . وكان هذا الأخ يعرف المرداوي يوم كان مع عصابة اخيه في حي باب الدريب ، فأبلغ أخاه نظيراً في مخبئه بأمر المرداوي ، وكان ان سمع النشواتي بإشاعة فراره مع المغربي من ايدي جلاديه ليلة تنفيذ الإعدام برفاقه المعتقلين معه ، فأرسل بطلبه ، ونقل المرداوي ليلاً الى مخبأ النشواتي حيث كان يداوي جراحه .

أما نحن في اكروم فقد وصل اليينا عبده الحمصي على الفرس الخرساء ، بعد ظهر اليوم الذي اشتبك فيه نظير وعصابته مع فلاحى « خربة غازي » ، مجتازاً المسافات البعيدة ، فانحدرنا فوراً من جبال اكروم ، وعددنا حوالي عشرة فرسان وعشرين من المشاة ، يتقدمنا سعيد العاص وزين مرعي جعفر ، سالكين الطريق الاقصر في وعرة حمص الى خربة غازي ، مجتازين قرى النصيرية التي نعرف انها مسلحة ضد الثورة ، فوجدناها تكاد تكون خالية من الرجال المسلحين ، لأنهم كانوا كلهم هبوا لنجدة اخوانهم في خربة غازي ، وسبق الفرسان منا المشاة ، لعلمهم يصلون قبلنا الى ساحة المعركة ، وينقذون اخوانهم ، ولكنهم عادوا قبيل الغروب ، بعد ان علموا أن المعركة انتهت ، وان اهالي خربة

غازي غدروا بإخوانهم ، وسلموهم الى الفرنسيين ، وان في قرية خربة غازي اكثر من خمسمئة مسلح مجتمعين اثر الحادث ، فعدنا الى الجبال ، وفي طريقنا مرورنا بقرية هيت ، فوجدناها خالية من الرجال ، وعلمنا أن مسلحيها اشتركوا في المعركة ضد إخواننا ، فاستقنا ثمانين رأساً من أبقارها ، وخمس رجال وخمس نساء وجدناهم أمامنا في القرية ، رهائن الى اكروم لعل ذلك ينفع ، فيما اذا كان فلاحو خربة غازي لما يسلموا اخواننا الى الفرنسيين. ولما بلغنا نبأقتل اخواننا، أطلقنا أولاً سراح النسوة ، ثم اتبعناهن بالرجال ، تمشياً مع قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » . وقضينا ليلة في اكروم من أشأم الليالي التي عرفناها لم يغمض لنا فيها جفن حزناً على النخبة الممتازة من شبان، كانوا في الثورة عدتنا، وكنا نبني الآمال على عودتهم لنسير في طريق تفجير طاقات المنطقة ، والافادة من امكانياتها ، فقد ذهبت تلك الآمال هباء ، وخسرنا بضعة عشر بطلاً من أبطالنا ، كنا ندخرهم لأن يكونوا نواة وقودة لشبان حمص وحماة وطرابلس يلتحقون بهم، وينازلون المستعمر الغاصب ، ويوسعون شقة الثورة وميادينها عليه . على ان ما سلبه اهل خربة غازي ، عدا خسارتنا بإخواننا ، يساوي الوف الدنانير الذهبية ، فقد سلبوا الخيل والسلاح والاعتدة والمؤن ، ولم يبق لسعيد العاص من رجاله غير ثمانية مسلحين ، وبضعة عشر رجلاً غير مسلحين ، لا ينفعون اذا وقعت الواقعة . وقدر على الجميع أن يبقوا حفاة ، وأكثرهم شبه عراة ، ليس في جيوبهم ما يشترون به نعلًا لثائر من رفاقهم . وزاد الطين بلة أن زين مرعي جعفر أعاد قطيع الابقار الى النصيرية لقاء مبلغ من المال قدموه له ، لم يعترف لنا بحق به ، في حين ان هذه الابقار كانت أقل ما يمكن الاحتفاظ به لقاء رد ما سلبه اهالي خربة غازي من خيل وسلاح ومؤن كانت عدتنا في تلك المنطقة . وكان المنطق يقتضي أن تباع هذه الابقار ، أو تعاد لأصحابها لقاء مبلغ يقارب اثمانها ، ينفق على تسليح غير المسلحين من اخواننا ، وتجهيز عصابتنا بما ينقصها من العتاد ومؤن وحاجات . لقد كان حادث خربة غازي ضربة مؤلمة لنا ، قضت على آمال بنيناها يوم غامرنا بأربعة عشر مسلحاً، وغادرنا

غوطة دمشق مجتازين مئات الكيلومترات في مناطق أخضعها الفرنسيون ، نقاتل
من اجل كل لقمة نأكلها في الطريق بالرصاص ، ونطرد عن القرى كما يطرد السليم
الأجرب !..

حتى زين مرعي بدل نظرتة الينا !

- ٨٠ -

لقد أكرم زين مرعي وفادتنا في اليوم الاول من وصولنا الى دياره ، ولكنه
لم يكتف سعيده العاص استخفافه بعددنا فقد قال له : « انك جئتني بفئة قليلة
نصفهم بلا سلاح ، فقال له : « اننا سنسلحهم بهمة رفاقهم المسلحين ، وسيرد
الينا من التبرعات ما يكفيك مؤونة اعاشتنا ». ومع علمه بالمشقة التي عانيناها في
طريقنا اليه ، وحاجتنا الى الراحة ، ومرض بعض اخواننا من التعب والإرهاق ،
فإنه لن يدعنا نركن الى الراحة ، بل كان يوقظنا عند منتصف الليل ، ويبعدنا عن
مضربه في الجبل ، الى معاقل يطلب منا المراقبة فيها ، والسهر الى الضحى خوفاً
من ان تفاجئته الحملة العسكرية التي ترددت الشائعات عن قرب زحفها الى الجبال .
وكان ينام هو ورجاله ملء اجفانهم ، رغم قولنا له ان الفرنسيين لم يجرؤوا على
مهاجمة الثائرين ليلاً في الاماكن المكشوفة من السهل كالغوطة وقلمون والجورة ،
فكيف يجرؤون على مهاجمة الجبال ، وهي معاقل صعبة يضيع المرء في مسالكها
في النهار ؟ ، فكان لا يقنع حتى ضجر منه سعيد العاص ، وقال له مرة : « أنا لم
آت الى هنا لاحرسك ورجالك ! ، ولا ملتجئاً الى حماك ، فقد كنا في الغوطة
بين ألوف المسلحين من اخواننا ، ولكنني جئت الى هنا مع إخواني لنوسع شقة
الثورة ، وانا أرجوك ان تسهل لي أمر دعوة زعماء عشيرتك وخلافهم من زعماء
المتاوله لأتحدث اليهم ، وأسعى لإقناعهم في الانضمام الينا ، ومنازلة الفرنسيين

معنا ، فإذا لم استطع ، ويئست من اقناعهم ، وايقنت ان الثورة ستبقى محدودة ، كما هي عليه الآن ، فإنني سأبحث مع اخواني عن مكان آخر يمكننا فيه ان نقوم بعمل مجيد لبلادنا ! . » ، ولكن زين مرعي ما كان ليريد دعوة زعماء المتأولة للاجتماع بسعيد العاص ، فهو يعرف قدره كراع بينهم ، ويعرف انه أوغر صدر عشيرته عليه بسوء معاملة الجوار ، ولحبه للظهور ، والتعالي على من هم أعلى منه قدراً في العشيرة باسم الثورة ، وبسبب شهرته فيها لذلك كان يراوغ ، ويتعلم ، ويزعم الا فائدة ترجى من دعوة الزعماء ، فبدأ الخلاف يدب بين الاثنين ، ولما تمضي أيام قليلة على وصولنا ووقوع المأساة ، وفقد عصابة نظير النشواتي . ولما قطع زين مرعي الأمل من وصول التبرعات الى الثورة من الوطنيين في المدن القريبة ، تنكر لنا تماماً ، وابلغ سعيد العاص انه لا يستطيع ان يضمن تأمين اعاشتنا جميعاً ، وخاصة غير المسلحين منا ، وطلب منه الاستغناء عنهم . وكنا فقدنا الأمل ايضاً في تسليحهم ، واخذنا نشعر بضجره منا ، وكأنه خاف من وجودنا عنده ، ومن اهتمام الفرنسيين بالمنطقة بعد وصولنا إليها ، وخاف ضربتهم بسببنا ، فأخذ يعمل لابعادنا عن اكروم ، لغلهم يتركونه يسرح ويمرح ، ويفرض الاتاوات ، ويجمع الاموال من القرى باسم الثورة . وقد اضطررنا في بادىء الامر الى مسايرته في أمر غير المسلحين ، فاستغنيانا عن ستة منهم ، قدرنا انهم يستطيعون الوصول الى مناطقهم دون الوقوع بأيدي الفرنسيين ، واحتفظنا بأربعة فقط من غير المسلحين . وجاء زين مرعي في اليوم الثامن من شهر مارس يقول لسعيد العاص انه لا يأمن علينا شر غير الثائرين من اهل المنطقة ، لأننا غرباء بينهم ، لم نألف حياة الجبال وشطفها ، واسلوب حروبها ، فيما اذا داهمنا الفرنسيون بقواتهم ، لذلك فهو على استعداد لان يوصلنا الى جرود بعلبك حيث عصابة توفيق هولوحيدر ، او الى الغوطة ، فسيما إذا لم نشأ الذهاب الى جرود بعلبك . وكان واضحاً انه يطردنا من منطقته ، فقرز سعيد العاص ، ووافقه مصطفى الديب من حماة ، على ان ييما شطر جبل الزاوية في الشمال حيث قيل ان هناك عصابة من الحمويين الذين اشتركوا في ثورة حماة ،

وصدّرت عليهم احكام بالموت من محكمة حماة الاستثنائية ، لعلهما يستطيعان معهم ان يقوموا هناك بعمل مثمر للثورة . وقررنا نحن البقية العودة الى الغوطة . أما انا فقد اعلنت انني لا اُغادر المنطقة ما لم يتأثّل رفيقي جميل العلواني المريض الى الشفاء ، لان في صلبه دملاً يسمى « برثن الاسد » ، هو من افظع الدماامل في الجسم ، لا يستطيع المصاب به الحراك ، ويبقى منه مكباً على وجهه ، لا يستطيع مد ساقيه من الالم ، وقلت انني مستعد لان اذهب بصاحبي الى كوخ من اكواخ الرعاية ، نقيم فيه حتى يشفى المريض ، ثم نعود معاً الى الغوطة ، نسافر معاً ، أو نتسلّل الى حمص ، ومنها نؤمّن سفرنا الى الغوطة . وبلغ خبرنا اخوة زين مرعي وابناء عمومته الثائرين ، فحضرُوا في اليوم التاسع من شهر مارس ، ونقلونا الى مضاربهم بالقرب من قرية « أكرم » ، وحالوا دون سفرنا متفرقين كل الى جهة ، وتعلّلوا بالخطر الذي يهددنا في الطريق ، واكدوا لنا انهم جميعاً غير راضين عن تصرفات زين مرعي جعفر ، ورجّوا ان لا نغير كلامه أذنأً ، لان ليس له في بني قومه ما يؤهله للكلام باسمهم ، فأقمنا في مضاربهم حيث اكرمونا غاية الاكرام . وكنا في انتظار خطة فوزي القاوقجي ، فقد بلغنا انه زحف الى قلمون بقوة من الغوطة ، ووفق في ارجاع نفوذ الثورة الى بعض قرى المنطقة التي دخلها . وقد كتب سعيد العاص رسالة الى عديهِ القنيفد واخوانه الحمويين في الشمال ، وارسلها مع ساع غير مسلح من رفاقنا ، وطلب منه ان يبحث عنهم في حماة وجبل الزاوية ، وفي كل مكان يذكر انهم فيه ، وطلب في الرسالة منهم الحضور الى منطقة اكرم لنصبح بهم قوة يعتمد عليها في اثاره المتأولة الذين كنا نرى منطقتهم اصلح منطقة استراتيجية للثورة . وكان العاص يدعو كل من يجتمع به من اهل المنطقة الى الثورة ، والانضمام اليها ، وارسل نشرات حماسية الى القرى .

وجاءنا وفد من ثلاثة رجال من ابناء شوك في جبال الضنية قرب طرابلس ، فقابلهم سعيد العاص ، ورحبنا بهم ، ودعوناهم الى الثورة ، وعلمهم سعيد العاص

كيف يستطيع أمثالهم بثلاث بنادق معهم ان يسلحوا عصاباتهم ، وكل من يود الانضمام الى ثورتهم ، وسألهم هل في منطقتكم مخفر للدرك ؟ فلما قالوا نعم في قرية « سير » مخفر للدرك ، قال : باغثوهم بثلاث بنادق وعدد اكبر من رجالكم في المخفر ، وخذوا بنادقهم وجيادهم ، ان كان لديهم جياد ، يكون ، بعدها ، لديكم عشرة مسلحون او اكثر ، تخططون بهم ضرب وغزو مخفر أبعد ، وهكذا حتى يكون لعدد من شبانكم السلاح الذي يحاربون به المستعمر . وتلقينا اخباراً من عكار عن حماسة وغلbian شديدين في المنطقة يبشران بقرب انفجار ثورة في تلك الجبال . وهكذا بدأنا نشعر بتأثير وصولنا الى جبال اكروم ، على الرغم من مأساتنا بفقد بضعة عشر شاباً من خيرة اخواننا . وبلغت مسامعنا اشاعة عن نظير النشواتي ، وانه ما يزال على قيد الحياة ، لم نصدقها ، لأنها كانت غير معقولة ، بسبب تأكيد وقوعه بيد الفرنسيين ، واعدامه برصاصهم !

يحيى العظام وهي رميم !

- ٨١ -

كنا قبيل ظهر الثالث عشر من شهر ايار في مقرنا قرب قرية « أكوم » ، ننزل في مضارب جعفر مرعي ، شقيق زين مرعي ومضارب ابناء عمه علي الحسن ، واسعد محمد ، وسعيد محمد ، واذا بأصوات الرصاص تلعلع من جهة « اكروم » ، فبادرنا الى بنادقنا تنكبها ، واسرعنا نغذ السير الى اكروم ، وفي الطريق قابلنا قافلة صغيرة من الفلاحين قادمة من تلك الجهة ، سألناها : « ما الخبر ؟ » ، فأكدوا لنا ان ليس هناك حملة أو عدو ، وان هناك قادمة يحتفلون بمقدمه . ولما بلغنا اكروم ، وجدنا نظير النشواتي مضمد جراح الرأس ، ومعه عبد الحميد المرداوي ، وابن عم لنظير اسمه شكري النشواتي ، ففرحنا بسلامة الاثنين

اللذين حدثانا ايضاً عن ثجاة الحاج عبدالله المغربي ، وضربه في مشارق البلاد .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس ، وصل بعد الظهر الى جبال أكروم ،
عشرة فرسان من الثائرين الحمويين منهم : عديه القنيفد ، ومصطفى عاشور ، وحسن
العبدية أو العبدى ، ومصطفى البشري ، وحسين الكوش ، وعادل الجاجة ،
وخير و الهزاع ، ومحمود الطفاحه ، ومحمد الديب فاستقبلناهم احسن استقبال ،
واشتدت عزائنا بمقدمهم ، فقد اصبحنا عصابة مسلحة يربو عددها على العشرين ،
اكثرهم من الفرسان ، فزاد تمسك ابناء عم زين مرعي واخوته بنا ، لا سيما
واخبار حشد الفرنسيين قواتهم لغزو جبال اكروم اخذت تتردد شائعاتها وتصل
كل يوم الى مسامعهم .

الفصل الرابع عشر

ثورة الضنية

- ٨٢ -

عاد الثلاثة أولاد شوك وشندب الى قريتهم في الضنية، بعد ان اشترى ثلاث بنادق من منطقة المتاولة ، وحملوها معهم ، وابتدأوا يرغمون اغنياءهم على التبرع لتسليح شبانهم ، فازداد عددهم مع الأيام ، وهبطوا ليلة الى بلدة « سير » مركز الضنية ، وهاجموا مخفرها ، وفيه عريف وأربعة جنود من الدرك ، فقتل العريف ، واستولوا على اسلحة الجميع وجيادهم ، وبذلك ادركت الحكومة ان الثورة بدأت في منطقة الضنية على أبواب مدينة طرابلس العربية التي تربض على ساحل البحر الابيض المتوسط ، فاهتمت السلطة الفرنسية للحادث ، وابتدأت بتحصين مدينة طرابلس ضد الثائرين الذين بلغ عددهم في الضنية ، خلال عشرة أيام ، اكثر من ستين مسلحاً ، واستبشرنا نحن في اكروم خيراً بأنباء ثورة الضنية . وكانت الاتصالات مستمرة بيننا وبينهم ، وعاهدناهم على ان نمددهم بالرجال المسلحين اذا زحف العدو لقتالهم ، وان ينجدوننا اذا زحف العدو الى منطقتنا . وكتب سعيد العاص الى الوطنيين في طرابلس يحضهم على مساعدة ثورة الضنية

بكل ما لديهم من وسائل القوة . وكانت الطائرات تروح وتغدو كل يوم تكشف منطقتنا ، وتلقي القنابل عليها ، فأدركنا ان الفرنسيين أخذوا يهتمون بشورة شمال لبنان ، وانهم عقدوا العزم على مقاومتها وسحقها .

زحف الفرنسيين للقضاء على ثورة « اكروم »

لقد أخذنا نلاحظ في تردد الطائرات المستمر على منطقتنا أن كشف المنطقة ، وتصويرها من الجو ، والتعرف الى الطرق والمسالك فيها ، هو الهدف الأول من الغارات الجوية ، وان ضباطاً من الاركان يضعون خرائط مفصلة للمنطقة الثائرة من أجل تطويقها ، والقضاء على الثائرين الذين هم في الأصل فئة قليلة ، وجهت اليهم خربة غازي ضربة انقصت عددهم . وكان الفرنسيون حريصين على إخماد الثورة في هذه المنطقة الحساسة بأي ثمن ، لأنها تهدد مراكزهم في لبنان ، ومواصلاتهم ، وتعم وتنتشر في منطقة تدهشهم مناعتها ، وصعوبة مسالكها ، وشموخ ذرى جبالها . وبما ان لهم عملاء واصدقاء من آل حمادة زعماء المنطقة ، فقد استدعواهم من الهرمل الى بيروت ، وراحوا يبحثون معهم طريقة تطويق المنطقة الثائرة ، والقضاء على الثائرين فيها ، وخاصة منهم سعيد العاص وجماعته ، ويستفسرون منهم عن مواطنها وعدد افرادها ، ومسالك الجبال وطرقها ، واسهل طريقة لتطويقها .

وكانوا عينوا سعد الله حمادة رئيساً ادارياً على منطقة الهرمل . وقد ظل سعيد العاص يسعى حتى زارنا مرة عدد من زعماء الجعافرة في منطقة الحميرة للتعرف ، والاطلاع على احوالنا ، ولديهم في منطقتهم حوالي مئة مسلح غير ثائرين ، فاستطعنا في الاجتماع الذي تم لنا معهم ان نتفق على التعاون ، فهم يريدون أن يبقوا غير ثائرين حتى لا تقصفهم الطائرات ، ويتعرضوا لبطش الحملات ، وتدمير قريتهم ومنازلهم ، وفيها نساؤهم وأطفالهم ، ولكنهم اظهروا كل الاستعداد

لأن يساعدونا سرّاً بمسليحيهم ، اذا ما زحف الفرنسيون الى الجبال ، فان كان النصر لنا ، كان لهم الفضل فيه ، وان هزمنا صانوا قراهم ومنازلهم ، واطفالهم ونساءهم من بطش الفرنسيين بالتظاهر امامهم بانهم مسلمون غير تائرين .

بلغنا في اليوم السابع عشر من شهر مارس ان بلدة الهرمل تعج بالجنود ، وخاصة بالقناصة اللبنانيين القادمين بطريق رياق وبعلبك وزحلة ، وجرى حشدهم في بيروت من سائر مناطق لبنان ، وان سعد الله حمادة يجند للفرنسيين متطوعة من المتأولة التابعين لزعامة أسرته ، ومنهم من كان يتطوع لثلاثة ايام بأجر مقطوع ، مما يدل على ان الفرنسيين قدروا اياماً ثلاثة للقضاء على التائرين في جبال اكروم . وبلغنا ايضاً ان قرية « القصر » القريبة من زيتا في السهل امتلأت بالجنود الفرنسيين الزاحفين من الشمال بطريق حمص والقصير ، وان التحشيدات الفرنسية اكتملت للزحف وتطويق الجبال . وقد بولغ في تقدير عدد الحملة الزاحفة من حمص ، فاجتمعنا عند الغروب في قرية « اكوم » ، واتفقنا مع زين مرعي جعفر على ان نتولى نحن الحمويين والحمصيين ابناء الشمال حملة الشمال ، وان يتولى هو وابناء عمه ورجاله وعشيرته حملة الهرمل ، وقرأنا الفاتحة على هذا العهد . وقيل ان هناك احتمالاً بأن تزحف القوة العسكرية في « وادي خالد » المحطة بين حمص - طرابلس ، الى اكروم ، وهي سرية فرسان لا يزيد عددها على مئة جندي ، كما ان هناك احتمالاً ان يتعرض مسلحو قرية القبيات ومن معهم من متطوعي القرى المارونية الأخرى ، ويقوموا بدور في عملية التطويق ، وعددهم - على أقل تقدير - مئة وستون مسلحاً ، فقررنا ان يبعث زين مرعي جعفر باثنين او ثلاثة من رجاله يرابطون في عقبة كأداء في الجبل لا بد لقوة وادي خالد ان تسلكها صعداً للوصول الى مكان زين مرعي جعفر المطل على اكروم . وفي هذه العقبة يمكن لمسلح واحد ان يوقف القوة ويشغلها ، ويصدها عن الجبال ، وان نطلب الى الجعافرة غير التائرين في قرية « الحميرة » وجردها - حسب اتفاق التعاون بيننا - ان يتكفلوا بصدد جماعة القبيات من المتطوعة المارونيين . وكانت العادة

ان يتكفل اربعة او خمسة مسلحين من الجعافرة بصد متطوعي القببات . وفي كل مرة ، كانوا يردونهم الى منازلهم في القرية ، يتحصنون فيها وفي جدران القرية حتى لا يصل الجعافرة الى القببات . وحلقت قبل الغروب خمس طائرات فرنسية فوق الجبال ، وقصفت بقنابلها عدة مواقع . ولأول مرة قصفت بقنابلها قرية الحميرة ، وفيها الجعافرة وزعماءهم ، فقتلت امرأة . وكانت غارتها لمصلحة

الثورة ، اذ القت في روع آل جعفر كلهم ان الفرنسيين في زحفهم لا يفرقون بين الطائع والعاصي ، واذا انتصروا ، في الغد ، على الثائرين فسيكون نصيب آل جعفر كلهم ، دون استثناء ، كنصيب الثائرين من البطش والتقتيل والحرق والتدمير ، لا يستثنون طفلاً ولا امرأة . وقد عرفنا سبب القصف ، اذ ارسلت السلطة الفرنسية في طلب زعماء آل جعفر الى بلدة الهرمل ، وخافوا ان هم لبوا الطلب ان يعتقلوا ، أو يكلفوا بالمسير مع الحملة الفرنسية الزاحفة الى الجبال ، وان يساعدوا على قتال الثائرين ، ويهدوها الى معاقبتهم . لذلك تخلفوا ، ولم يلبوا الدعوة ، وتعللوا بالاعتذار ، فاعتبرت السلطة تخلفهم تمرداً عليها ، وقصفتهم طائراتها ، فأدركوا



القائد العقيد سعيد العاص
نائم واثنان من المجاهدين يحرسانه

انها اعتبرتهم من العصاة ، وصمموا على المقاومة ، وليس غير المقاومة سبيل لصد زحف الفرنسيين الى منطقتهم .

تناولنا عشاءنا في « اكوم » ، وانطلقنا من القرية ، وعددنا ستة وعشرون مسلحاً ، منهم خمسة من الجعافرة على رأسهم علي الحسن ابن عم زين مرعي ، ومعنا شاب درزي من لبنان اسمه سعيد ، كان دركياً ، والتحق بثورة زين مرعي جعفر . أما العشرون الآخرون فهم عصابة سعيد العاص ، من حمويين وحمصيين ودماشقة وردت اسمائهم من قبل . وكان لا بد لهؤلاء الغرباء عن الارض ان يكون لهم أدلة ورواد من أهل المنطقة ، لذلك تقدم علي الحسن مع أربعة من الجعافرة لمرافقتنا ، فسرنا في طريق جبلية متجهين الى الشرق لنشرف على السهل الذي تقوم في وسطه قرية « القصر » مقر الحشد الفرنسي للزحف وتطويق الجبال .

كنا في طريقنا نلقى حاصدي الجبوب في السهل من أبناء الجبال يفرون بنسائهم وأطفالهم ودوابهم ، وأكثرها من الحمير ، إلى الجبال خشية بطش الفرنسيين بهم ، أو أن يبقوا بين ناري الفرنسيين والثائرين في معركة الغد . وقد سألنا أول ركب منهم عن اخبار العسكر في السهل ، فتوقفوا ليقولوا لنا أن عددهم يغطي عين الشمس . وسألنا قافلة ثانية منهم التقينا بها بعد حين ، فتوقفوا ليقولوا لنا ان عدد العسكر كالقش والتراب ، فأدركنا ان من الصعب ان نعرف العدد القريب من الحقيقة لجنود الحملة الفرنسية التي نحن ذاهبون للقاءها من هؤلاء الحاصدين العمال البسطاء . وكنا كلما التقينا بقوافل النازحين كانوا يؤكدون لنا وجود الحملة الفرنسية في قرية « القصر » ، ويعبرون عن كثرة عددها وجهلهم به ، بكلمات لا تختلف عما سمعناه ممن سبقوهم ، فسمعت الحاج مصطفى الديب من مجاهدي حماة يتحدث إلى اخوانه الحمويين الذين انضموا إلينا حديثاً ، فيقول : « أسمعتم ما يقول هؤلاء الحاصدون الهاربون من السهل ؟ ان

الحملة الفرنسية كالقش والتراب ، تغطي عين الشمس بكثرة جنودها ، فإلى أين يقودنا سعيد العاص ، وإلى أين نسير في هذا الليل ، ببضعة وعشرين مسلحاً بالبنادق العتيقة لمقابلة حملة مجهزة بأحدث الأسلحة وافتكها ، وبمثل هذا العدد الضخم ؟ » . ثم يقول : « إذا كان سعيد العاص لا تهمة روحه ولا أسرته ، فوالله ان لنا نساءً وأطفالاً خلفناهم وراءنا ، لا نريد لهم اليتيم والشكل ! .. وقد قال الله تعالى : ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ! .. » . سمعت هذا فأسرعت الخطى حتى لحقت بسعيد العاص ، وقلت له : « انتبه يا سعيد بك ! .. ان الحاج مصطفى الديب يتحدث الى رفاقه الحمويين حديثاً يثبط العزائم ، وقد نخجلنا أمام المتأولة ، ونحن ضيوف في منازلهم منذ اسابيع ! .. » . فتوقف العاص بفرنسه عن السير حتى أدركه الحمويون ، وأنصت لحديث مصطفى الديب ، ولما وعاه فاجأه قائلاً : « ماذا تقول يا حاج ؟ » . فبوغت الرجل ، ولكنه قال : « والله يا سعيد بك ! .. قلت لإخواني كيف نسير بهذه الشرذمة القليلة للقاء حملة جنودها كالقش والتراب ؟ .. » قال العاص :

« إسمع يا حاج مصطفى ! نحن هنا منذ بضعة أسابيع ننزل ضيوفاً على الثائرين المتأولة ، وحالهم رقيق . وقد جئنا هنا لنقاتل فرانسة ، ونوسع شقة الثورة ، وننشرها حتى نوصلها الى بلدنا ، وإلى أبعد في الشمال . وغداً تزحف أربع حملات لتطويقنا ، وتطويق اخواننا الثائرين الجعافرة الذين لا يزيدون عنا نحن الغرباء كثيراً في العدد ، وقد تعهدوا ، على قلة عددهم ، بلقاء ثلاث حملات ، إحداها تزحف من الهرمل لا تقل عن الحملة التي نسير الليلة للقاءها ، فإذا عبدنا قبل أن نرى الحملة وننازلها ، وقلنا لهم : والله لا طاقة لنا بلقاء حملة وصفها الفلاحون البسطاء لنا بأنها كالقش والتراب ، فهاذا سيكون موقفهم منا ؟ انهم سيقولون لنا لماذا أتيتم اذن الى جبلنا ، وسيبتمم بمجيئكم الينا زحف هذه الحملات علينا ؟ . ثم سيسلبوننا بنادقنا ، وربما سامونا للفرنسيين اتقاء لشرهم .. إسمع يا حاج مصطفى ! نحن نأثرون . ولما نأثر كل واحد منا كان يعرف أن واجبه

مقاتلة الفرنسيين في أي ارض يستطيع لقاءهم فيها . ونحن ذاهبون الآن الى معقل في الجبال للقاء حملة تزحف الى الجبال من السهل ، فهل نفر منها قبل أن نراها ، ام ان واجبنا يحتم علينا ان نجرب لقاءها وصددها ، فإن استطعنا كفانا الله شرها ، وقفنا بواجبنا ، وان عجزنا بعددنا القليل ، ووسائلنا المحدودة ، نبذر إذا ما انسحبنا ، ونازلناها في مكان آخر . نحن ثوار نحارب ، عند الضرورة حرب عصابات ، أي حرب كروفر ، ولكن كيف نرجع من الطريق قبل أن نرى الحملة ، وقبل أن نجرب قتالها ، لا سيما واخواننا الجعافرة ، بعضهم معنا ، وبعضهم ساروا من « اكوم » للقاء حملة الهرمل التي قد تضاهي الحملة الزاحفة علينا من حمص ؟ انني جئت هنا لأقاتل عدو بلادي ، لا لأقضي الوقت بالتنقل والأكل والراحة والكلام الفارغ !.. فمن جاء منكم ليقاتل ، فليتقدم معي الى القتال !.. » ومن يجد أن روحه أغلى من روح سعيد العاص ، ويخاف عليها ، فليرجع من هنا ، وليترك أرض الثورة ، وليبحث عن وسيلة للوصول الى حوض زوجته !.. فرد الحمويون الذين كانوا يستمعون الى كلمة سعيد العاص : « ان ارواحنا يا أبا سعاد ليست أغلى من روحك ، ونحن جنودك دوماً .. سر بنا اني شئت فنحن زهن اشارتك !.. » . بلغنا بعد مسير أكثر من ثلاث ساعات في ليلة حالكة الظلام قمة جبل صغير تطل على السهل ، وقرية « القصر » ، فيها آثار قلعة قديمة أو حصن قديم اسمه « ميدان علي » ، وعلى يمين هذا الجبل واد ضيق تمر به الطريق من قرية القصر الى قلب جبال الهرمل . وفي الجانب الثاني من الممر جبل ثان لو تحصن فيه بعض المسلحين لاستحال مرور الحملة الفرنسية من الوادي ، لان الطريق في الممر تصلح لسير الدواب والمشاة ، ولا تصلح للسيارات والآليات . ولما أبدينا رأينا هذا قال لنا رفاقنا الجعافرة انهم وجهوا خمسة مسلحين كي يربطوا في العدو الثانية من الوادي ، او في الجبل الذي اشرنا إليه ، ولكن تبين لنا في الصباح ان احداً لم يربط فيه !

قلنا ان الفرنسيين في الهرمل استدعوا جميع زعماء المتأولة القاطنين في تلك الجبال ، فلبى الجميع إلا زعماء آل جعفر ، وقدموا للفرنسيين متطوعة من رجالاتهم مسلحوا ليسيروا في عداد الحملة ، وهم معروفون كجبلين بأنهم مقاتلة وشجعان ، وتطوع بعض الزعماء لمرافقة حملة الهرمل بأنفسهم ، ومنهم سعد الله حمادة وبعض أبناء عمه في الهرمل ، فكانت حملة الهرمل مؤلفة من الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين ، والقناصة في لبنان اسم للجيش الذي الفه الفرنسيون من أهالي البلاد ، يقابله في سوريا الجيش المختلط او « الجوقة السورية » ، وسار مع الحملة قوات من الدرك اللبناني ، ومن المتطوعين المسيحيين والمتأولة ، ومنهم تطوع بالمياومة لثلاثة ايام ، وبليرة سورية في اليوم الواحد . اما حملة حمص فهي مؤلفة من جنود مشاة ، وفرسان صباحيين ، وفرسان من الحرس السيار فيه متطوعة من الاسماعيليين والشراكسة والارمن والعلويين وحتى من النور . وتقدر حملة الهرمل بستمئة الى ثمانئة جندي ، وحملة القصر بألف ومئتي جندي . وكان أمل الفرنسيين بالنصر وطيداً ، فقد كلفوا مختاري القرى ان يوافقهم بالبريد الرسمي والرسائل في الساعة الواحدة زوالية من يوم الثامن عشر من شهر مايس الى قرية « اكوم » مقر عصابة سعيد العاص ، وارسلوا مئة فارس من الصباحيين بقيادة ضابط فرنسي الى وادي حنا ، وهي قرية لآل زعيتر المتأولة ليرابطوا في مضيقها ، ويقبضوا على سعيد العاص وعصابته ، فيما اذا فكروا بالفرار والتسلل من الجبال ، واقاموا مدفعية قوية في السهل الجنوبي امامنا على مقربة من الجبال تستطيع ان تساند حملة الهرمل وحملة حمص في حال اشتباك اي منهما مع الثائرين . وكانت الخطة ان تنطلق حملة الهرمل في الساعة الواحدة من صباح الثامن عشر من الهرمل ، وتدخل الجبال الى وادي « فيسان » ، ومنه تتسلق جبل « الشمس » لتصل منه الى الجبل المشرف على قرية « اكروم » مقر زين مرعي جعفر ، فتجذب الثائرين اليها ، وتشغلهم بالقتال ، بينما تتقدم حملة حمص مع الفجر ، وتزحف الى الجبال من الامر بجانب « ميدان علي » ، وتتسلق جبل الشمس الذي يتحصن به الثائرون من طرفه الشمالي ، وتطوقهم وتسحقهم بين ناري الحملتين ، ثم تتقدم الى « اكوم » فاكروم ، وتوافيهم اليها القوات التي

ستزحف من وادي خالد ووادي حنا ومتطوعة الموارد في قرية القبيات وما حولها . قلنا ان الظلمة في تلك الليلة كانت حالكة ، وكنا نرى في السهل أمامنا الى جانب نيران متفرقة هنا وهناك ، نارا طويلة تمتد نحو الجنوب الشرقي على مقربة من الجبال ، فتبين لنا في الصباح انهم جند المدفعية الافرنسية ، أقيمت في هذا الموقع لعدم وجود طرق صالحة لنقلها في الجبال ، مهمتها دعم حملي الهرمل والقصر في حال اشتباك أي منها مع العصابات .

وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة

- ٨٣ -

انبثق فجر الثامن عشر من شهر مايس عام ١٩٢٦ ، وإذا بطائرة تحلق في غبشة الصبح فوق « القصر » ، وتلقي شارات كالدخان ، ثم تتجه نحونا . وكنا اخفينا جيادنا في مغاور الوادي خلفنا ، فلم تذب الطائرة لوجودنا مختبئين وراء حجارة الحصن المهدم ، وتقدمت تبحث عن العصاة في الجبال خلفنا ، وترتاب بقطمان الماعز ، تقصفها بقنابلها ، وتنقض عليها برشاشاتها . ثم رأينا اول كتيبة للفرسان تخرج من قرية « القصر » صفاً طويلاً ، فارسين وراء فارسين ، اخذت تتقدم نحو جبلنا . وما كاد آخرها يغادر القرية حتى خرجت وراءها كتيبة ثانية فثالثة من الفرسان لحقت بها سرية من المشاة تتلوها اخرى ، ثم وراءها كتيبة فرسان أخيرة . ولما اصبحت الكتيبة الاولى قريبة من جبلنا ، ترجل أفرادها ، وتركوا جيادهم في الارض الحصيد ، والزروع التي لم تحصد ، ترعى ، وتقدمت الكتيبة حتى بلغت مراحاً خرباً في سفح جبلنا اسمه « سهلات المي » ، توارت فيه ، ولحقت بها الكتيبة الثانية فالثالثة فالمشاة ينضمون الى من سبقهم ، ويختفون في الخربة ، والفرسان يتركون جيادهم وراءهم بعيداً عن مرمى الرصاص

- ٥٩٤ -

من الجبال . وما كادت غبشة الفجر تنقشع حتى سمعنا ازيز الرصاص يصدر عن وادي فيسان في الجنوب الغربي من موقعنا ، فادر كنا ان المعركة بدأت بين اخواننا الجعافرة وبين حملة الهرمل . وكان يتخلل صوت رصاص البنادق والرشاشات تفجر الرماتات تقذفها الايدي ومدافع الهاون . واقبل سرب من الطائرات يكشف مواقع المجاهدين ويقصفها ، وتنقض طائراته بالرشاشات ، فيطلق الجند لها الشارات في الهواء لتتعرف على مواقعنا . وقد مرت الطائرات من فوقنا فلم اتنبه ايضاً لوجودنا ، لاننا تحصنا وراء جدار منخفض مهدم من جدران الحصن ذي حجارة كبيرة من الصعب ان تميزنا بينه الطائرات .

استمرت معركة وادي فيسان أكثر من ساعة ، كانت كافية ، في نظر القيادة الفرنسية ، لجذب العصاة إلى المعركة ، لذلك تحرك بعدها من خربة « سهلات لمي » ثمانية جنود ، أخذوا يتسلقون جبلنا ، فأدر كنا انهم الطليعة لكشف ذروة الجبل الذي نتحصن فيه ، قبل ان تزحف الحملة الى الوادي الذي تمر به الطريق إلى الجبال . لقد كان المنطق يقضي بأن ننتظر حتى يصبح الجنود الثانية على بعد عشرات الامتار تحت موقعنا المشرف على السفح كله ، وننذرهم فإما أن يستسلموا وإما أن نحصدهم بنار بنادقنا ، ولكن علي الحسن ابن عم زين مرعي ترك مكانه ، وجاء الى القلب حيث يربط القائد العاص ، واقترح عليه ان نبداً المعركة قبل أن ينتشر الجند المتجمعون في الخربة ، ويتسلقوا الجبل ، او ينتشروا في الوادي مجتازين المر ، فتصعب مقاومتهم لكثرتهم ، فوافقه سعيد العاص ، والطليعة ما زالت بعيدة ، في منتصف المسافة بين الخربة والذروة ، وامر القائد العاص بإطلاق النار ، مع ان المفروض الا تتحرك الحملة قبل ان تتلقى شارة من الطليعة ، وتؤكد من خلو الجبل من الثائرين . واطلقنا امثالاً للأمر ، فسقط ثلاثة من جنود الطليعة ، واختفى الباقون بين الصخور ، وحولنا بعدها رصاص بنادقنا إلى الخربة ، نرى فيها سواداً ، ولا نرى أفراداً لكثرة المحتشدين فيها ، ولا تزيد المسافة بيننا وبينهم على الف متر ، فلم نسمع جواباً عن

رصاصنا ، بل رأينا كتيبة الفرسان الاخيرة ، وكانت في الطريق على مقربة من الخربة ، تتوقف ، ثم تتراجع سريعاً ، وتحول سيرها بصفها الطويل الى الشمال ، بمحاذاة سلسلة الجبال ، وتبتعد عن ارض المعركة . خشينا ان تسلك هذه الكتيبة التي نجت من الحصار في الخربة ، وادياً بين الجبال ، تلتف منه علينا ، فوجهنا إثنين من مسلحيننا ، احدهما سعيد الدرزي ، أخذاً يسيران في الجبال محاذيين للكتيبة ، يطلقان عليها الرصاص ، فتوهمت ان الجبل كله من الثائرين ، وفرت مبتعدة عن الجبال ، ضاربة إلى الشرق في ذلك السهل الفسيح ، وكان أفرادها يترجلون احياناً عن جيادهم ، ويفترشون الارض ، اتقاءً لرصاص رقيقنا ، ثم يهبون سراعاً الى جيادهم يمعنون في التراجع ثم في الهزيمة . وقد حدثنا بعدئذ حاصدو الحبوب الذين كانوا يعملون في السهل ان ضابط الكتيبة المنهزمة ، لما ترجل مع جنوده مرة ، على مقربة منهم ، ارغمهم على ان يتركوا الحصاد ، ويتوسدوا الارض ، وهو يشير الى الجبال ، ويقول لهم : «بدوان !» ، أي أن فيها عصاة متوحشين ، وهو لا يدري انه ينازل اثنين من المجاهدين ، وانه ينهزم من رصاص بندقيتهم ، والكتيبة لا تقل عدداً عن مئتين وخمسين فارساً مسلحين . ولما أمعنت الكتيبة مبتعدة في السهل ، وانقرط عقدها من الهزيمة ، عاد اليها الزميلان ، واشتركا معنا في المعركة .

لقد تكدس الجنود وراء جدران الخربة لا يستطيعون حراكاً ، حتى انهم لم يستخدموا ، في بادىء الامر ، بنادقهم ولا رشاشاتهم ، بل خرجت ، بعد حين زمرة منهم ، قليلة العدد ، تجري ، وتتوسد الارض ، مبتعدة عن الخربة ، حتى بلغت الجياد ، واعتلت ظهورها ، وانطلقت عدواً في السهل نحو الجنوب ، حتى بلغت موضع النار التي كانت مشتعلة في الليل ، وتراءت لنا ، وحسبناها ناراً للحاصدين ، واذا بدوي المدفعية ، والقنابل تتساقط على جبلنا بغزارة ، فبدل بعضنا مواقعه اتقاء لشر القذائف . وكان بعضها من القنابل التي تتفجر في الفضاء « شرابنه ل » ، وتتساقط على من تحتها .

بعد قصف شديد من المدفعية بدأت بعض الرشاشات تنطلق من الخربة إلى مواقعنا التي كانت منيعة لا تتأثر بقذيفة مدفع ولا برصاص رشاش . صبرنا للمدفعية وللحملة صبر الكرام ، واصلينا الخربة نارا حامية من رصاص بنادقنا ، وقفز ابو علي رشيد الصحنائي من مجاهدي جبل الدروز ، من مكانه ، واعتلى الجدار الاثري الذي كنا نحتمي وراءه ، ودخان المدافع يغطي الجبل ، والقنابل تتفجر على جبلنا ، وفي سائنا ، يسير من اول الجدار الى آخره مكشوفاً للحملة والمدفعية ، يمشي مشية العرض ، بخطواتها المترنسة ، هازجاً ، بأعلى صوته ، الهازيج الدرزية ، ونشيد : « يا عمامنا ! . يا عمامنا ! لباسه الجوخ الحمر .. دباحة لا يرحمون ! .. » دون أن يلتفت الى قصف المدفعية ونيران الرشاشات ، مما أضعف من عزيمة العدو ، وزاد موقفهم ارتباكاً ، وانتظر الجنود طويلاً ، انتظروا مدفيعتهم أن تجلونا عن قمة الجبل بمئات القذائف التي القتها ، وتساقط اكثرها في الوادي وراءنا . وكان رفاقنا المحويون يرون تساقط القذائف بكثرة في الوادي خلفنا ، فيزيد قلقهم على جيادهم . وبينما نحن في هذا الموقف المتسلط على العدو ، لا تؤثر بنا مدفعيته الثقيلة ، واذا بامرأة تزغرد في الوادي ، وتركض تحت قذائف المدفعية المتساقطة حولها مصعدة الى جبلنا . ولما أقبلت رأيناها عجوزاً تحمل على كتفها قربة ماء صغيرة ، وفي ذيل ثوبها خبز ، وفي الذيل الثاني عتاد ، تقف دون أن تحني قامتها للقذائف والرصاص ، تعطي كل واحد منا رغيف خبز ، وتسقيه جرعة ماء ، ثم تسأله ما نوع العتاد الذي يريد ، تعطيه مما تحمل ، وتملأ جو المعركة حماساً بزغاريدها . ولما دنت من سعيد العاص سألتها عن حال اخواننا آل جعفر في وادي فيسان ، فقالت بصوت عال قاطع : « لله درهم من أسود ! انهم مثلكم أوقفوا زحف الحملة الى جبل « الشمس » ، وهزموها ، وهي الآن تتراجع الى أسفل الوادي أمام ضرباتهم ! » ، فسررنا ، وزدنا حماسة ، ولكنها في لحظة همست في أذن علي الحسن كلمات ، وعادت أدراجها ، نسمع زغاريدها تملأ الوادي ، وهي تنحدر اليه لتجتازه تحت قصف المدافع ، وتساقط قذائفها .



مفرزة من الجيش الفرنسي في ساحة القتال مع مدفعيتها الثقيلة

استمرت المعركة خمس ساعات ، عجزت خلالها مدفعية العدو بمئات قذائفها أن تزحزحنا عن مواقعنا ، ولم يعد الجنود المحاصرون في الخربة يطيقون صبراً ، فاندفعت موجاتهم من الخربة منهزمة نحو الشرق ، يمتطي الفرسان متورخيولهم ، ويطلقون لها الاعنة ، لا يلتفتون وراءهم ، يضربون في السهل الواسع القسيح ، دون نظام ، ويلحق بهم المشاة متفرقين مشردين ، كل واحد منهم يشعر بأنه نجاباً عجوبة من الموت ، فقد كان كل رف يخرج من الخربة يعدو عشرات الامتار ، ثم يتوسد الارض ، ويتابع العدو والتوسد حتى يصبح في منأى من رصاص بنادقنا ، فيروح يعدو متفرقاً ، دون نظام حتى يطمئن تماماً إلى انه نجاب. أما الفرسان فقد كانوا يخرجون بنفس الاسلوب حتى إذا بلغوا جيادهم ، اعتلوا صهواتها وراحوا يضربون في السهل متفرقين مشردين لا يلتفتون وراءهم . ولوان الخمسة المكلفين بعدوة الجبل المقابلة لنا كانوا في موضعهم ، كما كان مقرراً لأبادوا جنود المدفعية ، أو شردوهم شذر مذر في السهل ايضاً ، لأنهم كانوا تحت صائب رصاصهم ، ولكنهم ، كما علمنا ، تركوا موضعهم ، لما سمعوا أزيز الرصاص في وادي فيسان ، وانضموا الى معركة إخوانهم مع حملة الهرمل . تذاكرنا فيما

العمل ، بعد ان رأينا الحملة مبددة مشردة في السهل الفسيح لا يمكن أن يجمع شملها المبعثر احد فيما تبقى من ساعات النهار ، وان جمعت ، لا يمكن ، بعد تلك الهزيمة النكراء ان تعود إلى ساحة القتال ، او تقترب من الجبال ، فاقترح علينا علي الحسن ان نسير لنجدة إخواننا في جبل الشميس ، وصارحنا بأن المرأة التي حملت الينا الماء والغذاء والعتاد همست في اذنه ، وأسرت له بأنهم مضعضعون ، وعددهم قليل ، والحملة تصعد الجبل ، وهم يتراجعون ، وينسحبون الى أعاليه . ولما قلنا له : «ولكن العجوز طمأنتنا عنهم ، وقالت انهم منتصرون !..» قال : «انها لم تشأ ان تضعف من عزائمكم ، وانتم في غمرة المعركة ، ولكنها أسرت الي» بحقيقة الوضع ، وطلبت مني أن نهب الى نجدة اخواننا عندما يتسنى لنا ذلك ، ونحن الآن موقنون بأن هذه الحملة المهزومة أمامنا ، لا يمكن أن يلتئم شملها ، وتنظم صفوفها في هذا النهار . في الليل هي أعجز من أن تقتحم الجبال ، أو تعود الى المعركة ، ومع ذلك اقترح أن يبقى خمسة مسلحين من الجعافرة في هذه القمة ، يرقبون الوضع ، ويطلقون بين الفينة والفينة رصاص بنادقهم ليشعر المهزومون بأننا ما زلنا في مواقعنا ، واننا لهم بالمرصاد ، ثم نادى عبد الحميد المرداوي ومحمد المغربي من اخواننا ، وانحدر بهما الى الوادي فالعدوة التي كان فيها الخمسة ، لينجد اخواننا في وادي فيسان من أقصر طريق ، بل ليباغت الحملة من جانبها أو من خلفها .

النصر المؤزر على العدو

- ٨٤ -

بعد ان جلا آخر جندي من الحملة الفرنسية عن خربة « سهلات المي » ، انحدرنا نحن ايضاً الى الوادي الذي خلفنا فيه جياتنا ، وانطلقنا الى جبل الشميس

لمقابلة الحملة في صف إخواننا الجعافرة في جبل الشميس . ويظهر ان الفرنسيين بعد هزيمتهم من « سهلات المي » ، وتشتتهم في السهل ، جربوا جمع صفوفهم بعيداً ، ثم الاقتراب ثانية من الجبال . وكان الخمسة المسلحون من الجعافرة « في ميدان علي » انحدروا الى الخربة يبحثون عن غنائم بين قتلى الحملة ، فصمدوا للمقربين ، وأطلقوا الرصاص على تجمعاتهم ، ففروا ثانية ، ولم يتشبثوا بعدها بالدنو من الجبال . وكانت خسائر هذه الحملة واحداً وثلاثين قتيلاً عدا الجرحى . وقتل عدد كبير من الجياد . أما نحن فلم نخسر أحداً ، ولم يחדش احد منا رغم قصفنا بمئات القذائف من مدفعية العدو .

قلنا ان حملة الهرمل زحفت الى الجبال في الليل يتقدمها زعماء المتسائلة ورجالهم والمتطوعون الذين يعرفون الطرق ومسالك الجبال خير معرفة ، فهي جبالهم ، وكانت طريقهم من الهرمل الى قلب الجبال سالكة آمنة لم يعترضهم أو يقاومهم فيها احد ، واجتازوا « وادي الشربين » الى وادي فيسان بأمان ، وأدركهم الفجر ، وهم أمام جبل الشميس الذي وضعوا خطة تصعيده ، واجتياحه ليصلوا منه الى جبل اكروم . وكان زين مرعي جعفر أوفد في الليل خمسة من رجاله المسلحين يرابطون في سفح الشميس وراء الصخور وبين شجيراته فشاهدوا كوكبة الفرسان يتقدمهم قائدهم الفرنسي ، يقفون على بشر للماء يتمحون منه لسقي جيادهم ، فصوب الجعافرة بنادقهم ، وأطلقوها على الجند ، فأصاب الرصاصة الثانية قائد الكوكبة بيده ، فأعيد جريحاً الى الهرمل ، وابتدأت المعركة ، وغبشة الفجر لما تنقشع ، وتحصن جنود الحملة الفرنسية في العدة الثانية من الوادي ، وهي ليست جبلاً شاهقاً ، ولكنها مرتفعات وعرة كثيرة الشجر ، واحتدمت المعركة ، لما اشرق النهار بنوره ، وترجل الفرسان من الجنود ، واقتحموا مع المشاة الوادي ، وأخذوا يصعدون في الجبل ، تحميهم بنادق ورشاشات جنودهم في العدة الثانية ، وتفرقوا ، وساروا على نسق الحرب ، وأخذ المسلحون الخمسة يتقهقرون ، متسلقين إلى أعالي الجبل .

وصلت على أصوات الرصاص والقنابل المتفجرة النجيدات اليهم فرادى وأزواجاً ، ولكن الثائرين ظلوا قلة تتفوق عليهم الحملة عشرات المرات بالعدد ، وبالسلاح القاطع ، ولكنهم استطاعوا بتقاطر النجيدات الصغيرة اليهم ان يوقفوا زحف الحملة في أكثر المواضع ، واشتعل وادي فيسان ناراً ، وأعاد الفرنسيون محاولة تسلق الجبل واكتساحه ، ولكن عدداً كبيراً يقدر بمئة مسلح من الجعافرة وصل قرب الظهر إلى ارض المعركة قادمين من قرية الحميرة ، وانحدروا إلى سفوح الجبل يتصيدون الجند المصعدين بين صخورها واشجارها ، وظلت الحرب في هذه الفترة سجالاً ، بين كروفر ، وتقدم بطيء وتوقف . ولما أحس الثائرون بكثرة عددهم ، تنادوا فيما بينهم للهجوم على العسكر ، وقاموا من معاقبتهم ، وانحدروا من عل كالصخر على أعدائهم ، وسقط في هذه اللحظة منهم بعض الشهداء والجرحى ، ولكنهم دحروا أعداءهم ، بعد أن تشابكوا معهم على بعد خطوات ، وأرغموهم على التراجع نحو أسفل الوادي . وكان قتلى الحملة الفرنسية وجرحاها تحمل على الخيل والدواب ، وتنقل الى بلدة الهرمل ، والذخائر والمؤن تصل تباعاً الى الجند بطريق الهرمل ، فتقدم بضعة ثائرين من آل جعفر ، قرب العصر ، من المسالك التي يعرفونها ، وتحصنوا في عقبة وراء الحملة ، وقطعوا كل اتصال بينها وبين بلدة الهرمل مقر الحملة الخلفي ، وشعر الفرنسيون بانهم طوقوا ، وقطع خط رجعتهم ، بل أدركوا فشل خطتهم كلها ، فلم تصل اليهم حملة حمص ، ولم تستطع أن تلف وتطوق الثائرين في جبل شمس ، وازداد ضغط المجاهدين على الحملة ، فقد بلغ عددهم حوالي مئة وخمسين مسلحاً ، كانوا أشداء في مواقع الدفاع ، أبطال في الهجوم ، خبراء في الرمي ، وأخذت خسائر الحملة تزداد ، وأخذ قتلها يتساقطون في أرض الوادي وعلى السفوح ، وأصبح جرحاهم لا يجدون الملجأ ، وخاف زعماء المتأولة الذين رافقوا الحملة على أنفسهم من رصاص المجاهدين ، ففر سعد الله حمادة ولحقوا به الى مراح في وادي فيسان أقرب الى العدو التي يتحصن فيها الجنود منذ بدء المعركة ، لجأوا اليه ليصمد عنهم عادية الرصاص ، وأخذ الجنود ينقلون

الجرحي إلى هذا الملجأ بعد أن تقطعت بهم أسباب الاتصال بالهرمل ، وأدرك قادة الفرنسيين مصيرهم الأسود ، فاستبسلوا ، وحملوا الجنود والضباط اللبنانيين على القتال حتى الموت ، فتساقطوا واحداً بعد الآخر بين قتلى وجرحى ، واشتد البأس على الحملة يوم وصل علي الحسن جعفر والمرداوي ومحمد المغربي من وراء الحملة يتصيدون الجند من ظهورهم ، وهم قابعون وراء الصخور ، وتغلغل الثلاثة بين الحملة ، وغامروا بنفوسهم ، فسقط محمد المغربي شهيداً ، واصابت رصاصة قريبة المرمى من الخلف إلية علي الحسن ابن عم زين مرعي ، فذهبت بلب فخذته من الخلف ، وسقط ينزف الدم من جرحه ، ولكنه ظل يرمي برصاصه من حوله من الجنود ، واستنجد بالمرداوي ، فأخذ يذود عنه ، ويحندل الجنود من حوله ، ويصرعهم . وقد شهد له علي الحسن الجريح بأنه صرع ضابطاً وسبعة عشر جندياً بمفرده ، من حول علي الحسن . وأدركنا نحن آخر المعركة في الاصيل ، فوجدنا نسوة آل جعفر يحملن الزاد والماء والامتاد ، ويوصلنها إلى المجاهدين تحت وابل الرصاص ، ويحسّنهم بزغاريدهن ، فيشدون من عزائمهم ، ويضعضن عزائم جند العدو ، حتى امتلأت ارض وادي فيسان بحثث القتلى ، وجثث الجياد والدواب ، وآذنت الشمس للغروب ، فلم يبق في أرض المعركة من الحملة إلا قتيل وجريح ، والا من لجأ حياً إلى بناء المراح في الوادي ، واحتفى فيه . ركز المجاهدون عند الغروب نيران أسلحتهم من مواقعهم القريبة الى المراح ، والمنهزمون من الجنود يترامون نحوه للنجاة من الموت الذي كان يتخطفهم ، فلم يدخله في اللحظات الاخيرة إلا مطعون ، وتكدست أجساد القتلى أمام بابه ، حتى لم يبق في الساحة من العدو من يطلق ناراً ، عندئذ تنادى المجاهدون للهجوم على المراح ، فقد كانوا رأوا بأعينهم الكثير من الجنود والضباط لجأوا اليه ، فاندفع سعيد الدرزي الذي كان معنا في معركة « سهلات المي » وشهر سيفه ، وانقض على المراح ، حتى بلغ بابه ، وإذا بسعد الله حمادة في الباب يعلن عن اسمه ، ويقول ان كل من في المراح يحواره وحماه ، ولما صده سعيد الدرزي ، وضع يديه على عضادتي الباب ، وسده يحسده ، وقال : « اقاتلوني ! قبل أن تمسوا

احداً ممن في داخل المراح ! .. » ، ووقف وراءه زعماء المتأولة ، ووصل زين مرعي جعفر إلى الباب ، وعلا الصراخ بينه وبين سعد الله حمادة ، ثم تهامسا ، وكأن الزعيم العشائري قال لزين مرعي : « دع لي سبباً واحداً ، أحمل به فرانسة على أن تعفو عنك ، بعد أن ذبحت المئات من جنودها وضباطها ، ولا تنس أن فرانسة دولة قوية ، وإن حملاتها تتوغل اليوم في جبل الدروز ، فتستسلم بلدانها وقرأه الواحدة تلو الأخرى ، بعد أن استسلمت أكثر المناطق الثائرة في سورية ! .. » ، فتحول اليـنا زين مرعي جعفر ، وأعلن قبوله جوار زعيمه سعد الله حمادة ، وحماية من هم في المراح ، والسماح لهم بالخروج ، والتوجه إلى الهرمل ، بعد أن يلقوا بأسلحتهم ، لا يسهم أحد بأذى ! .. وخرجوا أمامنا يزيد عددهم عن مئة وخمسين ضابطاً وجندياً أكثرهم من القناصة والمتطوعة اللبنانيين ، وبينهم ضابط فرنسي مجروح في ظهره حمله أحد الجنود ، كما حمل الجنود جرحاهم غير القادرين على السير ، وانطلقوا في ظلام الليل إلى الهرمل بحماية سعد الله حمادة من زعماء المتأولة في تلك المنطقة . وبذلك تعتبر الحملة أبيدت كلها ، عدا جنود المراح ، وعدا من نقل من الجرحى ، أو فر من المعركة ، قبل أن يقطع المجاهدون خط الرجعة على الحملة ، ويطوقوها في وادي فيسان . وهناك دليل قطعي على إبادة الحملة ، هو أن الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين اعتبرت منحلة ، وظل يوسف السودا صاحب جريدة « الراية » في بيروت ، في اليوم الثامن عشر من شهر مايس من كل عام ، أي في يوم ذكرى معركة وادي فيسان يصدر جريدته بمجلة بالسواد ، ويكتب مقالاً يملأ به الصفحة الأولى كلها ينمي فيه جنود وضباط الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين الذين ماتوا شهداء في سبيل لبنان ، وهم في الواقع ماتوا في سبيل فرانسة المستعمرة سيدته وأمه الحنون ! . وقد قتل في المعركة ابن عم لسعد الله حمادة ، وجرح آخر منهم . وكان ساق نبأهما في بدء الجدل على حماية من في المراح من جند العدو ، فقليل له هذا جزاء من يمشي مع العدو ضد أهله وعشيرته !

لقد غنم الثائرون المتاولة في معركة وادي فيسان أكثر من اربعمئة بندقية وخمسين جواداً ، وجميع ذخائر الحملة وعتادها ورمانات يدوية ، ورمانات للبنادق ، وأدوات صحية ، وثياباً عسكرية ، وشارات بالاسهم النارية . وخسر الثائرون اثني عشر شهيداً من المتاولة ، وخسرنا نحن رفاقنا محمد المغربي ، وظل مصرعه مجهولاً لدينا حتى اليوم الثاني ، إذ عثرنا على جثته الطاهرة ، وواريناها الثرى ، رحمه الله فهو من أكرم الشهداء عند الله ، اذ تخلى عن أهله وبني قومه ووطنه في المغرب العربي ، وفر من جيش العدو الذي أرغم على أن يكون جندياً فيه ، وفر الى صفوف المجاهدين السوريين العرب ، وتحمل معهم كل مشاق الثورة ومتاعبها ، ولكنه في هذا اليوم مات في سبيل الوطن العربي ، وأكد بدمه وحدته من المحيط الى الخليج . وقد حق على المسؤولين في عهد الاستقلال والوحدة أن يقيموا عند مثواه ، أو في وادي فيسان ، أو في أي ساحة من ساحات المدن السورية القريبة من أرض المعركة ، نصباً يخلد تلك المعركة العظيمة من معارك الحرية ليكون النصب رمزاً للوحدة التي مات في سبيلها جندي عربي مجهول ، لأننا لا نعرف شيئاً عن اسم عائلته وأهله وعشيرته وبلده في المغرب العربي ، مثلما مات له رفاق من الجنود العرب المغاربة في ساحات أخرى ، كانوا أيضاً فروا من الجيش الفرنسي ، والتحقوا بالثورة السورية ، واستشهدوا في معاركها ، واختلط دمهم العربي بدم اخوانهم السوريين العرب . واستشهد في معركة وادي فيسان امرأتان ، وجرح ثلاث نسوة وسبعة رجال . وكان في عداد الشهداء جهجاه نعمة أجدر زعماء آل جعفر ومن أقرباء عبد علي السعدون زعيم بيت جعفر . أما القوة الفرنسية المرابطة في وادي حنا لدى آل زعيتر ، فقد فرت ساعة بلغتها هزيمة الحملات الفرنسية . وقابل مسلحو قرية « القبيات » خمسة مسلحين من آل جعفر ردوهم الى منازل قريتهم ، ويعدون بالمئات .

وزحفت قوة وادي خالد الى اكروم فصدها زين مرعي جعفر ورجاله .

وكانت اطول المعارك في ذلك اليوم التاريخي المشهود معركة وادي فيسان من الهرمل ، فقد دامت بضع عشرة ساعة ، تجمع في ساعاتها الاخيرة ، وفي مختلف جهاتها جميع الثائرين ، واعوانهم من آل جعفر غير الثائرين من قبل ، استطاعوا دحر الحملة ، وتطويقها ، ثم إبادتها ، رغم أنها في مواقعها الاستراتيجية كانت تضاهي مواقع الثائرين ، فقد تحصن جنودها في الجبال ، وافادوا من الصخور والاشجار ، وكان عددهم يفوق عدد الثائرين أضعافاً مضاعفة ، مجهزين بأحدث الاسلحة ، ولكن البطولات التي ابدوها الثائرون كانت تفق كل سلاح للعدو ، وتتفوق على اعداده . ولما حدثني عبد الحميد المرداوي امام علي الحسن الجريح عما فعل في ذلك اليوم ، وشهد بذلك الجريح ، قلت للمرداوي : « ولكن هذا تهور قد كان يودي بحياتك الى جانب صاحبك محمد المغربي الشهيد ، وعلي الحسن الجريح ، قال : « ان من انقذه الله من الموت رمياً بالرصاص ، يوم وقع اسيراً بقبضة الفرنسيين في حمص ، لا يدنو منه ملك الموت ، وهو طليق بيده بندقية » فضحكت لقوله ، وهنأته بالسلامة .

وقد ترأس هذا البطل في ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ عصاة من شباب « بيت مرين » قريته ، والقرى المجاورة لها ، وقاتل الانكليز اروع قتال حتى استشهد ليضرب اروع الامثال على بطولة عرب نابلس ابنا جبل النار ، كما يسمونهم في بلاد الشام . وبيت مرين قرية في منطقة نابلس اثبتت عن جدارة حقها في هذا اللقب . وحدثني فلاح من أهل قرية القصر ، في الايام التي تلت المعركة ، انه كان مع اثنين من ابناء قريته يحصدون زرعاً في السهل قريباً من الجبل الذي كنا تحصنا فيه لصد حملة حمص الزاحفة من القصر ، فمرت به كتيبة الفرسان الفرنسيين التي انخرفت في بادىء المعركة عن طريقها ، واتجهت نحو الشمال تحاول ان تجد مدخلاً لها الى الجبال ، ثم فاجأها رصاص الثائرين اللذين ارسلناهما لمناوشتها ومنعها من دخول الجبال ، قال : « وصلت الكتيبة في هزيمتها الى المكان الذي كنا نحصد فيه ، وترجل جنودها ، وتوسدوا مع ضباطهم الارض اتقاء

لرصاص ، وكان الضابط قريباً مني ، فصاح بي وبرفيقي ان نتوسد الأرض ايضاً ، ففعلنا ، وأشار الي باننا ان لم نتوسد الأرض فسيصيبنا رصاص الدروز الذي يصدر عن الجبل بتسديد صائب ، وسألني : هل الدروز كثيرون في هذه الجبال ؟ ، فقلت له : انهم كثر ! .. فنفخ حنقاً ، وقال : « انتم تؤوونهم وتطمعونهم ، ثم تتظاهرون بانكم اصدقاءؤنا ! .. تباً لكم ! .. » ، وهنا خفت وطأة الرصاص ، فإشار الى جنوده بالانسحاب ، فهبوا الى جيادهم يمتطون متونها ، وفروا الى الشرق ، بعيداً عن الجبال ، لا يلوون على شيء ! ..

وحدثني شاب جريح من آل جعفر غير الثائرين الذين بادروا لنصرتنا ، وكانت نصرتهم سبباً في سحق الحملة وابادتها في وادي فيسان ، واسمه ديب ، قال : دخلت المعركة دون ان يسبق لي خوض معركة حربية من قبل ، وبينما كنت اطلق من وراء صخرة الرصاص على من أراهم يصعدون جبل الشميس من الجنود ، ظهر امامي ، وراء الصخرة التي اتحصن فيها ضابط فرنسي شاب مكشوف الرأس ، أشقر الشعر ، ليس بيده غير المسدس ، فسولت لي نفسي القبض عليه حياً ، واخذه اسيراً ، فوضعت بندقيتي جانباً ، وقفزت كالفهد من الصخرة على الضابط ، فوقع ، ووقعت فوقه ، وتعاركنا ، وكنت أعزل ، فاستطاع ان يدير المسدس الى رأسي ، ويطلق منه ، فأصابني برصاصتين في الصدغ ، وبثالثة وجهها الى صدري ، وفر ، ولكن رفاقي القريبين مني صرعوه برصاصهم الى جانبي ، ثم حملوني الى من ابعدني عن ارض المعركة ! .. وقد توجهت مع رفيقي جميل العلواني الذي كان شفي من الدمل ، وخاض معنا المعارك ، الى مراح قيل لنا ليلة المعركة ان فيه عدداً من الجرحى ، فوجدنا فيه ديباً هذا ، وجريحاً آخر اصابته رمانة قذفتها بندقية ، في العمود الفقري ، قضى منها شهيداً ، بعد آلام مبرحة ، قاسى منها تلك الليلة ، إلا ان ديباً الشاب شفي خلال ايام قليلة ، رغم ان الرصاص خرق صدغه ، وجانب رأسه في موضعين ، وصدره في موضع واحد ، فكانت جراحه في الرأس شبيهة بجراح نظير النشواتي صغيرة المدخل

بشخن المسلة للخياطة ، وبحجم المحصة من المخرج ، لذلك لم نجد صعوبة في تضميد جراحه ، وتطهيرها .

وفي اليوم الثاني ركب دابة الى ارض المعركة ، وجاء ببندقيته التي خلفها فوق الصخرة . وهذا يدل على ان الذين خاضوا معنا المعركة من آل جعفر كانوا رماة ماهرين ، ومن ذوي الشجاعة التي ساعدت على النصر ، رغم قلة خبرتهم في المعارك ، وأمور الحرب . ونجاة ديب من ثلاث رصاصات في رأسه وصدره تؤكد ان الحي ليس له قاتل ، فقد مر علينا في الثورة تجارب لم ننسها ، وكنا نرى المتخلفين عن المعركة ، والمتسكعين للهرب منها ، يصابون اكثر مما يصاب الذين يقتحمونها ، ويكونون في الصفوف الاولى . واذكر يوماً رافقت فيه ، مع عدد من اخواني السوريين ، سلطان الاطرش ، لأول مرة ، من بلدته القرية — بتشديد الباء — الى السويداء ، ومعه عدد من فرسان الدروز ، فصادفتنا في الطريق طائرة ، كانت على علم ، كما يظهر ، بأن سلطاناً في بلدته ، وسيعود الى السويداء ، لأنها كانت منخفضة تتبع الطريق غير المعبدة ، لتكتشفه ، فلما سمعنا هدير محركها ، ورأيناها ، ترجل الفرسان ، وتفرقنا في السهل مبتعدين عن الطريق ، وتوسدنا الارض اتقاء القنابل التي اخذت تلقينا علينا ، الا سلطان الاطرش فقد ظل على صهوة جواده ، يتابع سيره ، دون ان ينحرف عن الطريق ، حتى افرغت الطائرة حمولتها ست عشرة قنبلة ، لم تصب بها احداً منا ، فعجبت يومئذ لرباطة جأش سلطان ، ولكني آمنت بعدها ، من التجارب في المعارك ، ان الموت يأتي المرء ولو كان في بروج مشيدة ، وان كتب الله له السلامة لا تصيبه شدة ، وان اصابته لا تقتله . وحكاية الثائر من آل عامر في جبل الدروز الذي اصيب بسبع عشرة طلقة في ساقه وفخذه وبطنه وجسمه ، وظل نهارين وليلتين من شهر آب ١٩٢٥ في الشمس المحرقة ، وفي برد الليل ، ينزف دمه ، حتى وجده في اليوم الثاني لمذبحة المزرعة فلاح حوراني حمله الى بيته ، وعالجه بحمي السمن والدبس وكي الجراح ، حتى شفي ، واشترك في معارك الثورة

الآخري ، لجديرة بأن يرجع المرء الى مغزاها، وان لا يجبن، وان يقابل احداث
الحياة برباطة جأش ، فالآجال بيد الله : « فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة
ولا يستأخرون .. »

اثر النصر على المناطق المجاورة

- ٨٥ -

لم نكد ننتهي من معركة وادي فيسان حتى حلقت ست طائرات افرنسية في
السماء تلقي قنابلها على مواقع المجاهدين ، واستمرت الطائرات الست تزور جبال
اكروم مرتين ، واحياناً ثلاث مرات في النهار الواحد ، تقصف المواقع ، وتلقي
مئات القنابل ، حتى لم يبق واد، ولم يبق جبل في المنطقة لم يقصف أو لم تصبه
النار ، وانتثرت فيه شظايا الحديد ، فتكبد الاهلون الخسائر، وخاصة في قطعان
ماعزهم ، تقصفها ، وتنقض عليها بالرشاشات ، كأنها سرايا من الثائرين ، وتقتل
منها في كل غارة العشرات . وقد اقام الفرنسيون بعد مذبحة وادي فيسان ،
وهزيمة حملاتهم الآخري، حامية من اربعمئة جندي في قرية « زيتا » ، واقاموا
حاميات اخرى في قرى « القاع » ، و « بلة » ، و « رأس بعلبك » و « الهرمل » ،
و « وادي خالد » ، واقاموا مخافر من الجند على جسور نهر العاصي القريبة من
المنطقة ، ومنها جسر « تل النبي مند » ، وبذلك ضربوا نطاقاً حول الجبال ،
بما يدل على ان قرانسة كانت تخشى ان يقوم الثائرون، بعد انتصارهم على حملاتها،
بهجمات من الجبال على الخطوط الحديدية والمواصلات ، وعلى مراكزها الحساسة
الآخري القريبة من الجبال ، ولا سيما قد جرت محاولات جدية لاثارة منطقة
قامون ثانية عليها، بزحف القاوقجي من الغوطة، وقيام توفيق هولو حيدر ببعض

النشاط في جبال بعلبك ، حتى اضطرت إلى فتح باب التطوع في جيشها ،
واحداث مراكز له في حمص وحماة وحلب ، فتجمع لديها بضعة آلاف من
المرتزقة والجنود ، عينت الجنرال « بيوت » قائداً عليهم ، لاختضاع مناطق الثورة
الجديدة واحدة بعد الاخرى ، ، على أن تبتدىء باختضاع منطقة بعلبك ،
فقلهمون ، فالضنية ، فجبال اكروم . وقد قيل بمناسبة بعلبك ان توفيق هولو
حيدر استطاع بنفوذ ثورة الجعافرة في جبال اكروم وانتصاراتها أن يجد ثائرين
في قرى اللبوة ، والنبي عثمان ، ويونين ، ونحلة وسواها ، وان يهاجم بهم بعلبك ،
ويحرق دار حكومتها ، وان يهاجم محطة اللبوة ويحرقها مما أثار قلق الفرنسيين ،
وجدد الإيمان بقوة الثورة ، فزحفت حملتهم إلى منطقة بعلبك ، تحرق وتهدم
القرى التي ثارت أو دخلتها العصابات بالمدفعية والطائرات ، ويرتكب جنودها
من الفظائع ما يندى له جبين الإنسانية ، ثم انتقلت الحملة إلى قلهمون تطهرها
من العصابات .

لم يفرح آل جعفر للنصر الذي حققه الثائرون بمساعدتهم ، إذ كانوا
لا يذكرون زين مرعي جعفر الذي ورطهم إلا بالشتائم ، ويحملونه مسؤولية
مصرع اثني عشر شاباً من خيرة شبابه ، ومسؤولية تعريض قراهم للغارات
الجوية المتوالية مما سبب القلق والاذى لهم . وزاد في الطين بلة عملاء فرانسة الذين
كانوا يروجون بين المتأولة أن الفرنسيين يجهزون حملة بعشرة آلاف جندي تثار
لهزيمتهم في جبال اكروم ، مما زاد في هلع غير الثائرين من آل جعفر ، واعتقادهم
الاقبل لهم بصدد مثل هذه الحملة الكبيرة ، فأرسلوا يدعون زعماء العشائر
الأخرى كآل علاو ، وآل شمس ، وآل زعيتر ، وآل دندش يستشيرونهم
ويستنجدون بهم ، ويتداولون معهم في الطريقة الواجب اتباعها ! فعقدوا اجتماعاً
في قرية « مرجحين » استمر يومي الثلاثين والواحد والثلاثين من شهر مايس ،
حضره جميع زعماء عشائر المتأولة الحمادية ، حتى ان حسن طعان دندش حارس
الخط الحديدي حضر الاجتماع ، وحضره أيضاً باسمنا العقيد سعيد العاص الذي

وجد فيه فرصة للحديث عن أهداف الثورة ، وحث المجتمعين على توحيد الكلمة ، والاتحاد ضد الفرنسيين الغاصبين ، وإلا أضاعوا الانتصارات التي حققوها إلى اليوم ، وباءوا بخسران مبین ، وكتب لهم العاص عهداً وقعه جميع الزعماء ، وأقسموا الايمان على تنفيذه بإعلان الثورة في جميع مناطقهم ، وانتخاب حسن طعان دندش زعيماً وقائداً لها لقاء راتب شهري يعادل ما يتقاضاه من الفرنسيين لقاء حراسة الخط الحديدي ، وتعهد آل جعفر بتزويد شباب العشائر الأخرى بجزء من السلاح الذي غنموه من الحملة الفرنسية ، ثم حددوا اليوم الثاني من شهر حزيران موعداً لاجتماع الزعماء ورجالهم المسلحين في قرية القصر ، للانطلاق منها إلى تخريب الخط الحديدي ، ومهاجمة المراكز التي ترى القيادة ضرورة لمهاجمتها . وقد علم الفرنسيون بهذا الاجتماع ، فأرسلوا طائراتهم تقصف قرية « مرجحين » ، وأرسلوا بواسطة عملائهم من آل حمادة في الهرمل يدعون زعماء العشائر إلى اجتماع عقد في قرية « حباب » بلدة حسن طعان دندش ، حضره جميع الزعماء بما فيهم آل حمادة ، والكابتن « مامي » ضابط المصالح الخاصة في زحلة وبعلمك ، حيث عرض عليهم المستشار استعداد فرانسة لتلبية كل مطلب يطلبونه لقاء الرجوع عن قرارات مؤتمر « مرجحين » ، وخدر أعصابهم بالوعد والوعيد ، وقطع لهم عهداً بالعفو عن زين مراعي جعفر وجميع الثائرين من آل جعفر ، وعدم مطالبتهم بأي غرامة أو تعويض عن كل ما خسرتة فرنسا من جراء الثورة ، وأقنع حسن طعان دندش بالبقاء على ولائه لفرانسة ، وزاد راتبه الشهري عن حراسة الخط الحديدي زيادة أرضته .

وهكذا غلبت الدبلوماسية الفرنسية سعيد العاص وإخوانه الذين وقعوا القرارات ، في مرجحين ، لو نفذت لكافة ثورة المتأولة اعظم خطراً على فرنسا من ثورة جبل الدروز ، فهي ثورة في أمنع جبال في بلاد الشام تسيطر على جميع المواصلات بين المدن الكبرى في سورية ولبنان ، وتهدد مدن طرابلس ، وحمص وحماة ، عدا بلدان بعلمك والبقاع ، بل تهدد مدينة بيروت مقر المفوض السامي

الفرنسي نفسه . أدرك زين مرعي جعفر أن الفرصة السانحة اليوم قد لا تعوض ، فأرسل وسطاء من آل حمادة يعرض استسلامه على الفرنسيين ، ورغم تكتمه في قضية الاستسلام ، فإن أبناء عمه المخلصين للثورة ، ومنهم علي الحسن الذي أبدى بطولة تسجل له في معركة وادي فيسان ، نقلوا إلينا أنباءها ، فأصبح موقفنا ، نحن الغرباء ، حرجاً ، بعد أن تم للفرنسيين إخضاع المنطقة بالدسائس والمغريات ، وأصبحنا نشعر أن المفاوضات بين زين مرعي والفرنسيين لا تدور على غرامة أو تعويض يدفعه زين مرعي تكفيراً عما أنزلته الثورة بهم من خسائر ، ولكنها تدور حول القضاء على سعيد العاص وزمرته . وكنا نحن الغرباء عن أبناء الجبال لا نخشى فرنسا أن تهاجمنا ، ولا نخشى أن يخامر علينا آل جعفر الذين لمسنافهم من خلال العربية ما ينزههم عن ارتكاب مثل هذا الغدر ، ولكننا بتنا نخشى غدر زين مرعي جعفر نفسه ، بعد أن عرفناه مجرمًا بالفطرة ، ليس لمقاييس الأخلاق والمبادئ عنده وزن . وزاد في قلقنا أن إخوة زين مرعي وأبناء عمومته الثائرين اهلونا ، بعد بدء المفاوضات ، الاهمال الكلي ، فقد عهدوا إلينا بحراسة مضيق في الجبال يشرف على السهل الشرقي ، وحملونا ، بسبب تلك الحراسة ، على الإقامة سبعة عشر يوماً متوالية في مراح شتوي يدعى « قنيفذ » ، هو عبارة عن مجموعة من المنازل البدائية التي ليس لها أبواب ولا نوافذ تغلق وتفتح ، مهجورة في الصيف . وكان هذا المراح يشرف من المضيق المرتفع على قريتي « القصر » ، و « زيتا » ، وما يحيط بهما من السهل ، وليس في المراح ماء ، وليس هناك ماء قريب من موقعه ، لأن سكانه في الشتاء يستقون عادة من ماء المطر الذي يملأ الحفر ، أو ما يسمونه « القليب » في الصخور . وكانت مهمتنا ، حسب قولهم ، أن نحول دون دخول الفرنسيين الجبال فجأة ، وأن نشغلهم حتي ينجدونا من أماكنهم البعيدة في اعالي الجبال والجروود . وكان عددنا زاد بعد المعركة ، فقد التحق بنظير النشواتي عشرة من الشبان الحمصيين الذين بلغتهم انباء الظفر في معركتي ، ميدان علي ، و « وادي فيسان » ، وفي

عدادهم الثلاثة الذين نجوا من الموت في حادث خربة غازي ، واختفوا في
الزروع خارج القرية ، الى الليل ، وفي عدادهم ايضاً الثائر الذي جرح بكتفه
في حادث الماخور ، في حمص . وانضم الينا ايضاً حسن رعد زعيم القصير رغماً
عن أهلها ، مع ستة من اولاده الشبان ، فروا من منطقتي الغوطة وقلمون
ومعاركها ، وجاءوا الينا بعد ان ملأت انباء انتصاراتنا اجواء سوريا كلها ،
لعلمهم يجدون في المنطقة القريبة من القصير الراحة بعيداً عن المعارك ، وقريباً من
بلدتهم « القصير » التي يريدون تأديب أهلها الخارجين على زعامته « حسونة
رعد » ، فأصبح عددنا نحن الغرباء عن المنطقة يناهز الاربعين مسلحاً ، يحتاجون
الى تموين ، والثائرون من آل جعفر رعاة رقيقو الحال ، فقد كانوا يأتوننا إلى
هذا المكان النائي المنعزل الخالي من السكان والجيران ، برغيفين من الذرة لكل
واحد منا في اليوم كله ، دون إدام ، وتارة ينسوننا اليوم كله دون طعام ،
وتارة يأتوننا بمعزاة أو تيس حي بلا خبز ولا ملح ولا قدر نطبخ فيه الطعام .
وكان الثائرون المتأولة يرسلون رجالهم الى القرى في السهل يطلبون منها باسمنا
المؤن من ماشية ودقيق وسمن ، أي يطلبون إعاشة منها باسم الغرباء في جبلهم ،
ولا ندرى ماذا كان يجيبى ، وماذا يصل اليها منه ، ونحن نتحمل الجوع والعطش
والحرمان في هذا المكان الذي لا يصلح إلا حظيرة للماشية في الشتاء . وقد نضبت
الماء من القلايب ، وانتنت بعد ان أسنت ، لأنها مياه تجمعت من الامطار ، في حفر
الصخور ، واصبحنا في اواخر شهر حزيران . لقد تمزقت ثيابي وثياب صاحبي
جميل العلواني ، ولم يبق لدينا قميص داخلي نبدل به ملابسنا ، لنغسلها ،
وألهب أجسادنا لدع القمل والبراغيث ، فقررنا نحن الاثنين السفر الى
حمص مشياً على الاقدام ، لعلنا ، إن سلمنا ، ان نتدارك فيها لوازمنا ،
ونحصل على راحتين ، فقد أصبح الاستمرار بالثورة على من هم في وضعنا يبدو
كالمستحيل .

جاسوس يدل الفرنسيين على موقعنا

جاءنا في مكننا في « قنيفد » بعد ظهر أحد الايام حلاق قال انه قادم من السهل ، فأقبل عليه الرفاق يزينون لحاهم وشعورهم ، واكرموه بما اعطوه أجراً . ولكن في اليوم الثاني اقبلت طائرة تقصف موقعنا . وصادف قصفها اليوم الذي وصل فيه حسن رعد واولاده الى مقرنا ، فقتلت جوادين من جيادهم ، وجرحت بعض رفاقنا بشظايا قنابلها جراحاً خفيفة ، فكفر حسن رعد بربه ، وسب ولعن خنقاً ، واتهم خالقه بأنه يلاحقه بالمصائب والنكبات أنى سار واينا حل !... ثم ركب مع اولاده وغادروا المكان . وكنا نقيم فوق ذروة مشرفة على السهل ديدباناً نتناوب كلنا مهمته في الليل والنهار ، حتى لا نفاجأ بضربة من الفرنسيين الذين نعرف انهم يعتبروننا سبب كل ما نزل بهم من هزائم وخسائر في هذه المنطقة . وفي صباح الرابع من شهر حزيران عام ١٩٢٦ الباكر استيقظنا على تساقط قذائف المدافع فوق المنازل التي يتألف منها المراح ، والتي نسكنها ، فخرجنا منها مسرعين الى سفح الجبل المطل على السهل حيث يقف الديدبان ، وتفرقنا بين الصخور ، وفريق منا تسلق أمكنة أعلى ابتعاداً عن القذائف التي كانت تتساقط تباعاً وتتفجر ، وكادت تقتل بعض اخواننا ، فقد كان القصف مباغتة ، واكثرنا نيام ، فارتبك امرهم من هول المفاجأة ، وتلكأ بعضهم في الابتعاد عن المباني التي كانت الهدف للتصويب والتسديد . شاهدنا من المواقع التي اتخذناها في الجبل ، مبتعدين عن المراح ، سرية من الجند تقف في وسط السهل حول اربعة مدافع تفغر أفواهها ، وتمطرنا بنيرانها ، ورأينا رشاشين وسرية أخرى من المشاة توسد افرادها الارض على جانبي جنود المدفعية ، فأخذنا ننقل بين الصخور ، ونهبط بحذر الى سفح الجبل ، حتى اصبحنا من المدفعية على مسافة قد تصل اليها نيران بنادقنا ، ولبثنا ننتظر النتيجة ، وهـل سيتبع القصف زحف الى معقلنا في الجبل ؟ . لقد دام القصف ثلاث ساعات متوالية ، حتى تهدم منه

بعض منازل المراح ، وزاد عدد القذائف على المثة ، ثم رأينا الجنود يحملون المدافع على ظهور البغال ، ويعودون نحو قرية زيتا ، ففاجأناهم



فريق من المجاهدين البارزين بينهم ابو عمر ديبو ، وحسن رعد ، والأمير احمد الشهابي .

بنار بنادقنا من وراء الصخور ، مما اضطرهم الى التشتت والركض ابتعاداً عن الجبال ، وبذلك ثأرنا منهم بقدر سلاحنا ، وزرعنا الرعب في قلوبهم .

الفصل الخامس عشر

النزوح والتعرض للوقوع بيد الفرنسيين !

- ٨٦ -

تحقق لنا ان الفرنسيين مشغولون بتجهيز حملة للزحف الى قلمون ، فقد رنا ان ليس بوسعهم الزحف في هذه الفترة الى جبالنا ، وأعلمنا إخواننا الجعافرة بذلك ، وطلبنا منهم ان ننتقل الى مكان نجد فيه ماء للشرب والغسيل على الأقل ، فلم يزدادوا إلا إهمالاً على إهمالهم إيانا ، فقررتا الرحيل عن منطقة المتأولة كلها تخلصاً مما نحن فيه من الجوع والحرمان وشظف العيش ، والشعور بالإهمال المتعمد ، لا سيما وبعضهم كان جاهر في حديثه الى سعيد العاص عن عدم رغبتهم في بقاءه مع جماعته ، وطلب منه الرحيل عن المنطقة ، وبعضهم كان نصحه بالرحيل وحذره من غدر زين مرعي جعفر ، ونبهه الى أن مفاوضات الاستسلام لفرنسا تدور شروطها حوله مع جماعته ، لذلك غادر سعيد العاص بمن معه من الخيالة الحمويين المنطقة الى الضنية ، وتخلف المشاة من رفاقنا الحمصيين للاستئذان من نظير النشواتي بالعودة سراً الى حمص . أما أنا وجميل العلواني ورفيق ثالث حموي اسمه محمد ديبو ، تصغيراً لاسم ديب ، فقد انحدرتا قبيل غروب السابع من شهر حزيران من موقعنا في الجبال الى نزل للاعراب من قبيلة « العتيق » ، وتناولنا العشاء في مضاربهم ، وسألناهم عن جسر العاصي في قرية « تل النبي مند » ،

فعلمنا ان الفرنسيين سحبوا مخفرهم على الجسر ، فقررنا عبور العاصي ، بطريقنا إلى حمص ، من هذا الجسر ، بعد ان كنا مضطرين لعبوره سباحة من مكان آخر . وبعد ان أرخى الليل سدوله ، سرنا على أقدامنا باتجاه الشمال الشرقي في السهل ، دون ان نسلك طريقاً ، فضلنا الاتجاه ، واضطررنا لأن نهتدي بنار في مضارب لحي من عشيرة « الفواعرة » ، سار معنا احد أبناء الحي دليلاً ، وكان رائدنا على الجسر ، وبعد ان تأكد أن ليس عليه حراسة فرنسية ، ودعنا وعاد الى حيه ، فقضينا عشر دقائق للراحة في طاحون بجانب الجسر ، ثم سلكننا الطريق الى حمص ، ولبثنا في قرية « كفر عبده » بعض الوقت ريثما تسلم رفيقنا ديبو الحموي جواده الذي كان مريضاً ، واودعه في هذه القرية ، يوم جاء مع رفاقه الحمويين العشرة الى جبال اكروم ، ثم تابعنا السير الى قرية « تل الشور » على مقربة من قرية « قطينة » المسيحية ، وتخلينا بعدها عن الطريق ، نتعقب مجرى ساقية حمص خشية ان نصادف في الليل نقلات عسكرية ، أو دوريات على مقربة من مدينة حمص ، فتدار كنا فجر الثامن من حزيران ، ونحن في موقع يسمى « المشرع » ، وكان بودنا ان نبلغ بساتين حمص قبل ان يدر كنا النهار لنختفي فيها عن العيون إلى الليل ، ثم نسير بطريق البساتين الى « زور الجديدة » في حمص ، حيث هناك بستان لآل السباعي أخوال رفيقنا جميل العلواني ، في ضواحي المدينة ، يمكن ان نختفي فيها ريثما نضع الخطة لتدارك لوازمننا من حمص أو من حماة بلدتنا ، واضطررنا عند المشرع لأن نلجأ الى مضرب لعشيرة « النعيم » نسأل ربه الطريق الأمانة الى البساتين ، فسار معنا خطوات ، وأدرك وضعنا ، وحذرنا من السير الى البساتين ، بعد أن انجلى الظلام ، لاننا أصبحنا على بعد عشرة كيلومترات من حمص ، والجنود الفرنسيون يخرجون كل يوم للتدريب في ضواحي المدينة ، كما ان قوافلهم تسير في النهار تنقل الجنود والمؤن الى جهات اكروم ، على نفس الطريق التي نسلكها الآن ، ولهم في البساتين التي امامنا مخفر على جسر للخط الحديدي ، في طريق حمص - طرابلس . وإزاء هذه الاخطار التي عددها الاعرابي ، وهو يهرول معنا ، توقفت فجأة وقلت له : « هل اخونا العربي النشمي ، وهو يعرف

الأخطار المحيطة بنا ، مستعد لتحمل مسؤولية إخفائنا في بيته ؟ .. » ، فتردد قليلاً ، ثم قال : « هلموا .. عودوا سريعاً الى البيت ! » وفي المضرب المنصوب بجانب القناة (الساقية) بادر فوراً الى سلاحنا وعتادنا ، ولفه بقطعة مضرب عتيق من مضارب الجيش الالماني في الحرب الكونية ، وحفر حفرة في الارض الرخوة القريبة من الساقية وطمر اللقافة ، ثم عاد الى الخيمة يتميز لباسنا ، فقال لي وللعلواني : « اخلعا هذه الثياب عنكما فهي لا تتناسب مع بيئتنا البدوية ، وبادر الى ثيابه المستعملة في البيت ، فأعطانا منها ثوبين ، واعطاني عباءة عتيقة ، وقال لرفيقنا ديبو : « ابعد بحصانك عن هذا المكان فانه درب للغادين والرائحين ، واعتقد انه جواد عسكري ! » ، فصادق ديبو على قوله ، فقد كان استولى عليه من مخفر « مورك » شمالي مدينة حماة ، واسلبه من رجال الدرك ، يوم هاجم مع رفاقه ثائري حماه المخفر ، واستولوا على ما فيه من سلاح وجياد ، ثم أضاف الاعرابي : « اذهب بجوادك الى الحي الذي تراه امامك ، فأهله من عشيرتنا ، وانزل ضيفاً عليهم ، دون أن تتحدث اليهم بشيء عن هويتك ووضعك .. » ، فامتطى محمد ديب جواده ، وسار مبتعداً عنا . والتفت الاعرابي الى جميل العلواني وقال له : « ابق انت في البيت ، وربته ستعنى بك » ، ثم قال لي : « امش أنت يا ولد معي ! .. اركب هذا المطي ، وامسك هذه العصا بيدك ، واهتف للقطيع ، وسر في مقدمته ! .. » وهكذا سرت وصاحبي يهش على الغنم بعصاه ، حتى بلغنا ارضاً حصيداً في العراء ، أطلق أغنامهم فيها ، وتواردت بعدنا قطعان الماشية مع رعاتها الى هذه الارض الواسعة ، واجتمع الرعاة للفظور ، وجاء كل منهم بزاده ، وأكلنا مجتمعين حول سباط ، والرعاة ينظرون الى وجهي ، ويسدرون أنني لست بدوياً مثلهم ، ولكنهم حسب تقاليدهم لا يسألون صاحبي عني ، حتى تكلم هو ، وقال : « أتعلمون هذا الولد الذي معكم من أين ؟ .. » ، قالوا بلسان واحد : « لا والله ! .. » ، قال : « انه من النشامي الذين نسمع من هنا أصوات المدافع تتفجر بينهم .. هناك .. في الجبال ! » ، قال هذا وسكت ، وهتف جميع الرعاة : « يا هلا ! » ، وقلت :

« بكم .. ! » ، ثم ارتفعت الشمس ، واشتد الهجير ، فحاولت أن اغفو قليلاً ، والليل كله قضيته في المسير ، كي استجم ، وأقوى على السير في الليل ، ولكن أنسى لي النوم في حر الشمس ، وأحس صاحبي بتقلي تحت العباءة ، فناداني ، وقال . « عليك بمضارب الحي الذي تراه أمامك ، فهناك صاحبك الخيال ، حيث تأخذ لنفسك قسطاً من الراحة ، وتنام في ظل البيت ! » . فسرت الى الحي حتى بلغته ، وقصدت المضرب الكبير فيه حيث وجدت ديبو نائماً فيه ، فحييت ، وجلست قليلاً ، ثم توسدت اللبد قريباً من صاحبي ، ورحت في سبات عميق لم يوقظني منه إلا صوت صاحب البيت يدعونا الى الطعام ، ويده تهزني ، فجلست مع ديبو أتناول الغداء ، ثم تمددنا ثانية ، ورحنا في سبات طويل لم استيقظ منه إلا على قدم ترفسني ، وصوت ديبو يقول لي مدعوراً :

« انهض ! عسكر ! .. » وتلفت حولي فرأيت ضابطاً وجنديين من الدرك يترجلون عن جيادهم أمام البيت ، وينادون أصحابه ليتسلموا منهم الجياد ، فأدركت لأول وهلة ، من ملاحظة وضعهم ، انهم قادمون الى الحي مصادفة ، وليس للقبض علينا بنساء على اخبار وصل اليهم ، وإلا لأعدوا للأمر عدته . وانتظرت ان يدخلوا مضرباً آخر ، لذلك سحبت العباءة اغطي بها وجهي ، وتظاهرت بالنوم ، وقام ديبو ينسل بهدوء من البيت ، ثم سمعت صوتاً يسأل : « من النائم هنا ؟ » ، فأدركت انهم يقصدون البيت نفسه . ونهضت متظاهراً بالخشية والاحترام لرجال الدولة ، دون ان اجعل أنظارهم تقع على وجهي ، وخرجت من البيت ولكن اكد الدركيين فطن الى انه لم ير وجه رفيقي الذي رآه خارجاً قبلي بملابس فلاحين تختلف عن لباس البدو ، فناداه ، ولما رآه دعاه اليه ، ثم فطن الى انه لم ير وجهي ايضاً ، فصاح بي أن أقف ، ولما وقع نظره علي قال : « وانت تعال الى هنا ! » ، وقبض على معصمينا بيديه ، وأعادنا الى المضرب حيث يقف الضابط وزميله الدركي ، وقال : « انها ليسا من أبناء الحي .. لا بد من التحقيق معها ، ومعرفة سبب وجودها هنا في مثل هذه الظروف ! » ، وراح بدوره

يفتش جيوبنا ، ولم يكن معي غير علبة للفاقات التبغ ، عثر عليها ، ثم عثر على
بندقية رصاص في جيب صاحبي ، من النوع الانكليزي ، اذ كان ديبو فتح
مزلاج بندقيته اثناء سيرنا في الليل ، فلفظها ظفر المزلاج ، وسقطت ، وأسرع
ديبو الى التقاطها من الارض ، وألقاها في جيبه ، ولم يعدها الى مكانها في البندقية ،
فسأله الدركي : « ومن أين لك هذه ؟ » قال ديبو : « وجدتھا في الارض ، وأنا
أمشي ، فالتقطتها ! » ، قال : « ومن أي بلد أنت ؟ » قال : « من السخنة » !
وهي قرية كبيرة بين تدمر ودير الزور ، ونظر الضابط الملازم الينا ، وقال
للجندي : « احتفظ بهما ، فإن هبتهما تدل على أنهما غريبان عن هذا الحي ! » ،
وجلس الضابط ، وجلس الى جانبه الجنديان ، بعد أن أسندا بندقيتيهما أمامهما
الى جانب المضرب ، فأصبح سلاحهما أقرب الينا ، ونحن نجلس في عتبة البيت ،
منه اليهما . وكان هذا الوضع سبباً لاطمئنائي ، لأنني عزمت ، عند اليأس من
الخلاص ، ان اقفز الى احدي البندقيتين ، فأطلق أول رصاصة في خزانها على
الضابط ، لئلا يكون معه مسدس يخفيه تحت رداثه من الخلف ، ثم اباشر الجنديين
بالرصاصات الاخرى . ولا ريب ان صاحبي ديبو سينهض للاستيلاء على البندقية
الثانية ، ثم نهدهد الاعراب بسلاحنا ، ونستولي على خيل الجنود ، ونسير بها الى
المضرب الذي تركنا فيه جميل العلواني ، ندعوه بعد ان نأخذ سلاحنا لمرافقتنا
الى جبال حسية نجتازها الى قلمون ، فقد أصبحنا خبراء في طرقها والطرق التي
توصلنا إلى الغوطة . هذه هي الخطة التي رسمتها ، وأنا أستمع إلى الاستجواب
الدقيق الذي كان يقوم به الدركي مع زميلي ديبو ، وكان وجهه إلى سؤال في
باديء الأمر عن اسمي وإلى أي بلد انتمي ، فقلت له اسماً من أسماء الفلاحين التي
تتركب من اسمين ، احدهما اسم الوالد ، وقلت له إنني من قرية السخنة أيضاً ،
وهذا خالي ، أرافقه لأول مرة الى هذه « الديرة » ، ليشتري جمالاً كما أخبركم .
وصل الاستجواب إلى حد زعم فيه الدركي انه يعرف السخنة ، وأنه أقام
سنتين في مخفرها ، وانه يعرف أهلها كلهم ، وأخذ يسأل محمد الديب عن يعرف
من أهل السخنة ، وهذا يعدد له محمد الخالد ، وضالح الحسين ، وعلي العمر ،

وعبد الله الصطوف والدركي يسأل : « من تعرف غيرهم ؟ » . وأخيراً
سأله الدركي ان يصف له علي العمر الذي زعم الدركي انه يعرفه حق المعرفة ،
فأخذ صاحبي يصفه اليه بأنه اسمر الوجه طويله ملتح لحيته سوداء وخطها
الشيب قليلا ، ربع القامة ، في العقد الخامس من عمره . وطال هذا الجدل
والخلط ، وكلاهما كان كاذباً فيه ، فلا صاحبي من السخنة ، ولا الدركي يعرف
احداً من اهلها ، وتجدد السؤال عن السبب الذي جئنا من أجله الى هذا الحي ، وهل
نعرف مدينة حمص ، ومن نعرف من أهل حمص ؟ واين الجمال التي اشتريناها ؟
ومن اين المال لشراؤها ، وليس في جيبنا شروى نقير ؟ وأين هويتكما ، أو ورقة
تسجيل نفوسنا ؟ فأجابه رفيقي باننا جئنا لأول مرة الى هذه الجهات ، مع
قافلة من اهل السخنة ، ذهب افرادها الى حمص ، وتخلفنا في قرية « شنشار » نستفسر
عن اسعار الجمال ، لاننا نشتغل في بلدنا جمالة ، ونتجر بالجمال ، ولما لم نجد فيها
كل مطلوبنا جئنا الى هذا الحي نسأل اهله عن جمال للبيع ، واننا لا نعرف
أحداً في حمص ، ولم نأتها من قبل ، والجمال التي ارتبطنا بصفقتها في شنشار ،
والتي سنرتبط بها هنا لا ندفع ثمنها الآن ، لأننا لا نحمل نقوداً في البرية ، وخاصة
في هذه الظروف ، ولكننا سنلحق بقافلتنا في حمص ، فلنا بينهم شريك
غني له عميل في حمص يتدارك منه كل ما نحتاج اليه من نقود ، ولم تجر العادة
ان نحمل معنا اوراق نفوسنا ، ولم نجيء قبل هذه المرة الى هذه المنطقة لنعرف ان
النظام يحتم علينا حمل اوراق نفوسنا ، والتفت الدركي فجأة الى اهل البيت
ومن معهم من رجال الحي ، وسألهم : « يا معشر النعم ! هل من عادتكم بيع
الجمال ؟ وهل لكم سابق معرفة بهذين الرجلين ؟ » ، فرد عليه صاحب البيت
بهذوء الاعراب واتزانهم : « والله يا بيبك ! ليس لنا معرفة بالرجلين ، وهما
ضيفان حلا في بيتنا ظهر اليوم ، وسألا عن جمال للبيع في حيننا ، فأخبرناهما بان
ليس لدينا اباعر غير ما يحمل منها بيوتنا ! وتغديا ، وناما ، وليس
من عادة الاعراب ان يحققوا عن هوية الضيف ، او يسألوه ، فقد يكون في

السؤال ما يزعجه او يضره ! والتفت الدركي الى ديبو ليفحمة بان عشيرة النعيم لا تبسيع الاباعر ، فقال له هذا : « اننا نعرف في بلدنا ان الجمل يباع لدى عشيرة النعيم بزيادة ليرة او ليرتين ذهباً عن سائر الجمال الاخرى ، لأن العشيرة تحسن تربية الابل » ، ولم يقنع الدركي بكل ما قلنا ، واصر على اننا كاذبان ، ولسنا من أهل السخنة ، وهدد بأنهم سيقودوننا معهم الى حمص للتحقيق عن هويتنا ، وقال ان الشبهات والريب تحيط بوجودنا في هذا الحي بالذات ، وجلس الضابط في قعدته موجه كلامة الى من في البيت ، وقال : « نحن الثلاثة وجهنا من حمص للتحقيق في أسباب قطع اسلاك الهاتف العسكري بين حمص والنبك في مكان لا يبعد كثيراً عن هذا الحي . وقد جئنا ، وكشفنا في محل السلك المقطوع ، فوجدنا بالقرب منه مديرة هذه هي . »

واخرج من جيبه موسى ذات نصاب اسود ربطت بخيط ازرق ، عرضها على الحاضرين وقال : « وهذه المديرة يحملها عادة الرعاة والأعراب ، فلما جئنا الى هذا الحي الذي هو أقرب الأحياء والقرى الى مكان السلك المقطوع ، ووجدنا عندكم شخصين مجهولي الهوية ، مشتبه في أسباب وجودهما هنا ، لذلك عزمنا على ان نقودهما ، ونقود وجوه هذا الحي معنا الى حمص ، ونسلمكم جميعاً الى السلطة العسكرية الفرنسية مع الادلة المثبتة والوسائل الاجرامية ، وانتم أدري مني بما سيصيبكم من العقاب لقطع اسلاك الهاتف العسكري بالقرب من حيكم ، في وقت تشتبك فيه السلطة بمعارك دامية مع الثائرين في قلمون ، وفي الوقت الذي تقبلون في منازلكم اشخاصاً مشبوهين ، تخفون عن الحكومة هويتهم ! .. » فبدأ الخوف على وجه الأعراب ، وتكلم صاحب البيت ، وهو كبير القوم ، واقسم الا علم لهم ولا خبر بقطع سلك الهاتف ، ولا يعرفون عن الشخصين إلا أنها ضيفان نزلا قبيل سويغات للسؤال عن الجمال ، وفجأة سأل الدركي الضابط بالتركية ، وكنت اتقنها في الدراسة زمن الدولة العثمانية : « ما رأيك في الموضوع ؟ ، فأجابه الضابط : « اننى اشتبه بهذين الرجلين ! .. » ثم

نظر إلى بامعان ، وقال له بالتركية : « لا أدري ! أين رأيت هذا الوجه ؟ .. » ،
وقد رت ان لي اخوة موظفين تنقلوا ، بحكم وظائفهم ، في عدة مناطق سورية ،
وانه قد يكون عرف احدهم في تنقله هو ايضاً ، وكلهم يشبهوني في السمنة ،
فناداني الدركي الثاني ، واجلسني أمامه ، وقال : « ان مظهرك يدل على انك
غير سخني ، فاصدقني الخبر ! من اين انت ؟ .. » ، فأكدت له انني من السخنة ،
وان رفيقي خالي ، فقال : « كفا كما كذباً و بهتاناً .. ان اهل السخنة يلفظون الجيم
جيماً مفخمة ، ويقولون عن الجمل جملاً ، وانما من ساعات تقولان جملاً وجمالاً .. وانا
ساكت ، ولهجتكما لا تدل ابدأ على انكما من السخنة ، فقلت له : « انت صادق
يا سيدي ، ولكن الجيم هذه يلفظها الطاعنون في السن .. وهي لهجة قديمة بطلت
في قريننا ، خاصة بين الشباب ! » ، قال : « ها .. اذن انتم تمدنتم ! » ، قلت :
« لا ادري ان كان هذا مدنية ! .. » ، فالتفت الدركي الأول الى الضابط ،
وقال له بالتركية : « سابتعد بهذا عن البيت ، واسأله عن اسم رفيقه ، واسم ابيه
وجده .. وانت بدورك اسأل الثاني هنا عن اسم صاحبه وجده لنرى ان كان
هناك خلاف في اجوبتهما ! .. ونتأكد من كذبتها ! .. » ، وامسك بمعصمي ،
وقادني الى خارج الخيمة ، وكنت حينها استحث الذاكرة لافطن بالاسماء المزعومة ،
واسعفتني الذاكرة بالاسم الأول عبد الرحمن ، واسم ابيه محمد ، ونسيت اسم
الجد ، فقد عدد صاحبي امامي عشرات الاسماء ، ولم استحث ذاكرتي لاحفظ
منها اسماً واحداً ، واجلسني الجندي على اديم الأرض ، وجلس بدوره امامي ،
ووضع يده على رأسي ، يستحلفني بالايمان المغلظة عن حقيقة هويتي ، وهوية
رفيقي ، وعاهدني ان قلت الصدق ، على ان يخلي سبيلنا ، فاقسمت له محرراً
باننا من السخنة ، واننا لم نقل له الا الصدق ، فسألني : « ألا تعرف مدينة
حمص ؟ » ، ألم تدخلها من قبل ، وهل سافرت الى مدينة غيرها قبل هذه
المررة ؟ » ، فقلت له : « لم اخرج قبل هذه المرة من السخنة ! » ، لئلا يسألني من
تعرف من اهلها ، فاقع من جديد بالخرج ، فقال : « واين صنعت هذه السن
الذهبية ؟ .. » ، فقلت له : « ان هناك طبيباً أرمنياً اسمه آغوب ، كان جاء

الى السخنة وأنا يافع ، فصنع لي والدي هذه السن عنده ! » قال : « كذبت والله ! » ، ثم سألني عن اسم خالي ، واسم ابيه وجده ، فذكرت له الاسمين الاولين ، واخطأت في الثالث ، فقلت ان اسم جده عمر ، قال « ارأيت كيف تكذب ؟ لقد قال خالك ان اسم جده كريم ، فاستدركت خطأي ، وقلت : « ان اسم جده عمر .. ولكن لقبه كريم ، فغلب اللقب الاسم ! .. » ، فلطمني على خدي لطمه برءوس أصابعه جاءت خفيفة ، وشتمني ، وقال : « انتظر إذن ما سيحل بكما ! .. فأنتما والله ثائران .. ولا بد من تسليمكما للسلطة الفرنسية ، فتعطينا عن كل منكما مكافأة خمسين ليرة سورية ! .. » ، فقلت له : « ان الله موجود .. وهو يعرف حقيقتنا ، ومطلع على دخیلتنا .. وعلى صدق أقوالنا ، وسيجزى الظالمين ! .. » ، ونهض ، ونهضت ، وعاد بي الى المضرب ، وقال للضابط : « لا بد لنا من أخذهما معنا الى حمص للتحقيق عن هويتهما ! .. » ، وجلس يجادل الاعراب الثلاثة في البيت عن قضية قطع خط الهاتف العسكري ، وهم يبرءون الى الله منها ! ..

لا بد لي من الاعتراف هنا بان سيانا ، وتلكؤ رفيقي ديبو بالأجوبة ، والخطأ الذي وقع مني في اسم جده المزعوم ، والخلاف بين مظهري ولهجتي ، وبين مظهر رفيقي ولهجته ، كلها أمور تخلق الشبهة والريبة حول حقيقة حالنا ، وتوحي للدركي النبيه الذي تولى اكثر التحقيق والاستجواب بمهارة ، اننا نكتم عنهم هويتنا . ولا بد لي ان اعترف بان الخوف ساور قلبي حيناً ، وايقنت ، ان لحقنا بحمص معهم ، فإننا هالكان لا محالة ، ولكنني تجللت ، ولم اظهر اي خوف ، ولا بدا علي ولا على رفيقي اي اضطراب ، ولا تغيرت ملامح وجهينا ، حتى ان اهل اهل الحي الذين قدروا ولا ريب اننا ثائران ، ابدوا بعدئذ اعجابهم برباطة جأشنا في هذا الموقف الرهيب ، وما علموا انني حزمت امري على ان لا ادع الضابط وجنديه يتخطون مكانهم عند اصرارهم على تنفيذ فكرة مسيرنا الى حمص . وكان اهل البيت يعدون الطعام لهم ، وهم يستعجلونه . وكنت

انكث التراب بعود كان بيدي ، واتكىء احياناً الى جانبي ، كأني ادقق في خطوط العود على التراب ، في حين كنت ابحث ان كان الضابط يحمل مسدساً ام لا ، وهو نصف مضطجع ، على الوسائد بجانبه . وكان يحز في نفسي ، في حال قتل الضابط والجنديين ، اننا سننزل بهذا الحي الذي اضافنا ، وسعى اهله جهدهم لتأييد مزاعمنا ، نكبة لا تضارعها نكبة ، لأن السلطة الافرنسية ستبيد الحي ، وتقتل كل من تقبض عليه من رجاله ، لأنهم آووا ثائرين ، ومكنوهم من قتل ضابط وجنديين في منازلهم . بعد دقائق طلب الدركي الثاني صاحب قصة الجيم والحيم المفخمة إبريقاً للوضوء ، وسجادة للصلاة ، فجاءوه بماء وجلد شاة ، وبعد ان صلى صلاة العصر نادى الاعرابي صاحب البيت إلى جانبه ، خارج المضرب ، وتحدث معه طويلاً بصوت خافت لم نسمع من الحديث شيئاً ، ثم عاد إلى مقامه في جانب الضابط ، وهمس في أذنه بكلمات ، رأيت الضابط يوافق عليها بهز الرأس ، ثم يلتفت الدركي اليها ، ويسألنا بغتة امام الاعراب : « الا قولاً لي ! اين جالكما الآن ؟ .. » ، فقلنا له بصوت واحد : « في شنشاري سيدي ! » قال هيا والحقا بجمالكما ، ولا تعودا الى هذا المكان واشكر سعادة الضابط على تلطفه بأخلاء سبيلكما ! . كدنا لا نصدق آذاننا فيما سمعنا ، وبادرت وصاحبي إلى يد الضابط ، كأنا ننكب عليها بقبلها شكراً وتقديراً ، فسحب يده منا ، وقال : « مع السلامة ! .. » ، وشكرنا الجنديين ، وصافحناهما ، وخرجنا من البيت بهدوء ، حتى اصبحنا بين اطناب البيت نودع صاحبه الذي شعرنا بان له الفضل في إنقاذنا ، وإذا بالدركي الذي اتعبنا باستجوابه ، واسمه خالد ، وفي وجهه اثر للجذري ، يلحق بنا ، ويضع ذراعيه على عاتقينا ، ويقول همساً : « نحن كلنا مسلمون ، لا نريد الاضرار ببعضنا ! .. ولا تقولوا اننا لم نعرف من انتم ! .. لذلك اخلينا سبيلكما ، فاذهبوا الآن بسلام .. ولكن اذا وقعتا بيد غيرنا ، وسألكما عن هويتكما ، فلا تقولوا له انكما من السخنة ، لان مظهركما ، ولهجتكما لا يدلان على انكما منها ، بل قولاً اننا من هذه الديرة ، فلهجتكما لها اقرب ! .. » ، فشكرناه دون تعليق على كلامه ، وابتعدنا عن البيت ، وعندئذ لحق بنا مضيفنا صاحبه ، وقال : « .. والله دفعنا اربع ليرات ذهبية للضابط والجنديين حتى تمكننا من اخلاء سبيلكما ، دون ان نعرفكما .

وهذا المبلغ لا يضيع في طريق خلاصكما .. لذلك ابتعدا قليلاً الآن عن الحي ، وعودا إلينا بعند ركوب العسكر ، فهم سيأكلون ثم يرحلون ! » ، فشكرناه شكراً جزيلاً ، وحز في نفسي ان تكون عاطفة الجندي التي ابداهـا لنا وهو يودعنا مأجورة .. وان كانت الرشوة التي استوفوها من صاحب البيت الشهم الكريم الذي اضافنا ، دون ان يعرف قصتنا ، لا تساوي شيئاً بالنسبة لما قد ينالونه من الفرنسيين لو أنهم سلمونا اليهم باعتبارنا من العصاة . وقد عرفت بعد الثورة ان الضابط الذي الذي اعتقلني في منازل عشيرة النعيم أيام الثورة هو الملازم يوسف ضيا من ضباط الدرك في حمص . ولمعرفتي اياه قصة ، فقد مرت السنون ، وصدر عفو عن الحكم الصادر عليّ من المجلس العدلي بالموت ، وعدت لأعمل مع ابن عمي نجيب الرئيس في دمشق في اصدار جريدة « القبس » اليومية بعد المقتبس ؛ وقلت بحولة صحفية إلى منطقة الفرات في سورية ، عدة مرات ، التقيت في احدها ، وفي بلدة الميادين ، بينما كنت في زيارة قائم مقام القضاء في مكتبه ، بقائد الدرك ، وهو برتبة ملازم أول أو نقيب ، لاحظت انني اعرفه من قبل ، وبدأت أستحث الذاكرة حتى تيقنت أنه هو الضابط بطل قصة القبض علي ، وعلى رفيقي ديبو في نزل عشيرة النعيم ، وفاجأته : « من أين نعرف بعضنا من قبل يا حضرة القائد ؟ .. » فقال : « من المؤكد اننا نعرف بعضنا بعضاً من قبل ، ولكن أين تلاقينا ؟ تذكر أنت ! .. » ، قلت : « هل كنت يا يوسف ضيا بك في حمص عام ١٩٢٦ ؟ » قال : « نعم ! لقد كنت ضابط درك في حمص ! . فأين التقينا في ذلك الحين ! » قلت : « إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك السنة ، تجد اننا لم نلتق في مدينة حمص ، بل خارج المدينة في بيت من الشعر .. في حي لعشيرة النعيم غير بعيد عن مدينة حمص ! .. » ، قال : « لقد تذكرت .. لقد تذكرت .. أرجوك ألا تفصح بأكثر من هذا ! . » ، وسكت هو ، وسكت أيضاً ، وظل القائم مقام وبعض الموظفين الجالسين معنا لا يعرفون من القصة ، الا اننا نعرف بعضنا من قبل ! .. وكنت على الرغم من نقمتي على هذا الضابط لأخذه الرشوة من الاعراب لقاء إطلاق

سراحنا ، ما زلت أوّمن بأنني ورفيقي مدينان له بإنقاذنا من ورطة كانت ستسبب إبادة اهل الحي الذي أضافنا واکرمنا ، وعطف علينا العطف كله ، دون ان نعرف الى اليوم أسماء رجاله في عشيرة النعيم الذين بدلوا كل نظرتي للاعراب وأبناء العشائر البدوية في الوطن العربي ، وانهم لا يعرفون غير السلب والنهب ، وان المال معبودهم ، لا يحملون في سبيل الوصول اليه ولا يحرمون !.

النجاة والوصول الى حمص

- ٨٧ -

انطلقت ورفيقي « ديبو » غير مصدقين بالخلاص من هذا المأزق بالسهولة التي فوجئنا بها ، وحمدنا الله ، وشكرناه على انه قيض لنا هؤلاء الاعراب ذوي المروءة ، وحدثت رفيقي بما كنت عازماً عليه ، لأن البندقيتين كانتا أقرب اليّنا من الدركين وضابطهما ، واذا بصاحبي ينبئني بأنه كان مصمماً نفس التصميم ، لولا أن تداركنا الله بلطفه ، وأطلق الضابط سراحنا ، وابتعدنا عن الحي ، ولذنا وراء تل ، نتوارى عن أنظار الدرك ، حتى رأيناهم يمتطون جيادهم ، ويسلكون الطريق الى حمص ، ثم ألقانا رسول من الحي ينبئنا برحيل الدرك ، ويدعونا الى الحي ، فعدنا نجدد لمضيفنا الشكر ، ونسلم جوادنا ، ونسير الى بيت صاحب الفضل الاول في ايوائنا في المشرع. ولما وصلنا لم نجد جميل العلواني رفيقنا في البيت ، فقد بادر اعرابي من الحي الذي قبض فيه علينا ينذره ، ويقص عليه خبر اعتقالنا ، فأسرع العلواني الى خوض الساقية ، وعبرها منهزماً الى البساتين حيث تغلغل فيها . وقال لنا مضيفه الاعرابي انه ارسل الى البساتين يبحث عنه ، بعد رحيل الدرك وخلصنا منهم ، ولكن رسوله لم يرجع ، فرجونا ان يعيد اليّنا سلاحنا المطمور ، ولما تقلدناه عادت اليّنا طمأنينتنا ،

وتناولنا عشاءً خفيفاً عنده ، ولما اشتدت الظلمة ، حملنا بندقية العلواني ، وقلنا لمضيفنا أن يبلغه ، فيما اذا عاد لأخذ سلاحه ، ان موعداً معه نفس المكان الذي كنا ذاهبين اليه معه في بساتين حمص ، وانطلقنا نحو قرية « بابا عمرو » ، وكلانا لا يعرف الطريق الى زور الجديدة ، فقد كان اعتمادنا على العلواني في الوصول اليه ، ولكننا لم نتردد ، بل دخلنا القرية لنهتدي من أحد سكانها الى طريق في البساتين تجنبنا مخفر الفرنسيين على الجسر الذي كان نبهنا اليه مضيفنا الاعرابي ، وفي القرية صادفنا فلاحاً طلبنا منه أن يهديننا السبيل ، فسار معنا شوطاً ، ودلنا الى طريق يوصل الى البساتين القريبة من القرية ، وعاد أدراجه ، فقد كان ، على ما يظهر ، غير مطمئن الى السير ليلاً في العراء مع رجلين مسلحين لا يعرفهما من قبل . ودخلنا البساتين ، وسرنا في طريقها ، وتفرعت أمامنا الطرق ، وحرنا في أيها نسلك ، واخترنا طريقاً منها ، ثم تسللنا الى بستان على يمين الطريق لعلنا نجد فيه من يهديننا سواء السبيل ، وعثرنا أخيراً على بستان نائم قرب كوخه ، أيقظناه فذعر لمرآنا ، ثم اطمأن بعد أن عرف اننا من جماعة نظير النشواتي ، وأكرمنا من جني بستانه ، ثم سار معنا شوطاً ، وهدانا الى طريق قال انها توصلنا الى زور الجديدة ، ولكن الطريق عادت وتشعبت أمامنا ، فاضطررنا لأن نعيد الكرة ، وندخل بستاناً نتسلق جداره العالي ، ونحمل صاحبه الى أن يرافقنا ، فأرفقنا بأجير من بستانه أوصلنا الى بستان آل السباعي في زور الجديدة حيث وجدنا رفيقنا العلواني سبقنا اليه ، وأخذ مع خاليه ينتظرون وصولنا بفارغ صبر . وقد حدثنا أنه تلقى نبأ اعتقالنا من قبل الجند ، وقيل له أن عددهم كبير ، وأنه طلب سلاحه من ربة البيت ، فحثته على أن ينجو بروحه أولاً ، إذ لم يبق من الوقت لوصول العسكر اليه ما يساعد على النباش عن السلاح ، واندفع يعبر الساقية يعدو الى البساتين ، حتى بلغ بستاناً بالقرب من قرية « بابا عمرو » ، لا تبعد كثيراً عن مخفر الفرنسيين على جسر نهر العاصي ، فخاف أن يراه الجند ، واختفى تحت سياج أول بستان دخله ، ولكن صبية من البدو كانوا يلعبون بالقرب من البستان كشفوا نخبأه ،

وحسبوا أنه من لصوص البساتين ، وجاءوا من منازلهم بعصي انهلوا بها عليه ، ولكنه استطاع أخيراً أن يتفاهم مع كبيرهم اليافع محمد الذي أبعد الصبية عنه ، وجاءه بخبز وماء ، بينما هو كان يبكي رفيقيه اللذين قدر أن مصيرهما سيكون كمصير عصابة نظير النشواتي في حادثة « خربة غازي » . وفي أول الليل خرج من مخبئه ، ورافقه محمد من عشيرة الفواعرة إلى مضيفه من عرب النعيم الذي بشره بخلاصنا من يد الدرك ، وأبلغه رسالتنا ، فشكره ، ورافقه محمد الفاعوري إلى بستان اخواله ، فقد كان محمد خبيراً في طرق البساتين .

قضينا يومي التاسع والعاشر من شهر حزيران عام ١٩٢٦ في بستان آل السباعي ، نختفي فيها نهراً عن عيون الناس ، وعن عيون الجنود والضباط الذين يرتادون بساتين الجديدة للسباحة وصيد الأسماك والنزهة . وقد غادرنا في ليل اليوم التاسع من حزيران رفيقنا محمد ديب إلى بلدته حماة ، ليجد لنفسه فيها ملجأً يختفي فيه . وأكرمنا أخوال جميل العلواني ، وتداركوا بعض حاجاتنا الضرورية من الملابس . واستقصينا خبر نظير النشواتي ورفاقه فعلمنا انهم وصلوا الى حمص ، وأنهم يختفون في منازل حي « باب دريب » ، فأرسلنا من أخوال جميل من أخبرهم بأننا نريد الانضمام اليهم ، فرتبوا أمر وصولنا ليلاً الى المنزل الذي يقيمون فيه ، ولكننا ساعة وصولنا ليلاً الى المنزل وجدناهم خرجوا لطرق منازل بعض الأغنياء المحصين ، وإرغامهم على دفع الأتاوات اليهم ككثائرين ، وعادوا قبل منتصف الليل ، وعددهم خمسة عشر مسلحاً ، عرفنا منهم أنهم طرّقوا منزل الحاج عاطف الأتاسي ، واستاقوه من مضافته مع أربعة من أغنياء حمص إلى خارج المدينة ، وهددوهم بالاعتقال ، ثم القتل اذا لم يتبرعوا من أموالهم للثورة ، يشترطون به السلاح للشبان الذين يريدون الاشتراك بالثورة ، ولا يجدون ثمن السلاح ، فاعتذر الأغنياء بأنهم لا يحملون في جيوبهم نقوداً ، وطلبوا امهالهم ، فأجيبوا إلى طلبهم ، لكنهم لم يرسلوا المال ، وأعلموا السلطة الفرنسية بما حدث لهم ، فالتحذت تدابير مشددة للأمن في المدينة ، ومنعت

التجول من بعد صلاة العشاء الى الصبح ، وسيرت الدوريات في الشوارع ،
وحصنت المخافر بالاسلاك الشائكة وأكياس الرمل ، والرشاشات ، وسدت منافذ
الأزقة ، ولم تترك للزقاق الواحد أكثر من منفذ واحد . ولا أطيل الحديث ،
فقد لبثت ورفيقي اثني عشر يوماً مع عصابة النشواتي ، لأناتي عملاً غير تبديل
المنازل ، ننتقل كل ليلة من منزل إلى آخر خشية واش أو عين رقيب . وفي النهار
كانت رسل العصابة من أهل الحي والأقرباء يحملون الرسائل الخطية والشفوية
إلى أغنياء حمص يستحثونهم على التبرع ، وذفع الآتاوات إلى نظير النشواتي رئيس
العصابة ، فوصل إلى أيديهم أكثر من مئتي ليرة ذهبية ابتاعوا بحزم منها ما يلزمهم
من لباس وسلاح وعتاد ، فلم أقبل أنا وجميل العلواني أن يصيدنا شيء منها ،
لأننا كنا من حيث المبدأ ، لا نقر هذا الأسلوب في أعمال الثورة ، وقاومناه
مع إخواننا ، وأصابنا بسبب موقفنا السلي منه ، العنت والأذى ، وفشلت بعض
خططنا الثورية المهمة بسبب لجوء بعض رؤساء العصابات إلى أسلوب فرض
الآتاوات بالقوة على الناس .

كدنا نقع بالفخ !

- ٨٨ -

سعت خلال اقامتي في حمص ، وكتبت الى اهلي في حماة اطلب ثياباً ونقوداً ،
فحضرت والدتي الى حمص ، وسعت لدى آل النشواتي الذين كانت والدته جميل
تعرفهم ، وتحضر لزيارة ابنها بواسطتهم في حمص ، حتى تمكنت من زيارتي في
مخبأ العصابة ، وحملت الى بعض الملابس ، وخمس ليرات ذهبية ، وجدت انها
لا تكفي لشراء راحلة استعين بها في الوصول الى الغوطة ، لذلك قررت ، بعد
سفر والدتي الى حماة ، ان أسافر مع جميل العلواني سرّاً الى حماة ، لعلنا نستطيع

- ٦٢٩ -

بواسطة اهلنا واقاربنا ، ان نتدارك راحلتين لركوبنا ، وقدرنا ان بقاءنا في حمص لا يجدي ، ويحملنا تبعة ما تقوم به عصابة نظير النشـواتي من فرض الأتاوات على الأغنياء بالقوة . لقد تعاهدت مع جميل العلواني على ألا نعود إلى أي منطقة من مناطق الثورة ما لم نحصل على راحلتين لركوبنا ، اذ أن الثائر الطماح مثلنا إلى توسيع شقة الثورة لا يستطيع ان يقوم بعمل يفيد الثورة ما لم يكن فارساً يتنقل ، ويقطع المسافات الشاسعة ، ولا سيما بعد ان تم للفرنسيين إخضاع منطقة بعلبك ، وإرغام فوزي القاوقجي على الانسحاب من قلمون ، وحشد قواتهم من جديد لضرب ثورة المتأولة في الكروم ، وثورة الضنية في جبال طرابلس ، بعد زحف حملاتهم الكبرى إلى جبل الدروز ، واستيلائهم على عدة مناطق فيه . اتفقنا على السفر إلى حماة ، وكلفنا والدته العلواني بأن تستأجر لنا سيارة سائقها حموي يعرفه جميل العلواني من قبل ، على ان يخرج بالسيارة من حمص ، قبل موعد منع التجول ، وينتظرنا في مكان حددناه له خارج المدينة على طريق حماة ، حتى نوافيه اليه في أول الليل ، وارسلنا له في النهار صرتين فيهما حاجاتنا ليضعهما في السيارة ، حتى لا نضطر إلى حملهما في أثناء خروجنا مسلحين من حمص ، وتوجهنا بعد غروب الثاني والعشرين من شهر حزيران من المنزل الذي كنا نختفي فيه مع عصابة حمص في حي باب دريب ، إلى خارج المدينة ، نتجاوز سداً أقامه الفرنسيون في احد منافذ الحي ، وسرنا بين الحقول والكروم نلف حول المدينة ، والقمر بديراً ، حتى بلغنا السيارة التي كانت بانتظارنا ، وفيها السائق الحموي وقريب له ، فانطلقت بنا مجتازة قرية « تلبيسة » إلى قرية « الرستن » وجسرهما على العاصي ، فاجتزناه بسرعة ، ومع الاستعداد للمفاجآت ، بسبب وجود مخفر للدرك في الرستن ، حتى اشرفنا من مرتفع بعد الرستن على مدينة حماة وانوارها ، فطلبنا من السائق ان يطفئ مصابيح السيارة ، ويسير بضوء القمر متمهلاً ، وبالسريعة التي توافقه ، ولما اشرفنا على المدافن الجنوبية ، ولم يبق بيننا وبين المنحنى الذي يوصل إلى مدخل المدينة بجانب حي آل البرازي ، إلا بضعة عشر متراً ، طلبت من السائق ان يقف ، وهبطت من السيارة مع جميل ،

ورجونا السائق ان يحتفظ لنا معه بالصرتين متاعنا الى الصباح في المراتب ، حتى
نبعث اليه من يأتينا بهما ، ويتسلمها منه بإشارة منا ، وودعنا السائق وقريبة ،
وانطلقت السيارة لتلف المنحنى الى اليسار ، واذا برجال عديدين يخرجون من
مكن نصبوه للسيارة عند المنحنى ، إذ اتخذوا من المدافن ، ومن مصنع للماء
ستراً لهم ، وتمكنوا من وقف السيارة ، والانقضاض عليها ، فأدركنا أننا وقعنا
في كمين نصب لنا ، وبأدركنا الى ترك طريق السيارات ، والفرار باتجاه الشرق ،
والشمال الشرقي ، والقي جميل العلواني بعباءته على قارعة الطريق ، والقيت
ايضاً بعطفي الذي كنت حملته لاستربه سلاحي عند دخولنا حي العليليات في
الجنوب الشرقي من المدينة ، وفيه اقرباء لي واقرباء لجميل ، كنا قد قررنا ان يلجأ
كل منا الى منزل من منازلهم ، والاختفاء فيه ، على ان نبقي على صلة في تدابير
أمر الراحلتين لركوبنا . لم نستطع ان نقدر بعدد الجنود في الكمين ، اذ ان ضوء
القمر ، والاصح نور البدر ، كشف لنا عن اشباح كثيرة تتحرك ، وتخرج من مخابئها ،
ثم تركض ، وتتكاكأ على السيارة ، ثم ينفرط عقدها لتلحق بنا ، فلم نجد أمامنا
غير الركض نجري بشدة نحو الشرق مبتعدين عن المكان ، والرصاص يثر من
حولنا ، ويجانب آذاننا ، والخطى المسرعة تسعى وراءنا ، وتلاحقنا بشدة اكثر ،
واصوات قوية تنذرنا بالوقوف ، وتدنو منا ، حتى لم يبق بيننا وبين المتقدمين من
مطارديننا إلا عشرات الخطوات . فقلت لجميل علينا ان نطلق النار والاقبض
علينا ، وفعلاً أدركنا ، نصف اجسامنا الى الوراء ، وانطلقت من بندقيتيننا
رصاصتان ، هلعت لهما ، على ما يظهر ، قلوب مطارديننا ، فتوسدوا الأرض ،
وسددوا بنادقهم لقتلنا ، ونحن على مرأى منهم في ضوء القمر ، فخرقت رصاصتان
كفية العلواني التي كانت تلوح اطرافها في الهواء ، وتابعنا اطلاق الرصاص ،
فبعدت عن مسامعنا اصوات : « امسكوهم !.. اذبحوهم !.. » ، ولكن تسديد
الرصاص من القوم كان مركزاً علينا ، وكنت أمعن في الركض شرقاً ، والى
الجنوب الشرقي احياناً مبتعداً عن مدينة حماة ، وحي العليليات الذي كنا ننوي
اللجوء اليه ، لأنني فكرت في عدم دخول المدينة بعد الوف الطلقات التي كهربت

الجو ، والتي تجعل ، في مثل هذا الوضع ، كل داخل الى المدينة عرضة للاعتقال ، لا سيما وفي الصرة التي خلفتها في السيارة جميع أوراقى وجواز سفرى الى جانب مفكرتى التي دونت فيها خلاصات عن أحداث الثورة ، الى كتاب من سلطان الاطرش الى فؤاد سليم احتفظت به ، بعد استشهادى ، للذكرى ، وكلها تدل على هويتى ، ودورى في الثورة . وكنت رأيت بأى عيني السيارة وقفت ، والتف حولها رجال الكمين ، ولا بد انهم صادروا كل ما فيها ، وقبضوا على السائق وابن عمه من آل عاجوقة الحمويين ، وستساعدهم تلك الاوراق وافادة السائق وقريبه على معرفة هويتنا ، فلا يترك الفرنسيون ، تحت جناح الظلام داراً من دور آل الرئيس وآل العلوانى في حماة ، إلا ويتحرونها بحثاً عنا . لقد كنت وانا أعدو ، استعرض هذا في مخيلتى ، وامعن في الزكض شرقاً ، وانحرف قليلاً نحو الجنوب ، بينما كان صاحبي العلوانى يجهل ما فى صرتى من أوراق خطيرة ، ولا يظن الى الخطر الذى يتهددنا من دخول المدينة واللجوء الى منازل الأقارب ، فهو كان يعدو شرقاً . ولما ارغمنا المطاردون على التراجع بدأ ينحرف نحو خي العليليات فى المدينة ليلجأ اليه ، ولم ينفع ندائى إياه فى تنبيهه ، حتى افترقنا فى النهاية ، واصبح بيننا فاصل ، ظل يتسع حتى اضاع كل منا الآخر ، وبدأت اصوات الرصاص تصدر عن عمق وبعد ، فأخذت اخفف من سرعة ركضى ، ثم اخذت اسير متمهلاً لا تدارك انفاسى التى تلاحقت من التعب والاعياء ، واعترضت سبيلي حفرة القيت بنفسى فيها ، والصقت اذنى بالارض لأتبين ان كان ورائى وقع اقدام ، ولما اطمأننت للسكون ، وهدأ روعى ، وانتظمت انفاسى ، خرجت من الحفرة ، وتابعت سيرى بهدوء نحو الشرق ، حتى وصلت الى البساتين على ضفة العاصى قرب منزل ريفى لنجيب آغا البرازى ، ووجدت من باب الحذر التغلغل فى البساتين فهى اضمن لسلامتى من السير فى السهل المكشوف ، فى حال انطلاق قوة ملاحقتى وملاحقة زميلى العلوانى ، لذلك ولجت بستاناً صادفت فيه ساقية ماء ترفدها النواعير القريبة التى تدور وراء بناية البرازى على ضفة العاصى ، فشربت منها وغسلت وجهى ، وقمت أتردد بين متابعة السير الى المدينة بطريق البساتين ،

أو البقاء في البساتين والبحث عن مخبأ أمين فيها .

ولما أشرفت على ضفة العاصي بجانب الناعورة خطر لي عبور النهر الى الشرق ليصبح فاصلاً بيني وبين المطاردين في حال خروجهم لملاحقتنا ، وخلعت ثيابي فوراً ، وحزمتها في كفية الرأس مع بندقيتي القصيرة وعتادي ، وجربت أن أسبح بالصرة الى الضفة الأخرى ، ولكنني أدركت انني سأفقد لها ثقلها ، وأبقى دون سلاح وثياب ، وعدت الى جانب الناعورة ، واخفيت بندقيتي وعتادي في غابة القصب ، بعد ان سترتها بقصببات قطعتها ، ثم ربطت صرة الثياب برأسي وسبحت الى الضفة الثانية حيث لبست ، وسرت أعزل من السلاح ، ادخل من بستان الى آخر ، حتى ابتعدت وتغلغلت في بساتين حي الحاضر ، الشطر الشرقي من مدينة حماة ، ولم يبق أمامي إلا ان أجد الملجأ الأمين في احد البساتين ، وقررت ان أطلع بستانياً على أمري ، واعتمد عليه في ايصال خبري الى أهلي في الصباح ، ويسر الله لي ذلك ، فقد وجدت اصحاب بستان على جانب كبير من المروءة والوطنية ، تلقوني بترحاب ، وهنئوني بالسلامة من سيل الطلقات التي دوت قبل سويعات في الليل ، بعد ان عرفوا انها كانت مسددة الي والى رفيقي ، ونهض احدهم يقودني الى عريشة منخفضة للعنب تواريت تحتها ، واحضر لي حصيراً ووسادة ولحافاً ، وغفوت من التعب ، بعد ان رجوته ان يوقظني في الصباح قبل ذهابه الى المدينة لبيع الخضار .

بعد فجر الثالث والعشرين من شهر حزيران انطلق البستاني بخضاره الى المدينة يحمل معه عنواناً يهتدي به الى اخوتي ، وبعد الضحى استيقظت على بكاء فوق رأسي ، فوجدت والدتي تبكي لحالي ، وكانت اول من وافاني الى البستان من اهلي ، ولما كفكت مدامعها سألتني : « إلى متى يا بني ستظل ملاحقاً مشرداً تصبح وتمسي والموت منك قيد شعرة ؟ .. » ، قلت : « انت مؤمنة بالله يا أماء ، والآجال محتومة ، فمن جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ، وأنا

أشقى ليسعد وطني ، فادعي لي بالتوفيق ، وباركي خطواتي ! » . قالت :
« سامتك الى من لا تضيع عنده الأمانات ! » ، وكفكت دموعها ، وجلسنا
نتحدث ، وإذا باخوتي سعيد وعثمان يصلان الى البستان ، وينقلان إلي أن
صاحب السيارة الذي نقلنا من حمص فر بسيارته أثناء صدامنا مع قوات الامن ،
ولما تعقبوه إلى المرآب لم يجدوه ، فقد اختفى هو وابن عمه ، ووجدوا السيارة
فارغة ليس فيها شيء ! . فاطمأنت لهذا النبأ ، وأيقنت أن أمرنا بقي مكتوماً
على الفرنسيين ، وقدرت أن صاحب السيارة وقريبه لن يسلموا نفسيهما للسلطة
لأن عقابهما على نقل ثأرين مسلحين في سيارتهما سيكون صارماً ، وقررت
دخول المدينة في النهار ، ودخلتها ، بعد أن سلمت بنديقتي وعتادي الى صاحب
البستان الذي تكرم في اليوم الثاني ونقلهما إلى بيت خالي علي الرئيس تحت
حمل من خضار بستانه . وهكذا كنت محظوظاً بلقائي بصاحب البستان الشهم
الذي آواني رغم الخطر الذي يتهده من إيواء ثأر ملاحق ، ونقل رسالتي إلى
أهلي ، وحمل والدتي على دوابه الى البستان ، بعد أن ترك خضاره لجاره يتصرف
بها ، ثم حمل سلاحه من مخبئه بجانب نهر العاصي إلى بستانه ، ومن بستانه الى
المنزل الذي لجأت اليه ، فله في قلبي منزلة لا تقدر لأنها تعبر عن طيب أرومة
شعبنا العربي وطبقاته الكادحة ، وتضحياته في سبيل حرية وطنه .

قبيل غروب اليوم الذي دخلت فيه مدينة حماة ، جاءني اخوتي يخبرونني بأن
الحاج حمدو عاجوقة سائق السيارة الذي حملنا من حمص إلى حماة سلم نفسه الى
عبد الله الشر كس قائد الدرك في حماة الذي يعرفه السائق من قبل ، وكان كثيراً
ما يقدم له سيارته يستخدمها في نزهة أسرته وأولاده دون أجر ، فقد استدعى
القائد اليه ، صبيحة يوم الحادث ، شقيق السائق ، وسأله عن سبب اختفاء
أخيه ، وعدم استسلامه لرجال الامن ؟ وسأله عن الحادث ، فقال له ان أخاه
كان قادماً في الليل من حمص بسيارته متأخراً ، بسبب عطل طرأ عليها في الطريق ،
فاعترض سبيلها بعد هضبة الرستن المطلة على حماة رجلان مسلحان بنديقتين ،
وضعا الحجارة لسد الطريق ، فاضطر للوقوف ، وركبا معه ، بعد أن أرغماه

على اطفاء مصابيح السيارة . ولما بلغ المقابر في مدخل المدينة ، طلبا منه الوقوف ، ونزلا من السيارة ، وذهبا في حال سبيلهما ، دون أن يعرف هويتهما ، ولما اعترض رجال الامن سيارته ، وقف لهم ، وقد فتشوا السيارة ، ولم يجدوا فيها شيئا ، ولكن عندما وقع الصدام بينهم وبين المسلحين خاف أن يصاب برصاص الفريقين ، وخاف مسؤولية ركوبهما معه ، لذلك فر الى المرائب حيث وضع السيارة ، واختفى ، ولا أعرف مكانه ! .. فقال له عبد الله الشر كس : « انت تعرف أن أخاك صديقي وعزيز علي ، ومن حديثك تبين ألا غبار على تصرفه ، ما دام المسلحان أرغماه على الوقوف ، وركبا سيارته قسراً ، فليأت إلي استجوبه ، ثم أطلق سراحه ! .. » ، ومد يده الى شاربه ، وأمسك به ، وأقسم بشرفه أن أخاه لن يمس بأذى ، ولا يعتقل اذا جاء وسلم نفسه اليوم ، فتوجه الأخ وروى لأخيه حديث قائد الدرك ، فخدع هذا بعهد مجرم ولأه الفرنسيون قيادة درك حماة ليخدم مصالحهم ، وسلم نفسه لعبد الله الشر كس الذي سأله عن هوية الثائرين اللذين جاء بهما في سيارته إلى حماة ، ولما كرر حكاية المسلحين ، واعتراض سبيل السيارة ، صفعه ، ثم وسده الأرض لتأخذ الشياطين نصيبها من جسمه ، فاضطر المسكين لان يعترف بهوية جميل العلواني الذي يعرفه من قبل ، وأقسم بالايان المغلظة انه لا يعرف هوية رفيق العلواني ، فضبطت إفادته ، وسجن ، وسيق إلى سجن حلب العسكري المسمى « خان استانبول » حيث ظل ستة أشهر سجيناً قيد التحقيق والمحاكمة ، ووكل أمره في حلب الى محام مسيحي قدير استوفى منه حوالي مئة ليرة ذهبية ، ولكنه أنقذه من السجن الطويل ، فقد برأه من تهمة نقل الثائرين ، واخلى سبيله ، وعاد الى العمل في السيارات ، وفرزه الله ، ووسع عليه من الرزق أكثر مما خسر . وكان كلما زارني في دمشق يحدثني بنعمة الله عليه ، وما در عليه من رزق ، بعد السجن بسبينا ، ويحمد الله على نعمائه . وقد حفظ هذا الرجل الشهم أيضاً أغراضنا وأوراقي ، ولولاه لضاع علي الكثير من مذكرياتي التي استطعت ان أدونها بأيامها ، وأوقاتها ، وتفصيلها .

لم يترك الفرنسيون منزلاً من منازل آل العلواني في حماة الا وتحروه بحثاً عن

جميل العلواني ، فاضطر الى العودة خفية الى حمص ، وشدد الجواسيس وعيون
الفرنسيين الرقابة على إخوتي وأقاربي ، فتقدم الصديق الشهم مصطفى الباكير
البرازي الى أخي ناظم باقتراح عرض عليّ فيه أن أغادر حماة الى قرية « طلف »
القريبة من قرية « حر بنفسه » ومحطتها على الخط الحديدي بين حمص وحماة ،
وأهل « طلف » من التركمان ، وأبقى فيها باسم مستعار ، وبوصفي وكيلاً للمالكي
القرية ، إذ كان نصفها لمنير البرازي وأخوته الدكتور محسن البرازي ، وعبد
الكريم البرازي ، ومصباح البرازي ، وشقيقاتهم ، والنصف الثاني لباكير آغا
البرازي والد مصطفى الباكير البرازي ، فقبلت الاقتراح تفريجاً لكرب الاقارب
ونسائهم الذين اضطرني الوضع إلى أن أختفي في منازلهم ، وما يصيبهم من
خوف وهلع لوجود تأثير حكم عليه غياباً بالموت مخفف في منزلهم ، مهدد كل لحظة
بأن يقع بأيدي السلطة ، وينفذ فيه حكم الاعدام .

الفصل السادس عشر

تطويق الغوطة

- ٨٩ -

كنت في الأسابيع الأولى التي قضيتها في قرية « طلف » من موسم الصيف علمت باستيلاء الفرنسيين على مناطق أخرى في جبل الدروز ، وعلى زحفهم إلى الضنية وقضائهم على ثورتها ، واستسلام الثائرين في المنطقة ، وزحفهم إلى جبال الكروم وإخماد ثورتها بعد استسلام زين مرعي جعفر وإخوته وأبناء عمومته ، وزحفهم في التاسع عشر ، والعشرين ، والواحد والعشرين من شهر تموز ١٩٢٦ إلى الغوطة ، وتطويقها من الخارج ، وفشل التطويق في بعض المناطق ، ومصرع الكولونيل « فان » قائد إحدى الحملات برصاص الثائرين ، وحصر حملة أخرى في قرية كفر بطنا ، ومصرع عدد كبير من ضباطها وجنودها برصاص المجاهدين ، وإن الثائرين بعد هذه المعارك اضطروا إلى الجلاء عن الغوطة ، وعادوا يدخلونها بغزوات لا يكادون يستقرون فيها ، حتى تزحف من دمشق عشرات الألوف من الجنود لمطاردتهم . وبلغني استشهاد الدكتور عادل النكدي ، وفائق العسلي ، وحكمت العسلي ، وأحمد مزيود ، ومظهر السباعي ، وشوكت العائدي ، وزكي الحلبي ،

والأمير عز الدين الجزائري ، وعبد القادر مليشو وغيره من الضباط وقادة الثورة ومثقفها ، ولم يحل الشتاء حتى استولى الفرنسيون على السويداء ، وصلاحية ، وشهباء ، وتنقلت حملاتهم في مقارن الجبل الثلاثة ، واضطر سلطان الاطرش ومن بقي معه من الثائرين الدروز لأن يلجئوا الى مياه الأزرق من ممتلكات الدروز في شرقي الأردن ، وحتى جلا جميع الثائرين الآخرين الى عمان في شرقي الاردن ، وإلى فلسطين ومصر .

وقد حاول فوزي القاوقجي في شهر آذار عام ١٩٢٧ أن يظهر لعصبة الأمم التي صرح الفرنسيون أمامها انهم قضوا نهائياً على الثورة في سوريا ، إن سوريا ما زالت تائرة ، فقام بعصاة صغيرة من المجاهدين انطلقت من الأزق في شرقي الاردن الى الصفاة في سوريا ، ومنها ضرب في عرض البادية حتى شارق سامية وحماة ، وارسل لي بتاريخ ١٩٢٧/٣/٢٦ كتاباً وصلني الى مخبئي في حماة ، وهذا نصه :

عزيزي السيد منير !

تعلم كم أنا مشتاق اليك ، فها قربت منك ، واني بانتظارك ، ومن معك ، أو من يود الخروج معك . آلمتني جداً مسألة إخواننا المستسلمين ، إنما عسى ان تكون عبرة للباقيين . إن الاحوال جيدة جداً ، وحاملها يفهمكم قسماً من البرنامج . ولربما نحن نتقرب اليكم قريباً ، إن تم العمل سريعاً ، وان لم نسرع فاحضر انت أيها العزيز . الإخوان الدكتور امين ، وعادل ، وعبد الرحمن وغيرهم ، كلهم يقدمون تحياتهم واشواقهم ، سلامي لكافة الإخوان عموماً وللأخ خصوصاً ، ودم لأخيك .

التوقيع :

فوزي القاوقجي

وقد علمت من الرسول أن عصابة نظير النشواتي تسالت من حمص ، والتحقت بعصابة القاوقجي التي فيها من إخواننا الدكتور امين رويحة ، وعادل الحامدي ، وعبد الرحمن الحلبي ، وشاكر السباعي ، وهزاع ايوب ، وثائرون من الدروز والدماشقة والحمويين وغيرهم . ولما تلقيت الكتاب بادرت استعد للحاق بالقاوقجي ، فجاءتني أنباء عن وصوله إلى جبل الزاوية في قضاء ادلب ، وان قوات الجيش والحرس السيار في ادلب وجسر الشغور ، وحارم ، ومعة النعمان ، ولواء الاسكندرونة ، وحلب حشدت كلها لمطاردة عصابة القاوقجي التي كانت لا تتجاوز الثمانين مسلحاً ، وبعد التحاق عصابة حمص بها تاهز عددها المئة ، وان الفرنسيين اعتقلوا قبل وصولها الى الجبال كل زعماء المنطقة الذين لا يطمئنون إلى ولائهم ، وحشدوا في كل قرية من قرى الزاوية قوات من المتطوعة والحرس السيار حتى تقاوم العصابة في كل أرض تطوؤها ، ولا تجد من يطعمها . ولما بلغت الجبال ، وجاءتهم أنباؤها سيروا حملاتهم لتطويقها ، واشتبكوا معها في معركة ضارية خسر فيها القاوقجي بضعة شهداء ، وأصيب عشرات من أفراد عصابته بجراح منهم : الدكتور امين رويحة ، وشاكر السباعي ، وأحكم الفرنسيون تطويق العصابة ، ولكن فوزي القاوقجي استطاع بمعجزة ان يخرق الحصار في الليل ، وان يحمل جرحاه ، ويمر بعصابته من بين الحملات ، حتى حتى بلغ مع الفجر جبل الأربعين الذي تغفو على سفحه بلدة أريحا ، ويطل على سهل ادلب الأخضر ، لما فيه من أشجار الزيتون ، وما كاد النهار يطلع على العصابة التي نفذ عتادها ، واكثر افرادها جرحى ، حتى رأوا حملة فرنسية كبرى تزحف إلى جبل الأربعين الذي لجأوا اليه ، وكان الاشتباك معها معناه القضاء المبرم على كل من فيها ، فتقدم فوزي القاوقجي بمن معه من الفرسان ، وانحدر من جانب الجبل الى السهل منهزماً نحو الجنوب الشرقي ، فلاحقت به الحملة ، وتركت جبل الأربعين حيث سلم بقية أفراد العصابة من المشاة ومن معهم من الجرحى . وفي الليل انسحبوا من الجبل يوزعون الجرحى على القرى ، ويتفرقون هم فيها مختبئين عن عيون الفرنسيين .

ولما بلغ القاوقجي وعصابة النشواتي ضواحي حماة في الليل ، كمنوا في جبل صغير شمالي مدينة حماة ، يعرف بجبل زين العابدين . وكان بعض أفراد العصابة بحاجة الى جياد ، لنقل الجرحى ، وللنجاة من مطاردة الجيش الافرنسي الذي استنفر كله للقضاء على العصابة ، فهبط منهم اثنان من الجبل الى طريق السيارات (طريق حماة - حلب) ، ورابطا ، بعد العصر ، قريباً من الطريق ، بينما كان بدوي على فرس أصيل يقترب منهما ، طلباً منه الوقوف ، ففربفرسه ، واطلق رصاص بندقيته عليهما ، ولكنهما ردا عليه واصاباه بفخذه ، وسلبا فرسه ، وقبل ان يبتعدا اقبل خيالان دركيان إلى مكان الحادث على صوت الرصاص ، ووجدوا البدوي جريحاً ملقى في الارض ، واثنين يقودان فرسه نحو الجبل ، فحاولا اللحاق بهما ، واطلقا الرصاص عليهما ، ولكن الثائرين ركعا على ركبتيهما ، وصوبا النار الى الدركيين ، فصرعا واحداً ، وسلبا جواده ، والثاني فر الى حماة يخبر السلطة الفرنسية بالأمر ، فقدرت ان فوزي القاوقجي أصبح على ابواب حماة ، وسرعان ما حاصرت القوات الفرنسية في ثكناتها ، واخذت رشاشاتها تطلق النار ، منذ اقبل الليل ، ورغم ذلك دخل فوزي القاوقجي واخوانه حي الحاضر في حماة ، واودعوا من معهم من الجرحى في منازل الوطنيين من اهله ، ثم انطلقوا الى حمص ، حيث عادت عصابة النشواتي الى قاعدتها ، وظل فوزي القاوقجي والدكتور امين رويحة يتسللان في منطقة حسية وقلمون حتى اجتازا قرية « البريج » ليلاً ، وسلكا طريقاً يتجه الى الشرق ، وقد اعياما التعب ، فمرجا الى خربة او مراح لا يبعد كثيراً عن الطريق ، وناما ، ولكنهما استيقظا على ضجة صادرة عن حملة افرنسية من الفرسان قادمة من البريج تسير على الطريق التي سلكاها ، وفي نفس اتجاههما ، فخافا ان يصل حصار فوزي كعادته عند اقتراب الجياد منه ، فنيبه الحملة الى وجودهما في الخربة ، ونهضا يشدان على فم الحصان بقبضتيهما حتى ابتعدت الحملة عن المكان ، واقترح القاوقجي السير في الساعات الباقية من الليل وراء الحملة ، وعلى نفس طريقها ، فكان سيرهم وراء الحملة آمناً ، يشاهدان البخار

من روث الجياد في الحملة الخارجة لمطاردتهم والقضاء عليهم ، حتى دنا الفجر ،



المجاهد شفيق الركابي

وقد كان مع المجاهد زكي الركابي من اول المتحقين بالثورة

فانحرفوا عن الطريق الى الجنوب، وتعلقوا بالمرتفعات، وظلوا يتنقلون ويكمنون

حتى بلغوا وعرة الصفاة، ومنها الى شرقي الأردن . وكانت هذه الحركة الجريئة التي استطاعت فيها عصابة صغيرة ان تجتاز سورية من اقصى الجنوب الى مشارف حلب في الشمال، وتعود بعد معركة دامية خاضتها في جبال الزاوية، والفرنسيون لديهم في سورية اكثر من مئة وخمسين ألف جندي ومتطوع استنفرت كلها للقضاء على العصابة ، دون ان يستطيعوا القضاء عليها ، وعلى قائدها والبارزين من رجالها — كانت هذه الحركة الجريئة من مفاخر الحركات في الثورة السورية .

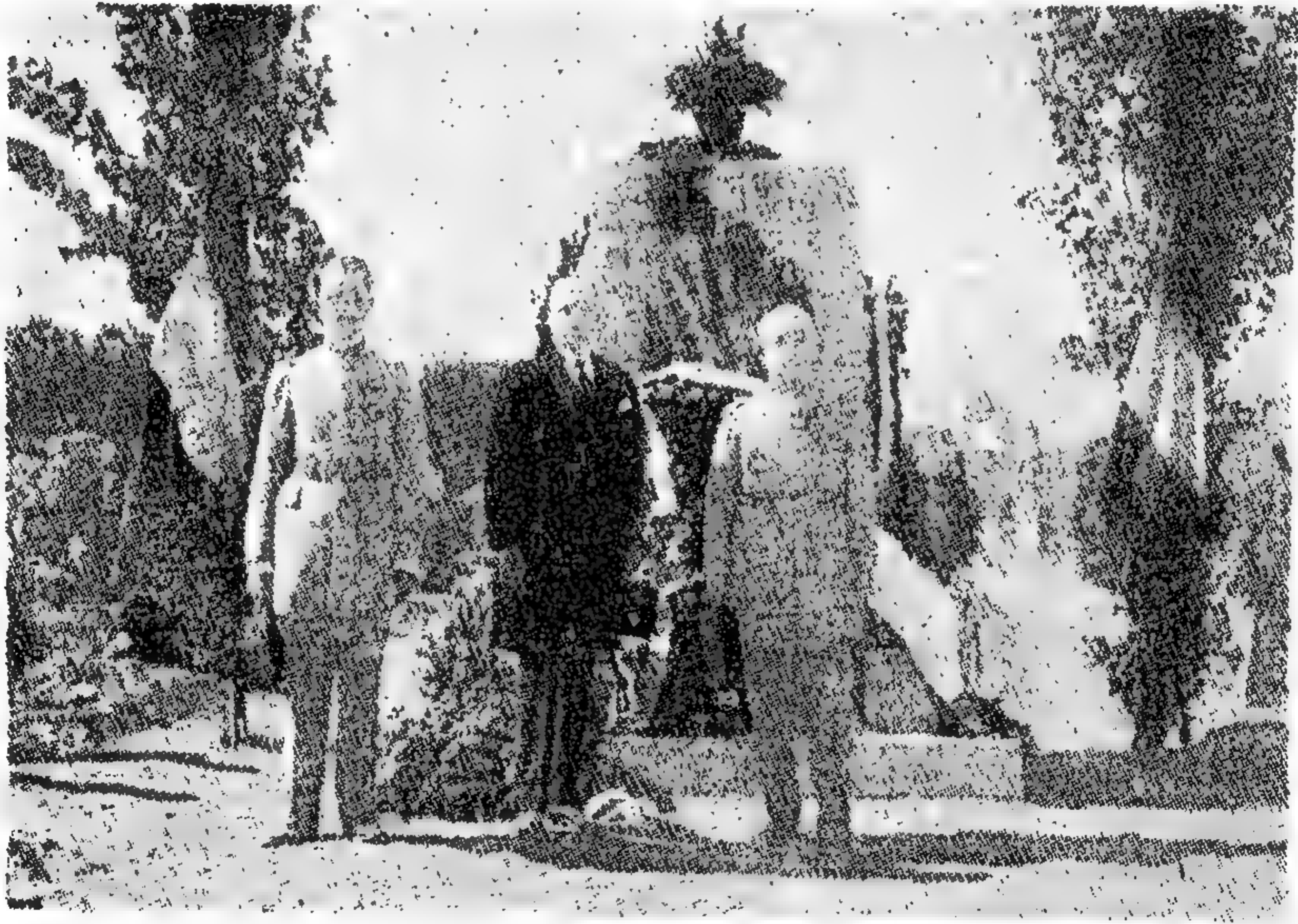
التطويق كما وصفه الفرنسيون

لقد كتب الفرنسيون في صدد تطويق الغوطة ، خلال شهر تموز عام ١٩٢٦ ، فصلاً في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ننقله فيما يلي :

« شطرت التجريدة «ب» الى فئتين : الفئة ب . ا بقيادة الليوتنان كولونيل « فان » التي كانت تشمل كوكبة ممتازة ، والكوكبة الثالثة من فيلق الصباحيين الجزائريين السادس بقيادة الكابتين « دي سرو » ، وكوكبة الشرق الثالثة بقيادة الليوتنان « غيار » ، والكوكبة ٢١ من الحرس السيار الشركية بقيادة الليوتنان « آغار لتلر » ، والفئة ب ٢ بقيادة الكولونيل ماسيه التي تشمل الكوكبات الشركية الخمس بقيادة الكابتين « كوله » ، وكتيبة فيلق المراكشين الخامس والستين .

اصبحت كوكبة « دي سرو » في مقر مجهول . ودخل الجيش « كفر بطنا » في منتصف الساعة الحادية عشرة . وقتل الليوتنان « دي كورسيه » ، وتقدم الليوتنان « آغار لتلر » ليرفعه فأصابته ثلاث رصاصات . وكانت إحدى فصائل الارتباط قد وجهت بقيادة معاون الضابط الخيال « كوسكه » صوب الكولونيل ماسيه فأختفت آثارها . وبينما كانت قافلة الذخيرة وخفراؤها

يدخلون كفر بطنا حوصروا ، فتجمعوا في إحدى الساحات ، وتولى الكابتن « رولسزيه » قيادة الكوكبة الممتازة وفلول كوكبة « اغار لتلر » ، واقبل فارس من كوكبة « دي سرو » الى كوكبته يحمل إليها الأمر بأن تقبل على كفر بطنا لإنقاذها ، فأتصل بها في « سقبا » ، فانطلقت مع الكوكبة السورية (غيار) ، فأضطرت هذه الأخيرة ان تنحرف الى الشمال من كفر بطنا ، فطوقها العدو ، وعزلها عن سائر الفصيلة . بيد أن كوكبة « دي سرو » تمكنت بعد عراك عنيف من موافاة الكولونيل « فان » عند الساعة ١٢ وربع . وفي الساعة ١٣ بينما كان الليوتنان كولونيل « فان » يقوم بطواف في صفوف الرماة الذين يقودهم الكابتن « دي رولسزيه » صرخته رصاصة قاتلة ، فولى في القيادة القوماندان « باليانكو » ، وزادت الحال جراحة . وكان رجال الارتباط



ضباط فرنسيون يزورون قبور قتلاهم التي بلغت عشرات الالوف في الثورة السورية

يقعون في قبضة العدو فيهلكهم ، وأصبح الاتصال بكوكبة (غيار) ، متعذراً . واعتصم المحصورون في المنازل . وكان الصباحيون والخيالة السوريون معزولين في الناحية الشمالية ، ولكنهم صمدوا طول الليل أمام غارات العصابات التي يقودها فوزي القاوقجي بنفسه . وكانت شردمة من الجيش احتلت المأذنة ، فأشعل العصاة فيها النار ، ونفروا حمايتهم ، وقفز الليوتنان « روفيلوا » ورجاله من إحدى النوافذ ، واستطاعوا ان يفتحوا ممراً أمامهم ، ثم انسل الثوار الى السطوح فهاجموا الصباحيين في البيوت التي استقروا فيها ، وجرحوا الليوتنان « بيجان » وعدداً من رجاله . ثم انقذ المحصورون في اليوم التالي من قبل الرماة المراكشين والشراكسة بقيادة « كوله » . كلفت الاعمال من ٢٠ الى ٢٥ تموز ١٩٢٦ من القتلى أربعة ضباط و ٦٨ رجلاً ، من الجرحى أربعة ضباط و ١٢٢ جريحاً .

مصرع الشهيد احمد مريود وفائق العسلي

- ٩٠ -

وجاء عن مصرع الشهيد احمد مريود ، والشهيد فائق وحكمة العسلي في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ما يأتي :

« في الايام الاخيرة من ايار ١٩٢٦ جمع كوله كوكبات دمشق الاربعة في سعسع ، في ٣٠ ايار ، فضم اليه في « خان أرنبه » كوكبتى القنيطرة . وفي الليلة التالية ، وكانت إحدى الكوكبتين منشأة حديثاً ، انطلق بقواته عدواً صوب « جببات الخشب » وهي على ثمانية اميال من هنالك ، وطوق البلدة ، ودهمها ، وتخلّى الثوار عن ٤١ جثة بينها رئيس العصابة واخوه ، و ٤٢ بارودة ، ورشاشة ،

- ٦٤٤ -

وكهية كبيرة من الذخائر ، في حين ان الشركس لم يخسروا الا قتيلين وثلاثة جرحى » .



ثلاثة من الشباب المشقف في الثورة السورية
الى اليمين الشهيد فائق العسلي

دور الشراكسة في الجيش الفرنسي

- ٩١ -

وجاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق عن متطوعة الشركس في الجيش
الافرنسي ما يلي :

« ثلاثئة الف شركسي هاجروا الى تركيا بين سني ١٨٦٤ و ١٨٧٨ ، فأحلهم
الباب العالي في مواقع السلطنة الغنية بأقليات نزاعة الى الفتن ، حيث حلوا في
« طراقية » ، والروملي الشرقية ، وفي شمال كردستان ، وفي ناحية ازميز ،
وفي سورية أخيراً . »

- ٦٤٥ -

وصل الليوتنان كوله الى الشرق سنة ١٩١٩ ، وبدأ عمله في كيليكية . وفي سنة ١٩٢١ عين ضابطاً للاستخبارات في سورية الشمالية (مصياف) حيث اشترك بحملة العلويين على رأس متطوعة الاسماعيليين والعلويين ، وجند بعض الشر كس ، ومنهم عثمان بك وتوفيق بك . وفي سنة ١٩٢٥ عند بدء الثورة الدرزية طلب أن يسوق في وجه الثوار كوكبته الأولى من الدرك السيار (الحرس) ، فأجيب الى طلبه . ومنذ ذلك الوقت لم يفترق عن الشر كس فأصبح روحهم الوثابة . وقد جمع كوكباته من مستعمرة شر كس سورية التي يقطنها ثلاثون ألفاً من السكان الذين انزلهم الاتراك تلك البقعة بجوار الصحراء لصد غزوات البدو والدروز . ومن الشر كس جماعات نازلة بين الفرات و حوران وفي ولاية حلب ، وفي سنجقي حص ودمشق ، على أن مركزهم الرئيسي منطقة القنيطرة .

اشترك عثمان بك وتوفيق بك الضابطان بحملة الكولونيل « ديموفر » سنة ١٩١٩ . وفي اخريات عام ١٩٢١ قامت الكوكبة الشر كسية في جيش « ديموفر » على الفرات بما لفت النظر اليها ، فاقترح الكولونيل « بيشو ديكلو » انشاء كوكبات أخرى مماثلة لها فلم يفلح . واستقرت الكوكبة الاولى من الدرك السيار في ناحية أدلب حيث كانت تطارد العصابات بشدة تحت قيادة الليوتنان كوله ، خلال سنة ١٩٢٢ - ١٩٢٣ . وحسبنا التنويه بحادثة جسر الشغور في ٢١ آب ١٩٢٢ ، وموقعة جبل سمعان حيث فرقت شمل العصابة التي أبادت في در كوش مواكبي قافلة البريد المنطلقة من انطاكية ، وتولت نزع السلاح من أقضية جبل سمعان وأدلب وجسر الشغور ، فجمعت (٣٦٠٠) بندقية في اخريات سنة ١٩٢٢ ، ثم استأصلت شأفة الشقاوة خلال سنتي ١٩٢٢ - ١٩٢٤ .

كان الليوتنان كوله ضابط الاستخبارات في مدينة حلب خلال شهر آب سنة ١٩٢٥ عندما اتصلت به بواذر النجاح الذي أصابه ثوار الدروز ، فسعى ، ورفع كوكبته الى (١٥٠) رجلاً ، وساعده عثمان بك على استكمال هذا العدد من القنيطرة . اشتركت الكوكبة الأولى بحملة الجنرال غاملان على السويداء . في ٢٤

أيلول ١٩٢٥ توغّلوا أمام الجيش ، واجتازوا السويداء ، ودخلوا القلعة ساعتين قبل الجيش ، وخسروا أربعة جرحى . وفي أثناء حملة رساس بذلوا فوق ما في وسعهم ، فأتى هذا الاختبار ثماره الناجعة في تشرين الثاني ١٩٢٥ ، وانبثقت كوكبات جديدة من الكوكبة الأولى . على أن هذه الأخيرة اشتبكت قبل حلول هذا الميعاد بأشد المعارك وأكثرها مشقة ، فقد أعيدت إلى دمشق حيث لم يتسن لها الالمام براحة أو قرار من ١٣-١٦ تشرين الأول إبان اشتعال الثورة في تلك المدينة ، فكانت تتوغل في الغوطة لمواقعة عصاباتهما ، وتعمل على نزع السلاح من القرى . وفي ليل ٢ - ٣ تشرين الثاني وقعت حادثة قلعة جندل فخسرت الكوكبة عشرة قتلى ، وثلاثة عشر جريحاً . وعلى أثر ذلك لم يبق من رجال الكوكبة إلا مئة فارس اتخذوا نواة للكوكبات الثلاث التي قررت القيادة أحداثها ، خلا الكوكبات التي يتألف منها حرس « كوله » الخاص . وخصص شهر تشرين الثاني بتجنيد أربع مئة رجل ، والعمل على تدريبهم وتجهيزهم ، فنظموا في الوحدات ، ووزعوا على ثلاث كوكبات تتألف كل واحدة منها من (١٥٠) رجلاً . وقد جند نصف هؤلاء الرجال من ناحيتي القنيطرة وحمص ، والحق بالفريق الشر كسي الجديد ثلاثة ضباط فرنسيين هم الملازمون « بوترى » و « روتشي » ، و « هرشان » . أما الضباط الجركس فقد اختير بعضهم من الزعماء الحربيين بالوراثة ، وانتقي البعض الآخر من معاوني الضباط في الكوكبة الأولى . وفي أواخر تشرين الثاني اشترك الفريق الشر كسي برمته بحملة الجنرال « مارتان » على مجدل شمس . وفي أول كانون الأول اكتسح قريتي « بقعاتا » و « مسعدة » ، بعد معركة خاضها فرسانه مترجلين ، فخسروا ثمانية قتلى فيهم الملازم سالم افندي ، واحد عشر جريحاً فيهم ضابط . وفي اليوم التالي تمكنوا من توطيد القدم في تخوم مجدل شمس ، بعد أن خسروا خمسة قتلى وعشرة جرحى ، ثم أعيدت الكوكبات الشر كسية إلى دمشق حيث اشتركت بتجريدة « فرن » التي أحدثت مخفرين في « أوتايا » ، وفي « حوش خرابو » من ١٤ إلى ١٦ كانون الأول . وفي اليوم الرابع عشر هزمت فريقاً من الثوار على مقربة من « حرستا »

وقُتلت منهم (١٥) رجلاً ، وغُنمت بارودة رشاشة . وفي ١٨ كانون الأول اثناء عمليات تطهير في الزور استولت كتيبة عثمان بك على قرية « حمورية » ، حيث تخلى العدو عن عشرين جثة . وفي ٢٩ كانون الأول طوقت « داريا » ، وجردت سكانها من السلاح . وفي ٣١ كانون الأول عام ١٩٢٥ اشتبكت مع العدو بقتال شديد في جنوبي « يلدا » وخسرت قتيلاً وسبعة جرحى . وفي خلال كانون الثاني عام ١٩٢٦ وشباط ١٩٢٦ انشئت كوكبة شركسية رابعة ، وأنيطت بالفريق الشركسي حراسة الأمن على الطريق والخط الحديدي اللذين يصلان بيروت بدمشق في قسمها الذي يخترق لبنان الشرقي ، واشترك في الوقت نفسه بحملة « فرن » على « بردى » و « ينطا » و « دير العشائر » . وفي ١٤ كانون الثاني انتزع من عصابة عكاشة في الاشرفية مدفعاً من عيار (٣٧) ، وكمية من الذخائر . وفي ٩ شباط استدعي كوله مع كوكبتين من فرسانه الى دمشق ، على أن يتولوا الإمداد الى مخفر احمد باشا (الاحمدية) ، فاشتبكوا مع الأعداء في مزرعة « الخيارة » ، وخسروا قتيلاً وثلاثة جرحى . وفي اليوم الثاني اشتبكوا في الحلوة بعصابة شكيب وهاب فخسر الشركس (٢١) قتيلاً بينهم الادجودان اسكندر بك ، و (١٦) جريحاً ، ثم انحدر الفريق جنوب دمشق ، وقاتل الثوار مرات حول المدينة ، واشترك مع تجريدة « فرن » باعمال التطهير في منطقة « ينطا » ، و « الهامة » وخسر قتيلاً وجريحين . وتُركت في الديماس كتيبتان بقيادة الليوتنان « هرشان » ، فتمكننا من إقرار النظام في تلك المنطقة . ووجهت كوكبتان الى دمشق (الملازمان كوله والساندري) فساهمتا في الحركات على الغوطة حيث وقعت حوادث دوما - اوتايا في ٣ - ٥ آذار ١٩٢٦ التي خسر فيها الشركس ثلاثة قتلى و ١٢ جريحاً ، وحين إخلاء مخفر احمد باشا (الاحمدية) في ٨ آذار خسروا اربعة عشر جريحاً . وفي خلال ذلك انشئت كوكبة خاصة ، فرأى الليوتنان كوله عندئذ ان يدفع في الفريق الشركسي بعض العناصر من الاسماعيليين والاكراذ والدروز والبدو فجاء هذا المزيج بالنتائج الباهرة . زد الى ذلك انه وسع المجال أمام هذه الوحدة من الجيش لاستقصاء ما يفيدها من المعلومات ، وتحري الأخبار من مصادرها

الراهنه ، وحثمت القيادة الا يكون ارتباط الكوكبات الشركسية بالقوى النظامية ارتباطاً تقييدياً ، بل أن تكون مهمتهم الرئيسية مطاردة العصابات وإبادتها ، وتركت لهم أوسع الحريات من هذا القبيل . كان بدء الحملة الربيعية شاقاً على الفريق الشركسي . واذ كانت العصاة يزعجون السكان الشركس في القنيطرة ، وجهت عليها اربع كوكبات (الملازمان هرشان والساندري) ، بيد أن عصابة كثيفة تناهز (٢٢٠٠) رجل هاجمت فرسان الشركس ، بينما كانوا يجتازون قطناً ليلاً . وكانت مفاجأة تعيد الى الذهن مثلها في قلعة جندل ، واستشرى القتال ، فروع المهاجمون ، وانهزموا تاركين على الحضيض (٤٢) جثة ، وخسر الشركس ٧ قتلى و ١٥ جريحاً ، واشترك الفريق بعد القنيطرة بحملة «مارتان» على مجدل شمس ، وكانت كوكباته أول من دخلها في ٣ نيسان ١٩٢٦ ، بعد ان قامت بغارات عديدة شاقة فقدت خلالها سبعة قتلى وخمسة عشر جريحاً ، منهم ضابطان . وانطلق الفريق بعد هذه الموقعة الى دمشق ، ما خلا كوكبة ابراهيم بك التي استقرت في قطناً حيث كان يخرج مراراً على العصابات المربطة في الغوطة . وفي ذلك الوقت الحق الملازمان « رولان » و « فاليه » بالكوكبات الشركسية .

وفي ١٥ - ١٦ من حزيران اشترك الفريق بحملة التجريدة الثانية على النبك ، وارتبط في مضيق « رنكوس » بتجريدة « ارنو » ، وتراجعت عصابات فوزي في « رنكوس » ، و«عقوبر» امام الغارة التي اغارها صباحيو الكولونيل «فان» وكوكبات الشرق والشركس على الهضاب التي كانت تنهال منها نيران الثوار . وبعد ان قام الفريق بجولة في حرمون ييم دمشق ، وأنشئت عندئذ كوكبتان جديدتان (الليوتنان كوتين وديفاري) فاصبحت الكوكبات الشركسية ثمانية ، وبوشرت في اواخر حزيران أعمال التطهير في الغوطة ، فتم الزحف المركزي على الغوطة من ١٩ - ٢١ تموز ، اشتركت فيه ست كوكبات شركسية ، خمس منها بقيادة كوله في جيش « ماسيه » ، والتحقّت السادسة بقيادة هرشان في

جيش كوكاناس ، وفي اليوم التاسع عشر تقدمت الجيش كوكبة الملازمين هرشان وفاليه ، وانطلقت عدواً الى برزة ، فسقط منها أربعة قتلى وسبعة جرحى ، وفي اليوم العشرين استولى فريق كوله على مزرعة « بالا » مقر العصاة العام ، بعد أن اشتبك بعراك عنيف خسر اثنائه (٢٨) قتيلاً فيها الملازمان قاسم بك ، ومصطفى بك ، و (٣٥) جريحاً بينهم ضابطان . وفي صباح الغد انطلق الملازم كوله على رأس فريقه ، واستوى بهم في مقدمة المراكشين فاغار على كفر بطنا حيث كانت فصيلة الكولونيل « فان » ما برحت محاصرة من الأمس ، فاستولى عليها . وفي الأيام التالية قامت كوكبتان شر كسيتان بنزع السلاح من منطقة المرج ، فتحررت اثني عشرة قرية ، وجمعت (١٢٠٠) بارودة ، وقتلت (٢٤) شقيماً ، وفي

خلال آب زحف الجيش على حرمون الذي

كانت الفتن تغلي في أرجائه . وفي ٢١

آب انتحى كوله جبل بربر على رأس ست

كوكبات ، قطع مسافة عشرين ميلاً في

الليل ، واحتل قمته قبل الفجر ، ثم

انحدروا على الدروز بالقذائف ففاجأهم ،

وأزاحوهم عن مراكزهم فوراً ، ودفعوا

بنيران البنادق جماعات العصاة الذين

كانوا يقبلون لاحتلال مراكز

القتال ، والتوى الفريق الى دمشق

في مبدأ أيلول ١٩٢٦ ، ثم انطلق

منها في الثامن من أيلول الى لبنان الشرقي ليتولى تطهير تلك المنطقة ، فخرج

الليوتنان هرشان بكوكبتين من الشمال ، وسار كوله بثلاث كوكبات من شرقي

دمشق ، وتقدم جيشه على سيارة « فورد » كعادته ، فلما وصل الى مسرابا وقع

أحد الاشقياء جريحاً في قبضة رجاله ، فأنبأه أن عصابة عز الدين (الأمير

عز الدين الجزائري) التي انضم اليها فريق من عصابة عكاشة ، أصبحت



الشهيد الامير عز الدين الجزائري

نشتمل على ١٨٠ رجلاً، وهي ما تزال في تلك الضواحي ، ثم وافت الكوكبات قائدها ، فأحل ديفاري في الميسرة ، و كوكبة توفيق بك في الميمنة ، وانطلق بكوكبة كوتين مواجهة للعدو ، فلم يشعر العصاة الا والفرسان شدت عليهم ، فبعثرت جموعهم ، وطوردوا بنشاط ، فخسروا خمسين رجلاً ، ومدفعاً رشاشاً ، و ٢٤ بارودة ، و ٣ بنادق رشاشة ، وخسر الشركس قتيلين و ٣ جرحى . وفي ١١ - ١٢ أيلول اشتبك الشركس بمعارك شاقة على ذرى بير جبة الصخرية (شمالي بير رجب) ، واستولوا على بارودتين رشاشتين ، ولكنهم خسروا خمسة قتلى فيهم ضابطان هما الملازم اسلام ، والملازم مصطفى زكريا ، ثم رجع كوله بفريقه الى دمشق . وفي ٢١ أيلول خرج في ثلاث كوكبات ، وتمكن من الأحداق بفلول عصابة عكاشة في جبل قاسيون ، وقطع اوصالها . وانتظمت الكوكبات الشركسية بعد ذلك في تخوم اللجاة الشرقية على نمط تستطيع معه مراقبة العصابات الأخيرة التي لا ذت بتلك البقاع ، بعد ان نفرت من الغوطة وحرمون ولبنان الشرقي ، ورابط الليوتنان ديفاري مع كوكبتين في «بويضان» من أجل هذه الغاية . وفي ليل ١٩ تشرين الأول حلت عصابة مؤلفة من (١٥٠) رجلاً انتحيت «دير علي» على طريق «براق» ، فتعقبها على الفور كوكبتا ديفاري واشتبكتا معها عصر يوم ٢٠ منه في «مزار زغير» ، فتمكنت من الانفلات ، وطافتا وراءها زهاء يومين ٢٠ و ٢١ تشرين في الناحية الشرقية من الكسوة ، ورجعتا الى دمشق في ٢٢ منه . وفي صباح ٢٣ تشرين الأول جاء ان العصابة في الزور حيال كفر بطنا ، وعلى رأسها فوزي القاوقجي ، والامير عز الدين سليل عبد القادر الجزائري ، وهما أشد خصومنا خطراً ، فخرج اليها كوله في أربع كوكبات زحفت الى المنطقة الميمنة ، واذا بنار الرشاشات تنصب على ميمنتها من الزور ، فأغارت كوكبة اليمين على العدو ، وأصابته رصاصة رأس الكابتين رفيق بك عندما كان منطلقاً صوب إحدى الرشاشات ، فاستولى رجاله عليها ، واندفع الفريق برمته الى المعترك فوراً فدار رحي القتال بين الجنائن ، وأخذت كوكبة «رولان» تحت نار من الاسلحة الاوتوماتيكية فسقط من رجالها (١٥)

قتيلاً في بضع دقائق ، وجرح الليوتنان « رولان » والكابتن فـؤاد بك ، واستولت كوكبة فاليه على ثلاث رشاشات ، واستولى معاون الضابط الخيال الحاج بي ذو البأس المشهور على رشاشة واحدة ، بعد أن صرع سبعة أشقياء ، ثم قتل ستة آخرين اثناء الطراد ، فأنهزم العصاة عند الظهيرة ، وابتدأ الطراد ، وقتل إبانة الكابيتان عثمان بك من رصاصة تناولته عن بضعة امتار ، بينما كان المسدس في قبضته ، فصرع قاتله الليوتنان هرشان .

وفي منتصف الساعة الرابعة عشرة تمكنت فلول العصابة من الانسحاب والتوغل . إن هذه الواقعة الرئيسية (المعروفة في الثورة بمعركة عين ترما) في تاريخ إبادة العصابات قد أزالـت أشدهن خطراً من حيث البأس والعدد والتسلح ، فقد خسرت في ٢٣ تشرين الاول (٦١) قتيلاً بقيت جثثهم على الحضيض ، بينهم سبعة من قدماء ضباط الاتراك او الفيصليين ، او رؤساء العصابات ذوي الشهرة ، ونزعت منهم اربعة مدافع رشاشة ، وبارودتين رشاشتين ، وستين بندقية ، وصناديق ذخيرة ، واجهزت في الرابع والعشرين كوكبة هولـو الشركسية في منطقة سعسع على العصابة حيث قتلت ثلاثين رجلاً بينهم شوكت بك العائدي معاون فوزي . وفي اليوم الخامس والعشرين صرعت كوكبة « ديفاري » في دير الحجر عشرة رجال من عصابة جاءت لنجدة الاولى ، بيد أن الشركس قد أدوا عن هذا النصر ثمناً غالياً فقد فقدوا (٣٥) قتيلاً و (١٤) جريحاً فيهم رهط من أنصع وجوه ذلك الفريق ، فهناك الكابتن عثمان بك اقدمهم عهداً ومن أشدهم بأساً الذي كان له من النفوذ في قومه ما مكن كوله من انشاء كوكباته ، والكابتن رفيق بك الذي انخرط في صفوف النار من بضعة شهور ليحل محل شقيقه صالح بك المقتول في ٢ كانون الاول ١٩٢٥ ، وسبق له فقد ثلاثة من أنسبائه في الصفوف الشركسية حيث ما برح منهم عدد وافر ، فلما قتل افرزوا رجلين من لفيهم ، فانطلقا ليعودا بجثمانه تحت رشاش الرصاص ، واستمروا على القتال للشأركه ، واخيراً قتل الفتى الدرزي سعيد ، وله من العمر ١٨ سنة ، فقد كان سائق سيارة

كوله ، واشتهر بين رجال الفريق بعدم الاكتراث والمبالاة ، وبإخلاقه لرئيسه ، وهو لكثرة ما خرق سيارته من الرصاص أصبح يعتقد أنه معصوم من الجراح .

وساهم الفريق الشرکسي بأعمال وادي اللواء من ١٨ - ١٩ تشرين الثاني ، إذ قام في ٢٧ تشرين الثاني مع الكوكبة الدرزية بغارة على قريتي لهيث ودكير . كذلك الكوكبات الشرکسية المرقومة من ١٢ - ١٩ ضربت فلول العصابات خلال ايار ١٩٢٧ ، وكان الكابتين كوله مرابطاً على رأس خمس منها عند تخوم اللجاة ، بينما ثلاث ترابط في جنبات دمشق . وفي ١٧ أيار ترك الأمير عز الدين الصفا حيث كان لاجئاً ، ودخل الغوطة على رأس عصابة مؤلفة من خمسين فارساً ومئة راجل ، ومر بالنشابية ، وانطلق الى بيت نعيم ومزرعة بالا فوجهت الكوكبة الثالثة عشرة تؤازرها مفرزتان من السيارات الرشاشة ، وهاجمته عند الساعة ١٦ على مقربة من بالا ، وفي الساعة ١٧ وصلت الكوكبة التاسعة عشرة فالكابتين كوله ورجاله . ودار قتال عنيف ، والتوى العدو نحو الشرق ، وتوغل في ادغال الزور ، يحميه ستار من الليل . وتفككت العصابة لما حل بها من الويل ، وتجزأت اقساماً ، فتأثرتها الكوكبات في نهاري ١٨ و ١٩ ، وطاردها بنشاط . وفي التاسع عشر من ايار ادركت الكوكبات عند « ديريج » في الجنوب الغربي من منين عصابة كبيرة من العصاة يقودها عز الدين نفسه ، فثارت الواقعة ، وطوق الاشقياء ، فاعتصموا في مغارة دافعوا في اكنافها دفاع الحبيس ، وانتهى الامر بمصرعهم ، إذ فرقهم القذائف بعد صدام بالاجساد سقط خلاله حامل العلم الحاج بي بطل الفريق الشرکسي ، ذو الشجاعة النادرة المثال . ودمرت عصابة عز الدين (الامير عز الدين الجزائري) تدميراً ، فقد سقط من رجالها (٤٠) قتيلاً ، ووقع في الاسر (٢١) رجلاً فيهم عشرون جريحاً . وقتل رئيسها ومعاوناه . أما الناجون من الموت ، وهم اربعون رجلاً ، فقد طرحوا السلاح ، واستسلموا ، وخسر الشرکس في هذه الحادثة اربعة قتلى و ١٧ جريحاً .

لقد سقط ثلاثئة شر كسي في ساحات الشرف خلال السنوات ١٩٢٥ و١٩٢٦
و ١٩٢٧ . «



ضباط وجنود من الكوكبات الشركسية في خدمة الاستعمار

عصابة تستقر سنتين في مدينة حمص

- ٩٤ -

لم تهدأ عصابة نظير النشواتي التي استوطنت حمص ، واختفت سنتين في منازل أحيائها الشرقية ، بل ظلت تنشط لفرض الأتاوات على الاغنياء ، وتتلقى تبرعات الوطنيين ، والإفرنسيون على علم بوجودها في المدينة ، عاجزون عن القبض عليها ، لأن آل حي باب دريب وما يجاوره من الأحياء الشرقية فتحوا منازلهم للعصابة ، يخلون المنزل من النساء والأطفال لتقيم فيه العصابة يوماً او بضعة ايام ، ثم ينقلونها في الليل الى منزل آخر ، حتى لا يكون المنزل كشف أو حامت حوله عيون الجواسيس . وقد احاط الوطنيون في الحي واقرباء البارزين فيه بالعصابة بحماية دقيقة ، فكانت ثكنات الجيش ، ومقر قوات الدرك والشرطة في المدينة تحت رقابة شبكة من شبان تلك الأحياء في النهار . كذلك الطرق المؤدية إلى مكمن العصابة ، كان يجلس ، او يحوم حولها النهار كله مراقبون منهم ، فإذا ما خرجت من إحدى الثكنات او دار الحكومة ، او مخافرها قوة في أي ساعة من ساعات النهار ، أو اول الليل ، يخشى جانبها ، قام المراقب من أهل تلك الأحياء بلفت نظر المراقب الثاني القريب منه ، وهكذا تنتقل الإشارة نفسها الى المراقب الثالث ، فالرابع .. وهكذا دواليك حتى يصل الإنذار بلمح البصر الى العصابة ، قبل أن يمضي وقت على حركة القوة الحكومية من ثكنتها او مقرها ، فتعلم العصابة أن قوة تحركت من مقرها قد تكون وجهتها مكمنها ،

فتنتقل العصابة فوراً من المنزل الذي كانت فيه الى منزل جديد حذر أن تكون السلطة ، عرفت بشكل او آخر ، مقر العصابة ، وتستعد العصابة للدفاع . وقد انتقلت مرة يوم كنت في حصص مع العصابة ، في رابعة النهار ، من منزل في حي باب دريب الى منزل آخر ، واضطررنا ، ونحن بضعة عشر مسلحاً ، ان نمر بسوق الحي ، على مرأى ومشهد من جميع الناس الذين كانوا يروننا ، فنسمع منهم الدعوات والابتهال الى الله أن يحفظنا ، ويعمي عنا عيون العدو ، وينصرنا عليه . وقد كدت أجن مرة من هذا الانتقال في رابعة النهار على مرأى من مئات العيون التي رأتنا في الطريق ، فقليل لي يومئذ : « لا تخش هذه العيون ! إنها عيون أهل الحي ، ليس بينها عينا غريب ! إننا نخشى ان تكون السلطة كشفت بوسائل مخبراتها مقرنا ، لذلك يجب ان ننتقل الى منزل آخر لنفوت عليها فرصة تطويقنا فيه . أما المنزل الجديد فلا نخشى عليه عيون الناس في سوقنا وازقتنا ، فهي عيون أهل الحي ليس بينهم خائن ولا جاسوس ، بل هي عيون تحرسنا ، وتحذرنا من كل حركة أو سكنة ترتاب فيها !.. » . وكنا يوماً في أحد المنازل وصادف عيد لدى الطوائف المسيحية ، وإذا بأحد اخواننا غير الثائرين يدخل علينا البيت ، ويخطرنا مضطرباً أن فوزي الملكي متصرف حصص وصل الآن الى حي الحميدية لزيارة احد وجهاء المسيحيين مهنئاً بالعيد ، فبادر بضعة مسلحين من العصابة نهراً الى الحي لقتل المتصرف ثأراً للتسعة شهداء الذين كان اقترح المتصرف قتل أربعة منهم فوراً في محطة « خربة التين » ، وإذاعة خبر مصرعهم في معركة لم تقع ، ثم نقل الباقين الى حصص ، في ساعة متأخرة من الليل ، للتحقيق عن هوياتهم ، ثم قتلهم . وقد أعتبر شريكاً في حمل مسؤولية القتل التي ارتكبتها الفرنسيون ، ولكنهم وصلوا الى المكان بعد ان غادره المتصرف .

بعد سفري مع جميل العلواني الى حماة ببضعة أشهر تقدم خيرو الشهلا شقيق الشهيد سعيد الشهلا ، الى عصابة النشواتي في حصص ، وعاهد افرادها على قتل متصرف حصص ثأراً لدم أخيه الشهيد ، ثم اخذ يتربص الفرصة ، وقد أعد مدية ،

والاصح حربة بثلاثة حدود قاطعة كان يحملها معه دوماً لقتل غريمه . وفي مساء يوم بينما كان المتصرف يسير مطمئناً الى بيته ، وقد اصبح على بعد بضعة عشر متراً منه ، هاجمه خيرو الشهلا ملثماً بلباس أعرابي ، وطعنه طعنة نجلاء بمديته خرقت الظهر الى الأحشاء ، وقطعت كليتيه ، وسحب المديّة بسرعة ، فظن المحافظ (المتصرف) إن الرجل المثلث ضربه بقبضة يده على ظهره للتحقيق ، حتى إنه حاول نزع اللثام عن وجه خيرو الشهلا الذي ابتعد عنه وسارع المتصرف يضغط جرس منزله بشدة ، اضطرت معها زوجته لان تفتح الباب بنفسها ، فوجدت زوجها منفعلًا يسب ويشتم ، فسألته ما خطبه ، ولما اخذ يروي لها ان بدويًا ملثماً ضربه بقبضة يده على ظهره ، لاحظت الدم يسيل من فرجة بنطاله ، ويفضي الارض ، فصاحت الدم ! . الدم ! . وما وقعت عيناه على الدم حتى سقط مغمى عليه ، فحمل من الباب الى المنزل ، واخبرت السلطة الفرنسية والاطباء بالامر ، ورغم جميع الجهود التي بذلت ، والطائرات الخاصة التي حملته من حمص الى حلب ليكون تحت اشراف أمير جراحيا ، فانه فارق الحياة . وقد فرضت السلطة الفرنسية إثر موته بضعة آلاف ليرة ذهبية غرامة على مدينة حمص ، ثمناً لدم فوزي الملكي ، دفعتها المدينة ، وكأنها في فرحة عيد لخلاصها من متصرفها العميل .

مصرع عبدالله الشوكس بعد الملكي

ووصل نبأ مصرع متصرف حمص إلى أثري حماة الذين كانوا رافقوا سعيد العاص الى الضنية ، ثم بعد أخمد ثورتها انسحبوا من الضنية ، وتسلموا ، دون سعيد العاص ، الى مدينة حماة ، وأختفى أكثرهم في حي الحاضر الشرقي العاصي من المدينة . قرأوا أن يقتدوا بعصابة حمص ، ويلاحقوا عبدالله الشوكس قائد درك حماة بمتصرف حمص ، فتقدم اليهم رزوق نصر احد شبان حي الحاضر متطوعاً لأغتياله ، فقد كان هذا الشاب اعتقل إثر فشل ثورة حماة ، بتهمة علاقته

بالثورة ، وضرب ضرباً مبرحاً ، وعذب من قبل عبدالله الشر كس المجرم المحكوم عليه في سجن حمص ، والذي اخرجته مستشار حماة من السجن بعفو من المفوض السامي الفرنسي ، وولاه قيادة درك حماة . وكان رزوق نصر يتحمل التعذيب اليومي برجولة ، حتى اذا انتهى قائد الدرك من تعذيبه في كل مرة ، كان يقول له : « عذب يا عبد الله ! واضرب بسوطك اليوم ما شئت ان تضرب .. سأخرج يوماً من هذا السجن ، وسيكون لي موقف معك ! .. » ، فيعود عبدالله الشر كس لضربه وتعذيبه حتى تنهد يده . وكانت مدة السجن التي حكم بها رزوق من قبل المحكمة الاستئنائية انقضت ، وخرج من السجن يتردد على نائري حماة في مكائهم ، ويجمع اليهم ، فظهروا له استعدادهم لمساعدته ، عند اقامه على اغتيال عبدالله الشر كس ، فأخذ يترقبه حتى علم يوماً انه مدعو للافطار في رمضان على مائدة آل السفاف ، في حي الحاضر . وقبل موعداً الافطار ، تقلد رزوق نصر بندقية تحت عبائه ، حسب الخطة التي رسمها مع عصابة حماة ، وجلس على كرسي بجانب دكان في سوق الحي يترصد منه وصول المدعويين ، واكثرهم من الموظفين ، الى بيت السفاف .

وصل عبدالله الشر كس قائد الدرك وحارث آمر جباة المالية ، وهو شركسي ايضاً ، يسيران متاهلين ، حتى يصلا قبيل اطلاق مدفع الافطار بدقائق قليلة . ولما وقعت عينا رزوق على غريمه ، نهض من كرسيه ، وتمشى حتى اصبح وراءه ، ومد بندقية من مسافة لا تزيد عن المتر مصوباً فوهتها الى رأسه ، وصاح به : « خذها يا عبدالله من يد رزوق نصر ! .. » ، والتفت عبدالله الشر كس . ولكن الطلقة اصابته بالدماع ، وشالته عن الارض ، ثم انطرح لا حراك به ، وخطا رزوق مبتعداً عن المكان ، ولكنه خشي ان تكون طلقاته غير مميتة ، فرجع ، ونظر الى وجه غريمه فوجد العين لا أثر لها ، والجمجمة محطمة ، عندئذ أسرع متغلغلاً في الارض التي كان يحرس مداخلها الثائرون رفاقه ، موزعين هنا وهناك ، وانتقل الجميع من حي الحاضر الى حي السوق

من جسر على العاصي ، بعيد عن مراكز الحكومة ، وفي غبشة المساء تسللوا الى منزل وجيه مسيحي في حي المدينة معروف عنه انه من اصدقاء فرنسا ، وهناك جلسوا الى مائدة اعدت لضيافتهم ، بينما كان الجيش الفرنسي يطوق حي الحاضر ، ويتحراه منزلاً منزلاً ، بحثاً عن القاتل الذي لم يخف نفسه ، فقد رآه الكثيرون وهو يصارع عبدالله الشركس الذي جاءت به فرنسا لإرهاب اهل حماة . ولما يشسوا من القبض عليه ، فرضوا على حي الحاضر الفي ليرة ذهبية غرامة دفعها الأهلون في الموعد المحدد لها ، وكأنهم في عيد لخلاصهم من هذا العميل المحرم .

أشدت الفرنسيون بعد هذين الحادثين في البحث عن الثائرين الذين اتخذوا مدينتي حمص وحماة مقراً لهم ، يفتالون اخلص العملاء ، واستطاعوا مرة ان يهتدوا الى مقر عصابة حمص في منزل كانت تكمن فيه ، وطوقوا المكان ، وجاء النذير للعصابة بعد فوات الوقت ، فخرج من المنزل سعد الدين (سعدو) شقيق نظير الذشواتي الشاب ، وهو غير ثائر ، وكان في زيارة اخيه وعصابته ، واستقبله الجند عند خروجه من الباب برصاص بنادقهم ، وصرعوه ، وانطلق الثائرون الى سطح المنزل ، ونازلوا الجند ، واصابوا منهم ، والقوا عليهم رمانات يدوية بعثرتهم ، وقفزوا من الأسطحة الى الازقة خارج التطويق ، ونجوا بأنفسهم .

ولما استعصى امرهم على الفرنسيين جلبوا أمهر جواسيسهم الى حمص لعلمهم يهتدون يوماً الى مخبئهم ، ووظفوا نساء في دوائر مخبراتهم يطفن بحجبات في حي باب دريب وغيره من الأحياء الشرقية ، وحول منازل أسر الثائرين يلجتها اذا ما وجدن باب احدها مفتوحاً . وينتجلن شتى الأعذار لرؤية ما في الدار ، والعثور على أثر للعصابة . فأضطر افرادها لأن يكلفوا اناساً من اقربائهم ومساعدتهم غير الثائرين لاقتفاء أثر كل امرأة غريبة يشتبهون بأمرها حتى اذا رأوها تدخل دوائر المخبرات ، وتأكدوا من انها عين للفرنسيين اغتالوها في دارها او في الطريق ، وبذلك انقطع دابر هؤلاء النسوة العاملات في الجاسوسية

الافرنسية ، واغتالوا مرة جاسوساً اسمه رشيد اصله من المغرب ، كان والده معلم اللغة الافرنسية في تجهيز حماة ، جاء به الفرنسيون من حماة ليكشف لهم مقر العصاةة في حمص ، وحمل الجاسوس إثر اصابته بالرصاص الى حلب بالطائرة حيث أجريت له عملية جراحية سريعة نجحت ، ولكنه فقد إحدى عينيهِ ، فلما أعاده الفرنسيون الى حمص ليستأنف نشاطه أرسل الى الثائرين يطمنئهم بأنه لن يعمل ضدهم ، وانه سيخدمهم ، وسينقل اليهم كل ما يتصل به من نشاط الفرنسيين ضدهم ، لقاء وعد منهم ألا يغتالوه ، ولا يؤذوه ، وتوطدت صلاته بهم ، حتى أصبح يسهر احياناً معهم ، ويزورهم في بعض المنازل التي كانوا يلجأون اليها ، وبذلك نجا من رصاصهم ، ونجوا هم من تجسسه عليهم ، وأفادوا من عمله في المخابرات . وكان عبد الفتاح النشواتي شقيق نظير النشواتي الاكبر ، ويعرف بالحاج دلال ، ترأس العصاةة إثر عودتها من جبال اكروم ، وكان بنفسه يدير عمليات فرض الأتاوات على الأغنياء بأعتباره خبيراً بشروات اغنياء المدينة التي لم يفارقها الى ميادين الثورة ، ويستخدم اسم أخيه نظير الذي ذاع صيته اثر نجاحه من الموت في حادث رميه بالرصاص .

ولما اعين امر العصاةة الفرنسيين شجعوا ابن عم نظير النشواتي ، واسمه جميل ، على اغتيال الحاج دلال ، فاغتاله ، ولجأ الى الفرنسيين لعلهم يحمونه ، ولكنهم لم يستطيعوا حمايته طويلاً ، فقد تمكن عمر المحرص من أصدقاء الثائرين أن يقتله ، ويلجأ اليهم ويصبح في عدادهم . وقد ظلت عصاةة حمص من أول صيف عام ١٩٢٦ الى ربيع عام ١٩٢٨ تخل بأمن المدينة ، وتستهتر بالفرنسيين وجيشهم ومخابراتهم ، حتى دعا «مسيو يونسو» المفوض السامي الفرنسي في عام ١٩٢٨ الشعب السوري الى انتخاب مجلس تأسيسى يضع للبلاد دستوراً ، وأقام لهذا الغرض حكومة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسيني نجل المحدث الاكبر الشيخ بدر الدين الحسيني ، وحدد موعداً للانتخابات ، عندئذ توجه القوماندان « كوله » من كبار ضباط المخابرات في دار المندوب في دمشق مع الكوكبات

التي أحدثها في الثورة من متطوعة الشركس وغيرهم الى مدينة حمص ، وفرض الأحكام العرفية فيها ، ومنع التجول على أهلها ، واخذ يطوق الأحياء واحداً بعد آخر ، ويتحرى المنازل بيتاً بيتاً ، فاضطر نظير النشواتي وخيرو الشهلا وعمر المحرص لأن ينتقلوا من المدينة الى البساتين يختفون فيها .

الجندي المجهول

- ٩٥ -

لما انتهى « كوله » من تفتيش الأحياء المشتبه بها ، وفاجأها مرة بعد مرة ، حول جهوده الى البساتين . وكان الثلاثة يختفون في طاحون الجديدة على مقربة من المدينة . وقد عطل صاحب الطاحون من أجلهم العمل فيها بحجة عطل طراً عليها يحتاج إصلاحه الى وقت طويل . وبينما كان الثلاثة جالسين للغداء يأكلون من سمك اصطاده صاحب الطاحون ، واذا بباب الطاحون يقرع ، ويدخل فلاح يسأل عن شربة ماء ، فقال له نظير النشواتي : « أكل ماء العاصي الذي امامك لم يرق لك فجئت الى هنا تبحث عن شربة ماء ؟ .. » ومد يده الى بندقيته يريد قتله ، مؤكداً أنه جاسوس ، ولكن خيرو الشهلا قال له : « دع الفلاح الفقير ، فقد يكون غريباً لا يعرف العاصي من قبل ! .. » ، وأعطاه ماء ، وما كاد الفلاح يبتعد عن الطاحون حتى طوقها جيش كوله ، ففزع الثائرون الثلاثة الى مخبئهم في قلب الجغل الذي يدير الطاحون بقوة شلال الماء ، وقبعوا في فجوة منه لا يأتياها الماء ، ولا يمكن لأحد ان يخطر له على بال أن هناك انساناً يستطيع ان يختبئ فيه ، والماء يتدفق من الشلال ، والجغل يدور بقوة هائلة . وكان صاحب الطاحون أوقف تدفق الماء ، ولما استقر الثائرون الثلاثة في مخبئهم ، عاد فاطلق الماء ، ودارت ناعورة الجغل بشدتها المعهودة . ولما طرق الجندي باب الطاحون

فتحه صاحبها ، واذا بالقومندان كوله وجنده والفلاح الجاسوس يدخلون بحثاً عن نظير النشواتي ورفيقه ، والسماط ما يزال ممدوداً في باحة الطاحون ، فلم يستطع صاحب الطاحون انكار وجودهم قبل وصول الجند ، وانما ادعى انهم فروا من الطاحون عندما شعروا باقتراب الجيش منها ، واوغلوا في البساتين ، وكوله يؤكد ان الطاحون مطوقة قبل دخول الفلاح الجاسوس اليها ، ولا يمكن لإنسان ان ينفذ من التطويق ، وان نظير ورفيقه في مخابئ في الطاحون ، وبدأ التعذيب ، وضرب صاحب الطاحون ضرباً مبرحاً ، ولم يدع الجنود مكاناً في الطاحون الا وتحروه ، وهو يصر على ان ضيوفه رغماً عنه غادروا الطاحون قبل دقائق ، ولا يعرف أين ذهبوا .. واستمر التعذيب المميت ساعات من الظهر الى بعد العصر ، يغمى على الرجل فيصب على وجهه الماء فيصحو ، ثم يعودون الى تعذيبه حتى يغمى عليه ، وحتى لم يبق لجسم بشر ، مهما اعطي من قوة ، ان يحتمل ، فصاح صاحب الطاحون بجلاديه ان اوقفوا التعذيب فسأهديكم الى مخابئ الثلاثة .. وتوقف الجند عن تعذيبه بأمر القومندان « كوله » ، وتحامل على قدميه ، وسار امامهم الى مكان يطل على النهر ، والقى بنفسه في الماء محاولاً الهرب ، ولكن رصاص الجند صرعه ، فمات شهيداً ، وبذل روحه فداء لضيوفه الثائرين الثلاثة ، وانسحب كوله بقواته يبحث في اماكن اخرى عن نظير النشواتي ورفيقه . ومكث هؤلاء في مخابئهم الأمين الى الليل ، وانتقلوا منه الى مخابئ آخر . وظل كوله يتحرى منازل المدينة حيناً ، ويفاجئ البساتين حيناً ، وهو يعرف ان مخابئ العصابة فيها ، حتى واثاه الحظ مرة ، وفاجأ الثلاثة مختبئين في غابة من القصب بجانب ساقية ماء في البساتين ، فالقى نظير النشواتي وخيرو الشهلا نفسيهما في القناة عندما شعرا باقتراب الجند ، وصاحا برفيقهما عمر المجرص ينبهانه ، ولكنه كان ثقیل السمع لم ينبه صوتهما ، وهو مضطجع في مخابئه ، فلما أصبح الجند حوله حاول الهرب ، ولكن الرصاص كان أسرع اليه فقتل شهيداً ، ونجا الاثنان من التطويق ، بطريق قناة الماء . وفي الليل غادرا حصص وبساتينها الى قرية قريبة ، ومنها استطاعا السفر بسيارة اعدت لهما ، الى الشمال ، واجتازا

الحدود التركية ، واقاما في تركيا لاجئين سياسيين الى عام ١٩٣٧ ، اذ صدر فيه عفو عام عن جميع المحكومين والملاحقين في الثورة السورية ، لم يستثن منهم غير فوزي القاوقجي ، لانه خان بثورته في حماة الجيش الفرنسي ، وخان وسام جوقة الشرف الذي انعمت عليه به فرنسه !..

لقد فضل صاحب الطاحون في زور الجديدة ان يقتل هو لينجو من عذاب لا يحتمل ، خشية ان يعترف لجلاذيه بمخبا ضيوفه ، فكان في عمله ومروءته واخلاصه وتفانيه الدليل القاطع على ان الجنود المجهولين في الثورة السورية ليسوا الثائرين الذين قضوا بالآلوف شهداء في سبيل حرية وطنهم ، دون ان يعرفوا كلهم ، أو تذكر اسمائهم في عداد الشهداء ، أو تكتب اسمائهم في سجل الشرف ولكن الجنود المجهولين اولئك الذين وهبوا حياتهم للوطن ، وهم غير منتظمين في صفوف الثورة ، امثال صاحب طاحون الجديدة الذي أجهل اسمه ، ويعرفه بعض المحصنين أبناء بلده ، وهب حياته لانقاذ حياة ثلاثة مجاهدين لجأوا اليه في أيام عصيبة ، تطاردتهم القوات الفرنسية ليل نهار ، فكتب في تاريخ كفاح سورية أروع صفحة للتضحية والبذل والشهادة والفداء . ولعل الأجيال الصاعدة من أبناء سورية تخلد اسم هذا الجندي المجهول بنصب يقام له في إحدى ساحات مدينة حمص المجاهدة . ومن أحق من هذه المدينة بالنصب وتخليد بطل من ابطالها ، وهي المدينة التي احتضنت في منازلها عشرات الثائرين حوالي عامين ، تخفيهم ، وتقدم لهم العون ، وتسهر على سلامتهم ، وهم يخلون بالأمن ، ويقلقون راحة فرنسة ، ويقتلون متصرفها العميل ، ويقتالون جواسيسها ، ولا يخلص من اتاواتهم اغنياؤها وثراتها .

الفصل السابع عشر

إنهاء الثورة

- ٩٦ -

اما ثائرو حي الحاضر في حماة ، وعددهم حوالي عشرة ، فقد استسلموا ، بعد مفاوضات ، للسلطة الافرنسية ، في الاشهر الاولى من عام ١٩٢٧ ، وسلموا بنادقهم ، ونقلوا بالقطار الى دمشق ، فلما وصلوا الى محطة البرامكة ، وجدوا قوة من الدرك الفرنسي تنتظرهم ، نقلتهم الى السجن حيث ظلوا فيه بضعة أشهر ، ثم صدر قرار من المفوض السامي بالعفو عنهم ، فأطلق سراحهم ، وعادوا الى حماة . وكانت الثورة في هذه الفترة اخمدت في جميع مناطقها ، واستسلم اكثرية الثائرين للسلطة الافرنسية ، واضطر سلطان الاطرش وبضع مئات من الدروز الثائرين الى الجلاء مع عائلاتهم الى شرقي الأردن حيث نزلوا في مكان قريب من الحدود فيه ماء اسمه «الأزرق» ، يعتبر من أملاك الدروز قبل ان تجزأ سورية الى دويلات ، وتقام بينها الحدود المصطنعة . ولكن السلطة الفرنسية لم ترض عن بقائهم في هذا الموقع على مقربة من حدود سوريا ، وجبل الدروز ، يهددون أمن سوريا ، كلما عن لهم غزوها ومهاجمة مراكز الحكومة فيها ، لذلك كتبت الى حليفتها بريطانيا صاحبة الانتداب على فلسطين وشرقي الاردن ، تطلب منها

اجلاء الشائرين النازحين عن الأزرق، بل عن شرقي الاردن كلها ، فقامت القوات البريطانية بتطويق الدروز اللاجئين ، واندازهم اما بالجلاء عن اراضي الاردن جلاء تاماً خلال ثمان واربعين ساعة ، واما تسليم اسلحتهم كلها ، والقبول بالمكان الذي تحدده السلطة البريطانية لإقامتهم ، فأختاروا الجلاء ، وأرسلوا مندوباً عنهم الى حيفا يطلب من السيد شكري القوتلي السفر العاجل الى المماكة العربية السعودية ، ومقابلة الملك عبد العزيز آل سعود ، والسعي لديه لإصدار أمر الى عامله على قرىات الملح ، كي يسمح لهم بدخول اراضي نجد لاجئين ، والاقامة في القرىات . وعند انتهاء أجل الانذار ضرب الناثرون الدروز في صحراء الاردن متجهين الى حدود نجد حيث وجدوا عند وصولهم اليها الامر صادراً من الملك بقبولهم لاجئين . وقد ظلوا عشر سنوات في منقاهم ، يعمل رجالهم في تجارة الملح ، ينقلونه الى شرقي الاردن على الجمال ، ويبيعونه في اسواقها ، ويعتاشون من أثمانه ، ومن الإعانات الضئيلة التي كانت تصل اليهم من الجاليات الدرزية في المهجر ، حتى صدر العفو عنهم في عام ١٩٣٧ ، وعادوا الى الوطن .

الخاتمة

قبل ان اختم حديثي عن معارك الثورة السورية الكبرى التي نشبت في عام ١٩٢٥ أود ان اسجل هنا انه نشبت في موقع «عين السويس» في قرية عين ترما ظهر يوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢٦ معركة ضارية بين المجاهدين الذين كان عددهم ١٣٥ مجاهداً ، بينهم حوالي خمسين فارساً ، والبقية من المشاة - نشبت معركة بينهم وبين القوات الفرنسية التي كان أكثرها من متطوعة الشر كس منظمين بكو كباتهم المعلومة ، استشهد فيها من المجاهدين: مظهر السباعي ضابط برتبة نقيب في الجيش العثماني ثم في جيش الحجاز ، والضابط عبد القادر

مليشو من حماة ، حسن وطيفة من النبك ، خليل خباز وولده من قرية حريستا وغيرهم . وقد بلغ عدد قتلى المجاهدين خمسة وأربعين شهيداً . وخاض المعركة فوزي القاوقجي ، والأمير عز الدين الجزائري ، وزكي الحلبي ، وشوكت البائدي ، وأحمد شعبان أبو محي الدين من برزة ، وواصف عمر باشا من دمشق ، والدكتور أمين رويحة من اللاذقية ، وسعيد الاظن من دمشق ، وعبد الرحمن حمزة (الحلبي) ، وخليل بصلة من الغوطة وغيرهم . وقد فاقت خسائر الفرنسيين خسائر المجاهدين ، وقتل كبار ضباط الشركس ، منهم عثمان بك قائد متطوعة الشركس برتبة كابتن ، ورفيق بك بمثل رتبته ، وابن الجنرال فلان الفرنسي وغيرهم كثيرون .

وقد أوردت تفاصيل هذه المعركة ، كما وردت في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ، في مكان آخر من هذا الكتاب . قضيت نحو سنة في المخبأ ، وأخيراً وسط ابن عمي نجيب الرئيس رئيس تحرير جريدة المقتبس في دمشق بعض زملائه الصحفيين لدى السلطة الفرنسية لأصدار عفوي عن دون ان اسجن او اسلم بندقيتي للسلطة ، فنجحت الوساطة ، وصدر قرار من المفوض السامي بالعفو عني وأنا في دمشق اعمل في الصحافة مع ابن عمي نجيب الرئيس .

فهرست

صفحة		صفحة
٥٩	الولد إن بار ثلثاه للخال	٧
٦١	تراجع على جميع جبهات القتال	٩
٦٥	الشعور بالخطر المدام	١٩
٦٦	رحلة بالمركبات	
٦٨	الثورة العربية	
٧١	مأخذ على موقف الحسين	٢٣
	النصيحة اكدت الخطة المرسومة	٢٥
٧٦	للثورة	٢٨
٧٦	الحرب و اعلان الثورة	٣١
٧٨	اثر الثورة على الدولة العثمانية	٣٣
٧٨	من ذكريات الحرب	٣٤
٨١	سلب المحاصيل الزراعية	٣٦
٨٣	ان بعد العسر يسراً	٣٨
٨٥	اساليب الاستيلاء على الجيوب	٤١
٨٨	مع الاقطاع في القرى	٤٢
٩٠	فوزي القاوقجي ومجري التاريخ	٤٤
٩٣	العلم العربي يخفق في سماء دمشق	٤٦
٩٧	احتلال حماة وحلب	٤٨
	الفصل الثاني	٥٢
١٠٠	بلاد العدو المحتلة	٥٣
١٠٢	كدت امتهن الجندية	٥٥
		٥٧
		٥٧

صفحة

١٩٢	غلطة كادت تفسد كل شيء
١٩٦	في مجاهل البادية
١٩٩	معركة المسيفرة
٢٠٠	غارة على اطراف دمشق
٢٠٢	معركة المسيفرة فذة في تاريخ الثورة
٢٠٩	اللقاء بالشهبندر ومردم
٢١٤	مع الزعماء في دار عربي
٢٢٠	مصرع سعد الدين المؤيد
٢٢٢	انقاذ حامية السويداء
	الحصار كلف فرنسا عشرات
٢٢٤	الطائرات
٢٣٢	الفرنسيون حرقوا المعابد
٢٣٧	نشاط موقت في السويداء
٢٣٨	انسحاب السوريين الغرباء من الجبل
٢٤١	الزحف الكبير على الجبل
٢٤٣	الناشر يخوض المعركة مباشرة
٢٤٤	مما يتألف جيش غاملان؟
٢٤٦	استسلام الامير حمد
٢٤٨	احتلال قرية رساس
٢٥٠	انسحاب جيش غاملان من الجبل

الفصل السادس

٢٥٥	ثورة حماة
٢٥٦	دور القاوقجي في ثورة حماة
٢٦١	الارتجال في الثورة
٢٦٥	ضمود الشكنات الفرنسية
٢٦٩	عارض الثورة فكان ضحيتها
٢٧١	انسحاب القاوقجي من حماة

صفحة

١٠٥	لم اعدم التدريب على السلاح
١٠٦	الاحتلال الفرنسي
١٠٩	سياسة فرنسا في العلويين
١١٦	سياسة الفرنسيين في سورية الداخلية
١١٩	الثورة تعتلج في نفسي
١٢١	كيف نجا هنانو من الفرنسيين ؟
١٣٨	مقاومة الشعب للاستعمار

الفصل الثالث

١٤٢	ثورة سلطان الاولى
١٤٦	فرنسة سالت الدروز
١٤٨	تراجع فرنسا عن اتفاقيتها
١٥٢	غرامة على السويداء من أجل هرة
١٥٦	السماح بتأليف الاحزاب في سورية

الفصل الرابع

١٥٨	ريح الثورة تهب على الجبل
١٦٣	مطاردة سلطان الاطرش
١٦٥	اندلاع الثورة ومعركة الكفر
١٦٧	معركة المزرعة
١٧٣	نصر من الله
١٧٥	المعركة الفاصلة

كيف وصف الفرنسيون سحق جيشهم ؟

١٨٠	كان النصر حاسماً لولا قلة الوعي
-----	---------------------------------

الفصل الخامس

١٨٥	في الطريق الى الثورة
١٩٠	اعتقال الوطنيين في دمشق

صفحة	صفحة
٣٦١	٢٧٤ فظائع الفرنسيين في حماة
٣٦٤	٢٧٦ الثورة في معاقل الغوطة
٣٧٠	٢٧٨ معركة الزور الاولى
٣٧١	٢٨٠ الهجوم على دمشق
٣٧٤	المستعمرون يريدونها حرباً طائفية ٢٨٢
٣٧٦	ثغرات في خطة الهجوم على
٣٨١	دمشق ٢٨٦
٣٩٧	الاستيلاء على دوما والنبك
٣٩٨	وجيرود ٢٩٣
٣٩٩	اعتقال مردم وفرار الشهبندر ٢٩٧
٤٠٠	مناطق تتنكر للثورة وتقاومها
٤٠٧	استسلام رمضان شلاش للفرنسيين ٤٠٧
	الفصل السابع
	الثورة في وادي التيم واقليم البلان ٢٩٩
	حرق كوكبا ٣٠٥
	ضمان حدود لبنان ٣٠٩
	معركة راشيا واقتحام قلعتها ٣١٢
	الحياة الرتيبة في جبل الدروز ٣٢٠
	الفصل الثامن
	السفر الى الغوطة ٣٢٣
	الغوطة في مطلع عهد الثورة ٣٢٨
	الهجوم على حامية دوما ٣٣١
	قرايات تبقى حبراً على ورق ٣٣٦
	كيف شوه التاريخ؟ ٣٣٨
	معركة الزور الثانية ٣٤٢
	مصرع متطوعة الشركس في
	حمورية ٣٤٩
	الاستيلاء على مخفر باب المصلى ٣٥٤
	فرنسا تسعى لعقد هدنة ٣٦١
	معركة يلدا وبييلا ٣٦٤
	عدوان الخراط على رمضان شلاش ٣٧٠
	معركة مع المدرعات ٣٧١
	اوشج العروبة ٣٧٤
	معركة جوبر الاولى والثانية ٣٧٦
	نجوت بأعجوبة من الموت ٣٨١
	في قرية فخري البارودي ٣٩٧
	استشهاد حسن الخراط ٣٩٨
	الثائرون المؤمنون لا ينسحبون ٣٩٩
	مناطق تتنكر للثورة وتقاومها ٤٠٠
	استسلام رمضان شلاش للفرنسيين ٤٠٧
	الفصل التاسع
	خطة الزحف الى حمص ٤٠٩
	الفرنسيون يستعدون للدفاع عن
	حمص ٤١٠
	معارك مع القطر المسلحة
	والطائرات ٤١٣
	قلب النهابون نصرنا هزيمة ٤٢٢
	الطمع بالنهب سبب الهزيمة ٤٢٩
	النفوري نهب مواشي دير عطية ٤٣٣
	قيادة الثورة ليست على مستوى
	الأحداث ٤٣٥
	امير السيف والقلم يعتقلنا ٤٤٨
	حذاء الزعيم زعيم الاحذية ٤٥٥

الفصل العاشر

- النشاط يعود الى الغوطة ٤٥٧
 النهابون اعداء التنظيم ٤٦٢
 عدوان الفرنسيين على حي الميدان ٤٦٥
 تخريب الخط الحديدي بين دمشق
 وحوران ٤٦٦
 تنظيم الثورة يرهب الفرنسيين ٤٦٧
 فرنسة تفاوض الثائرين بصورة
 غير مباشرة ٤٧٠
 حملة «ماسيت» تباغت ثم تستنجد ٤٧١
 الفرنسيون يعترفون بحصار دمشق ٤٧٥

الفصل الحادي عشر

- التآمر على خطتنا في قلمون ٤٧٨
 نخطط للقتال والنفوري يخطط
 للنهب ٤٨٤
 نحن لا نقاتل الا مع زعمائنا ٤٨٨
 للوطن رجال نذروا انفسهم ٤٨٩
 الاستبسال في الدفاع عن النبك ٤٩٩
 بنام المرء منتصبا وما شيا على قدميه ٥٧٠
 القرى التي كانت تخشانا انقلبت
 علينا ٥١٠

الفصل الثاني عشر

- اثر اخماد الثورة في الريف ٥١٤
 مصرع الكولونيل «فرن» ٥١٥
 غامرت ودخلت لوحدي دمشق ٥١٧

- كاد الفقر أن يكون كفرا ٥٢٤
 مع الدبابات في قصف برزة ٥٢٧
 اخلاء آخر مخفر افرنسي في الغوطة ٥٣٢
 هدنة بين الثائرين والدرك في دوما ٥٣٣
 الشهبندر يحاول تنظيم الثورة ٥٣٥

الفصل الثالث عشر

- اذا كانت النفوس كباراً ٥٣٩
 خطة جهنمية لسحقنا والقضاء علينا ٥٤٦
 سير في الجبال دون دليل ٥٥٠
 لقاء انسانا مشاق الطريق واهوالها ٥٥٢
 غزو مدينة حمص ٥٥٩
 التحرش والغدر بالعصابة ٥٦٣
 الميت الحي ! ٥٦٨
 الحي ليس له قاتل ! ٥٦٩
 اقتلني ان كنت صديقي ! ٥٧٣
 جندي عربي يفدي ثائرين بروحه ٥٧٤
 حتى زين مرعي بدل نظرتة الينا ! ٥٨١
 يحجي العظام وهي رميم ! ٥٨٤

الفصل الرابع عشر

- ثورة الضنية تهدد طرابلس ٥٨٦
 زحف الفرنسيين للقضاء على ثورة
 اكروم ٥٨٧
 وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة ٥٩٤
 النصر المؤزر على العدو ٥٩٩
 اثر النصر على المناطق المجاورة ٦٠٨

صفحة	صفحة
٦٤٢ التطويق كما وصفه الفرنسيون	جاسوس يدل الفرنسيين على
٦٤٤ مصرع مريود والعسلي	٦١٣ موقعنا
٦٤٥ دور الشراكسة في الجيش الفرنسي	الفصل الخامس عشر
٦٥٥ عصابة تستقر سنتين في مدينة حمص	النزوح والتعرض للوقوع بيد
٦٥٧ مصرع عبد الله الشر كسي بعد المللكي	الفرنسيين
٦٦١ الجندي المجهول	٦١٥ النجاة والوصول الى حمص
الفصل السابع عشر	٦٢٦ كدنا نقع بالفخ !
٦٦٤ انتهاء الثورة	٦٢٩ الفصل السادس عشر
٦٦٥ الخاتمة	تطويق الغوطة
٦٦٧ الفهرست	٦٣٧



صدر حديثاً :

مذكرات وسير ذاتية

الامير شبيب ارسلان

سيرة ذاتية

طالب مشتاق

اوراق ايامي

ساطع الحصري

مذكرات ساطع الحصري

الجزء الأول ١٩٢١ - ١٩٢٧

الجزء الثاني ١٩٢٧ - ١٩٤١

طه الهاشمي

مذكرات طه الهاشمي ١٩٢٠ - ١٩٤٣

محمد مهدي كبة

مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٨ - ١٩٥٨

محمد جميل بيهم

العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ - ١٩٢٢

صبيح علي غالب

قصة ثورة ١٤ تموز والضباط الاحرار

طبع في



٢٣١ / ٢٠٠٠

هَذَا الْكِتَابُ

مذكرات ذاتية كتبها المجاهد الاستاذ منير الرئيس صاحب جريدة « بردي » في دمشق عن الاحداث التي رافقت حياته ، وتعتبر نضالاً مستمراً : بالسيف في ثلاث ثورات مسلحة اشترك بنفسه فيها : وبالقلم اذ عمل بضع وثلاثين سنة في ميدان الصحافة العربية .

تأتي هذه المذكرات في « الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي » ، بعدة اجزاء يعتبر كل جزء منها مستقلاً عن الآخر باحداثه ومواضيعه ، وهي في جملتها تاريخ صادق للثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، و ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، و ثورة العراق عام ١٩٤١ ، ولل قضية السورية خاصة ، والعربية عامة منذ مطلع القرن العشرين الى يومنا هذا .

ويسر دار الطليعة ان تقدم للمكتبة العربية ولل قراء الكتاب الاول عن الثورة السورية الكبرى وملاحمها ومعاركها .

Bibliotheca Alexandrina



0726838

الضمن : ١٢ ل . ل .

١٥ ل . س .

دَارُ الطَّلِيْعَةِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ

بَیْرُوت